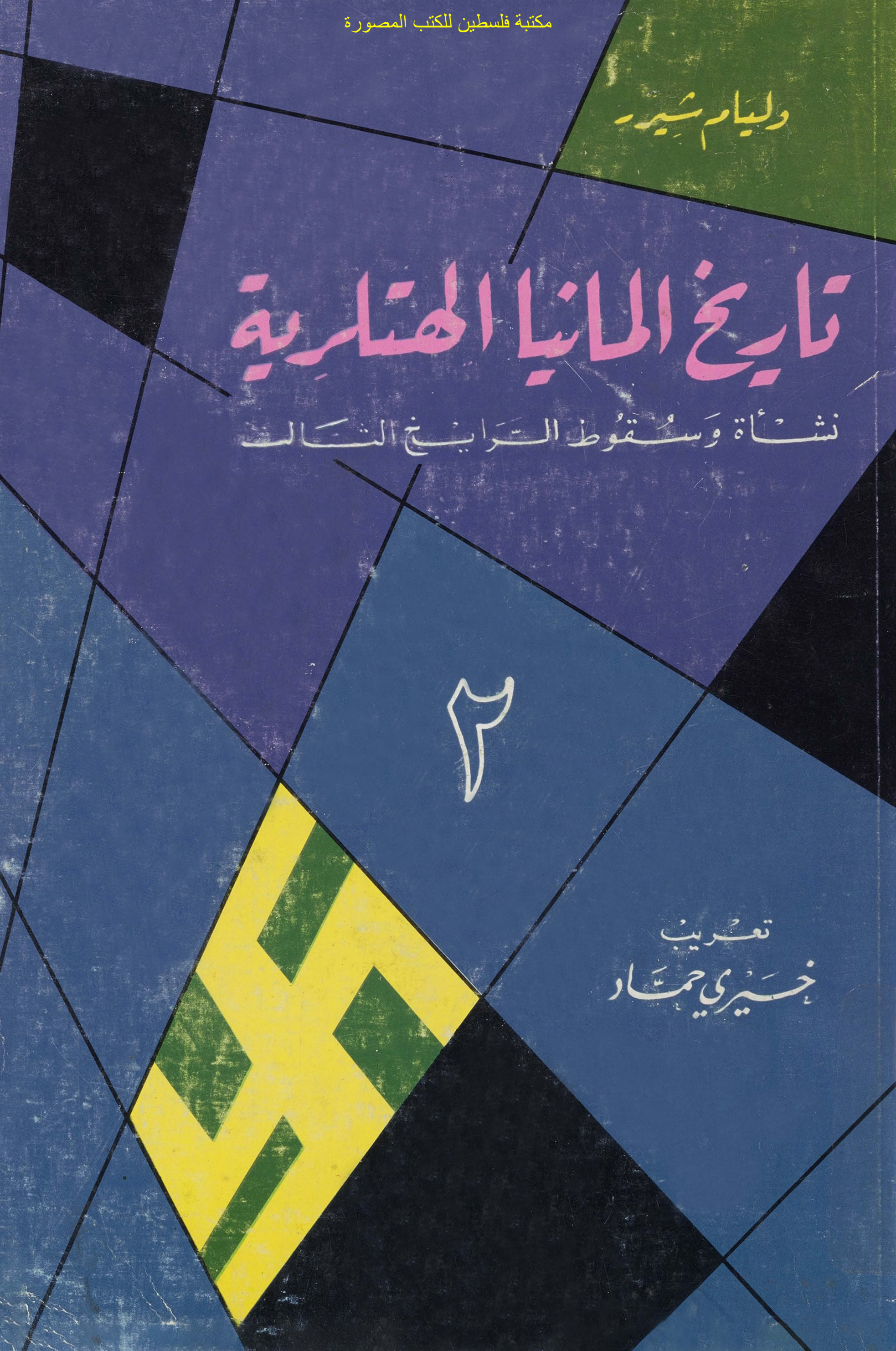


مكتبة فلسطين للكتب المصورة
وليام شيرر
تاريخ ألمانيا الهتلرية
نشأة وسقوط الرايخ الثالث
٢
تعريب
خيري حماد

هذا الكتاب

قد يكون أدولف هتلر آخر حلقة في سلسلة الفاتحين المغامرين العظام من أمثال الإسكندر وقيصر ونابليون .. وقد يكون الرّايخ الثالث آخر الامبراطوريّات التي شهدها العالم .. ولكن الفترة التي شهدت ارتفاعها وسقوطها - هتلر والرايخ الثالث - رغم قصر مدّتها، (١٩٣٣ - ١٩٤٥) تعد بحقّ أخطر فترة شهدها التاريخ عبر قرونه الطويلة.

ومؤلف هذا الكتاب صحفي عالمي ذائع الصّيت ، عاش على مسرح الأحداث منذ بدايتها ، وكان آخر صحفي غادر ألمانيا عند نشوب الحرب العالمية الثانية ، وهو أقدر من يؤرّخ لهذه الفترة الخطرة التي هزّت العالم من أقصاه إلى أقصاه ، ويكشف أدقّ أسرارها ، وعلى الأخصّ ، بعد أن اطلع على أطنان الوثائق والمستندات وراجع مئات الكتب والمجلدات ، إثر انهيار الرايخ الثالث ووقوع كل أسراره ووثائقه في أيدي المنتصرين .

لقد احتلّ هذا الكتاب مكان الصّدارة في العالم ، وظل أكثر الكتب رواجاً منذ ١٩٦١ إلى يومنا هذا .. وقد نقلناه إلى العربيّة في ترجمة بارعة أمينة ، ضمن أربعة أجزاء ، لكي يكون مرجعاً ثميناً للقراء العرب من أبناء هذا الجيل والأجيال القادمة .

منشورات مكتبة المثنى - بغداد

٢

تاريخ ألمانيا الهتلرية

وليام شيرر



نشأة وسقوط الرايخ الثالث

تعريب

خيري حماد

منشورات مكتبة المثنى - بغداد

THE RISE AND FALL OF THE THIRD REICH

* * *

A History of NAZI Germany

by

William L. Shirer.

الطبعة الأولى

آب (اغسطس) ١٩٦٢

القسم الثاني

الكتاب الثالث

الطريق إلى الحرب

الكتاب الثالث

الطريق إلى الحرب

٩

الخطوات الأولى

١٩٣٧ - ١٩٣٤

تميزت خطة هتلر واساليبه في السنتين الأوليين بالإكثار من التحدث عن السلام ، والاستعداد سراً للحرب ، والسير بحذر شديد في السياسة الخارجية والتسلح السري ، لتجنب أية اجراءات عسكرية وقائية من دول فرساي ضد المانيا .

وقد كبا كبوة سيئة في قضية اغتيال النازيين للمستشار النمسوي دلفوس ، في فيينا في الخامس والعشرين من تموز عام ١٩٣٤ ، اذ اقتحم نحو من مائة واربعة وخمسين جندياً من الفئة التاسعة والثمانين من الحرس النازي ،يرتدون زي الجنود النمسويين ، دار المستشارية الاتحادية النمسوية واطلقوا النار على دلفوس على مسافة قدمين فأصابوه في عنقه . واستولت قوة أخرى من النازيين على دار الاذاعة التي تبعد مسافة قصيرة عن دار المستشارية واذاعوا النبأ القائل بأن دلفوس قد استقال . وتلقى هتلر النبأ وهو يستمع في مهرجان واغنر في بايروت الى اوبرا الموسيقار الكبير «داس راينغولد» Das Rheingold . وأثاره النبأ اثارة شديدة ، وشهدت فريديليند واغنر ، حفيدة الملحن العظيم ، الجالسة في مقصورة الاسرة المجاورة ، علائم التأثر على الفوهرر ،وروت فيما بعد ان المرافقين العسكريين شاوب وبروكنر ، ظلا على اتصال بالهاتف مع فيينا من غرفة ملاصقة لمقصورتها ، يتلقيان الانباء ليهمسا بها في اذن هتلر .

« وعندما انتهى تمثيل الأوبرا ، كان الفوهرر في غاية التأثر ، وقد بلغ هذا التأثر منتهاه عندما نقل إلينا الانباء الفظيعة ... وعلى الرغم من محياه ، الا انه اصدر أمره ، بكل حرص وحذر ، باعداد العشاء في المطعم كالمعتاد .

« وسمعته يقول : « يجب ان امضي لمدة ساعة على الاقل لأظهر نفسي، مخافة ان يعتقد الناس ان لي ضلعاً فيما حدث » [1]

ولو ظن الناس هذا الظن ، لما اخطأوا كثيراً . فعلينا ان نذكر انه في الفقرة الأولى من كتابه «كفاحي» ، ذكر بوضوح ان اتحاد النمسا والمانيا « مهمة يجب العمل من اجلها بكل الوسائل التي تتيحها الحياة لنا » . وبعد وصوله الى منصب المستشارية، انتدب احد نواب الرايشستاغ ويدعى «تيودور هابيخت » ، مفوضاً للحزب النازي النمسوي ، كما عهد الى «الفريد فروينفلد» الزعيم النمسوي المبعد تلقائياً الى المانيا، بالاقامة في ميونيخ ، والبث من اذاعتها في كل مساء محرضاً رفاقه في فيينا على قتل دلفوس. وكان النازيون النمسويون في الاشهر التي سبقت تموز عام ١٩٣٤ ، قد فرضوا ، مستعينين بالاسلحة والمتفجرات التي تلقوها من المانيا ، حكماً من الارهاب في البلاد... ينسفون السكك الحديدية ومحطات توليد القوة الكهربائية ودور الحكومة، ويقتلون مؤيدي عهد دلفوس الاكليركي الفاشي . ووافق هتلر اخيراً على تشكيل فرقة نمسوية تعد بضعة آلاف من النازيين ، وترابط على الحدود النمسوية داخل بافاريا ، على اهبة عبور الحدود لاحتلال البلاد في اللحظة المواتية .

وتوفي دلفوس متأثراً من جراحه حوالي الساعة السادسة مساء ، ولكن الانقلاب النازي ، مني بالفشل من جراء تهاون المتآمرين الذين استولوا على دار المستشارية . وسرعان ما تمكنت قوات الحكومة يقودها الدكتور كورت فون شوشنيغ ، من السيطرة على الوضع . واعتقلت الثائرين ، على الرغم من وعدها لهم بالنجاة الى المانيا اثر وساطة الوزير الالماني المفوض ، فقضي على ثلاثة عشر منهم بالاعدام ونفذ فيهم الحكم فعلاً . وكان موسوليني الذي اجتمع اليه هتلر قبل نحو من شهر في البندقية ، واعداً اياه بعدم المساس بالنمسا ، قد اثار شيئاً من

١ ــ فريديليند واغنر ــ تراث النار ص ١٠٩

القلق في برلين ، باقدامه على تعبئة اربع فرق عند ممر برينر .

وسرعان ما تراجع هتلر . وصدرت الاوامر بسحب الرواية التي كانت قد اعدت لتتولى وكالة الانباء الالمانية الرسمية (D.N.B) اذاعتها معلنة الابتهاج بسقوط دلفوس ، وبقيام المانيا الكبرى التي كان من المحتوم قيامها ، عند منتصف الليل ، واستعيض عنها برواية اخرى تعرب عن الاسف « لحادث القتل الفظيع » ، وتعلن ان الحادث نمسوي صرف . واقيل هابيخت من منصبه ، واستدعي الوزير الالماني المفوض من برلين ليصرف من الخدمة ، وسارع هتلر بايفاد فون بابن ، الذي نجا نفسه من الموت بأعجوبة قبل نحو من شهر اثناء عملية تطهير روهم ، ليعيد ، كما أمره « العلاقات العادية والودية » مع النمسا .

وحل الخوف في نفس هتلر ، محل احساسه الأول بالحماس والفرح . ويقول بابن ان هتلر هتف به قائلاً عندما اجتمع الرجلان للبحث في الوسائل التي يمكن بها التغلب على الازمة ... « اننا نواجه الآن سيراجيفو ثانية »[1] . ولكن الفوهرر ، وعى درساً من هذه التطورات ، فلقد كانت محاولة الانقلاب الفاشل في فيينا مماثلة في عدم نضوجها لمحاولة الانقلاب الفاشل في حانة الجعة في ميونيخ في عام ١٩٢٣ . فألمانيا لم تكن قد غدت بعد على نحو من القوة العسكرية ، يمكنها من دعم مثل هذه المغامرة بقوة السلاح . وكانت بالاضافة الى هذا معزولة من الناحية الدبلوماتية كل العزلة . فحتى ايطاليا الفاشية قد اشتركت مع بريطانيا وفرنسا في الاصرار على بقاء استقلال النمسا . يضاف الى هذا ان الاتحاد السوفياتي كان قد ابدى اهتماماً لأول مرة في فكرة تدعو الى الاشتراك مع الغرب في عقد ميثاق لوكارنو جديد لشرق اوروبا ، يعمل على تثبيط عزيمة المانيا ومنعها من القيام بأية حركة باتجاه الشرق . ولم يحل خريف ذلك العام أي عام ١٩٣٤ ، حتى كان الاتحاد السوفياتي قد انضم الى عصبة الأمم . وبدت آمال

---

١ ــ فون بابن ــ مذكرات ــ ص ٣٣٨ . المؤلف . والمقصود بسيراجيفو هناك اسم البلدة التي اغتيل فيها ارشيدوق النمسا في عام ١٩١٤ ، والتي كان حادثها الشرارة المباشرة لاشعال نيران الحرب الكونية الاولى . ــ المعرب ــ

المانيا في ايقاع الفرقة والخلاف بين الدول الكبرى، طيلة هذا العام، اكثر مدعاة الى التشاؤم من أي وقت مضى . وكان كل ما في وسع هتلر ان يفعله هو ان يواصل التبشير بالسلام . وان يمضي في تسلّحه السري ، منتظراً حدوث الفرص المواتية ومترقباً لها .

وكانت لدى هتلر وسيلة اخرى بالاضافة الى وسيلة الرايشستاغ يستطيع ان يلجأ اليها لنقل دعايته السلمية الى العالم الخارجي ، وهي وسيلة الصحافة الاجنبية التي كان مراسلوها ورؤساء تحريرها وناشروها ، يتوقون باستمرار الى عقد مقابلات صحفية معه . وكان هناك وورد برايس (Ward Price)الصحفي الانكليزي ذو « المونوكل » وصحيفة الديلي ميل اللندنية ، وهما على استعداد لدى أية اشارة ، لتوفير الفرصة التي يريدها الديكتاتور الألماني . وهكذا أعلن هتلر لبرايس في شهر آب عام ١٩٣٤ ، في احدى مقابلاته الصحفية معه والتي قدر لها ان تستمر في سلسلة متلاحقة حتى عشية الحرب الكونية ، واعلن لقراء برايس عن طريقه ، « ان الحرب لن تقع ثانية »، وان المانيا « اكثر ادراكاً من غيرها لما تسببه الحرب من شرور » ، وان مشاكل المانيا « لا يمكن ان تحل عن طريق الحرب » .[1]وعاد فكرر هذه العواطف المشرقة في الخريف الى جان غوي، احد زعماء منظمات المحاربين القدماء في فرنسا وعضو مجلس النواب، الذي نقلها الى الشعب الفرنسي في المقال الذي نشره في صحيفة « الماتان » الباريسية [2]

نقض معاهدة فرساي

وتابع هتلر في غضون ذلك ، بحماس غير منقطع، برنامجه لبناء القوات المسلحة وتزويدها بالسلاح . وصدر الأمر للجيش في الأول من تشرين الأول عام ١٩٣٤، بأن يرفع رقم جنوده الى ثلاثة اضعاف أي من مائة الف الى ثلاثمائة الف، وأوعز الى

١ــ الديلي ميل عدد ٦ آب (أغسطس)) ١٩٣٤ .
٢ــ الماتان عدد ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٤

الفريق لودفيغ بيك، رئيس اركان الحرب في شهر نيسان من العام نفسه، بأن الفوهرر سيعلن في الأول من نيسان المقبل التجنيد الالزامي، ويجهر، بنقضه للبنود العسكرية في معاهدة فرساي. [١] ولكن الى ان يصدر هذا الاعلان، فالمطلوب الاحتفاظ به بمنتهى السرية. وصدرت التعليمات لغوبلز بأن لا يسمح مطلقاً للصحف باستعمال عبارة «اركان الحرب» لأن معاهدة فرساي تمنع وجود مثل هذه الهيئة. وأوقف اصدار القائمة السنوية الرسمية، بأسماء ذوي الرتب العسكرية منذ عام ١٩٣٢ مخافة ان تشي القوائم المتضخمة باسماء الضباط بحقيقة ما هو واقع، لدوائر المخابرات الاجنبية. وأوعز الفريق فون كايتل، رئيس اللجنة التنفيذية لمجلس دفاع الرايخ، الى مساعديه في الثاني والعشرين من ايار (مايو) عام ١٩٣٣ بقوله: «يجب ان لا تفقد أية وثيقة خطية، مخافة وقوعها في أيدي دعاية العدو وانتفاعه منها. فليس ثمة من سبيل لإقامة البرهان على الاوامر الشفوية، ولكن في الامكان نفيها بسهولة» [٢].

وصدر التحذير للاسطول ايضاً بوجوب لزوم جانب السرية. ودار حديث طويل في حزيران عام ١٩٣٤ بين هتلر والاميرال ريدر الذي دوّن في يومياته عنها ما يلي: «تقضي تعليمات الفوهرر بأن لا يذكر أي شيء عن قطع الخمسة والعشرين أو الستة والعشرين الف طن، وان يقتصر الحديث عن التحسين في وحدات العشرة الاف طن ... ويطلب الفوهرر اقصى الكتمان في موضوع انشاء الغواصات» [٣]

فلقد شرع الاسطول في بناء طرادين - بارجتين حمولة الواحد منهما ستة وعشرون الف طن أي بزيادة ستة عشر الفاً على الحد الذي نصت عليه معاهدة فرساي، وقد اطلق عليهما فيما بعد اسم شارنهورست وغنيزناو. وكان بناء الغواصات التي حظرت معاهدة فرساي وجودها، يتم في عهد الجمهورية الالمانية في كل من فنلنده وهولنده واسبانيا. وكان ريدر قد اختزن في كييل قبل قليل، هياكل

١ـ وولفغانغ فوريستر «جنرال يكافح ضد الحرب» ص ٢٢ يستند هذا الكتاب الى اوراق الفريق بيك الخاصة.

٣ـ المؤامرة النازية والعدوان (٧) . . ص ٣٣٣

٣ـ المؤامرة النازية والعدوان (١) . . ص ٤٣١

اثنتي عشرة غواصة واجزاءها . وعندما قابل هتلر في تشرين الثاني عام ١٩٣٤، طلب اليه السماح بتجميع ست منها «لتكون على اهبة عندما تنشب الازمـة في لربع الأول من عام ١٩٣٥ » . (ويبدو واضحاً انه عرف مسبقاً بما يعتزم ان يفعله هتلر في ذلك التاريخ) . ولكن الفوهرر رد عليه قائلاً : «بأنه سيبلغه، عندما يتطلب الوضع، الشروع في عمليات التجميع »[١]

واشار ريدر الى هتلر في هذا الاجتماع ايضاً ، بأن برنامج بناء السفن الحربية (دون أي ذكر لبلوغ عدد رجال البحرية ثلاثة اضعاف العدد المقرر بمعاهدة الصلح) ، يتطلب اموالاً ليست متوافرة لديه ، ولكن هتلر طمأنه وطلب اليه ان لا يساوره القلق ، وقال : « وفي حالة تطلب الحاجة سأحمل الدكتور لي على ان يضع تحت تصرف الاسطول مبلغاً يتراوح بين مائة وعشرين مليوناً ، ومائة وخمسين مليوناً ، من موازنة جبهة العمل ، وذلك لأن هذا المبلـغ يكون نافعاً للعمال ايضاً » [٢] . وهكذا بات واضحاً ان رسوم العمال الالمان ستستخـدم في تمويل البرنامج البحري .

واشتغل غورنغ في السنتين الأوليين ايضاً في بناء السلاح الجوي . فقـد عهد بوصفه وزيراً للطيران ـ الطيران المدني في الظاهر ـ الى المصانع بوضع التصـاميم للطائرات الحربية ، وبدأ تدريب الطيارين العسكريين فوراً تحت ستار « عصبة الرياضات الجوية » .

وكان في وسع كل من يقوم بزيارة حوضي الروهر والراين الصناعيـين في هذه الآونة ، ان يلحق به الذهول من جراء النشاط الهائل الذي تقوم به مصانـــع السلاح ، ولا سيما مصانع كروب شيخ صناعة المدافع الألمانية منذ اكثر مـــن ثلاثة ارباع القرن.. ومصانع فاربين، وهو الاحتكار الكبير للصناعة الكيمياوية. وعلى الرغم من ان الحلفاء كانوا قد منعوا كروب بعد عام ١٩١٩، من مواصـــلة العمل في صناعة الاسلحة الا أن الشركة لم تقف مكتوفة الايدي مطلقاً . وقـد

١ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) .. ص ١٠١٨

٢ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) .. ص ١٠١٨

تبجح كروب في عام ١٩٤٢ ، بعد ان احتلت الجيوش الألمانية معظم انحاء اوروبا ، «بأن تخطيط المبدأ الأساسي للتسليح ورسم تصاميم الدبابات قد نفذا في عام ١٩٢٦ ، وان معظم المدافع التي استخدمت في حروب ١٩٣٩ - ١٩٤١ قد تم اكمالها في ١٩٣٣ » . وكان علماء مؤسسة فاربن قد انقذوا المانيا من كارثة مبكرة في الحرب الكونية الأولى باختراعهم طريقة لصنع النترات الصناعية (Synthetic Nitrates) من الهواء، بعد ان توقف تزويد البلاد بالنترات الطبيعية من تشيلي بفعل الحصار البحري البريطاني على المانيا . وقد شرع هذا الاحتكار الآن ، وفي ظل هتلر ، يعمل جاهداً لضمان اكتفاء المانيا الذاتي من مادتين اساسيتين لا يمكن خوض أية حرب عصرية بدونهما وهما الغازولين والمطاط اللتان تحتاج المانيا الى استيرادهما من الخارج . ولقد تمكن علماء الشركة من حل مشكلة صناعة الغازولين الصناعي من الفحم ، منذ اواسط حقبة العشرين . وقد اوعزت الحكومة النازية بعد عام ١٩٣٣ ، الى شركة فاربن بالمضي في طريقها هذه، وأمرتها بأن تزيد من انتاجها ليصل حدود الثلاثمائة الف طن من الغازولين في عام ١٩٣٧ . وكانت الشركة في ذلك الحين قد تمكنت ايضاً من ابتكار المطاط الصناعي من الفحم وغيره من المواد المتوافرة في المانيا . وتم انشاء اول مصنع من المصانع الضخمة الاربعة التي تقرر بناؤها في شكوباد لانتاج المطاط الصناعي او ما يسمى « بونا » على نطاق واسع . ولم يحل مطلع عام ١٩٣٤ حتى كانت اللجنة التنفيذية لمجلس دفاع الرايخ قد وافقت على تجنيد نحو من (٢٤٠) الف مصنع لتلقي الطلبات العسكرية . ولم تحل نهاية ذلك العام حتى كان انتاج الاسلحة في مختلف صورها واشكالها قد بلغ حداً من الضخامة بحيث اصبح من الواضح ان ليس في الامكان اخفاؤه عن عيون دول فرساي التي خيم عليها القلق والشك .

وكانت هذه الدول بزعامة بريطانيا العظمى تتغزل في هذه الآونة بفكرة الاعتراف بالتسلح الالماني كأمر واقع، لا سيما وان هذا التسلح لم يكن سراً بالنسبة اليها كما توهم هتلر . وكانت على استعداد لتقبل التكافؤ مع المانيا في السلاح مقابل انضمام هتلر الى تسوية اوروبية عامة تضم ميثاقاً شرقياً كميثاق لوكارنو يؤمن للدول

الشرقية ، ولا سيا روسيا وبولندة وتشيكوسلوفاكيا ، نفس الضمانات التي حصلت عليها الدول الغربية ، بموجب ميثاق لوكارنو ، كما يؤمن لألمانيا في الوقت نفسه ضمانات مماثلة . وقد اقترح السير جون سيمون وزير خارجية بريطانيا في ايار عام ١٩٣٤ ، وهو الذي قدر له ان يكون السابق لنيفل تشمبرلين في عجزه عن فهم عقلية هتلر ، ان تمنح المانيا حق المساواة في التسلح، ولكن الفرنسيين رفضوا الفكرة ، رفضاً باتاً وحازماً .

وعادت الحكومتان البريطانية والفرنسية فجددتا في مستهل شهر شباط عام ١٩٣٥ ، اقتراحاتها بايجاد تسوية اوروبية عامة تنطوي على مساواة في التسلح وعقد ميثاق كميثاق لوكارنو لدول شرق اوروبا . وكان سكان منطقة السار قد اقترعوا قبل نحو من شهر أي في الثالث عشر من كانون الثاني ، بشكل يبلغ حد الاجماع اذ جاءت النتائج مبينة ان (٤٧٧) الفاً قد اقترعوا مع عودة بلادهم الصغيرة الغنية بالفحم الى الرايخ مقابل (٤٨) الفاً عارضوا في هذه العودة . واهتبل هتلر هذه الفرصة ليعلن على الملأ ان المانيا لم يعد لها أية مطامع اقليمية في فرنسا ، رامزاً بذلك الى تخلي المانيا عن مطالبتها بالألزاس واللورين . وهكذا قدمت الاقتراحات البريطانية الفرنسية ، بصورة رسمية ، في هذا الجو من التفاؤل الذي خلقته عودة السار السلمية الى المانيا وتصريحات هتلر الودية ، الى حكومة الرايخ في مستهل شباط عام ١٩٣٥ .

وكان رد هتلر الذي بعث به في الرابع عشر من شباط ، غامضاً بعض الغموض ، وهذا أمر مفهوم من وجهة نظره . فقد رحب بالمشروع الذي يضمن لألمانيا الحرية في العودة الى التسلح ، ولكنه تهرب من اعلان رغبة المانيا في توقيع اتفاق كاتفاق لوكارنو لشرق اوروبا . فلقد كان مثل هذا الميثاق يقيد يديه في المنطقة الاساسية التي طالما بشر بأنها المجال الحيوي لألمانيا . وتساءل هتلر ، عما اذا لم يكن في وسعه ان يفصل بريطانيا عن فرنسا في هذه القضية ، لا سيا وان فرنسا بالنسبة الى مواثيق المساعدة المتبادلة التي عقدتها مع بولندة وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا ، اكثر اهتماماً بالسلامة في الشرق . ولا ريب في ان

هتلر ، قد فكر في هذا الاتجاه ، اذ انه في رده الحذر اقترح ان تسبق المحادثات الثنائية أية مباحثات عامة في الموضوع . ودعا بريطانيا الى ايفاد من تريد الى برلين لاجراء محادثات اوّلية . وقبل السيرجون سيمون الدعــوة ، واتخذت الترتيبات لعقد اجتماع في برلين في السادس من آذار . ولكن قبل يومين من هذا الموعد ، اثار كتاب ابيض نشر في بريطانيا،موجة من السخط في الولهلمشتراسه. ولا ريب في ان الكتاب الابيض هذا قد ترك انطباعاً عنــد معظم المراقبين الاجانب في برلين ، بأنه يعتبر ملاحظة جدية من جانب بريطانيا عــلى تسلح المانيا الخفيّ ، الذي دفعت سرعته الحكومة البريطانية الى اعلان زيادة متواضعة في برامج تسلحها . ولكن الانباء توافرت عن ثورة هتلر العنيفة على هــذا الكتاب .وسرعان ما نقل نوراث الى سيمون عشية اعتزامه السفر الى برلين أنباء اصابة الفوهرر « بالزكام » مما يقتضي تأجيل المحادثات .

وسواء اصح مرض هتلر او لم يصح؛فان مما لا شك فيه ان الفوهرر قد تعرّض الى زوبعة فكرية . ولا ريب في انه كان سيشعر حتماً بالضيق اذا رأى سيمون وإيدن الى جانبه عند رغبته في تحويل هذه الزوبعة ، الى عمل جريء جسور . وخيل اليه انه عثر على المبرّر لتوجيه الضربة القاضية الى « إملاءات » فرساي . اذ كانت الحكومة الفرنسية قد سنّت قانوناً يقضي بتمديد فترة الخدمة العسكرية من ثمانية عشر شهراً الى سنتين بسبب النقص في عــدد الشبان الذين ولدوا في الحرب الكونية الأولى . واطلق هتلر في العاشر من آذار ، منطاداً للتجربة ، ليختبر ما عند الحلفاء من معدن القوة ويجسّ نبضهم . واستدعي وورد برايس ، المتأهب للخدمة دائماً ، لمقابلة غورنغ ، الذي اعلن له رسمياً ، ما كان العالم بأسره يعرفه ، من وجود قوة جوية عسكرية عند المانيا . وانتظر هتلر، وهو مطمئن، رؤية رد فعل لندن لهذا النقض من جانب واحد لمعاهــدة فرساي . وجاءت النتيجة كما توقعها، اذ اعلن السيرجون سيمون، في مجلس العموم، انه لا يزال يرقب الفرصة للذهاب الى برلين .

وأصدر المستشار يوم السبت في السادس عشر من آذار ، جرياً على عادته في الطلوع بجميع مفاجئاته في أيام السبت ، قانوناً يقضي بفرض الخدمة العسكرية الالزامية العامة ، وينص على وجود جيش دائم في اوقات السلم يضم اثني عشر فيلقاً اي ستاً وثلاثين فرقة قوامها نصف مليون رجل . وعنى هذا القانون نهاية القيود العسكرية لمعاهدة فرساي ، إلا اذا بادرت بريطانيا وفرنسا الى اتخاذ اجراءات معاكسة فورية . ولكن هاتين الدولتين أكتفتا كما توقع هتلر ، بالاحتجاج دون ان تتخذا أي اجراء . وتبياناً للحقيقة ، واقراراً للواقع اقول ان بريطانيا سارعت تسأل هتلر عمّا اذا كان لا يزال على استعداد لاستقبال وزير خارجيتها وهو سؤال رحّب الديكتاتور فرحاً بالاستجابة اليه استجابة ايجابية.

واعتبر يوم الأحد في السابع عشر من آذار ، عيداً عاماً في المانيا احتفل فيه الشعب، الذي طغت عليه موجة من الفرح، احتفالاً منقطع النظير، فلقد مزق الفوهرر قيود فرساي التي ترمز الى هزيمة المانيا واذلالها . ومهما بلغت الكراهية التي يحملها أي الماني لهتلر وحكمه الشبيه بحكم قطاع الطرق من مدى، فإنه—أي هذا الألماني — يجد نفسه مرغماً على الاعتراف بأن الفوهرر قد حقق ما لم تكن لتجرؤ على القيام به أية حكومة جمهورية . ورأى معظم الألمان ان هذا العمل قد اعاد للبلاد شرفها و كرامتها . وكان ذلك اليوم ايضاً تاريخ الذكرى السنوية ليوم الابطال (Heldengedenktag) . ومضيت الى الاحتفال الذي اقيم ظهر ذلك اليوم في دار الاوبرا الرسمية ، وشهدت فيه منظراً لم تشهد المانيا مثيلاً له منذ عام ١٩١٤ . فقد امتلأت الصالة الارضية كلها بحشد من البزّات العسكرية ، التي تجمع بين الملابس الرمادية الباهتة والخوذ المدببّة لضباط الجيش الامبراطوري القديم وبين البزات الجديدة للجيش الجديد ، ومعها الملابس الزرقاء التي يرتديها ضباط السلاح الجوي (اللوفتواف Luftwaffe) ، والتي لم يرها الا القليلون جداً قبل ذلك اليوم . وجلس الى جانب الفوهرر ، المشير فون ماكنزن ، آخر

الماريشالات الاحياء من جيش القيصر ، مرتدياً بزهو و كبرياء ، زي فرسان الهوسار . وسطعت اضواء قوية على المسرح ، حيث وقف لفيف من الضباط الشبان ، كالتماثيل الرخامية يرفعون عالياً اعلام الأمة الحربية . وظهر وراءهم على ستارة هائلة ، صليب حديدي ضخم يجمع بين بياض الفضة وسواد الحديد . وكانت الغاية الظاهرة من هذا الاحتفال ، تكريم ابطال المانيا الأموات ، ولكنه تحول الى احتفال مرح بوفاة فرساي ، وبعث الجيش الألماني المجند .

وكان في وسع المرء ان يرى بسهولة ، علائم الفرح مرتسمة على وجوه فرقاء الجيش . فلقد فوجئوا كغيرهم من الالمان بقرار هتلر ، الذي قضى بضعة الايام السابقة الاخيرة ، في ملاذه الجبلي في برختسغادن ، ولم يكلف نفسه عناء ابلاغهم بحقيقة ما انتواه . وقد ذكر الفريق فون مانشتاين في شهادته مؤخراً في نورمبرغ انه مع قائده الجترال فون ويتزليبين قائد المنطقة العسكرية الثالثة في برلين ، لم يسمعا القرار الا عن طريق الاذاعة في السادس عشر من آذار . ولو كان حق الخيار لأركان الحرب ، لآثروا جيشاً اصغر من الجيش الذي اعلنه هتلر ، في البداية .

ولقد شهد مانشتاين قائلاً : « ولو سئل اركان الحرب ابداء الرأي ، لأشاروا بجيش يضم احدى وعشرين فرقة... أما رقم الفرق الست والثلاثين، فقد نجم عن قرار هتلر الذاتي » [1] .

وصدرت عن الدول الأخرى في هذه اللحظة سلسلة من اشارات الإنذار الفارغة موجهة الى هتلر . فقد اجتمع ممثلو بريطانيا وفرنسا وايطاليا في ستريزا في الحادي عشر من نيسان ، واستنكروا عمل المانيا ، وكرروا تأييدهم لاستقلال النمسا ولميثاق لوكارنو. واعرب مجلس عصبة الأمم المتحدة في جنيف ايضاً ، عن استيائه من عمل هتلر العجول المتهور، وانتدب لجنة خاصة تتولى اقتراح الخطوات التي يمكن لها ان تحول بين هتلر وبين عمل مماثل في المستقبل. وادركت فرنسا ان المانيا لن تنضم الى ميثاق شرقي كميثاق لوكارنو. فسارعت الى توقيع ميثاق للعون

١ ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب ـ (٢٠) ص ٦٠٣

المتبادل مع روسيا ، كما ان هذه عقدت معاهدة مماثلة مع تشيكوسلوفاكيا .

وبدا هذا التجمع في الصفوف ضد المانيا ، في مظهره ، باعثاً على التشاؤم حتى انه ترك اثراً في نفوس عدد من رجال وزارة الخارجية الألمانية والجيش، الا انه لم يؤثر مطلقاً على هتلر . فلقد نجح على أي حال في مقامرته . ولكنه رأى ان ليس من المناسب ان يطمئن الى ما ناله من اكاليل الغار والظفر، وقرر ان الوقت قد حان ثانية للعودة الى تأكيد حبه للسلام ، وان يختبر ما اذا كانت هذه الوحدة الجديدة بين الدول التي تحالفت ضده، ليست قابلة للتحطيم والانهيار.

وألقى مساء الحادي والعشرين من اذار ، خطاباً جديداً من خطبه الداعية الى السلام[1] في مجلس الرايشستاغ . فكان خطابه هذا ، في رأيي . بعد أن سمعت معظم خطبه اللاحقة ، اكثرها بلاغة وذكاء ، واكثرها تضليلاً . اذ كان هتلر يبدو في تلك الليلة مرتاح المزاج ، وتدفقت منه روحية لا تنطوي على الثقة فحسب وانما على التسامح والرغبة في المهادنة والتفاهم ، وهو ما اذهل سامعيه اشد الذهول. ولم يتفوه في خطابه بأية كلمة تنطوي على التحدي أو الغضب من الدول التي استنكرت تمزيقه للبنود العسكرية في معاهدة فرساي ، وانما راح ينطلق مؤكداً ان كل ما ينشده هو السلام والتفاهم المرتكز على العدالة بالنسبة الى الجميع . واعلن انه يرفض فكرة الحرب رفضاً باتاً ، اذ انها سخيفة ، وغير مجدية ، او باعثة على الرعب ، ثم قال :

١ ـ وكان هتلر قد اصدر في ذلك اليوم نفسه قانون الدفاع عن الرايخ ، وهو القانون السري الذي عين الدكتور شاخت بموجبه، كما سبق لنا ان رأينا، مسؤولا عن الاقتصاد الحربي والذي تولى تنظيم القوات المسلحة تنظيماً كاملا. وتحول جيش « الريشوهر » في ايام الجمهورية الى جيش «الفيرماخت». وتولى هتلر الفوهرر والمستشار، القيادة العليا للقوات المسلحة(الفيرماخت)، كما تولى بلومبرغ ، وزير الدفاع ، منصب وزير الحربية مع لقب اضافي كقائد عام للقوى المسلحة ، فكان بذلك الوحيد في المانيا الذي تولى مثل هذه الرتبة . واصبح لكل خدمة من الخدمات المسلحة الثلاث قائدها العام وهيئة اركان حربه . واستعيض عن الاسماء التنكرية السابقة بالاسماء الحقيقية الآن . وغدا الفريق بيك يحمل لقب رئيس هيئة اركان الحرب . ولكن هذا اللقب لم يكن يعني الآن ما كان يعنيه في ايام القيصر ، عندما كان رئيس هيئة اركان الحرب ، هو القائد العام الفعلي للجيش الالماني العامل تحت امرة القائد الاعلى .

« ولا تبرر النتائج القومية للاحداث تلك الدماء التي سفكت على تربة القارة الاوروبية طيلة الثلاثمائة عام الاخيرة . فلقد ظلت فرنسا على أي حال هي فرنسا وظلت المانيا هي المانيا وبولنده هي بولنده وايطاليا هي ايطاليا . وما حققته انانية السلالات الملكية ، والعواطف السياسية والتعصب الأعمى للوطنية في شكل تبدلات سياسية واسعة النطاق في الظاهر عن طريق سفك انهار من الدماء ، لم يحدث عن طريق المشاعر القومية اكثر من مجرد لمسات خاطفة للقشرة الخارجية للدول ، ولم تتمكن من تغيير طبائع هذه الدول الاساسية تغييراً جوهرياً . ولو اضفت الدول مجرد جزء صغير من هذه التضحيات على اهداف اكثر حكمة ، فان ما تحققه من نجاح عن طريقها كان سيتفوق حتماً في عظمته وسرمديته » .

وراح هتلر يعلن بعد ذلك ان المانيا لا تفكر مطلقاً بالسيطرة على أي شعب آخر من الشعوب ثم قال :

« وتعتبر نظريتنا العنصرية كل حرب تهدف الى استعباد شعب غريب والسيطرة عليه ، إجراء يؤدي إن عاجلاً وإن آجلاً الى تغيّر المنتصر واضعافه داخلياً مما يؤدي في النهاية الى هزيمته ... ولما لم تعد هناك في اوروبا ، ارضاً غير مأهولة أو محتلة ، فان كل نصر .. يمكن أن يؤدي الى زيادة عددية في ارقام سكان تلك البلاد. ولكن اذا كانت الامم تعلق اهمية اكبر على هذه الزيادة العددية فان في وسعها ان تحققها دون حاجة الى ذرف الدموع وبطريقة اكثر بساطة ، واقرب الى الطبيعة ، أي باتباع سياسة اجتماعية معقولة تهدف الى زيادة استعداد تلك الأمة لإنجاب الاطفال .

« ولا بد ان تكون المانيا الاشتراكية الوطنية تنشد السلام بسبب معتقداتها الاساسية وهي تنشد السلام ايضاً ، لسبب آخر ، وهو تحقيق الحقيقة البدهية البسيطة وهي ان أية حرب لا يمكن لها ان تغير بصورة

جوهرية ما تعانيه اوروبا من شقاء ... فالاثر الرئيسي لأي حرب هو تدمير زهرة شباب الأمةالتي تخوضها ، انالمانيا تريد السلام وهي تنشد السلام ايضاً » ..

ومضى يواصل تكرار هذه النقطة . وتقدم في نهاية خطابه بثلاثة عشر اقتراحاً محدداً للحفاظ على السلام ، وقد بدت هذه الاقتراحات جذابة الى الحد الذي جعلها تترك انطباعاً عميقاً ومواتياً لا في المانيا وحدها بل وفي جميع انحاء اوروبا . وقد قدّم لهذه الاقتراحات بتوطئة هي اشبه بالتذكرة ثم قال :

« لقد اعترفت المانيا اعترافاً صادقاً لفرنسا بحدودهاالتي تقررت بعد استفتاء السار ، وضمنت لها هذه الحدود... وهكذا فقد تخلينا نهائياً عن جميع مطالبنا في الالزاس واللورين اللتين خضنا من اجلهما حربين عظيمتين. وعقدت المانيا دون ان تأخذ الماضيبعين الاعتبار، ميثاق عدم اعتداء مع بولنده التي تعتبرها وطناً لشعب عظيم يحس احساساً عميقاً بقوميته .. »

وراح يتحدث عن النمسا فقال :

« ان المانيا لا تنوي مطلقاً ولا ترغب في التدخل في الشؤون الداخلية للنمسا أو في ضمها اليها أو تحقيق الوحدة معها (الانشلوس) .. »

وكانت نقاط هتلر الثلاث عشرة شاملة كل الشمول . فألمانيا لا تستطيع العودة الى جنيف الا اذا تخلت عصبة الامم عن معاهدة فرساي وطلقتها . فاذا تمّ ذلك ، واعترف لجميع الدول بحقها في التكافؤ والمساواة ، فإن المانيا ستعود الى العصبة . لكن المانيا « ستحترم بلا قيد ولا شرط، على أي حال، البنود غير العسكرية في معاهدة فرساي بما في ضمنها النصوص الاقليمية» . وستحترم وتنفذ بصورة خاصة جميع الالتزامات التي يفرضها عليها ميثاق لوكارنو . وتعهد هتلر كذلك بأن تحافظ المانيا على ابقاء منطقة الراينمنزوعة السلاح . وعلىالرغم من رغبة المانيا في « جميع الاوقات » ، بالاسهام في نظام للأمن الجماعي ، الا انها

تؤثر الاتفاقات الثنائية ، وهي على استعداد لعقد مواثيق عدم اعتداء مع جميع جاراتها من الدول . وهي على استعداد كذلك للموافقة على الاقتراحات البريطانية الفرنسية لاستكمال ميثاق لوكارنو باتفاق جوي .

أما بالنسبة الى نزع السلاح ، فلقد كان هتلر مستعداً للمضي الى اقصى الحدود اذ قال :

« ان الحكومة الألمانية على استعداد للموافقة على أي تحديد يؤدي الى إلغاء الاسلحة الثقيلة ، ولا سيما ما يصلح منها للعدوان ، كالانواع الثقيلة جداً من المدافع والدبابات ... وتعلن المانيا استعدادها للموافقة على أية قيود توضع على معايير المدافع أو مقاييس البوارج والطرادات وزوارق الطوربيد .

والحكومة الالمانية على استعداد كذلك للموافقة على تحديد حمولة الغواصات أو حتى على إلغائها إلغاء كلياً .. »

ولا ريب في ان هتلر قدم في هذه الناحية طعماً خاصاً الى بريطانيا . فهو على استعداد لتحديد اسطول المانيا الجديد بنسبة (٣٥) في المائة من قوات بريطانيا البحرية ، مما يجعل المانيا ، في الوقت نفسه ، متأخرة عن فرنسا في مجموع محمول اسطولها بخمسة عشر في المائة. وقال يرد على ما قد يثار من اعتراضات في الخارج من أن هذه الطلبات هي بداية ما تطلبه المانيا ... « ان هذه الطلبات بالنسبة الى المانيا هي آخر ما تطلبه وتلتزم به » .

ووصل هتلر بعيد الساعة العاشرة من ذلك المساء الى ذروة تدفقه الخطابي، اذ قال:

« وكل من يوقد مشعل الحرب في اوروبا ، لا يهدف إلا الى الفوضى . فنحن على أي حال ، نعيش على اعتقاد ثابت بأن العصر الذي نحيا فيه لن يشهد انحلال الغرب بل بعثه ونهضته . ولا ريب في ان املنا الذي نعتز به ، وعقيدتنا التي لا تتزعزع، يتركزان في ان تسهم المانيا اسهاماً كبيراً في هذا العمل العظيم » [١] .

١ــ نظامي الجديد .. اعداد روسي دي سال . ص ٣٠٩ ــ ٣٣٣ .

حقاً انها كلمات معسولة تدعو الى السلام وتتدفق بالمنطق والرغبة الى التفاهم . وكان متوقعاً من الديموقراطيات الغربية في اوربا ، حيث يتلهف شعوبها وحكوماتها تلهفاً يائساً على استمرار السلام على أسس معقولة ، او حتى على أية اسس ان تلعق ما فيها من حلاوة المذاق. وراحت «التايمز» اللندنية وهي اكثر الصحف نفوذاً في الجزر البريطانية، ترحب بهذه الكلمات ترحيباً مصحوباً بالفرح الجنوني .. اذ قالت :

« لقد برهن الخطاب على ما فيه من منطق وصراحة وصدق وشمول. وليس في وسع أي انسان يقرأ هذا الخطاب بتفكير محايد لا متحيّز ، ان يشك لحظة واحدة في ان نقاط السياسة التي وضعها الهر هتلر ، يمكن ان تؤلف اساساً معقولاً لتسوية كاملة شاملة مع المانيا – المانيا الحرة القوية المتكافئة ، لا المانيا الذليلة الخانعة التي فرض عليها السلام فرضاً قبل ستة عشر عاماً.. وكلنا أمل في ان هذا الخطاب سيعتبر في كل مكان اعلاناً مخلصاً مدروساً يعني كل كلمة جاءت فيه »[1] .

وهكذا قدر لهذه الصحيفة العظيمة التي تعتبر من أضخم أمجاد الصحافة الانكليزية ، ان تلعب ، كما لعبت حكومة تشمبرلين ، دوراً مهماً في سياسة التهدئة البريطانية لهتلر . ولكن مؤلف هذا الكتاب يرى ان عذرها في ذلك أقل تبريراً من عذر الحكومة ، اذ كان لها في شخص مراسلها البرليني نورمان ايبوت، الى الوقت الذي طرد فيه من المانيا في السادس عشر من آب عام ١٩٣٧، مصدراً للاعلام عن أعمال هتلر واهدافه ، اكثر استجلاء للحقائق من أي مصدر آخر يتمثل في المراسلين الاجانب الآخرين او حتى الدبلوماتيين بما في ضمنهم الممثلون البريطانيون . وعلى الرغم من ان صحيفته لم تكن تنشر في تلك الايام معظم ما يبعث به اليها من برلين[2] كما كان يشكو لمؤلف هذا الكتاب ، وكما

١– نظامي الجديد. . . اعداد روسي دي سال ، ص ٣٣٣ – ٣٣٤ .
٢– كتب جوفري داوسون رئيس تحرير «التايمز»، في الثالث والعشرين من ايار عام ١٩٣٧، الى إش. جي دانيالز ، مراسله في جنيف والذي كان يعمل في برلين قبل ايبوت يقول : « انني اعمل

ثبتت صحته فيما بعد ، ان محرري «التايمز» كانوا يقرأون ولا ريب جميع رسائله وبرقياته ، وكانوا في وضع يمكنهم تبعاً لذلك من معرفة حقيقة ما كان يدور في المانيا النازية وحقيقة ما في وعود هتلر الضخمة من خواء .

ولم تكن الحكومة البريطانية اقل استعداداً ورغبة من صحيفة « التايمز » في قبول اقتراحات صادرة عن هتلر واعتبارها صادقة « ومدروسة » ، ولا سيما تلك التي اعلن فيها موافقته على ان يكون اسطول المانيا خمسة وثلاثين بالمائة من حجم الاسطول البريطاني .

وكان هتلر قد اومأ ايماءة ماكرة للسير جون سيمون ، عندما قام بوصفه وزيراً للخارجية البريطانية ، يرافقه انتوني ايدن بالزيارة المؤجلة لبرلين في نهاية شهر آذار ، فذكر لهما أن من السهل الوصول الى اتفاق يجري بين الدولتين يضمن لانكلترا تفوقها . أما الآن وفي الواحد والعشرين من ايار ، فقد عرض عرضاً محدداً وعلنياً بأن يكون الاسطول الألماني خمسة وثلاثين بالمائة ليس الا من الاسطول البريطاني ، مضيفاً الى عرضه هذا في خطابه بعض عبارات المجاملة الودودة لانكلترا ، اذ قال : « ليست لألمانيا اية نية أو اية حاجة، أو حتى اية منافسة بحرية جديدة» ،مشيراً في قوله هذا اشارة فهمتها انكلترا، الى ايام عام ١٩١٤ ،عندما شرع الاميرال تيربيتز يبني بحماس زائد مدعوماً من القيصر غليوم، اسطولاً بحرياً لألمانيا ينافس فيه اساطيل بريطانيا في البحار والمحيطات . ومضى هتلر يقول ... « وتعترف الحكومة الألمانية بالأهمية القصوى والبالغة،وما يتبع ذلك من تبرير،لبريطانيا في تأمين حماية امبراطوريتها في البحار ... وتعتزم الحكومة الألمانية ، عزماً صادقاً ، اقامة علاقات مع الشعب البريطاني والدولة البريطانية تحول دائماً دون تكرر الصراع الوحيد الذي وقع في التاريخ بين الأمتين ، كما تؤكد عزمها على الاحتفاظ بها » . وكان هتلر

جاهداً نهاري وليلي ، لأمنع من النشر أي شيء قد يؤذي مشاعرهم (الألمان) . وليس في وسعي ان اذكر اننا نشرنا شيئا منذ عدة اشهر،يمكنلهم اتهامه بأنه تعليق غير منصف» ــ من كتاب«جوفري داوسون وتايمزنا » ... لمؤلفه جون ايفلين رينش .

قد اعرب عن مثل هذه العواطف تجاه انكلترا في كتابه «كفاحي»، حيث اكد ان من اعظم اخطاء القيصر، وقوفه موقف العداء من انكلترا، ومحاولته السخيفة منافستها في السيطرة البحرية.

وهكذا سقطت الحكومة البريطانية بمنتهى السذاجة والسرعة فريسة «الطعم» الذي قدمه هتلر اليها. ودعي ريبنتروب الذي غدا الآن رسول هتلر في مهامه الخارجية، لزيارة لندن في شهر حزيران لإجراء محادثات بحرية. وراح يخالف اصول التهذيب الدبلوماتي، ويعلن للانكليز بمنتهى الغرور، ان عرض هتلر لا يقبل التفاوض وان عليهم اما قبول هذا العرض أو رفضه. وقبله البريطانيون، ومضوا دون استشارة حلفائهم في جبهة ستريزا، واعني بهم الفرنسيين والايطاليين وهم ايضاً يمثلون دولتين كبريين يهمهما كل الاهمية تسلح المانيا ونقضها للبنود العسكرية في معاهدة فرساي، ودون ابلاغ عصبة الأمم ايضاً، مع ان المفروض فيها ان تكون مسؤولة عن احترام معاهدات الصلح التي عقدت في عام ١٩١٩، راحوا ينتهزون ما خيل اليهم بأنه نفع ذاتي فيزيلون من الوجود، القيود البحرية التي فرضتها فرساي على المانيا.

وكان من الواضح لأكثر العقول سذاجة في برلين، ان حكومة لندن بموافقتها على السماح لألمانيا ببناء اسطول يبلغ في ضخامته ثلث الاسطول البريطاني، كانت تطلق العنان لهتلر لبناء اسطول في اقصى سرعة عملية ممكنة، تحمّل احواض سفنه ومصانع فولاذه، جهد طاقتها مدة عشر سنوات على الأقل. وهكذا لم يكن الاتفاق تحديداً لتسلح هتلر، وانما تشجيعاً له على توسعه في السلاح البحري في اسرع مجال ممكن تستطيع الوسائل المتوافرة لديه تأمينه له.

واضافت الحكومة البريطانية، تحقيقاً منها لوعد قطعته على نفسها لهتلر، الاهانة لفرنسا على ما ألحقته بها من ضرر نتيجة توقيعها الاتفاق الجديد مع المانيا، فرفضت ان تبلغ اقرب حلفائها اليها، أي شيء عن نوع البواخر التي وافقت بريطانيا على السماح لألمانيا ببنائها أو عن عددها، واكتفت بأن تقول لها، ان حمولة الغواصات الالمانية - وكانت معاهدة فرساي قد حرمت عليها تحريماً

خاصاً بناء اية غواصات – ستكون معادلة لستين في المائة من حمولة الغواصات البريطانية ، وان هذا الرقم قد يرتفع الى المائة في المائة اذا نشأت ظروف استثنائية طارئة . [١] ولكن الاتفاق الانكليزي – الالماني سمح للالمان في الحقيقة ببناء خمس بوارج ، حمولتها وتسليحها اعظم من حمولة او تسليح اية بارجة بريطانية عائمة، على الرغم ان الرقم الرسمي كان زائفاً ، للتمويه على لندن، وواحد وعشرين طراداً واربع وستين مدمرة . ولم تستطع المانيا استكمال بناء جميع هذه القطع قبل نشوب الحرب ، ولكنها بنت منها على أي حال ، ومن الغواصات ما كان كافياً لإلحاق اكثر الخسائر فجيعة ببريطانيا في السنوات الأولى من الحرب الكونية الثانية .

واعتبر موسوليني بخديعة «البيون» Perhidy of Albion [٢]، وادرك ان في وسع اثنين ان يلعبا لعبة الترضية لهتلر ، يضاف الى هذا ان موقف انكلترا الكلبي (نسبة الى الفلسفة الكلبية القائمة على التشكك) ، من تجاهل معاهدة فرساي قد شجعه على الاعتقاد بأن لندن لن تحمل على محمل الجد ، أي عمل ينقض ميثاق العصبة ايضاً . وهكذا شرعت جيوشه في الثالث من تشرين الأول عام ١٩٣٥ ، متحدية ميثاق العصبة، في غزو مملكة الحبشة الجبلية العريقة. واقترعت العصبة مدفوعة من بريطانيا العظمى ، مع تأييد يفتقر الى الحماس من جانب فرنسا التي اعتبرت المانيا ، هي الخطر الأعظم في المدى الأبعد ، على ايقاع العقوبات على ايطاليا . لكن هذه العقوبات كانت جزئية ليس إلا ، ولم تطبق الا بشكل ينطوي على الاستخذاء والضعف ، مما جعلها عاجزة عن الحيلولة بين موسوليني وبين احتلال الحبشة ؛ ولكنها لم تعجز عن تحطيم الصداقة بين ايطاليا الفاشية وبين بريطانيا وفرنسا وعن انهاء جبهة ستريزا المقاومة لألمانيا النازية .

ترى من الكاسب اكثر من غيره من هذه السلسلة المتلاحقة من الاحداث إن لم يكن ادولف هتلر ؟ لقد قضيت اليوم الرابع من تشرين الأول أي بعد يوم

---

١ – بيرتينا كس – «الذين حفروا قبر فرنسا» – ص ٣٨١ .

٢ – اسم قديم يطلق على بريطانيا ولا يزال يستعمل في الشعر احياناً .   المعرب

واحد من بدء الغزو الايطالي في الوهلمشتراسة ، متحدثاً الى عدد من قادة الحزب وموظفي الحكومة. وقد سجلت في يوميتي لذلك المساء، ملاحظة لخصت فيها السرعة العظيمة التي تفهم فيها الألمان حقيقة الوضع منتهزين ما اتاحه لهم من فرصة وقلت :

« ان موجة من السرور تعم الوهلمشتراسة . فهناك احتمالان يقول أولها ان موسوليني قد يتعثر في زحفه ، فيتورط ورطة شديدة في افريقيا تضعفه في اوروبا وتجعله عاجزاً عن مقاومة هتلر في اغتصاب النمسا التي كان الدوتشي يتولى حمايتها حتى الآن ، أو انه سينتصر ، وهذا هو الاحتمال الثاني ، متحدياً بريطانيا وفرنسا ، ويغدو بذلك ناضجاً لتوثيق علاقاته مع هتلر ضد الديموقراطيين الغربيين . ان هتلر هو الكاسب في الحالتين »[1] .

وسرعان ما ثبتت صحة هذا القول .

لعبة حوض الراين

وقد ذكر هتلر في خطاب « السلام » الذي ألقاه في الرايشستاغ في الواحد والعشرين من أيار عام ١٩٣٥ ، والذي ترك انطباعات طيبة ، كما رأينا ، في العالم بأسره ، ولا سيما في بريطانيا العظمى ، ان هناك « عنصراً من اللاأمنية المشروعة » قد طرأ على ميثاق لوكارنو ، نتيجة ميثاق العون المتبادل الذي تمّ التوقيع عليه في باريس بين روسيا وفرنسا في الثاني من آذار وفي موسكو في الرابع عشر من آذار والذي لم يبرمه البرلمان الفرنسي حتى نهاية العام . وقد لفتت وزارة الخارجية

---

١ ـــ كتاب « يوميات برلين » للمؤلف ، ص ٤٣

الألمانية انتباه باريس الى هذا « العنصر » في مذكرة رسمية وجهتها الى الحكومة الفرنسية .

واجتمع السفير الفرنسي فرانسوا بونسيه في الواحد والعشرين من تشرين الثاني الى هتلر ، حيث ألقى الفوهرر على مسامعه خطاباً طويلاً هاجم فيه الميثاق الفرنسي – السوفياتي . وبعث فرانسوا بونسيه الى باريس يعرب عن اقتناعه بأن هتلر يعتزم استخدام الميثاق مبرراً لاحتلال المنطقة المنزوعة السلاح في حوض الراين . واضاف ان « تردد هتلر الوحيد ناجم عن عنايته باختيار اللحظة المناسبة للعمل »[1] .

ولعل فرانسوا بونسيه هو اكثر السفراء معلومات عن برلين . وكان يعرف ما يقوله تمام المعرفة ، لكنه على أي حال ، لم يكن عارفاً ولا شك بأن الفريق فون بلومبرغ ، كان قد أصدر في الربيع الماضي وفي اليوم الثاني من أيار بالذات ، أي قبل تأكيدات هتلر في الرايشستاغ ، بأنه سيحترم ميثاق لوكارنو والبنود الاقليمية في معاهدة فرساي ، بتسعة عشر يوماً ، أول توجيه الى القوات المسلحة الثلاث لإعداد الخطط العسكرية اللازمة لإعادة احتلال المنطقة المنزوعة السلاح على الراين . وقد تقرر أن يطلق على العملية اسم « شولونغ » الرمزي ، وان « تنفذ في ضربة مباغتة وفي سرعة البرق » ، وأن توضع خططها في منتهى التكتم والسرية ، بحيث لا يعلم بها « إلا اقل عدد ممكن من الضباط » ولعل بلومبرغ رغبة منه في المغالاة في سرية الموضوع ، قد كتب ذلك الأمر بخط يده[2].

وجرت مناقشات اخرى في السادس عشر من حزيران تناولت الحركة المقبلة باتجاه منطقة الراين وذلك في الاجتماع العاشر للجنة التنفيذية لمجلس دفاع الرايخ ، حيث قدم عقيد يدعى الفريد يودل ، كان قد تولى من قبل رئاسة دائرة الدفاع الداخلي ، تقريراً عن الخطط العسكرية

---

١ ـ فرانسوا بونسيه ـ سنوات القدر ـ ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .

٢ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٥١ ـ ٩٥٢ .

وأكد الحاجة القصوى للمغالاة في السرية . واضاف يحذر المجتمعين من كتابة أي شيء خطي عن الموضوع الا اذا تطلبت الضرورة القصوى ذلك ، واضاف أن أية ورقة حول هـذا الموضوع يجب أن تظل مخبوءة في الخزائن الحديدية السرية [1] .

وقضى هتلر اشهر شتاء عام ١٩٣٥ – ١٩٣٦ ، وهو على احر من الجمر . ولم يستطع الا ان يلاحظ حقيقة واحدة وهي‌ان بريطانيا وفرنسا مشغولتان بمحاولة وقف ايطاليا عن عدوانها في الحبشة . ولكن موسوليني ، كان يبدو ناجحاً في مشروعه ماضياً فيه . وكانت عصبة الأمم على الرغم من عقوباتها التي طبلت لها وزمّرت كثيراً ، تبدو عاجزة عن وقف أي معتد مصمم على المضي في سبيله . ولم تبد على البرلمان الفرنسي اية رغبة في استعجال ابرام الميثاق مع الاتحاد السوفياتي ، فلقد كان الشعور متزايداً لدى جماعات اليمينيين بمعارضة هذاالميثاق. ولقد خيل لهتلر على ما يبدو، ان ثمة فرصة طيبة في‌ان ترفض الجمعية الوطنية الفرنسية ، أو مجلس الشيوخ التحالف مع موسكو ، وكان عليه في مثل هذه الحالة ان يبحث عن مبرر آخر لعملية شولونغ . ولكن الميثاق عرض على الجمعية الوطنية في الحادي عشر من شباط ، فصدّقه في السابع والعشرين منه باكثرية (٣٥٣) مقابل (١٦٤) . وتوصل هتلر الى قراره بعد يومين أي في اليوم الأول من آذار ، على الرغم من ذعر القادة العسكريين الذين كان معظمهم على ثقة بأن الفرنسيين ، سيطحنون القوات الألمانية الضئيلة التي حشدت للتحرك على منطقة الراين طحناً . ومع ذلك فقد اصدر بلومبرغ في اليوم التالي ، أي الثاني من آذار عام ١٩٣٦ ، اوامره اطاعة لتعليمات سيده، باحتلال منطقة الراين وقال موجهاً كلامه الى كبار القادة العسكريين للقوات المسلحة ، بأن الحركة يجب ان تكون « مباغتة وخاطفة » . وقد توقع بلومبرغ ان تكون العملية « سلمية » لا حرب فيها ، أما اذا تحولت الى حرب ، أي قرر الفرنسيون القتال للحيلولة‌دون تحقيقها ، فقد احتفظ القائد العام لنفسه « بالحق في اتخاذ القرار بشأن أية

---

١ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٤٥٤ ــ ٤٥٥ .

اجراءات عسكرية مضادة »[1] . وقد عرفت بعد ستة ايام فقط ، وهو ما تأكد في اقوال القادة العسكريين في محاكمات نورمبرغ،ان الاجراءاتالعسكرية المضادة التي كان بلومبرغ يفكر فيها، لم تكن في الحقيقة إلا إصدار الأمرللقوات بالتراجع بسرعة الى ما وراء الراين !

ولكن الفرنسيين الذين كانت المنازعات الداخلية قد شلّت قواهم وكانت روح الانهزامية قد سيطرت عليهم ، لم يعرفوا هذه الحقيقة عندما مرت قوات رمزية من الجيش الألماني،مستعرضة فوق جسور نهرالراين فجر السابعمن آذار، وعابرة الى المنطقة المنزوعة السلاح[2]. واستدعى نوراث وزير الخارجية المطواع في الساعة العاشرة صباحاً سفراء فرنسا وبريطانيا وايطاليا ، وأبلغهم الانباء الواردة من منطقة الراين وسلم اليهم مذكرة رسمية تعلن الغاء ميثاقلوكارنو الذي كان هتلر قد نقضه قبل قليل ، ومقترحة خطة جديدة للسلام ! وكتب فرانسوا بونسيه ملاحظاً « ان هتلر يصفع خصمه في وجهه وفي نفس الوقت يعلن اليه قائلاً ... ها انني اقدم اليك اقتراحات للسلام ! »[3] .

وبالفعل فقد وقف الفوهرر بعد ساعتين على منبر الرايشستاغ أمام حشد سيطر عليه الحماس المحموم ، متدفقاً بالاعلان عن رغبته في السلام ، وعن آخر ما ابتكره من آراء للحفاظ عليه . ومضيت الى دار اوبرا « كرول » لأشهد المنظر الذي لن انساه ما حييت ، اذ كان يجمع بين الروعة والهول . وبعد خطاب طويل تحدث فيه عن شرور فرساي وخطر البلشفية ، اعلن هتلر بمنتهى الهدوء ان الميثاق الذي عقدته فرنسا مع روسيا قد ترك معاهدة لوكارنو ، ولا قيمة لها،

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص٩٧٤ ـ ٩٧٦ .

٢ ـ ذكر يودل في شهادته في نورمبرغ ان ثلاثة افواج فقط عبرت نهر الراين متجهة الى آخن وتريير ، وساربروكن وان فرقة واحدة فقط استخدمت في احتلال المنطقة كلها . أما تقديرات مخابرات الحلفاء فكانت اكثر من هذا اذ قدرتها بثلاث فرق تقريباً او «٣٥» الف جندي . وقد علق هتلر على ذلك فيما بعد قائلا : في الحقيقة لم يكن لدي الا ثلاثة ألوية » . (محادثات هتلر السرية ـ ص ٢١١ـ٢١٢)

٣ ـ فرانسوا بونسيه ـ سنوات القدر ، ص ١٩٣

مع العلم بأن المانيا قد وقعتها خلافاً لمعاهدة فرساي بمنتهى الحرية والرغبة . وقد دونت في يومياتي تلك الليلة المنظر الذي تلا ذلك فقلت :

« قال هتلر ان المانيا لم تعد تشعر بأن معاهدة لوكارنو تربطها أو تقيدها . ولقد قررت الحكومة الالمانية حفاظاً على حقوق شعبها الدولية في ضمان سلامة حدوده ، وتأمين وسائل الدفاع عنه ان توطد منذ اليوم سيادتها المطلقة وغير المقيدة على المنطقة المنزوعة السلاح في الرايخ» !

« وسرعان ما قفز ستمائة نائب ، كلهم من الذين عينهم هتلر شخصياً ، ومن الرجال الذين يحملون اجساماً كبيرة ، ورقاباً منتفخة وشعوراً مجزوزة ، وكروشاً ضخمة ، ويرتدون بزات بنية واحذية ثقيلة .. على اقدامهم كالآلات الذاتية الحركة ، يمدون اذرعهم اليمنى بالتحية النازية ، ويصرخون بصوت واحد ... هايل ! هايل . ويرفع هتلر يده مشيراً اليهم بالصمت ، ثم يقول بصوت عميق رنان .. « يا رجال الرايشستاغ الالماني ! » . ويعم الصمت مسيطراً على المكان . « في هذه الساعة التاريخية ، الساعة التي تعبر فيها القوات الألمانية مقاطعات الرايخ الغربية متجهة الى مقراتها المقبلة كحاميات سلمية ، نقف جميعنا متحدين وراء قسمين مقدسين » . ويتوقف عن الحديث . اذ يجد نفسه مضطراً للتوقف ، فلقد كان دخول القوات الالمانية الى منطقة الراين بمثابة أنباء جديدة الى هذا الحشد البرلماني من الرعاع . وتقفز النزعات العسكرية التي تجري في دمائهم الالمانية الى رؤوسهم.ويبدأون في القفز صارخين هاتفين .. وقد ارتفعت رؤوسهم في تحية كتحية العبيد ، وبانت في وجوههم دلائل الجنون واتسعت اشداقهم ذاهلة معبرة، يصرخون ويصرخون ، وقد اتقد لهيب التعصب في عيونهم ، يتطلعون الى الههم الجديد ، المسيح الموعود . ويؤدي هذا المسيح الموعود دوره بروعة تمثيلية . فيحني رأسه وكأنه التواضع مجسداً ، ويقف صابراً ، منتظراً منهم الصمت . وينطلق صوته خفيضاً ، تخنقه العواطف ، يردد القسمين التاليين :

« نقسم اولاً أن لا نخضع الى اية قوة مهما كانت في محاولتنا

استعادة شرف شعبنا.. ونقسم ثانياً، بأننا اليوم اكثر من أي وقت مضى ،سنجاهد للوصول الى تفاهم بين الشعوب الأوروبية ، ولا سيما مع جيراننا من الدول الغربية ... ليست لنا اية مطامع اقليمية في اوروبا .. ان المانيا لن تنقض السلام قط !

« وانقضى وقت طويل قبل ان يتوقف الهتاف... وتمكن عدد من القادة العسكريين من شق طريقهم الى الخارج . ووراء بسماتهم كان في وسعك ان ترى احساساً من التوتر العصبي. ووجدت امامي الفريق فون بلومبرغ.. كان وجهه ابيض شاحباً وكانت وجنتاه تختلجان » [1]

وكان له عذر في ذلك . فوزير الدفاع الذي اصدر قبل خمسة ايام بخط يده امره بالزحف على حوض الراين بدأ يفقد اعصابه . وعرفت في اليوم التالي انه كان قد اصدر أوامره الى جنوده بالانسحاب عبر الراين في حالة قيام الفرنسيين بأية حركة لمقاومتهم . ولكن الفرنسيين لم يقوموا بأية حركة ابداً . ويقول فرانسوا بونسيه ، انه بعد التحذير الذي بعث به في تشرين الثاني الماضي، راحت القيادة العليا الفرنسية تسأل الحكومة عما ستفعله في حالة قيام الدليل على صحة قول السفير . وكان رد الحكومة كما قال،انها ستثير القضية في عصبة الأمم[2] . ولكن عندما ضرب هتلر ضربته ، كانت الحكومة الفرنسية هي التي ترددت[3] . ويقول فرانسوا بونسيه ان « الفريق غاملان ، ارتأى ان أية عملية حربية مهما كانت محدودة تنطوي على اخطار لا يعلم إلا الله مداها ، وليس في الوسع القيام بها إلا بعد اصدار القرار بالتعبئة العامة » [4] . وكان اقصى ما استطاع الفريق غاملان ، رئيس اركان الحرب ان يعمله ، وهو ما عمله فعلاً ، ان يحشد ثلاثة

---

١ ــ يوميات برلين ــ المؤلف ص ٥١ ــ ٥٤

٢ ــ فرانسوا بونسيه ــ سنوات القدر ، ص ١٩٠

٣ ــ على الرغم من تحذير فرانسوا بونسيه في الخريف الفائت ، فقد جاء عمل المانيا كما يبدو مفاجأة تامة للحكومتين الفرنسية والبريطانية وأركان حربهما .

٤ ــ فرانسوا بونسيه ــ سنوات القدر ، ص ١٩٤ ــ ١٩٥

عشرة فرقة على مقربة من الحدود الألمانية على شكل تعزيز لخط ماجينو. وكانت هذه الحركة ، على الرغم من تفاهتها ، كافية لبعث الرعب في القيادة العليا الألمانية . وأراد بلومبرغ يؤيده يودل ، ومعظم كبار الضباط ، أن يأمر بسحب الافواج الثلاثة التي عبرت الراين . وشهد يودل في نورمبرغ قائلاً : « وعلى ضوء الاوضاع التي كنا فيها ، كان في وسع جيش التغطية الفرنسي ، ان يمزقنا شذر مذر [1] » .

أجل كان في وسعه ان يفعل ذلك ، ولو فعله ، لكانت في ذلك نهاية هتلر ، ولاتجه التاريخ بعد ذلك اتجاهاً مغايراً وأكثر اشراقاً من الاتجاه الذي اتخذه بالفعل ، اذ ان من المؤكد ان الديكتاتور ما كان في وسعه ان يظل بعد هذه المهزلة . وقد اعترف هتلر نفسه بهذه الحقيقة وقال فيما بعد : « كان التراجع من جانبنا يعني انهيارنا الكلي » [2] .ولقد كانت اعصاب هتلر الفولاذية وحدها هي التي انقذت الوضع الآن كما انقذته في عدة ازمات لاحقة ، اذ اذهلت القادة العسكريين المترددين وجاءت لهم بالنصر ،ولكنه ليس بالنصر الهين على أي حال.

وقد سمعه بول شميدت ترجمانه الخاص يقول فيما بعد ... « لقد كانت الساعات الثماني والاربعون الأولى التي تلت الزحف على حوض الراين ، اكثر الساعات تحطيماً للاعصاب في حياتي كلها . ولو زحف الفرنسيون على المنطقة ، لكنا مرغمين على الانسحاب نجر ذيول الفشل ، وذلك لأن الموارد العسكرية التي كانت تحت تصرفنا آنذاك ، لم تكن كافية مطلقاً حتى لبذل مقاومة معتدلة » [3]

وكان الفوهرر على ثقة من ان الفرنسيين لن يزحفوا ، ولذا فقد رفض رفضاً قاطعاً كل الاقتراحات التي قدمتها القيادة العليا المترددة بالانسحاب . وأراد بيك ، رئيس اركان الحرب ، من الفوهر ، ان يلطف الضربة على الاقل بالاعلان عن انه لن يقوم بتحصين المنطقة الواقعة الى الغرب من الراين ، وهو اقتراح ،

---

١ ــ محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٥) ص ٣٥٢ .

٢ ــ محادثات هتلر السرية ، ص ٢١١ ــ ٢١٢ .

٣ ــ بول شميدت ــ ترجمان هتلر ، ص ٤١ .

شهد يودل فيما بعد ، ان الفوهرر قد رفضه رفضاً حاسماً، لأسباب واضحة ستبدو لنا بعد قليل [١] . ولقد ذكر هتلر فيما بعد للفريق فون رونشتادت ان اقتراح بلومبرغ بالانسحاب لم يكن اكثر من مجرد عمل من اعمال الجبن [٢] .

وهتف هتلر بجمع من اخوانه في مقر قيادته، مساء السابع والعشرين من اذار عام ١٩٤٢ ، وهو يستذكر لعبة الراين ... « ترى ماذا كان سيحدث ، لو كان انسان غيري يتولى قيادة الرايخ آنذاك ! ان اي انسان آخر، قد تذكرونه ، ما كان ليقوى بأعصابه على احتمال ذلك الوضع الدقيق . ووجدت نفسي مرغماً على الكذب ، ولا ريب في ان الفضل في انقاذنا يعود الى تصلبي الذي لم يهن وإلى جرأتي التي لا حد لها » [٣]

ولقد كان هتلر صادقاً في قوله هذا. ولكن علينا ان نسجل انه لم يلق العون من تردد الفرنسيين فحسب بل ومن تراخي حلفائهم البريطانيين ايضاً . وطار وزير خارجية فرنسا ، بيير إتيان فلاندان الى لندن في الحادي عشر من آذار ، وتوسل الى الحكومة البريطانية ان تدعم فرنسا في اجراء عسكري مقابل تقوم به في منطقة الراين ، ولكن توسلاته ذهبت ادراج الرياح . فبريطانيا لا تريد المجازفة بالحرب حتى ولو كان تفوق الحلفاء على الألمان طاغياً . وقال اللورد لوثيان معلقاً ... « على كل حال ، لقد دخل الالمان الى حديقة بيتهم الخلفية ليس إلا » . وكان انتوني ايدن الذي غدا وزيراً للخارجية في كانون الأول الماضي قد اعلن في مجلس العموم ، حتى قبل وصول الوزير الفرنسي ، أي في التاسع من اذار بقوله : « ان احتلال الجيش الألماني لمنطقة الراين يعتبر ضربة شديدة لمبدأ قداسة المعاهدات » . ومضى يقول .. « ومن حسن حظنا ان ليس ثمة ما يدعونا الى الافتراض بأن عمل المانيا الحالي ينذر بقيام حركات حربية » [٤]

ومع ذلك فقد كان من حق فرنسا ، بموجب نصوص معاهدة لوكارنو ، ان

---

١ ــ محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٥) ص ٣٥٢
٢ ــ محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢١) ص ٢٢
٣ ــ محادثات هتلر السرية . ص ٢١١
٤ ــ مقتبس من كتاب فرانسوا بونسيه ــ سنوات القدر ص ١٩٦

تتخذ اجراءات عسكرية ضد وجود القوات الألمانية في المنطقة المنزوعة السلاح. وكانت بريطانيا تجد نفسها في مثل هذه الحالة مرغمة بموجب المعاهدة ايضاً على دعمها بقواتها المسلحة . ولكن محادثات لندن القصيرة جاءت بمثابة تأكيد لهتلر ، بأنه قد نجح في مغامرته .

ولم يكتف البريطانيون باظهار نفورهم من خطر الحرب ، وإنما حملوا ايضاً القسط الاخير من اقتراحات هتلر السلمية محمل الجد . فلقد عرض هتلر في المذكرات التي سلمت الى السفراء الثلاثة في السابع من اذار ، وفي خطابه الذي ألقاه في الرايشستاغ ، توقيع ميثاق عدم اعتداء لمدة خمسة وعشرين عاماً مع بلجيكا وفرنسا ، على ان تتولى بريطانيا وايطاليا ضمانته ، وان يعقد مواثيق مماثلة مع جيران المانيا الى الشرق ، وأن يوافق على نزع السلاح من جانبي الحدود الفرنسية -الألمانية ، وأن يعود اخيراً الى حظيرة عصبة الأمم . وكان في وسع المرء ان يحكم على نوايا هتلر من عرضه نزع السلاح عن طرفي الحدود الفرنسية -الالمانية ، اذ ان تنفيذ هذا الطلب ، كان يعني ارغام فرنسا على ازالة خط ماجينو ، وهو آخر وسيلة لحمايتها من هجوم الماني مباغت .

وطلعت صحيفة التايمز الموقرة في لندن، على الرغم من استنكارها عمل هتلر المشهور في غزو منطقة الراين ، تحمل مقالاً افتتاحياً جعلت له العنوان التالي : « فرصة لإعادة البناء » .

وإذا ما عدنا بتفكيرنا الى الوراء الآن ، بات من السهل علينا ان نرى ان مقامرة هتلر الناجحة في منطقة الراين قد جاءت له بنصر اكثر إذهالا وأشد رعباً في نتائجه الهائلة ، مما استطاع الناس تفهمه في ذلك الحين. فلقد ركزت شعبيته في داخل المانيا تركيزاً عظيماً ، كما دعمت سلطانه ورفعتها الى ذرى لم تتح لأي حاكم الماني من قبل [1] . وقد ضمنت له مقامرته هذه ، التفوق على قادته

١ - اصدر هتلر في السابع من آذار أمراً بحل الرايشستاغ والدعوة الى « انتخابات» جديدة واستفتاء على الحركة التي قام بها في منطقة الراين . وتشير الارقام الرسمية لاقتراع التاسع والعشرين من اذار،ان(٩٩)في المائة من مجموع المقترعين المسجلين البالغ عددهم(٤٥،٤٥ ، ٦٩١)،قد اقترعوا بالفعل ان (٩٨،٨) في المائة منهم قد ايدوا عمل هتلر . وعثر المراسلون الاجانب الذين زاروا

العسكريين الذين ترددوا وضعفوا في لحظة الخطر ، بينما ظل هو رابط الجأش ثبت الجنان ، ولقنهم درساً بأنه يتفوق عليهم في السياسات الخارجية ، وحتى في الشؤون العسكرية ايضاً . وقد جزعوا من احتمال خوض الفرنسيين للحرب ، ولكنه كان اكثر معرفة بالحقائق منهم . واخيراً ، مهد احتلال الراين ، على الرغم من تفاهته ، كعملية عسكرية ، الطريق على نحو لم يفهمه الا هتلر (وتشرشل وحده في انكلترا) للوصول الى فرص جديدة ضخمة في اوروبا ، التي لم تهتز قواعدها فحسب ، بل تغيَّرت جميع اوضاعها الاستراتيجية عن طريق قيام ثلاثة افواج المانية باستعراض على جسور نهر الراين .

ومن السهل علينا من الناحية الأخرى ان نرى الآن ونحن نتطلع الى الماضي ، ان فشل فرنسا في صد الافواج الألمانية الثلاثة ، وتقاعس بريطانيا عن دعمها في عملية ما كانت لتعدو شكل اجراء بوليسي بسيط ، كان بمثابة كارثة للغرب نبعت منها جميع الكوارث الاخرى التي تتفوق عليها في الحجم والضخامة . وقد اتيحت الفرصة الاخيرة في اذار عام ١٩٣٦ ، للدولتين الديموقراطيتين الغربيتين لوقف تصاعد المانيا الجماعية المعتدية والمسلحة دون المجازفة بخطر نشوب حرب جدية ، ولإسقاط الديكتاتور النازي كما اعترف هو نفسه ومعه عهده كله . ولكن هاتين الدولتين فوتتا الفرصة عليهما .

ومثّل هذا الحادث بالنسبة الى فرنسا بداية النهاية . فلقد ادرك حلفاؤها في الشرق من امثال روسيا وبولنده وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوغوسلافيا الحقيقة التي مثلت امامهم بصورة مفاجئة ، وهي ان فرنسا ليست على استعداد لمحاربة العدوان الالماني ولا حتى للحفاظ على نظام السلامة الذي تولت الحكومة الفرنسية

مراكز الاقتراع في ذلك اليوم على بعض العيوب ، لا سيما لأن الاقتراع كان علنياً لا سريا ، ولم يكن ثمة من شك في ان كثيرين من الالمان كانوا يخشون ان يقولوا «لا» من عقاب الغستابو . وذكر الدكتور هوغو ايكنر للمؤلف ان عدد الاشخاص الذين استقلوا منطاده الجديد «هندنبرغ» والذي طاف في ذلك اليوم بأمر من غوبلز للدعاية الانتخابية ، كان اقل من الذين اعلن غوبلز انهم اقترعوا بالايجاب بصوتين. لكن المؤلف الذي طاف مراكز الاقتراع في جميع انحاء المانيا يستطيع ان يشهد ان تأييد الالمان لعملية هتلر كان طاغياً . ولم لا ؟ فكل الماني يوافق بالطبع على ان يرى قوات بلاده تعود الى ارض المانية . وقدر عدد اصوات المقترعين بـ(٥٤٠،٢١١) .

نفسها الدور القيادي في اقامته وبنائه محملاً اياها الكثير من الجهد . وهناك ما هو اهم من هذا كله . اذ بدأ هؤلاء الحلفاء في الشرق يدركون انه حتى ولو لم تكن فرنسا متخاذلة ومتكاسلة فانها ستغدو عاجزة في وقت قريب عن تقديم أي عون كبير لهم ، وذلك بسبب شروع المانيا في عملية بناء محمومة ، لإقامة الجدار الغربي وراء الحدود الفرنسية ـ الألمانية. وقد رأوا ان في اقامة هذا الخط من القلاع والحصون تبديلاً سريعاً لخريطة اوروبا الاستراتيجية مما يلحق بهم اكبر الأذى . ولم يكن في وسعهم ان يتوقعوا من فرنسا التي لم تجرؤ على ان تصد بفرقها المائة ، ثلاثة افواج المانية ، ان تقدم على سفك دماء زهرة شبابها بالهجوم على تحصينات المانية منيعة لا تخرق ، بينما يكون جيش « الفيرماخت » مشغولاً بالهجوم في الشرق . ولكن حتى ولو وقع هذا الأمر غير المتوقع ، فانه لن يكون مجدياً . فمنذ اليوم لن يكون في وسع فرنسا ان ترغم المانيا على الاحتفاظ في الغرب بأكثر من جزء ضئيل من الجيش الألماني النامي ، بينما يكون في وسع ما يتبقى من هذا الجيش ان يكون مطلق الحرية للعمل في الشرق ضد جيران المانيا الشرقيين .

وقد شرح وزير خارجية المانيا اهمية تحصينات الراين بالنسبة الى خطط هتلر الاستراتيجية الى وليام. س. بوليت William C. Bullitt سفير الولايات المتحدة في فرنسا،عندما قام بزيارة الخارجية الالمانية في الثامن عشر من ايار عام١٩٣٦. وقد بعث المستر بوليت الى وزارة خارجيته يقول :

« قال لي فون نوراث ان سياسة الحكومة الألمانية تقوم على التوقف عن أي نشاط في الشؤون الخارجية ، الى ان يتم (هضم منطقة الراين) . وقد اوضح ان ما يعنيه هو ان الحكومة الألمانية ستعمل كل ما وسعها للحيلولة دون هجوم نازي على النمسا دون ان تكتفي بعدم تشجيعه ، كما انها ستتبع خطة هادئة تجاه تشيكوسلوفاكيا،وذلك الى ان يتم بناء التحصينات الألمانية على الحدود الفرنسية والبلجيكية.ومضى بعد ذلك يقول ... ولكن

عندما يتم بناء هذه التحصينات وتدرك دول اوروبا الوسطى ، ان فرنسا عاجزة عن دخول الأرض الألمانية كما تشاء وتهوى ، فان هذه الدول نفسها ستبدأ في الشعور شعوراً مغايراً تجاه سياساتها الخارجية وتظهر هناك صورة جديدة للموقف العام »[1] .

وبالفعل فقد بدأ هذا التطور ...

وكتب الدكتور شوشنيغ في يومياته يقول ... « وعندما وقفت على قبر سلفي ، دلفوس القتيل ، عرفت ان من واجبي للحفاظ على استقلال النمسا ان اشرع في السير على طريق الترضية ... وكان عليّ ان اعمل كل شيء ممكن لتجنب ما يمكن لألمانيا ان تعتبره ذريعة للتدخل ، وكان علينا ان نبذل كل جهد لنضمن بطريقة من الطرق تسامح هتلر تجاه استمرار الوضع الراهن » .[2]

وقد لقي مستشار النمسا الجديد والشاب ، التشجيع من بيان هتلر في الرايشستاغ في الواحد والعشرين من ايار عام ١٩٣٥ ، عندما أعلن ان المانيا « لا تعتزم ولا ترغب في التدخل في شؤون النمسا الداخلية ، أو في اغتصابها أو ضمها اليها » . وأحس بشيء من الاطمئنان للتأكيد الذي صدر عن اجتماع ستريزا بين ايطاليا وفرنسا وبريطانيا عن عزمها على بذل كل ما في وسعها للابقاء على استقلال النمسا . ولكن موسوليني ، المدافع الرئيسي عن النمسا منذ عام ١٩٣٣ ، سرعان ما غدا متورطاً في الحبشة ، وساءت علاقاته بفرنسا وبريطانيا. وعندما زحف الالمان على حوض الراين وشرعوا في تحصينه ، ادرك الدكتور شوشنيغ ان الوقت قد حان لاجراء ترضية ما لهتلر . وشرع يفاوض بابن الوزير الألماني الماكر في فيينا لعقد معاهدة جديدة ، لا سيما وان هذا الرجل الذي كان على شفير الموت على ايدي النازيين في عملية تطهير حزيران ، مضى يعمل فور وصوله الى النمسا في اواخر صيف عام ١٩٣٥ ، وبعد اغتيال الألمان لدلفوس ، على تحطيم استقلال النمسا وتسليم مسقط رأس هتلر الى ايدي الزعيم ، لقمة سائغة .

---

١ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٨٩٠

٢ ــ كورت فون شوشنيغ « مطالب النمسا » ص ٥

وكان قد بعث الى هتلر في السابع والعشرين من تموز عام ١٩٣٥ ، في تقريره العام عن الجهود التي بذلها مدة عام كامل من الخدمة في فيينا يقول ... « لا ريب في ان الاشتراكية الالمانية ستتغلب بل ويجب ان تتغلب على العقائدية النمسوية الجديدة »[١]

وبدا الاتفاق النمسوي – الالماني الذي وقع في الحادي عشر من تموز ، عام ١٩٣٦ في صيغته التي نشر فيها ، يحمل طابع التسامح والكرم اللذين لا حد لهما من جانب هتلر . اذ عادت المانيا تؤكد اعترافها بسيادة النمسا ووعدها بأن لا تتدخل في شؤون جارتها الداخلية . ووعدت النمسا مقابل ذلك ان تسير في سياستها الخارجية دائماً على اساس المبدأ القائل بأنها تعترف بنفسها « دولة المانية » .

ولكن المعاهدة تضمنت بعض البنود السرية[٢] . وقد تنازل شوشنيغ عن بعض الامور التي قدر لها ان تسير به وببلاده الصغيرة الى مصيرهما المحتوم .فقد وافق بصورة سرية على اصدار عفو عام عن المسجونين السياسيين النازيين في النمسا ،وعلى تعيين ممثلين عما يسمى «بالمعارضة الوطنية»وهو اسم مستعار يطلق على النازيين وعلى مؤيدي النازية في مناصب « ذات مسؤولية سياسية » . وكان هذا النص بمثابة السماح لهتلر بأن يكون له« حصان طروادة » في النمسا. فسيزحف داخل هذا الحصان عما قريب سايس – اينكوارت ، المحامي النمسوي العامل في فيينا ، والذي قدر له ان يلعب دوراً هاماً في القصة التالية .

وعلى الرغم من ان بابن قد حصل على موافقة هتلر على نص المعاهدة ، بعد ان قام بزيارة شخصية لبرلين في مطلع شهر تموز لهذه الغاية ، فان الفوهرر ، ثار ثورة شديدة على مبعوثه ، عندما هتف له هذا في السادس عشر من تموز من فيينا ليبلغه ان المعاهدة قد تمّ توقيعها.

وكتب بابن فيما بعد يقول :

---

١ – المؤامرة النازية والعدوان (١) ص ٤٦٦ .

٢ – وثائق زرارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٢٧٨ – ٢٨١

« لقد اذهلني رد فعل هتلر . فبدلاً من ان يعرب لي عن عميق شكره ، شرع يكيل لي سيلاً من السباب . وقد اتهمني بتضليله لحمله على منح تنازلات ضخمة .. وقال ان القضية كلها شرك أوقعته فيه » [1]

ولكن الاحداث اثبتت ان الشرك كان لشوشنيغ لا لهتلر .

وكان توقيع المعاهدة النمسوية – الألمانية دليلاً على ان قبضة موسوليني قد ارتفعت عن النمسا. وكان من المحتمل ان يتوقع الناس ان يؤدي هذا التطور الى تردي العلاقات بين الديكتاتورين الفاشيين . ولكن ما حدث كان على النقيض تماماً، وذلك بسبب الاحداث التي كانت الآن وفي عام ١٩٣٦ عوناً لهتلر.

* * *

ودخلت القوات الايطالية في الثاني من ايار عام ١٩٣٦، مدينة اديس ابابا، عاصمة الحبشة، واعلنت عصبة الامم في الرابع من تموز اذعانها الرسمي، وقررت رفع العقوبات عن ايطاليا . ولم يمض اسبوعان حتى كان فرانكو يعلن في السادس عشر من تموز ثورة عسكرية في اسبانيا ، مما ادى الى وقوع الحرب الاهلية .

وكان هتلر ، جرياً على مألوف عادته في مثل هذا الوقت من كل عام يشهد « الاوبرات » في عيد واغنر في بايروت. ووصل الى بايروت ليلة الثاني والعشرين من تموز ، وكان هتلر قد عاد لتوه من المسرح ، رجل اعمال الماني قادماً من مراكش، فجاء ، يقابل الفوهرر مع القائد النازي المحلي ، ليقدم اليه رسالة عاجلة من فرانكو ، يطلب فيها بعض الطائرات والمساعدات الحربية العاجلة . واستدعى هتلر على الفور غورنغ والفريق فون بلومبرغ ، الذى كان في بايروت بصورة عارضة ، وسرعان ما اتخذ القرار في تلك الليلة نفسها بتقديم المساعدة الى الثورة الاسبانية . [2]

---

١ – بابن – مذكرات . ص ٣٧٠
٢ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٣) ص ١ – ٢

وعلى الرغم من أن العون الألماني لفرانكو لم يضاه قط في كمه ما قدمته ايطاليا له ، اذ كانت هذه قد بعثت اليه بما يتراوح عدده بين الستين الفاً والسبعين الفاً من الجنود ، بالاضافة الى عدد ضخم من الاسلحة والطائرات ، الا ان هذه المساعدة ايضاً كانت كبيرة الى حد ما . ولقد قدر الألمان فيما بعد انهم انفقوا نحواً من نصف بليون مارك على هذه المغامرة [1] ، بالاضافة الى تزويدهم فرانكو بالطائرات والدبابات والخبراء ووحدة « كوندور » الجوية التي ابرزت نفسها بازالة مدينة غويرنيكا الاسبانية وجميع أهلها من عالم الوجود . ولا ريب في ان هذه المساعدات لا تعتبر شيئاً بالنسبة الى تسلح المانيا الضخم ؛ ولكنها على أي حال سببت لهتلر ارباحاً طيبة .

فلقد خلقت لفرنسا دولة فاشية ثالثة غير صديقة على حدودها . ووسعت شقة الخلاف الداخلي في فرنسا بين اليمين واليسار وأضعفت بذلك منافسة المانيا الرئيسية في الغرب . يضاف الى هذا انها جعلت من المستحيل قيام تقارب بين بريطانيا وفرنسا من ناحية وبين ايطاليا من الناحية الأخرى وهو تقارب كانت حكومتا لندن وباريس تعلقان عليه آمالاً كبيرة بعد انتهاء الحرب الحبشية ، وبذلك قذفت بموسوليني اخيراً في احضان هتلر .

وكانت سياسة الفوهرر الاسبانية منذ البداية منطوية على المكر والدهاء والحساب الدقيق وبعد النظر . وتشير الوثائق الالمانية المصادرة بوضوح الى ان احد اهداف هتلر ، كان يرمي الى اطالة الحرب الاهلية الاسبانية ، للإبقاء على الخلاف قائماً بين الديموقراطيين الغربيين وبين ايطاليا ، وبذلك يضمن جر موسوليني الى جانبه [2]. وكان اولريخ فون هاسّيل، السفير الالماني في روما

---

١ — وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٣) ص ٨٩٢ — ٨٩٤

٢ — بعد اكثر من عام واحد ، وفي الخامس من تشرين الثاني ١٩٣٧ ، عاد هتلر فكرر سياسته الاسبانية الجديدة في حديث سري اجراه مع قادته العسكريين ومع وزير خارجيته . ويروى انه قال لهم : ان وجهة نظر المانيا تتلخص في انها لا ترغب في نصر كامل لفرانكو . ان ما يهمنا هو استمرار الحرب والحفاظ على التوتر في البحر المتوسط . « وثائق وزارة الخارجية الالمانية » (١) ص ٣٧

الذي لم يكن بعد قد استطاع تحقيق التعرف على الاهداف والاجراءات النازية ثم ما لبث ان تعرف عليها ، فأدى تعرفه هـــذا الى موته ، قد بعث في شهر كانون الأول عام ١٩٣٦ بالتقرير التالي الى الوهلمشتراسه :

« ان الدور الذي تلعبه الحرب الاسبانية بالنسبة الى علاقات ايطاليا مع فرنسا وانكلترا يمكن ان يغدو شبيهاً بالدور الذي لعبته الحرب الحبشية ، اذ كشفت كشفاً واضحاً عن المصالــح الدولية المتعارضة ، وحالت بين ايطاليا وبين الانجذاب الى جانب الدول الغربية لتستخدمها في حيلها وألاعيبها . وهكذا فان الصراع على النفوذ السياسي المسيطر في اسبانيا يحسر النقاب عن التعارض الطبيعي بين ايطاليا وفرنسا ، كما يضع في الوقت نفسه مركز ايطاليا كدولة في غرب البحر الابيض المتوسط في موقف التعارض مع بريطانيا . وهكذا فان ايطاليا ستدرك شيئاً فشيئاً جدوى مواجهة الحلفاء جنباً الى جنب مع المانيا » [١]

ولقد كانت هذه الظروف هي التي جاءت الى الحياة بمحور برلين روما. وقام الكونت جاليازو شيانو ، صهر موسوليني ووزير خارجيته، في الرابع والعشرين من تشرين الأول ، بعد ان اجتمع بنوراث في برلين ، بأول رحلات حجيجه الى برختسغادن . وقد عثر على الديكتاتور الألماني في حالة من الانطلاق والتودد . ولقد قال هتلر ان موسوليني في رأيه « أعظم ساسة العالم ، وليس في وسع أي إنسان ان يدعي لنفسه الشبه به من قريب او بعيد » . واضاف ان فـــي وسع المانيا وايطاليا معاً ان لا تكتفيا بالتغلب على « البلشفية » بل وعلى الغرب ايضاً، بما في ضمنه انكلترا . وقال هتلر انه يرى ان البريطانيين قـــد يحاولون فـــي النهاية التفاهم مع ايطاليا والمانيا المتحدتين ، أما اذا لم يحاولوا ذلك، فان الدولتين معاً قادرتان على الخلاص منهم بسهولة . وراح هتلر يـــذكر شيانو بقوله ... « ان تسلح المانيا وايطاليا يجري بسرعة اكبر مما تستطيع انكلترا تحقيقه من

١ ـــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٣)ص ١٧٢ .

تسلح ،وستغدو المانيا متأهبة للحرب في غضون ثلاث سنوات...»[1]

ولا ريب في ان هذا التاريخ مهم للغاية ... اذ بعد ثلاث سنوات تماماً حل خريف عام ١٩٣٩ .

ووقـع شيانو ونوراث في الواحد والعشرين من تشرين الأول في برلين بروتوكولاً سرياً حدد سياسة مشتركة لألمانيا وايطاليا في الشؤون الخارجية . وعندما تحدث موسوليني بعد بضعة ايام أي في الأول من تشرين الثاني،في خطاب ألقاه في ميلان عن هذا البروتوكول،ذكر دون أن يكشف النقاب عن المحتويات، انه يؤلف محوراً يمكن للدول الأوروبية الأخرى ان تلتف حوله ، وان تعمل متعاونة في نطاقه . وقد غدت كلمة « المحور » هـذه مشهورة كل الشهرة ، كما غدت قتـّالة بالنسبة لقائلها الدوتشي .

وعندما اطمأن هتلر الى ان موسوليني قد غدا في جيبه ، اتجـه باهتمامه الى ناحية اخرى . وكان في شهر آب عام ١٩٣٦ قـد عيّن ريبنتروب سفيراً له في لندن ، ليقوم بمحاولة تهدف الى امكان اجراء تسوية مع انكلترا طبقاً للشروط التي يراها هو . وكان هذا الاختيار ، أسوأ ما يمكن لهتلر ان يعمله ، كما قـال غورنغ ، اذ عرف عن هـذا الرجل عجزه وكسله وغروره واختياله بنفسه كالطاووس ، وصلفه وافتقاره الى خفة الروح . فقد اعلن غورنغ فيما بعد ... قائلاً : « وعندما انتقدت مؤهلات ريبنتروب التي لا تمكنه من معالجة المشاكل البريطانية ، رد الفوهرر بـأن ريبنتروب يعرف اللورد الفلاني والوزير الفلاني. فرحت ارد عليه قائلاً : اجل ولكن الصعوبة في الموضوع هي ان هؤلاء الناس يعرفون ريبنتروب »[2] .

ومن الحق ان يقال ان ريبنتروب ، على الرغم من افتقاره الى الجاذبية كانسان، لم يكن يفتقر الى الاصدقاء من ذوي النفوذ في لندن . وكان من المعتقد في برلين

---

١ ــ اوراق شيانو الدبلوماتية ــ تنقيح واعداد مالكولم مغريدج . ص ٤٣ ــ ٤٨ .

٢ ــ ميلتون شولمان ــ الهزيمة في الغرب ، ص ٧٦ . يذكر ان مصدره ، نشرة لدوائر المخابرات العسكرية البريطانية صدرت في كانون الأول عام ١٩٤٥ ، ويبدو ان هذا القول مقتبس من نتائج التحقيق مع غورنغ .

ان السيدة سمبسون صديقة الملك (غدت زوجته بعد ان تنازل عن العرش) كانت من بين هؤلاء الاصدقاء. لكن جهود ريبنتروب الأولى في منصبه الجديد لم تكن مشجعة ، وقد طار عائداً الى برلين في شهر تشرين الثاني ، ليصل بمهمة كان يقوم بها في هذه الآونة ، الى نهايتها. ووقّع في الخامس والعشرين من تشرين الثاني ميثاق مكافحة الشيوعية الدولية (الكومنترن) مع اليابان ثم أعلن لمراسلي الصحف (وكان مؤلف هذا الكتاب واحداً منهم) دون ان يطرف له جفن ، ان المانيا واليابان قد اتحدتا معاً للدفاع عن الحضارة الغربية . وبدا هذا الميثاق في ظاهره مجرد حيلة من حيل الدعاية التي تستطيع المانيا واليابان عن طريقها ، وعن طريق استغلال الكراهية العالمية للشيوعية ، وعدم الثقة عامة بالكومنترن ، تحقيق اهدافها. ولكن هذه المعاهدة تضمنت ايضاً ملحقاً سرياً موجهاً ضد روسيا بصورة خاصة. فقد اتفقت الدولتان ، في حالة وقوع هجوم لا مبرر له من الاتحاد السوفياتي على المانيا أو اليابان ، على التشاور في موضوع الاجراءات التي يجب اتخاذها « لضمان مصالحها المشتركة » ، وكذلك « على عدم اتخاذ اية اجراءات تؤدي الى تخفيف الوضع بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي » . وتم الاتفاق ايضاً على ان لا تعقد أي من الدولتين اية معاهدات سياسية مع روسيا تتعارض مع روح هذا الاتفاق الا بعد الموافقة المشتركة للبلدين [١] .

ولم يمضِ طويل وقت ، حتى كانت المانيا تنقض هذا الاتفاق متهمة اليابان دون مبرر بعدم السير بموجبه. ولكن الميثاق كان نافعاً من ناحية بعض الاهداف الدعائية التي غررت بالسذج من الناس في العالم ، كما انها قربت لأول مرة بين الدول المحرومة والمعتدية . فلقد سارعت ايطاليا الى توقيعه في العام التالي .

* * *

وألقى هتلر في الثلاثين من كانون الثاني عام ١٩٣٧ ، خطاباً في الرايشستاغ اعلن فيه « سحب توقيع المانيا » من معاهدة فرساي ، وهو عمل ينطوي على ايماءة تافهة ولكنها نموذجية ، لا سيما وان المعاهدة كانت قد غدت الآن ميتة لا

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الألمانية ص ٧٣٤

حراك فيها ، كما عرض فيه مزهواً الأعمال التي حققها في اربع سنوات من الحكم . وكان في الامكان ان يغفر له زهوه هذا ، اذ كان سجل هذه السنوات الاربع ضخماً ومؤثراً في الشؤون الداخلية والخارجية . فلقد قضى كما رأينا على البطالة ، وخلق حالة من الانتعاش في العمل ، وبنى جيشاً قوياً بالاضافة الى اسطول وسلاح جوي قويين ، وجهز هذه الفروع الثلاثة من القوات المسلحة باسلحة ومعدات ضخمة ، كما حمل لواء الأمل امامها بالمزيد من هذه الاسلحة وعلى نطاق اوسع . وكان قد حطم وحيداً قيود معاهدة فرساي ، وشق طريقه بالخديعة والمكر محتلاً منطقة الراين . وبعد ان كان وحيداً معزولاً في البداية ، وجد حليفاً مخلصاً في موسوليني وآخر في فرانكو ، وتمكن من فصم بولندة عن فرنسا. ولعل ما هو اهم من هذا كله ، انه تمكن من اطلاق الحيوية الدينامية للشعب الألماني باعثاً الثقة في الأمة وفي احساسها برسالتها كدولة عالمية عظمى ومتطلعة الى التوسع .

وكان في وسع كل انسان ان يرى أوجه التباين بين المانيا الجديدة هذه، الناجحة والمنتعشة ، والمقودة قيادة عسكرية جريئة ، وبين الديموقراطيات المنحلة في الغرب ، التي بدت بترددها وما يسودها من فوضى ، وكأنها تسير في طريق المزيد من الانحلال شهراً بعد شهر . وعلى الرغم من الفزع الذي حل ببريطانيا وفرنسا فان هاتين الدولتين لم ترفعا اصبعاً واحداً للحيلولة بين هتلر وبين نقض معاهدة الصلح بتسليحه المانيا واعادة احتلال منطقة الراين ، كما عجزتا عن وقف موسوليني في الحبشة . أما الآن ومع استهلال عام ١٩٣٧ ، فقد بدت هاتان الدولتان وكأنهما تقومان بايماءات لا جدوى منها لمنع المانيا وايطاليا من تقرير نتيجة الحرب الاهلية الاسبانية . وكان كل انسان يعرف ما تفعله المانيا وايطاليا في اسبانيا لضمان النصر لفرانكو . ومع ذلك فقد واصلت حكومتا لندن وباريس سنوات طويلة اشغال نفسيهما في مفاوضات دبلوماتية فارغة مع برلين وروما لضمان « عدم التدخل » في اسبانيا . وكان هذا العمل اشبه بلعبة مسلية للديكتاتور الألماني ، ضاعفت من ازدرائه للقادة السياسيين

المتعثرين في فرنسا وبريطانيا ، الذين سرعان ما اطلق عليهم اسم « حشرات صغيرة » في مناسبة تاريخية جديدة مكنته ثانية من اذلال الديموقراطيتين الغربيتين بمنتهى السهولة واليسر .

ولم يبد ان بريطانيا العظمى وفرنسا وحكومتيها وشعبيها وكذلك الاغلبية الغالبة من الشعب الألماني ، قد ادركت جميعها عندما هل عام ١٩٣٧ ، ان كل ما فعله هتلر في السنوات الأولى من حكمه ، لم يكن الا مجرد تهيئة للحرب . ويستطيع مؤلف هذا الكتاب ان يشهد استناداً الى ملاحظاته الشخصية ، بأن الشعب الألماني حتى اليوم الاول من ايلول عام ٩٣٩ ، كان مقتنعاً من ان هتلر سيحصل على ما يريد ويحقق لهذا الشعب ما يروم دون اللجوء الى الحرب . أما عند الطبقة المختارة التي تتولى إدارة المانيا أو تقوم بخدمتها في المناصب الهامة الحساسة ، فلم يكن هناك ثمة من شك في حقيقة ما ينتويه هتلر . وعندما دنت السنوات الاربع لفترة « اختبار » الحكم النازي ، كما اسماها هتلر ، من نهايتها صرح غورنغ ، الذي كان قد تولى منذ ايلول عام ١٩٣٦ مسؤولية تنفيذ مشروع السنوات الاربع ، بحقيقة ما سيقع في خطاب سري القاه على رجال الصناعة وكبار الموظفين في برلين قال فيه :

« ان المعركة التي نقترب منها الآن تتطلب منا نطاقاً ضخماً من الطاقة الانتاجية . فليس في وسعنا تصور أي تحديد للتسلح . وليس ثمة امامنا إلا احد سبيلين ، اما النصر واما الدمار ... ونحن نعيش في وقت تتراءى امامنا فيه المعركة الضخمة . وهنا نحن نقف على عتبة التعبئة . وقد غدونا وكأننا في حرب . ولعل الشيء الوحيد الذي لم يقع بعد ، هو اطلاق النار الفعلي »[١] .

وقد وجه غورنغ انذاره هذا في السابع عشر من كانون الاول عام ١٩٣٦ ، ولم يمض احد عشر شهراً ، كما سنرى عما قريب ، حتى كان هتلر قد اتخذ قراره القدري والثابت ، على خوض الحرب .

---

١ ـــ المؤامرة النازية والعدوان (١٢) . ص ٤٦٠ ـــ ٤٦٥

١٩٣٧ « لا مفاجئات »

اعلن هتلر في الخطاب الذي ألقـــاه على اعضاء الرايشستاغ الذين يمثلون « الانسان الآلي» في الثلاثين من كانون الثاني عام ١٩٣٧، ان «زمن مـــا يسمى بالمفاجئات قد انتهى وولـّى » .

وحقاً لم تقع أية مفاجئات من تلك التي ألفها العالم في نهايات الاسابيع طيلة عام ١٩٣٧ [١]. وكانت هذه السنة في الحقيقة فترة توطيدللدعـــائم واستعداد مقبل للاهداف التي حددها الفوهرر اخيراً في تشرين الثاني لمجموعة من كبـار قادته العسكريين . وهكذا خصصت هذه السنة لصنع الاسلحة وتدريب الجنود واختبار السلاح الجوي الجديد في اسبانيا [٢]. وتطوير صناعتي الغازولين والمطاط الكيماويتين ، وترسيخ دعائم محور روما ــ برلين ، وترقب ظهور نقاط ضعف جديدة في باريس ولندن وفيينا .

وواصل هتلر في الاشهر الأولى من عام ١٩٣٧ ايفاد كبار المبعوثين الى روما لتنمية العلاقات مع موسوليني. وكان الألمان قد احسوا بالقلق من جراء ما تبديه ايطاليا من غزل لبريطانيا ، اذ كان شيانو قد وقع في الثاني من كانون الثاني « اتفاق الرجل المهذب » مع الحكومة البريطانية الذي نص على اعتراف كل من الدولتين بالمصالح الحيوية للدولة الاخرى في البحر المتوسط ، كما ادركوا ، ان قضية النمسا ما زالت موضوعاً حساساً بالنسبة الى روما . ويقـــول الترجمان

---

١ ــ الف موظفو الوهلمشتراسه القول ساخرين ، من ان هتلر يطلع بمفاجئاته في ايام السبت لأنه كان قد سمع بان الموظفين البريطانيين يمضون الى عطلة نهاية الاسبوع في ذلك اليوم .

٢ ــ تحدث غورنغ في افادته التي قدمها الى محاكمات نورمبرغ في الرابع عشر من اذار عام ١٩٤٦ ،مزهواً عن الفرص التي اتاحتها الحرب الاهلية الاسبانية لاختبار سلاحه الجـوي الفتي . ومضى يقول : « وقد بعثت بموافقة الفوهرر ، جزءاً كبيراً من اسطول مواصلاتنـا الجوية ، وعدداً من وحدات الاختبار للطائرات المحاربة والقاذفة للقنابل والمدفعية المضادة ، وتمكنت عن هـذه الطريق من التأكد ، في ظروف المعركة نفسها من كفاية سلاحنا للمهمة . ورغبة مني في ضمان التجربة العملية لاكبر عدد من طيارينا ، كنت اواصل دائما ايفاد عدد جديد من الطيارين الى اسبانيا ليحلوا محل من مروا بالتجربة العملية » .(المؤامرة النازية والعدوان (٩) ص ٢٨١

الألماني بول شميدت ان غورنغ تحدث بصراحة الى الدوتشي عند مقابلته له في الخامس من كانون الثاني عن حتمية الاتحاد بين النمسا والمانيا (الانشلوس) ، وان الديكتاتور الايطالي هزّ رأسه بعنف عندما سمع هذا الحديث . ويقول السفير فون هاسّيل في تقرير بعث به الى برلين ، ان بيان غورنغ عن موضوع النمسا « قوبل بالكثير من الفتور » . وسارع نوراث في حزيران الى التأكيد للدوتشي بأن المانيا ستحافظ على ميثاقها الذي وقعته في الحادي عشر من تموز مع النمسا ، وأضاف ان الالمان لن يقوموا بأي اجراء صارم إلا في حالة واحدة ، وهي محاولة اعادة آل هابسبرغ الى الحكم .

وهكذا قبل موسوليني ، بعد ان هدأت نفسه في موضوع النمسا وتحت ضغط ما يلقاه من معارضة من بريطانيا وفرنسا لجميع مطامحه في الحبشة واسبانيا والبحر المتوسط ، الدعوة التي تلقاها من هتلر لزيارة المانيا ، وعبر في الخامس والعشرين من ايلول عام ١٩٣٧ ، وقد ارتدى بزة جديدة خاطها لهذه المناسبة ، جبال الألب ، ماضياً الى الرايخ . واستقبله هتلر وأعوانه بالكثير من التبجيل والنفاق . ولم يدر موسوليني ، كم كانت هذه الرحلة قدرية له آنذاك ، بوصفها الرحلة الأولى من سلسلة طويلة من الرحلات لزيارة هتلر ، التي قدر لها ان تضعف بصورة متدرجة ، موقفه الى ان وصلت به اخيراً الى نهايته المخيفة . ولم يكن هدف هتلر من هذه الدعوة الدخول في محادثات دبلوماسية جديدة مع ضيفه ، بل التأثير عليه بما لدى المانيا من قوة عسكرية ، وتشديد « حالة التسلط » التي سيطرت على موسوليني ليلقي بنصيبه الى الجانب الرابح . وحمل الدوتشي بسرعة من هذا الطرف من المانيا الى ذاك ، مستعرضاً الجنود ورجال الحرس النازي ، وشاهداً المناورات العسكرية في مكلنبرغ ، وطائفاً بمصانع الاسلحة الهادرة في الروهر .

ووصلت الزيارة الى ذروتها في برلين ، في الثامن والعشرين من ايلول ، باحتفال كان له اكبر التأثير على الضيف . فقد احتشد اكثر من مليون انسان في ميدان ميفيلد للاستماع الى الديكتاتورين العسكريين وهما يلقيان خطابيهما . وطاش لب موسوليني وهو يخطب بالالمانية من الهتافات المدوية ومن كلمات

هتلر المطرية التي اشبعت في نفسه الغرور. فقد قال الفوهرر ان الدوتشي «واحد من اولئك الناس النادرين في عصور التاريخ ، الذين يتولون صناعة هذا التاريخ ولا يكونون مجرد ادوات لاختباراته» . واني لأذكر ان عاصفة من الرعود والبروق قد هبت على الميدان قبل ان ينهي موسوليني خطابه . وسرعان ما عمّ الاضطراب المكان من جراء تفرق الحشود الهائلة من الناس ، وتحطمت اجراءات الوقاية التي اتخذها الحرس النازي ، واضطر الدوتشي المتعجرف وقد التصقت ثيابه المبللة بجسده ، الى شق طريقه ليعود وحيداً الى المكان الذي يحل فيه . لكن هذه التجربة المشؤومة لم تخفف من حماس موسوليني ليغدو شريكاً لألمانيا الجديدة والقوية هذه . وعاد في اليوم التالي بعد ان استعرض وحدات عسكرية مختارة من الجيش والبحرية والسلاح الجوي الى روما ، مقتنعاً بأن مستقبله يقوم الى جانب هتلر .

ولم يكن من الغريب والحالة هذه ، ان يسمع ريبنتروب من الدوتشي عندما قام برحلته الى روما بعد نحو من شهر ، ليحصل على توقيع موسوليني على ميثاق مكافحة الكومنترن ، في احتفال رسمي جرى في السادس من تشرين الثاني ، بأن ايطاليا لم تعد تكترث باستقلال النمسا اذ قال ... « لتأخذ الاحداث في النمسا مجراها الطبيعي » . وكان هذا القول بمثابة اشارة الانطلاق التي طال انتظار هتلر لها .

وتأثر حاكم آخر بزيادة قوة المانيا النامية . فعندما حطم هتلر ميثاق لوكارنو ، ووصل بقواته الألمانية بعد احتلال منطقة الراين الى حدود بلجيكا ، اعلن ليوبولد، ملك هذه البلاد، انسحاب بلاده من ميثاق لوكارنو ومن محالفاته مع بريطانيا وفرنسا ، وأضاف ان بلجيكا ستتبع منذ الآن سياسة مطلقة من الحياد . وكان هذا الانسحاب بمثابة ضربة قاصمة لنظام الدفاع الجماعي عن الغرب ، وسرعان ما برهنت الاحداث على انه قد كلفهما كما كلف بلجيكا نفسها ثمناً غالياً .

وراقبت الوهلمشتراسه في نهاية أيار بكثير من الاهتمام تخلي ستانلي بولدوين

(Stanley Baldwin) عن الحكم في بريطانيـــا العظمى وتولي نيفيل تشمبرلين (Neville Chamberlain) رئاسة الوزارة. وقد طرب الألمان لسماعهم بأن الرئيس البريطاني الجديد ، سيكون اكثر اهتماماً شخصياً بالشؤون الخارجية من سلفه ، وانه يعتزم الوصول ان امكنه ، الى تفاهم مع المانيا النازية . وقد رسم البارون فون وايزساكر (Weizsacker) رئيس الدائرة السياسية في وزارة الخارجيـــة الألمانية آنذاك ، الخطوط العريضة لنوع التفاهم الذي يمكن لألمانيا ان تقبله في مذكرة سرية اعدها في العاشر من تشرين الثاني قال فيها :

« نحن نريد من بريطانيا بعض المستعمرات وحريـــة العمل في الشرق ... وحاجة بريطانيا الى الهدوء ماسة وضخمة . ولعل من النافع ان نعرف مـــا في استطاعة انكلترا ان تدفعه للحصول على هذا الهدوء » .[1]

وقد عرضت الفرصة لمعرفة ما يمكن لبريطانيا ان تدفعه نفسها في تشرين الثاني ، عندما قام اللورد هاليفاكس مصحوباً بموافقة المستر تشمبرلين الحماسية ، برحلته الى برختسغادن لمقابلة هتلر . وعقد الرجلان في التاسع عشر من تشرين الثاني محادثات طويلة ، وتظهر في المذكرة السرية الألمانية الطويلة التي اعدتهـــا وزارة الخارجية الألمانية [2]، عن هذه المقابلة ثلاث نقاط اولاها أن تشمبرلين كان تواقاً للغاية للوصول الى تسوية مع المانيا ومقترحاً اجراء محادثات بين البلدين على مستوى الوزراء ، وثانيها ان بريطانيـــا تريد تسوية اوروبية عامة ، وهي على استعداد مقابل الحصول عليها ، ان تقدم بعض التنازلات الى هتلر في موضوع المستعمرات واوروبا الشرقية ، وثالثتها ان هتلر لم يكن كثير الاهتمام في تلك اللحظة بعقد اتفاق انكليزي — الماني .

وبالنظر الى النتيجة السلبيـــة للمحادثات ، كان من المستغرب بالنسبة الى الألمان ان يروا البريطانيين وقد بدت عليهم علائم التشجيع منها[3] . ولا ريب

١ — وثائق وزارة الخارجية الالمانية، ص ٤٠

٢ — وثائق وزارة الخارجية الالمانية، ص ٥٥ — ٦٧

٣ — كتب تشمبرلين في يومياته يقول : « كانت زيارة هاليفاكس لألمانيا من وجهة نظري

في ان هـــذا الاستغراب كان من المقدر له ان يتحول الى مباغتة بالنسبة الى الحكومة البريطانية لو انها علمت بالاجتماع السري للغاية ، الذي عقده هتلر مع كبار قادته العسكريين ووزير خارجيته في برلين قبل اربعة عشر يومـــاً من محادثاته مع اللورد هاليفاكس .

القرار القدري في الخامس من تشرين الثاني عام ١٩٣٧

ظهرت اشارة عن الاشياء المرتقبة وعن الاستعدادات الـــتي يجب اتخاذها لمواجهتها في توجيه يحمل عبارة « سري للغاية » بعث به المشير فون بلومبرغ في الرابع والعشرين من حزيران عام ١٩٣٧ ، الى قادة القوات المسلحة الثلاث . ولم ُتطبع منه الا اربع نسخ ليس إلا [١] . فلقد قال وزير الدفاع والقائد العام في توجيهه للقادة الثلاثة ان « الوضع السياسي العام يبرر الافتراض بأن المانيا ليست في حاجة الى التفكير بأي هجوم يقع عليها من اية ناحية » . فليست لدى الدول الغربية أو روسيا أية رغبة في الحرب ، كما انها ليست على استعداد لها .

ومضى التوجيه يقول : « ومع ذلك ، فإن الوضع المائع سياسياً في العالم، على الرغم من عدم انطوائه على حوادث مفاجئة يتطلب الاستعداد الدائم للحرب من

نجاحاً كبيراً وذلك لانها حققت هدفها في خلق جو ، يمكن فيه البحث مع المانيا في القضايا العملية التي تنطوي عليها التسوية الاوروبية » (كيث فيلينغ ، حياة نيفيل تشمبرلين ص ٣٣٢)

ويبدو ان هاليفاكس نفسه وقع تحت تأثير هتلر . فقد كتب في تقرير الى وزارة الخارجية يقول : « اوحى الي المستشار الالماني ورفاقه ، بأنهم ليسوا على استعداد للقيام بمغامرات تنطوي على القوة او الحرب » . ويقول تشارلز تانسيل ان هاليفاكس قدم تقريراً شفوياً الى تشمبرلين قال فيه ان هتلر « لا ينوي القيام بمغامرات مبكرة ، اما لانها قد لا تكون مجدية او لانه مشغول ببناء المانيا داخلياً » . . . ولقد اكد له غورنغ ان نقطة واحدة من الـدم الالماني لن تسفك في اوروبا الا اذا وجدت المانيا نفسها مرغمة على ذلك . وقد اوحى الالمان له بالانطباع بأنهم لا ينتوون الحصول على اهدافهم الا بطرق نظامية (تانسيل ، الباب الخلفي للحرب ص٣٦٥-٣٦٦)

١ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٦) . . ص ١٠٠١ ــ ١٠١١ .

جانب القوات الألمانية المسلحة ، للتمكن من استغلال الفرص السياسية المواتية عسكرياً عند وقوعها . ومن الواجب ان تتم الاستعدادات في فترة التعبئة لعامي ١٩٣٧ – ١٩٣٨ . وقـــد وضعت القوات المسلحة نصب عينها احتمال وقوع الحرب » .

ترى أي حرب ممكنة ، إذا لم تكن المانيا في حاجة الى الخشية « من أيـــة ناحية » ؟ لقد كان بلومبرغ واضحاً كل الوضوح . هناك احتمالان للحرب « وقد تمّ وضع الخطط لمواجهة كليهما » .

١ – الحرب في جبهتين مـــع التركيز على المعركة الاساسية في الغرب . (تركيز استراتيجي احمر – Rot) .

٢ – الحرب في جبهتين مـــع التركيز على المعركة الاساسية في الجنوب الشرقي (تركيز استراتيجي – اخضر) .

وكان الافتراض في الحالة الأولى ان الفرنسيين قد يعدون العدة لهجوم مباغت على المانيا ، مما يحتم على المانيا في هذه الحالة استخدام قواتها الرئيسية في الغرب . وقد اطلق على هذه العملية الاسم الرمزي (روت) أي الاحمر . [1]

أما بالنسبة الى الاحتمال الثاني :

« فإن الحرب في الشرق قـــد تبدأ بعملية عسكرية المـــانية مباغتة على تشيكوسلوفاكيا لإحباط هجوم متوقع من تحالف متفوق للاعداء. ومن الواجب ان يخلق مقدماً ، المبرر السياسي للقيام بمثل هذا العمل أمام القانون الدولي » .

ويؤكد التوجيه وجوب « ازالة تشيكوسلوفاكيا من الوجود منذ البداية

---

١ – كان هذا الاسم هو الأول من عدد من الاسماء الرمزية للخطط العسكرية الالمانية التي سيرد الحديث عنها في سياق القصة التالية . وكان الألمان يستخدمون كلمة « حالة » Fall لتعني خطة . فيقولون الحالة الحمراء او الحالة الخضراء، ليعنوا بهما العمليتين الحربيتين في الغرب وتشيكوسلوفاكيا . وكان يقصد من هذه التسميات في البداية كما ذكر القادة العسكريون الالمان في نورمبرغ ، التكنية عن الخطط العسكرية التي تشمل اوضاعاً افتراضية . ولكن سيتضح من سياق هذه القصة فيما بعد ، ان الاصطلاح بات يستعمل ليرمز الى خطة من العدوان العسكري . وقد تكون تسميتها بالعملية (Operation) اكثر دقة من تسميتها بالحالة (Case) ، لكن المؤلف يؤثر تسهيلا المضي في استعمال كلمة الحالة التي استخدمها الألمان فعلا في تعبيرهم .

واحتلالها . »

وكانت هناك ثلاث حالات اخرى يجب اتخاذ « اعدادات خاصة » تجاهها :

١ – التدخل العسكري ضد النمسا . (الحالة الخاصة «اوتو»).

٢ – تعقدات عسكرية مع اسبانيا الحمراء (الحـــالة الخاصة « ريشارد ») .

٣ – في حـــالة اشتراك انكلترا وبولندة وليتوانيا في حرب ضدنا (توسع الحالتين الخضراء والحمراء) .

وسيظهر اسم حـــالة (عملية) اوتو الرمزي كثيراً في الصفحات التالية . والمقصود بأوتو اسم الامير الصغير من آل هابسبورغ ، المطالب بعرش النمسا ، والذي كان يعيش آنذاك في بلجيكا . وقد لخص بلومبرغ حالة اوتو في توجيهه الذي اصدره في حزيران على النحو التالي :

« ان الغاية من هذه العملية – أي التدخل المسلح في النمسا في حالة عودتها الى الملكية – ارغام النمسا بالقوة المسلحة على التخلي عن فكرة عودة الملكية .

« ومن الواجب استخدام الخلافات السياسية الداخلية للشعب النمسوي ، والزحف تحقيقاً لهذا الهدف ، باتجاه مدينة فيينا وتحطيم أية مقاومة مسلحة » .

ولا ريب في ان لمحة من الحذر أو حتى من اليأس تبدو في نهاية هذه الوثيقة . فهي لا تسيء فهم موقف بريطانيـــا ، اذ تمضي محذرة فتقول : « ستستخدم انكلترا كافة مواردها الاقتصادية والعسكرية ضدنا » . وتعود الوثيقة فتعترف قائلة: « فإذا انضمت الى بولندة وليتوانيا،فان وضعنا العسكري سيسوء الى حد لا يطاق بل وإلى حد يائس . ولذا فمن واجب القـــادة السياسيين ان يبذلوا كل جهد ممكن للابقاء على هذه الدول وفي مقدمتها انكلترا على الحياد »

وعلى الرغم من أن بلومبرغ هو الذي وقع هذا التوجيه، الا ان من الواضح كل الوضوح ، انها صدرت عن سيده في مستشارية الرايخ.وقد وصل الى ذلك المركز

الحساس في الرايخ الثالث ، الواقع في الولهلمشتراسه في برلين ، بعد ظهر الخامس من تشرين الثاني ستة اشخاص ، ليتلقوا ايضاحات أخرى من الفوهرر ، وهم المشير فون بلومبرغ وزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة ، والفريق البارون فون فريتشه القائد العام للجيش ، واميرالبحر الدكتور ريدر القائد العام للاسطول. والفريق غورنغ القائد العام لسلاح الجو ، والبارون فون نوراث وزير الخارجية ، والعقيد هوسباخ المساعد العسكري للفوهرر . والاسم الاخير ليس من الاسماء التي قدر لها ان تبرز في هذه الصفحات ، وان كان هذا العقيد الشاب في تلك الساعات القاتمة من ذلك اليوم من ايام تشرين الثاني ، قد لعب دوراً في منتهى الأهمية . فقد كان يدوّن كل ما يقوله هتلر ، وبعد خمسة ايام كان يعد هذه الأقوال في مذكرة في منتهى السرية ، مسجلاً عن طريقها للتاريخ نقطة التحول الحاسمة في حياة الرايخ الثالث – وقد ظهرت هذه الوثيقة بين مجموعات الوثائق التي صودرت والتي عرضت في نورمبرغ .[1]

وبدأ الاجتماع في الساعة الرابعة والربع من بعد الظهر واستمر حتى الثامنة والنصف وكان هتلر هو المتكلم طيلة الوقت تقريباً . وقد بدأ حديثه قائلاً ، بأن «ما يريد قوله ، هو ثمرة التفكير الكامل والتجارب التي مر بها في غضون اربع سنوات ونصف السنة من الحكم » . وأوضح بأنه يعتبر الملاحظات التي سيبديها مهمة ، الى الحد الذي يجعله يطلب اليهم في حالة موته ، اعتبارها وصيته وارادته الاخيرة.

ومضى هتلر يقول : « ان هدف السياسة الألمانية هو ضمان الأمان للمجتمع العنصري والحفاظ عليه وتوسيعه . ولا تعدو القضية هنا ان تكون موضوع المجال الحيوي » . « واضاف ان للألمان حقاً في الحياة في مجال حيوي اوسع من الشعوب الأخرى ... ولذا فان مستقبل المانيا متوقف كلية على حل هذه المشكلة من الحاجة الى المجال » .[2]

١ – ملاحظات هوسباخ المؤرخة في ١٠ تشرين الثاني ١٩٣٧ . ورد النص الالماني في « محاكمات كبار مجرمي الحرب » – (٢٥) ص ٤٠٢ – ٤١٣ ، وقد وردت احسن ترجمة انكليزية لها في « وثائق وزارة الخارجية الالمانية » (١) ص ٢٩ – ٣٩ .

٢ – يلاحظ القارىء انني منذ هذه اللحظة بدأت استعمل نصوص الفقرات المقتبسة من حديث

ولكن أين ؟ طبعاً ليس في المستعمرات الآسيوية او الافريقية البعيدة ، وانما في قلب اوروبا « وعلى مقربة دانية من الرايخ » . والقضية بالنسبة الى المانيا هي اين يمكن لها ان تحقق اكبر ربح ممكن بأقل ثمن ممكن؟

وقال هتلر : « وقد اثبت تاريخ جميع العصور ، كتاريخ الامبراطورية الرومانية أو الامبراطورية البريطانية، ان التوسع لا يمكن ان يتم الا بتحطيم المقاومة وتحمل الاخطار ، فالنكسات شيء لا بد منه . ولم يكن هناك في التاريخ أي مجال لا صاحب له ، وليس ثمة من مجال كهذا ، اليوم . فالمهاجم يصطدم دائماً « بصاحب المجال » .

وأعلن هتلر ان هناك « دولتين تسيطر عليهما الكراهية » ، هما بريطانيا وفرنسا ، تقفان في طريق المانيا . فالدولتان تعارضان في أية « تقوية جديدة لمركز المانيا » . ولم يكن في وسع الفوهرر ان يصدق بأن الامبراطورية البريطانية « لا يمكن هزّها » . فهو على النقيض من ذلك يرى فيها الكثير من مظاهر الضعف ، وقد مضى يشرحها . فذكر متاعب بريطانيا مع ايرلنده والهند، ومنافسة اليابان لها في الشرق الاقصى ، ومنافسة ايطاليا لها في البحر الابيض المتوسط . وقال انه يرى بأن مركز فرنسا اكثر ملاءمة من مركز بريطانيا ، ولكن المتاعب الداخلية السياسية ستواجه فرنسا » . ثم مضى يقول، ولكن من الواجب على أي حال اعتبار بريطانيا وروسيا « عوامل قوة في حساباتنا السياسية » .

ولهذا ...

« يمكن حل مشكلة المانيا بطريق القوة ليس إلا ، ومثل هذه

هتلر كما وردت في الوثائق التي عثر عليها ، وعلى النحو الذي جاءت فيه دون اي تحريف . ولما كنت اريد ان احافظ على دقة الوثيقة الاصلية وعلى نصوص الكلمات المستعملة فيها ، فقد قررت ان من الافضل ان امتنع عن تغيير صيغة المخاطب فيها من الغائب الى المتكلم ، مخافة ان اكون بمثابة محرف لها .

وأرد ان اقول هنا انه بالنسبة الى الوثائق الالمانية نفسها . كثيراً ما تتبدل صيغة الكلام من الحاضر الى الماضي ومن المتكلم الى الغائب . واذا فكر المرء بهذه الحقيقة ، واعتبرها امراً واقعاً لا يبقى هناك اي ارتباك .

الطريق لا يمكن إلا ان تكون مصحوبة بالمجازفة ... واذا كان المرء يقبل اساس اللجوء الى القوة مع ما يرافقها من مخاطر ، فكل ما يتبقى هناك هو الرد على هذين السؤالين : «متى» و « أين » . وهناك ثلاث حالات تجب معالجتها .

الحالة الأولى : الزمن ١٩٤٣ — ١٩٤٥

« بعد هذا التاريخ لا يمكننا ان ننتظر من وجهة نظرنا الا تبدلاً نحو الاسوأ ، فلقد تمّ اعداد الجيش والاسطول والقوة الجوية تقريباً .. والاسلحة والمعدات حديثة تماماً . ويقوم هناك خطر الاهمال من جراء تأخير العمليات مدة اطول فسرية « الاسلحة الخاصة » لا يمكن الحفاظ عليها بصورة خاصة ... وستهبط قوتنا النسبية بالنسبة الى التسلح الذي يجري في بقية انحاء العالم ... يضاف الى هذا ، ان العالم كله كان ينتظر هجومنا ، وكان يضاعف من اجراءاته المقابلة سنة بعد أخرى . وقد اضطررنا الى اتخاد موقف الهجوم في الوقت الذي كانت فيه بقية انحاء العالم تزيد من وسائلها الدفاعية .

« وليس في مكنة انسان ان يعرف الآن ما سيكون عليه الوضع بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٥ . وهناك شيء واحد نحن على ثقة منه ، وهو ان ليس في استطاعتنا ان ننتظر مدة اطول .

« واذا قدر للفوهرر ان يظل حياً ، فإن تصميمه الذي لا يتغير يظل قائماً على وجوب حل مشكلة المجال الالماني في مدة اقصاها الفترة بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٥ . وقد تقع الضرورة في وجوب اتخاذ عمل قبل هذه الفترة في الحالتين الثانية والثالثة .

الحالة الثانية :

« اذا قدر للصراع الداخلي في فرنسا ، ان يتطور الى ازمة داخلية ضخمة ، تشغل الجيش الفرنسي اشغالاً كاملاً وتجعله عاجزاً عن خوض الحرب ضد المانيا ، فإن الوقت آنذاك يصبح صالحاً للشروع في العمل

ضد التشيكيين .

الحالة الثالثة :

« واذا قدر لفرنسا ان تكون منهمكة في حرب مع دولةأخرى بحيث تصبح عاجزة عن محاربة المانيا ...

« فإن هدفنا الاول يجب ان يكون التخلص من تشيكوسلوفاكيا والنمسا في وقت واحد حتى نزيل أي خطر على جناحنا في اية عملية محتملة ضد الغرب... وهكــــذا اذا تمكنا من ازالة التشيكيين من الوجود ، واقمنا حدوداً المانية – مجرية مشتركة ، فــــان موقفاً حيادياً من بولنده ، هو اقصى ما يمكننا الاعتماد عليه في حالة قيام صراع فرنسي – الماني » .

ولكن ماذا ستفعل كل من فرنسا وبريطانيا وايطاليــــا وروسيا ؟ ومضى هتلر يرد على هذا السؤال بشيء كثير من التفصيل . فهو يعتقد « ان بريطانيا على وجه التأكيد، وان فرنسا على وجه الاحتمال ، لا بد وأن تكونا قد رفعتا التشيكيين من حسابهما . فالمصاعب المتعلقة بالامبراطورية ، والخوف من ان تصبح متورطة في حرب اوروبية طويلة ومؤجلة ، كلها من العوامل الحاسمة التي تقرر لبريطانيا عدم اشتراكها في حرب ضد المانيا . ولا شك في ان موقف بريطانيا لن يخلو من التأثير على فرنسا . فالهجوم من جانب فرنسا دون دعم بريطانيا مع الخشية من توقف الهجوم على تحصيناتنا الغربية شيء كثير الاحتمال . وليس من المتوقع ان تزحف فرنسا عبر بلجيكا وهولنده دون عون من بريطانيا .. ولا ريب في أن من الضروري الحفاظ على دفـــاع قوي على حدودنا الغربية اثناء قيامنا بالهجوم على تشيكوسلوفاكيا وعلى النمسا » .

ومضى هتلر بعد ذلك يحدد بعض المزايا الـــتي تحصل عليها المانيا من « ضم تشيكوسلوفاكيا والنمسا اليها ». فهو يقول ان هذا الضم يؤمن حدوداً استراتيجية أفضل لألمانيا ، وتحرير القوات العسكرية للقيام باهداف أُخرى، واكتساب نحو من اثني عشر مليوناً من « الألمـــان » ، والحصول على كميات اضافية من المواد

الغذائية لنحو من خمسة أو ستة ملايين من الألمان في الرايخ ومن اليد العاملة لنحو من اثنتي عشرة فرقة عسكرية».

وقد نسي أن يذكر ما ستفعله ايطاليا وروسيا ، فعاد الآن اليهما . واعرب عن شكه في احتمال تدخل الاتحاد السوفياتي « بسبب موقف اليابان » . وقال ان ايطاليا لن تعارض في «القضاء على التشيكيين » ، أما موقفها بالنسبة الى احتلال النمسا فما زال يثير التساؤل . وكل شيء يتوقف بصورة اساسية « على ما إذا كان الدوتشي لا يزال حياً » .

ويقوم افتراض هتلر بالنسبة الى الحالة الثالثة على اشتباك فرنسا في حرب مع ايطاليا ، وهو صراع يعتمد عليه كل الاعتماد . واوضح أن هذا هو السبب في سياسته الرامية الى محاولة مد أجل الحرب الأهلية الاسبانية ، إذ انها تؤدي الى استمرار تورط ايطاليا في اشتباك مع فرنسا وبريطانيا . وهو يرى ان حرباً بينها وبين هاتين الدولتين « لا بد واقعة قريباً » . وقال انه في الحقيقة « مصمم على اغتنام مثل هذه الفرصة ، في أي وقت تقع فيه ، حتى ولو سنحت في عام ١٩٣٨ » ، أي بعد نحو من شهرين . وكان على ثقة من ان ايطاليا قادرة اذا ساعدتها المانيا بالمواد الأولية على الصمود فيوجهبريطانيا وفرنسا.ومضى يقول:

« واذا أفادت المانيا من هذه الحرب في تسوية قضيتي تشيكوسلوفاكيا والنمسا ، فالمفروض في بريطانيا ان تقرر نظراً لاشتباكها في حرب مع ايطاليا. عدم العمل ضد المانيا. وما لم تحصل فرنسا على عون من بريطانيا فلا يعقل ان تقوم بأي عمل حربي ضد المانيا .

«ومن الواجب ان يتوقف توقيتهجومنا على تشيكوسلوفاكيا والنمسا على سير الحرب الانكليزية – الفرنسية – الايطالية ... ومثل هذا الوضع المواتي قد لا يتكرر ابداً ... ولذا فمن الواجب ان يقع الهجوم على التشيكيين في سرعة البرق الخاطف » .

وهكذا تمَّ اعداد كل شيء ، عندما جن الظلام على برلين مساء ذلك اليوم

من أيام الخريف في الخامس من تشرين الثاني عام ١٩٣٧ ، اذ لم ينفض الاجتماع قبل الثامنة والربع . وبعد ان نقل هتلر للمجتمعين قراره الذي لا يقبل النقض بالمضي الى الحرب ، ولم يعد ثمة أي شك لدى الزمرة القليلة من الناس الذين سيتولون ادارة دفة هذه الحرب ، في حتمية وقوعها . وكان الديكتاتور قد اعلن ذلك قبل نحو من عشر سنوات في كتابه « كفاحي » . وذكر ان على المانيا ان تبحث عن مجالها الحيوي في الشرق ، وأن تكون متأهبة لاستخدام القوة للحصول على هذا المجال ، ولكنه لم يكن آنذاك اكثر من مجرد مهيّج مغمور ، ولم يكن كتابه ، كما وصفه المشير فون بلومبرغ ، فيما بعد ، معتبراً عند العسكريين وعند الكثيرين غيرهم ، اكثر من مجرد « قطعة من الدعاية » التي يرجع الفضل في انتشارها « الى البيع الالزامي » .

أما الآن فقد وجد قادة « الفيرماخت » ووزير الخارجية امامهم تواريخ محددة للعدوان الفعلي ضد دولتين جارتين ، وهو عمل كانوا واثقين من انه سيؤدي الى حرب اوروبية . وعليهم ان يكونوا على اهبة لهذه الحرب في العام التالي وعلى اكثر تقدير من الفترة الواقعة بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٥ .

وأذهلهم ادراك هذه الحقيقة . وليس صحيحاً كما يثبت من تسجيلات هوسباخ ، ان هؤلاء القادة قد دهشوا مما في اقتراحات زعيمهم من لا خلقية ، بل دهشوا بدافع عوامل اخرى اكثر واقعاً ، وهي أن المانيا ليست على استعداد بعد لخوض حرب كبيرة ، وان اثارتها في هذا الوقت تعني المغامرة بالكارثة .

وقد وجد بلومبرغ وفريتشه ونوراث نتيجة هذه الدوافع ، الجرأة على الحديث وسؤال الفوهرر عن بياناته ومناقشتها ولم تمض اشهر ثلاثة حتى كان الرجال الثلاثة الذين اجترأوا على الزعيم قد طردوا من مناصبهم . وأحس هتلر بأنه قد ارتاح من معارضتهم التي وقعت فعلا، والتي كان لا يسمح بوجودها في ايام حكمه في الرايخ الثالث . ثم شرع يمضي في طريق الفاتح المنتصر ليحقق قدره . ولقد كانت هذه الطريق في البداية اسهل مما توقعه هو أو توقعه أي انسان آخر .

١٠

فصل إضافي غريب ..

سقوط بلومبرغ ، فريتشه ، نوراث وشاخت

حل قرار هتلر باللجوء الى القوة المسلحة ضد النمسا وتشيكوسلوفاكيا حتى ولو ادى ذلك الى تورط المانيا في حرب مع بريطانيا العظمى وفرنسا ، وهو القرار الذي اوضحه في الخامس من تشرين الثاني ، كالصاعقة على وزير خارجيته فون نوراث ، حتى انه على الرغم من مسالمته وسهولة التعامل معه ، وضعفه المعنوي ، أخذ يعاني من عدة نوبات قلبية [١] .

وراح فيما بعد يحدث اعضاء محكمة نورمبرغ ... « لقد ازعجني خطاب هتلر كل الازعاج ، اذ ان ما قاله ، حطم جميع أسس السياسة الخارجية التي اتبعها باستمرار[٢] » . ولقد مضى وهو في هذه الحالة الفكرية وعلى الرغم من النوبات القلبية التي يعانيها ، بعد يومين يبحث عن الفريق فون فريتشه والفريق بيك ، رئيس اركان الحرب ، ليتحدث اليهما فيما يجب عمله ، « لحمل هتلر على تغيير افكاره » . وكان تأثير خطاب هتلر على بيك ، كما وصفه العقيد هوسباخ ، « مزلزلاً » لقواعد تفكيره . وتمّ الاتفاق على ان يقوم فريتشه في الاجتماع المقبل مع الفوهرر بالاعتراض مبيناً له الاعتبارات العسكرية التي تجعل خطته شيئاً

---

١ ــ شهادة مشفوعة باليمين من البارونة فون ريتر قريبة نوراث ــ محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٦) ص ٦٤٠ .

٢ ــ محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٦) ص ٦٤٠

غير مقبول ، بينما يحذو نوراث حذوه بالتأكيد على المخاطر السياسية . أما بيك فقد شرع على الفور يدوّن خطياً انتقاداته التي تهدم خطط هتلر ، والتي كما يبدو لم يطلع أي انسان عليها ، لكنها مثلت الاشارة الأولى لنفحة فكرية قدرية من نفحات هـــذا القائد المحترم ذي الشخصية القوية ، الذي رحب في بادىء الامر بمجيء النازية ، ولكنه في النهاية ضحى بحياته في محاولة فاشلة لتحطيمها .

وقام الفريق فون فريتشه بمقابلة هتلر في التاسع من تشرين الثاني . وليس ثمة من سجل مكتوب لما دار بين الرجلين من حديث ، ولكن في وسعنا الافتراض بأن القائد العام للجيش قد عاد فكرر الحجج العسكرية التي تقـــوم ضد خطط هتلر ، دون ان يصل الى نتيجة . ولم يكن هتلر في حـــالة نفسية تسمح له بالاستماع الى أية معارضة سواء من القادة العسكريين أو من وزير الخارجيــة . وقد رفض مقابلة فون نوراث ، ثم مضى الى ملاذه الجبلي في برختسغادن لقضاء فترة طويلة من الاستجمام . ولم يستطع نوراث المريض ان يرتب مقابلة مع الزعيم إلا حوالي منتصف كانون الثاني المقبل . وقد شهد نوراث ، فيما بعد ، أمـــام محاكمات نورمبرغ يقول :

« وحاولت في تلك المقابلة ان اوضح له ان سياسته ستؤدي الى حرب عالمية ، وانني لست على استعداد للاشتراك فيهـــا . ولفتّ اهتمامه الى خطر الحرب ، وإلى تحذيرات القادة العسكريين الجديــة الخطيرة ... وعندما وجدته مصراً على آرائه رغـــم جميع الحجج التي عرضتها عليه ، ابلغته بأن عليه والحالة هذه ان يبحث عـــن وزير جديد لخارجيته . »[1]

وكان هتلر قد قرر هذا ، وإن كان نوراث لم يكن قد عرف بقراره بعـد . فبعد اسبوعين اثنين كان يعتزم الاحتفال بالذكرى الخامسة لتوليه الحكم. وكان قد اعتزم ابراز هذا الاحتفال بعملية تطهير داخل بيته ، لا في وزارة الخارجية وحدها بل وفي الجيش ايضاً ، اذ انهما يمثلان الحصنين الحصينين «لرجعية» الطبقة العالية ، التي كان لا يطمئن اليها في دخيلته ، والتي لم ترض به قط تمـام الرضا

١ ـ محاكمة كبار مجرمي الحرب (١٦) ص ٦٤١ .

ولم تفهم حقيقة اهدافه ، والتي تقف كما بدا من بلومبرغ وفريتشهونوراث عشية الخامس من تشرين الثاني ، في طريق تحقيق مطامحه . وقرر ان يحذو هذان السيدان الاخيران بوجه خاص ، وربما بلومبرغ المتساهل ايضاً والذي يدين له بالكثير من العون في الماضي ، حذو الدكتور شاخت الذي لا ند له ولا نظير في الخروج الى حياة التقاعد .

فلقد كان المالي الداهية ، والمتحمس القديم للنازية ، والعون الأكبر لهتلر ، قد سقط ايضاً من لائحة اصحاب الحظوة .

كان شاخت قد كرس كما رأينا من قبل ، كل ما لديه من حيوية ومن سحر لتمويل عملية هتلر في التسلح السريع . وكان بوصفه المفوض المسؤول عن الاقتصاد الحربي بالاضافة الى عمله كوزير للاقتصاد ، قد طبخ اكبر عدد ممكن من المشاريع الخيالية وبينها استخدام المطابع ، لجمع الأموال للجيش الجديد وللاسطول والسلاح الجوي ، ولدفع جميع « فواتير » التسلح ونفقاته. ولكن كانت هناك حدود لا تستطيع أي بلاد ان تتعداها مخافة الافلاس ، وقد آمن ان المانيا كانت تقترب في عام ١٩٣٦ من تلك الحدود. ولقد حذر هتلر وغورنغ وبلومبرغ ولكن دون جدوى ، وان كان وزير الحربية قد وقف الى جانبه يؤيده ، فترة من الفترات . وعندما تمّ تعيين غورنغ في ايلول عام ١٩٣٦ مفوضاً لتنفيذ مشروع السنوات الأربع ، وهو مشروع بعيد الاحتمال لتحويل المانيا الى مرتبة الاكتفاء الذاتي في غضون اربع سنوات ، وهو هدف كان شاخت يعتقد باستحالة تنفيذه ، غدا رئيس السلاح الجوي «اللوفتواف» الديكتاتور الاقتصادي الفعلي لألمانيا . ورأى شاخت وهو الانسان المغرور والطموح[1] ، والرجل الذي يستهين كل الاستهانة بجهل غورنغ للشؤون الاقتصادية، ان مركزه بات حرجاً . وبعد شهور من المنازعات الحادة بين الرجلين الكثيري العناد طلب شاخت من

---

١ – يقول السفير الفرنسي الداهية فرانسوا بونسيه ، الذي كان يعرفه تمام المعرفة ، في كتابه سنوات القدر ص (٢٢١) ان شاخت كان يأمل في وقت من الاوقات في ان يخلف هندنبرغ كرئيس للجمهورية ثم طمع في خلافة هتلر ، اذا ما وقع حادث للفوهرر .

الفوهرر،ان يسلم ما تبقى من توجيه سياسات البلاد الاقتصادية الى يدي خصمه أيضاً ، وأن يسمح له بالاستقالة من منصبه كعضو في الوزارة. وقدثبط منعزائمه ايضاً الموقف الذي وقفه الكثيرون من ابرز رجال الصناعة والعمل في البلاد اذ كان هؤلاء ، كما ذكر هو فيما بعد عنهم ، « يحتشدون في غرفة الانتظار في مكتب غورنغ ينتظرون الحصول على طلبات انتاجية جديدة بينما كنت لا ازال اعمل كل ما وسعني لأحمل الناس على سماع صوت المنطق » [1]

وقد ادرك شاخت ان اسماع صوت المنطق في هذا الجو المجنون المسيطر على المانيا النازية ، أمر مستحيل كل الاستحالة . وبعد ان اشتبك طيلة اشهر الصيف في خلافات اخرى مع غورنغ اذ استنكر «سياساته في مواضيع النقد الاجنبي والانتاج والشؤون المالية »،واصفاً اياها بالنبوّ عن العقل والمنطق ، مضى الى اوبرسالزبرغ في شهر آب ليقدم استقالته الرسمية الى هتلر . وكان الفوهرر متردداً في قبول هذه الاستقالة بالنظر الى ما قد تحدثه من اثر سيىء . ولكن الوزير المتألم كان عنيداً كالصخر ، فوافق هتلر اخيراً على ان يسمح له بهذه الاستقالة بعد شهرين . وراح شاخت في اجازته في الخامس من ايلول وقبلت استقالته بصورة رسمية في الثامن من كانون الأول .

وظل شاخت ازاء اصرار هتلر ، عضواً في الوزارة ، كوزير بلا وزارة ، واحتفظ برئاسته لبنك الرايخ ، محافظاً على المظاهر ، ومزيلاً ما قد تحدثه استقالته من هزة في الرأي العام الألماني والعالمي . لكن نفوذه كضابط لتسلح هتلر المحموم واستعداده للحرب ، بات منتهياً ، وإن كان بقاؤه في الوزارة وفي رئاسة مصرف الرايخ ، قد عنى استمرار اضفاء ما في اسمه وشهرته من عبير وأريج ، على مطامع هتلر واهدافه . وسنرى بالفعل انه تبنى في وقت قصير وبصورة علنية وحماسية اول عمل من أعمال قطاع الطرق والعدوان السافر التي قام بها الزعيم ، ولقد كان مثل القادة العسكريين وغيرهم من المحافظين الذين لعبوا دوراً هاماً في تسلم المانيا الى النازيين ، من ابطأ الناس في اليقظة المتأخرة لإدراك حقائق الحياة .

---

١ ــ شاخت ــ تسوية الحساب ص ٩٠ .-

وتولى غورنغ وزارة الاقتصاد بصورة مؤقتة ، ولكن هتلر التقى ذات مساء في أواسط كانون الثاني عام ١٩٣٨ ، وولترفونك في دار الاوبرا في برلين وابلغه عرضاً بأنه سيكون خليفة شاخت فى تلك الوزارة . لكن الاعلان الرسمي عن تعيين هذا الانسان التافه القزم والمستكين ، الذي لعب دوراً معيناً كما رأينا فى السابق فى حمل رجالات العمل والصناعة على الاهتمام بهتلر في مطلع حقبة الثلاثين قد تأجل الى وقت ما . وقد هبت على الرايخ الثالث الآن عاصفة مزدوجة من الجيش هوت عليه من عدة جهات ، يتعلق بعضها بالأمور الجنسية من طبيعية وغير طبيعية . وقد جاءت مواتية لهتلر كل المواتاة ومكنته من ان يوجه ضربة قوية الى الفئة العسكرية الارستقراطية ، لم يقدر لها ان تستفيق منها قط ، وسببت نتائج شديدة قامعة ، لا للجيش فحسب الذي فقد بسبب ذلك كل مظاهر استقلاله السابقة التي كان يحرص اشد الحرص على حمايتها بحماس طيلة ايام امبراطورية الهوهنزولرن والجمهورية ، وانما في النهاية لألمانيا وللعالم كله .

سقوط المشير فون بلومبرغ

كتب العقيد الفريد يودل في يومياته بتاريخ السادس والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٣٨ يقول : « ما اعظم الأثر الذي تستطيع ان تتركه امرأة حتى ولو لم تدركه هي في تاريخ بلاد ما ، وعن طريقه في تاريخ العالم كله » . ثم مضى يقول . . . « يشعر المرء وكأنه يعيش في ساعة قدرية في تاريخ الشعب الألماني » . (١)

وكانت الآنسة ايرنا غرون ، هي التي اشار اليها هذا الضابط الركن اللامع في يوميته ، وكانت عندما اشرف عام ١٩٣٧ على نهايته ، تعتبر نفسها ولا شك

١ ـ يوميات يودل ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٨) ص ٣٥٧

آخر شخص في المانيا يستطيع ان يدفع ، كما قال يودل ، بالشعب الألماني الى ازمة قتالة ، وان يمارس نفوذاً طاغياً على تاريخه . ولم يكن هذا ممكناً الا في هذا العالم المريض نفسياً ، والذي يسيطر عليه الذعر ، الممثل في الحلقة الداخلية للرايخ الثالث ، الذي كان يتحرك في هذه الآونة بسرعة مجنونة .

كانت ايرنا غرون سكرتيرة لبلومبرغ ، وعندما دنا عام ١٩٣٧ من نهايته ، كان قد أحس بغرام عنيف يشده اليها حتى انه اقترح عليها الزواج . وكانت زوجته الأولى ، وهي ابنة ضابط متقاعد قد توفيت في عام ١٩٣٢ بعد ان عاشت معه ثمانية وعشرين عاماً . وكان اطفاله الخمسة قد شبوا في هذه الآونة حتى ان كريمته الصغرى كانت في عام ١٩٣٧ قد تزوجت من النجل الاكبر للفريق كايتل الذي شمله برعايته ، وأحس الرجل بالملل من ترمله ، ووحدته ، فقرر ان الوقت قد حان ليتزوج من جديد . ولما كان يعرف انه لا يخلق بالضابط الاعلى في الجيش الألماني الزواج من فتاة من عامة الناس ، مما يحط من شأن فيلق الضباط الارستقراطي والمتعجرف ، فقد مضى الى غورنغ يسأله النصيحة . ولم ير غورنغ ما يحول دون هذا الزواج ، إذ ألم يسبق له هو ان تزوج بعد وفاة زوجته الاولى من ممثلة مطلقة ؟ واضاف غورنغ ان ليس ثمة مكان في الرايخ الثالث للأهواء الاجتماعية البليدة ، التي تسيطر على فيلق الضباط . ولم يكتف غورنغ باعلان موافقته على ما انتواه بلومبرغ فحسب ، بل اعلن عن استعداده لاقناع هتلر ، اذا رأى ضرورة لذلك ، ولتقديم اية مساعدة اخرى ممكنة . وكانت هناك طريقة اخرى يستطيع ان يقدم له فيها عونه . فقد اسر اليه المشير بأن هناك عاشقاً ينافسه في حبه لهذه الفتاة . ولم تكن هذه بالمشكلة المستعصية على غورنغ ، اذ كان المألوف في مثل هذه الحالات من المضايقات ان يزج بالمنافس في معسكرات الاعتقال ، ولكن بالنظر الى المثل الخلقية القديمة الطراز عند المشير العجوز فقد اقترح غورنغ ان يبعث بالمنافس المزعج الى امريكا الجنوبية وهذا ما فعله تماماً .

ولكن متاعب بلومبرغ لم تنته . فقد سجل يودل في الخامس عشر من كانون

الأول عام ١٩٣٧ ، فقرة غريبة في يومياته . « كان المشير بلومبرغ ثائراً وفي حالة هياج . السبب مجهول ، ويبدو انها قضية شخصية . وقد اعتكف مدة ثمانية ايام في مكان مجهول » [١]

وعاد بلومبرغ الى الظهور في الثاني والعشرين من كانون الأول ، لالقاء خطاب التأبين في تشييع جثمان الفريق لودندورف في «فيلدهيرنهول» في مونيخ . وقد شهد الاحتفال ولكنه رفض ان يخطب فيه لان بطل الحرب الكونية كان قد رفض اي اتصال بهتلر ، بعد ان شهده يهرب أمام طلقات الرصاص في « فيلد هيرنهول » ابان محاولة الانقلاب الفاشلة في حانة الجعة . وباح المشير بعد انتهاء مراسم الدفن للفوهرر بعزمه على الزواج . وكم كان سروره عظيماً عندما بارك له هتلر خطوته .

واقيم احتفال الزواج في الثاني عشر من كانون الثاني عام ١٩٣٨ . وحضر الإحتفال كل من هتلر وغورنغ كشاهدي الزواج . ولكن لم يكد العروسان يطيران الى ايطاليا لقضاء شهر العسل حتى انفجرت العاصفة . وكان في امكان فيلق الضباط المتزمت ان يبتلع مرارة زواج الماريشال بسكرتيرته ، ولكنه لم يكن على استعداد لقبول زواجه من امرأة ذات ماض كما بدأت الآن التفاصيل المرعبة تلقي اضواءها على القصة وبطلتها .

وكان الأمر لا يعدو حدود الشائعات في بادىء الامر . وشرع الجنرالات الغلاظ الرقاب ، يتلقون مكالمات هاتفية مجهولة من فتيات ضاحكات ساخرات ، يتحدثن كما يبدو من المقاهي والنوادي الليلية القذرة ينقلن الى القادة العسكريين تهانيهن للجيش لقبوله واحدة منهن في رحابه .وقام أحد مفتشي الشرطة في مقر القيادة في برلين بالتحري عن هذه الشائعات فعثر على ملف في قيادة الشرطة يحمل اسم « ايرناغرون » . وأحس المفتش بالرعب ، فحمل الملف الى رئيس الشرطة الكونت فون هيلدورف.

وعلى الرغم من ان الكونت كان من رجال الفيلق الحرّ في الماضي ومن

---

١ ــ يوميات يودل ــ محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٨) ص ٢٥٦ .

رجال جيش العاصفة المشاغبين الا انه شعر بالفزع ايضاً ، فلقد اشار الملف الى ان عروس المشير والقائد العام ، صاحبة سجل عند الشرطة كاحدى العاهرات، وكانت احدى المحاكم قد ادانتها بتهمة الوقوف عارية امــــام المصورين لبيع صورها بين صور العاريات . وقد ثبت ان زوجة المشير الشابة نشأت في صالون للتجميل ، تديره أمها ، وكان من المعروف في برلين ، ان مثل هذه الصالونات لم تكن في الحقيقة الا مجرد ستار لاخفاء حقيقتها كبيوت للدعارة .

وحتم الواجب على هيلدورف كما هو واضح ان يحمل الملف الى رئيسه هملر القائد الأعلى للشرطة الالمانية . ولكن على الرغم من حماسه للنازية ، الا انه كان في الماضي عضواً في فيلق ضباط الجيش وكان قد استوعب الكثير من تقاليده ، وادرك ان هملر ، الذي اختلف منذ اكثر من عام خلافاً شديداً مع القيادة العليا للجيش والذي اصبح الجيش ينظر اليه على انه خطر واشد شراً من خطر روهم في الماضي ، لا بد وان يستعمل الملف للتشهير بالمشير ، وتهديده به ليجعل منه اداته في خصامه مع القادة المحافظين . وهكذا مضى هيلدورف بشجاعة يحمل الملف الى الفريق كايتل لا الى رئيسه هملر . ويبدو ان الرجل كان على ثقـــة من ان كايتل المدين بترقيته الاخيرة في الجيش لبلومبرغ ، والذي تربطه بالمشير اواصر القربى ، لا بد وان يرتب مع فيلق الضباط نفسه طريقة معالجة القضيــة ؟ وان يحذر رئيسه من الخطر الذي يتعرض له . ولكن كايتل بوصفه رجلاً طموحاً ومتغطرساً لم يكن يعتزم بالاضافـــة الى ما امتاز به من ضعف في تفكيره وفي خلقه الشخصي : ان يقامر بمستقبله عن طريق الوقوع في خلاف مـــع الحزب والحرس النازي . وبدلاً من ان يحمل الملف الى رئيسه في الجيش : الفريق فون فريتشه : اعاده الى هيلدورف مقترحاً عليه اطلاع ، غورنغ على محتوياته .

ولم يكن هناك بالطبـع من يفوق غورنغ فرحاً لتسلمه هذا الملف ، اذ اتضح له ان بلومبرغ سينتهي فوراً بعد هذا الاكتشاف الفظيـع لانطباق هذه النهاية على المنطق . وخيل اليه انه سيخلفه في منصبه كقائد عام « للفيرماخت » وهـو الهدف الذي جعله دائماً نصب عينه . وقد قطع بلومبرغ شهر عسله في ايطاليا

ليعود الى المانيا ويشهد تشييع والدتــه الى مقرها الاخير : وفي العشرين من كانون الثاني ؟ مضى وهو خالي الفكر مما يدبر له في الخفاء الى مكتبـه في وزارة الحربية لاستئناف عمله .

ولكن عمله فيها لم يطل . فلقد حمـــل غورنغ في الخامس والعشرين من كانون الثاني الوثيقة المتفجرة الى هتلر الذي كان قد عاد لتوه من برختسغادن، وسرعان ما انفجر الفوهرر . لقد خدعه مشيره ، وجعله بوصفه شاهد زواجه يبدو اضحوكة امام الناس . وكان غورنغ اول من وافق الفوهرر على رأيـه هذا ومضى عند الظهيرة لمقابلة بلومبرغ شخصياً ليفضي اليـه بالانباء . ويبدو ان المشير قد تأثر أشد التأثر من هذه الاكتشافات عن عروسه ، وعرض ان يطلقها فوراً . ولكن غورنغ اوضح له بكل تهذيب وكياسة ، ان هذا لا يعتبر حلاً كافياً . فقيادة الجيش نفسها تطلب استقالته ، وقد كتب يودل في يوميـاته بعد يومين ان الفريق بيك رئيس اركان الحرب ، ابلغ كايتل ان الإنسان لا يستطيع ان يتسامح في قبول زواج أعلى جندي في الجيش من عـاهرة » . وعلم يودل في الخامس والعشرين من كانون الثاني عن طريق كايتل ، ان هتلر اقـــال مشيره من منصبه . وبعد يومين اثنين غادر الضابط الذي هوى وهو في الستين من عمره ، برلين ، الى كابري لاستئناف شهر العسل .

وسرعان ما لحق به الى هذه الجزيرة الفاتنة احـــد مساعديهالبحريين الذي اضاف اللمسة المضحكة الاخيرة على هذه القصة التي تجمع بين المـأساة والمهزلة . فلقد بعث الاميرال ريدر بهذا الضابط الملازم فون وانغنهايم ليطلب الى بلومبرغ حفاظاً على شرف فيلق الضباط ، ان يطلق زوجته . وكان الضـــابط البحري الصغير شاباً متحمساً ومتعجرفاً للغاية ، وعندما غـدا في حضرة المشير الذي يقضي شهر عسله ، تجاوز ما لديه من تعليمات . وبدلاً من ان يطلب منه الطلاق ، اقترح ان يقوم رئيسه السابق بالعمل الكريم الذي يليق به ، ثم حاول ان يقذف بمسدسه في يد المشير . ولكن هذا على الرغم من سقوطه ، ظل كما يبـدو راغباً في الحياة ، ويبدو انه كان لا يزال شغوفاً بعروسه على الرغم من كل مـا حدث

ولذا فقد رفض ان يأخذ السلاح المعروض، معلقاً على ذلك في الرسالة التي بعث بها لتوه الى كايتل، انه يختلف، كما يبدو، مع الضابط البحري «في نظرتهما الى الحياة وفي مقاييسها عنها»[1]

وكان الفوهرر قد مناه بالعودة الى اعلى المناصب بعد ان تهدأ العاصفة. ويقول يودل في يومياته، ان هتلر قال لبلومبرغ اثناء المقابلة التي اقاله فيها من منصبه بأنه «في اللحظة التي تدق فيها ساعة المانيا ستكون الى جانبي، وسننسى كل ما وقع في الماضي»[2] ولقد كتب بلومبرغ بالفعل في يومياته التي لم تنشر بأن هتلر مناه في اجتماعهما الاخير، «بكل ما في قوله من جزم وتأكيد» بأنه سيعود الى القيادة العليا للقوات المسلحة في حالة نشوب الحرب[3].

ولكن هذا الوعد شأن الكثير من وعود هتلر الاخرى لم ينفذ. فلقد شطب اسم المشير فون بلومبرغ من سجلات الجيش الى الابد، وحتى عندما نشبت الحرب، وتقدم الرجل يعرض خدماته، لم يوله هتلر أي منصب من المناصب. وقد عاد المشير مع زوجته الى المانيا واستقرا في قرية وييسي البافارية الصغيرة، حيث عاشا في حياة مغمورة الى ان انتهت الحرب. وقد ظل الرجل كملك بريطانيا السابق الذي عاصره، مخلصاً لزوجته التي سببت له سقوطه حتى النهاية عندما توفي في الثالث عشر من اذار عام ١٩٤٦ في سجن نورمبرغ، حيث كان ينتظر وهو في منتهى النحول، الذي يثير الاشفاق، دوره لتقديم الشهادة.

سقوط الفريق فريهير فيرنر فون فريتشه

كان الفريق فريهير فيرنرفون فريتشه، القائد العام للجيش والضابط الصارم

١ ـ يوميات يودل ... محاكمات كبار مجرمي الحرب. ص ٣٦٠ ـ ٣٦٢

٢ ـ يوميات يودل ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب ص ٣٥٧

٣ ـ تيلفورد تيلور «السيف والصليب المعقوف» ص ١٤٩ ـ ١٥٠

الموهوب من رجال المدرسة القديمة والذي وصفه اميرالبحر ريدر بأنه مثال الضابط الركن اللامع المرشح الواضح لخلافة بلومبرغ في منصبه كوزير للحربية و كقائد عام للقوات المسلحة. ولكن غورنغ كان يحلم كما ذكرنا بالوصول الى هذا المنصب وهناك من يعتقدون بأن غورنغ هو الذي دفع بلومبرغ عن سابق عمد واصرار الى الزواج من تلك المرأة التي كان على علم سابق بماضيها الملوث ، رغبة منه في تمهيد الطريق لنفسه للوصول الى المنصب . واذا صحت هذه الرواية، فان بلومبرغ لم يكن على أي حال عليماً بها، اذ انه في مقابلته الوداعية لهتلر في السابع والعشرين من كانون الثاني اقترح عليه ان يكون غورنغ خليفته. ولكن الفوهرر كان يعرف على أي حال رفيقه النازي القديم اكثر من أي شخص آخر، وكان يصفه بانه كثير الاعتداد بنفسه ومفتقر الى الصبر والى الكد والمواظبة . ولم يكن هتلر في نفس الوقت ميالا الى فون فريتشه لانه لم يرتح الى المعارضة التي ابداها هذا لمشاريعه الضخمة في الخامس من تشرين الثاني ولم ينسها . يضاف الى هذا ان عداء فريتشه للحزب النازي ولا سيما للحرس الحديدي لم يكن سراً من الاسرار على الاطلاق ، وهو أمر لم يكن قد اثار اهتمام الفوهرر فحسب بل واستفز هنريخ هملر ، قائد الحرس ، ورئيس الشرطة ، وحمله على التصميم تصميماً حاسماً على الاطاحة بهذا الخصم القوي الذي يتزعم الجيش [١] .

وحانت الآن فرصة هملر ، أو لعله هو الذي خلقها ، عن طريق خلق قصة معيبة لا يستطيع المرء ان يصدق وقوعها حتى في عام ١٩٣٨ ، وفي ذلك العالم الذي كان الحرس النازي والحزب الاشتراكي الالماني يطئانه بنعالهما ، ولا ان يفترض قبول الجيش الالماني لها ، اذ كان هذا الجيش يتمتع على الرغم من

١ ــ وقفت في الاول من اذار عام ١٩٣٥ ، وهو يوم تسلم المانيا لحوض السار الى جانب فريتشه ، على منصة العرض في سار بروكن مدة طويلة قبل ان يبدأ العرض . وعلى الرغم من انه لم يكن يعرف عني سوى انني احد هؤلاء المراسلين الامريكيين الكثيرين في برلين ، الا انه شرع ينطق بملاحظات ساخرة عن الحرس النازي وعن الحزب وقادته من هتلر الى اصغر فرد فيه . ولم يكن يخفي ما يحس به من ازدراء لهم . (مذكرات برلين = للمؤلف ــ ص ٢٧) .

كل شيء ببعض التقاليد العريقة . وقد جاءت هذه القصة في اعقاب فضيحة بلومبرغ ففجرت قنبلة ثانية اكثر هولاً ، هزت فيلق الضباط من قواعده واسسه وقررت مصيره .

ففي اليوم الخامس والعشرين من كانون الثاني ، وكان غورنغ يطلع هتلر على السجل الموجود في دوائر الشرطة لعروس بلومبرغ اذ به يبسط امام الفوهرر وثيقة اخرى اكثر ضرراً وهولا . وكان هملر هو الذي قدم هذه الوثيقة التي حصل عليها من كبير مساعديه ، هايدريش رئيس الجهاز السري الخاص للحرس النازي ، وهي ترمي الى اظهار ان الفريق فون فريتشه كان متهماً بجرائم الشذوذ الجنسي طبقاً للمادة (١٧٥) من قانون العقوبات الألماني ، وانه كان يدفع الأموال على سبيل الابتزاز منذ عام ١٩٣٥ الى مجرم سابق ليشتري سكوته على الموضوع . وكانت اوراق الغستابو من الشمول بحيث اصبح هتلر ميالا الى قبول التهمة ، بينما لم يحاول بلومبرغ ، الذي كان ينفث حقده وسخطه على فريتشه بسبب الموقف الصارم الذي وقفه الجيش من قضية زواجه اقناعه بعكس ذلك . وأسر بلومبرغ للفوهرر بأن فريتشه لم يكن ميالاً الى النساء مضيفاً انه وقد عاش حياته كلها اعزب بلا زواج ، معرض « للاذعان الى مثل هذا الضعف » .

وأحس العقيد هوسباخ مساعد هتلر العسكري ، والذي شهد المنظر عندما عرض ملف الغستابو على الفوهرر ، بشيء من الفزع ، ومضى لتوه الى منزل قائد الجيش لابلاغه التهمة ، متحدياً بذلك اوامر هتلر الذي كان قد طلب عدم ابلاغ أي شيء للفريق المتهم ، وليحذره ايضاً من المتاعب القذرة التي باتت تهدده [١] . واصيب النبيل البروسي الصامت بشيء من التبلد وقال ... « يا لها

---

١ ـ كلف هذا العمل هوسباخ منصبه بعد يومين اثنين لا حياته كما خشي بعض الناس . فقد اعيد الى هيئة اركان الحرب العامة ، وارتقى ابان الحرب الى رتبة الفريق ، واصبح قائداً للجيش الرابع في الجبهة الروسية الى ان طرده هتلر فجأة بأمر هاتفي في الثامن والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٤٥ . لأنه امر بتراجع قواته متحدياً امر الفوهرر ـ المؤلف ـ

من اكاذيب قذرة » وعندما هدأت ثائرته ، أكد لاخيه الضابط بشرفه العسكري ، ان هذه التهم لا صحة لها مطلقاً . وراح هوسباخ في الساعات المبكرة من صباح اليوم التالي ، غير آبهٍ بالنتائج يبلغ هتلر ما دار بينه وبين فريتشه ، ونقل اليه نفي الجنرال القاطع لهذه الاتهامات وحث الفوهرر على ان يعطيه المجال للدفاع عن نفسه ، ولنفي جريمته نفياً جازماً .

ووافق هتلر على ذلك . وكانت موافقته مفاجأة لهوسباخ ، واستدعي القائد العام للجيش الالماني للمثول في دار المستشارية في ساعة متأخرة من ذلك اليوم نفسه . ولكنه دعي ليمر في تجربة لم تكن حياته الطويلة كانسان ارستقراطي وكضابط وسيد مهذب ، قد هيأتها له . ووقع الاجتماع في مكتب المستشارية وقد شهده هذه المرة هملر بالاضافة الى غورنغ . وبعد ان لخص هتلر التهم ، اقسم فريتشه بشرفه العسكري بأنها كاذبة ومختلقة . ولكن مثل هذه التأكيدات لم يعد لها مكان في الرايخ الثالث ، وسرعان ما قام هملر الذي كان ينتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر منذ اكثر من ثلاث سنوات ، بادخال شخص منحل الهيئة تبدو عليه الحيلة والمكر ، من باب جانبي . ولا ريب في ان هذا الانسان كان من اغرب الاشخاص الذين دخلوا دار المستشارية الألمانية في حياتها الطويلة واسوأهم سمعة . ويدعى هذا الرجل هانس شميدت ، وهو صاحب سجل حافل في مختلف السجون يبدأ بأول حكم صدر عليه في اصلاحية الاحداث . وتبين ان العيب الاساسي في هذا الرجل ، تلصصه على اصحاب الشذوذ الجنسي ، ومن ثم ابتزاز المال منهم عن طريق تهديدهم بالتشهير . وراح يزعم الآن انه يعرف الفريق فون فريتشه ، كالقائد العام للجيش ، وانه عثر عليه متلبساً بجريمة اللواط في احدى الدروب الضيقة على مقربة من محطة السكك الحديدية في بوتسدام في برلين مع شخص منحط يدعى « جوالبا فاري » [1] . واصر شميدت على القول أمام هؤلاء الثلاثة الذين يمسكون بزمام السلطان في المانيا ، بأن هذا القائد ظل

---

١ ـ قدم غيزيفيوس (Gisevïus) الاسم في كتابه « الى النهاية المرة » ص ٢٢٩

سنوات طويلة يدفع له المال ليشتري سكوته ، ولم يتوقف الدفع ، الا عندما اودع غياهب السجن متهماً في قضية جديدة .

وأعمى الغضب الفريق فون فريتشه ولم يستطع ان يحير جواباً ولم يستطع احتمال هذا المنظر ، الذي يرى فيه رئيس الدولة الألمانية وخليفة هندنبرغ وقياصرة الهوهنزلرن ، يقدم مثل هذه الشخصية القذرة ، في مثل هذا المكان ولمثل هذا الهدف . ولكن صمته ، ساعد هتلر على الاقتناع بجريمته وسرعان ما طلب منه الفوهرر استقالته . ورفض فريتشه تقديم هذه الاستقالة ، وطالب بدوره ان تجري محاكمته امام محكمة عسكرية . ولكن هتلر لم يكن عازماً على السماح للطبقة العسكرية بتسلم زمام القضية ، في هذه الفترة على الاقل . وكانت هذه الفرصة هبة اتاحتها له السماء ، ولن يتخلى عنها ، ليحطم معارضة القادة العسكريين الذين يرفضون الاذعان لارادته وعبقريته . ولذا فقد اصدر امره على التو الى فريتشه في ان يمضي في اجازة غير محدودة مما اعتبر معادلاً لوقفه عن العمل كقائد عام للجيش . وتشاور هتلر في اليوم التالي مع كايتل ، لاختيار خلف لابلومبرغ وحده بل ولفريتشه أيضاً . ويسجل يودل هنا في يومياته ، معتمداً على كايتل الذي كان المصدر الرئيسي لمعلوماته، نتفاً هنا وهناك تشير الى قيام عملية تنقلات جذرية لا في قيادة الجيش وحدها ، بل وفي جميع جهاز القوات المسلحة ، يسفر في النهاية عن اذعان السلطات العسكرية لارادة الفوهرر .

فهل يتخلى كبار القادة العسكريين عن سلطانهم ، الذي ظل وان لم يكن مطلقاً في أية حالة من الاحوال ، المظهر الوحيد للسلطة الخارجة عن قبضة هتلر ؟ وعندما عاد هتلر إلى شقته في « بنديلشتراسه » من المحنة التي مر بها في المستشارية . راح فريتشه يشاور الفريق بيك ، رئيس هيئة اركان الحرب.ويقول بعض المؤرخين الانكليز [1] ان بيك حثه على القيام بعملية انقلاب عسكري

---

١ ــ بالوك ــ مناقشات هتلر السرية ــ ص ٣٨١ ، وويلر بنيت ــ نقمة السلطان ــ ص٣٦٩

فوراً ضد حكومة هتلر ، وان فريتشه رفض الأخذ بهـذا الرأي . ولكن وولفغانغ فوريستر ، الألماني الذي آرخ حياة بيك والذي كانت جميع اوراق الفريق الشخصية في حيازته، يقول ان بيك اجتمع اولاً في ذلك المساء الرهيب الى هتلر ، الذي اطلعه على التهم الخطيرة ، ثم عـاد فاجتمع الى فريتشه الذي انكرها كلها ، وهرع ليجتمع في ساعة متأخرة من الليلة نفسها الى هتلر طالباً اعطاء قائد الجيش الفرصة لتبرئة نفسه أمام محكمة عسكرية المانية . ويقول مؤرخ حياة بيك أيضاً ان الفريق لم يكن قد فهم بعد حقيقة حـكام الرايخ الثالث . فلما فهمها ، كان الوقت قد فات . وبعد أيام ، وكان الوقت قـد فات أيضاً ، عندما لم يكتف هتلر بإخراج بلومبرغ وفريتشه وحدهما ، وانما اخرج معهما ستة عشر فريقاً آخرين ، احيلوا إلى التقاعد كما نقل اربعة واربعـين آخرين إلى قيادات ثانوية ، وجلهم من اصدقاء فريتشه والمقربين إليه ، وبينهم بيك بالطبع . وفكر العسكريون تفكيراً جدياً باتخـاذ اجراءات مضادة . ولكنهم سرعان ما تخلوا عن مثل هذه الأفـكار الخطرة . ويقول فوريستر : « وكان من الواضح لهؤلاء الناس ، ان الانقلاب العسكري يعني الحرب الأهلية ، وانه غير مضمون النجاح » . وكان القادة الألمان كشأنهم دائماً يريدون ان يكونوا واثقين من النصر قبل القيام بمثل هـذه المغامرة العظيمة . وكانت خشيتهم مركزة ، كما يقول هذا الكاتب الألماني ، لا على الخوف من مقاومـة سلاح غورنغ الجوي واسطول امير البحر ريدر فحسب ،اذ كانت هاتان القوتان واقعتين تحت سيطرة الفوهرر تماماً ، بل وعلى الخوف من ان لا يقف الجيش كله وقفة النصر الكاملة لقائده العام الذي هوى [1] .

ولكن فرصة واحدة واخيرة أتيحت لكبار قادة الجيش لتوجيه الضربـة بدورهم إلى هتلر . فلقد أقام تحقيق اولي شرع به الجيش متعاوناً مـع وزارة الدفاع الدليل السريـع على ان الفريق فون فريتشه راح ضحية بريئة لمؤامرة قام بها الغستابو ، بايعاز من هملر وهايدريش . وظهر ان المجرم السابق شميدت كان

---

١ ـ وولفغانغ فورلسيتر « جنرال يكافح ضد الحرب » ضص ٧٠ ـ ٧٣

بالفعل قد قبض على ضابط في وضع غير طبيعي في ظـــلال محطة بوتسدام ، وكان بالفعل قد نجح في ابتزاز المال منه سنوات طويلة . ولكن اسم هـــذا الضابط فريش لا فريتشه ، وهو ضابط فرسان متقاعد ، طريـح الفراش وقـد سجل اسمه في سجلات الجيش على النحو التـــالي « ريتماستر فون فريش » . وكانت الغستابو تعرف هذه الحقائق • ولكنها القت القبض على شميدت وهددته بالموت إلا إذا اشار باصبعه إلى القائد العام للجيش . وقد قامت الغستابو باعتقال القائد المريض ، لتحول بينه وبين الكلام ، ولكن الجيش تمكن من انقـــاذه وانقاذ شميدت من براثن الغستابو ، ووضعهما في مكان امين ، حتى يتمكنا من الظهور أمام المحكمة العسكرية ليشهدا في قضية فريتشه .

وطرب قادة الجيش الشيوخ لهذه النتيجة ، لا لأنها تبرىء ساحة قائـــدهم العام ، وتعيده الى قيادة الجيش فحسب ، بل ولأنها تكشف ألاعيـــب الحرس النازي والغستابو ، ودسائس قائديها هملر وهايدريش اللذين تلفهـــما الشكوك والظنون،فيكون مصير هاتين القوتين ورئيسيهما عين مصير روهم وجيش العاصفة قبل اربـع سنوات . واعتقدوا ان هذه النتيجة ستكون ضربــة للحزب ولهتلر نفسه ، وستزعزع قواعد الرايخ الثالث بعنف ، وقد تؤدي الى سقوط الفوهرر كذلك.فاذا حاول هتلر أن «يلفلف» الجريمة ، فان الجيش نفسه ، يستطيـــع وهو مرتاح الضمير بعد ان اتضحت الحقيقة . ان يعالج القضية بيـديه . ولكن العريف النمسوي السابق تمكن بدهائه مرة ثانية من التغلب على هؤلاء الفرقاء كالمرات السابقة التي تغلب عليهم فيها في غضون السنوات الخمس الماضيــة ثم شاء القدر ان يهزمهم هزيمـــة كلية ، لا سيما وان الزعيم ، لا هـــم ، يعرف كيف يستغل هذا القدر لغاياته .

وسيطر على برلين طيلة هذا الاسبوع الاخير من شهر كانون الثاني عام ١٩٣٨ جو من التوتر ذكر الناس بذلك الجو الذي خيم على المدينــة في اواخر حزيران عام ١٩٤٣ . وامتلأت العاصمة مرة ثانية بالشائعات . فلقد اقال هتلر اعـــلى

رجلين في الجيش لاسباب مجهولة . وكانت روح الثورة تسيطر على القادة العسكريين ،واخذوا يتآمرون للقيام بانقلاب عسكري، وسمع السفير فرانسوا بونسيه الذي كان الفريق فريتشه قد دعاه الى العشاء مساء الثاني من شباط ثم الغى الدعوة ،انه قد اعتقل. وانتشرت شائعات تقول بأن الجيش يعتزم تطويق الرايشستاغ ، عندما يجتمع للاستماع الى خطاب هتلر في الثلاثين من كانون الثاني بمناسبة الذكرى السنوية الخامسة لتسنمه الحكم ، واعتقال جميع اعضاء الحكومة النازية ونوابها الذين اختارتهم . وصدق الناس هذه الشائعات عندما اعلن ان جلسة الرايشستاغ ، قد اجلت الى اجل غير مسمى . وكان من الواضح ان الديكتاتور الألماني يواجه بعض المتاعب . فقد وجد اخيراً انداده في كبار القادة العسكريين للجيش الذين لا تلين لهم قناة . وكان هذا ما خيل الى الناس ، ولكنهم كانوا جد مخطئين .

وعقدت الوزارة الالمانية في الرابع من شباط عام ١٩٣٨ ، ما قدر له ان يكون آخر اجتماع لها . فمهما كانت المتاعب التي واجهها هتلر ، فانه صمم الآن على حلها بطريقة ازاحت جميع معارضيه لا من الجيش فحسب بل ومن وزارة الخارجية الألمانية ايضاً . وقد حمل الفوهرر مجلس الوزراء في ذلك اليوم على اتخاذ قرار عاجل تولى هو اذاعته الى البلاد والعالم على جميع محطات الاذاعة الالمانية قبيل منتصف الليل وهذا نصه :

« سأتولى منذ اليوم شخصياً قيادة القوات المسلحة كلها .

وكان هتلر بوصفه رئيساً للدولة ، القائد الأعلى للقوات المسلحة ، لكنه الان تولى منصب بلومبرغ كقائد عام ، والغى وزارة الحربية التي كان العريس الولهان يرئسها ايضاً . وأقام بدلاً منها منظمة جديدة وسرعان ما اشتهر أمرها في الحرب الكونية الثانية وعرفت باسم القيادة العليا للقوات المسلحة (Oberkommando der Wehrmacht) وألحق بها جميع القوى المسلحة الثلاث وهي الجيش والاسطول والسلاح الجوي. وقد بات هتلر القائد الأعلى لهذه القيادة ويساعده فيها رئيس لاركان الحرب يطلق عليه اسم طنان جداً هو « رئيس

القيادة العليا للقوات المسلحة » ، وهو منصب انتقل الى كايتل الذي ظل محافظاً عليه حتى النهاية .

واراد هتلر ترضية مشاعر غورنغ الذي كان على ثقة من انه سيخلف بلومبرغ ، فخابت آماله الآن، فمنحه رتبة الماريشالية،وغدا بذلك اعلى ضابط في الرايخ رتبة وهو ما طرب له غاية الطرب . واعلن هتلر رغبة منه في تهدئة قلق الجماهير ان بلومبرغ ، وفريتشه قد استقالا « لاسباب صحية » . وهكذا تخلص من فريتشه مرة والى الابد حتى قبل ان يحاكم امام محكمة عسكرية كان هتلر على ثقة من تبرئتها لساحته . وقد بدا هذا العمل مثيراً لكبار القادة العسكريين ولكن لم يكن باستطاعتهم ان يفعلوا شيئاً ، اذ انهم احيلوا بموجب المرسوم نفسه الى سلة المهملات ، فقد اخرج ستة عشر قائداً منهم الفرقاء فون رونشتادت وليب وفون ويتزليبين وفون كلوغيه وفون كلايست من قياداتهم ، بينما نقل اربعة واربعين آخرين من مراكزهم اذا اعتبروا اقل حماساً في اخلاصهم للنازية من بقية القادة الذين ظلوا في مناصبهم .

وعجم هتلر عيدانه فاختار بعد تردد أضعفها عوداً ليخلف فريتشه في قيادة الجيش ، وهو الفريق وولتر فون براوختش ، الذي يتمتع بسمعة حسنة بين القادة العسكريين ولكنه برهن على انه لا يقل ضعفاً واستخذاء عن بلومبرغ عندما يتطلب الأمر الوقوف أمام مزاج هتلر الرجراج . وخيل إلى الناس لبضعة أيام ابان الأزمة ان مشاكل الجنس ستؤدي أيضاً إلى الاطاحة ببراوختش كما اطاحت ببلومبرغ وفريتشه ، فلقد كان هذا القائد على وشك الحصول على الطلاق من زوجته وهو عمل لا تنظر إليه الارستقراطية العسكرية بعين الارتياح . وسجل يودل الكثير الفضول ، هذه المشكلة في يومياته ؛ فقد ذكر في يوميته التي كتبها نهار الاحد في الثلاثين من كانون الثاني،ان كايتل قد دعا نجل براوختش « ليبعث به إلى والدته ليحصل منها على موافقتها على الطلاق» ، وذكر بعد بضعة أيام نبأ اجتماع دار بين براوختش وكايتل وغورنغ « لبحث طرق الوصول إلى حل عائلي » . ووعد غورنغ الذي بدا وكأنه أخذ على عاتقه

دور القيام بالحكم في مشاكل الجنس التي يقع فيها الفرقاء العسكريون ، بالنظر في القضية . وعاد يودل فدون في ذات اليوم « ان نجل براوختش عاد يحمل رسالة متعالية من والدته ». وكان مغزى الرسالة انها لن تقف في طريق زوجها . ولم يعارض غورنغ وهتلر في الطلاق الذي حصل عليه القائد الجديد للجيش بعد بضعة اشهر من تقلده منصبه الجديد . وذلك لان كلاً منهما كان يعرف ان السيدة شارلوت شميدت ، التي اعتزم الفريق الزواج منها كانت كما ذكر اولريخ فون هاسل « نازية متهوسة مائتين في المائة » . واقيمت حفلة الزواج في الخريف التالي ، واثبتت هذه القصة كما دون يودل من جديد ، مثلاً آخر على ما يمكن للمرأة ان تلعبه من دور مؤثر في التاريخ [١] .

ولم تقتصر عملية هتلر في تنظيف داخل بيته على الفرقاء العسكريين بل انه أزاح نوراث أيضاً من وزارة الخارجية مستعيضاً عنه بريبنتروب ، الانسان الضحل والمستكين [٢] . وتم تسريح دبلوماسيين مخضرمين هما اولريخ فون هاسل ، السفير في روما وهيربرت فون ديركسين السفير في طوكيو من

١ ـ يقول ميلتون شولمان في كتابه « الهزيمة في الغرب » في الصفحة العاشرة ان هتلر نفسه تدخل مع السيدة فون براوختش الاولى للحصول على موافقتها على الطلاق وساعد على اتمام التسوية المالية معها ، مما ادى الى وضع القائد العام للجيش تحت عبء الالتزام الشخصي له بالاعتراف بجميله . ويعتمد شولمان في مصدره هذا على تقرير للمخابرات العسكرية الكندية .

٢ ـ اراد هتلر تحويل الانتباه عن الازمة العسكرية وانقاذ شيء من سمعة نوراث في الداخل والخارج ، فخلق بناء على اقتراح غورنغ ما يسمى بمجلس الوزراء السري (Geoheimer kabinettsrat) والغايه منه ، كما يقول مرسوم الفوهرر الصادر في الرابع من شباط ان يؤمن له « التوجيه في ادارة دفة السياسة الخارجية » . وقد اختير نوراث رئيساً لهذا المجلس الذي ضم في عضويته كايتل ورؤساء الفروع الثلاثة من القوات المسلحة ايضاً، بالاضافة الى اكثر اعضاء الوزارة العادية والحزب اهمية . وطبلت دعاية غوبلز لهذا التنظيم الجديد ، وصورته على انه وزارة فوق الوزارة ، وعلى ان نوراث قد رفعت مرتبته فعلا . اما في الحقيقة والواقع فقد كان مجلس الوزراء السري مجرد اسطورة . اذ لم يكن له وجود ابداً . ولقد شهد غورنغ في نورمبرغ بقوله : « وفي الحقيقة لم يكن لمثل هذا المجلس الوزاري وجود ، ولكن هذه التسمية جميلة ، وكان في وسع كل انسان ان يتصور انها تعني شيئاً حقاً . . . وانني لاقسم ان هذا المجلس لم يجتمع قط ، حتى ولا دقيقة واحدة (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩) ص ٢٩٠) .

منصبيهما كما سرح فون بابن من فيينا أيضاً . وعين فونـــك الضعيف بصورة رسمية خلفاً لشاخت في وزارة الاقتصاد .

وفي اليوم التالي أي الخامس من شباط ، صدرت صحيفة « الفولكشاير بيوباختر » بعناوين صارخة هذا نصها « اضخم تركيز لجميع السلطات في يدي الفوهرر » ولعل هذه المرة الوحيدة التي لم تكن الصحيفة النازية مبالغة فيها .

* * *

وهكذا كان اليوم الرابع من شباط عام ١٩٣٨ ، نقطـة تحول رئيسيـة في تاريخ الرايخ الثالث ، بل كان علامة فارقة في طريقه الى الحرب . وفي الامكان القول ، بأن هذا التاريخ سجل اتمام الثورة النازية . وتمت ازاحة آخر المحافظين الذين يقفون في الطريق التي اختطها هتلر للسير عليها،والتي كان قد قرر اتباعها منذ امد طويل ، بعد ان تستكمل المانيا استعداداتها. وكان هندنبرغ ومحافظو المدرسة القديمة هم الذين عينوا بلومبرغ وفريتشه ونوراث في مناصبهم ، ليعملوا ككابح للتطرف النازي ، وكان شاخت قـــد انضم اليهم كذلك . ولكنهم برهنوا في المعركة للسيطرة على السياستين الاقتصادية والخارجية وعلى السلطان العسكري في المانيا على انهم ليسوا انداداً لهتلر . فلم تكن لديهم القوة المعنوية ولا الدهاء السياسي حتى للصمود أمامه ، بل الانتصار عليه . وقد خرج شاخت وتنحى نوراث جانباً ، واستقال بلومبرغ تحت وطأة الضغطالذي فرضه زملاؤه من الفرقاء في الجيش . وقبل فريتشه على الرغم من تعرضه لمؤامرة قـــذرة من مؤامرات قطاعالطرق ، صرفه من منصبه دون ان تبدر عنه بادرة تحد واحدة. وقبل ستة عشر من كبار الفرقاء بضعف واستخذاء مصيرهم ومصيره . ولقد راجت شائعات في اوساط فيلق الضباط عن انقلاب مزعوم ، ولكنها لم تتعدى حدود الاقاويل . وقد برهن هتلر على ان هناك ما يبرر تمام التـــبرير الازدراء الذي كان يحمله للطبقة العسكرية البروسية ، وهو الازدراء الذي ظل يحمـله الى آخر يوم في حياته . فلقد قبلت هذه الطبقة دون أي برم أو نقد ، عمليـة القتل المصرح بها رسمياً ، للفريقين فون شلايخر وفون بريداو . وها هي تبتلع الآنوهي

متراخية ، احالة كبار ضباطها على الاستيداع . او ليست برلين مكتظة بالفرقاء الشبان المتلهفين على الحلول محلهم والتواقين الى خدمته ؟ اذن اين هو التضامن الذي كثر التباهي به بين ضباط الجيش ؟ أليس اسطورة أو خرافة من الخرافات ؟

ولقد كان الجيش طيلة خمس سنوات انتهت في هذا اليوم من ايام الشتاء ، الرابع من شباط عام ١٩٣٨ ، يملك السلطة الفعلية للاطاحة بهتلر ورايخه الثالث. وعندما عرف الجيش في الخامس من تشرين الثاني عام ١٩٧٣ ، الهاوية التي يقوده هتلر اليها ، مع البلاد ، لِمَ لمْ يحاول الإطاحة بهتلر وحكمه ؟ لقد كان فريتشه نفسه هو الذي رد على هذا السؤال بعد سقوطه . فلقد اقام يوم الأحد في الثامن عشر من كانون الأول عام ١٩٣٨ ، حفلة في منزله الريفي في اختيربرغ القريبة من سولتو ، والذي كان الجيش قد وضعه تحت تصرفه بعد تقاعده ، لتكريم السفير المعزول فون هاسيل . وقد دوّن هاسيل في يومياته « زبدة آراء العميد » فقال ...

« ان هذا الرجل – هتلر – هو القدر بالنسبة لألمانيا سواء أكان هذا القدر خيّراً او شريراً . فاذا مضى الآن نحو الهاوية – وهو ما يعتقد فريتشه بوقوعه – فانه سيجرنا جميعاً معه اليها . وليس في استطاعتنا ان نفعل شيئاً » [١]

* * *

وهكذا بعد ان ركز جميع سياسات البلاد الخارجية والاقتصادية والعسكرية بين يديه ، ووضع القوات المسلحة كلها تحت قيادته المباشرة ، شرع هتلر الآن يمضي في طريقه ، اذ بعد ان تخلص من فريتشه دون ان يتيح له الفرصة ، لازالة ما علق باسمه من قذارة ، مكّنه الان ولكن بعد فوات الاوان ، عن طريق تشكيل محكمة عسكرية للنظر في قضيته من تبرئة نفسه . وقد رئس المشير غورنغ المحكمة والى جانبيه قائدا الجيش والاسطول الفريق فون براوختش وامير البحر ريدر ومعهما اثنان من القضاة المحترفين من اعضاء المحكمة العليا .

---

١ – يوميات فون هاسيل ١٩٣٨ – ١٩٤٤ (ص ٢٣)

وبدأت المحاكمة التي منعت الصحافة والجماهير من شهودها في برلين في العاشر من آذار عام ١٩٣٨ ، وسرعان ما تقرر تأجيلها قبل ان ينتهي النهار . وكانت الانباء قد وردت في الليلة السالفة من فيينا بشكل دفع بالفوهرر الى ثـــورة عظيمة من ثورات غضبه المشهورة [١] . وتطلب الوضع وجوب ذهــاب المشير غورنغ والفريق فون براوختش الى مكان آخر بسرعة كبيرة .

١ ــ عندما وصل فون بابن الى دار المستشارية في برلين بعد ست وثلاثين ساعة وجد ان هتلر لا يزال في حالة تقرب من الهستيريا . (بابن ـ مذكرات ــ ص ٤٢٨)

١١

الأنشلوس ... اختطاف النمسا

نقلت مقر عملي في الايام الاخيرة من عام ١٩٣٧ من برلين إلى فيينا وذلك بسبب تبدل هذا العمل في نقل الأنباء من الصحافة إلى الاذاعة . وكنت أعرف فيينا تمام المعرفة ، إذ كنت فيها مراسلاً شاباً ، قبل اكثر من عقد كامل من السنوات. وعلى الرغم من انه قدر لي ان اقضي القسم الأكبر من السنوات الثلاث التالية الشديدة الحراجة في المانيا ، إلا أن عملي الجديد الذي اقتضاني تغطية جميع انباء القارة الأوروبية اتاح لي المجال لاستجلاء صورة معينة عن الرايخ الثالث من هذه الدول المجاورة له والتي قدر لها ان تكون الضحايا الأولى لعدوان هتلر ، قبيل وقوع العدوان أو اثناء وقوعه . وجلت ذهاباً واياباً في تلك الأيام بين المانيا وتلك البلاد التي غدت في تلك الآونة الهدف الأول لغضب هتلر العنيف ، فجمعت تجارب شخصية مباشرة عن الأحداث التي سأتناولها بالشرح الآن والتي أدت بصورة لا تقبل الشك إلى اعظم حرب خبرها الانسان واكثرها سفكاً للدماء . وعلى الرغم من اننا كنا نلاحظ هذه الوقائع ملاحظة مباشرة ، إلا أن من المدهش ان نرى الآن اننا لم نكن نعرف آنذاك إلا القليل عن الشكل الذي وقعت فيه . فلقد دارت جميع المؤامرات والمناورات ، والخدع والمكائد ، والقرارات القدريه ولحظات التردد ، والمقابلات الدراماتية بين الرؤوس من ذوي العلاقة ، وهي كلها عوامل أدت إلى وقوع الاحداث على الشكل الذي وقعت فيه ، وراء الكواليس وبصورة سرية لا تنفذ اليها عيون المتلصصين من الدبلوماتيين الاجانب ورجال الصحافة ووكلاء المخابرات والجواسيس ، وظلت سنوات

طويلة مجهولة من الجميع إلا من القلة التي اشتركت فيها اشتراكاً فعلياً .

وتحتم علينا ان ننتظر متاهـــات الوثائق السرية ، وشهادات الممثلين الأُول الذين اشتركوا في المسرحية وعاشوا بعدها ، وان كان معظمهم في ذلك الحين ، قد ظلوا أسرى السجون والمعتقلات النازية ، لنعرف منها ومنهم القصة الحقيقية. ولهذا فقد استندت في القصة التي سأرويها في الصفحات التالية الى حد كبير على الحشد الضخم من الادلة الواقعية التي توافرت منذ عام ١٩٤٥ . ولكن لعل من النافع بالنسبة إلى من يروي مثل هذا التاريخ ، ان يكون قد عاش احداثه هو شخصياً ، وشهد ما وقع فيه من أزمات اساسية ونقاط تحول فاصلة . وهكذا فقد قدر لي ان اكون في فيينا في تلك الليلة التي لا تنسى ، ليـــلة الحادي عشر ــ الثاني عشر من آذار عام ١٩٣٨ ، عندما زالت النمسا من عالم الوجود .

* * *

ولقد انقضى على تلك العاصمة الجميلة الغريبة بابنيتها والقائمة على نهر الدانوب، اكثر من شهر كامل ، كان فيه اهلها ، الذين يمتازون اكثر مـــن أي شعب آخر عرفته في حياتي بالجاذبية واللطف ، والوداعة والموهبة الخارقة في التمتع بالحياة، فريسة القلق العميق . وقد اطلق الدكتور كورت شوشنيغ مستشار النمسا فيما بعد على هذه الفترة التي انقضت بين الثاني عشر من شباط والحادي عشر مـــن آذار اسم « اسابيع المحنة الاربعة » . فلقد دأب فرانز فون بابن سفـــير هتلر الخاص في فيينا منذ توقيع الاتفاق النمسوي ــ الالماني في الحادي عشر مـــن تموز عام ١٩٣٦ ، وهو الاتفاق الذي قدم فيه الدكتور شوشنيغ ، ضمن ملحقه السري، تنازلات ضخمة للنازيين النمسويين،على بذل كل ما لديه من جهد لتحطيم استقلال النمسا وتحقيق وحدتها مع المانيا النازية. ولقد نقل الى الفوهرر في تقرير طويل مسهب في نهاية عام١٩٣٦ ،ما حققه من تقدم في جهوده،وعاد في نهاية العام الذي تلاه،فقدم تقريراً آخر مماثلاً،مؤكداً فيه هذه المرة«ان تحقيق أي تقدم آخر لايمكن ان يتم دون تعريض المستشار الاتحادي شوشنيغ الى اقسى ضغط ممكن»[1]

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١) ص ٤٨٦ .

وعلى الرغم من ان نصائحه لم تكن ذات قيمة عادة عند المسؤولين في الرايخ ، إلا انها نفذت في هذه المرة تنفيذاً حرفياً بصورة تفوق ما كان هو يتوقعه.

وكان النازيون النمسويون الذين يتلقون العون المالي والتحريض من برلين ، قد واصلوا طيلة عام ١٩٣٧ ، حملتهم الارهابية . فالقنابل تنفجر في كل يوم تقريباً في ناحية من نواحي البلاد ، وكانت المظاهرات النازية الجماهيرية والعنيفة على الغالب قد اضعفت سلطة الحكومة في الاقاليم الجبلية . واكتشفت بعض الخطط التي تشير الى أن السفاحين النازيين كانوا يعدون العدة لاغتيال شوشنيغ كما اغتالوا سلفه من قبل . وقامت الشرطة النمسوية اخيراً ، في الخامس والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٣٨ ، بالاغارة على مركز لجماعة في فيينا تطلق على نفسها اسم لجنة السبعة ، والتي كانت غايتها الظاهرية تحقيق التفاهم بين النازيين والحكومة النمسوية ، وان كانت في حكم الواقع، تمثل المقر المركزي للحكومة النازية السرية وغير المشروعة . وعثر رجال الشرطة في هذا المركز على وثائق موقعة من رودلف هس ، نائب الفوهرر، توضح ان على النازيين النمسويين ان يقوموا بثورة مسلحة علنية في ربيع عام ١٩٣٨ ، وان الجيش الالماني سيدخل النمسا عندما يحاول شوشنيغ اخماد هذه الثورة ليحول «دون سفك الدم الألماني على ايدي الالمان». ويقول بابن ان احدى هذه الوثائق كانت تقضي بقتله هو أو قتل ملحقه العسكري اللواء موف (Muff) . على ايدي النازيين المحليين ليتخذ من هذا الحادث ذريعة للتدخل الألماني [1] .

واذا كان فون بابن المتسامح لم يفرح كثيراً لسماعه بأن اسمه كان قد ادرج للمرة الثانية في قائمة الاغتيال على ايدي النازيين الأوباش ، طبقاً لاوامر صادرة عن زعماء الحزب في برلين ، فإن ألمه كان اشد ، من جراء المكالمة الهاتفية التي تلقاها من دار المفوضية الألمانية في فيينا عشية الرابع من شباط . فلقد كان محدثه على الطرف الثاني من الخط هانس لاميرز (Hans Lammers)، وزير الدولة الذي ابلغه من دار المستشارية في برلين ، ان مهمته الخاصة في فيينا قد انتهت . اجل

١ ـ فون بابن ـ مذكرات ـ ص ٤٠٤

لقد اقيل من منصبه مع نوراث وفريتشه وآخرين .

وتذكر فون بابن فيما بعد [1] ... لقد ذهلت حتى انني لم استطع الكلام . ولا ريب في انه أفاق من ذهوله إلى الحد الذي جعله يدرك ان هتلر قد قرّر كما يبدو القيام بعمل اكثر تطرفاً في النمسا ، بعد ان تم له الخلاص الآن من نوراث وفريتشه وبلومبرغ . وبالفعل فقد أفاق بابن من ذهوله إلى الحد الذي مكّنه من ان يقرر ان يعمل « شيئاً » غير مألوف لدى الدبلوماتيين على حد تعبيره . لقد قرر ان يودع نسخاً من جميع مراسلاته مع هتلر في « مكان امين »،ظهر فيما بعد انه سويسرا . ومضى يقول ... « ولقد كنت اعرف تمام المعرفة حملات الافتراء التي ألفها الرايخ الثالث » . وكنا قد رأينا من قبل كيف ان احدى هذه الحملات قد كادت تكلفه حياته في حزيران عام ١٩٣٤ .

ولقد كانت اقالة فون بابن بمثابة انذار الى شوشنيغ . ولم يكن يثق كل الثقة بهذا الضابط السابق الدمث من ضباط الفرسان ، ولكنه كان سريعاً في ان يدرك انهتلر كان لا بد وقد قرر شيئاً اسوأ من ان يفرض عليه هذا السفير الماكر ، الذي كان على كل حال كاثوليكياً مثله ، وكان على درجة من التهذيب . ولم يكن سير الدبلوماتية الأوروبية في الاشهر القليلة الاخيرة مواتياً للنمسا . فموسوليني زاد تقرباً من هتلر ، منذ تم توقيع محور برلين – رومه ، ولم يكن كثير الاهتمام بالحفاظ على استقلال هذه البلاد الصغيرة كما كان في الماضي عندما اغتيل دلفوس ، وبعث على الفور باربع فرق الى ممر برينر لايقاع الرعب في قلب الفوهرر . ولم تكن بريطانيا كذلك ، التي شرعت مؤخراً في ظل رئاسة تشمبرلين ، تتبع سياسة الترضية لهتلر ، او فرنسا التي مزقتها الخلافات السياسية الداخلية الخطيرة ، قد اظهرتا مؤخراً أي اهتمام بالدفاع عن استقلال النمسا في حالة تعرضها لهجوم هتلر . اما الآن ، وها هو بابن يمضي ، وها هم القادة المحافظون من رجال الجيش الالماني ووزارة الخارجية الذين كانوا يكبحون جماح هتلر الى حد ما ويحددون بنفوذهم مطامحه ، فقد تغير الوضع .

---

١ ــ فون بابن ــ مذكرات ــ ص ٤٠٦

ولم يكن شوشنيغ على الرغم من ضيق تفكيره ، الممتزج بشيء من الذكاء ضمن حدوده ، جاهلاً بالنسبة الى معلوماته المتوافرة عن حقيقة مـــا لحق بوضعه من سوء وتردٍ . وقد شعر ان الوقت قد حان ، كما حان من قبل بعد ان ذبح النازيون دلفوس ، للقيام بترضيات جديدة للديكتاتور الألماني .

وعلى الرغم من ان فون بابن قد اقيل من منصبه ، إلا انه ضمن فرصة طيبة . فهذا الرجل ليس من النوع الذي يثور على صفعة يتلقاها في وجهــه ، اذا كانت الصفعة قد جاءته من علٍ ، ولذا فقد سارع الى هتلر في نفس اليوم الذي اقيل فيه ، أو بعده بيوم واحد « للحصول على صورة عما كان يجري » . وعندما وصل الى برختسغادن في الخامس من شباط ، وجد الفوهرر « تعباً ومأخــوذاً » من جراء النضال الذي وقع له مع قادته العسكريين . ولكن قدرة هتلر على الابــلال من اوجاعه ، واستعادة قواه ، قدرة خارقة ، وسرعان ما كان المبعوث الذي صرف من الخدمة يثير اهتمامه باقتراح كان قد عرضه على مسامعه قبل نحو من اسبوعــين عندما قابله في برلين. انه يقول له: «لم لا تصفي القضية مع شوشنيــغ شخصياً؟». « ولماذا لا تدعوه الى برختسغادن لاجراء حديث شخصي معه ؟ » ورأى هتــلر في الفكرة ما يثير اهتمامه . ونسي انه كان قد اقال فون بابن قبل فترة قصــيرة فأمره بان يعود الى فيينا وان يتخذ الترتيبات اللازمة لعقد الاجتماع .

ووافق شوشينغ لتوه على الفكرة ، ولكنه اشترط على الرغـــم من ضعف مركزه بعض الشروط . فهو يريد ان يعرف مسبقاً النقاط التي يود هتلر الحديث فيها ، وهو يريد ان يتأكد سلفاً بأن اتفاق الحادي عشر من تموز عام ١٩٣٦ الذي وعدت المانيا بموجبه ان تحترم استقلال النمسا وان لا تتدخل في شؤونهــا الداخلية ، سيحترم ويصان . واراد فوق ذلك كله ان يؤكد البلاغ الرسمي الذي سيصدر في نهاية الاجتماع ان البلدين سيتمسكان بمعاهدة عــام ١٩٣٦ . وهكذا لم يكن شوشنيــغ راغباً في ان يجازف بالتطاول على الاسد وهو في عرينه . وعاد بابن مسرعاً الى اوبرسالزبرغ ليتحدث الى هتلر ، ثم رجع الى فيينا يحمل تأكيد الفوهرر بأن اتفاق عام ١٩٣٦ ، سيظل قائماً دون أي تبدل وان كل ما يريده

هو البحث في « بعض نقاط الاحتكاك وسوء التفاهم التي قامت بين البلدين بعد توقيع المعاهدة » . ولم يكن هذا الرد دقيقاً ومحدداً على النحو الذي طلبه المستشار النمسوي . ولكنه اعرب عن ارتياحه على أي حال للرد . وتقرر تبعاً لهذا ان يعقد الاجتماع في الثاني عشر من شباط [1] ، وفي مساء الحادي عشر من الشهر ، استقل شوشنيغ يصاحبه غيدو شميدت وكيل وزارة الخارجية قطاراً خاصاً في منتهى السرية الى سالزبورغ ، حيث تقرر ان يستقل السيارة من هناك مجتازاً بها الحدود الى ملاذ هتلر الجبلي في الصباح التالي . وقد برهنت هذه الرحلة على انها رحلة قدرية .

اجتماع برختسغادن في ١٢ شباط ١٩٣٨

وظهر فون بابن على الحدود ، ليحيي ضيفيه النمسويين ، وقد بدا في ذلك الصباح المتجمد من ايام الشتاء القارص ، على حد تعبير شوشنيغ « في احسن اوضاعه » . واكد لضيفيه ان هتلر في حالة نفسية طيبة في ذلك الصباح . وسرعان ما جاء اول انذار . فقد قال فون بابن بمنتهى الدماثة واللطف ، ان الفوهرر يأمل بأن

---

١ ــ صادف هذا التاريخ الذكرى السنوية الرابعة لمذبحة الاشتراكيين الديمقراطيين النمسويين على ايدي حكومة دلفوس ، التي كان شرشنيغ احد اعضائها . ففي الثاني عشر من شباط عام ١٩٣٤ ، وجه نحو من سبعة عشر الفاً من جنود الحكومة والمتطوعة الفاشيست ، نيران مدافعهم الى مساكن العمال في فيينا فقتلوا نحواً من الف رجل وامرأة وطفل ، واصابوا بجراح ما يتراوح عدده بين ثلاثة واربعة آلاف من العمال . وانتهى عهد الحرية السياسية الديقراطية في النمسا ، وغدت البلاد تحكم بعد هذا التاريخ من ديكتاتورية اكليريكية فاشية يرئسها دلفوس اولاً ومن بعده شوشنيغ . لكن هذه الديكتارية كانت على اي حال اخف وطأة من الديكتاتورية النازية ، وهو ما يستطيع ان يشهد به امثالنا من الذين عملوا في برلين وفيينا في تلك الايام . لكنها على اي حال حرمت الشعب النمسوي من حريته السياسية واخضعته الى المزيد من الاضطهاد الذي يفوق ما مارسه آل هابسبورغ في ايام الملكية . وقد بحثت في هذا الموضوع بالتفصيل في كتابي « رحلة اواسط القرن » .

لا يتضايق الدكتور شوشنيغ من وجود ثلاثة من الفرقاء العسكريين في « عش النسر » ، اذ وصلوا بمحض الصدفة اليه ، وهم كايتل الرئيس الجديد للقيادة العليا للقوات المسلحة ، ورايخناو الذي يقود قوات الجيش على الحدود النمسوية – البافارية ، وسبيرل المسؤول عن السلاح الجوي في هذه المنطقة .

وقد تذكر فون بابن فيما بعد ان ما نقله الى ضيفيه كان « نتفة من الاخبار التي لم يستسغها ذوقهما » . ويقول شوشينغ انه ابلغ السفير بأن وجود هؤلاء الناس لا يضايقه لا سيما وان « ليس له حق الخيار في الموضوع » . ومن هنا يتبين ان هذا المثقف ثقافة يسوعية ، كان قد قرر اتخاذ موقف الحيطة والحذر .

ومع ذلك ، لم يكن شوشنيغ على استعداد لتقبل ما حدث بالفعل . فقد خرج هتلر وهو يرتدي قميص جنود العاصفة البني اللون، وسروالاً اسود، ويحيط به الفرقاء الثلاثة الى درج الدارة لاستقبال ضيفيه . واحس المستشار النمسوي ان الاستقبال كان ودياً وان اكتسب طابع الرسمية . وبعد لحظات وجد نفسه وحيداً مع الديكتاتور الألماني في غرفة المكتبة الفسيحة في الطبقة الثانية من الدارة ، التي تطل نوافذها الكبيرة على جبال الالب السامقة والتي تكلل هاماتها الثلوج وعلى النمسا مسقط رأس هذين الرجلين اللذين يقفان معاً امامه .

ويتفق كل من عرف كورت فون شوشنيغ البالغ من العمر احدى واربعين سنة ، انه كان من طراز اولئك الاشخاص الذين يتميزون بالاخلاق النمسوية العريقة والمعصومة من الاخطاء ، ولذا لم يكن من غير الطبيعي بالنسبة اليه ان يبدأ حديثه بلفتة كريمة من الاطراء للمنظر الساحر ، والطقس الرائع ، وبكلمة منمقة فيها بعض التملق ، عن تلك الغرفة التي وصفها بأنها شهدت ولا ريب كثيراً من المؤتمرات الحاسمة . وسرعان ما قطع عليه هتلر حديثه قائلاً : « اننا لم نجتمع هنا لنتحدث عن المنظر الرائع أو عن الطقس » وسرعان ما انفجرت العاصفة . وكان الحديث في الساعتين التاليتين على حد قول المستشار النمسوي في شهادته فيما بعد «صادراً على الغالب من جانب واحد » [1] فقد قال هتلر مرغياً مزبداً . . .

١ – كتب الدكتور شوشنيغ فيما بعد معتمداً على ذاكرته ، وصفاً لما سماه هو « بالفقرات المهمة» من هذا النقاش الصادر عن جانب واحد . وعلى الرغم من انه لا يعتبر سجلاً حرفياً لما وقع ،

« لقد عملت كل ما في وسعك لتجنب اتباع سياسة ودية . فتاريخ النمسا كله ، قصة متواصلة من اعمال الخيانة العظمى . لقد كان هذا هو شأنها في الماضي ، وليس الوضع بأحسن حالاً اليوم . ومن الواجب ان يصل هذا التناقض التاريخي الى نهايته التي طال انتظارها . وفي وسعي ان اقول لك يا هر شوشنيغ ، في هذه اللحظة انني عازم عزماً اكيداً على وضع حد لكل هذا . فالرايخ الألماني احدى الدول العظمى ، ولن يرفع انسان صوته إذا قام الرايخ بتسوية مشاكل حدوده » .

واصيب المستشار النمسوي بالفزع من تفجر هتلر وثورته ، وحاول هذا الانسان المهذب ان يظل على موقفة من محاولة التفاهم مع محدثه ، وان ظل ثابتاً على موقفه . وقال انه يختلف مع مضيفه في موضوع الدور الذي لعبته النمسا في التاريخ الألماني ، واضاف ان « إسهام النمسا في هذا الصدد كان عظيماً .

هتلر ...« ان اسهامها صفر مكعب. اسمعت انه صفر مكعب. فقد قامت النمسا طيلة تاريخها بمحاولة هدم كل فكرة قومية ، ولا ريب في ان هذه الاعمال الهدامة كانت النشاط الرئيسي الذي قام به آل هابسبورغ والكنيسة الكاثوليكية [1] » .

شوشنيغ ...« على أي حال يا حضرة مستشار الرايخ، لا يمكن فصل الكثير من الاسهام النمسوى من الصورة العامة للثقافة الألمانية ... لنأخذ رجلاً كبيتهوفن ...

إلا انه يبدو صحيحاً لكل انسان استمع الى خطب هتلر التي لا عد لها ولا حصر او درسها ، وقد تم التثبت من صحتها ، لا عن طريق الاحداث التي وقعت في نتيجتها فحسب بل وعن طريق ما قاله الذين كانوا في « عش النسر » في ذلك اليوم وعلى الاخص بابن ويودل وغيدوشميدت . وقد تابعت قصة شوشنيغ كما اوردها في كتابه « مطالب النمسا » وكذلك في شهادته المشفوعة باليمين في نورمبرغ . (شوشنيغ ــ مطالب النمسا) ص ص ١٢ ــ ١٩ .

١ ــ من الواضح ان صورة هتلر المنحرفة عن التاريخ الالماني النمسوي ، قد انطبعت لديه كما رأينا في فصول سابقة من هذا الكتاب اثناء صباه في لينز وفيينا ، وقد ظلت على حالها دون اي تبدل .

هتلر .. « آه .. بيتهوفن ؟ دعني أقول لك ان بيتهوفن ينتمي إلى حوض الراين الادنى ...»

شوشنيغ : « ومع ذلك فقد كانت النمسا هي البلد الذي فضله ، كما كانت كذلك بالنسبة إلى كثيرين ..»

هتلر ... « قد يكون هذا صحيحاً . ولكنني اود ان اقول لك مرة ثانية أن الأمور لا يمكن لها ان تستمر على هذا النحو . ان لي رسالة تاريخية ، وسأحقق هذه الرسالة ، لأن العناية الإلهية قدرت لي أن افعل ذلك ... وكل من لا ينضم إلي سيسحق ... ولقد اخترت اكثر الطرق التي سلكها الألمان في الماضي صعوبة . وحققت اعظم المآثر في التاريخ الألماني ، بل لعلها اعظم مما حققه أي انسان آخر . وقد تم كل ذلك دون اللجوء إلى القوة ، وهذا أمر مهم . ... انني اجد نفسي مدفوعاً بحب شعبي . ...

شوشنيغ : « يا سيدى المستشار انني على استعداد لتصديق كل ما تقول » .

وبعد انقضاء ساعة تقريباً على هذا النحو من الحديث سأل شوشنيغ مناقشه ان يعدد الأمور التي يشكو منها . وقال : « سنعمل كل شيء لازالة العوائق التي تقف في طريق تفاهم افضل . أجل سنفعل كل ما هو ممكن » .

هتلر ... « هذا ما تقوله يا هر شوشنيغ . ولكنني ابلغك بأنني مصمم على حل ما يسمى بالمشكلة النمسوية في أي شكل كان .

وهنا شن حملة شعواء على النمسا لقيامها بتحصين حدودها المقابلة لألمانيا ، وهي تهمة نفاها شوشنيغ .

هتلر ... « اسمع ، لا اظنك تجهل ، انك لا تستطيع ان تحرك حجراً واحداً في النمسا دون ان اسمع بما فعلت في اليوم التالي . أتجهل ذلك ؟ ... ان كل ما احتاجه هو ان اصدر الأمر ، وفي ليلة واحدة ليس إلا ، تصبح جميع اجهزتك الدفاعية المضحكة ، ممزقة شذر مذر . انك لا تعتقد جاداً ان في وسعك ان توقفني عن التقدم

نصف ساعة . هل تعتقد ذلك ؟ ولكنني ارغب خالص الرغبة وصادقها في تجنيب النمسا مثل هذا المصير ، لأن مثل هذا العمل يعني سفك الدماء . فوراء الجيش سيزحف جيش العاصفة والفيلق النمسوي ، وليس في وسع انسان حتى ولو كنته ، ان يحول دون أخذ الثأر .

وراح هتلر يذكر شوشنيغ بعد هذه التهديدات (موجهاً خطابه اليه بطلاقة باسمه المجرد ، دون ذكر المنصب الذي يشغله ، خلافاً لاصول المجاملة الدبلوماتية) بما هي عليه النمسا من عزلة، وما ينجم عن ذلك من يأس لا تستطيع ان تدرأه.

هتلر ... « وأرى ان لا يخيل اليك لحظة واحدة ، ان في وسع أي انسان على وجه هذه البسيطة ان يغير من قراري . هل تفكر في ايطاليا ؟ ان موقف موسوليني واضح امامي . أو هل تفكر بانكلترا ؟ ان انكلترا لن تحرك ساكناً في سبيل النمسا ...وفرنسا؟

وراح هتلر يقول : انه كان في وسع فرنسا ان توقف المانيافي حوض الراين، وكان يتحتم عليه آنذاك ان يتراجع . « ولكن فرنسا فوتت فرصتها » .

وأخيراً : ...

هتلر ... « انني امنحك يا هر شوشنيغ الفرصة مرة أخرى ولعلها المرة الأخيرة ، للوصول إلى تفاهم معي . فاما ان نجد الحل الآن أو ان الأحداث ستسير سيرها المقرر ... فكر بما قلت يا هر شوشنيغ . أجل فكر به جيداً . انني لا استطيع الانتظار إلى ما بعد ظهر اليوم ...

وهنا سأله شوشنيغ عن شروطه بالدقة . فرد هتلر قائلاً : « في وسعنا ان نبحث في ذلك بعد الظهيره » .

وبدا هتلر في عيني شوشنيغ ، اثناء مأدبة الغداء ، « في أحسن حالاته »، وهذا ما ادهشه . وقد خصص حديثه الطويل اثناء الطعام للبحث في مواضيع الخيول والبيوت . وقال متطلعاً الى شوشنيغ «سيرى الامريكيون ان المانيا قد

شرعت في بناء ابنية اضخم واحسن من ابنيتهم في الولايات المتحدة ». أما بالنسبة إلى المستشار النمسوي المضطهد ، فقد لاحظ فون بابن انه بدا « قلقاً ومشغول الخاطر ». وعلى الرغم من نهمه في التدخين، إذيشعل اللفافة من اختها، لم يسمح له بالتدخين في حضرة هتلر . ولكن بعد ان تناول الجميع القهوة في غرفة مجاورة ، اعتذر هتلر بالانسحاب من الغرفة، وتمكن شوشنيغ اخيراً من تدخين لفافة للمرة الأولى . وتمكن في هذه الفترة من ابلاغ وكيل خارجيته ، غيدو شميدت ، الانباء السيئة . وسرعان ما قدر لهذه الانباء ان تزداد سوءاً .

وبعد ان انتظر النمسويان نحواً من ساعتين ، في احدى الغرف الصغيرة ، سمح لهما بالدخول عند ريبنتروب، وزير خارجية المانيا الجديد وكان معه فون بابن . وقدم اليهما ريبنتروب مسودة اتفاق وضعت في ورقتين مطبوعتين على الآلة الكاتبة ، قائلاً ان هذه هي مطالب هتلر النهائية وان الفوهرر لن يسمح بمناقشتها ، وان عليهما توقيعها فوراً . ويقول شوشنيغ انه شعر أخيراً بشيء من الارتياح ، اذ حصل في النهاية على شيء واضح من هتلر . ولكن ارتياحه هذا ما لبث ان زاوله ، عندما مضى يقرأ الوثيقة . اذ اتضح له انها لا تعدو مجرد انذار بوجوب تسليم الحكومة النمسوية في الواقع الى النازيين في غضون اسبوع واحد .

فلقد نصت المعاهدة على وجوب رفع الحظر عن الحزب النمسوي النازي ، وعلى اطلاق سراح جميع المسجونين النازيين والعفو عنهم، وعلى تعيين المحامي النمسوي الديكتور سايكس اينكوارت ، وزيراً للداخلية مع الحق في السيطرة على الشرطة ودوائر الأمن . وطلبت المعاهدة تعيين شخص آخر من مشايعي النازية وهو غليس–هورستيناو **Glaise - Horstenau** وزيراً للحربية ، وان يقيم الجيشان الالماني والنمسوي علائق اكثر وثوقاً عن طريق بعض الاجراءات وبضمنها التبادل المنظم لنحو من مائة ضابط بين الجيشين . ونص الطلب النهائي على وجوب اتخاذ الاستعدادات لدمج النمسا في النظام الاقتصادي الالماني . ولتحقيق هذا الهدف يجب تعيين الدكتور فيشبوك **(Fishboeck)** — وهو ايضاً

من مشايعي النازية وزيراً للمالية [1] .

وقد ادرك شوشنيغ ، كما كتب فيما بعد ، ان قبول هـــذا الانذار النهائي يعني نهاية استقلال النمسا . وقال ..

« ونصحني ريبنتروب ان اقبل الطلبات فوراً . واعترضت على ذلك واحلته الى اتفاقي السابق مع فون بابن ، الذي جعلته شرطاً مسبقاً لمجيئي إلى برختسغادن، ثم اوضحت له انني لست على استعداد لأن اواجه بمثل هذه المطالب غير المعقولة » [2] .

ولكن هل كان شوشنيغ على استعداد لتقبل هذه المطالب ؟ أما انه لم يكن مستعداً لمواجهتها ، فهذا أمر واضــح حتى بالنسبة إلى انسان بليد كريبنتروب . وكان السؤال الذي يجب ان يسأل الآن ، هل هو على استعداد لتوقيعها ؟ وهناك وفي هذه اللحظة الشاقة والحاسمة ، بـــدأ الضعف يتسلل الى نفس المستشار النمسوي الشاب . وسأل بشيء من الضعف والاستخذاء ، كما قال هو نفسه في روايته « هل في استطاعتنا ان نركن إلى حسن نية المانيا ، وهل تعتزم حكومة الرايخ حقاً التزام حدودها في الصفقة [3]؟ ويقول هو انه تلقى رداً ايجابياً.

وشرع فون بابن يحاول التأثير عليه . فقد اعترف السفير المتقلب «بدهشته» عندما قرأ الانذار وقـــال « حقاً انه تدخل لا داعي له في السيادة النمسوية ». ويقول شوشنيغ ان بابن اعتذر له ، واعرب عن « دهشته الفائقة من الشروط » ولكنه على أي حال نصح المستشار النمسوي بقبولها وتوقيعها .

« ومضى يبلغني ان في وسعي ان اكون واثقاً من ان هتلر سيضمن في حالة توقيعي لها وموافقتي على المطالب،ان تظل المانيا ابتداء منذلك الوقت على ولائها واخلاصها لهذا الاتفاق مؤكداً انه لن تقوم بعد ذلك اية متاعب أمام النمسا»[4]

ويبدو من جميــع هذه الأقوال ، وقد ورد الأخير منها في شهادته المشفوعة

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١) ص ص ٥١٣ ــ ٥١٥ .

٢ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٧١١

٣ ــ شوشنيغ ــ مطالب النمسا ــ ص ٢٣

٤ ــ الوثائق النازية ص ٢٩٩٥

باليمين في نورمبرغ ، ان شوشنيغ لم يكن قد ضعف فحسب ، بل وسمح لسذاجته وبلاهته بالتسلط عليه .

وكانت لديه فرصة وحيدة اخيرة للصمود . واستدعي مرة ثانية لمقابلة هتلر، فوجده يذرع غرفة مكتبه جيئة وذهاباً وقد سيطر عليه التهيّج والعصبية .

هتلر ... « هرشوشنيغ ... هذه هي مسودة الوثيقة . ليس ثمة ما يناقش فيها . اذ لن ابدل حرفاً واحداً فيها . فاما ان توقعها كما هي وتنفذ طلباتي في غضون ثلاثة أيام ، واما ان آمر بالزحف على النمسا [1] .

واستسلم شوشنيغ ، وأعلم هتلر عزمه على التوقيع . ولكنه ذكره بان الدستور النمسوي ينص على ان توقيع مثل هذه الاتفاقات وتنفيذها حق من حقوق رئيس الجمهورية وحده . ولذا فمع رغبته في ان يناشد رئيس جمهوريته قبول الاتفاق فانه لا يستطيع ضمان ذلك .

وصرخ هتلر ... ولكن عليك ان تضمن ذلك !

ويقول شوشنيغ انه رد قائلاً ... ولكني لا استطيع يا حضرة المستشار » [2] . وعاد شوشنيغ يتذكر فيما بعد :

« ويبدو ان هتلر شرع بعد هذا الرد يفقد سيطرته على اعصابه . فركض إلى الباب وفتحه وهو يهتف ... « يا فريق كايتل ! » . وعاد فالتفت إلي ثانية وقال ... « سأدعوك لمقابلتي فيما بعد » [3] .

ولم يكن هذا اكثر من مجرد تمثيل . ولكن المستشار النمسوي المنهار الاعصاب ، الذي لفت انتباهه منذ البداية وجود القادة العسكريين الثلاثة ، لم يكن يدري على الغالب ذلك . ويروي بابن ان كايتل روى له فيما بعد كيف أن

---

١ ــ اختلفت روايتا شوشنيغ عن تهديدات هتلر بعض الاختلاف في كتابه ص ٢٤ وفي شهادته امام محكمة نورمبرغ (المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٧١٢) وقد استعملت الروايتين مختصرتين .

٢ ــ شوشنيغ ـ مطالب النمسا ـ ص ٢٤

٣ ــ شوشنيغ ـ مطالب النمسا ـ ص ٢٧

هتلر حياه بابتسامة عريضة عندما هرع يرد على ندائه ويقف متأهبـــاً لتلقي الأوامر . . . ثم قال ... «ليس هناك أوامر ، وانما اردت ان تكون معي هنا »

ولكن شوشنيغ والدكتور شميدت ، وكانا يقفان في الانتظار خارج مكتب الفوهرر تأثرا من التمثيلية . وهمس شميدت في اذن رئيسه بانه لن يدهش اذا ما وجد انهما قد اعتقلا في غضون الخمس دقائق التاليـــة . واستدعي المستشار النمسوي بعد ثلاثين دقيقة للمثول امام هتلر . وقال الفوهرر :

« لقد قررت ان ابدل رأيي لأول مرة في حيــاتي . ولكنني انذرك بأن هذه هي فرصتك الأخيرة . انني اعطيك ثلاثـــة ايام اضافية اخرى لتنفيد الاتفاق [1] .

وكان هذا اقصى ما يستطيع الديكتاتور الألماني ان يقدمه من تنازلات . وعلى الرغم من ان كلمات المسودة الاخيرة قـــد خففت ، إلا ان التبدلات التي طرأت عليها لم تكن كما شهد شوشنيغ فيما بعد كبيرة الاهمية . ووقع المستشار النمسوي ، الاتفاق وبتوقيعه صدرت شهادة وفاة النمسا .

ويختلف سلوك الناس في أوقات الأزمات باختلاف طبائعهم ، وكثيراً ما يكون هذا الاختلاف مدهشاً ومحيراً . ولا يشك إلا القليلـون في ان شوشنيغ وهو المتمرس على اشواك السياسة وجنادلها التي اودت بسلفه دلفوس على الرغم من حداثة سنه نسبياً ، كان رجلاً شجاعاً . لكن استسلامه لهتلر في الحادي عشر من شباط عام ١٩٣٨ تحت وطأة التهديد بالهجوم المسلح ، قد ترك رواسب من الشكوك التي لم تنجل بين مواطنيه وعند المراقبين ومؤرخي هذه الفترة القدرية . ترى هل كان الاستسلام ضروريا ؟ او لم يكن هناك مجال آخر ؟ قـــد يكون من التهور بالنسبة إلى أي انسان ان يقول بان بريطانيـــا وفرنسا بالنظر الى سلوكهما التالي ، أمام عدوان هتلر ، كانتا ستهرعان الى نصرة النمسا لو أن هتلر كان قد نفذ وعيده فعلاً بالزحف عليها . ولكن هتلر لم يــكن حتى تلك اللحظة قد خرج عن حدود بلاده ، كما لم يكن قد هيأ شعبه والعالم لتقبل مثـل

---

١ ـ شوشنيـغ ـ مطالب النمسا ـ ص ٢٥

هذا العمل من أعمال العدوان المجازف . ولم يكن الجيش الألماني نفسه قد غدا متأهباً للحرب في حالة تقرير فرنسا وبريطانيا التدخل . ولكن « اتفاق » برختسغادن قد اسفر في غضون اسابيع عن اضعاف النمسا على أيدي النازيين المحليين والحيل الألمانية الى الحد الذي غدا في مكنة هتلر ان يحتلها دون كبير مجازفة بالتدخل الاجنبي كما كان الوضع في الحادي عشر من شباط . وقد اعترف شوشنيغ نفسه ، فيما كتبه ، بعد سنوات ، بأن قبول شروط هتلر لم يكن يعني اكثر من النهاية الكاملة لاستقلال الحكومة النمسوية .

ومن المحتمل ان يكون شوشنيغ قد ذهل من المحنة التي مر بها . فبعد ان وقع على شهادة وفاة باستقلال بلاده تحت تهديد القوة، شرع في محادثة غريبة مع هتلر، كان هو الذي دونها في كتابه فيما بعد. فلقد وجه الى الفوهرر هذا السؤال : « هل يعتقد السيد مستشار الرايخ ، ان الازمات المختلفة التي يمر بها العالم يمكن ان تحل بطريقة سلمية » ؟ ورد الفوهرر بحماقة قائلاً ... « اجل ، اذا اتبعت نصائحي » . وهنا قال شوشنيغ « دون ان يضمن حديثه كما يبدو أية اشارة من اشارات السخرية .. » ان الوضع العالمي يبدو في هذه اللحظة مشرقاً بعض الاشراق . او لا توافقني على ذلك ؟ » [١] .

وكان مثل هذا السؤال في مثل تلك اللحظة ، شيئاً لا يكاد يصدق ، ولكن هذا ما قاله المستشار النمسوي المغلوب على امره ، كما يعترف هو . ولم تكن جعبة هتلر قد فرغت بعد من وسائل اذلال ضيفه . فعندما اقترح شوشنيغ ان يذكر البلاغ الصحفي الذي سيصدر عن الاجتماع ، ان المباحثات اكدت معاهدة عام ١٩٣٦ ، صرخ الفوهرر قائلاً : « لا . عليك اولاً ان تنفذ شروط اتفاقنا هذا . أما البلاغ الذي سيصدر الى الصحف فسيكون على النحو التالي : « لقد تشاور الفوهرر ومستشار الرايخ اليوم مع مستشار الاتحاد النمسوي في عش النسر . هذا كل شيء » .

واعتذر شوشنيغ عن قبول دعوة الفوهرر للبقاء حتى العشاء ، واستقل

---

١ ــ شوشنيغ ـ مطالب النمسا ـ ص ٣٥ ـ ٣٦

سيارته مع شميدت عائداً من الجبال إلى سالزبرغ . وكانت ليلة مغبرة يلفهـا الضباب من ليالي الشتاء . ورافق فون بابن الذي يظهر في كل مكان الضيفين الى الحدود، وبدا منزعجاً مما اسماه « الصمت الطاغي ». ولم يستطع ان يكبح نفسه عن محاولة التسرية عن صديقيه .

وعاد يقول لهما ... حسناً لقد رأيتما الحالة التي يمكن للفوهرر ان يكون فيها احياناً . ولكني واثق من ان الوضع سيكون مختلفاً في المرة التاليـة . فليس ثمـة من شك في ان الفوهرر يستطيـع ان يكون ساحراً كل السحر في حديثه »[1] .

الاسابيع الأربعة من المحنة
١٢ شباط ـ ١١ آذار ١٩٣٨

منح هتلر المستشار شوشنيـغ اربعة ايام أي حتى يوم الثلاثاء الخامس عشر من شباط ، ليبعث اليه « برد ملزم » يتضمن تعهده بتنفيذ الانذار ، وثلاثة ايام اضافية اخرى ، أي حتى الثامن عشر من شباط ، لتنفيذ شروطه المعينـة والمحددة . وقد عاد شوشنيغ إلى فيينا في صبيحة الثاني عشر من شباط ، وبادر لفوره الى التشاور مع رئيس الجمهورية ميكلاس. وكان ويلهلم ميكلاس هذا انساناً عادياً من اواسط الناس ، يمتاز بالاناة في كل شيء، وكان اهل فيينا يتندرون عنه قائلين ان اهم ما حققه في الحياة هو انجابه لعدد كبير من الاطفال . ولكنه كان يتميز كذلك بشيء من ثبات الفلاحين ، وقد برهن في هذه الازمة التي مرت به بعد اثنين وخمسين عاماً من العمل كموظف في الدولة ، على شجاعة تفوق مـا أظهره أي نمسوي آخر . إذ كان راغباً في منح بعض التساهلات لهتلر كالعفوعن

١ ـ تختلف رواية بابن (راجع مذكراته ص ٤٢٠) بعض الاختلاف عن رواية شوشنيغ هذه التي اراها اكثر صحة ودقة .

النازيين النمسويين مثلاً ، ولكنـــه رفض ان يعين سايكس – اينكوارات في منصب المسؤول عن الشرطة والجيش . وقد ابلغ فون بابن ، هذه الحقيقة لبرلين مساء الرابع عشر من شباط ، وانهى تقريره قائلاً ... « ولكن شوشنيغ يأمل في التغلب على معارضة الرئيس غداً ».

واقر هتلر في الساعة السابعة والنصف من ذلك المساء ، الاوامر التي اعدها الفريق كايتل لفرض ضغط عسكري على النمسا ...

« انشروا انباء كاذبة على ان تكون من النوع الذي يصدق ، والذي يؤدي الى افهام الناس ضرورة استكمال الاعدادات العسكرية ضد النمسا » [١] .

وكان الفوهرر قـــد شرع في الحقيقة فور مغادرة شوشنيغ برختسغادن يتظاهر باتخاذ اجراءات عسكرية ليرغم المستشار النمسوي على تنفيذ ما مر به. وقد دون يودل كل ذلك في يومياته :

« ١٣ شباط – استدعاني الفريق كايتل ، للذهاب الى شقته بعد ظهر اليوم مع اميرالبحر كاناريس [٢] . ابلغنا ان اوامر الفوهرر تقضي باستمرار الضغط العسكري عن طريق التظاهر بعمل عسكري حتى الخامس عشر من الشهر ، لقد تم اعداد الاقتراحات عن هذه الاجراءات وقدمت الى الفوهرر هاتفيـــاً لنيل موافقته عليها .

« ١٤ شباط ـ كان التأثير سريعاً وقوياً . فالانطباع السائد في النمسا هو ان المانيا تقوم باعدادات عسكرية جدية » [٣]

ولم يكن الفريق يودل مبالغاً في قوله . فقبل انتهـــاء مهلة الانذار بالغزو الالماني المسلح ، أذعن الرئيس ميكلاس ، وتولى شوشنيغ في الخـامس عشر من شباط ابلاغ السفير فون بابن رسمياًبان اتفاق برختسغادن سينفذ قبل الثامن عشر من شباط. واعلنت الحكومة النمسوية في السادس عشر من شباط العفو العام عن

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٣٥٧

٢ ـ ويلهيلم كاناريس وكان رئيس مكتب المخابرات في القيادة العليا للقوات المسلحة الالمانية

٣ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٣٦١

النازيين بما فيهم اولئك الذين ادينوا باغتيال دلفوس ، كما اعلنت تعديل الوزارة الذي تضمّن تعيين آرثر سايس–اينكوارت ، وزيراً للامن العام . وهرع الوزير النازي في اليوم التالي الى برلين لمقابلة هتلر وتلقي اوامره .

كان سايس–اينكوارت، الرائد الأول بين الكويزلنغيين ، شاباً ، ذكياً ، دمث الاخلاق ، يعمل في المحاماة في فيينا ، تحرّقه منذ عام ١٩١٨ ، رغبة ساعرة وقع تحت سيطرتها في ان النمسا متحدة مع المانيا . وكانت هذه الفكرة مطلباً قومياً شعبياً في السنوات الأولى التي تلت الحرب . وكانت الجمعية الوطنية المؤقتة في الثاني عشر من تشرين الثاني عام ١٩١٨ ، أي بعد يوم واحد من توقيع الهدنة ، وقد حاولت بعد ان اطاحت بملكية آل هابسبورغ واعلنت الجمهورية النمسوية ، تنفيذ الاتحاد مع المانيا (انشلوس) باعلانها ان « النمسا الألمانية جزء لا يتجزء من الجمهورية الألمانية . ولكن الحلفاء الظافرين ، لم يسمحوا بقيام هذا الاتحاد ، وعندما جاء هتلر الى الحكم في عام ١٩٣٣ ، لم يكن ثمة من شك في ان الغالبية الغالبة من النمسويين قد اضحوا ضد انضمام بلادهم الصغيرة الى المانيا النازية . ولكن النازيين ظلوا كما قال سايس اينكوارت اثناء محاكمته في نورمبرغ ، صامدين في تأييدهم للاتحاد (الانشلوس) ، ولهذا السبب لم يتوان عن تقديم المساعدة اليهم . ولم يشترك هو في الحزب كما لم يسهم في اعماله المتطرفة والصخابة . وظل يمثل على أي حال دور الواجهة الأمامية المحترمة للنازيين النمسويين ، وبعد اتفاق تموز عام ١٩٣٦ ، التي عين بموجبها مستشاراً للدولة ، ركـّز جهوده يساعده فيها بابن وغيره من الموظفين والعملاء الألمان على « الحفر » من الداخل للاطاحة بأسس الدولة النمسوية . ومن الغريب ان يبدو وكأن ميكلاس وشوشنيغ كانا يثقان به الثقة التي استمرت حتى النهاية وقد اعترض ميكلاس فيما بعد وهو الكاثوليكي المتدين ، كشوشنيغ ، بأنه كان متأثراً من الحقيقة الواقعة وهي ان سايس–اينكوارت كان مواظباً على حضور الصلاة في الكنيسة . ولعل كاثوليكية الرجل ، والظروف التي جمعت بينه وبين شوشنيغ في الخدمة المشتركة اثناء الحرب في كتيبة القناصة القيصرية التيرولية أبان الحرب الكونية الأولى التي اصيب فيها بجراح خطيرة ، هي التي ادت الى تلك الثقة التي

اولاه إياها المستشار النمسوي . ومن سوء حظ شوشنيغ انه كان عاجزاً عجزاً فاضحاً عن الحكم على الناس على اسس اكثر رسوخاً . ومن المحتمل ان يكون قد تصور ان بامكانه الحفاظ على وزيره الجديد منسجماً مع سياسته عن طريق الرشاوى الصغيرة . وقد حدثنا هو نفسه في كتابه عن التأثير السحري الذي تركه مبلغ الخمسمائة دولار في نفس وزيره عندما قدم اليه هذا المبلغ قبل نحو من عام إثر تهديده بالاستقالة من منصبه كمستشار للدولة ، فقد حملته هذه الرشوة بعد ان تسلمها على اعادة النظر في موقفه . ولكن كان في وسع هتلر ، ان يلوح أمام المحامي الشاب الطموح بجوائز اضخم وهو ما قدر لشوشنيغ ان يعرفه بعد فترة قصيرة .

والقى هتلر في العشرين من شباط خطابه الذي طال انتظاره ، في قاعة الرايشستاغ ، بعد ان كان قد اجله من الثلاثين من كانون الثاني المنصرم بسبب انشغاله في ازمة بلومبرغ ـ فريتشه وبسبب المكائد التي كان يدبرها ضد النمسا. وعلى الرغم من تحدثه بحرارة عن « تفهم » شوشنيغ ، وعن «رغبته الصادقة» في ايجاد تفاهم اوثق بين النمسا والمانيا ــ وهي خدعة جازت على تشمبرلين ، رئيس وزراء بريطانيا فان الفوهرر وجه انذاراً وجد آذاناً متفتحة لسماعه في فيينا وفي براغ على الرغم من عدم وقوعه على اذان صاغية في لندن . فلقد قال الفوهرر ...

« هناك اكثر من عشرة ملايين من الالمان يعيشون في الدولتين اللتين تجاوران حدودنا ... ومن الواجب ان لا يكون ثمة شك في شيء واحد، وهو ان الانفصال السياسي عن الرايخ يجب ان لا يؤدي الى الحرمان من الحقوق ، واعني بها الحقوق العامة في تقرير المصير . ولا ريب في ان مما لا يطاق بالنسبة الى دولة ذات مكانة عالمية ، ان تعرف ان هناك اخوة لها في العنصر ، يعيشون الى جانبها ، ويتعرضون بصورة دائمة للآلام بسبب ما يحسونه من عطف او وحدة مشاعر مع الأمة كلها تجاه مصيرها وتجاه نظرتها العالمية

(Weitanschauung) . وان من مصلحة الرايخ الالماني ان يتولى حماية هؤلاء الالمان الذين ليسوا في وضع يمكنهم من ضمان حريتهم السياسية والروحية على حدودنا بفضل مجهوداتهم وحدها » [١] .

ولقد كان هـــذا القول بمثابة اعلان صريح وواضح ، بأن هتلر بات يعتبر منذ تلك اللحظة مستقبل الملايين السبعة من النمسويين . والملايين الثلاثـــة من الالمان السوديت في تشيكوسلوفاكيا شأناً من شؤون الرايـخ الثالث .

وراح شوشنيـــغ يرد على هتلر بعد أربعة أيام أي في الرابـــع والعشرين من شباط ، في خطاب القاه في البرلمان النمسوي (البوندستاغ Budestag) ، الذي كان اعضاؤه يعينون كزملائهـــم في الرايشتستاغ ، من قبل العهد الديكتاتوري للحزب الواحد . وعـــلى الرغم من لهجة الخطاب الودية تجاه المانيـــا ، إلا ان شوشنيـــغ اكد فيه ان النمسا قد مضت الى اقصى حدود التساهل والتنازلات حيث بات لزاماً عليها ان تتوقف وان تقول : « الى هنـــا فقط ، ولا خطوة بعدها » . وعاد فأكد ان النمسا لن تتخلى طوعاً عن استقلالها ، ثم انهى خطابه رافعاً الشعار المثير التالي : « الاحمر والابيض والاحمر (الوان العلم النمسوي) ، سيظل خفاقاً الى ان نموت » .

ولقد كتب شوشنيـــغ بعد انتهاء الحرب يقول ان اليوم الرابـــع والعشرين من شباط ، « كان بالنسبة الي اكثر التواريـخ حراجة وخطورة » . انه ينتظر بفراغ صبر رؤية رد فعل الفوهرر على خطابه المنطوي على التحدي . وابرق فون بابن إلى برلين في اليوم التالي ناصحاً وزارة الخارجية بعدم حمل الخطاب عـــلى محمل الجد الكلي . وذكر ان شوشنيـغ قد عبر عن مشاعره الوطنيـــة القوية ، ليستعيد سمعته الداخلية ، فهناك مؤامرات تحاك في فيينا للاطاحة بـــه بسبب موقفه المتساهل في برختسغادن . وابلغ فون بابن برلين في نفس الوقت ان « عمل سايس – اينكوارت يسير وفق الخطـة المرسومة » [٢] . وراح بابن في

---

١ – من اوراقي الخاصة التي دونت فيها الخطاب عند اذاعته .
٢ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية –(١)ص ٥٤٦ ..

اليوم التالي ، بعد ان قاربت سنواته الطويلة من العمل المخادع من اثمارها النهائي يطلب إجازة رسمية من الحكومة النمسوية ، ثم مضى الى كيتزبوهيل ، لممارسة رياضة التزحلق على الثلوج .

ولقد اثار خطاب هتلر في العشرين من شباط الذي اذيع على شبكة الاذاعة النمسوية، سلسلة من التظاهرات النازية الجماهيرية في جميع انحاء النمسا . وفي الرابع والعشرين من شباط ، وكان شوشنيغ يذيع رده على خطاب هتلر ، قام حشد ضخم من الدهماء يضم نحواً من عشرين الفاً من النازيين في «غراز» بالهجوم على ساحة المدينة العامة ، حيث حطموا مكبرات الصوت ، وانزلوا العلم النمسوي ليرفعوا بدله علم الصليب المعقوف الألماني . ولما كان سايس اينكوارت هو المسؤول شخصياً عن قيادة الشرطة ، فان قوات الأمن لم تقم بأية محاولة للحد من الاضطرابات النازية . وبدأت حكومة شوشنيغ تنهار . ولم يقتصر الأمر على الفوضى السياسية ، بل غدت البلاد مهددة ايضاً بالاضطراب الاقتصادي . وهجم الناس في داخل البلاد وخارجها على المصارف يسحبون ودائعهم منها . وشرعت تنهال على فيينا البرقيات الاجنبية القلقة طالبة إلغاء عروضها التجارية وطلباتها . وتوقفت حركة السواح الاجانب التي تعتبر من أهم دعائم الاقتصاد النمسوي بسبب تخوفهم من الاوضاع . وابرق توسكانيني من نيويورك يقول انه ألغى اشتراكه في مهرجان سالزبرغ الذي كان يجتذب عشرات الالوف من السائحين في كل صيف « بسبب التطورات السياسية في النمسا » وكان الوضع قد غدا يائساً الى الحد الذي دفع اوتو هابسبورغ المطالب الشاب بعرش النمسا ، الى ارسال كتاب من مكان اقامته في منفاه في بلجيكا الى شوشنيغ يستحلفه فيه ، كما ذكر المستشار فيما بعد ، بالقسم السابق الذي كان قد اقسمه بالولاء بوصفه ضابطاً سابقاً في الجيش الامبراطوري ان يعينه – أي اوتو – مستشاراً اذا كان يعتقد ان مثل هذه الخطوة قد تنقذ النمسا .

وتطلع شوشنيغ في غمرة يأسه الى العمال النمسويين الذين كان قد ابقى على قرار وقف نقاباتهم المهنية وحزبهم السياسي – الاشتراكي الديموقراطي – ساري

المفعول بعد ان كان سلفه دلفوس قد حطمهم بمنتهى القسوة في عام ١٩٣٤ . فلقد كان هؤلاء الناس يمثلون (٤٢) في المائة من مجموع الناخبين النمسويين ، ولو تمكن المستشار طيلة السنوات الاربع الماضية من النظر بعيداً الى ما وراء الآفاق الضيقة لديكتاتوريته الفاشية الاكليريكية ، وناشدهم العون لاقامة أئتلاف ديموقراطي معتدل ومناوىء للنازية ، فان النازيين وهم يمثلون اقلية ضئيلة نسبياً ، ما كانوا ليتمكنوا مطلقاً من تحقيق اهدافهم . ولكن شوشنيغ كان مفتقراً الى «العملقة» السياسية الضخمة التي تحمله على اتخاذ مثل هذه الخطوة . وعلى الرغم من استقامته ونزاهته كانسان ، فانه كان واقعاً تحت سيطرة فكرة ، وقع فيها الكثيرون من امثاله ، وهي فكرة ازدراء الديموقراطية الغربية ، والميل الى حكومة الحزب الواحد الجماعية .

وخرج الاشتراكيون الديموقراطيون من المصانع ومن السجون التي كان الكثيرون منهم قد غادروها مع النازيين قبل قليل بموجب قرار العفو العام ، يؤلفون كتلة في الرابع من آذار تستجيب لنداء المستشار . واعلنوا انهم على الرغم من كل ما وقع ، على استعداد لنصرة الحكومة في الدفاع عن استقلال البلاد . وكل ما طلبوه ، هو ان يسمح لهم المستشار بما سمح به للنازيين ، وهو الحق في اقامة حزبهم السياسي والتبشير بعقيدتهم ، ومبادئهم . ووافق شوشنيغ على طلبهم ، ولكن موافقته جاءت متأخرة للغاية .

ودون الفريق يودل الواسع الاطلاع دائماً في يوميته في الثالث من آذار يقول : « لقد باتت القضية النمسوية في منتهى التعقيد . وسيرسل الى هنا مائة ضابط . ويريد الفوهرر ان يجتمع إليهم شخصياً ، انه لا يريد ان يتأكد من ان القوات المسلحة النمسوية ، لن تحسن الحرب ضدنا فحسب ، بل ومن انها لن تقاتلنا مطلقاً » .

وقرر شوشنيغ في هذه اللحظة الحرجة ان يقوم بخطوة اخيرة يائسة ، كانت تداعب خياله منذ الايام الاخيرة من شهر شباط ، عندما شرع النازيون في السيطرة على الاقاليم . انه يريد ان يجري استفتاء . انه يريد ان يسأل الشعب

النمسوي ما اذا كان يريد بلاده « حرة مستقلة ، واشتراكيــة ومسيحيه ومتحدة أو لا »[1].

وكتب فيما بعد يقول : « وشعرت ان اللحظة لاتخاذ قرار واضح قد حانت . وبدا لي مما ينافي الشعور بالمسؤولية ان نظل واقفين وقد قيدت ايدينـــا الى ان نكون في غضون بضعة اسابيع قد غدونا مكممي الأفواه ايضاً . وكانت لعبة المقامرة قد استهدفت الآن مجازفات تتطلب جهوداً فائقة وكلية . »[2]

وكان شوشنيــغ بعد عودته من برختسغادن قـــد جس نبض موسوليني ، حامي حمى النمسا ، ونقل اليه تهديدات هتلر ، فتلقى منه رداً فورياً يقول ان موقف ايطاليا من النمسا باق على حاله دون أي تبدل . وعـــاد في السابــع من آذار فبعث بملحقه العسكري في رومه الى الدوتشي ليبلغه انه بالنظر إلى الاحداث وجريانها ، فانه « قد يجد نفسه مضطراً الى اللجوء الى استفتاء» . وقد رد الديكتاتور الايطالي قائلاً ، ان مثل هـــذه الخطوة تعتبر خطيئة . ونصح شوشنيغ بأن يتابــع السير على طريقته السابقة . وأضاف ان الاوضــاع تسير في طريق التحسن ، وانه اذا ما وقع انفراج في العلاقات بين رومه ولندن ، فان هذا الانفراج قد يؤدي كثيراً الى تخفيف الضغط . وكان هذا آخر مــــا سمعه شوشنيغ من موسوليني .

واعلن شوشنيغ في خطاب القاه مساء التاسع من آذار في مدينــة اينتربروك ان الاستفتاء سيجري بعد اربعة ايام ، أي في يوم الاحد في الثالث عشر من آذار . ودفعت هذه الانباء غير المتوقعة بهتلر الى نوبة من نوبات ثورته وغضبه . وقـــد شرح يودل في يومياته بتاريخ العاشر من آذار رد الفعل الاولي في برلين إذ قال :

---

١ ــ ذكر الرئيس ميكلاس في شهادة تقدم بها اثناء محاكمة احد النازيين في فيينا بعد الحرب ، ان فرنسا هي التي اقترحت فكرة الاستفتاء على شوشنيغ . وذكر فون بابن في يومياته ان الوزير الفرنسي في فيينا المسيوبو ، ، وهو صديق شخصي حميم للمستشار ، كان « والد فكرة الاستفتاء» ولكنه ــ اي بابن ــ يعترف بان شوشنيغ تبنى الفكرة ، وحملها على مسؤوليته . (شهادة ميكلاس المؤامرة النازية والعدوان . الملحق (٩) ص ٥٢٣ . مذكرات بابن ص ٤٢٥)

٢ ــ شوشنيغ ـ مطالب النمسا ص ٤٧ .

« أمر شوشنيغ ، على شكل مباغت ودون استشارة وزرائه ، باجراء استفتاء يوم الاحد في الثالث عشر من آذار ...

« ان الفوهرر مصمم على عدم التسامح تجاه هذا العمل. وقد استدعى في نفس الليلة أي ليلة التاسع من آذار غورنغ لمقابلته . وصدر الأمر للفريق شوبرت قائد منطقة ميونيخ العسكرية على الحدود النمسوية بالمجيء، كما استدعى غليس—هورستيناو « Glaise-Horstenau » وزير النمسا المفوض، وكان غائباً عن برلين في البلاتينات. تأخر ريبنتروب في لندن. وتولى نوراث وزارة الخارجية».

وسادت الحركة برلين في اليوم التالي ، أي يوم الخميس العاشر من آذار . لقد صمم هتلر على احتلال النمسا عسكرياً وليس ثمة من شك في ان قادته العسكريين قد بوغتوا بهذا القرار . واذا كان لا بد من الحيلولة دون استفتاء شوشنيغ المقرر له يوم الاحد بالقوة ، فان الجيش يجب ان يدخل الى النمسا يوم السبت، ولم تكن الخطط قد اعدت لمثل هذه الحركة السريعة . واستدعى هتلر كايتل لمقابلته في الساعة العاشرة صباحاً . ولكن الفريق قبل ان يمضي لمقابلة الفوهرر تحدث ملياً الى يودل والى الفريق ماكس فون فيبان ، رئيس دائرة العمليات في القيادة العامة . وتذكر يودل الداهية « حالة اوتو الخاصة» التي كانت قد اعدت خطتها لمواجهة أية محاولة تجري لاعادة اوتو آل هابسبورغ ، الى العرش النمسوي. ولما كانت هذه هي الخطة الموجودة للقيام بعمليات عسكرية ضد النمسا ، فقد قرر هتلر تطبيقها . واصدر امره قائلاً « اعدوا حالة اوتو » .

وهرع كايتل الى مقر القيادة العامة للقوات المسلحة في «بندلشتراسة» للتشاور مع الفريق بيك رئيس هيئة اركان الحرب . وعندما طلب تفصيلات عن الخطة رد بيك قائلا : « اننا لم نعد شيئاً، ابداً ، على الاطلاق. لا شيء ابداً». واستدعي بيك بدوره الى مستشارية الرايخ . وأمسك القائد بالفريق فون مانشتاين الذي كان على وشك ان يغادر برلين لتسلم قيادة احدى الفرق ، وطلب منه ان يصحبه لمقابلة هتلر ، الذي ابلغهما ان على الجيش ان يكون مستعداً للزحف على

النمسا يوم السبت . ولم يعترض أي من الجنرالين على هذا الاقتراح الذي ينطوي على العدوان المسلح، وكان همهما مركزاً على صعوبة تأمين العمل العسكري في مثل هذا الوقت القصير . وعاد مانشتاين الى «البندلشتراسه» ليشرع فوراً في اعداد الاوامر اللازمة منهياً عمله في غضون خمس ساعات أي حوالي السادسة مساء . وتقول يوميات يودل ان اوامر التعبئة صدرت في الساعة السادسة والنصف مساء الى ثلاثة فيالق والى السلاح الجوي . واصدر هتلر في الساعة الثانية من صباح اليوم التالي ، أي الحادي عشر من آذار ، أول توجيه لعملية اوتو . ولقد كان على عجلة من امره الى الحد الذى حمله على اهمال توقيع التوجيه، ولم يكن في الامكان الحصول على توقيعه إلا بعد الساعة الواحدة بعد الظهر . وهذا ما جاء فيه :

سري للغاية

اذا ثبت ان الوسائل الاخرى غير ناجحة ولا مجدية فانا اعتزم غزو النمسا بالقوات المسلحة لاقامة اوضاع دستورية ولأحول دون وقوع اية اعتداءات اخرى ضد السكان الموالين لالمانيا .

سأتولى بنفسي توجيه العملية كلها ...

يجب ان تكون قوات الجيش والسلاح الجوي التي ادرجت وحداتها بالتفصيل في الفقرة السابعة جاهزة للقيام بالغزو قبل الساعة الثانية عشرة من ظهر الثاني عشر من آذار عام ١٩٣٨ .

« ٥ — يجب ان يوحي سلوك الجنود بالانطباع باننا لا ننوي ان نشن حرباً على اخواننا النمسويين.. ولهذا يجب تجنب أي استفزاز . أما اذا بدرت مقاومة ، فمن الواجب تحطيمها بلا شفقة وبقوة السلاح ... » [١]

وبعد بضع ساعات اصدر يودل ملحقاً سرياً للغاية للأمر ، بالنيابة عن رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة :

« ١ — اذا واجهنا قوات تشيكوسلوفاكية أو وحدات من

---

١ — المؤامرة النازية والعدوان (٦) . ص ٩١١ — ٩١٢ .

المتطوعين في النمسا فيجب اعتبارها وحدات معادية .

« ٢ – يجب معاملة الايطاليين اينما كانوا كأصدقاء ولا سيما بعد ان اعلن موسوليني عدم اكتراثه بحل المشكلة النمسوية » [١]

وكان هتلر قد أحس بالقلق من موسوليني . فبعد ظهر العاشر من آذار ، وكان قد قرر القيام بالغزو العسكري ، اوفد على طائرة خاصة الامير فيليب آل هسي إلى الدوتشي يحمل رسالة مؤرخة بتاريخ الحادي عشر من اذار ، يبلغه فيه ما انتوى القيام به من اجراء ، ويطلب الى الديكتاتور الايطالي تفهم موقف المانيا . وكانت الرسالة طافحة بالأكاذيب عن معاملته لشوشنيغ وعن الأوضاع في النمسا ، التي اكد للدوتشي انها اقتربت من حالة الفوضى ، وقد استهله بحجج طافحة بالخداع ، حتى ان الفوهرر اضطر الى حذفها عندما سمح بنشر الرسالة فيما بعد في المانيا [٢] . وقد ذكر ان النمسا وتشيكوسلوفاكيا كانتا تتآمران لإعادة آل هابسبورغ وتتأهبان « للقذف بنحو من عشرين مليون جندي ضد المانيا » . ثم لخص المطالب التي وجهها الى شوشنيغ والتي اكد لموسوليني انها كانت « اكثر معتدلة » ثم حدثه عن تقاعس شوشنيغ عن تنفيذها، وعن « المهزلة التي اعدها لاجراء الاستفتاء المزعوم » . ثم مضى يقول :

واني بصفتي مسؤولاً كزعيم للرايخ الثالث ومستشاراً له، وكابن لهذه التربة ، لا استطيع ان اظل في موقف السلبية تجاه مثل هذه التطورات .

ولقد عزمت الآن على اعادة الأمن والنظام الى وطني، وعلى تمكين شعبه من ان يقرر لنفسه مصيره ، طبقاً لمشيئته وبطريقة واضحة وصريحة ولا خطأ فيها .

ومهما كان شكل الطريقة التي سيتم فيها الاستفتاء ، فانني ارغب صادقاً في ان اؤكد لسعادتك ، بوصفك « الدوتشي » في

---

١ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩١٣ .

٢ ــ لقد عثر عل الفقرات المحذوفة بعد انتهاء الحرب في وثائق وزارة الخارجية الايطالية .

ايطاليا الفاشية :

١ – ان تعتبر هذه الخطوة مجرد حركة وطنية للدفاع عن النفس ، وان تعتبرها بالتالي عملاً يضطر كل انسان صاحب اخلاق ان يفعله لو كان في نفس الموقف الذي اجد نفسي فيه . ولا اعتقد انك يا صاحب السعادة ستتصرف تصرفاً مخالفاً لو رأيت ان مستقبل الايطاليين مهدد بالخطر ...

٢ – لقد اثبت لك في الساعات الحرجة التي مرت بها ايطاليا دوام عطفي . واود ان تتأكد بأن أي تبدل في هذا الموقف لن يقع في المستقبل .

٣ – ومهما كانت نتائج الاحداث التالية ، فقد رسمت خطاً نهائياً للحدود بين المانيا وفرنسا ، وها انا ارسم اليوم خطاً آخر لا يقل عنه تحديداً وبتاً ، بين ايطاليا وبيننا . انه ممر برينر [١]

دائماً الصديق المخلص لك

ادولف هتلر [٢]

انهيـــار شوشنيغ

مضى الدكتور شوشنيغ ، مساء العاشر من آذار الى فراشه غير آبه بالنشاط المحموم الذي يدور على حدود بلاده من ناحية الرايخ الثالث ، وهو واثق كل الثقة ، كما ذكر فيما بعد ، من ان الاستفتاء سيؤدي الى نجاح النمسا ، ومن ان

---

١ – كان هذا التخطيط للحدود في ممر برينر بمثابة ترضية لموسوليني . اذ ان هذا التحديد يعني ان هتلر لن يطلب قط عودة التيرول الجنوبي ، الذي انتزعته معاهدة فرساي من النمسا واعطته لايطاليا .

٢ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية صص ٥٧٣ – ٥٧٦

النازيين «لن يبدوا اية معارضة قوية »[1] . وكان الدكتور سايكس اينكوارت قد اكد له تلك الليلة تأييده للاستفتاء وعزمه على اذاعة خطاب بتأييده .

وأفاق المستشار النمسوي في الساعة الخامسة والنصف من صباح الجمعة الحادي عشر من آذار على صوت جرس الهاتف يرن على مقربة من فراشه. وكان الدكتور سكوبل رئيس الشرطة النمسوية هو المتحدث . انه يبلغ المستشار ان الألمان قد اغلقوا حدودهم عند سالزبورغ ، وقد توقفت حركة القطارات بين البلدين. وتقول الانباء ان الالمان يحشدون قواتهم على الحدود النمسوية .

ولم تأزف الساعة السادسة والربع ، حتى كان شوشنيغ يسير في طريقه الى مكتبه في « بالهوسبلاتز » ، ولكنه قرر ان يتوقف عند كاتدرائية القديس اسطفان . وجلس الرجل في ساعات الفجر الأولى ، وبينما كان القدّاس المبكر يسير سيره المعتاد . قلقاً في مقعده يفكر بهذه الانباء المشؤومة التي استمع اليها قبل قليل من رئيس شرطته . وكتب فيما بعد متذكراً ما حدث يقول : « ولم اكن واثقاً تمام الثقة مما تعنيه هذه الانباء . وكل ما عرفته انها ستؤدي الى وقوع تبدل » . وأخذ يتفرّس في الشموع التي تحترق امام صورة السيدة العذراء ، ثم تطلع بعصبية الى ما حوله ، ورسم اشارة الصليب كما كان أهل فيينا جميعاً يفعلون أمام صورة العذراء في اوقات محنتهم .

وكان الهدوء يسود دار المستشارية ، كما لم تكن اية برقيات مزعجة قد

---

١ ـ يفرض العدل علي ان اقول ان استفتاءات شوشنيغ لم تكن اكثر حرية او ديموقراطية من الاستفتاءات التي كان هتلر يعتزم تزويرها في المانيا . ولما لم تكن النمسا قد شهدت اية انتخابات حرة منذ عام ١٩٣٣ ، فان جداول الناخبين لم تكن صحيحة او دقيقة . أو شاملة . فلقد كان من حق الذين تجاوزوا الرابعة والعشرين من عمرهم ان يقترعوا . ولما كانت المهلة التي اعطاها المستشار لاجراء الاستفتاء لا تعدو اربعة ايام، فان الوقت لم يتوافر لفئات المعارضة سواء اكانت نارية او اشتراكية ديموقراطية للقيام بحملات دعائية حتى ولو سمح لهم بها . وكان من المتوقع ان يقترع الاشتراكيون الديموقراطيون بالايجاب لانهم يعتبرون شوشنيغ اخف ضرراً وشراً من هتلر ، ناهيك عن وعده لهم باعادة الحريات السياسية . وليس ثمة من شك في ان اقتراعهم كان سيضمن النصر لشوشنيغ .

وصلت تلك الليلة من الدبلوماتيين النمسويين في الخارج . وهتف لمقر قيادة الشرطة ، طالباً من المسؤولين فيها ان يفرضوا نطاقاً كاجراء احتياطي على الاجزاء الداخلية من المدينة وعلى ابنية الحكومة . وسرعان ما استدعى زملاءه الوزراء الى اجتماع عاجل ، ولم يتخلف عن الحضور إلا سايس-اينكوارت . ولم يتمكن شوشنيغ من العثور في اي مكان ، اذ كان الوزير النازي بالفعل في مطار فيينا . فلقد دعي فون بابن في الليلة الماضية بصورة عاجلة للذهاب الى برلين ، وكان قد غادر المدينة بطائرة خاصة في السادسة صباحاً ، حيث ودعه سايس في المطار . وظل « الكويزلنغ » النمسوي رقم واحد في المطار ينتظر زميله « الكويزلنغ » رقم اثنين ، غليس-هورستيناو ، العضو في وزارة شوشنيغ ايضاً ، والغارق مثل زميله سايس في الخيانة ، اذ كان من المنتظر ان يصل من برلين حاملاً اوامر هتلر فيما يجب عليهما عمله في موضوع الاستفتاء .

وكانت هذه الأوامر تقضي بالغاء الاستفتاء ، وقد نقلاها الى شوشنيغ في الساعة العاشرة صباحاً ، مع التأكيد له ، بأن هتلر ثائر الى حد الجنون. وقد وافق شوشينغ بعد ساعات طويلة من المشاورات مع الرئيس ميكلاس ومع اعضاء وزارته ، ومع الدكتور سكوبل ، رئيس شرطته ، على إلغاء الاستفتاء . وكان رئيس الشرطة هذا قد ابلغه والتردد يغلبه ، ان الشرطة وقد انتشر فيها النازيون بعد ان اعيدوا الى مراكزهم تنفيذاً لانذار برختسغادن، لم تعد موثوقة ، وليس في وسع الحكومه الاعتماد عليها . وكان شوشنيغ واثقاً من الناحية الاخرى من أن افراد الجيش ومتطوعة « الجبهة الوطنية » ، وهي الحزب الرسمي الحاكم في النمسا . سيحاربون . ولكن شوشنيغ قرر في هذه اللحظة الحرجة ، كما قال هو تنفيذاً للفكرة التي كان دائماً واقعاً تحت سيطرتها ، بأنه لن يعرض اية مقاومة لهتلر ، اذا كانت هذه المقاومة تعني سفك الدم الألماني . وكان هتلر على اتم استعداد ليفعل ذلك ، أما شوشنيغ فقد انكمش امام الفكرة نفسها .

واستدعي سايس - اينكوارت في الساعة الثانية بعد الظهر ، وابلغه انه قرر إلغاء الاستفتاء . وهرع « يهوذا » المهذب الى الهاتف ليبلغ غورنغ في برلين

هذا القرار . ولكن المخطط النازي للأمور كان يتطلب دائماً من الخصم الذي يخضع ، تنازلاً اثر آخر ، وبسرعة كبيرة . وهكذا بدأ هتلر وغورنغ على الفور في رفع قيمة « الرهان » في المقامرة . وقد سجلت وقائع ما حدث دقيقة بعد أخرى ، كما سجلت وقائع التهديدات والخداع ، ـ وهنا موضع السخرية ـ من قبل جهاز غورنغ الخاص الملقب « بمؤسسة البحث » ، اذ تولى تسجيل سبع وعشرين محادثة هاتفية من مكتب المشير ، ابتداء من الساعة الثانية والدقيقه الخامسة والاربعين بعد ظهر الحادي عشر من آذار . وقد عثر على هذه الوثائق بعد الحرب في مقر وزارة الطيران الألمانية ، وهي تؤلف سجلاً كاشفاً للطريقة التي اتبعت في تقرير مصير النمسا على الهاتف من برلين في غضون الساعات القليلة والحرجة التالية [١].

فعندما تلقى المشير أول مكالمة هاتفية من سايس في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والاربعين ، ليبلغه فيها ان شوشنيغ قد قرر إلغاء الاستفتاء ، رد غورنغ بان هذا الالغاء لم يعد كافياً ، وانه سيتحدث اليه ثانية بعد ان يشاور هتلر . وبالفعل فقد عاد يحادثه في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة . وكان أمر هتلر ان على شوشنيغ ان يستقيل وان سايس – اينكوارت يجب ان يغدو مستشاراً في غضون ساعتين . وقال غورنغ لسايس ايضاً ان عليهم « ان يبرقوا الى الفوهرر بموافقتهم على مطالبة » . وكانت هذه هي المرة الأولى التي ذكرت فيها هذه البرقية التي ذاع امرها في غضون الحوادث المحمومة التي وقعت في الساعات القليلة التالية والتي استخدمت لتغطية الخديعة التي برر بها هتلر عدوانه الى الشعب الألماني والى وزارات الخارجية في مختلف دول العالم .

وعرض ويلهلم كيبلر ، مندوب هتلر الخاص في النمسا ، والذي وصل بعد الظهر الى فيينا قادماً من برلين ، ليتسلم الامور في غياب فون بابن على سايس – اينكوارت نص البرقية التي يجب عليه ان يبعث بها الى الفوهرر . وتطلب البرقية ايفاد الجنود الألمان الى النمسا لوضع حد للاضطرابات فيها . وقد اعلن سايس في شهادته المشفوعة باليمين التي قدمها الى محاكمات نورمبرغ ، انه رفض

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٦٢٩ ـ ٦٥٤ .

ارسال هذه البرقية لعدم وجود اضطرابات في البلاد . واصر كيبلر على وجوب ارسال البرقية ، وسارع الى دار المستشارية النمسوية حيث بلغت بـه الوقاحة حداً حمله على ان يقيم له مكتباً للطوارىء الى جانب سايس وغليس ـ هورستيناو. ولا يستطيع انسان ان يفهم لماذا سمح شوشنيغ لأمثال هؤلاء المتطفلين والخونة بالتمركز في مقر الحكومة النمسوية في هذه الساعة الحرجة ، ولكنه سمح لهم فعلاً بذلك . وقد ذكر فيما بعد ان دار المستشارية بدت اشبه ما تكون بخلية نحل ، وقد اقتعد سايس ـ اينكوارت وغليس ـ هورستيناو زاوية من البهو ، بينما تحلق حولهما جماعة من الرجال من ذوي السحن الغريبة ، وهم غادون رائحون. ولكن يبدو ان فكرة طردهم جميعاً من الدار لم تدر بخلد المستشار المذهول.

وكان قد حزم أمره على الاذعان لضغط هتلر والاستقالة من منصبه . وبينما كان ينفرد بسايس ، سجل مكالمة هاتفية لموسوليني . ولكن تعذر عليه الاتصال بالدوتشي فوراً وما لبث بعد دقائق أن ألغى المكالمة الهاتفية ولقد قرر ان طلب المعونة من موسوليني « مجرد اضاعة للوقت » . فحتى هذا الصديق الدعي المحب للتعاظم ، قد تخلى عن النمسا في احرج ساعات محنتها . وبعد بضع دقائق وكان شوشنيغ يحاول حمل الرئيس ميكلاس على قبول الاستقالة ، تلقى رسالة عاجلة من وزارة الخارجية تقول « ان الحكومة الايطالية قد اعلمتها بعجزها عن تقديم اية نصيحة في هذه الظروف ، في حالة قيام الحكومة النمسوية بطلبها »[1] .

ولم يكن الرئيس ويلهلم ميكلاس بالرجل العظيم ، ولكنه كان رجلاً عنيداً مستقيماً. ولقد قبل استقالة شوشنيغ مضطراً ، ولكنه رفض ان يجعل سايس اينكوارت خليفة له . وقال الرئيس ... « هذا مستحيل . اننا لن نقبل الاكراه » . واصدر امره الى شوشنيغ بابلاغ الألمان رفضه لانذارهم[2] .

---

١ ـ شوشنيغ ـ مطالب النمسا ص ٥١

٢ ـ شهادة ويلهلم ميكلاس في ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٦ في محاكمة الدكتور نوماير . وعلى الرغم من تردد الرئيس السابق في الارقام والتواريخ وتسلسل الاحداث إلا ان شهادته مهمة وممتعة ـ المؤامرة النازية والعدوان ـ الملحق (٢) .. ص ٥١٨ ـ ٥٣٤ .

وسرعان ما نقل سايس – اينكوارت هـذا الأمر الى غورنغ في الساعة الخامسة والنصف مساء . وهذا بعض ما دار من حديث :

« سايس – اينكوارت – لقد قبل الرئيس استقالة شوشنيغ ... اقترحت ان يعهد إلي بالمستشارية ... ولكنه يؤثر ان يعهد بها إلى رجل كإيندر ...

« غورنغ – حسناً هذا لن يجدي . ولن نقبل به في ظل أيـة ظروف ! عليكم ابلاغ المستشار فوراً بأن عليه ان يسلم صلاحيات المستشار الاتحادي إليك ، وان يقبل بتشكيل الحكومة على النحو الذي رسمناه » .

وانقطع الحديث في هذه اللحظة ، فقد سلّم سايس – اينكوارت سماعـة الهاتف الى الدكتور موهلمان ، وهو نازي نمسوي مغمور ، كان شوشنيغقد رآه يتسكع في حديقة بيرختسغادن الخلفية ، عندما زارها ، وعرف انـه صديق شخصي لغورنغ .

« موهلمان – ما زال الرئيس مصراً علىالرفض ... ولقدمضينا نحن الثلاثة لمقابلته والتحدث اليه شخصياً ... ولكنــه رفض مقابلتنا . ويبدو لنا حتى الآن وكأنه لا يريد التسليم » .

« غورنغ – اعطني سايس . اسمع يا سايس . تذكر مـا أقوله لك الآن . اذهب على الفور ومعك اللواء موف (الملحق العسكري الألماني) وابلغا الرئيس ، انه اذا لم يقبل شروطنا فوراً ، فان قواتنا الزاحفة الآن باتجاه الحدود ستقتحم خط الحدود الليلة ، على طوله ، وآنذاك ستزول النمسا من الوجود ... قل له ان الوقت لا يسمح للمزاح الآن ... فالوضع يتمثل في ان الغزو سيقع من جميـع الزوايا في هذه الليلة . ولن يتوقف الغزو ولن يقف جنودنا عنـــد الحدود إلا إذا تلقينا اشعاراً في السابعة والنصف من هـــذا المساء بأن ميكلاس قد عهد إليك بمستشارية الاتحـــاد ... ثم عليك ان

تستدعي الآن جميع الاشتراكيين الوطنيين في طول البلاد وعرضها للخروج الى الشوارع . اذن تذكر . يجب ان نتسلم الرد قبل السابعة والنصف . واذا لم يتكمن ميكلاس من فهم ذلك في غضون اربع ساعات . فسنحمله على فهمه في غضون دقائق . »

ولكن الرئيس صاحب العزيمة ظل مصراً على رأيه .

وفي الساعة السادسة والنصف عاد غورنغ يهتف إلى كيبلر وسايس — اينكوارت . وقد ابلغه الرجلان ان الرئيس يرفض الاذعان .

« غورنغ ... اذن على سايس — اينكوارت ان يقيله من منصبه . اصعد إليه ثانية وقل له بصراحة ، ان سايس ، سيدعو الحرس الإشتراكي الوطني الى العاصمة ، وبعد خمس دقائق ستزحف الجيوش عبر الحدود .

ومضى اللواء موف وكيبلر اطاعة لهذا الامر الى الرئيس ميكلاس ، وقدما إليه انذاراً عسكرياً ثانياً يهدده بأنه اذا لم يذعن في غضون ساعة ، أي قبل السابعة والنصف فان القوات الألمانية ستزحف على النمسا . وشهد ميكلاس فيما بعد قائلاً : وقد ابلغت السيدين اني ارفض انذارهما ... وان النمسا وحدها هي التي تقرر من يتولى الحكم فيها » .

وكان النازيون النمسويون في غضون ذلك ، قد فرضوا سيطرتهم على الشوارع وعلى المستشارية . وكنت قد عدت في الساعة السادسة من ذلك المساء من المستشفى حيث كانت زوجتي في صراع مع الموت ، بعد عملية وضع عسيرة تمت على الطريقة القيصرية . وعندما خرجت من احد الشوارع الفرعية لأصل إلى « كارلزبلاتس » ، وجدت نفسي في خضم حشد من الدهماء النازيين يزحفون باتجاه قلب المدينة وهم يهتفون هتافات هستيرية ، وكنت قد رأيت هذه الوجوه المشوهة في مهرجانات الحزب في نورمبرغ . انهم يصرخون « سيغ ! هايل ! سيغ ! هايل ! هايل هتلر ! هايل هتلر ! اشنقوا شوشنيغ ! اشنقوا شوشنيغ ! » اما رجال الشرطة الذين كانوا قبل بضع ساعات قد فرقوا على مرأى مني جماعة نازية صغيرة دون أي صعوبة ، فقد وقفوا الآن جامدين .

وسمع شوشنيغ الجلبة والضجة وهتافات الدهماء ، وانتابه القلق فسارع إلى قصر الرئيس ليرجوه للمرة الأخيرة . وقد وصف هذه المقابلة بقوله :

« كان الرئيس ميكلاس صامداً كالصخر. انه لن يعين أي نازي مستشاراً للنمسا . وعندما رأى إلحاحي عليه بتعيين سايس اينكوارت عاد يقول : « لقد تخليتم عني جميعاً . أجل جميعاً » . ولكنني لم أر مناصاً من تعيين سايس اينكوارت . وعلى الرغم من ان أملي قد تضاءل ، إلا انني ظللت متعلقاً بالأمل في تعيين سايس – اينكوارت ، وبما قطعه لي من وعود . وكنت اعلق الكثير من الأهمية على سمعته الشخصية ككاثوليكي متدين ورجل شريف [١] »

حقاً لقد ظل شوشنيغ متعلقاً بحبال الخيال واوهام الماضي .

ثم اقترح المستشار الذي هوى ان يذيع رسالة وداعية يشرح فيها الاسباب التي ادت إلى استقالته . ويقول شوشنيغ ان الرئيس قد وافق على ذلك ، وان كان هذا قد نفى اخيراً انه قد وافق . وكانت تلك الاذاعة من اكثر الاذاعات التي سمعتها في حياتي تأثيراً على العواطف . وقد وضع مكبر الصوت على بعد خمس خطوات من المكان الذي اغتيل فيه دلفوس . وبدأ شوشنيغ اذاعته يقول :

لقد قدمت الحكومة الألمانية انذاراً نهائياً الى الرئيس ميكلاس اليوم ضربت فيه موعداً معيناً لتعيين شخص اختارته هي لتولي المستشارية ... مهددة بأن الجيوش الألمانية ستغزو النمسا في حالة تأخره عن اطاعة هذا الانذار .

« وانني لأعلن للعالم ان الانباء التي نشرتها المانيا عن قيام العمال بالفتن في النمسا ، وعن سفك الدماء وجريانها انهاراً ، وعن خلق اوضاع عجزت الحكومة النمسوية عن السيطرة عليها ، كلها محض اختلاقات من ألفها إلى يائها . وقد طلب إليّ الرئيس ميكلاس ان اعلن لشعب النمسا اننا اذعنا للقوة مدفوعين الى ذلك برغبتنا في تجنب سفك الدماء . ولقد اصدرنا أوامرنا الى القوات

---

١ – شوشنيغ – مطالب النمسا – ٥٢

العسكرية بأن لا تبدي اية مقاومة [1] .

« وهكذا فانني اودع الشعب النمسوي بكلمة وداع المانية منبعثة من اعماق فؤادي قائلاً ... ليحفظ الله النمسا ! »

وكان في مكنة المستشار ان يودع الشعب ، ولكن الرئيس العنيد لم يكن مستعداً للسير على منواله . وقد عرف غورنغ هذا عندما هتف الى اللواء موف بعد اذاعة شوشنيغ بدقائق ... وراح غورنغ يقول ... ان خير حل هو ان يستقيل ميكلاس .

اللواء موف – « أجل ولكنه لا يريد . انها مسرحية . لقد تحدثت اليه نحواً من خمس عشرة دقيقة فأكد لي انه لن يذعن للقوة مهما كانت الظروف .

ولم يستطع غورنغ ان يصدق ما سمع فعاد يسأل محدثه .. إذن لن يذعن إلى القوة ؟

اللواء موف – لا . انه لن يذعن .

– إذن فهو يريد أن يطرد طرداً ؟

– أجل ، انه يريد البقاء .

– حسناً . وله اربعة عشر طفلاً . انه يريد البقاء ! حسناً قل لسايس ان

---

١ – نفى ميكلاس في شهادته التي صدرت عنه بعد انتهاء الحرب ان يكون قد طلب الى شوشنيغ ان يضمن خطابه ما ذكره على لسانه ، كما نفى ان يكون قد وافق على الخطاب كلية . اذ لم يكن الرئيس على النقيض مما قاله المستشار المستقيل على استعداد للاذعان للقوة . وقد ذكر انه قال لشوشنيغ آنذاك : « ان الاوضاع لن تسوء الى الحد الذي يحملنا على الاستسلام . » فلقد رفض الانذار الالماني الثاني وكان لا يزال ثابتاً على موقفه . ولكن اذاعة شوشنيغ عملت على اضعاف مركزه ، وفرض الوضع الجديد عليه . وسنرى ان الرئيس العجوز العنيد ظل صامداً عدة ساعات اخرى قبل ان يستسلم. وقد رفض في الثالث عشر من آذار ان يوقع على قانون «الانشلوس» الذي يكرس زوال النمسا المستقلة ، وهو القانون الذي قدمه اليه سايس-اينكوارت بأمر من هتلر. وعلى الرغم من انه تنازل عن صلاحياته للمستشار النمسوي ، طالما انه بات عاجزاً عن ممارستها ، إلا انه لم يقدم استقالته ابداً من الرئاسة . ولقد شرح فيما عد موقفه الى محكمة في فيينا قائلا : لو فعلت ذلك لكنت جباناً . ولكن هذا لم يحل بين سايس – اينكوارت وبين الاعلان رسمياً في الثالث عشر من آذار ان « الرئيس قد استقال من منصبه بناء على طلب المستشار وان صلاحياته قد انتقلت الى المستشار ». (المؤامرة النازية والعدوان (الملحق ٢) ص ٥٢٥ - ٥٣٤ والمؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٢٠٩) .

يتولى زمام الأمر .

وكانت قصة البرقية ، التي أراد هتلر ان يتلقاها ليبرر الغزو لا تزال قائمة . وكان الفوهرر، كما ذكر فون بابن الذي انضم إليه الآن في دار المستشارية في برلين « قدوصل إلى حالة من التوتر العصبي تقرب من الجنون » انالرئيس النمسوي العنيد يقلب له بتصرفاته ما وضعه من خطط . وسايس- اينكوارت ايضاً ماذا دهاه؟ انه يقلب له خطته رأساً على عقب برفضه ارسال البرقية التي تطلب إلى هتلر ايفاد قواته إلى النمسا لوضع حد للفتن فيها . ووصل الاجهاد العصبي عند هتلر ذروته فلم يعد يحتمل ، واصدر اوامره ببدء الغزو في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والاربعين مساء [١] . وبعد ثلاث دقائق كان غورنغ يحدث كيبلر على الهاتف في فيينا .

« اسمع . اصغ الي باهتمام .من الضروري جداً ان يبعث سايس- اينكوارت بالبرقية التالية فوراً ، اكتب النص :

« تبعث الحكومة النمسوية المؤقتة التي أخذت على عاتقها ، بعد استقالة حكومة شوشنيغ ، توطيد دعائم السلام والنظام في النمسا، بتحياتها الى الحكومة الألمانية وتطلب اليها طلباً عاجلاً أن تؤيدها في هذه المهمة وأن تساعدها في الحيلولة دون سفك الدماء. وهي لهذا ترجوها أن تبعث بالجنود الألمان في أسرع وقت ممكن » .

وأكد كيبلر للمشير انه سيطلع سايس اينكوارت على البرقية فوراً .

ورد غورنغ قائلاً :« حسناً انه لا يحتاج حتى إلى إرسال البرقية . كل ما يطلب اليه هو أن يقول « موافق » .

وطلب كيبلر بعد ساعة برلين ليتحدث اليها . وقال لمحدثه: « ابلغ المشير ان

---

١ - كان هذا الأمر وثيقة سرية تحمل عنوان « التوجيه رقم (٢) لعملية اوتو -سري للغاية » وهذا بعض ما جاء فيه : « لم تنفذ الحكومة النمسوية مطالب المانيا منها . . . وللحيلولة دون المزيد من سفك الدماء في المدن النمسوية ، سيبدأ دخول القوات الألمانية المسلحة الى النمسا وفقاً للتوجيه الاول عند فجر الثاني عشر من آذار . واتوقع وصول جميع القوات الى اهدافها في اسرع وقت ممكن » - التوقيع « ادولف هتلر » - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ١٠١٧

سايس اينكوارت موافق » . [1]

وهكذا قدر لي عندما مررت ببرلين أن أجد عنواناً صارخاً في الفولكشاير بيوباختر يقول « انقاذ النمسا الألمـــانية من الفوضى » . وكانت هناك قصص لا يمكن تصديقها خلقها غوبلز تتحدث عن الاضطرابات الحمراء ، والقتل والنهب والقتال في شوارع مدينة فيينا الرئيسية . ونشرت الصحيفة ايضاً نص البرقية التي اصدرتها وكالة الأنباء الألمانية الرسمية في الليلة السابقة والتي ذكرت فيها ان هتلر قد تلقاها من سايس-اينكوارت. وقد عثر بالفعل على نسختين من البرقية كما أملاها غورنغ ، في وثائق وزارة الخارجية الألمانية في نهاية الحرب . وشرح بابن فيما بعد كيف وصلت هاتان النسختان الى الوزارة إذ ذكر أن وزير البرق والبريد الألماني « دبرهما » ووضعهما في ملفات الحكومة .

وكان هتلر ينتظر بفارغ الصبر طيلة ذلك المساء والليل المحمومين لا مجرد انباء اذعان الرئيس ميكلاس ، بل ورسالة من موسوليني ايضاً . فلقد تشاءم من هذا الصمت الذي خيم على من كان يعتبر نفسه حامياً للنمسا . وهتف الامير فيليب هيسي من رومة طالباً المستشارية في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين مساء . وراح هتلر نفسه يمسك بسماعة الهاتف . وسجل خبراء غورنـــغ المحادثة على النحو التالي :

الأمير – ها أنا عائد لتوي من قصر البندقية. لقد قبل الدوتشي القضية كلها بشكل ودي . انه يبعث إليك بأحر احتراماته ...كان

---

١ – لقد حاول سايس اينكوارت بالفعل حتى ساعة متأخرة بعد منتصف تلـك الليلة ، ان يحمل هتلر على وقف الغزو . وتقول مذكرة في وزارة الخارجية الالمانية ان اللواء موف تحدث هاتفياً مع برلين في الساعة الثانية والدقيقة العاشرة صباحاً من اليوم الثاني عشر من آذار ليطلب بناء على تعليمات المستشار سايس – اينكوارت ، بقاء « القوات المستنفرة على الحدود دون ان تعبرها» . وجاء كيبلر الى الهاتف ليؤكد هذا الطلب ايضاً . ويبدو ان اللواء موف ، وهو رجـل شريف وضابط من رجال المدرسة القديمة ، وجد ان موقفه مزعج كل الازعاج في فيينا . وعندما ابلغته برلين ان هتلر رفض وقف القوات ومنعها عن الدخول اجاب بأنه « يأسف لهذه الرسالة » – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١) ص٥٨٤ – ٥٨٦ .

شوشنيغ هو الذي نقل إليه الأنباء ... ورد موسوليني بأن النمسا لم تعد تهمه .

وأحس هتلر بشعور من الراحة والفرح .

هتلر – إذن ارجوك قل لموسوليني انني لن أنسى له هذا الصنيع

الأمير – أمرك يا سيدي .

هتلر – ابداً . ابداً . ابداً . مهما حدث . انني على استعداد لعقد معاهدة معه تختلف كل الاختلاف عن معاهدتنا السابقة .

الأمير – لقد قلت له هذا ايضاً يا سيدي .

هتلر – بعد ان ننتهي من مشكلة النمسا. سأكون على استعداد للمضي معه حيث يشاء – أجل حيث يشاء .

الأمير – أجل يا زعيمي .

هتلر – اسمع . سأعقد أي اتفاق . انني لم اعد أخشى من الوضع المخيف الذي كان لا بد وان يقوم من الناحية المسكرية في حال اشتباكنا في صراع . ارجو ان تبلغه عميق شكري النابع من صميم فؤادي . انني لن أنسى له هذا الفضل .

الأمير – أجل يا زعيمي .

هتلر – لن أنسى له صنيعه هذا ، مهما حدث . واذا حدث وكان في حاجة الى العون ، أو وقع في خطر ، ففي وسعه أن يثق كل الثقة بأنني سأقف الى جانبه مهما حدث ، حتى ولو تألب العالم بأسره عليه .

الأمير – أجل يا زعيمي .

ونتساءل الآن ، ترى ما هو الموقف الذي كانت بريطانيا وفرنسا وعصبة الأمم ، تقفه في هذه الآونة الحرجة لوقف عدوان المانيا ضد جارتها المسالمة الوادعة ؟ انها لم تقف أي موقف. ابداً، ففرنسا تمر في ازمة وزارية ، ولم تتألف الحكومة الجديدة فيها بعد ، إذ استقالت وزارة شوطان في العاشر من آذار .

ولم يكن هناك في باريس طيلة اليوم الحادي عشر من آذار ، عندما كان غورنغ يطلق انذاراته وتهديداته على فيينا واحداً اثر آخر ، من يستطيع ان يعمل . ولم تتألف الحكومة الجديدة برئاسة ليون بلوم إلا في الثالث عشر ، وبعد ان اعلن الاتحاد بين المانيا والنمسا (الانشلوس) .

وبريطانيا . ما شأنها يا ترى ؟ كان انتوني ايدن قد استقال من منصبه كوزير للخارجية في العشرين من شباط أي بعد استسلام شوشنيغ في برختسغادن ، وكانت استقالته ناجمة على الغالب من معارضته لأي تنازل جديد من جانب رئيسه نيفيل تشمبرلين لموسوليني . وقد خلفه الآن اللورد هاليفاكس . ورحبت برلين بهذا التبديل كما رحبت ايضاً بالبيان الذي القاه تشمبرلين في مجلس العموم بعد انذار برختسغادن . وقد بعثت سفارة المانيا في لندن بتقرير مسهب الى برلين عن هذا البيان في الرابع من آذار [1] ونقل التقرير عن تشمبرلين قوله بالحرف الواحد : « ان ما حدث في برختسغادن لا يعدو اجتماعاً بين سياسيين اتفقا على بعض الاجراءات لتحسين العلاقات بين بلاديهما ... ويبدو ان من المستحيل ان يظل المرء على الاصرار ، بأن مجرد الاتفاق بين سياسيين على وقوع بعض التبدلات الداخلية في أحد البلدين ، وهي تبدلات مستحبة تخدم مصلحة العلاقات بينهما – يعني ان تلك البلاد ، قد تخلت عن استقلالها ، في مصلحة البلاد الثانية . فعلى النقيض من ذلك ، يوحي الخطاب الذي القاه مستشار الاتحاد النمسوي . في الرابع والعشرين من شباط ، ان شيئاً من هذا لن يحدث ، كما يوحي بان المستشار نفسه (شوشنيغ) ، لا يعتقد مطلقاً انه تخلى عن استقلال بلاده » .

ولما كنت قد عرفت في ذلك الحين ، ان المفوضية البريطانية في فيينا ، كانت قد ابلغت تشمبرلين تفاصيل انذار هتلر في برختسغادن لشوشنيغ ، فان هذا الخطاب الذي القاه الرئيس البريطاني في مجلس العموم في الثاني من آذار

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١) ص ٥٨٤ — ٥٨٦ .

يبدو مذهلاً لي كل الذهول [1] . ولكنه كان مرضياً لهتلر غاية الرضى . إذ ادرك ان باستطاعته ان يزحف على النمسا دون ان تثير له بريطانيا اية تعقيدات . وكان ريبنتروب وزير خارجية المانيا الجديد قد وصل الى لندن في التاسع من آذار ليصفي اعماله في السفارة الالمانية هناك حيث كان يتولى رئاستها . وقد دارت له احاديث طويلة مع تشمبرلين وهاليفاكس والملك ورئيس أساقفة كنتربري . وقد ابرق الى برلين يقول ان انطباعاته من مقابلته لرئيس الوزارة البريطانية ووزير خارجيته كانت طيبة للغاية . وابرق ريبنتروب مباشرة الى هتلر في العاشر من آذار بعد حديث طويل مع اللورد هاليفاكس يشرح له موقف بريطانيا في حالة « عدم التمكن من حل المشكلة النمسوية حلاً سلمياً » . ولقد كشف في برقيته هذه عن قناعته بصورة رئيسية من « ان انكلترا لن تفعل شيئاً في موضوع النمسا [2] »

وفي يوم الجمعة الحادي عشر من آذار ، كان ريبنتروب يتناول طعام الغداء في داوننغ ستريت مع رئيس الوزراء ومساعديه ، عندما اقتحم القاعة رسول من وزارة الخارجية يحمل برقيات عاجلة مرسلة الى تشمبرلين تتحدث اليه عن الأنباء المذهلة المنقولة من فيينا . وكان تشمبرلين قد طلب الى ريبنتروب قبل بضع دقائق إبلاغ الفوهرر « صادق رغبته وثابت عزمه على تحسين العلاقات الألمانية ــ البريطانية » . أما وقد وصلت هذه الأنباء الشديدة المرارة من النمسا، فقد انتقل الساسة الى مكتب رئيس الوزراء، حيث تلا تشمبرلين على مسامع وزير خارجية المانيا الذي أحس بالقلق الشديد ، برقيتين من المفوضية البريطانية في فيينا تتحدثان عن انذار هتلر. ويقول ريبنتروب في برقيته التي بعث بها الى هتلر يصف ما حدث ... « ودار الحديث في جو يسوده التوتر ، وكان اللورد هاليفاكس

---

١ ــ اقسم غيدو شميدت في شهادته في نورمبرغ بأنه هو وشوشنيغ قد ابلغا ممثلي جميع الدول العظمى بانذار هتلر بصورة مفصلة . يضاف الى هذا انني اعرف تمام المعرفة ان مراسلي « التايمز» و « الديلي تلغراف » اللندنيتين ، في فيينا قد بعثا الى صحيفتيهما ، بتقرير دقيق وكامل عن كل ما وقع . (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٦) ص ١٥٣ .

٢ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١) ص ٢٦٣

الهادىء عادة ، اكثر هياجاً من تشمبرلين ، الذي ظل محتفظاً في ظاهره على الاقل بشيء من الهدوء وبرودة المزاج » . واعرب ريبنتروب عن شكه في « صحة هذه الانباء »، ويبدو أن قوله هذا قد هدأ من ثائرة مضيفيه البريطانيين إذ « أن الوداع دار في شكل ودي حتى ان هاليفاكس نفسه استعاد هدوءه ايضاً » [1]

وتمثل رد فعل تشمبرلين بالنسبة الى هذه البرقيات الواردة من فيينا في اصدار تعليماته الى هندرسون سفيره في برلين بأن يقدم مذكرة الى فون نوراث وزير الخارجية بالنيابة يوضح له فيها انه اذا صح وجود الانذار الالماني للنمسا « فان حكومة جلالته تجد نفسها مضطرة الى تسجيل احتجاج في اقسى صيغة ممكنة » [2] لكن مجرد الاحتجاج الدبلوماتي في مثل هذا الوقت المتأخر لم يكن كافياً لاثارة قلق هتلر . وفي الثاني عشر من آذار ، أي في اليوم التالي ، وكانت الجيوش الألمانية تتدفق على النمسا ، قدم فون نوراث رداً الى السفير البريطاني ، ينطوي على الازدراء [3] ، اعلن فيه ان العلاقات النمسوية – الألمانية ، شيء يهم الشعب الألماني وحده ، ولا علاقة للحكومة البريطانية بها ، ثم عاد يكرر الاكاذيب عن عدم وجود انذار الماني الى النمسا ، ومن ان القوات الألمانية قد دخلت الى النمسا تلبية لنداء عاجل من حكومتها الجديدة . وعاد يلفت بعد ذلك نظر السفير البريطاني الى « البرقية التي كانت الصحافة الألمانية قد نشرتها [4] » .

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١) ص ٢٧٣ – ص ٢٧٥ . وقد روى المستر تشرشل وصفاً ممتعاً عن هذه المأدبة في مذكراته ص (٢٧١ – ٢٧٢) (المذكرات التي نقلها الى العربية معرب هذا الكتاب). وتوجد القصة المذكورة في (ص ٢١٣ – ٢١٤) من المجلد الاول .

٢ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية ص ٥٧٨ .

٣ – المؤامرة النازية والعدوان (١) ص ٥٠١ – ٥٠٢

٤ – كررت برقية وزعها البارون فون وايزساكر من رجال وزارة الخارجية الالمانية على المبعوثين الدبلوماتيين الالمان في الخارج ، بقصد « العلم وتوجيه المحادثات » ، هذه الاكاذيب كلها . وذكر وايز ساكر ان ما جاء على لسان شوشنيغ فيما يتعلق بالانذار الالماني ، ليس إلا اختلاقاً فاضحاً ، ثم مضى يقول لدبلوماتييه في الخارج : اما الحقيقة فهي ان موضوع ايفاد

وظل هتلر ليلة الحادي عشر من آذار ، قلقاً من موقف موسوليني بل ولعل هذا الموقف من عدوانه كان مصدر قلقه الوحيد [١] ، ولكن برلين شعرت ايضاً بشيء من القلق تجاه موقف تشيكوسلوفاكيا ولكن سرعان ما أوضح غورنغ ، الرجل الذي لا يكل ولا يمل ، هذه القضية . فعلى الرغم من اشتغاله في توجيه الحركات الانقلابية في فيينا . عن طريق الهاتف ، إلا انه تمكن من التسلل اثناء المساء ليصل الى « هاوس دير فليغر » أي نادي الطيارين حيث تولى دور المضيف الرسمي لأكثر من الف شخص من كبار الموظفين والدبلوماتيين جاءوا ليشهدوا حفلة ساهرة مشرقة ، اسهمت في انجاحها فرق الموسيقى والغناء ورقص الباليه ، من دار الاوبرا الرسمية . وعندما وصل الوزير التشيكي من برلين الدكتور ماستنيني ، الى الحفلة الساهرة ، انتحى المشير الذي ملأت صدره الاوسمة به جانباً ، واقسم له بشرفه ان ليس ثمة ما يدعو تشيكوسلوفاكيا الى الخوف من المانيا وان دخول قوات الرايخ الى النمسا « ليس اكثر من مجرد قضية عائلية » ، وان هتلر يريد تحسين علاقاته مع براغ . واضاف ان كل ما يطلبه مقابل ذلك، التأكد من ان الحكومة التشيكوسلوفاكية لن تقوم بتعبئة قواتها . وراح الدكتور ماستنيني يغادر الحفلة فوراً فيهتف الى وزير خارجيته في براغ ثم يعود الى القاعة ليقول لغورنغ ان بلاده لا تعتزم تعبئة قواتها ، وان تشيكوسلوفاكيا لا تنوي التدخل فيما يدور في النمسا من

القوات العسكرية الالمانية قد اثير لاول مرة في البرقية المشهورة التي بعثت بها الحكومة المؤلفة حديثاً . وبالنظر الى وجود الخطر الماثل للحرب الاهلية فان حكومة الرايخ قررت الاستجابة لهذا النداء . (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١) ص ٥٨٦ ـــ ٥٨٧) وهكذا فان وزارة الخارجية الالمانية لم تكتف بالكذب على الدبلوماتيين الاجانب بل وكذبت على دبلوماتييها ايضاً . ولقد ذكر وايزساكر في كتاب ضخم وضعيف كتبه بعد انتهاء الحرب ، شأنه في ذلك شأن غيره من الالمان الذين خدموا هتلر ، بأنه كان خصماً للنازية طيلة الوقت .

١ ـــ اكد المشير فون مانشتاين في شهادته في نورمبرغ في التاسع من شهر آب عام ١٩٤٦ انه « عندما اصدر هتلر امره الينا بالزحف على النمسا ، لم يكن قلقه الاساسي متجهاً الى الخوف من تدخل الحلفاء الغربيين . وانما كان مهتماً بمعرفة ما ستفعله ايطاليا ، إذ بدا ان ايطاليا كانت تقف دائماً الى جانب النمسا وآل هابسبورغ » (محاكمة كبار مجرمي الحرب (٢٠) ص ٦٠٥ .

احداث واحس غورنغ بالارتياح ، وعاد يكرر تأكيداته ، مضيفاً اليها ، انه مخول من هتلر ، بأن يتعهد بذلك ايضاً .

ومن المحتمل ان لا يكون الرئيس التشيكي الداهية ادوار بنيش ، قد وجد الوقت الكافي ليدرك في ذلك المساء ان نهاية النمسا، تعني نهاية تشيكوسلوفاكيا ايضاً . ولقد وجد هناك في اوروبا كثيرون في ذلك الحين ، رأوا ان تشيكوسلوفاكيا كانت قصيرة النظر ، وانه كان أولى بها ان ترى الوضع الاستراتيجي المفجع ، الذي ستجد نفسها فيه من جراء احتلال النازيين للنمسا ، بعد ان تحيط بها القوات الألمانية من جوانبها الثلاثة ، وانه كان حرياً بها ان ترى ان تدخلها لمساعدة النمسا على النجاة من الخطر ، قد يرغم روسيا وفرنسا وبريطانيا وكذلك عصبة الأمم على الأشتباك في صراع مع الرايخ الثالث ، وهو صراع ما كان باستطاعة الألمان آنذاك ان يواجهوه ، وان من الافضل لها والحالة هذه لو انها تدخلت في تلك الليلة ، ليلة الحادي عشر من آذار . ولكن الاحداث التالية ، التي سأسردها باختصار في هذا الكتاب تستبعد ، بالتأكيد كل حديث من هذا النوع . اذ اتيحت بعد فترة قصيرة فرصة افضل من هذه للديموقراطيتين الغربيتين الكبيرتين ، ولعصبة الأمم كذلك لوقف عدوان هتلر، ولكنها كلها تقاعست عن العمل متراجعة . على أي حال ، ليس ثمة من شك في ان شوشنيغ لم يوجه في ذلك اليوم المليء بالاحداث أي نداء رسمي للتدخل ، لا للندن ولا لباريس أو براغ أو جنيف . ومن المحتمل ان يكون قد اعتقد كما تشير إلى ذلك مذكراته ، بأن مثل هذا العمل يعني مجرد اضاعة للوقت . أما الرئيس ميكلاس، فقد اعتقد من الناحية الأخرى ، كما ذكر فيما بعد في مذكراته ان الحكومة النمسوية التي قامت فوراً بابلاغ باريس ولندن بالانذار الالماني ، تواصل « محادثاتها » مع الحكومتين الفرنسية والبريطانية طيلة ذلك اليوم ، للتأكد من « اتجاه تفكيرهما » .

وعندما اتضح ان « اتجاه تفكيرهما » لا يعدو ان يكون مجرد احتجاجات فارغة ، اذعن الرئيس ميكلاس قبيل منتصف الليل بقليل ، فاختار سايس

اينكوارت مستشاراً . وقبل القائمة التي قدمها اليه باسماء وزرائه . وعلق فيما بعد على الوضع بقوله : « لقد تخلى عني الجميـع داخل الوطن وخارجه » .

* * *

واصدر هتلر بياناً ملؤه الغرور إلى الشعب الألماني ، برر فيه عدوانه بما ألفه من ازدراء للحقيقة ، ووعد بأن تتاح للشعب النمسوي الفرصـة لتقرير مستقبله عن طريق « استفتاء حقيقي » ، وراح غوبلز يذيـع هــذا البيان من محطات الاذاعة الألمانية والنمسوية ظهر الثاني عشر من آذار ، أما هتلر ، فقد بادر بزيارة وطنه الاصلي ، حيث لقي ترحيباً كبيراً ، واكتظت جميـع القرى التي مر بها ، والتي ارتفعت فيها علائم الزينة في اسرع وقت ممكن ، بحشود المستقبلين الذين يهتفون بحياته . ووصل بعد ظهر ذلك اليوم الى لينز، وهي هدفه الاول ، إذ انها المدينة التي قضى فيها سني حياته المدرسية . وكان الاستقبال هناك هستيرياً ، وتأثر هتلر ابلغ التأثر . وبعد ان بعث باليوم التالي ببرقية إلى موسوليني يقول له فيها « لن انساك قط لما طوقتني به من فضل » ، راح يضع اكاليـل الزهور على ضريحي والديه في ليوندينغ ثم عاد الى لينز حيث القى خطاباً قال فيه :

« عندما غادرت هذه المدينة قبل عدة سنوات ، كنت احمل في فؤادي ، نفس عواطف الايمان الصادقة التي تغمر قلبي اليوم . وفي وسعكم ان تحكموا على ما في عواطفي من عمق ، عندما ترون انني تمكنت بعد هذا العدد الكبير من السنوات ، ان اصـل بذلك الايمان الى مرحلة التحقيق . وإذا كانت العناية الآلهية قـد شاءت ان تطلع بي من هــذه المدينة لأغدو زعيم الرايخ ، فانها ولا ريب قد حمّلتني في عملها هذا رسالة ، لا يمكن ان تكون إلا اعادة وطني العزيز إلى الرايـخ الألماني . ولقد آمنت بهــذه الرسالة ، وعشت وناضلت من اجلها، وانني لاعتقد بأنني قد تمكنت الآن من تحقيقها . »

وراح سايس اينكوارت يطير بعـــد ظهر الثاني عشر من آذار الى لينز ، مصحوباً بهملر لمقابلة هتلر ، وهناك اعلن هذا المستشار النازي ان المادة الثامنة

والثانين من معاهدة « سان جرمان » التي اعلنت ان استقلال النمسا لا يمكن ان يمس ، والتي جعلت من عصبة الامم ضامناً له ، قد الغيت . ولم يكتف هتلر ، الذي استبد به الحماس الذي ابدته الجماهير النمسوية بهذا الاعلان ، فأصدر أمره الى الدكتور ويلهلم شتوكارت ، وكيل وزارة الداخلية الألمانيـــة ، الذي كان الدكتور فريك وزيره قد اوفده على جناح السرعة الى فيينـــا لوضع مشروع قانون يقضي بتعيين هتلر رئيساً لجمهورية النمسا ، بالمجيء الى لينز . وقد فوجىء هذا الخبير القـــانوني ، كما ذكر فيما بعد في نورمبرغ ، بأمر من الفوهرر يقضي « بوضع قانون لاعلان الوحدة الـكاملة بين البلدين » [1] ،

وقد قدم شتوكارت مشروع القانون الى الحكومة النمسوية الجديدة في فيينا يوم الأحد في الثالث عشر من آذار ، وهو اليوم الذي كان من المقرر ان يجري فيه شوشنيـغ استفتاءه . ورفض الرئيس ميكلاس ، كما رأينا من قبل توقيـع هذا القانون ، ولكن سايس – اينكوارت الذي كان قد تولى في ذلك اليـــوم صلاحيات الرئيس ، طار في المساء الى لينز ليقدم القانون الى الفوهرر. وقد اعلن القانون ، زوال النمسا من الوجود ، إذ استهل بالعبـــارة التالية : « ان النمسا مقاطعة من الرايخ الألماني » . وقد تذكر سايس – اينكوارت فيما بعد ان دموع الفرح قد انهمرت من عيني هتلر [2] . وابرمت الحكومة الألمانية هـــذا القانون الاتحادي المسمى « بقانون الانشلوس » في نفس اليـــوم في لينز ، وتولى توقيعه كل من هتلر وغورنغ وريبنتروب وفريك وهيس . وقد نص على اجراء « استفتاء سري حر » في العاشر من نيسان يقرر فيه الشعب النمسوي « مسئلة عودة الاتحاد مع الرايـخ الألماني » واعلن هتلر ايضاً ان ألمان الرايـخ سيستفتون في موضوع الاتحاد في الثـــامن عشر من آذار ، وهو موعد اجراء الانتخابات الجديدة لمجلس الرايشستاغ .

ولم يدخل هتلر إلى مدينة فيينا التي عاش فيها أفاقاً مدة طويـلة ، دخول

---

١ ــ محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٥) ص ٦٣٢ .

٢ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٩٦١ ــ ٩٩٢ .

الظافرين إلا بعد ظهر الاثنين في الرابع عشر من آذار . وقد اخره عن ذلك عاملان لم يكن يتوقعهما . اذ على الرغم من حماس النمسويين الجنوني لتوقع رؤيتهم الفوهرر في عاصمتهم ، طلب هملر ، يوماً اضافياً آخر ، ليستكمل اجراءات الأمن الاحتياطية . وكان قد شرع في اعتقال الألوف من غير الموثوق بهم ، وارتفع عددهم في غضون بضعة اسابيع ليصل الى تسعة وسبعين الفاً في فيينا وحدها . أما العامل الثاني فهو ان الوحدات الألمانية المدرعة ، التي طالما تبجح بها هتلر ، قد انهارت قبل ان تصل الى مرأى من تلال فيينا . ويقول يودل ان سبعين في المائة من المدرعات قد تعطلت على الطريق من سالزبرغ وباساو الى فيينا ، وان كان الفريق غودريان الذي يتولى قيادة هذه القوات المدرعة قد اكد فيما بعد ان ثلاثين في المائة فقط من قواته قد تعطلت عن الحركة. لكن هتلر ثار على أي حال ثورة عارمة على هذا التأخير . ولم يقض في فيينا اكثر من ليلة واحدة صرفها في فندق « امبريال » .

ومع ذلك فقد بعثت هذه العودة الظافرة الى العاصمة الامبراطورية السابقة التي ما زال يذكر طردها له ، وحياته فيها في شبابه الباكر حياة المجاعة والشقاء ، والتي تلقاه الآن بالهتافات والافراح الصاخبة ، في روحه حيوية دافقة . وطار بابن الذي يود ان يكون موجوداً في كل مكان ، من برلين إلى فيينا ليشترك في الاحتفالات ، ووجد هتلر يقف على منصة العرض المواجهة لقصر (هوفبيرغ) قصر آل هابسبورغ القديم وكتب فون بابن فيما بعد يقول : « لا يمكنني ان أقول إلا انه كان في حالة من النشوة لا مثيل لها » [1] .

---

١ ـ ومع ذلك كان وراء تلك النشوة شيء لم يلاحظه فون بابن ، الضحل التفكير . انها الرغبة المحرقة في ان يثأر من تلك المدينة وشعبها ، لانهما لم يقدراه حق قدره في شبابه ، فبات يحتقرهما في قرارة فؤاده ، ولعل هذا الشعور هو الذي دفعه الى اطالة المكوث في المدينة ، وان كان قد تحدث بعد بضعة اسابيع فقط الى محافظها قائلا : « ارجو ان تتأكد بأن هذه المدينة جوهرة في نظري . وسأصل بها الى وضع تستحقه كل الاستحقاق » . ومن المحتمل ان يكون هذا القول اقرب الى الدعاية الانتخابية ، منه الى التعبير عن عميق المشاعر . وقد كشف عن حقيقه احساسه الى بالدور فون شيراخ الحاكم النازي لفيينا إبان الحرب في اجتماع سيطرت الحدة عليه في « عش النسر » في

وقد ظل على هذه الحالة طيلة القسم الأكبر من الأسابيع الأربعة التاليـة ، عندما كان يذرع المانيا والنمسا من هذا الطرف الى ذاك مذكياً الحماس عنـد الجماهير ليقترعوا « بنعم » تأييداً للاتحاد . ولكنه في خطاباته الفياضة ، لم يترك فرصة دون ان يهتبلها للنيل من شوشنيـغ والاتجار بالأكاذيب التالفة التي يرددها عن طريقة تحقيق الاتحاد . واكد في الخطاب الذي ألقاه في الرايشستاغ في الثامن عشر من آذار ان شوشنيغ قد « خان عهده »، بما « زيفه من انتخابات » مضيفاً ان العمل الذي قـــام به ، لا يمكن ان يصدر « إلا عن رجل مجنون اعمى » . وتحولت « الانتخابات المزيفة » في الخطاب الذي القاه في كوينغزبرغ في الخامس والعشرين من آذار الى « مهزلة مضحكة » . وادعى هتلر العثور عـــلى بعض الرسائل التي تثبت ان شوشنيــغ كان ينتوي خداعه عامداً متعمداً بما يبديه من تسويف في تنفيذ اتفاق برختسغادن امـــلاً في ان « تحل الفرصة الأكثر مواتاة لإثارة الدول الاجنبية ضد المانيا » .

ورد هتلر في خطاب كوينغزبرغ ايضاً على مـــا ورد في الصحف الاجنبية من حملات على استخدامه القوة ، وعلى لجوئه إلى الخديعة في الاعلان عن الاتحاد دون ان ينتظر نتيجة الاستفتاء وقال :

عام ١٩٤٣ . ولقد شرح شيراخ هذه المقابلة في شهادته امام محكمة نورمبرغ قائلاً :

« وآنذاك شرع الفوهرر يتحدث بشيء من الكراهية التي لا حدود لهـا والتي لا تصدق عن شعب فيينا . . . وقد ذكر هتلر في الساعة الرابعة صباحاً وبصورة مفاجئة شيئاً اود ان اكرره الآن لأسباب تاريخية . فقد قال : « كان من الواجب ان لانقبل بدخول فيينا في اتحاد المانيا العظمى . » ان هتلر لم يحب قط مدينة فيينا ، وانما كان يكره شعبها » (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٤) ص ٤٢٩ .)

وقد تعكر مزاج فون بابن المرح الذي جاء يشترك في الاحتفالات في نفس اليوم عندما سمع بأن ويلهلم فون كيتلر ، صديقه الحميم ، ومساعده في السفارة الالمانية قد اختفى في ظروف تشير الى وجود لعبة قذرة من الغستابو . وكان صديق آخر من اصدقاء المفوضية والمتعاونين معهـا وهو البارون تشيرشكي ، قد فر قبل ثلاثة ايام الى لندن لينجو من الموت المحقق على ايدي رجـال الحرس النازي . وقد عثر على جثة كيتلر في نهاية شهر نيسان ، اذ قذفت بها مياه الدانوب الى اليابسة . وكان رجال الغستابو في فيينا قد قتلوه وقذفوا بجثته الى الماء .

« ذكرت بعض الصحف الاجنبية اننا فرضنا انفسنا على النمسا مستخدمين الأساليب الوحشية الفظة . واود أن اقول ، ان الموت لا يمنع هؤلاء الناس عن الكذب . حقاً لقد كسبت الكثير من الحب من شعبي طيلة نضالي السياسي ، ولكن في وسعي أن اقول انني عندما عبرت الحدود السابقة الى النمسا ، لقيت فيها تياراً جارفاً من الحب ، لم اشهد له مثيلاً من قبل. فنحن لم نمض الى هناك كمستعمرين، وانما مضينا محررين . وتحت وطأة هذا الانطباع القوي ، قررت ان لا انتظر حتى العاشر من شهر نيسان ، وان امضي في تحقيق الوحدة فوراً ... »

واذا كانت هذا الاقوال قد بدت مفتقرة الى المنطق او الصدق ، في آذان الأجانب ؛ فليس ثمة من شك ، انها تركت انطباعاً عظيماً في نفوس الألمان . وعندما راح هتلر في نهاية الخطاب الذي القاه في الرايشستاغ يتوسل بصوت تخنقه العاطفة قائلاً : « ايها الشعب الألماني ، امنحني اربع سنوات اخرى ، عساي احقق لك فيها ما تتوخاه من استغلال للاتحاد الذي اقمناه لمصلحه الجميع » ، قوبل قوله هذا بعاصفة مدوية وطاغية بحيث صغرت امامها جميع انتصاراته السابقة من فوق هذا المنبر .

وانهى الفوهرر حملته الانتخابية في فيينا في التاسع من نيسان عشية اليوم الذي سبق الاقتراع . وأحس هذا الرجل ، الذي جاب في وقت سابق ارصفة الشوارع في هذه المدينة كأفاق متصعلك ، خاوي المعدة والوفاض ، وقذر الهيئة واللباس ، والذي أمسك قبل اربع سنوات فقط بما كان لملوك الهوهنزولرن في المانيا من سلطان ، والذي قبض الآن على زمام السلطة التي تمتع بها اباطرة الهابسبورغ ، بشعور يغمره من قدسية الرسالة الالهية التي يحملها . ودفعه هذا الاحساس الى ان يقول :

« اعتقد ان ارادة الله هي التي شاءت ان تبعث بشاب من ابناء هذه المدينة الى الرايخ ، ودفعته في معارج النهوض ، ورفعت

من شأنه ليصبح زعيم الأمة، وليتمكن من ضم وطنه الى حظيرة الرايخ .

« وهناك إرادة اسمى من إرادتنا ، ولسنا في الحقيقة إلا وكلاء لها . وعندما نقض الهر شوشنيغ وعده في التاسع من آذار، شعرت آنذاك ، وفي تلك اللحظة ان نداء العناية الالهية ، قد قرع بابي . ولم أجد في كل ما وقع في الايام الثلاثة التالية إلا تحقيقاً لمشيئة العناية الالهية ورغباتها .

« ولم تنقض أيام ثلاثة حتى كان الربّ قد اصابهم بغضبه ، وشاءت العناية الالهية أن تمنحني القوة لأجعل من خيانتهم للعهد سبيلاً لتوحيد وطني مع الرايخ .

« واني لأتطلع إلى الله بالشكر الآن ، لأنه سمح لي بالعودة إلى وطني ، ولأنه أراد أن أقوده إلى حظيرة الرايخ الألماني . والآن أسأل الله ان يمكّن كل ألماني من إدراك هذه الساعة وتقدير أهميتها وأن يمكنه من الوقوف خاضعاً امامه جل شأنه ، ليشكره على المعجزة التي حققها لنا في غضون بضعة أسابيع » .

وكان الاستنتاج طبيعياً في ان غالبية النمسويين التي كان ينتظر منها ان تقول « نعم » لشوشنيغ في الثالث عشر من آذار ، ستقول عين الكلمة لهتلر الآن ،وفي العاشر من نيسان . فلقد كان الكثيرون منهم يؤمنون ايماناً صادقاً ، بضرورة الاتحاد النهائي بين بلادهم وبين أي شكل من أشكال المانيا حتى ولو كان نازياً ، وبأن هذا الاتحاد شيء لا مناص منه ، بل ومرغوب فيه،لا سيما ولا يمكن للنمسا التي بترت عن ملحقاتها الفسيحة من أراضي السلافيين والمجريين في عام ١٩١٨ ، أن تظل قائمة بشكل كريم ومنفصلة عن غيرها ، لأن الوسيلة الوحيدة لبقائها هذا هو في أن تغدو جزءاً من الرايخ الألماني . وبالاضافة إلى هؤلاء النمسويين كان هناك النازيون المتعصبون الذين أخذت اعدادهم في الإزدياد بسرعة من الانتهازيين وطلاب المناصب والحريصين عليها ، الذين أجتذبهم النصر النازي وباتوا راغبين

في تحسين أوضاعهم . ولا ريب كذلك في أن الكثيرين من الكاثوليك في هذه البلاد ذات الصبغة الكاثوليكية الطاغية قد تأثروا كثيراً بالبيان الذي أصدره الكردينال اينتيزر ، والذي استغله النازيون في دعـــايتهم . مرحباً فيه بمجيء النازية الى النمسا وحاثاً أهلها على الإقتراع ايجابياً . [1]

ولو اتيحت الفرصـــة للديموقراطيين الاشتراكيين ولحزب شوشنيـغ من الاشتراكيين المسيحيين ، في استفتاء نزيه وعادل، للدعوة بحرية وبصورة صريحة لـكانت نتيجة الاستفتاء متعادلة تقريباً . امــا الآن فقد اختلف الوضع تماماً . اذ كان الاقتراع « بلا » يتطلب شجاعة خارقة من النمسويين . فلقــــد كان المقترعون هنا كما كانوا في المانيا ، ولهم كل مــــا يبرر موقفهم هذا ، يخشون كل الخشية ، ان يكتشف اقتراعهم « السلبي » وان يصيبهم من ذلك ضر شديد . ورأيت في مركز الاقتراع الذي زرته في فيينا بعد ظهر ذلك اليوم الاحد ،الذي جرى فيه الاقتراع ، شقوقاً واسعة في زوايا صندوق الاقتراع ، تمكن اعضـاء لجنة الاقتراع من النازيين الجالسين على بعد بضعة اقدام من ان يروا الطريقة التي يقترع فيها كل انسان . أما في المناطق الريفية ، فان عدد الذين حرصوا على ان يكون اقتراعهم سرياً او جرؤوا عليه ، كان قليلاً ، إذ آثر الجميع الاقتراع علناً حتى يرى كل انسان شكل اقتراعهم . وكان من المتوقع ان اذيـع رسالتي في الساعة السابعة والنصف من ذلك المساء ، أي بعد نصف ساعة من اغـــلاق صناديق الاقتراع ، وقبل ان يكون فرز الاصوات قد بدأ . وجاءني موظف نازي يؤكد لي قبل ان اذيـع ان النمسويين سيقترعون إلى جانب الاتحاد بنسبة (٩٩) في المائة . وبالفعل فقد كان هذا هو الرقم الرسمي الذي اعلن فيما بعد ، إذ اقترع إلى جانب الاتحاد ٩٩,٠٨ في المائة في المانيا و٩٩,٧٥ في المائة في النمسا. وهكذا اختفى اسم النمسا كبلد مستقل مؤقتاً من التاريخ ، وكان العامل

---

١ ــ وبعد ثمانية اشهر اي في الثامن من تشرين الاول هاجم المشاغبون النازيون قصره القائم امام كاتدرائية القديس اسطفان ونهبوه . فلقد عرف اينتيزر متأخراً ما تعنيه الاشتراكية الالمانية. وكان قد هاجمها في احدى مواعظه بسبب اضطهادها للكنيسة .

في زوالها ، النمسوي المنتقم الذي ضمها الآن الى المانيا . والقيت كلمة الألمانية القديمة للنمسا وهي « اويستر ايخ »، واصبحت تدعى الآن « اوستمارك أي المانيا الشرقية » . ولكن سرعان ما اختفى هـذا الاسم ايضاً واصبحت مجزأة إلى مقاطعات ملحقة ببرلين مباشرة واعيد اطلاق الاسماء القديمة على هذه المقاطعات « كالتيرول وسالزبرغ وستيرنا وكارينثيا ». وغدت فيينا مدينة اخرى من مدن الرايخ ، واصبحت منطقتها مجرد مركز اقليمي اداري ، يسير في طريق الذبول. وهكذا قضى الأفاق النمسوي السابق الذي غدا الآن ديكتاتوراً بمحو بلاده من الخريطة وحرمان عاصمتها التي كانت متألقة ذات يوم على آخر خيط من خيوط مجدها واهميتها . وبات من الحتمي ان تعم خيبة الأمل جميع النمسويين .

وكان سلوك النمسويين النازيين في فيينا في الاسابيع القليلة الأولى اسوأ سلوك شهدته عيني في المانيا . فلقد ظهر بينهم مظهر فاجر من مظاهر الصادية (Sadism) . وبات في وسع المرء أن يرى يوماً بعد آخر اعداداً كبيرة من رجال اليهود ونسائهم يقومون بازالة صور شوشنيغ وشعاراته من الشوارع والأزقة وتنظيف مجاري المياه. وبينما كان هؤلاء يعملون تحت وطأة تهديد قوات العاصفة الواقفة فوق رؤوسهم ،كانت الجماهير تحتشد حولهم موجهة اليهم الاهانات والسباب . وكثيراً ما جمع المئات منهم في الشوارع ليقوموا بتنظيف المراحيض العامة والمراحيض القائمة في ثكنات فرق العاصفة والحرس النازي. وزج بالألوف في السجون أيضاً بعد أن صودرت جميع أموالهم أو سرقت . ورأيت بنفسي من شقتي في « بلوسفلاسيه » فصائل من رجال الحرس النازي يحملون الأواني الفضية والستائر والصور الزيتية وغير ذلك من الاشياء التي نهبوها من قصر آل روتشيلد المجاور لمسكني . وقد تمكن البارون لويس دي روتشيلد نفسه فيما بعد من الخروج من فيينا بعد أن تنازل عن مصانع الفولاذ التي يملكها إلى مؤسسة هيرمان غورنغ. وتمكن نحو من نصف أهل المدينة من اليهود الذين كان عددهم نحواً من مائة وثمانين الفاً قبل نشوب الحرب من النجاة بأرواحهم والهجرة الى الخارج بعد ان تخلوا عن كل ما يملكونه الى النازيين .

وقد تولت منظمة خاصة اقامها هايدريش واطلق عليها اسم « دائرة الهجرة اليهودية » ، القيام بهذا الاتجار المربح بالحرية ، وسرعان ما غدت هذه المنظمة التي تعمل تحت اشراف الحرس النازي الوكالة النازية الوحيدة المخولة باصدار اذونات السفر لليهود . وتولى الاشراف على هذه المنظمة منذ قيامها نازي نمسوي ، من مواطني مدينة لينز ، وهي مسقط رأس هتلر ، ويدعى كارل ادولف ايخمان . وسرعان ما انقلبت هذه المنظمة الى مؤسسة لإبادة اليهود ، اذ تولت القضاء على نحو من اربعة ملايين شخص اغلبهم من اليهود [١] . وقد استغل هملر وهايدريش ايضاً اقامتهما في النمسا في الاسابيع الأولى من الاتحاد فأقاما معتقلاً ضخماً في موتهاوزن على الضفة الشمالية من نهر الدانوب على مقربة من اينز . فلقد كان من العسير نقل مئات الألوف من المعتقلين النمسويين الى معتقلات المانيا . وهكذا قرر هملر ان يكون للنمسا معتقلها الخاص بها . وكان عدد النزلاء في هذا المعتقل من المسجونين غير النمسويين قبيل انهيار الرايخ الثالث ، اكبر من عدد المعتقلين النمسويين ، كما اشتهر امره بما سجله من ارقام قياسية في عدد الذين اعدموا فيه ، اذ اشارت الارقام الرسمية الى اعدام (٣٥،٣١٨) رجلاً في السنوات الست والنصف الأولى من وجوده .

وهرع مئات الألوف من الألمان من جميع اطراف الرايخ ، الى النمسا على الرغم من الارهاب الذي فرضه هملر وهايدريش عليها ، حيث كان في وسعهم ان يبتاعوا بما يحملونه من « ماركات » وجبات غنية من الطعام حرموا منها في المانيا منذ سنوات ، وان يقضوا اجازاتهم بتكاليف طفيفة في جبالها ومناطق بحيراتها التي لا نظير لها . وتدفق رجال الأعمال الألمان واصحاب المصارف ليبتاعوا ما فيها من مصالح اليهود وغير النازيين بأسعار متناهية في هبوطها . وكان بين الزائرين الضاحكين الدكتور شاخت الفذ ، الذي كان لا يزال وزيراً

---

١ ــ اكتفى المؤلف بسرد هذه الارقام دون ان يعود بها الى الوثائق الرسمية كما هي عادته في جميع ما اورده في كتابه من احصاءات وارقام . ولا ريب في انه استند فيها على ارقام الدعاية الصهيونية ، التي يعتبرها الكثيرون خيالية في مبالغتها . ــ المعرب ــ

بلا وزارة على الرغم من خلافاته مع هتلر، ورئيساً لمصرف الرايخ، فلقد كان من اكثر الناس فرحاً بالاتحاد. ووصل إلى فيينا ليتسلم زمـــام المصرف النمسوي الوطني بالنيابة عن مصرف الرايخ حتى قبل اجراء الاستفتاء، والقى خطابـــاً على موظفي المصرف في الواحد والعشرين من آذار. وبعد ان سخر من الصحافة الاجنبية لما وجهته من نقد للأساليب التي اتبعها هتلر في تنفيذ الاتحـــاد، راح الدكتور شاخت يدافع عن هذه الاساليب بقوة، قائلاً ان الاتحاد «الانشلوس» كان النتيجة الطبيعية لأعمال الغدر والوحشية والعنف التي ارتكبتها البـــلاد الاجنبية ضدنا ثم مضى يقول:

انا لنتوجه بالشكر الى الله، على ان ادولف هتلر قد خلق مجتمعاً «للارادة الألمانية والفكر الألماني. وقد دعم هـــذا المجتمع بجيش «الفيرماخت» الذي تقوّى حديثاً، ثم اضفى في النهاية الشكل الظاهري على الاتحاد الحقيقي القائم في الداخل بين المانيا والنمسا...

«وكل من لا يقف من صميم فؤاده وراء ادولف هتلر، لن يجـــد له مكاناً او مستقبلاً بيننا... ولن يكون مصرف الرايخ إلا مصرفاً اشتراكياً وطنياً، وإلا فانني سأتخلى عن ادارته».

وهنا تقدم الدكتور شاخت الى الموظفين النمسويين بصيغة قسم طلب منهم جميعاً ان يؤدوه، لكي يكونوا دائماً «اوفياء ومطيعين للفوهرر».

وراح الدكتور شاخت يصرخ بعد ذلك هاتفاً... «ان كل من ينقض هـــذا اليمين يعتبر وغداً»، ثم تعالى صوته بالهتاف لهتلر... «سيـــغ هـــايل، سيـــغ هايل، هايل هتلر، هايل هتلر»، والكل يردد هتافه معه [١].

* * *

وقد اعتقل الدكتور شوشنيغ في غضون ذلك وتعرّض لمعامـــلة في منتهى الإذلال والهوان، بحيث يصعب على المرء أن يصدق أن هـــذه الأوامر لم تكن صادرة عن هتلر نفسه. وكان أول إعتقال له في منزله بين الثاني عشر من آذار

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٣٩٤ ـ ٤٠٢.

والثامن والعشرين من ايار . حيث كان رجال الغستابو يحرمون جفنيه من الرقاد بألاعيبهم وحيلهم الدنيئة ثم مـــا لبث أن نقل إلى مقر قيادة الغستابو في فندق ميتروبول في فيينا ، حيث احتجز في غرفة صغيرة في الطابق الخامس مدة سبعة عشر شهراً أُخرى . وهناك كان يرغـــم على القيام بتنظيف الغرف ، والمغاسل والمجالي والمراحيض في الاقسام التي يعيش فيها رجال الحرس النازي ، مستخدماً المناشف التي تعطى له لاستعماله الخاص ، كما يرغم على القيام بكل ما يخطر في بال الغستابو من أعمال مهينة ذليلة . ولمـــا حلّت الذكرى السنوية الأولى لسقوط حكومته أي في الحادي عشر من آذار عام ١٩٣٩ ، كان قد فقد ثمانية وخمسين رطلاً من وزنه ، ومع ذلك ، فقد ذكر طبيب الحرس النازي في تقريره ، أن وضعه الصحي كان على ما يرام . وشرح الدكتور شوشنيغ في كتابه – مطالب النمسا – السنوات الطويلة من السجن الإنفرادي ، ومن الحياة بـــين « الأحياء الأموات » في عدد من أسوأ المعتقلات الألمانية كداخاو وساشينهاوزن.

وقد سمح له بعيد اعتقاله بالزواج عن طريق الوكالة ، من الكونتيسة السابقة فيرا تزيرنين التي كانت المحكمة الكنسية قد قضت بالغاء زواجها السابق (وكان شوشنيغ مترملاً في هذه الآونة) ، هذا وقد أُتيح لها في آخر سنوات الحرب أن تشترك معه في الحياة في معتقله ، مع طفلها الذي ولد عام ١٩٤١ . ولا ريب في أن تمكن هذه الاسرة من الصمود لكابوس الاعتقال يعتبر معجزة من المعجزات . وقد انضم اليها قبيل إنتهاء الحرب ، عدد من الضحايا البارزين لحقد هتلر وغضبه من أمثال الدكتور شاخت ، وليون بلوم رئيس وزراء فرنسا السابق ، والسيدة زوجته ، والقس نيمويلر ، وعدد من كبار القادة العسكريين ، والأمير فيليب هيسّي الذي قتل رجالُ الحرس النازي في معتقل بوخنفولد في عام ١٩٤٤ زوجته الأميرة مغالدا إبنة ملك إيطاليا ، كجزء من إنتقام الفوهرر من فكتور عمانوئيل ملك ايطاليا لتخليه عن المانيا وانضمامه إلى جانب الحلفاء .

وقد وصلت هذه المجموعة من كبار المسجونين في اليوم الأول من ايار عام ١٩٤٥ الى احدى القرى النائية في اعالي جبال التيرول الجنوبي ، بعـــد ان

اجليت بسرعة من معتقل داخاو ونقلت باتجاه الجنوب ، للحيلولة دون تحريرها على ايدي القوات الامريكية الزاحفة من الغرب . وقد اطلع ضباط الغستابو شوشنيغ على قائمة باسمــــاء الذين تقرر قتلهم بأمر من هملر خشية تحريرهم على ايدي الحلفاء ، ورأى المستشار النمسوي السابق ، اسمه واسم زوجته واضحين تمام الوضوح في هذه القائمة . وهنا زاولته شجاعته . فقد تمكن من الصمود طيلة هذه المدة الطويلة ، وها هو يواجه الموت في اللحظة الأخيرة .

لكن شوشنيـغ تمكن في الرابع من ايار على أي حال من تدوين العبـــارة التالية في يوميته :

« اطلقت صافرات الانذار في الساعة الثانية بعد ظهر اليوم ! آه الامريكيون.

« لقد تمكن فصيل امريكي من احتلال الفندق.

« ها نحن احرار ! » .

* * *

وهكذا تمكن هتلر دون ان يطلق طلقه واحدة ، ودون أي تدخـــل من جانب بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا ، التي كان في وسع قواتها العسكرية أن تتغلب عليه ، من اضافة سبعة ملايين من الرعايا إلى الرايخ ومن الفوز بموقع استراتيجي ذي قيمة كبيرة لخططـــه المقبلة . فقد غدت جيوشه تحيـــط بتشيكوسلوفاكيا من جهاتها الثلاث ، كما غدت باحتلالها فيينا مسيطرة على بوابة أوروبا الجنوبية الشرقية . ولقد كانت هذه المدينة بوصفها عاصمة الامبراطورية النمسوية ــ المجرية القديمة ، المركز الرئيسي للمواصلات وانظمة التجـــارة في الاوروبيتين الوسطى والجنوبية الشرقية . وها هو هذا المركز الحساس يصبح الآن في ايدي الألمان .

وتبين هتلر الآن حقيقة واضحة كل الوضوح ، وهي أن بريطانيا وفرنسا لــن تحركا قلامة ظفر في وجهه لوقف عدوانه . اذ القى تشمبرلين في الرابع عشر من آذار خطاباً في مجلس العموم تحدث فيه عن « الأمر الواقع » الذي قام بــه هتلر في النمسا . وراحت السفارة الألمانيـــة في لندن تبعث إلى برلين بسلسلة

متلاحقة من البرقيات العاجلة عن سير المناقشة في المجلس . لم يكن ثمة ما يخشاه هتلر . فقد أعلن تشمبرلين « ان الحقيقة القاسية هي انه لم يكن ثمة سبيل لوقف ما حدث بالفعل في النمسا ، إلا إذا كانت هذه البلاد ، وغيرها على استعداد لاستخدام القوة » .

واتضح لهتلر الآن أن رغبة رئيس الوزراء البريطاني ، لا تقتصر على عدم استخدام القوة بل وتمضي إلى الميل عن التشاور مع الدول الكبرى الاخرى لوقف الحركات الألمانية المقبلة . وكانت الحكومة السوفياتية قد اقترحت في السابع عشر من آذار ، عقد مؤتمر للدول الكبرى داخل عصبة الأمم او خارجها ، لإتخاذ الاجراءات اللازمة للحيلولة دون وقوع أي عدوان الماني جديد . ووقف تشمبرلين موقفاً بارداً كالثلج من هذا الاقتراح ، وما لبث أن اعلن رفضه له ، في جلسة عقدها مجلس العموم في الرابع والعشرين من آذار ، إذ قال : « ان النتيجة الحتمية لمثل هذا العمل ، هي زيادة الميل إلى اقامة كتل دولية خاصة ، مما يعتبر عملاً مناقضاً ومعادياً للآمال المعلقة على ايجاد سلام اوروبي » . ويبدو ان الرئيس البريطاني قد تجاهل ، محور برلين — رومة والميثاق الثلاثي لمكافحة الشيوعية الذي يضم المانيا وايطاليا واليابان ، أو لم يحملهما على محمل الجد .

واعلن تشمبرلين في نفس الخطاب قراراً اتخذته حكومته ، وكان ولا ريب اكثر بعثاً للمسرة في فؤاد هتلر . فقد رفض رفضاً باتاً الاقتراح القائل بأن تتولى بريطانيا تقديم تعهد بالإسراع الى مساعدة تشيكوسلوفاكيا في حالة تعرضها للاعتداء ، كما رفض أيضاً الاقتراح بأن تهب بريطانيا لمساعدة فرنسا في حالة اضطرارها الى الوفاء بالتزاماتها بموجب الميثاق الفرنسي — التشيكي . ولا ريب في ان هذا البيان الصريح قد ابعد القلق تماماً عن فؤاد هتلر الذي بات واثقاً الآن من ان بريطانيا ستقف كذلك موقف المتفرج ، عندما يشرع في خطوته الثانية تجاه ضحيته الأخرى . واذا كانت بريطانيا ستقف هذا الموقف ، ألا ينتظر من فرنسا أن تقف موقفاً مماثلاً له ؟. ان أوراقه السرية في الأشهر القليلة التالية ، توضح بجلاء ، انه كان واثقاً من ذلك كل الثقة . ولقد عرف ان نصوص الميثاقين

اللذين عقدتها روسيا مع فرنسا وتشيكوسلوفاكيا،لا تفرض على الاتحاد السوفياتي أن يهرع إلى مساعدة التشيكيين إلا إذا تحركت فرنسا أولاً . ولم يكن بحاجة إلى أكثر من هذا العلم ليمضي فوراً بمشاريعه في طريق التنفيذ .

* * *

وكان في وسع هتلر أن يفترض بعد نجاح الاتحاد (الانشلوس) أن الفرقاء العسكريين الألمان ، الذين كان التردد مسيطراً عليهم، لن يقفوا بعد الآن موقف المناوىء له في تنفيذ مشاريعه . وإن كانت هناك بقية من شكوك تساوره في هذه القضية . لكن هذه الشكوك ما لبثت أن اختفت بنتيجة الخاتمة السعيدة التي انتهت اليها قضية الفريق فريتشه .

وقد رأينا في فصل سابق كيف توقفت فجأة محاكمة الفريق فون فريتشه أمام محكمة عسكرية بتهم الشذوذ الجنسي ، في يوم استهلالها ، في العاشر من آذار بسبب استدعاء هتلر للمشير غورنغ وقائدي الجيش والاسطول ، لمعالجة بعض الشؤون العاجلة المتعلقة بالنمسا. وقد استؤنفت المحاكمة في السابع عشر من آذار، ولكن بالنظر إلى ما وقع من أحداث في فترة التأجيل ، فقد كان من الطبيعي أن تفقد أهميتها وأن لا تصبح ذات خطورة من أي نوع كان . فقبل بضعة أسابيع، خيل لكبار القادة العسكريين ، ولربما كان بعضهم واثقاً من صحة خيالاته ، بأنه عندما تكشف المحاكمة العسكرية عن الاساليب التي اتبعها هملر وهايدريش ضد فريتشه والتي لا تكاد تصدق بما فيها من خديعة وتزوير . فان نتائج هذا الكشف لن تقتصر على اعادة قائدهم العام الى منصبه فحسب ، بل ستتعداها إلى رجة ضخمة في قواعد الحرس النازي بل وفي قواعد الرايخ الثالث وادولف هتلر نفسه ، تعرضها للانهيار أيضاً . يا له من أمل فارغ مغرور ! ولقد رأينا كيف تمكن هتلر في الرابع من شباط ، من تحطيم احلام فيلق الضباط، بتسلمه شخصياً قيادة القوات المسلحة،وصرفه فريتشه ومن يحيط به من كبار القادة العسكريين من الخدمة . وها هو الآن يحتل النمسا دون أن يطلق رصاصة واحدة . ولم يعد هناك بعد هذا النصر المحيّر للعقول ، في المانيا كلها ، حتى وبين القادة العسكريين

القدامى من يفكر تفكيراً جدياً بالفريق فون فريتشه .

ولقد برئت ساحته بسرعة فائقة . إذ انهار في المحكمة المجرم السابق شميدت المعتاد على التشهير وابتزاز الأموال عن طريق التهديد وذلك بعد قليل من الصرامة والعنف اللذين ابداهما غورنغ رغبة منه في أن يبدو في مظهر القاضي العادل . واعترف هذا الرجل بأن الغستابو قد هدده بالموت إذا لم يتهم الفريق فون فريتشه وهو تهديد ما لبث أن نفذ تماماً بعد بضعة أيام . وذكر ان التشابه في الاسماء بين الفريق فون فريتشه والضابط الفارس فون فريش ، الذي كان شميدت بالفعل قد ابتز منه المال ، نتيجة إمساكه به متلبساً في قضية اخلاقية تتعلق بالشذوذ الجنسي ، هو الذي أدى إلى هذا الاتهام . ولم يقم فريتشه أو الجيش الآن بمحاولة للكشف عن دور الغستابو الفعلي في القضية ولا عن جريمة هملر وهايدريش الشخصية في بناء هذا الاتهام الزائف . وانتهت المحاكمة في اليوم التالي أي في الثامن عشر من آذار ، بالقرار المتوقع التالي « ثبت للمحكمة عدم صحة التهم ، وبرئت ساحة المتهم » .

ولقد كان هذا القرار تبرئة شخصية للفريق فون فريتشه ، لكنه لم يعد إلى منصبه ، كما لم يؤد القرار إلى عودة الجيش إلى مركزه السابق المستقل بعض الاستقلال عن الرايخ الثالث . ولما كانت المحاكمة قد جرت بصورة سرية ، فان الرأي العام لم يدر بشيء عنها أو عن القضايا المتعلقة بها . وقد بعث هتلر في الخامس والعشرين من آذار ببرقية الى فريتشه يهنؤه فيها على« استعادته صحته » . وهكذا اسدل الستار .

أما الفريق الذي ابعد عن منصبه ، والذي فزع من ان يشير بأي أصبع من أصابع الاتهام الى هملر في المحكمة ، فقد أبدى الآن ايماءة اخيرة غير مجدية ، إذ تحدى قائد الغستابو طالباً اياه للمبارزة . وقد وقع التحدي طبقاً للانظمة العسكرية القديمة المتعلقة بالشرف ، واشرف على تنفيذه الفريق بيك نفسه ، الذي سلمه بدوره الى الفريق فون رونشتادت بوصفه اقدم الضباط رتبة في الجيش ، ليقدمه الى قائد الحرس النازي . ولكن رونشتادت تردد كثيراً ،

وحمل رسالة التحدي في جيبه عدة أسابيع إلى ان نسيها اخيراً .

وسرعان ما اختفى الفريق فون فريتشه وكل مـــا يمثله من حياة المانيا . ولكن ترى ماذا كان يمثل هذا الانسان ؟ انه يبعث في شهر كانون الأول برسالة الى صديقته البارونة مارغو فون شوتزبار ، تشير الى الاضطراب العاطفي الذي كان يحس به هو وغيره من القادة العسكريين الآخرين . قال فيها :

« ان من الغريب حقاً أن ينظر كثير من النـــاس إلى المستقبل بشيء من الخوف المتزايـــد ، على الرغم من انتصارات الفوهرر الرائعة في السنوات الماضية ... « فلقد توصلت فور انتهاء الحرب الى الاستنتاج بأن من واجبنا أن ننتصر في ثلاث معارك ، إذا أريد لألمانيا أن تستعيد قوتها ثانياً .

« ١ – المعركة ضد الطبقة العاملة ، وقد انتصر هتلر فيها .

« ٢ – المعركة ضد الكنيسة الـكاثوليكيـــة ، التي أرى من الأفضل تسميتها بالمعركة ضد الإيغال في الانعزالية .

« ٣ – المعركة ضد اليهود .

« وما زلنا الآن في خضم المعركتين الاخيرتين ، ولا ريب في ان معركتنا ضد اليهود هي اصعبها . وكلي أمل أن يدرك الجميع ما في هذه الحملة من تعقيدات »[1] .

وفي السابـع من آب عام ١٩٣٩ ، وكانت سحب الحرب تتجمع وتتـكاثف كتب الفريق الى البارونة يقول : « ليس لي من دور في المانية هتلر لا في ايام السلم ولا في ايام الحرب ، ولكنني سأرافق فوجي في خيالي ، لأنني لا استطيـع البقاء في البيت .

وهذا ما فعله حقاً . ففي الحادي عشر من آب عام ١٩٣٨ ، عين عقيداً أعلى لفوجه القديم – فوج المدفعية الثاني عشر – وهـــو لقب فخري . وفي الثاني والعشرين من ايلول عام ١٩٣٩ ، اصابته نيران مدفع رشاش بولندي أمام وارشو

---

١ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٥٨٥ .

المحاصرة ، ودفن بعد أربعة أيام في برلين باحتفال عسكري مهيب ، ذات يوم بارد ممطر ومعتم من أشد الايام التي عشتها قسوة في برلين ، طبقاً لما دونته في مذكراتي .

وهكذا حقق هتلر بتسريحه فريتشه من منصبه كقائد عام للجيش الألماني قبل عشرين شهراً ، النصر الكامل على آخر قلعة ممكنة من قلاع المعارضة في المانيا ، وهي قلعة طبقة الضباط في الجيش التقليدي القديم . أما الآن وفي ربيع عام ١٩٣٨ فقد تمكن بلعبته الماكرة في النمسا من تثبيت سيطرته على الجيش ، عارضاً قيادته الجريئة ، ومؤكداً انه هو الشخص الوحيد الذي يستطيع اتخاذ القرارات في السياسة الخارجية ، وان دور الجيش هو تأمين القوة العسكرية اللازمة أو التهديد بها . يضاف إلى هذا انه أعطى للجيش دون ان يضحي برجل واحد ، موقعاً استراتيجياً ، جعل من تشيكوسلوفاكيا دولة لا يمكن الدفاع عنها من الناحية العسكرية . ولم يبق امامه من وقت يضيعه قبل الانتفاع من هذه المزية الجديدة .

وفي الواحد والعشرين من نيسان أي بعد أحد عشر يوماً من الاستفتاء النازي في النمسا ، استدعى هتلر ، الفريق كايتل ، رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة العليا ليبحث معه في « الحالة الخضراء » .

١٢

الطريق إلى ميونيخ

« الحالة الخضراء » ... هي الاسم الرمزي للخطة الرامية الى القيام بهجوم مباغت على تشيكوسلوفاكيا . ولقد سبق لنا أن رأينا أن المشير فون بلومبرغ ، كان اول من رسم هذه الخطة في ٢٤ حزيران عام ١٩٣٧ ، ثم عاد هتلر فتوسع فيها في المحاضرة التي القاها على قادته العسكريين في الخامس من تشرين الثاني ناصحاً اياهم « بأن الهجوم على التشيكيين يجب أن يأخذ سرعة البرق الخاطف ، وان من الواجب وقوعه ، في عام ١٩٣٨ » .

ولقد أدى احتلال النمسا السريع ، كما يظهر ، إلى أن تصبح «الحالة الخضراء» قضية ملحة للغاية ، واتضحت ضرورة تعديلها لتكون متفقة مع آخر التطورات ، ولذا فمن الواجب الشروع ، في اتخاذ الاعدادات اللازمة لها . وكان هذا هو الهدف من استدعاء هتلر لكايتل في الواحد والعشرين من نيسان عام ١٩٣٨ . وقام الرائد رودلف شموندت مساعد هتلر العسكري الجديد ، في اليوم التالي باعداد ملخص عن الحديث ، قسمه الى ثلاثة اجزاء : « النواحي السياسية » و « والاستنتاجات العسكرية » و « الدعاية » [١] .

وقد رفض هتلر « فكرة القيام بهجوم ستراتيجي من السماء دون ان يكون

---

١ ــ عثر على الملف المتضمن للحالة الخضراء في مقر قيادة هتلر . وقد استولت عليه الفوات الامريكية كاملا في « اوبر سالزبرغ » ، ويؤلف ملخص الحديث الذي دار بين هتلر وكايتل في الواحد والعشرين من نيسان الورقة الثانية في هذه المجموعة . وقد قدم الملف كله كدليل في محاكمات نورمبرغ . (المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٣٩٦ ــ ٣٠٩) .

هناك أي سبب أو امكان للتبرير » ، وذلك مخافة « التيـــار المعادي من الرأي العام العالمي الذي قد يؤدي الى خلق وضع حرج كل الحراجـــة » . وفكر في طريقة ثانية « وهي القيام بعمل بعد فترة من المباحثات السياسية ، التي تـؤدي بصورة متدرجة إلى ازمة والى الحرب » ، ورأى « أن هـــذه الطريقة ليست مجدية بسبب اجراءات الأمن التي لا بد وان تكون قد اتخذتها الجبهـة الخضراء (تشيكوسلوفاكيا) » . وآثر الفوهرر في الوقت الحاضر على الأقل ، حلاً ثالثـاً وهو « عمل سريع كالبرق ، يرتكز على حادث (كقتل الوزير الألماني المفوض مثلاً اثناء مظاهرة مناهضة لألمانيـــا) . وجدير بنا أن نذكر أن مثل هـــذا « الحادث » كان ضمن المخطط لتبرير الغزو الألماني للنمسا ، عندما تقرر ان يكون فون بابن هو الضحية . ففي عالم الجريمة الذي تميز به عهد هتلر ، كان المبعوثون الألمان في الخارج من الأشياء القابلة للصرف .

وقد اكد سيد الحرب الألماني ، وهو المكان الذي بات هتلر يحتله الآن بعد أن تولى القيادة العامة للقوات المسلحة ، بصورة شخصية للفريق كايتل ، الضرورة الماسة للسرعة في العمليات العسكرية ، ثم قال :

« ان الأيام الأربعة الأولى من العمل العسكري حاسمة من الناحية السياسية تمام الحسم . وإذا كان ثمة افتقار إلى انتصار عسكري بارز ، فلا بد من نشوء أزمة أوروبية . ومن الواجب أن يقنع الأمر الواقع الدول الأجنبية بلا جدوية التدخل العسكري » .

أما من ناحية الجانب الدعائي للحرب ، فـــان الوقت لم يحن بعد لاستدعاء الدكتور غوبلز. ولم يبحث هتلر الآن إلا في موضوع المنشورات التي يجب توزيعها « لتوجيه الألمان في تشيكوسلوفاكيا » والتي يجب أن تتضمن «تهديدات لإرهاب التشيكيين » .

* * *

وكانت جمهورية تشيكوسلوفاكيا التي قرر هتلر الآن تحطيمهـــا المخلوق الذي ولدته معاهدات الصلح بعد الحرب الكونية الأولى ، وهي المعاهدات التي

غالى الألمان في كراهيتها . وكانت هذه الجمهورية ايضاً ، النتاج اليدوي لمثقفَيْنِ تشيكيين بارزين هما توماس غاريغ مازاريك ، نجل سائق العربة ، العصامي الذي تولى تثقيف نفسه فغدا من ابرز الحكماء وأول رئيس للجمهورية ، وادوارد بنيش ، نجل الفلاح ، الذي شق طريقه في جامعة براغ وفي ثلاث مؤسسات فرنسية للتعليم العالي ، والذي غدا بعد أن خدم بصورة مستمرة كوزير للخارجية ، الرئيس الثاني للجمهورية بعد تقاعد مازاريك في عام ١٩٣٥ . وقد انتشلت هذه الجمهورية في عام ١٩١٨ من امبراطورية آل هابسبورغ السابقة التي كانت قد استولت في القرن السادس عشر على مملكة بوهيميا العريقة ، وراحت تتطور عبر السنوات التي تلت انشاءها في عام ١٩١٨ ، لتغدو اكثر الدول ديموقراطية وتقدمية واستنارة وازدهاراً في اوروبا الوسطى .

وأدى تألفها من عدة قوميات مختلفة ، إلى وقوعها تحت سيطرة مشكلة داخلية مستعصية لم تستطع حلها طيلة عشرين عاماً . انها مشكلة الأقليات . فهناك نحو من مليون مجري ونصف مليون روثيني وثلاثة ملايين ونصف المليون من الألمان السوديت ، يعيشون فيها . وكانت هذه الشعوب تتطلع بتلهف إلى أوطانها الأصلية في المجر وروسيا والمانيا ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي أن السوديت لم يكونوا في يوم من الأيام يمتون إلى الرايخ الألماني (إلا كجزء من الأمبراطورية الرومانية المقدسة ، المهلهلة التركيب) ، وإنما كانوا جزءاً من النمسا. وكانت هذه الاقليات تطمع على الاقل في طراز من الحكم الذاتي يفوق ما هي فيه من استقلال داخلي .

وكان السلوفاكيون أيضاً الذين يؤلفون ربع الشعب التشيكوسلوفاكي الذي يعد عشرة ملايين ، يطمعون في شكل من اشكال الاستقلال الداخلي . وعلى الرغم من الصلة العنصرية واللغوية الوثيقة التي تقوم بينهم وبين التشيكيين فان السلوفاكيين كانوا قد تطوروا تاريخياً وثقافياً واقتصادياً تطوراً مغايراً بفضل تبعيتهم للمجر قروناً طويلة . ونص الاتفاق الذي عقد في مدينة بتسبرغ بين المهاجرين التشيكيين والسلوفاك في اميركا ، في ٣٠ ايار عام ١٩١٨ على ان يكون

للسلوفاكيين حكومتهم وبرلمانهم ومحاكمهم . ولكن حكومة براغ لم تجد نفسها مقيدة بهذا الاتفاق ولذا فلم تلتزم به .

واذا قارنا بين وضع هذه الأقليات ، وبين امثالها في معظم البلاد الأخرى في الغرب وحتى في امريكا ، فان الأقليات التشيكوسلوفاكية لم تكن قط في وضع سيء ، إذ انها لم تكن تتمتع بالحقوق الديموقراطيةوالمدنية الكاملة فحسب وبينها الحق في الاقتراع ، وانما كانت تتمتع ايضاً بالحرية في ادارة مدارسها ، وقد سمح لها بالحفاظ على منظماتها الثقافية . وكان زعماء احزاب الأقليات السياسية ، يعملون كوزراء في الحكومة المركزية . ومع ذلك فان التشيكيين الذين لم يكونوا قد افاقوا بعد من تأثيرات قرون من الاضطهاد النمسوي، سمحوا ببقاء الكثير من المشاكل التي تتعلق بالأقليات دون حل . وكانوا يتميزون بالوطانية (الشوفينية) ، والافتقار الى الكياسة . واني لأذكر من زياراتي السابقة للبلاد ، ما أحس به أهل سلوفاكيا من سخط عميق بسبب اعتقال الدكتور فوجتيش توكا ، الأستاذ الجامعي المحترم ، الذي حكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً بتهمة الخيانة العظمى ، على الرغم من انه كان من المشكوك فيه أن الرجل قد ارتكب ذنباً اكبر من المطالبة باستقلال سلوفاكيا . وقد شعرت جماعات الأقليات ايضاً ان الحكومة التشيكوسلوفاكية لم تحترم الوعود التي قطعها مازاريك وبنيش على نفسيهما في مؤتمر باريس عام ١٩١٩ ، عندما تعهدا باقامة نظام للكنتونات شبيه بالنظام السويسري .

ولعل من سخرية القدر ، بالنسبة الى ما سنقوله بعد قليل ، أن الألمان السوديت قد اصابوا نجاحاً في الدولة التشيكوسلوفاكية اكبر من النجاح الذي حققته اية اقلية اخرى في البلاد ، واكبر من النجاح الذي حققته الاقليتان الالمانيتان في بولندة وايطاليا الفاشية . وكانوا يثورون على اعمال الاستبداد الحقيرة التي يقوم بها بعض الموظفين التشيكيين والتمييز العنصري الذي تقوم به حكومة براغ تجاههم احياناً . وقد وجدوا ان من الصعب عليهم ان يكيفوا انفسهم لخسارة سيطرتهم السابقة في بوهيميا ومورافيا فيظل اسرة الهابسبورغ.

ولكنهم كجماعات متماسكة تعيش على طول حدود الأجزاء الشمالية الغربية والجنوبية الغربية من الجمهورية الجديدة ، حيث تتركز معظم صناعة البلاد ، ازدهرت احوالهم ، ومع مضي السنين وصلوا بصورة متدرجة إلى حالة من الانسجام النسبي مع التشيكيين مواصلين ضغطهم دائماً في سبيل الحصول على مزيد من الاستقلال ومزيد من الاحترام لحقوقهم اللغوية والثقافية . ولم تكن هناك قبل قيام هتلر ، اية حركة سياسية جدية تنشد المزيد. وكان الاشتراكيون الديموقراطيون وغيرهم من افراد الأحزاب الديموقراطية الاخرى ينالون معظم اصوات السوديت .

وعندما غدا هتلر مستشاراً في عام ١٩٣٣ ، اصابت جرثومة الاشتراكية الوطنية ، السوديت الألمان . وتألف في ذلك العام الحزب الالماني السوديتي بزعامة استاذ الرياضة الدمث الاخلاق ، كونراد هينلاين . ولم يحل عام ١٩٣٥ ، حتى كان الحزب يتلقى معونة سرية من وزارة الخارجية الألمانية بقيمة خمسة عشر الف مارك في الشهر الواحد[1]. ولم تمض سنتان حتى كان الحزب قد استأسر بغالبية السوديت الألمان ، ولم يبق خارج نطاقه إلا الاشتراكيون الديموقراطيون والشيوعيون . وعندما وقع الاتحاد مع النمسا (الانشلوس) ، كان حزب هينلاين ، الذي ظل يتلقى أوامره مدة ثلاث سنوات من برلين على استعداد لتنفيذ اوامر ادولف هتلر .

وسارع هينلاين إلى برلين بعد اسبوعين من ضم النمسا ليتلقى أوامر الفوهرر ، وفي الثامن والعشرين من آذار اختلى بهتلر مدة ثلاث ساعات وحضر المقابلة أيضاً كل من ريبنتروب وهيس . وكانت تعليمات هتلر ، كما تكشفها مذكرة وجدت بين وثائق وزارة الخارجية الألمانية تقضي بأن « يتقدم حزب الألمان السوديت بطلبات لا تكون مقبولة لدى الحكومة التشيكية » . وقد لخص هينلاين وجهات نظر الفوهرر بقوله : « علينا ان نطلب دائماً الكثير بحيث يغدو من الصعب ارضاؤنا »[2] .

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٨٥٥ .
٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية، (٢) ص ١٩٧ ـ ١٩٨

وهكذا لم تكن حالة الأقلية الألمانية في تشيكوسلوفاكيا بالنسبة الى هتلر ، إلا مجرد ذريعة كما كانت دانزيغ بالنسبة إلى بولندة بعد نحو من عام ، يطبخ عن طريقها مؤامراته في ارض تشتهيها نفسه ، ويعمل على تقويضها. مضللاً اصدقاءها وباعثاً في نفوسهم الارتباك ، ومخفياً حقيقة اهدافه . وقد اوضح هذه الاهداف في الخطاب الذي القاه في الخامس من تشرين الثاني على الزعماء العسكريين ، وفي التوجيهات الأولية للحالة الخضراء ، وحددها بالعمل على تحطيم الدولة التشيكوسلوفاكية ، واغتصاب أراضيها وسكانها لضمهم الى الرايخ الثالث . ولم يتمكن زعماء فرنسا وبريطانيا العظمى من ادراك هذا الوضع على الرغم مما وقع في النمسا . فطيلة ايام الربيع والصيف ، وحتى النهاية تقريباً ، بدا أن رئيس الوزراء تشمبرلين ورئيس الوزراء ديلاديبه قد اعتقدا جد مخلصين ، كما اعتقد بقية اهل العالم ، ان كل ما ينشده هتلر هو العدالة لأبناء شعبه في تشيكوسلوفاكيا .

ومع اقتراب فصل الصيف أخذت الحكومتان البريطانية والفرنسية تضغطان على الحكومة التشيكية لتمنح السوديت الألمان ، امتيازات واسعة النطاق . وابرق هيربرت فون ديركسين السفير الألماني الجديد في لندن في الثالث من ايار إلى برلين يقول ان اللورد هاليفاكس قد ابلغه بالخطوة التي ستخطوها الحكومة البريطانية عما قريب في براغ « هادفة إلى اقناع بنيش باظهار اقصى ما يستطيع من التساهل مع الألمان السوديت » [1] . وقام الوزيران البريطاني والفرنسي بعد اربعة ايام أي في السابع من ايار بهذه الخطوة وحثا الحكومة التشيكية ، على المضي الى اقصى الحدود « كما ذكر الوزير الالماني في برقية بعث بها الى برلين » ، لتلبية طلب السوديت . ويبدو ان هتلر وريبنتروب قد طربا اشد الطرب عندما وجدا ان الحكومتين البريطانية والفرنسية مهتمتان بالغ الاهتمام بمساعدتهما .

وكان من الضروري جداً في هذه المرحلة ، اخفاء حقيقة النوايا الألمانية . فلقد قام هينلاين في الثاني عشر من ايار بزيارة سرية للويلهلمشتراسة في برلين حيث

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٢٥٥

تلقى تعليمات من ريبنتروب ، عن الطريقة التي يضلل فيها البريطانيين عندما يصل إلى لندن في ذلك المساء لمقابلة السير روبرت فانسيتارت ، كبير المستشارين الدبلوماسيين لوزير الخارجية وغيره من الموظفين البريطانيين . وقد اعد وايزساكر مذكرة حدد له فيها المخطط الذي يسير عليه بقوله : « على هينلاين ان ينفي في لندن انه يعمل بوحي من تعليمات برلين ... وعلى هينلاين ان يتحدث أخيراً عن اطراد الانحلال في الكيان السياسي التشيكي ، ليثبط من عزائم تلك الجهات التي تعتبر أن تدخلها لحمايته ، قد يكون امراً مجدياً »[1] . وابرق الوزير الألماني المفوض في براغ في اليوم نفسه إلى ريبنتروب عن ضرورة اتخاذ الحيطة والحذر في عدم تسرب أي شيء عما تقوم به مفوضيته من تقديم الأموال والتوجيهات إلى الحزب الألماني السوديتي .

وقد قام هيوويلسون السفير الامريكي في برلين بزيارة وايزساكر في الرابع عشر من ايار ، للبحث معه في مشكلة السوديت ، وقيل له أن المانيا قلقة من ان السلطات التشيكية كانت تقوم باستفزاز متعمد للأزمة الأوروبية ، رغبة منها في محاولة الحيلولة دون « تفسخ تشيكوسلوفاكيا » . وبعد يومين أي في السادس عشر من ايار بعث الرائد شموندت ببرقية مستعجلة « وسرية للغاية » إلى مقر القيادة العامة للقوات المسلحة بالنيابة عن هتلر الذي كان يقضي فترة من الراحة والاستجمام في اوبر سالزبرغ ، يسأل فيها القيادة عن عدد الفرق الموجودة على الحدود التشيكية والتي تستطيع ان تكون « جاهزة للزحف في غضون اثنتي عشرة ساعة في حالة إعلان التعبئة العامة» . ورد المقدم زيتسلر من اركان حرب القيادة العامة فوراً بأن الفرق الجاهزة هي اثنتا عشرة . ولم يرض هتلر عن هذا الرقم . وبعث يسأل ... « ارجو ان ترسلوا لي ارقام هذه الفرق » . وسرعان ما تلقى الرد بأسماء عشر فرق للمشاة وفرقة واحدة مدرعة واخرى جبلية »[2] .

وانتاب القلق هتلر ، فهو يريد أن يعمل . وبعث في اليوم التالي أي السابع عشر برقية اخرى يسأل فيها القيادة العليا تزويده بالمعلومات الصحيحة والدقيقة

---

١ ـ مذكرة وايز ساكر ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .
٢ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .

عن التحصينات التي اقامها التشيكيون ، في جبال السوديت في الطرف القائم في بلادهم من الحدود . وكانت هذه التحصينات تعرف باسم خط ماجينو التشيكي. ورد زيتسلر ببرقية من برلين في نفس اليوم تتضمن معلومات مفصلة وسرية للغاية عن التحصينات التشيكية وقد اوضح في برقيته أن هذه التحصينات منيعة الى حد كبير [١] .

الازمة الأولى ـــ أيار ١٩٣٨

أتخذت الأزمة التي بدأت يوم الجمعة في العشرين من أيار شكلاً جاداً للغاية . وباتت تعرف فيما بعد بأزمة « أيار » . وساد الفزع حكومات لندن وباريس وبراغ وموسكو في غضون الثماني والأربعين ساعة التالية بأن أوروبا اصبحت الآن أقرب إلى الحرب من أي وقت مضى منذ صيف عام ١٩١٤ . ومن المحتمل أن يكون السبب في هذا الفزع هو أن الخطط الجديدة التي وضعتها القيادة العامة للغزو الألماني لتشيكوسلوفاكيا والتي قدمتها لهتلر ، قد تسربت في ذلك اليوم الى الخارج . ولقد ساد الاعتقاد على أي حال براغ ولندن بأن هتلر يوشك ان يشن عدواناً على تشيكوسلوفاكيا . وبدأ التشيكيون التعبئة العامة بعد أن سيطر عليهم هـــذا الاعتقاد ، كما وقفت بريطانيا وفرنسا وروسيا ، موقفاً صلباً تميَّز بالوحدة فيما بينها لمواجهة ما أعتبرته هذه الحكومات الثلاث تهديداً المانياً واقعاً لا محـــالة ، وهي وحدة لم تعد هذه الدول الثلاث الى إظهارها ، إلى أن كادت الحرب الكونية تقضي عليها .

وبعث الفريق كايتل يوم الجمعة في العشرين من أيار الى هتلر في ادبرسالزبرغ بمسوّدة جديدة للحالة الخضراء ، كان قد أعدها هو وأركان حربه بعد أن وضع لهم الفوهرر خطوطها العامة في الاجتماع الذي عقده معهم في الواحد والعشرين من نيسان . وأوضح كايتل في رسالة تنطوي على الخنوع بعث بها إلى الزعيم مرفقة بالخطة الجديدة ، ان هذه الخطة تأخذ في حسابها « الوضع الذي خلقه دمج النمسا

١ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٣) ٩ . ٣ ــ ٣١٠ .

في الرايخ الألماني » ، وأضاف انه لن يبحث في هذه الخطة مع القادة العامين للقوات المسلحة الثلاث الى أن «تكون أنت يا زعيمي قد وافقت عليها ووقعتها».

ويعتبر التوجيه الجديد للعملية الخضراء الصادر عن برلين في العشرين من أيار عام ١٩٣٨ ، وثيقة هامة وملفتة للاهتمام . انها نموذج لطراز التخطيط النازي للعدوان الذي ألفه العالم فيما بعد ... وقد بدأت الوثيقة على النحو التالي :

« لست أرمي إلى تحطيم تشيكوسلوفاكيا عن طريق العمل العسكري في المستقبل القريب بدون وجود أي استفزاز إلا إذا وقع تطور لا مناص منه ... داخل تشيكوسلوفاكيا بحيث يرغمنا على العمل ، وإلا إذا خلقت الاحداث السياسية في أوروبا فرصة مواتية بصورة خاصة ، قد لا تتكرر ثانية » [1]

ودرس التوجيه ثلاثة « احتمالات سياسية للبدء بالعمليات العسكرية »، وكان الاحتمال الأول وقوع « هجوم مفاجىء دون وجود مبرر خارجي مناسب » وقد رفضه التوجيه . ويمضي التوجيه فيتحدث عن الاحتمالين الباقيين ويقول ...

« ومن الأفضل أن تشن العمليات العسكرية إما ...

« ا — بعد فترة من الخلافات الدبلوماتية المتزايدة والتوتر المرتبط بالعمليات العسكرية التي يمكن استغلالها بحيث تلقي تبعة الحرب على العدو .

« ب — بعمل خاطف نتيجة حادث خطير ، يعرض المانيا الى استفزاز لا تستطيع تحمله ، ويبدو في عيون شطر كبير من الرأي العام العالمي على الأقل مبرراً معنوياً للاجراءات العسكرية .

« ولا ريب في أن الحالة « ب » هي أفضل من الحالة « ا » من النواحي العسكرية والسياسية » .

أما بالنسبة الى العملية العسكرية نفسها ، فقد كان من المفروض ان تحقق نجاحاً في غضون اربعة ايام من الطراز « الذي يظهر للدول المعادية التي قد ترغب

---

١ — وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٢٩٩ — ٣٠٣ .

في التدخل مدى اليأس من موقف تشيكوسلوفاكيا العسكري ، والذي يؤمن في الوقت نفسه حافزاً لتلك الدول صاحبة المصالح الاقليمية في تشيكوسلوفاكيا مدى الفائدة التي قد تجنيها من الانضمام الينا فوراً ضدها » . وكان التوجيه يعني « بهذه الدول » كلاً من المجر وبولندة ، اللتين اعتمدت الخطـــة على تدخلهما . واعرب التوجيه عن شكه في أن تفي فرنسا بالتزاماتها للتشيكيين ، وان شدد على وجوب توقـــع « المحاولات الروسية لتقـــديم العون العسكري الى تشيكوسلوفاكيا » .

ولقد كانت القيادة العليا الألمانية او كايتل وهتلر على الاقل ، على ثقة تامة من من أن الفرنسيين لن يحاربوا وان المانيا لن تحتاج إلا الى « أقل عدد ممكن من القوات لتؤمن غطاء للمؤخرة في الغرب » ، وعاد التوجيه فأكـــد « ان معظم الثقل في قواتنا العسكرية يجب ان يستخدم في غزو تشيكوسلوفاكيـــا » . واضاف « ان مهمة القسم الأكبر من الجيش مدعوماً بالسلاح الجوي تنحصر في تحطيم الجيش التشيكوسلوفاكي واحتلال بوهيميا ومورافيا في اسرع وقت ممكن » .

اذن فقد قرر التوجيه أن تكون الحرب من النوع الشامل ، وللمرة الأولى في التخطيط العسكري الألماني ، يؤكد التوجيه اهمية « الحرب الدعائية » و« الحرب الاقتصادية » ، وينص على استخدامها ضمن نطاق المخطط العسكري الشامـــل للهجوم ... وهذا ما جاء في التوجيه ...

« يجب ان تستخدم الحرب الدعائية من الناحية الأولى لإرهاب التشيكيين عن طريق التهديد ، واضعاف ما لديهم من قدرة على المقاومة . ومن الواجب من الناحيـــة الأخرى ان تؤمن الحرب الدعائية هذه للأقليات القومية الدلائل على الطريقة التي تستطيـع فيها مساعدة عملياتنا العسكرية ، والتأثير عـــلى المحايدين تأثيراً يكون في مصلحتنا .

« وتكون مهمة الحرب الاقتصادية استخدام كافـــة الموارد الاقتصادية المتوافرة لـــلاسراع في انهيـــار التشيكيين . ... ومن المهم في سير العمليات العسكرية ، ان نساعـــد في زيادة

المجهود الحربي الاقتصادي الشامل عن طريق جمع المعلومات المتعلقة بالمصانع المهمة ، وحمل هذه المصانع على العودة للعمل في اسرع وقت ممكن . وقد يكون من المهم اهمية حاسمة لنا لهذا السبب توفير المؤسسات الصناعية والهندسية التشيكية بقدر ما تسمح بذلك ظروف العمليات الحربية » .

وكان من المقدر ان يظل هذا النموذج للعدوان النازي على الشكل الذي وضع فيه دون أي تبدل ، وان يستخدم بطريقة ناجحة تبعث على الذهول ، الى ان يتمكن العالم الذي افاق من سباته من الاحساس بها .

وبعث الوزير الألماني المفوض في براغ بعد ظهر العشرين من ايار ببرقية عاجلة وسرية للغاية الى برلين يقول فيها ان وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا ابلغه هاتفياً قبيل لحظات قلق حكومته « من الانباء المزعجة عن وجود تحشدات المانية في سكسونيا » . وأضاف الوزير المفوض انه رد على محدثه نافياً وجود أي سبب يدعو فعلاً إلى القلق » ، ولكنه يرجو برلين ابلاغه فوراً إذا كان ثمة شيء من هذا القبيل .

وكانت هذه البرقية الأولى في سلسلة من الرسائل الدبلوماتية المتبادلة والمحمومة في نهاية ذلك الاسبوع ، وهي التي قدر لها أن تهز اوروبا كلها وان تبعث الخوف من ان يكون هتلر على وشك الحركة ثانية ،ومن ان حرباً عامةعلى وشك الوقوع من جراء حركة كهذه.ولا اعرف حتى الآن كيفيةالقاء ضوء صحيح على الطريقة التي وصلت فيها انباء الحشود الالمانية على حدود تشيكوسلوفاكيا إلى مخابرات كل من بريطانيا وتشيكوسلوفاكيا . وكانت هناك عدة خيوط تذروها الرياح بالنسبة الى اوروبا التي كانت لا تزال متأثرة بالهزة التي اصابتها من جراء احتلال الألمان العسكري للنمسا . ونشرت صحيفة تصدر في لايبتزيغ في التاسع عشر من ايار ، انباء عن وجود تحركات عسكرية المانية . وكان هينلاين الزعيم السوديتي قد اعلن قطع المفاوضات التي يجريها حزبه مع الحكومة التشيكية في التاسع من ايار ، وعرف أنه في طريق عودته من لندن

في الرابع عشر من ايار قد توقف في برختسغادن لمقابلة هتلر ، وانه ما زال هناك . ووقعت عدة اشتباكات اطلقت فيه النار في بلاد السوديت . وظلت حرب غوبلز الدعائية تتحدث طيلة شهر ايار عن « الفظائع التشيكية » ضد الألمان السوديت . وبدا أن التوتر يسير نحو الذروة .

وعلى الرغم من وجود بعض التحركات التي قامت بها القوات الألمانية نتيجة مناورات الربيع ولا سيما في المناطق الشرقية ، لم يعثر على أي دليل بين الوثائق الألمانية المصادرة يشير إلى وجود أي حشد جديد للقوات المسلحة على الحدود التشيكية في هذه اللحظة . وتتضمن ورقتان رسميتان ، من اوراق وزارة الخارجية الألمانية على النقيض من ذلك تأكيدات مكتومة من العقيد يودل من رجال القيادة العامة إلى الولهلمشتراسة ، بعدم وجود أية تحشدات لا في سيليزيا ولا في الأجزاء الدنيا من النمسا . وعاد يودل فأكد في رسائل لم تكن الغاية منها أن تنشر على الاوساط الاجنبية ،عدم وجود شيء من هذا النوع باستثناء « بعض المناورات السلمية العادية [١] » . ولم تكن هذه التأكيدات تعني أن الحدود التشيكية قد اخليت من الجنود الألمان ، فلقد سبق لنا أن رأينا في السادس عشر من ايار أن هتلر قد تلقى معلومات من القيادة العليا رداً على برقيته العاجلة في طلبها تفيد أن اثنتي عشرة فرقة المانية على الحدود التشيكية « على استعداد للزحف في غضون اثنتي عشرة ساعة » .

فهل كان من الممكن أن تستطيع المخابرات التشيكية أو البريطانية التقاط البرقيات التي تضمنت مثل هذه المعلومات المتبادلة ؟ وهل من الممكن أن تعلم هذه المخابرات بالتوجيه الجديد حول الحالة الخضراء ، وهو التوجيه الذي بعث به كايتل إلى هتلر في العشرين من ايار لنوال موافقته عليه ؟ لقد ابلغ الفريق كريجسي ، رئيس هيئة اركان حرب الجيش التشيكي ، العقيد توسنيت الملحق العسكري الألماني في براغ ، ان لديه براهين لا يمكن دحضها على وجود حشد يتراوح بين الثماني والعشر فرق ألمانية في سكسونيا [٢] . ولم تكن هذه الارقام

(١) وثائق وزارة الخارجية الألمانية ص ٣٠٧ — ٣٠٨

(٢) وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٢) ص ٣٠٩ — ٣١٠

عن عدد الفرق بعيدة كثيراً عن الحقيقة ، حتى ولو كانت المعلومات عن الطريقة التي اتبعت في توزيعها ، تفتقر إلى الدقـــة . على أي حال ، قرر مجلس الوزراء التشيكي ، الذي عقد جلسة طارئة بعد ظهر العشرين من ايار في قصر هرادشين في براغ ، وبرئاسة الدكتور بنيش رئيس الجمهورية ، أن يتم في الحال اجـراء تعبئة جزئية . واستدعيت إلى الخدمة فوراً ، احدى طبقات الجنود كما جرت تعبئة بعض القوات الاحتياطية . وهكذا تبين أن الحكومة التشيكية على النقيض من موقف الحكومة النمـوية ، قبل شهرين ، كانت عازمة على القتال دفاعـاً عن نفسها .

وعلى الرغم من أن التعبئة التشيكوسلوفاكية كانت جزئية ، إلا أنها اثارت سخط هتلر وهياجه، ولم تهدىء البرقيات التي تلقاها في اوبرسالزبرغ من وزارة الخارجية في برلين من ثائرته على الرغم من انهـا تتحدث اليه عن الزيارات المتكررة التي يقوم بها سفيرا بريطانيا وفرنسا محذرتين المانيا من أن العدوان على تشيكوسلوفاكيا يعني نشوب حرب اوروبية .

ولم يتعرض الألمان قط لمثل هذا الضغط الدبلوماتي الثقيل والمتكرر ، الذي لجأ اليه البريطانيون في نهاية الأسبوع . وكان السير لغيـل هندرسون ، السفير البريطاني الذي اوفـده رئيس الوزراء تشمبرلين إلى برلين ليمارس مواهبـه كدبلوماتي محترف في تهدئة هتلر وترضيته ، والذي مارسها إلى حدها الأقصى ، يواصل زيارة وزارة الخارجية الألمانية مستعلماً عن الحركات الألمانية العسكرية وناصحاً بالحذر . وليس ثمة من شك في أنه كان يدفع إلى ذلك دفعـاً من اللورد هاليفاكس ومن وزارة الخارجية البريطانية ، لأن هندرسون الدبلوماتي الدمث والمهذب ، كان كما ادرك كل انسان عرفه وعاش في برلين هذه الأيام ، لا يعطف على التشيكيين عطفاً كبيراً . ولقد قام بزيارة ريبنتروب مرتين في الواحـد والعشرين من ايار واليوم الذي تلاه ، مع انه كان من أيام الآحاد ، كما زار وزير الدولة فون وايز ساكر ، بعد أن استدعي ريبنتروب على جنـاح السرعة إلى اوبرسالزبرغ لمواجهة هتلر، وقدم الى وايزساكر هذا رسالة شخصية من هاليفاكس

يؤكد له فيها خطورة الوضع . وقام وزير الخارجية البريطانية في لندن ايضاً باستدعاء السفير الألماني على الرغم من عطلة نهاية الأسبوع ، واكد خطورة اللحظة .

ولم يفشل الألمان طيلة جميع هذه الاتصالات ، في أن يلاحظوا كما ذكر السفير فون ديركسين في برقية بعث بها بعد مقابلته لهاليفاكس ، بأن الحكومة البريطانية لم تؤكد على الرغم من ثقتها ، من أن فرنسا ستمضي إلى نصرة تشيكوسلوفاكيا ، عزمها على أن تحذو حذو فرنسا . وكان التحذير هو اقصى ما سيفعله البريطانيون ، كما أشار السفير فون ديركسين في برقيته ، استناداً إلى أقوال هاليفاكس نفسه ، إذ « يستحيل في حالة نشوب صراع اوروبي أن يتكهن المرء بعدم اضطرار بريطانيا إلى خوضها [1] » . وكان هذا بالفعل هو اقصى ما تستطيع حكومة تشمبرلين أن تمضي اليه ، حتى الوقت الذي بات معه وقف هتلر عن العدوان أمراً مستحيلاً ، وكان الانطباع السائد عند مؤلف هذا الكتاب منذ تلك اللحظة حتى النهاية ، هو أن تشمبرلين لو أبلغ هتلر بصراحة بأن بلاده ستفعل ، ما فعلته حقاً في النهاية لمواجهة العدوان النازي ، فإن الفوهرر ما كان ليقدم على تلك المغامرات التي أدت إلى الحرب الكونية الثانية ، ولا ريب في أن الوثائق الألمانية السرية التي اكتشفت فيما بعد قد ايدت صحة هذا الانطباع . ولكن هذه هي الخطيئة القاضية التي ارتكبها رئيس الوزراء الحسن النية .

* * *

وقبع ادولف هتلر في ملاذه الجبلي فوق برختسغادن ، حيث اخذت تهاجمه نوبات عصبية من جراء الاحساس العميق بالذلة الذي شعر به من عمل التشيكيين ومن التأييد الذي يلقونه في لندن وباريس وحتى في موسكو. وكان هذا الشعور السبب في نقل الديكتاتور الألماني إلى حالة مزاجية سوداء وبشعة . وقد اشتد هذا السخط اكثر فأكثر نظراً لما لقيه من اتهامات قبل اوانها من انه على وشك

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٣٢٢ ــ ٣٢٣ .

القيام بعدوان كان ينتوي فعلاً القيام به . وكان في عطلة نهاية الاسبوع تلك ، قد شرع في دراسة الخطة الجديدة التي قدمها اليه كايتل عن الحـــالة الخضراء . لكنه لم ير احتمالاً في امكان تنفيذها فوراً . وابتلع هتلر كبرياءه ، متغاضياً عنها، فأصدر أمره إلى وزارة خارجيته في برلين لإبلاغ المبعوث التشيكي يوم الاثنين في الثالث والعشرين من ايار بأن ليس لألمانيا اية نوايا عدوانية تجاه تشيكوسلوفاكيا، وان انباء تحشدات القوات الألمانية على الحدود، مختلقة ولا أساس لها من الصحة. وهدأت المشاعر في براغ ولندن وباريس وموسكو ، وتنفس زعماء الحكومات فيها الصعداء . فلقد انقضت الأزمة وأمكن التغلب عليها . وتلقى هتلر درساً ، ولا ريب في انه قد ادرك الآن ان ليس في وسعه أن ينجح في تشيكوسلوفاكيا بنفس السهولة التي نجح فيها في موضوع النمسا .

ولكن هؤلاء الساسة كانوا يجهلون طبيعة الديكتاتور النازي .

وبعد أن قضى عدة أيام اخرى مسترخياً في اوبرسالزبرغ ، كان فيهـــا فريسة غضب ساعر يتلظى في فؤاده بازدياد لتصفية حساباته مع تشيكوسلوفاكيا ومع الرئيس بنيش بصورة خاصة إذ اعتقد بأن هذا الرجل قد تمكن من اذلاله عامداً متعمداً » ، ظهر فجأة في برلين في الثامن والعشرين من ايار ، ودعـــا كبار قادة الجيش الألماني « الفيرماخت » إلى اجتماع عاجل في دار المستشارية للاستماع إلى قرار خطير . وقد اذاع هتلر نفسه سر هذا الاجتماع في خطاب القاه في الرايشتساغ بعد ثمانية اشهر إذ قال :

« لقد قررت أن اسوي مرة واحدة وإلى الأبد تسوية جذرية مشكلة السوديت . « واصدرت أمري في الثامن والعشرين من ايار:

« ١ – باتخاذ كافة الاستعدادات اللازمة للقيام بعمل عسكري ضد هذه الدولة في الثاني من تشرين الأول .

« ٢ – وببناء تحصيناتنا الدفاعية في الغرب ومدها في اسرع وقت ممكن .

« ٣ – وبتعبئة ٩٦ فرقـــة فوراً ، على أن تكون هذه هي الطليعة ...[١]

وقال يحدث الذين شهدوا هذا الاجتماع وهم غورنغ وكايتـل وبراوخيتش وبيك والاميرال ريدر وريبنتروب ونوراث بصوت كهزيم الرعد ، « لقدقررت قراراً لا رجوع عنه ، وجوب زوال تشيكوسلوفاكيا من خارطة الوجود [٢] . وهكذا ظهرت الحالة الخضراء من جديد وأُعيد النظر فيها .

وتتابع يوميات يودل ما كان يدور في عقل هتلر المحموم والمتطلع إلى الثـأر والانتقام إذ تقول :

« تبدل عزم الفوهرر على عدم تحريك المشكلة التشيكية وذلك بسبب تحشدات القوات الاستراتيجية التشيكية التي تمت في الواحد والعشرين من ايار ، دون أي سابق تهديد الماني أو مبرر . وقـد أدى موقف المانيا من كبح جماحها، إلى اصابة سمعة الفوهرر بنكسة لا يود أن يتعرض لها ثانية . ولهذا السبب فقد صدر التوجيه الجديد عن العملية الخضراء في الثلاثين من ايار [٣] » .

ولا تختلف تفاصيل التوجيه الجديد الذي وقعـــه هتلر في الثلاثين من ايار اختلافاً جوهرياً ، عن تلك الموجودة في الصيغة التي قدمت إلى هتلر قبل تسعة ايام . ولكن هناك تبدلين مهمين على الأقل . فبدلاً من العبارة الاستهلاليـة في توجيـــه الواحد والعشرين من ايار التي تقول ... « ليس في نيتي أن احطم تشيكوسلوفاكيا في القريب العاجل » ، وضعت في التوجيه الجديد العبـــارة الاستهلالية التالية : لقد قررت قراراً لا رجوع عنه تحطيم تشيكوسلوفاكيا عن طريق العمل العسكري في المستقبل القريب » .

---

١ ـ كتاب « نظامي الجديد » اعداد روسي دي سال ص ٥٦٣ .

٢ ـ شهادة فرتيز ويديرمان ـ احد المقربين من هتلر ـ المؤامرة النازية والعـدوان (٥) ص ٧٤٣ ـ ٧٤٤

٣ ـ يوميات يودل ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٨) ص ٣٧٢

وقد شرح كايتل ما يعنيه بعبارة « المستقبل القريب » في رسالة مرفقة ضمنها أمره الذي قال فيه : « أن تنفيذ العملية الخضراء يجب أن يتم في الأول من تشرين الأول عام ١٩٣٨ على اكثر تقدير [١] » .

وكان هذا التاريخ هو الذي تمسك به هتلر بتصميم واصرار رغم كل الظروف والأحوال ، ورغم الازمان المتعاقبة والوصول إلى شفير الحرب .

تردد القادة العسكريين

سجل يودل في يومياته أن هتلر قد وقع التوجيه الجديد في الثلاثين من ايار وأن هذا التوجيه المتعلق بالعملية الخضراء ، كان يتطلب « التوغل فوراً في تشيكوسلوفاكيا في اليوم المقرر وأن النوايا السابقة للجيش يجب ان تتبدل تبدلاً اساسياً ومهماً ». ثم اضاف يودل العبارة التالية :

« ويبدو الخلاف حاداً من جديد بين حدس الفوهرر بأن علينا أن نقوم بهذا العمل في هذا العام وبين رأي الجيش في أننا لا نستطيع القيام به حتى الآن وذلك بسبب ثقته من أن الدول الغربية ستتدخل ، ومن أننا لم نصبح بعد متكافئين معها في القوة » [٢].

وهكذا نرى ان هذا الضابط الركن من ضباط « الفيرماخت » والمتميز بقدرته على تمييز الأمور والاحساس بها ، وقد وضع اصبعه على الخلاف الجديد بين هتلر وبين عدد من كبار الفرقاء في الجيش. وكان الفريق لودفيغ فون بيك رئيس هيئة اركان حرب الجيش هو الذي يتولى زعامة المعارضة لخطط هتلر الضخمة والمتطلعة للعدوان ، وقد قدر لهذا القائد أن يمثل منذ تلك اللحظة قيادة حركات المقاومة للفوهرر في الرايخ الثالث . وقدر لهذا القائد الشديد الاحساس والمتقد

---

١ ــ الفقرة الثانية من العملية الخضراء ــ المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٣١٥ ــ ٣٢٠

٢ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٣٦٠ ــ ٣٧٠

الذكاء ، والكثير النزاهة على الرغم من افتقاره للتصميم ان يركز نضاله ضد الدكتاتور النازي على اسس عامة . وهكذا نرى بيك في ربيع عام ١٩٣٨ وبعد اكثر من اربعة اعوام من الاشتراكية الوطنية يعارض الفوهرر على اسس احترافية ضيقة في أن المانيا لم تغد بعد على درجة من القوة تمكنها من مواجهة الدول الغربية وروسيا ايضاً .

وقد سبق لنا أن رأينا كيف أن بيك قد هلل لمجيء هتلر إلى الحكم ، وكان قد اطراه بصورة علنية لقيامه بانشاء الجيش الألماني المجنّد تحدياً لمعاهدة فرساي. وجدير بنا ان نذكر ، أن بيك كان في عام ١٩٣٠ ، كما روينا من قبل ، قداندفع وهو القائد المغمور لإحدى الكتائب يدافع عن ثلاثة من ضباطه وجهت اليهم تهمة الخيانة وانهم يدعون الى النازية في صفوف الجيش ، ثم مضى يشهد تأييداً لهم امام المحكمة العليا ، بعد ظهور هتلر على منصة الشهادةوتحذيره من انرؤوساً كثيرة « ستتطاير وتتدحرج »عندما يصل الى الحكم . ولم يكن عدوان هتلرعلى النمسا هو الذي اوضح معالم الطريق امام هذا القائد ، وذلك لأنه قد ايد هذا العدوان، بل كان تدحرج رأس الفريق فون فريتشه (تدحرج مجازي ليس إلا) بعد المؤامرة التي لفقتها الغستابو عليه ، هو الذي انار له فكره . وانطلق هذا الفكر من الشباك التي لفته ليدرك أن سياسة هتلر في المجازفة عن عمد بخوض الحرب ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا على الرغم من نصيحة كبار قادته العسكريين ستؤدي إن نفذت إلى دمار المانيا .

وكان بيك قد سمع بالاجتماع الذي عقده هتلر مع كايتل في الواحد والعشرين من نيسان ، والذي صدرت إبانه التعليمات إلى « الفيرماخت » للاسراع في وضع الخطط لمهاجمة تشيكوسلوفاكيا ، فبعث في الخامس من ايار بأول مذكرة من سلسلة متعاقبة من المذكرات إلى الفريق فون براوخيتش القائد العام الجديد للجيش ، يعارض فيها بشدة في القيام بمثل هذا العمل [1] . وتعتبر هذه الرسائل متناهية في الذكاء والاشراق ، وحاشدة بالحقائق المرة والمنطق السليم والجدل

---

١ ـــ وولفغانغ فوريستر ـــ ص ٨١ ـــ ١١٩ .

المقنع. وعلى الرغم من ان بيك قد غالى في الحديث عن قوة العزيمة عند بريطانيا وفرنسا ، وعن الدهاء السياسي عند قادتها وعن قوة الجيش الفرنسي ، واقام في النهاية الدليل على الخطأ من تقدير ما ينجم عن المشكلة التشيكية ، إلا ان السلسلة الطويلة من تكهناته ، اثبتت فيما بعد ، فيما يتعلق بألمانيا على انها دقيقة كل الدقة .

وقد أوضح بيك في مذكرته المؤرخة بالخامس من أيار ، انه مقتنع كل القناعة من أن الهجوم الألماني على تشيكوسلوفاكيا سيستثير حرباً أوروبية ، تقف فيها بريطانيا وروسيا وفرنسا موقف المعارضة لألمانيا ، وتلعب فيها الولايات المتحدة دور مستودع السلاح للديموقراطيات الغربية . وأضاف أن المانيا عاجزة عن أن تكسب حرباً كهذه . فمجرد افتقارها الى المواد الأولية وحدها ، يجعل النصر أمراً مستحيلاً عليها . وراح يؤكد أن وضع المانيا من وجهة نظر الاقتصاد الحربي ، اسوأ بكثير مما كان عليه في عام ١٩١٧ - ١٩١٨ ، عندما بدأ انهيار جيوش القيصر .

وكان بيك بين القادة العسكريين الذين استدعاهم هتلر في الثامن والعشرين من ايار إلى مستشارية الرايخ بعد « ازمة ايار » ليستمعوا إلى زوبعته الكلامية وهو يعلن لهم عزمه على محو تشيكوسلوفاكيا من خارطة الوجود في الخريف القادم . وقد دون ملاحظاته الدقيقة على خطاب الفوهرر ، وأعد بعد يومين ، أي في نفس اليوم الذي كان فيه هتلر يوجه توجيهه الجديد للعملية الخضراء ، الذي حدد موعد الهجوم بالأول من تشرين الأول ، مذكرة اقسى وأشد من مذكرته السابقة ، بعث بها إلى براوخيتش ، ينتقد فيها برنامج هتلر نقطة إثر أخرى . واراد بيك أن يضمن تفهم قائده العام المعروف بجذره ، للمذكرة تمام التفهم ، فراح يتلوها على مسامعه بصورة شخصية . وعاد يؤكد في النهاية لبراوخيتش الضحل في تفكيره ، والشقي في وضعه ، ان ثمة أزمة في « قمة القيادة العسكرية » أدت إلى الفوضى ، وانه ما لم يكن في الامكان التغلب عليها فان مصير الجيش بل ومصير المانيا كلها ، يغدوان معرضين للخطر . وبعد بضعة أيام ، أي في

في الثالث من حزيران ، بعث بيك بمذكرة أخرى إلى براوخيتش أعلن له فيها ان التوجيه الجديد المتعلق بالعملية الخضراء ، غير سليم من الناحية العسكرية ، وان هيئة الأركان العامة للجيش ترفضها تمام الرفض .

لكن هتلر أصر على خطته . وحسر ملف « العملية الخضراء » الذي وقع في أيدي الحلفاء بعد الحرب النقاب عن الهوس الذي بلغ حد الجنون والذي نما في نفس هتلر مع تقدم فصل الصيف . وأصدر أمره بتقديم موعد مناورات الخريف المعتادة حتى يكون الجيش على أهبة للهجوم . وأوصى باجراء تمارين خاصة على « اقتحام الحصون عن طريق الهجوم المباغت ». وتلقى الفريق كايتل التعليمات اللازمة بأن« الفوهرر يؤكد باستمرار ضرورة الإسراع في أعمال التحصين في الغرب » . وطلب هتلر في التاسع من حزيران معلومات أخرى عن تسلح تشيكوسلوفاكيا ، وسرعان ما تلقى تقريراً مفصلاً عن جميع الاسلحة التي يستعملها التشيكيون ، خفيفة كانت أو ثقيلة . وراح يسأل في نفس اليوم ... هل ما زالت التحصينات التشيكية ، تفتقر إلى القوات الدفاعية الكبيرة ؟ » . وكانت معنوياته وهو في ملاذه الجبلي حيث قضى الصيف محاطاً بالمداهنين والمدلسين ، ترتفع وتهبط ، مع ما يرافق احلامه عن الحرب من ارتفاع وهبوط. واصدر في الثامن عشر من حزيران توجيهاً عاماً جديداً عن « العملية الخضراء » .

« ليس ثمة من خطر في نشوب حرب وقائية ضد المانيا ... .
ولن أقرر القيام بعمل ضد تشيكوسلوفاكيا إلا إذا غدوت مقتنعاً كل الإقتناع... من أن فرنسا لن تزحف وان انكلترا لن تتدخل».

ومع ذلك فقد راح هتلر في السابع من تموز يحلل « الاعتبارات » عما يجب أن يفعله في حالة تدخل فرنسا وبريطانيا . ويقول أن « الإعتبار الاساسي » هو « الصمود في التحصينات الغربية » إلى أن يتم تحطيم تشيكوسلوفاكيا ويصبح في الامكان نقل القوات بسرعة إلى الجبهة الغربية . أما الحقيقة الواقعة وهي أن ليست لديه قوات متوافرة للحفاظ على التحصينات الغربية ، فلا تقحم نفسها على تفكيره المحموم . وهو يرى « أن روسيا قد تتدخل في الغالب » كما انه ما زال

في شك من أن بولندة قد تتدخل كذلك . وهو يقول أن من الضروري مواجهة هذه الاحتمالات ولكنه لا يشرح كيفية مواجهتها .

ويبدو أن هتلر وقد اعتزل بعض العزلة في أوبرسالزبرغ لم يكن قد أستمع بعد إلى دمدمات الاعتراض تصدر عن كبار دهاقنة هيئة أركان الحرب . فعلى الرغم من انهمار سيل المذكرات التي كتبها بيك على قائده براوخيتش ، إلا أن رئيس هيئة أركان الحرب ، بدأ يدرك في أواسط الصيف أن قائده العام المتردد وغير المستقر كان لا ينقل آراءه إلى مسامع الفوهرر . ولهذا فلم يحل منتصف شهر تموز حتى كان بيك قد صمم على القيام بآخر محاولة يائسة لإثارة ما يريد قوله بطريق أو بآخر وراح يقدم في السادس عشر من تموز آخر مذكرة منه إلى براوخيتش ، طالباً فيها أن يقوم الجيش بابلاغ هتلر وجوب وقف إعداداته للحرب . وقال :

« وادراكاً مني كل الادراك لضخامة مثل هذه الخطوة مع تفهمي الكامل لمسؤولياتي ، اجد من واجبي ان اطلب بمنتهى الجد ، من القائد الأعلى القوات المسلحة (هتلر) وقف ما يقوم به من اعداد للحرب ، والتخلي عن نواياه في حل المشكلة التشيكية بطريق العنف ، الى ان يتبدل الموقف العسكري تبدلاً اساسياً . وإنني لأعتبر أن من غير المجدي في الوقت الحاضر ، القيام بعمل كهذا ، ويشاركني في رأيي هذا جميع كبار ضباط هيئة أركان الحرب » .

وحمل بيك مذكرته شخصياً الى براوخيتش ، داعماً إياها بحديثه الشفوي ، وبإقتراحاته التي قدمها لاتخاذ عمل موحد من جانب قادة الجيش في حالة وقوف هتلر موقف الإصرار على رأيه . واقترح بصورة محددة ان يقوم كبار القادة العسكريين في مثل هذه الحالة بالاستقالة من مناصبهم فوراً . وأثار للمرة الأولى في حياة الرايخ الثالث ، قضية قدر لها فيما بعد ان تسيطر على محاكمات نورمبرغ وهي هل يدين الضابط بولاء اسمى من الولاء الذي يدين به للفوهرر ؟ وقد حاول عشرات القادة العسكريين في نورمبرغ تبرير جرائمهم الحربية بالرد على هذا

السؤال رداً سلبياً ، والقول بأن واجبهم كان يحتم عليهم اطاعة الأوامر . أما بيك فقد رأى في السادس عشر من تموز رأياً آخر ، وقدر له أن يدافع عنه دون نجاح ، في غالب الأحايين حتى النهاية . فلقد ذكر أن ثمة حدوداً لولاء الجندي لقائده الأعلى ، ولا سيما في الحالات التي يحول فيها الضمير والفهم والمسؤولية دون تنفيذ الأوامر . وقال انه يحس بأن القادة العسكريين قد وصلوا الى تلك الحدود. فاذا اصر هتلر على الحرب فإن واجبهم ان يستقيلوا دفعة واحدة . واضاف ان الحرب تغدو مستحيلة في مثل هذه الحالة نظراً لافتقار الجيش إلى من يتولى قيادته .

وكان رئيس هيئة اركان حرب الجيش الألماني قد بلغ الآن مرحلة من الإثارة لم يسبق له أن بلغها في الماضي طيلة حياته . فالمقاييس تنهار أمام ناظريه .ورأى أخيراً ان ما تتعرض له الأمة الألمانية من خطر ، يفوق مجرد احباط ما يفكر به انسان مهووس يتولى رئاسة الدولة ، ويعتزم مدفوعاً بغلّه وانفعالاته الى مهاجمة دولة صغيرة مجاورة معرضاً العالم كله الى خطر الوقوع في حرب عظمى . وتألقت في عقل هذا القائد الذي كان في يوم ما مغالياً في حماسه للنازية الحقيقة المرة ، وهي ان حماقات الرايخ الثالث وطغيانه وإرهابه والفساد المستشري فيه كلها ناجمة عن شيء واحد ، وهي ازدراؤه للقيم المسيحية . ومضى هذا القائد بعد مضي ثلاثة ايام اخرى ، أي في التاسع عشر من تموز، الى براوخيتش ليتحدث اليه من جديد ، عن هذه الرؤيا التي تسلطت عليه .

واصر هذه المرة ، لا على مجرد اضراب القادة العسكريين ليحولوا بين هتلر وبين شن الحرب بل وعلى وجوب الاسهام في تطهير الرايخ الثالث . فمن الواجب تحرير الشعب الألماني والفوهرر نفسه من إرهاب الحرس النازي ، وقادة الحزب . ومن الواجب كذلك إعادة الدولة والمجتمع اللذين يتحكم فيهما القانون . ولخص بيك برنامجه الاصلاحي من النقاط التالية :

« تأييد الفوهرر ومعارضة الحرب ومقاومة تحكم زعماء الحزب، والتفاهم مع الكنيسة ، وضمان حرية التعبير عن الرأي ، وإنهاء

إرهاب الأجهزة السرية ، وإعادة قواعدالعدل ، وتخفيض التبرعات للحزب بمعدل النصف ، والتوقف عن بناء القصور الجديدة ، وبناء المنازل لعامة الشعب والمزيد من الاستقامة والبساطة البروسيتين».

وكان بيك على درجة من السذاجة السياسية بحيث فشل في أن يدرك ان هتلر نفسه ، هو المسؤول قبل غيره عن جميع الأوضاع التي تسود المانيا اليوم والتي يثور هو عليها . لكن مهمة بيك الفورية انطوت على مواصلة الالحاف على براوخيتش المتردد لتقديم انذار نهائي باسم الجيش الى هتلر ، طالباً اليه وقف ما يقوم به من اعداد للحرب . ورتب رغبة منه في إنجاح هدفه ، عقد اجتماع سري لكبار فرقاء الجيش وقادته في الرابع من شهر آب ، وأعد خطاباً حماسياً رأى ان يلقيه قائد الجيش ، حاشداً وراءه جميع الفرقاء في اصرار واحد ومشترك على ان لا تكون هناك مغامرات نازية تؤدي الى الصراع المسلح . ولكن من سوء حظ بيك ان براوخيتش كان يفتقر إلى الشجاعة لإلقاء هذا الخطاب . واقتنع بيك بأن يتلو مذكرته التي قدمها في السادس عشر من تموز والتي تركت انطباعاً عميقاً في نفوس معظم الفرقاء. ولم يتخذ أي إجراء حاسم، وانفض اجتماع كبار قادة الجيش الالماني ، دون ان يجدوا الجرأة الكافية لاستدعاء هتلر للحساب ، كما فعل اسلافهم من قبل مع اباطرة الهوهنزولرن ومستشاري الرايخ .

وتدرع براوخيتش بالشجاعة الكافية ليعرض مذكرة بيك المؤرخة في السادس عشر من تموزعلى انظار هتلر. وتمثل رد فعل هتلر ، لا في دعوة الفرقاء المعارضين الذين يدعمون هذه المذكرة إلى الإجتماع به ، وانما في دعوة الضباط الشبان الذين يلونهم في الرتبةمن كبار رجال اركان الحرب فيمختلف قيادات الجيش والطيران الذين يؤلفون الفئة التي يؤمن بامكان الإعتماد عليها بعد اقناع أفرادها بخطاب يضمنه حججه المقنعة . وهكذا استدعى هتلر هؤلاء الضباط إلى «عش النسر» في العاشر من آب إذ لم يكن قد غادر دارته الجبلية طيلة الصيف ، وراح بعد انتهاء العشاء يلقي عليهم خطاباً ، ذكر يودل الذي كان واحداً منهم في يوميته

الصادقة انه استغرق نحواً من ثلاث ساعات . ولكن بلاغة الفوهرر خانته هذه المرة ، فلم يكن مقنعاً في خطابه كما كان ينتظر ويتوقع . فلقد تحدث كل من يودل ومانشتاين اللذين شهدا الإجتماع أيضاً فيما بعد ، عن « تصادم خطير ومؤلم » وقع بين الفريق فون ويترشايم وبين هتلر . وكان ويترشايم هذا أعلى الحاضرين رتبة ، وبوصفه رئيس أركان حرب جيش الغرب الذي يقوده الفريق ويلهلم آدم ، تجرأ على الحديث عن المشكلة الأساسية التي كان هتلر والقيادة العليا للقوات المسلحة يتجنبان الخوض فيها ، وذكر انه في حالة انشغال كافة القوات العسكرية في توجيه الضربة إلى تشيكوسلوفاكيا ، فان المانيا تصبح عاجزة عن الدفاع في الغرب ، ويغدو في مكنة الفرنسيين اجتياحها . وراح يؤكد أن « الجدار الغربي » لا يستطيع الصمود في الحقيقة اكثر من ثلاثة اسابيع ،ويروي يودل في يومياته قائلاً :

« واشتد غضب الفوهرر ، واتقدت عيناه بلهب ساعر من الثورة وراح يتفجر قائلاً أن الجيش كله في هذه الحالة ، لن يكون صالحاً لأي شيء . وارتفع صوت هتلر قائلاً ... « انني أود أن أقول لك يا حضرة الفريق ، أن مواقعنا لن تصمد لثلاثة اسابيع فقط ، بل لثلاث سنوات ! [1] » .

ولكنه لم يشرح كيف تتمكن هذه المواقع من الصمود . وكان الفريق آدم قد نقل إلى اجتماع كبار القادة الذي عقد في الرابع من آب ، أن خمس فرق فقط ستكون تحت أمرته . وان في مكنة الفرنسيين التغلب عليها حتماً . ومن المفروض أن يكون ويترشايم قد قدم نفس الرقم إلى هتلر ، ولكن الفوهرر لم يكن على استعداد للاستماع . أما يودل فعلى الرغم من براعته كضابط ركن إلا انه كان واقعاً في هذه الآونة تحت سيطرة سحر الزعيم ، ولذا فقد غادر الاجتماع وقد سيطر عليه الأسى العميق ، لأن القادة لم يحاولوا فهم عبقرية هتلر ، وراح يكتب في يومياته :

---

١ ــ يوميات يودل ــ محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٨) ص ٣٧٤

« والسبب في هـذا الرأي اليائس – رأي ويترشايم – الذي يحمله أكثر ضباط الأركان، يرتكز إلى أسس عدة .

« فهيئة الاركان العامة من الناحية الأولى ترى نفسها مقيدة بذكرياتها القديمة وتشعر بنفسها مسؤولة عن القرارات السياسية بدلاً من أن تحصر نفسها في حدود الطاعة وتنفيذ الواجبات العسكرية . وهي تتظاهر بالطاعة بما عرف عنها من ولاء تقليدي، ولكنها تفتقر إلى حماس الروح ، لأنها في النهاية لا تقر بعبقرية الفوهرر، مع أن في وسع الإنسان أن يقرن بينه وبين شارل الثاني عشر .

« وينجم عن هذه الروح الإنهزامية شيء واحد أكيد وثابت ، لا يقل في تأكيده عن الثقة بانسياب المياه من الاماكن العالية إلى الأماكن المنخفضة ، وهو حدوث ضرر سياسي بالغ . فالجميع يتحدثون الآن عن تقارب الآراء بين القادة العسكريين وبين الفوهرر مما يترك أثراً خطراً على معنويات الجنود . ولكنني واثق كل الثقة من أن الفوهرر سيكون قادراً على التحليق بمعنويات الشعب عندما تحل اللحظة الحاسمة [1] » .

وكان في وسع يودل ان يقول ايضاً أن هتلر كان قادراً على إخماد روح الثورة عند الفرقاء : ولقد ذكر مانشتاين أمام محكمة نورمبرغ في عام ١٩٤٦ ، ان هذا الإجتماع كان الأخير من نوعه ، إذ لم يسمح هتلر بعده بأي سؤال او نقاش من ناحية العسكريين [2] . ففي العرض العسكري الذي جرى في الخامس عشر من آب ، راح هتلر يؤكد من جديد للفرقاء بأنه مصمم كل التصميم على « حل المشكلة التشيكية بالقوة » ولم يجرؤ ضابط واحد ، على التفوّه بعبارة واحدة تحمل معنى المعارضة .

ورأى بيك انه قد هزم ، وان هزيمته نتجت عن جبن إخوانه الضباط ،

١ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٨) ص ٣٧٤ .

٢ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٠) ص ٦٠٦ .

فقدم في الثامن عشر من آب استقالته من منصبه كرئيس لهيئة أركان حرب الجيش ، وحاول ان يقنع براوخيتش باحتذاء حذوه ، ولكن قائد الجيش ، وكان قد وقع الآن اسيراً لسلطان هتلر المغناطيسي ، ومتأثراً ولا شك بحماس المرأة التي يوشك على الزواج منها للنازية [١] ، رفض ان يتضامن مع مرؤوسه . وقال هاسيل مشيراً اليه : « لقد رفع براوخيتش ياقة بزته العسكرية الى الاعلى وقال .. إنني جندي ، وان من واجبي أن أطيع » [٢] .

وكان من المألوف ان تؤدي استقالة رئيس هيئة اركان الحرب في خضم اية ازمة من الازمات ولا سيما اذا كان من الطراز المحترم كل الإحترام كالفريق بيك، الى قيام عاصفة في الدوائر العسكرية ، وان تترك نتائج واختلاطات اخرى في الخارج . ولكن هتلر اظهر مواهبه ودهاءه مرة ثانية . وعلى الرغم من أنه قبل استقالة بيك فوراً ، وبكثير من الارتياح ، إلا أنه أصدر الأمر بمنع الحديث عنها في الصحف أو حتى في صحيفة الجيش الرسمية او صحيفةالحكومة الرسمية، واوعز الى الفريق المتقاعد وزملائه الضباط بالاحتفاظ بالسر لأنفسهم ، فليس من المفيد في شيء ان يسمح للحكومتين البريطانية والفرنسية بمعرفة أي شيء عن وقوع خلاف في قمة الجيش الألماني في هذه الحالة الحرجة ، ومن الممكن ان تظل باريس ولندن على جهل بالموضوع حتى نهاية شهر تشرين الأول ، حتى يذاع أمر هذه الإستقالة بصورة رسمية من برلين . ولو سمعت هاتان العاصمتان بشيء من ذلك ، لكان في وسع الانسان ان يتصور ، بأن التاريخ كان ولا بد وان يتجه اتجاهاً مغايراً ، وان لاتمضيا في سياسة ترضية الفوهرر الى ذلك الحد .

ولم يحاول بيك نفسه ، مدفوعاً بشعور من الوطنية والولاء للجيش ان يقوم بأي جهد لذيوع هذا النبأ ، والوصول إلى آذان الجمهور . ولكنه شعر بالكثير من خيبة الأمل لأن أياً من الضباط الفرقاء ، الذين كانوا قد شاركوه الرأي ،

١ـ صدر القرار بطلاق الفريق فون براوخيتش من زوجته الاولى في الصيف ، وفي الرابع والعشرين من ايلول تزوج الآنسة شارلوث شميدت .

٢ـ يوميات فون هاسيل ص ٦ .

ودعموه في معارضة الحرب ، لم يشعر بالواجب في ان يحذو حذوه ويستقيل من منصبه . ولم يحاول الرجل اقناعهم بذلك . فلقد كان كما قال عنه هاسيل فيما بعد « كلوسوتيز مجرداً ، دون ان تكون فيه أية لمحة من لمحات بلوخر أو يورك »[١] أي أنه رجل مبدأ وفكر لا رجل عمل . وقد أحس بأن براوخيتش ، بوصفه قائداً عاماً للجيش قد خانه وتخلى عنه في لحظة حاسمة من لحظات التاريخ الألماني ، وقد اثار هذا حفيظته ، وألهب سخيمة الحقد عنده . ولاحظ مؤرخ حياة بيك وصديقه بعد سنوات طويلة شعور القائد العميق بالمرارة ، كلما حاول ان يتحدث عن قائده السابق . فهو في مثل هذه الحالات ، كان يهتز عادة من شدة الهياج والتأثر ويتمتم قائلاً ... « لقد تركني براوخيتش في مأزق »[٢]

وخلف بيك في منصبه كرئيس لهيئة أركان الحرب ، جنرال يدعى فرانزهولدر ، وهو يبلغ الرابعة والخمسين من عمره وينتمي إلى أسرة عسكرية بافارية إذ كان والده فريقاً من قبله . لكن أمر هذا التعيين ظل سراً حافظ عليه هتلر عدة أسابيع إلى أن انتهت الأزمة . وقد نشأ هولدر كضابط مدفعي ثم عمل كضابط صغير بين أركان حرب ولي العهد الأمير روبرخت ، في الحرب الكونية الأولى ، وعلى الرغم من انه كان صديقاً لروهم في أيام ميونيخ التي تلت الحرب الكونيه الأولى ، مما كان من المحتمل أن يعرضه لشيء من الشك في برلين، إلا أنه ارتقى بسرعة في الجيش إلى أن بلغ خلال عام واحد منصباً خوله لأن يغدو نائباً لبيك في رئاسة أركان الحرب . وقد أوصى به بيك إلى براوخيتش ليخلفه في منصبه إذ كان واثقاً من أن نائبه كان يشاطره آراءه .

وهكذا كان هولدر أول بافاري وأول كاثوليكي يصل إلى هذا المنصب مما يعتبر خروجاً على التقليد البروسي البروتستانتي العريق في فيلق الضباط . وكان هذا الرجل ، شغوفاً بالأمور الفكرية والادراكية ، ميالاً إلى الرياضيات وعلم النبات ، وكان أول انطباع لي عنه أنه يبدو كاستاذ جامعي للرياضيات أو

---

١ ــ يوميات فون هاسيل ص ٣٤٧

٢ ــ وولفغانغ فويرستر ــ « جنرال يكافح ضد الحرب » ص ١٢٢

العلوم ، كما كان مسيحياً متديناً ، ولذا لم يكن ثمة من شك في انه سيكون في في عقله وروحه ، خير خلف لبيك . وكان السؤال الذي يخطر على البال ، هو هل كان هولدر كسلفه الذاهب يفتقر إلى الفراهة والموهبة في اتخاذ الخطوات الحاسمة في اللحظة المناسبة . أو إذا لم يكن مفتقراً اليهما في ذلك الوقت ، هل كانت لديه الشخصية الجديرة بتجاهل قسم الولاء للفوهرر الذي اقسمه وبالقيام بعمل حازم تجاهه . فلقد كان هولدر مثل بيك ، على الرغم من أنه لا ينتمي إلى عضوية المؤامرة الناشئة ضد هتلر ، يعرف شيئاً عنها ، وكان على الغالب كبيك أيضاً ، على استعداد لدعمها ومساندتها . وهكذا فقد غدا بوصفه الرئيس الجديد لهيئة أركان الحرب ، الشخصية الهامة التي تلتف حولها المؤامرة الجدية الأولى التي تهدف إلى الاطاحة بالديكتاتور في الرايخ الثالث .

ولادة مؤامرة على هتلر

أتضح بعد خمس سنوات ونصف السنة من الاشتراكية الوطنية للقليلين من الألمان الذين قاوموا هتلر ، أن الجيش كان الهيئة الوحيدة التي تملك القوة الفعلية للاطاحة به . أما فئة العمال والطبقتان الوسطى والعليا فلم تكن كلها تملك الوسائل لذلك حتى ولو ارادت الاطاحة به . فلم يكن لأي من افراد هذه الطبقات أية منظمات خارج نطاق الحزب النازي ، وكانوا بالطبع يفتقرون إلى السلاح . وعلى الرغم من الكثير الذي كتب فيما بعد عن حركة المقاومة الألمانية ، إلا أنها ظلت منذ البداية حتى النهاية شيئاً تافهاًوضعيفاً ، تقودها حفنة من الرجال الشجعان والشرفاء ، وتفتقر إلى الأتباع والأعوان .

وكان مجرد الإحتفاظ بوجودها عارياً ، يعتبر أمراً شاقاً في دولة بوليسية يتحكم فيها الإرهاب واعمال التجسس . يضاف إلى هذا ، كيف يمكن لمجموعة صغيرة حتى ولو لمجموعة كبيرة لو وجدت، أن تعلن الثورة ضد المدافع الرشاشة والدبابات وقاذفات اللهب التي يملكها الحرس النازي ؟

وكانت المعارضة التي يواجهها هتلر في البداية تنبع من أوساط المدنيين ، إذ كان الفرقاء العسكريون كما رأينا ، فرحين كل الفرح بهذا النظام الذي حطم قيود معاهدة فرساي ، واتاح لهم المهمة التقليدية لبناء هذا الجيش العظيم مرة ثانية . ومن المضحك أن كبار المدنيين الذين ظهروا في قيادة المعارضة قد تولوا في خدمة الفوهرر مناصب مهمة ، وكانوا على الغالب ينطوون في البداية على حماس مبدئي للنازية ، ثم ما لبث أن ضعف عندما شرعوا يدركون في عام ١٩٣٧ أن هتلر يقود المانيا إلى حرب كان من المؤكد تماماً انها ستخسرها .

وكان من اوائل هؤلاء المعارضين كارل غويرديلر ، رئيس بلدية لايبزيغ الذي كان براونينغ قد عينه مراقباً للأسعار ثم استمر يعمل في هذا المنصب ثلاث سنوات اخرى في ظل هتلر . وكان هذا الرجل محافظاً وميالاً للملكية في قرارة فؤاده . كما كان بروتستانتياً متديناً عرف بالكفاية والحماس والذكاء ، مع شيء من العناد وعدم التحفظ ، وكان اول خلاف له مع النازيين عام ١٩٣٦ على موضوع مناهضة السامية وموضوع سياسة التسلح المهووسة ، ولذا فقد استقال من منصبيه ومضى يعمل بكل ما في قلبه وروحه من عزيمة في معارضة هتلر . وكان من اول أعماله ارتحاله الى فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة في عام ١٩٣٧ ، ليحذر هذه الدول الثلاث سراً من خطر المانيا النازية .

واتضح النور بعد فترة أُخرى الى متآمرين مهمين آخرين هم جوهان بوبتيز وزير مالية بروسيا والدكتور شاخت . وكان كل من الرجلين قد تلقى ارفع وسام للحزب النازي وهو شريط الشرف المذهب ، تقديراً لما بذلاه من جهود في تطوير الاقتصاد الألماني لتحقيق الاغراض الحربية . وقداستفاق الرجلان ليدركا حقيقة ما يهدف اليه هتلر في عام ١٩٣٨ . ولم تكن حلقات المعارضة الداخلية لتثق بأي من الرجلين بالنسبة الى ماضيهما والى شخصيتهما . فلقد كان شاخت من كبار الانتهازيين ، وقد لاحظ هاسّيل في يومياته ان رئيس مصرف الرايخ كان ذا قدرة على « الحديث من زاوية والعمل من زاوية اخرى » ، وهو رأي كان يشترك فيه كما يقول هاسّيل كل من الفريقين بيك وفون فريتشه . وكان بوبيتز في

منتهى الذكاء ولكنه يفتقر الى الثبات والاستقرار . وقد انتمى بوصفه من الضليعين بلغة الإغريق وآدابها ، ومن كبار رجال الاقتصاد البارزين الى نادي الأدباء الذي يضم ستة عشر رجلاً مثقفاً بينهم الفريق بيك وهاسيل ، يجتمعون مرة في الاسبوع للنقاش في شؤون الفلسفة والتاريخ والفن والعلم والأدب ، والذين الفوا مع مضي الزمن مركزاً من مراكز المعارضة الرئيسية لهتلر .

واصبح اولريخ فون هاسّيل مستشاراً في الشؤون الخارجية لزعماء المقاومة. وكانت البرقيات التي بعث بها وهو يتولى منصب السفير في رومة إبان الحرب الحبشية والحرب الأهلية الإسبانية طافحة كما رأينا من قبل ، بالنصائح الى برلين عن الطريقة التي يجب اتباعها للابقاء على ايطاليا في حالة من الإشتباك مع فرنسا وبريطانيا لضمان بقائها الى جانب المانيا . وسرعان ما بات يخشى من أن تكون الحرب مع فرنسا وبريطانيا قاضية على المانيا وان يكون الحلف بين المانيا وايطاليا قاضياً عليها ايضاً . وعلى الرغم من ان ثقافته العالية كانت تحتم عليه ان لا يحمل سوى مشاعر الإزدراء لرخص الإشتراكية الوطنية وتفاهتها ، إلا انه مع ذلك لم يتخل طائعاً مختاراً عن العمل في خدمة العهد . وقد طرد من السلك السياسي في حركة التطهير الكبرى التي قام بها هتلر في الرابع من شباط عام ١٩٣٨ والتي تناولت المناصب الكبرى في ميادين السياسة والشؤون الخارجية والشؤون العسكرية . ويبدو ان هذا الرجل بوصفه منتمياً إلى أسرة من أسر النبلاء العريقة في هانوفر ، وزوجاً لكريمة الأميرال الأكبر تيربتيز منشىء الاسطول الألماني ، وسيداً مهذباً من افراد المدرسة القديمة التي يعود اليها من رأسه الى أخمص قدميه ، كان في حاجة كالكثيرين من أبناء طبقته إلى التعرض للصدمة العنيفة التي أحس بها من جراء طرد النازيين له ، قبل ان يغدو كثير الإهتمام بالقيام بعمل للاطاحة بعهدهم . ولكن طالما وقع هذا التطور ، فان هذا الرجل الحساس المثقف والصعب العود ، كرس نفسه الآن لهذه المهمة ، كما ضحى في النهاية كما سنرى بحياته في سبيلها ، مواجهاً نهاية هي غاية في الوحشية .

وكان هناك آخرون ، أقل من هؤلاء شأناً واصغر عمراً ، قد عارضوا

النازية منذ البداية ، وتلاقوا بصورة تدريجية لتأليف مختلف حلقات المقاومة . وكان بين كبار المثقفين في احدى هذه الجماعات شخص يدعى ايوولدفون كلايست ، وهو مزارع نبيل ، ينتمي إلى ذرية الشاعر العظيم . وقد عمل هذا الرجل بالتعاون الوثيق مع ايرنست نيكيش ، الإشتراكي الديموقراطي السابق ومحرر صحيفة « وايدرستاند » السرية ، وفابيان فون شلابر يندورف ، المحامي الشاب وحفيد طبيب الملكة فكتوريا الخاص ومستشارها الموثوق البارون فون ستوكمار . وكان هناك أيضاً عدد من الزعماء النقابيين السابقين من امثال جوليوس ليبر وجاكوب قيصر وويلهلم لوشنر . وبات ضابطان من رجال الغستابو ، هما ارتور نيبي رئيس دائرة البوليس الجنائي ، وبيرند غيزيفيوس ، ضابط الشرطة الشاب ، ذا نفع كبير مع تطور المؤامرات ونموها . وقد غدا الأخير معبود الادعاء العام الامريكي في محاكمات نورمبرغ ، ووضع كتاباً يلقي كثيراً من الأضواء على المؤامرات ضد هتلر ، وان كان الكثيرون من المؤرخين لا يولون هذا الكتاب وصاحبه قلامة ظفر من الاهتمام .

وكان هناك أيضاً عدد من ابناء بعض الاسر الألمانية العريقة والمحترمة من امثال الكونت هيلموث فون مولتيكيه ، قريب المشير مولتيكيه المشهور في تاريخ المانيا الذي الف فيما بعد جماعة للمقاومة تضم عدداً من المثاليين الشبان ، اطلق عليهم اسم حلقة كريساو ، والكونت اولبرخت بيرنستورف ، قريب السفير الألماني في واشنطن في ايام الحرب الكونية الأولى ، رفويهير كارل لودفيغ فون غوتنبرغ ، محرر احدى الصحف الشهرية الكاثوليكية الجريئة ، والقس دايتريخ بونهوفر الذي ينتمي إلى أسرة بروتستانتية من رجال الدين البارزين ، والذي اعتبر هتلر مناهضاً للمسيح وآمن ان من واجبه المسيحي ان « يقضي عليه » .

وقد تمكن جميع هؤلاء الرجال البواسل من البقاء إلى أن اعتقلوا أخيراً وعذبوا ثم اعدموا إما بحبل المشنقة أو بالمقصلة أو قتلاً على أيدي الحرس النازي .

ولم تحقق هذه النواة الصغيرة للمعارضة المدنية لمدة طويلة أي نجاح في اثارة

اهتمام الجيش بأعمالهـــا . فلقد شهد المشير فون بلومبرغ في محاكمات نورمبرغ « أن الفرقاء العسكريين الألمان لم يعارضوا هتلر قبل عام ١٩٣٨ — ١٩٣٩ ، إذ لم يكن ثمة داع لمعارضته طالما انه قد حقق لهم النتائج التي كانوا يرغبـــون في تحقيقها » . وقد وقـــع بعض الاتصال بين غويردلر والفريق فون هامرشتاين ، ولكن القائد العام السابق للجيش الألماني ، كان يعيش حياة التقاعد منذ عـــام ١٩٣٤، ولم يكن له أي نفوذ بين الفرقاء العاملين في الجيش . وتمكن شلابريندورف في بداية العهد النازي من الاتصال بالعقيد هانز اوستر المساعد الأول للاميرال كافاريس في مكتب مخابرات القيادة العامة للقوات المسلحة ، فوجد انـــه لا يعادي النازية عداء شديداً فحسب وانما يبدي كل استعداد لمحاولة تقريب الفجوة بين العسكريين والمدنيين أيضاً . لكن القادة العسكريين الألمان لم يتعرضوا قبل شتاء عام ١٩٣٧ — ١٩٣٨ ، للسلسلة المتعاقبة من الهزات العنيفة التي ولدهـــا قرار هتلر بالمضي نحو الحرب ، وتطهيره للقيادة العسكرية التي تولى زمامها بنفسه ، ومعاملته السيئة للفريق فريتشه ، مما حمل بعضهم على الاحساس بخطر الديكتاتور النازي على المانيا . واتاحت استقالة الفريق بيك في نهاية شهر آب عام ١٩٣٨ ، بعد أن غدت الازمة التشيكية اكثر خطورة وتهديداً ، فرصة جديدة ، ليقظة اخرى ، وعلى الرغم من أن اياً من زملائه الضباط لم يحذ حذوه في الاستقالة كما كان يأمل ، إلا انه اتضح فوراً أن رئيس الاركان العامة الذي هوى ، كان الشخص الوحيد الذي يستطيـــع القادة المتذمرون ورجال المقاومة من المدنيين الالتفاف حوله ، إذ كانت الفئتان تنظران اليه بعين الاحترام والثقة .

واتضح اعتبار آخر للفريقين . فايقاف هتلر عن خطته ، يتطلب استعمال القوة ، وهي شيء لا يملكه إلا الجيش . ولكن من يستطيـــع في الجيش استخدام هذه القوة ؟ إن هامرشتاين أو بيك لا يستطيعان ذلك لأنهما اصبحا خارج الجيش . واتضح أن الحاجة باتت ماسة إلى ضم فرقاء يتولون قيادات فعليـــة في الوقت الحاضر في برلين وحولها ، ويستطيعون أن يعملوا عملاً فعالاً بعد مجـــرد اشارة سريعة . وليست هناك تحت تصرف الفريق هولدر الرئيس الجديد لهيئة اركان

حرب الجيش قوات فعلية يتولى قيادتها. أما الفريق فون براوخيتش فيسيطر على الجيش بأكمله ولكنه ليس بالرجل الموثوق . ولا ريب في أن سلطته ستكون نافعة . ولكن المتآمرين اعتقدوا أن الإستعانة به يجب أن لا تكون إلا في اللحظة الأخيرة .

وسرعان ما اكتشف المتآمرون بعض الفرقاء المهمين الذين كانوا على استعداد للمساعدةوضموهم إلى مؤامراتهم الناشئة . وكان ثلاثة منهم يسيطرون على قيادات مهمة كل الأهمية بالنسبة إلى نجاح المغامرة ، وهم الفريق ايروين فون ويتزليبين ، القائد العام للمنطقة العسكرية الثالثة المهمة التي تضم برلينوجميع المناطق المحيطة بها . والفريق الكونت ايريك فون بروكدورف-اهلفيلد ، قائد حامية بوتسدام التي تضم فرقة المشاة الثالثة والعشرين والفريق ايريك هويبنر ، الذي يتولى قيادة فرقة مدرعة في ثورنجيا .

وتضمنت الخطة التي رسمها المتآمرون ، والتي توضحت خطوطها في نهاية شهر آب تقريباً . اعتقال هتلر حالما يصدر أمره النهائي لمهاجمة تشيكوسلوفاكيا وجرّه إلى احدى محاكم الشعب التي الفها بتهمة محاولة دفع المانيا إلى حرب أوروبية دون استعداد لها ، وانه تبعاً لذلك لم يعد قادراً على الحكم . وتقرر في غضون ذلك إقامة ديكتاتورية عسكرية لفترة قصيرة . تعقبها حكومة مؤقتة يرئسها احد المدنيين البارزين . وتقوم في النهاية حكومة ديموقراطية محافظة .

وكان هناك اعتباران يعتمد عليهما نجاح الانقلاب ويتصلان بالمتآمرين المهمين وهما الفريق هولدر والفريق بيك . أما الإعتبار الأول فهو التوقيت إذ رتب هولدر مع القيادة العامة للقوات المسلحة أن تبلغه قبل ثمان واربعين ساعة من صدور أمر هتلر النهائيبالهجوم على تشيكوسلوفاكيا . وكانت هذه المهلة كافية لوضع المؤامرة موضع التنفيذ قبل أن تستطيع القوات عبور الحدود التشيكية . وهكذا لا يتمكن من اعتقال هتلر فحسب بل ومن منع الخطوة القاضية التي ستؤدي إلى الحرب ايضاً .

أما الاعتبار الثاني فهو أن يتمكن بيك من إقناع الفرقاء العسكريين سلفاً، والشعب الألماني فيما بعد أثناء المحاكمة المقررة لهتلر ، من ان الهجوم على تشيكوسلوفاكيا كان سيؤدي حتماً الى اشتراك بريطانيا وفرنسا في الحرب ، ووقوع حرب اوروبية لم تكن المانيا على استعداد لخوضها ، ولذا فهزيمتها فيها شيء حتمي . وكانت هذه الآراء هي العبء الذي تضمنته مذكراته طيلة فصل الصيف كما كانت الأساس لكل ما بات على استعداد لعمله الآن . وهو حماية المانيا من صراع اوروبي يعتقد جازماً بأنه سيقضي عليها ، عن طريقة الإطاحة بهتلر .

ولكن من سوء حظ بيك وسوء حظ مستقبل العالم بأسره أن هتلر ، كان أصدق رأياً من رئيس الأركان المستقيل حديثاً ، في احتمالات قيام حرب كبرى. فلم يكن في وسع بيك الأوروبي المثقف الذي يعرف التاريخ ، ان يتصور ان بريطانيا وفرنسا على استعداد للتضحية بمصالحها الذاتية ، بالامتناع عن التدخل في حالة وقوع هجوم الماني على تشيكوسلوفاكيا . أجل لقد كان يعرف التاريخ ولكنه لم يكن يعرف منطق السياسة الحديثة . أما هتلر فقد كان يعرفه . وكان قد شعر منذ وقت ما بأن حكمه في أن رئيس الوزراء تشمبرلين على استعداد للتضحية بالتشيكيين على ان يغامر بدخول الحرب ، قد تعزز ، كما غدا مقتنعاً بأن فرنسا في هذه الحالة لن تكون على استعداد لتنفيذ التزاماتها التعاهدية لبراغ .

ولم تتأخر الويلهلمشتراسة بالطبع عن ملاحظة البرقيات التي نشرتها صحف نيويورك في الرابع عشر من ايار ، عندما نقل اليها مراسلوها في لندن حديثاً « ليس للنشر » جرى على مائدة غداء مع المستر تشمبرلين في ادارة الليدي استور. فلقد نقل الصحفيون ان رئيس وزراء بريطانيا اعرب عن اعتقاده بأن أياً من بريطانيا أو فرنسا او روسيا لن تهرع الى مساعدة تشيكوسلوفاكيا في حالة تعرضها لهجوم الماني ، وان الدولة التشيكية لا يمكن ان تظل على وضعها الراهن. وأن بريطانيا تؤيد حفاظاً منها على السلام ، ان تعيد تشيكوسلوفاكيا بلاد

السوديت الى المانيا . وعلى الرغم من الأسئلة الغاضبة التي وجهت الى رئيس الوزراء في مجلس العموم ، فقد لاحظ الألمان ايضاً أن تشمبرلين لم يقدم على إنكار حقيقة ما نشره الصحفيون الأمريكيون .

وتحدث المستر تشمبرلين في الأول من حزيران حديثاً «ليس للنشر أيضاً» الى المراسلين الصحفيين البريطانيين ، وبعد يومين اثنين نشرت التايمز اللندنية ، المقالة الافتتاحية الأولى من سلسلة قدر لهاان تساعد على تحطيم مركز التشيكيين، فقد حثت الحكومة التشيكية على منح حق « تقرير المصير » الى اقليات البلاد حتى ولو أدى هذا إلى انفصالها عن تشيكوسلوفاكيا . واقترحت لأول مرة إجراء عمليات استفتاء كوسيلة لتقرير ما يرغب فيه السوديت الألمان وغيرهم من الأقليات . وابرقت السفارة الألمانية في لندن بعد بضعة أيام إلى برلين تقول إن افتتاحية التايمس تستند إلى حديث شخصي لتشمبرلين لم يكن يستهدف نشره ، وأن هذه الإفتتاحية تعكس آراءه . وفي الثامن من حزيران ، أبلغ السفير فون ديركسين وزارة الخارجية الألمانية أن حكومة تشمبرلين ستكون راغبة في أن ترى مناطق السوديت مفصولة عن تشيكوسلوفاكيا شريطة أن يتم ذلك نتيجة استفتاء فيها « لا تتخلله أية اجراءات عنيفة من جانب المانيا [١] » .

ولا ريب في أن كل هذه الانباء بعثت النشوة في فؤاد هتلر . ولم تكن أنباء موسكو سيئة كذلك . ففي نهاية حزيران، أبلغ الكونت فريدريش ويرنر فون ديرشولنبرج ، السفير الألماني في روسيا ، حكومته في برلين « انه لا يعقل أن يزحف الاتحاد السوفياتي دفاعاً عن دولة بورجوازية » - والمقصود بها تشيكوسلوفاكيا [٢] . وعندما حل الثالث من شهر آب ، كان ريبنتروب يبلغ البعثات الدبلوماسية الألمانية في الخارج أن ليس ثمة ما تخشاه المانيا كثيراً من تدخل بريطانيا أو فرنسا أو روسيا في قضية تشيكوسلوفاكيا [٣] .

وراح تشمبرلين في الثالث من آب، يوفد اللورد رانسيمان إلى تشيكوسلوفاكيا

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٣٩٥، ٣٩٩-٤٠١

٢ - « « « « (٢) ص ٤٢٦

٣ - « « « « (٣) ص ٥٢٩-٤٠١

في بعثة غريبة ، ليعمل كوسيط في أزمة السوديت . وحدث انني كنت في براغ يوم وصوله ، وبعد أن شهدت مؤتمره الصحفي ، وتحدثت الى عدد من مرافقيه رحت أُسجل في يوميتي ما يلي : «ان الشك يكاد ينصب على بعثة رانسيمان كلها» .
ولقد صاحب الاعلان عن ايفادها في مجلس العموم في السادس والعشرين من تموز بيان ينطوي على المراوغة صدر عن تشمبرلين نفسه ، ولا ريب في انه كان فريداً في نوعه في تاريخ البرلمان البريطاني . فلقد ذكر رئيس الوزراء انه قد اوفد رانسيمان « استجابة لرغبة ابدتها الحكومة التشيكوسلوفاكية » . والحقيقة في هذا الموضوع أن تشيكوسلوفاكيا ، قد ارغمت ارغاماً على ابتلاع قضية رانسيمان وايفاده . فلقد عرف كل انسان ، حتى تشمبرلين نفسه ، أن مهمة رانسيمان وهي التوسط بين الحكومة التشيكية والزعماء السوديت ، مهمة سخيفة ومستحيلة . ولقد عرف الجميع أن هينلاين ، الزعيم السوديتي لم يكن اكثر من مجرد عميل ، وأن ليست لديه الحرية ليتفاوض ، وأن المشكلة تقوم الآن بين براغ وبرلين . وتوضح يومياتي التي دونتها في ذلك اليوم وما تلاه من أيام ، أن التشيكيين عرفوا تمام المعرفة ، أن تشمبرلين أوفد رانسيمان إلى برلين ليمهد الطريق لتسليم بلاد السوديت لبرلين . حقاً لقد كانت خدعة دبلوماسية دنيئة .
وها نحن نقترب الآن من نهاية صيف عام ١٩٣٨ ، وكان رانسيمان في غضون ذلك يطوّف في انحاء بلاد السوديت وفي براغ ، مبدياً ايماءات ودية الى الألمان السوديت ومغالياً في طلباته الى الحكومة التشيكية لمنحهم ما يريدون . وكان هتلر وقادته العسكريون ووزير خارجيته مشغولين بصورة محمومة . واستضاف الفوهرر في الثالث والعشرين من آب على ظهر الباخرة « باتريا » في خليج كييل ، اثناء المناورات البحرية ، الأميرال هورثي الوصي على عرش المجر ، واعضاء حكومته . وقال لهم هتلر ، انهم اذا كانوا يرغبون في الاشتراك في الوليمة التشيكية ، فإن عليهم ان يسرعوا إلى ذلك . وراح يقول : « ان على كل من يريد الجلوس الى مائدة الوليمة ، ان يمد يد العون على الأقل في المطبخ » [١] .

(١) وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٢) ص ٦١١

وكان بيرناردو اتوليكو ، السفير الايطالي بين الضيوف ايضاً على ظهر الباخرة . وعندما راح يضغط على ريبنتروب ليطلعه على موعد « الحركة الألمانية ضد تشيكوسلوفاكيا » ، حتى يتمكن موسوليني من الاستعداد سلفاً ، راح الوزير الألماني يرد رداً ينطوي على التهرب . وكان من الواضح ، أن الألمان لم يكونوا يركنون كل الركون ، إلى محافظة حلفائهم على السر . واصبحوا الآن على ثقة من موقف بولندة . وظل فون مولتيكيه السفير الألماني في وارشو ، يمطر برلين طيلة الصيف بالتقارير التي تقول : ان بولندة لا تكتفي بالامتناع عن مساعدة تشيكوسلوفاكيا عن طريق الحيلولة بين روسيا وارسال الجنود والطائرات عبر اراضيها الى تشيكوسلوفاكيا ، على ان وزير خارجيتها العقيد جوزيف بيك ، يتطلع باشتهاء الى قطعة من الأراضي التشيكية هي منطقة تيشين . وهكذا كان بيك يعرض منذ ذلك الحين ، تلك السياسة القصيرة النظر التي اشترك فيها الكثيرون في اوروبا في ذلك الصيف والتي ثبت في النهاية انها كانت اكثر مدعاة للكوارث مما يتصوره أي إنسان .

واستمر النشاط بلا انقطاع في مقر القيادة العامة للقوات المسلحة ومقر القيادة العامة للجيش . وتم وضع الخطط النهائية لاستكمال تأهب القوات المسلحة لتزحف على تشيكوسلوفاكيا في الأول من تشرين الأول . وبعث العقيد يودل في الرابع والعشرين من آب ، من مقر القيادة العامة للقوات المسلحة الى هتلر بمذكرة يؤكد فيها اهمية « تحديد موعد «الحادث» الذي سيتيح لألمانيا ، فرصة الاستفزاز للتدخل العسكري ، لأهمية هذا التحديد » . وراح يقول ان توقيت موعد الزحف يعتمد على تعيين ذلك الموعد . ثم قال :

« لا يمكن اتخاذ اية اجراءات مسبقة قبل اليوم الأخير الذي يسبق موعد الزحف ، اذ لا يمكن ايجاد الايضاح البريء لهذه الاجراءات ، وإلا بدونا وكأننا قد « فبركنا » الحادث ... وإذا كانت « ساعات المساء » تعتبر صالحة للحادث لأسباب تقنيّة ، فإن اليوم التالي لا يمكن أن يكون يوم الغزو ، ويجب تأجيله إلى اليوم

الثالث .... وان غايتي من هذه الملاحظات ، ان أُشير إلى ما يعلقه « الفير ماخت » من إهتمام على الحادث ، وان أُبين ان الجيش يجب أن يبلغ بعزم الفوهرر مسبقاً ، لا سيما وان فرع المخابرات، سيكون مسؤولاً عن ترتيب الحادث » [١]

ولم تحل نهاية الصيف ، حتى كانت اعدادات الخبراء قد استكملت ، للهجوم على تشيكوسلوفاكيا . وظل السؤال قائماً ترى ماذا سيحدث في الغرب اذا حافظ الفرنسيون على كلمتهم ، ووفوا بالتزاماتهم للتشيكيين وهاجموا المانيا من الغرب ؟ وراح هتلر في السادس والعشرين من آب يقوم بجولة في التحصينات الغربية يرافقه يودل والدكتور تودت المهندس الألماني المسؤول عن بناء الجدار الغربي وهملر ، وعدد كبير من موظفي الحزب . وانضم إلى الفريق في السابع والعشرين من آب ، الجنرال ويلهيلم ادام ، وهو ضابط بافاري قدير وخشن الطباع كان يتولى قيادة المنطقة الغربية ، وشهد في اليومين التاليين النشوة التي سيطرت على الفوهرر نتيجة الإستقبال الرائع الذي قوبل به من أهل منطقة الراين . ولم يتأثر آدام نفسه ، بل شعر بالرعب حقاً ، وراح في التاسع والعشرين من آب، يطلب بصورة مفاجئة وهو يستقل سيارةالفوهرر الخاصة ، مقابلة مع الفوهررللتحدث اليه على انفراد ، وروى الفريق فيما بعد ، أن هتلر صرف هملر وغيره من اخدان الحزب مستهزئاً بهم . ولم يضع آدام الوقت أو الكلمات عبثاً ، وانما مضى يقول لهتلر انه على الرغم من كل هذه الضجة الدعائية فانه لا يستطيع الصمود في هذا الجدار الغربي بالقوات المتوافرة لديه مدة طويلة . وسرعان ما تفجر هتلر في نوبة هستيرية وراح يلقي خطاباً مطولاً يتحدث فيه عن الجهود التي بذلها ليجعل من المانيا متفوقة في قوتها على بريطانيا وفرنسا مجتمعتين .

وصرخ هتلر بأعلى صوته قائلاً : « إن الرجل الذي لا يستطيع الصمود في هذه التحصينات ، وغد سافل [٢] » .

---

١ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٣٣٢ ــ ٣٣٣

٢ ــ وتقول يوميات يودل ان هتلر استخدم عبارة اقسى من كلمة الوغد السافل وهي كلمة=

ومع ذلك ، فقد كانت الشكوك في سلامة هذا الخط ، تزداد في عقول الفرقاء العسكريين الآخرين بالإضافة إلى آدام . ففي الثالث من ايلول ، دعا هتلر رئيس القيادتين العامتين للقوات المسلحة والجيش ، أي كايتل وبراوخيتش إلى الإجتماع به في عش النسر. وقد تم الاتفاق على أن تتحرك وحدات الميدان إلى مواقعها على طول الحدود التشيكية في الثامن والعشرين من ايلول . واتفق كذلك على وجوب إبلاغ القيادة العامة للقوات المسلحة عن موعد الغزو قبل ظهر السابع والعشرين من ايلول . ولم يرض هتلر عن الخطة العملية الموضوعة للحالة الخضراء ، وامر باجراء تغييرات عدة فيها . ويتضح من الملاحظات التي دونت عن هذا الاجتماع والتي سجلها الرائد شموندت ، أن براوخيتش أثار على الأقل ، قصة كيفية الصمود في الغرب ، إذ أن كايتل كان أجبن من أن يقول شيئاً ، وراح هتلر يخادعه مؤكداً له انه قد أصدر أوامره للاسراع في بناء التحصينات الغربية [1] .

واجتمع الفريق هينريخ فون ستولبناغل في الثامن من ايلول مع يودل ، الذي دون في يومياته أن تشاؤم الفريق كان قد بلغ حده من الوضع العسكري في الغرب . فلقد بدأ يتضح لكل منهما أن هتلر وقد سيطر على روحه الحماس من جراء روح التعصب التي بدت في مهرجان الحزب الذي كان منعقداً في نورمبرغ آنذاك ، يعتزم المضي في غزو تشيكوسلوفاكيا سواء تدخلت فرنسا أو لم تتدخل . وكتب يودل المتفائل عادة يقول : « يجب أن اعترف بأنني اشعر بالقلق أيضاً » .

واستدعى هتلر في اليوم التالي ، أي التاسع من ايلول كلاً من كايتل وبراوخيتش وهولدر للاجتماع به في نورمبرغ . وقد بدأ هذا الاجتماع في الساعة العاشرة مساء واستمر حتى الرابعة من صباح اليوم التالي . وكان الاجتماع على

=«Hunolsfott» اي كلب قذر (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٨) ص ٣٧٥) ويقدم لنا تيلفورد تيلور في كتابه « السيف والصليب المعقوف » وصفاً اكمل اعتمد فيه على مذكرات الفريق آدام التي لم تنشر .

١ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٣٣٤ ــ ٣٣٥

حد تعبير كايتل ليودل الذي دونه في يوميته ، عاصفاً للغاية . وقد وجد هولدر نفسه في وضع حرج ، إذ كان محور المؤامرة الرامية إلى الاطاحة بهتلر في اللحظة التي يصدر فيها أمره بالهجوم ، ورأى أن عليه أن يوضح بإسهاب خطة الأركان العامة لحملة تشيكوسلوفاكيا ، ولكن الوضع سرعان ما تطور نحو السوء ، إذ رأى هتلر يمزق الخطة ارباً ارباً ، ويتجه بالسباب لا اليه وحده بل وإلى براوخيتش ايضاً متهماً إياهما بالجبن والعجز العسكري [1] . وسجل يودل في يوميته للثالث عشر من ايلول أن كايتل « تأثر تأثراً فظيعاً » من جراء التجربة التي مر بها في نورمبرغ ومن مشاهدته لهذه الروح الانهزامية مسيطرة على هؤلاء الذين يحتلون قمة الجيش الألماني . وقال :

« نقلت الاتهامات الى الفوهرر عن الروح الانهزامية التي تسيطر على القيادة العامة للجيش .... واعلن كايتل انه لن يتسامح مع أي ضابط في القيادة العامة للقوات المسلحة ، يقحم نفسه في توجيه الانتقادات والافكار غير المستقرة والانهزامية ... ويعرف الفوهرر ان قائد الجيش (براوخيتش) ، قد طلب الى القادة العسكريين في الجيش تأييده في محاولته تبصير الفوهرر بالمغامرة التي حزم أمره على القيام بها . ولم يعد لبراوخيتش أي نفوذ لدى الفوهرر .. «وهكذا سيطرجو متجمد وبارد كل البرودة على نورمبرغ ، ولعل من سوء الحظ ان الفوهرر يجد البلاد بأسرها وراءه باستثناء بعض كبار القادة العسكريين في الجيش ».

وقد احزن هذا الوضع ، يودل الشاب الطموح الذي ربط مصيره بمصير هتلر كل الحزن .. وراح يدون في يومياته قائلاً :

« لا يستطيع هؤلاء الفرقاء ، ان يصلحوا اصلاحاً شريفاً الأضرار التي اوقعوها من جراء افتقارهم الى قوة العزيمة والطاعة إلا بالعمل وحده . انها عين المشكلة التي وقعت في عام ١٩١٤ ، تتكرر

١ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٣٣٥ ــ ٣٣٨

الآن . وليس ثمة إلا مثل واحد على عدم الطاعة في الجيش ، وهو قائم عند الفرقاء ، وتابع في النهاية من صلفهم وغطرستهم . فليس في وسعهم ان يؤمنوا ، وبالتالي ان يطيعوا لأنهم لا يبصرون عبقرية الفوهرر . ولا يزال الكثيرين منهم ، يرون فيه عريف الحرب العالمية ، لا اعظم سياسي عرفته المانيا منذ ايام بسمارك » [١]

وقد طلب الفريق فون ستويلبناغل في الحديث الذي دار بينه وبين يودل في الثامن من ايلول ، وكان يشغل منصب رئيس الشعبة الأولى في مقر القيادة العامة للجيش كما كان مشتركاً في مؤامرة هولدر . ان يتلقى تأكيدات خطية من القيادة العامة للقوات المسلحة ، بأنها ستتولى إبلاغ القيادة العامة للجيش بالموعد الذي يحدده امر هتلر بالهجوم على تشيكوسلوفاكيا قبل خمسة أيام على الأقل من تنفيذه وقد رد يودل ، انه بالنظر الى عدم استقرار حالة الطقس فإنه لن يستطيع ان يضمن اعطاء الموعد إلا قبل يومين . وكان هذا كافياً على أي حال للمتآمرين .

ولكنهم كانوا في حاجة الى تأكيدات من نوع آخر ، هذا اذا كانوا على أي حال على حق في افتراضهم ان بريطانيا وفرنسا ستعلنان الحرب على المانيا اذا قام هتلر بتنفيذ تصميمه على مهاجمة تشيكوسلوفاكيا . وتحقيقاً لهذا الغرض فقد قرروا ايفاد بعض الوكلاء الموثوقين الى لندن . لا ليكتشفوا ما ستفعله الحكومة البريطانية بل وليحاولوا اذا كان ضرورياً التأثير على قرارها بابلاغها ان هتلر قد قرر مهاجمة التشيكيين في تاريخ معين في الخريف ، وأن هيئة اركان الحرب التي تعرف موعد الهجوم تعارض فيه ، وهي على استعداد لاتخاذ اكثر الخطوات حسماً للحيلولة دونه هذا اذا ظلت بريطانيا صامدة امام هتلر حتى النهاية .

وكان اول مبعوث اوفده المتآمرون واختاره العقيد اوستر من رجال المخابرات هو ايوولدفون كلايست الذي وصل الى لندن في الثامن عشر من آب . وبعث السفير هندرسون من برلين ، وكان تواقاً لاعطاء هتلر كل ما يطلبه في تشيكوسلوفاكيا الى وزارة الخارجية البريطانية ينصحها بعدم استقبال فون

---

١ ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٨) ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩

كلايست لدى المراجع الرسمية [1] . لكن السير روبرت فانسيتارت كبير المستشارين الدبلوماتيين لوزارة الخارجية البريطانية ، وأحد الخصوم الأشداء في لندن لسياسة ترضية هتلر ، استقبل كلايست يوم وصوله كما قام ونستون تشرشل الذي كان لا يزال بعيداً عن السياسة الفعلية في بريطانيا باستقباله في اليوم التالي . وقد كرر كلايست للرجلين اللذين تأثرا برصانة الزائر وإخلاصه، ما عُهد اليه ان ينقله مؤكداً انهتلرقدحدد موعداً للعدوان علىتشيكوسلوفاكيا وان الفرقاء الذين يعارض معظمهم خطته ، على استعداد للعمل ، ولكن قيام بريطانيا بتقديم أية ترضية جديدة لهتلر يعني إضعاف مركزهم . وقال إنه إذا أعلنت بريطانيا وفرنسا أنهما لن تقفا مكتوفتي الأيدي في الوقت الذي يقذف فيه هتلر بجيوشه على تشيكوسلوفاكيا ، وأنه إذا قام سياسي بريطاني بارز بإصدار تحذير صارم الى المانيا عن نتائج العدوان النازي ، فإن الفرقاء الألمان سيعملون بدورهم لوقف هتلر [2] .

وقدم تشرشل إلى كلايست رسالة طنانة ليحملها معه إلى المانيا لتقوية مركز رفاقه قال فيها :

« إنني واثق من أن عبور الجيوش الألمانية او الطائرات حدود تشيكوسلوفاكيا ، سيؤدي إلى تجدد الحرب الكونية . وإنني لواثق الآن كما كنت واثقاً في نهاية تموز عام ١٩١٤ ان بريطانيا ستمضي قدماً مع فرنسا ... وإني لأرجو أن لا تخطئوا في فهم هذه الحقيقة » [3] .

---

١ ــ تقول مذكرة من وثائق وزارة الخارجية الالمانية مؤرخة في السادس من آب ، ان هندرسون قال في حفلة خاصة لبعض الحاضرين من الالمان « ان بريطانيا العظمى لن تفكر بالمجازفة ببحار واحد او طيار فيسبيل نصرة تشيكوسلوفاكيا ، وان اي حل معقول يمكن الاتفاق عليه طالما ان القوة ستستبعد من محاولة فرضه » ــ (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٢) ص ٥٣٦) .

٢ ــ وثائق وزارة الخارجية البريطانية ــ السلسلة الثالثة (٢) .

٣ ــ عاد كلايست إلى برلين في الثالث والعشرين من آب ، وعرض كتاب تشرشل على بيك وهولدر وهامرشتاين وكاناريس واوستر وغيرهم من رجال المؤامرة. ويقول ويلرر بنيت في كتابه « نقمة السلطان » في الصفحة ٤١٣ انه بناء على المعلومات الخاصة التي تلقاها بعد الحرب من

وقد حمل فانسيتارت تحذير كلايست محمل الجد مما حمله على ان يقدم تقريراً عنه على الفور إلى كل من رئيس وزراء بريطانيا ووزير الخارجية ، وعلى الرغم من أن تشمبرلين يقول في رسالة بعث بها إلى اللورد هاليفاكس أنه ميال إلى عدم تعليق أهمية كبيرة على ما يقوله كلايست . واضاف بأنه يشعر بأن من واجب بريطانيا أن لا تفعـل شيئاً [١] ، وكل ما فعله أنه استدعى السفير هندرسون إلى برلين في ذيل موجة طاغية من الدعاية في الثامن والعشرين من آب ، وذلك للتشاور معه .

وقد أوعز إلى سفيره في برلين بأن يقوم بعملين ، أولهما توجيه تحذير حازم إلى هتلر وثانيهما أن يرتب بصورة سرية « اتصالاً شخصياً » بينه وبين الفوهرر ، ويقول هندرسون انه اقنع رئيس الوزراء بالعدول عن طلبه الأول [٢] . أمـا بالنسبة إلى الطلب الثاني فقد كان مستعداً كل الاستعداد لتنفيذه [٣] .

ولقد كانت هذه هي الخطوة الأولى نحو ميونيخ ونحو أعظم انتصار حققه هتلر دون سفك للدماء .

فابيانفون شلابريندورف ، طبع كاناريس صورتين عنالرسالة ، احداهما له والاخرى لبيك ، وان كلايست اخفى النسخة الاصلية في بيته الريفي في شمينزين في بوميرانيا . وقد عثرت عليها الغستابو هناك بعد محاولة اغتيال هتلر في ٢٠ تموز عام ١٩٤٤ ، وكانت سبباً في صدور حكم بالاعدام على كلايست من محكمة الشعب وقد نفذ في ١٦ نيسان ١٩٤٥ . وقـد غدت محتويات رسـالة تشرشل معروفة لدى السلطات النازية في وقت اسرع مما خيل الى المتآمرين . وقد عثرت على هذه المحتويات في مذكرة لوزارة الخارجية الالمانية يعتقد انهامقدمة في ٦ ايلول١٩٣٨ . وقد كتب عليها ما يلي : « مقتطفات من رسالة من ونستون تشرشل الى شخص الماني » (وثائق وزارة الخارجية الالمـانية (٢) ص ٧٠٦) .

١ ــ وثائق وزارة الخارجية البريطانية ــ السلسلة الثانية (٢) ص ٦٨٦ ــ ٦٨٧

٢ ــ نيفيل هندرسون ــ فشل بعثة ص ١٤٧ وص ١٥٠ .

٣ ــ كتب السفير الى اللورد هاليفاكس من برلين في الثامن عشر من تموز يقول : « اني لا اعتقد اعتقاداً صادقاً بأن اللحظة قد حانت للضغط على براغ ... واذا لم يكن في وسع بنيش ان يرضي هينلاين فانه لا يستطيع ارضاء اي زعيم سوديتي ... وعلينا ان نقف موقفاً حازماً مـع التشيكيين » (وثائق وزارة الخارجية البريطانية ــ السلسلة الثالثة (١) . ولعل مما لا يكاد يصدق ان هندرسون نفسه لم يكن يعرف في هذه الآونة ان هينلاين لم يكن إلا مجرد أداة في يد هتلر ، وان الامر قد صدر اليه لزيادة الضغط الى الحد الذي لايستطيع فيه بنيش ارضاءطلباته .

وقام المتآمرون جهلاً منهم بالمخطط الجديد للمستر تشمبرلين ، بمحاولة جديدة لتحذير الحكومة البريطانية . ففي الواحد والعشرين من آب بعث العقيد اوستر بمندوب عنه لإبلاغ الملحق العسكري البريطاني في برلين بعـــزم هتلر على غزو تشيكوسلوفاكيا في نهاية شهر ايلول . وراح الموفد يقول للملحق البريطاني : « إذا ارغم هتلر عن طريق العمل الحازم في الخارج على العدول عن نواياه الراهنة في اللحظة الأخيرة ، فانه لن يتمكن من الصمود لهذه الضربة الموجعة » . . ومضى الرجل يقول . . . « أما إذا وصلت القضية إلى مرحلة الحرب فإن التدخل الفوري لفرنسا وانكلترا ، سيؤدي إلى انهيـار العهد كله » . وقد بعث السير نيفيل هندرسون بهذا التحذير إلى لندن تنفيذاً لواجبه ولكنه وصفه « بأنـــه واضح التحيز ومجرد دعاية ليس إلا » . وكان من الواضح أن «المثمّتين» الموضوعتين على عيني السفير الساذج كانتا قد بلغتا حداً من الضخامة ، مع إزدياد الأزمة وتحرجها حال بينه وبين رؤية أي شيء سوى ما يقع أمامه بينهما .

وأحس الفريق هولدر أن رسائل المتآمرين لا تصل بصوره فعـــالة إلى البريطانيين ، فراح يرسل في الثاني من ايلول موفداً خاصاً ، وهو ضـابط متقاعد يدعى المقدم هانز بوهيم ـ تيتلباخ إلى لندن ليتصل بوزارة الحرب البريطانيـة ودوائر المخابرات هناك . وعلى الرغـــم من أن المقدم قــد اجتمع بعدد من الشخصيات المهمة في لندن ، إلا انه كما يبدو ، وطبقـــاً لرواية هولدر نفسه لم يستطع أن يؤثر كثيراً على هذه الشخصيات .

ولجأ المتآمرون أخيراً إلى استخدام وزارة الخارجية الألمانيـــة وسفارة لندن في محاولة يائسة وأخيرة لإقناع البريطانيين بالبقاء صامدين . فلقد كان ثيودور كوردت يشغل منصب مستشار السفارة والقائم بأعمالها . وكان شقيقـه الأصغر اريك رئيساً لسكرتيري ريبنتروب في وزارة الخارجيـــة . وكان الأخوان يتمتعان برعـــاية البارون فون وايز ساكر ، وزير الدولة ، والدماغ المفكر لوزارة الخارجية ، وهو الرجل الذي طبل كثيراً بعد الحرب لما ادعـاه من خصومة للنازية ، ولكنه ظل يخدم هتلر وريبنتروب حتى النهاية . ويبدو من الواضح طبقاً لوثائق وزارة الخارجية المصادرة انه كان في هذا الوقت يعارض

العدوان على تشيكوسلوفاكيا لنفس الأسباب التي دفعت القادة العسكريين إلى معارضته ، ولعل اهمها أن هذا العدوان سيؤدي إلى حرب خاسرة . وتم بتدبير من وايز ساكر وبعد التشاور مع بيك وهولدر وغويردلر ، الإتفاق على أن يقوم ثيودور كوردت باطلاق آخر تحذير إلى داونينغ ستريت . ولم تكن زيارة مستشار السفارة للسلطات البريطانية لتثير أي اشتباه أو شكوك .

وراح مستشار السفارة الألمانية مساء الخامس من ايلول ينقل إلى السير هوراس ويلسون المستشار الخاص لتشمبرلين ، معلومات على جانب كبير من الأهمية والخطورة مما دفع المستشار إلى أن يبعث به من الباب الخلفي الى داوننغ ستريت وإلى جناح وزير الخارجية البريطانية . وهناك أبلغ كوردت اللورد هاليفاكس بصراحة أن هتلر سيعلن التعبئة العامة في السادس عشر من ايلول ، وأن موعد الهجوم على تشيكوسلوفاكيا قد تحدد في الأول من تشرين الأول على ابعد تقدير ، وأن الجيش الألماني يستعد لتوجيه ضربته إلى هتلر في اللحظة التي يصدر فيها أمره الأخير بالهجوم ، وأن هذه الضربة ستنجح كل النجاح إذا صمدت بريطانيا وفرنسا في موقفهما . وتلقى هاليفاكس تحذيراً آخر من زائره بأن هتلر في خطابه الختامي في مهرجان الحزب في نورمبرغ ، في الثاني عشر من ايلول ، سيلقي بقنبلة يفجرها عن تشيكوسلوفاكيا ، وأضاف أن هذه الفرصة ستكون مواتية لبريطانيا للوقوف موقفاً صامداً تجاه الديكتاتور (١) .

ولكن على الرغم من اتصالات كوردت الشخصية المستمرة بداوننغ ستريت . وعلى الرغم من صراحته في هذه القضية مع وزير الخارجية ، فإنه لم يكن على علم بالجهة التي تهب فيها رياح لندن . ولكنه سرعان ما فهم ذلك كما فهمه كل إنسان آخر بعد يومين عندما صدرت صحيفة « التايمز » اللندنية تحمل المقال الافتتاحي المشهور الذي جاء فيه :

« قد يكون من الأفضل للحكومة التشيكوسلوفاكية أن

---

١ ــ يقدم ايريك كوردت في كتابه « خارج نطاق العمليات المرسومة » رواية اخيه عن الاجتماع ص ٢٧٩ ــ ٢٨١

تدرس ما إذا لم يكن من الخير لها أن لا تصرف النظر نهائياً عن المشروع
الذي يلقى بعض التأييد عند بعض الجهات ، لتحويل تشيكوسلوفاكيا
إلى دولة متماسكة التجانس ، عن طريق فصل الأطراف التي تقيم
فيها قوميات غريبة تمت من ناحيتها العنصرية إلى بـلاد أُخرى ...
وليس ثمة من شك في أن المزايا التي تجنيها تشيكوسلوفاكيا من
التحول إلى دولة متجانسة العنصر ، قد تفوق الاضرار الواضحة التي
تلحق بها من جراء خسارتها لمناطق السوديت الألمانية الواقعة على
الحدود » .

ولم يرد هناك ذكر في المقال الافتتاحي للحقيقة الواضحة وهي ان التشيكيين سيخسرون عن طريق تسليم بلاد السوديت إلى المانيا المناطق الجبلية الدفاعية في بوهيميا ، وخطهم الدفاعي المسمى « خط ماجينو » ، وتصبح بلادهم عاجزة عن الدفاع في وجه المانيا النازية .

وعلى الرغم من اسراع وزارة الخارجية البريطانية الى القول بأن المقال الإفتتاحي هذا لا يمثل رأي الحكومة ، ابرق كوردت إلى برلين في اليوم التالي يقول ان من المحتمل ان يكون هذا المقال « مستمداً من اقتراح وصل إلى هيئة تحرير الصحيفة من حاشية الوزراء » أهذا ممكن حقاً !!

ومن الصعب علينا في تلك السنوات التي اجتاحتها الأزمات والتي عقبت الحرب الكونية الثانية أن نذكر التوتر العصيب وغير المحتمل الذي سيطر على العواصم الأوروبية عندما اقترب مهرجان الحزب النازي في نورمبرغ الذي بـدأ في السادس من ايلول من ذروته في الثاني عشر من الشهر ، إذ بات من المقرر أن يلقي هتلر خطابه الختامي ، واصبح منتظراً أن يعلن فيه للعالم بأسره ، قراره النهائي بصدد الحرب أو السلام مع تشيكوسلوفاكيا . وكنت في براغ ، محور الأزمة في ذلك الاسبوع ، وقد دهشت من الهدوء الذي ساد العاصمة التشيكية ، على الرغم من حملات العنف التي شرعها الألمان في بلاد السوديت ، وعلى الرغم من التهديدات الصادرة عن برلين ومن ضغط الحكومتين البريطانية والفرنسية

على حكومتها للإذعان ومن الخوف بأن تتخليا عنها ، ولا ريب في انها كانت اهدأ العواصم الأوروبية كلها ، من الناحية الظاهرية على الأقل .

وادرك الرئيس بنيش في الخامس من ايلول ، ضرورة القيام بخطوة حاسمة من جانبه ، لإنقاذ السلام ، فاستدعى الزعيمين السوديتيين كوندت وسيبيكونسكي إلى قصر هرادستين ، وطلب اليهما أن يضعا مطالبهما كلها كتابة ، قائلاً لهما انه سيقبل هذه الطلبات مهما كانت . وهتف كارل هيرمان فرانك في اليـــوم التالي يقول « يا إلهي ، لقـد اعطونا كل شيء » . ولكن هذا كان آخر مـــا ينشده الساسة السوديت واسيادهم في برلين . ففي السابع من ايلول قطع هينلاين ، بناء على تعليمات برلين جميع المفاوضات مع الحكومة التشيكية ، وكانت الذريعة التي اتخذها وسيلة لذلك كاذبة ، إذ استند إلى عمليات بوليسية تشيكية مزعومة في مورافسكا ـ اوسترافا .

والقى غورنغ في العاشر من أيلول خطاباً حربياً في مهرجان نورمـــبرغ النازي ، قال فيه .. «تثير بقعة صغيرة في أوروبا الفزع الآن للجنس البشري .. فهذا العنصر الشقي من الأقزام (يعني التشيكيين) ينزل الاضطهاد بشعب مثقف. وتقف موسكو وراءه كما يقف القناع الدائم للشيطان اليهودي » . ولكن بنيش تجاهل في الخطاب الذي ألقاه في نفس اليوم ، خطاب غورنغ المليء بالذم والطعن ، وناشد بمنتهى الهدوء والانفة الجميع حُسْنَ النية والثقة المتبـــادلة والركون إلى السلام .

لكن التشيكيين كانوا متوتري الأعصاب في الحقيقة .فقد هرعت إلى الدكتور بنيش في قاعة دار الاذاعة بعد الخطاب الذي القاه ، ولاحظت ما في وجهه من عبوس وتقطيب ، وأدركت انه يعي تمام الوعي الموقف العصيب الذي يقفـه . وكانت محطة ويلسون للسكك الحديدية ، ومطار براغ مليئين باليهود ، اللذين يتدافعون بيأس للعثور على وسائل تنقلهم إلى أماكن أكثر أمنـــاً . وقامت السلطات ذلك اليوم بتوزيع أقنعة الغاز على الأهلين .وتناقلت الأنباء من باريس أن الفزع يسود الحكومة الفرنسية من احتمال الحرب ، كما أشارت برقيات لندن

إلى أن تشمبرلين كان يخطو خطوات يائسة لتقبل طلبات هتلر على حساب التشيكيين طبعاً .

وهكذا ظلت اوروبا بأسرها تنتظر خطاب هتلر من نورمبرغ في الثاني عشر من أيلول . وعلى الرغم من أن الخطاب كان مليئاً بالعنف والزهو ، وكان يقطر بالسم والضغينة على الدولة التشيكية ولا سيا على الرئيس التشيكي ، فإن الفوهرر القى خطابه في حشد ساده الحماس الجنوني من النازيين المتعصبين الذين اجتمعوا في مدرج نورمبرغ الضخم في الليلة الأخيرة من مهرجان الحزب ، لم يعلن الحرب على تشيكوسلوفاكيا . وهكذا احتفظ بسرية القرار الذي اتخذه ، إذ كلنا يعلم الآن من الوثائق الألمانية المصادرة انه كان عندما ألقى خطابه ، قدحدد اليوم الأول من تشرين الأول موعداً للهجوم على الحدود التشيكوسلوفاكية . وكان كل ما طلبه في خطابه أن تضفي الحكومة التشيكية ، العدل والانصاف على الألمان السوديت . وقال انها إذا تقاعست عن ذلك فإن ألمانيا ستعرف كيف ترغمها عليه .

وترك خطاب هتلر اصداء مختلفة . فلقد أوحى لبلاد السوديت بالثورة التي سرعان ما اخمدتها الحكومة التشيكية في غضون يومين من القتال الوحشي ، بواسطة القوات الضخمة التي اوفدتها والأحكام العرفية التي اعلنتها . وانسل هينلاين عبر الحدود الى المانيا ، معلناً أن الحل الوحيد الذي بقي الآن هو فصل مناطق السوديت وضمها إلى المانيا .

وكان هذا هو الحل الذي بدأ يلقى التأييد في لندن كما سبق لنا أن رأينا ، وان كان مضيها في الدعوة اليه يتطلب الموافقة المسبقة من فرنسا . وعقد مجلس الوزراء الفرنسي ، في اليوم الذي تلا خطاب هتلر ، أي في الثالث عشر من ايلول ، اجتماعاً طيلة النهار ، دون أن يصل إلى نتيجة إذ اختلف الوزراء فيما إذا كان واجب فرنسا أن تفي بالتزاماتها إلى تشيكوسلوفاكيا في حالة وقوع هجوم الماني ، وهو ما تعتقد باريس انه واقع لا محالة . واستدعي السفير البريطاني في باريس السير ايريك فيبس ، من دار « الاوبرا كوميك » تلك الليلة

ليعقد اجتماعاً عاجلاً مع رئيس الوزراء ديلادييه . وقد بعث هذا عن طريق السفير إلى تشمبرلين يرجوه أن يحاول فوراً عقد أحسن صفقة ممكنة مع الديكتاتور الألماني .

ولم يكن المستر تشمبرلين ، كما رأينا ، في حاجة إلى من يحثه ويشجعه . ففي الساعة الحادية عشرة من نفس الليلة بعث رئيس الوزراء البريطاني برسالة عاجلة الى هتلر تقول :

« بالنظر إلى تزايد الحرج في الوضع ، اقترح أن اسافر اليك على الفور لألقاك ، على أمل أن نحاول الوصول إلى حل سلمي . واني لأقترح أن اسافر بطريق الجو ، كما واني على استعداد للبدء بالرحلة غداً .

« أرجو ابلاغي عن اقرب موعد تستطيع أن تلقاني فيه ، وان تقترح مكان الاجتماع. اكون ممتناً إذا تلقيت منك رداً مبكراً [1] .

وكان ثيودور كوردت القائم بالأعمال الالماني في لندن قد ابرق قبل ساعتين إلى برلين يقول ان السكرتير الصحفي لتشمبرلين قد ابلغه بأن رئيس الوزراء «على استعداد لدرس اقتراحات المانية شاملة، تضم اقتراح الاستفتاء، وان يشترك في وضعها موضع التنفيذ ، وان يدعو إلى قبولها بصورة علنية [2] » .

وهكذا بدأت عملية الاستسلام التي قدر لها ان تنتهي في ميونيخ .

تشمبرلين في برختسغادن

١٥ ايلول عام ١٩٣٨

هتف هتلر من صميم قلبه . عندما تلقى رسالة تشمبرلين... « آه يا إلهي [3] » لقد اذهلته الرسالة ، وان كانت قد بعثت في فؤاده السرور ، إذ رأى ان الرجل

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٧٥٤

٢ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٧٥٤

٣ ــ إل. بي. ناميير ــ مقدمة دبلوماسية ص ٣٥

الذي يمسك بمقدرات الامبراطورية البريطانية العظيمة ، يتوسل اليه ليسمح له بزيارته ، كما سيطر عليه الغرور من ان الرجل البالغ التاسعة والستين من عمره ، والذي لم يسبق له ان سافر بطريق الجو ، اصبح على استعداد ليقطع رحلة الساعات السبع في الجو إلى برختسغادن الموجودة في ابعد مكان في المانيا عن بلاده . ولكن هتلر لم يكن من النوع السمح الذي يمكن ان يقترح مكاناً للاجتماع على نهر الراين ليقصر على زائره من الرحلة النصف .

ومهما كان حماس الانكليز[1] الذين خيل إليهم انرئيس وزرائهم يعتزم القيام برحلته الطويلة ليحقق ما عجز المستر اسكويث والسير ادوارد غري عن تحقيقه في عام ١٩١٤ ، وهو تحذير المانيا من أن أي عدوان على دولة صغيرة ، سيرغم فرنسا وبريطانيا على محاربتها ، فإن هتلر قد أدرك ، طبقاً لما روته الوثائق الألمانية السرية ، وما دللت عليه الأحداث التالية ، بأن عمل تشمبرلين كان بمثابة هدية من السماء بعثها الله اليه . ولما كان الفوهرر قد تلقى معلومات من سفارته في لندن تقول أن الزعيم البريطاني كان على استعداد لتبني «اقتراحات المانية واسعة » ، فقد احس إحساساً ثابتاً بأن زيارة تشمبرلين كانت تأكيداً لما اعتقده دائماً من أن بريطانيا وفرنسا لن تتدخلا دفاعاً عن تشيكوسلوفاكيا . ولم يكن رئيس الوزراء البريطاني قد قضى معه اكثر من ساعة عندما بات هذا التقدير للوضع حقيقة مؤكدة لديه .

ولقد كان هناك في البداية بعض الإشتباك الدبلوماتي ؛ وإن كان هتلر ، كما هي عادته دائماً[2] ، قد اخذ زمام المبادرة في الحديث . فقد هبط تشمبرلين في

١ ــ رحب حتى اكثر النقاد قوة لسياسة تشمبرلين الخارجية في الصحف والبرلمان ترحيباً حاراً بالخطوة التي قرر رئيس الوزراء اتخاذها للسفر الى برختسغادن . وقد نظم شاعر التاج البريطاني جون مانسفيلد قصيدة من المديح عنوانها « نيفيل تشمبرلين » ونشرتها التايمز في السادس عشر من ايلول .

٢ ــ هناك مصادر كثيرة لما دار في هذه المقابلة . كفى نص التقرير الرسمي الذي وضعه المترجم بول شميدت ، وهو الشخص الوحيد الذي حضر المقابلة هو اقربها الى الصحة . (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ص ٧٨٦ ــ ٧٩٨) .

مطار ميونيخ ظهر الخامس عشر من ايلول ، ثم نقلته سيارة مكشوفة إلى محطة السكة الحديدية ، حيث استقل قطاراً خاصاً في رحلة استغرقت ثلاث ساعات إلى برختسغادن . ولم تفت عيني الزائر القطارات المتعاقبة الملأى بالجنود التى كان يمر بها قطاره وهي متجهة إلى الناحية المضادة . ولم يكن هتلر في انتظار القطار في برختسغادن ، وإنما اكتفى باستقباله على قمـــة السلّم في عش النسر ، حيث حيّا زائره البارز وقد تذكر الترجمان الألماني ، الدكتور شميدت ، فيما بعد ، أن المطر بـــدأ يتساقط ، وان السماء ادلهمت بالسحب المعتمة التي غطت قمم الجبال . وكانت الساعة قد بلغت الآن الرابعة مساء ، وكان المستر تشمبرلين قد بدأ رحلته عند الفجر .

وبعد تناول الشاي ، صعد هتلر وتشمبرلين السلّم إلى مكتبة هتلر في الطبقة الثانية من المنزل ، وهو نفس المكان الذي استقبل فيه الديكتاتور قبـل سبعة شهور المستشار شوشنيـغ النمسوي . ولم يسمح لريبنتروب بحضور المقـــابلة ، بناء على إقتراح من السفير هندرسون ، مما أثار وزير الخارجية المغرور ابلـــغ الإثارة ، وحمله في اليوم التالي على أن يرفض إعطـــاء نسخة من تسجيل شميدت لوقائع الحديث ، إلى رئيس الوزراء ، وهو عمل ينبو كثيراً على الذوق ، وقـــد حتّم على تشمبرلين أن يعتمد على ذاكرته في تسجيل ما دار بينه وبين هتلر .

بدأ هتلر الحديث ، كما ألف ان يبدأ عادة جميع خطبه ، بسرد مفصل لكل ما حققه للشعب الألماني والسلام والتقارب الانكليزي – الألماني . وكانت هناك مشكلة واحدة ، كما قال ، عزم على حلهـــا « بطريق أو بآخر » ، إنها مشكلة الملايين الثلاثة، من الألمان في تشيكوسلوفاكيا الذين تتحتم عودتهم إلى الرايخ[1] .

وهو لا يرغب – كما ذكرت تسجيلات شميدت للحديث – في أن يترك مجالاً للشك في تصميمه على عدم التسامح ، أمداً آخر ، في أن يترك لدولة صغيرة من

---

١ – لقد قبل تشمبرلين في حديثه مع هتلر وبيانه في مجلس العموم ، هذا الاستعمال المضلل من هتلر لكلمة « العودة » ، ويبدو ان معلوماته عن التاريخ الالماني لم تكن واسعة . لقد كان الالمان السوديت خاضعين للنمسا ، لا لألمانيا .

الدرجة الثانية المجال في أن تعامل الرايخ القوي ، والذي تعود عراقته إلى اكثر من الف عام، معاملة تنطوي على الازدراء ... .. وقال انه في الخامسة والاربعين من عمره، وإذا قدر لألمانيا أن تخوض حرباً من اجل المشكلة التشيكوسلوفاكية، فهو يود أن يقود بلاده في غمرة الأزمة وهو في ذروة رجولته ... وهو يأسف كل الأسف إذا كان لا بد من نشوب حرب كونية بسبب هذه المشكلة . لكن هذا الخطر ، ليس بقادر على أي حال على أن يقلل من تصميمه وعزيمته ... فهو سيخوض أي حرب ، حتى ولو كانت عالمية ، لتحقيق هدفه . وفي وسع العالم أن يفعل ما يشاء ، أما هو فلن يتراجع خطوة واحدة .

ومن المعروف عن تشمبرلين ، الذي لم يترك له هتلر مجالاً للكلام ، أنه رجل كثير الأناة ، شديد الصبر ، ولكن هناك حدوداً للصبر ، لا يستطيع المرء أن يمضي إلى أبعد منها . فقد أضطر عندما وصل مضيفه إلى هذا الحد من خطابه إلى مقاطعته قائلاً : « وإذا كان الفوهرر مصمماً على تسوية هذه القضية بالقوة دون أن ينتظر حتى قيام مناقشة بيني وبينه ، فلماذا أراد مني ان آتي إلى هنا ؟ إنني اشعر بأنني قد أضعت وقتي » .

ولم يكن الديكتاتور الألماني متعوداً على مثل هذه المقاطعات ، إذ لم يكن هناك ألماني واحد يجرؤ في هذا الوقت على أن يقاطعه ، ويبدو أن اعتراض تشمبرلين ترك أثره ، إذ هدأت ثائرة هتلر . وأعرب عن رأيه في إمكان الدخول في « أبحاث تتعلق بما إذا كان في الامكان الوصول إلى تسوية سلمية على أي حال » . وراح بعد ذلك يقفز إلى إقتراحه ....

« هل توافق بريطانيا على فصل منطقة السوديت عن تشيكوسلوفاكيا أو لا توافق ؟ ... على أن يكون هذا الفصل قائماً على أساس حق تقرير المصير ... »

ولم يفاجأ تشمبرلين لهذا الاقتراح ، بل راح يعرب عن ارتياحه في « أنهما قد وصلا الآن إلى لباب الموضوع » . وتقول رواية تشمبرلين عن الحديث ، وهي الرواية المستمدة من الذاكرة ، انه رد بأنه لا يستطيع أن يتعهد بشيء إلى

أن يكون قد استشار أعضاء وزارته والحكومة الفرنسية . أما رواية شميدت، وهي المنقولة من ملاحظاته التي دوّنها بطريق الاختزال، أثناء قيامه بدور الترجمة، فتقول أن تشمبرلين قد فاه بمثل هذا ولكنه أضاف إليه « إن في استطاعته أن يقول شخصياً بأنه يعترف من ناحية المبدأ بوجوب فصل مناطق السوديت .... وإنه يود أن يعود إلى إنكلترة ، لينقل إلى الحكومة موقفه الشخصي هـــذا ويضمن موافقتها عليه » .

ونتجت عن هذا الإستسلام في برختسغادن جميع النتائج التالية .

ومن الواضح أن هذا الإستسلام لم يكن مفاجئاً للالمان ، بـل كانوا يتوقعوه وكان هينلاين في هذه اللحظة التي يقع فيها إجتماع برختسغادن يخط رسالة سرية إلى هتلر ، من مدينة إيغر ، مؤرخة في الخامس عشر من أيلول ، أي قبيـــل فراره عبر الحدود إلى ألمانيا ... وهذا بعض ما جاء فيها :

« يا زعيمي !

لقد ابلغت البعثة البريطانية أمس – بعثة رانسيمان – ان أساس المحادثات المقبلة ، يجب أن يكون تحقيق الاتحاد مع الرايخ .

« ومن المحتمل أن يقترح تشمبرلين مثل هذا الاتحاد [1] » .

وبعثت وزارة الخارجية الألمانية في اليوم التالي ، أي في السادس عشر من ايلول ، برقية مكتومة إلى سفاراتها في واشنطن وعـــدة عواصم أُخرى قالت فيهـــا :

« ابلغ الفوهرر تشمبرلين أمس تصميمه النهائي على وضع حد بشكل أو بآخر للأوضاع التي لا تحتمل في بـلاد السوديت خلال فترة قصيرة . ولم يعد ثمة مجال للبحث في الحـكم الذاتي للسوديت ، بل يجب عودة المنطقة إلى المانيا . وقـــد ابدى تشمبرلين موافقته الشخصية . وهو يستشير الآن وزارته ، كما يجـري اتصالات مع باريس . وتم الإتفـاق على عقـد اجتماع قريب بـــين الفوهرر

١ ـــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٨٠١

وتشمبرلين [١] .

وتمكن تشمبرلين قبيل انتهاء الاجتماع من استخلاص وعد من الفوهرر بعدم اتخاذ أي إجراء عسكري قبل أن يعودا إلى الاجتماع والتشاور . وكان رئيس الوزراء البريطاني في هذه الفترة ، يثق ثقة كبيرة في وعود الفوهرر ، فلقد علق بعد يوم أو يومين في حديث خاص قائلاً : « وعلى الرغم مما رأيته في وجهه من صلابة وقسوة ، إلا أنني حملت الإنطباع ، بأن في وسع الإنسان ان يعتمد على هذا الرجل وعلى وعوده [٢] » .

وبينما كان الزعيم البريطاني ، يعيش على هذه الاوهام المريحة ، مضى هتلر قدماً باستعداداته العسكرية والسياسية لغزو تشيكوسلوفاكيا . وراح العقيد يودل ، يعمل منتدباً من القيادة العامة للقوات المسلحة مع وزارة الدعاية فيما أسماه في يومياته « بالاستعدادات المشتركة لتنفيذ ما قد يسمى بخرق من جانبنا للقانون الدولي » . وكان من المحتوم أن تشن حرب قاسية من جانب الألمان على الأقل ، وكان على غوبلز أن يبرر ما يصدر عن النازيين من تطرف . وقد تم وضع المخططات لأكاذيبه بصورة مفصلة[٣] . وعهد هتلر في السابع عشر من ايلول إلى ضابط ركن من القيادة العامة للقوات المسلحة بمساعدة هينلاين الذي كان يعمل الآن من قصر دوندورف ، الواقع إلى الخارج من بايروث ، في تنظيم فيلق المتطوعين السوديت . وتقرر تسليح أفراد هذا الفيلق بالأسلحة النمسوية . وكانت أوامر الفوهرر اليهم تقضي بمواصلة « الإضطرابات والمصادمات » مع التشيكيين .

وصرف تشمبرلين اليوم الثامن عشر من ايلول ، في اجتذاب أعضاء وزارته والفرنسيين إلى سياسته القائمة على التسليم بما يريده النازيون ، بينما كان هتلر وقادته العسكريون مشغولين في أُمور جد هامة وخطيرة . وتم إعداد البرنامج لقفز خمسة جيوش هي الثاني والثامن والعاشر والثاني عشر والرابع عشر تضم ستاً

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٢) ص ٨١٠

٢ ــ فيلينغ ــ حياة نيفيل تشمبرلين ص ٣٦٧

٣ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٧٩٩ .

وثلاثين فرقة بينها ثلاث فرق مدرعة. ووافق هتلر أيضاً على اختيار القادة لعشر فرق. وقد ظل الفريق آدام، على الرغم من كل صخبه وضجيجه قائداً عاماً في الغرب. ومن الغريب كل الغرابة، أن اثنين من المتآمرين قد استدعيا من حياة التقاعد، وعهد اليهما بقيادة جيشين من الجنود، فقد عين الفريق بيك قائداً للجيش الأول والفريق فون هامرشتاين قائداً للجيش الرابع.

واستمرت الاستعدادات السياسية كذلك لتوجيه الضربة القاضية إلى تشيكوسلوفاكيا. وقد وجدت وثائق وزارة الخارجية الألمانية المصادرة ملأى بالتقارير عن زيادة الضغط الألماني على المجر وبولندة للإشتراك في الغنائم. وأدخل هتلر السلوفاكيين أيضاً في قائمة الحساب للإشتراك في تحريك «الطبخة»، إذ راح هينلاين في العشرين من ايلول يحثهم على أن يصيغوا مطالبهم في الإستقلال الذاتي بشكل أكثر حدة. واستقبل هتلر في نفس اليوم ايمريدي رئيس وزراء المجر، ووزير خارجيته كانيا، وأنبهما تأنيباً عنيفاً لما تبديه بودابست من تردد. ويسرد تقرير في وزارة الخارجية تفاصيل ما دار في الاجتماع:

> «أنحى الفوهر باللوم الشديد أولاً على السيدين المجريين للموقف المتردد الذي تقفه حكومتها وكان الفوهرر مصمماً على تسوية المشكلة التشيكية حتى على حساب حرب عالمية. وكان مقتنعاً على أي حال بأن انكلترا وفرنسا لن تتدخلا. ورأى أن هذه هي الفرصة الأخيرة للمجر للتدخل. فان لم تتدخل فلن تكون في وضع يمكنها من أن تقول كلمة واحدة دفاعاً عن المصالح المجرية. وهو يرى ان خير طريقة هي تحطيم تشيكوسلوفاكيا.» وقدم طلبين إلى المجريين أولهما أن على المجر ان تقدم طلباً مباشراً لإجراء استفتاء في المناطق التي تدعي بحقها فيها وثانيهما أن لا تضمن أية حدود جديدة مقترحة لتشيكوسلوفاكيا [١]».

ومهما حدث لتشمبرلين؛ أو مهما عمل، فلقد قرر هتلر، كما أوضح

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٢) ص ٨٦٣ ـ ٨٦٤.

للزعيمين المجريين ، ان لا يسمح حتى لتشيكوسلوفاكيامهلهلة بالبقاء . أما بالنسبة إلى رئيس وزراء بريطانيا :

« لقد اعلن الفوهرر انه سيقدم الطلبات الألمانية الى تشمبرلين بصراحة تنطوي على الشراسة، فهو يرى ان العمل العسكري سيضمن الحل المرضي الوحيد . وكان هناك خطر في أن يقبل التشيكيون جميع هذه الطلبات » .

وكان هذا الخطر هو الذي ظل يعذب الديكتاتور في كافة الاجتماعات اللاحقة التي عقدها مع رئيس الوزراء البريطاني السليم النية .

وراحت الحكومة البولندية بتحريض من برلين تطلب في الواحد والعشرين من ايلول من التشيكيين اجراء استفتاء في منطقة تيشّين حيث توجد اقلية بولندية ضخمة ، وتنقل الجنود الى حدودها . وراحت الحكومة المجرية تحذو حذوها في اليوم التالي . وقام فيلق المتطوعين السوديت في ذلك اليوم ايضاً أي في الثاني والعشرين من ايلول، تدعمه وحدات من الحرس النازي الالماني باحتلال مدينتي آخ وايغير التشيكيتين ، الواقعتين على الحدود والمندفعتين داخل الأرض الألمانية .

وكان الثاني والعشرون من ايلول في الحقيقة من الايام العصيبة في اوروبا كلها، فلقد طار تشمبرلين في ذلك اليوم من جديد إلى المانيا للاجتماع بهتلر . وأرى لزاماً علي الآن ان اشير بايجاز الى ما فعله رئيس الوزراء في لندن في الفترة الواقعة بين الزيارتين .

عندما عاد تشمبرلين الى لندن ليلة السادس عشر من ايلول ، دعا الى اجتماع لمجلس الوزراء لاطلاع وزرائه على مطالب هتلر . وقد استدعي اللورد رانسيمان من براغ ، ليتقدم بتوصياته . التي جاءت باعثة على الذهول . فلقد مضى في حماسه لترضية الالمان الى ابعد مما طلبه هتلر نفسه . إذ دعا إلى نقل المناطق التي يكون السوديت غالبية اهلها من ملكية تشيكوسلوفاكيا إلى ملكية المانيا دون اية حاجة إلى استفتاء . ولقد أوصى توصية شديدة بخنق كل نقد لألمانيا

في تشيكوسلوفاكيا سواء أصدر هذا النقد« عن أحزاب أو عن أفراد » بواسطة الاجراءات القانونية . وطالب بأن تقوم تشيكوسلوفاكيا ، على الرغم من حرمانها وفقاً لتوصياته من الحواجز الجبلية التي تحميها ومن الحصون المنيعة ، وعلى الرغم من بقائها عاجزة لا حول لها ولا طول، « بتعديل علاقاتها الخارجية على نحو يؤكد لجاراتها أنها لن تهاجم بأي حال من الاحوال ولن تشترك في أية اعمال عدوانية ضدها ناجمة عن التزاماتها تجاه الدول الاخرى » . ولا يكاد المرء ان يصدق ، أن شخصاً كرانسيمان يشغل نفسه في مثل هذه الساعة بخطر العدوان من دولة تشيكوسلوفاكية مهشمة على المانيا النازية ، ولكن هذه التوصيات قد تركت أثراً عميقاً كما يبدو على الوزارة البريطانية ، وشددت من تصميم تشمبرلين على إرضاء مطالب هتلر [١] .

ووصل إلى لندن في الثامن عشر من أيلول ديلادييه رئيس وزراء فرنسا ، ووزير خارجيته جورج بونيه ، لاجراء مشاورات مع الوزارة البريطانية . ولم يدر أي تفكير في دعوة التشيكيين إلى هذه المشاورات . ولما كان البريطانيون والفرنسيون تواقين إلى تجنب الحرب بأي ثمن ، فإنهم لم يضيعوا وقتاً للوصول إلى إتفاق تناول اقتراحات مشتركة يتحتم على التشيكيين قبولها . ونصت هذه الاقتراحات على وجوب تسليم جميع المناطق التي يؤلف السوديت فيها أغلبية تفوق نصف السكان إلى ألمانيا وذلك للتأكد من « الحفاظ على السلام والأمن وسلامة مصالح تشيكوسلوفاكيا الحيوية ». وتوافق بريطانيا وفرنسا مقابل ذلك على الاشتراك في « ضمانة دولية للحدود الجديدة ... ضد أي عدوان

١ ــ على الرغم من ان النقاط الاساسية لتوصيات رانسيمان قد قدمت الى مجلس الوزراء البريطاني عشية السادس عشر من ايلول إلا ان التقرير نفسه لم يقدم بصورة رسمية إلا في الحادي والعشرين منه ولم ينشر إلا في الثامن والعشرين عندما حولته الاحداث التي وقعت الى مجرد تقرير ذي قيمة اكاديمية . ويشير ويلرر بنيت الى ان بعض اجزاء التقرير توحي بالانطباع بأنها كتبت بعد الواحد والعشرين من ايلول. فعندما غادر رانسيمان مدينة براغ في صباح السادس عشر من ايلول،لم يكن انسان واحد حتى ولا هتلر او اي من الزعماء السوديت ، يشتط في الطلب الى حد اقتراح تسليم اراضي السوديت الى المانيا دون أي استفتاء . (ويلرر بنيت ، ميونيخ ص ١١١ ــ ١١٢ . يوجد نص تقرير رانسيمان في الكتاب البريطاني الابيض رقم ٥٨٤٧ ــ ١)

لا مبرر له » . ويستعاض بهذه الضمانة عـــن معاهدتي العون المتبادل المعقودتين بين تشيكوسلوفاكيا من ناحية وبين فرنسا وروسيا من الناحية الأخرى . وكان هذا الاتفاق مخرجاً سهلاً لفرنسا من التزاماتها ، ولذا فقد سارع الفرنسيون بقيادة بونيه الذي أثبتت الوقائع التالية ، انه كان مصمماً على أن يبز تشمبرلـــين في في محاولاته لترضية هتلر ، الى اغتنام هذه الفرصة. ثم جاء دور النفاق الرخيص. وراحت الحكومتان البريطـــانية والفرنسية تبعثان بمذكرة رسمية إلى تشيكوسلوفاكيا جاء فيها :

« تدرك الحكومتان الفرنسية والبريطانيـــة عظم التضحية المطلوبة على هذا النحو من جانب الحكومة التشيكوسلوفاكية في سبيل السلام . ولكن لما كانت قضية السلام هذه ، مشتركة بالنسبة إلى أوروبا عامة وتشيكوسلوفاكيا خاصة ، فقد شعرت هـــاتان الدولتان بواجبهما في ان تضعا بصراحة الشروط الاساسية اللازمة لضمانه » .

وكانت الدولتان على عجلة من امرهمـــا فالديكتاتور الألماني لا يستطيع الانتظار . ... وراحت المذكرة تقول :

«وترى الدولتان أن على رئيس وزراء بريطانيا ان يستأنف محادثاته مع الهر هتلر في موعد لا يتأخر عن يوم الاربعاء في الثاني والعشرين من ايلول أو في موعد يسبق ذلك اذا أمكن . ونحن نشعر والحالة هذه بضرورة تلقي ردكم في اسرع وقت ممكن [١] » .

وهكذا قدم الوزيران المفوضان البريطاني والفرنسي في براغ ظهر اليـــوم التاسع عشر من ايلول الى الحكومة التشيكية الاقتراحـــات الانكليزية – الفرنسية المشتركة . وقد رفضت الحكومة التشيكية هذه الاقتراحات في اليوم التالي بمذكرة فيها الانفة والاعتزاز بالنفس ، وفيها الايضاح بشكل ينطوي على

---

١ – الكتاب الابيض البريطاني ٥٨٤٧ رقم (٢) . وفي وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٨٣١ – ٨٣٢ .

التكهن بأن قبول هذه الاقتراحات سيضع تشيكوسلوفاكيا «ان عاجلاً وإن آجلاً تحت سيطرة المانيا المطلقة » . وبعد تذكير فرنسا بالتزاماتها التعاهدية وبنتائج الخضوع التشيكي في تعريض مركز فرنسا في اوروبا للخطر ، راحت المذكرة الجوابية تقترح عرض قضية السوديت كلها على التحكيم ، طبقاً لنصوص المعاهدة الألمانية ـ التشيكية المعقودة في السادس عشر من تشرين الاول عام ١٩٢٥ [1].

ولكن الحكومتين البريطانية والفرنسية لم تكونا في وضع يسمح لمزاجيهما بأن يقبلا تدخل القداسة التي تنطوي عليها المعاهدات في الخطة السياسية التي قررا السير عليها . ولم تكد المفوضيتان الانكليزية والفرنسية في براغ تتسلمان رد الحكومة التشيكية في الساعة الخامسة من مساء العشرين من أيلول ، حتى راح السير باسيل نيوتن الوزير البريطاني المفوض يحذّر الدكتور كميل كروفتا وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا من تمسك الحكومة التشيكية بهذا الموقف منذراً بأن هذا التمسك سيؤدي إلى عدول بريطانيا عن موقف الاهتمام بمصير تلك البلاد . وقد اشرك المسيو دي لاكروا الوزير الفرنسي المفوض نفسه في هذا التحذير بالنيابة عن حكومته .

وتلقت لندن وباريس في الوقت نفسه المذكرة التشيكية بشيء من الحنق واستدعى تشمبرلين وزارته « المصغرة » إلى جلسة عاجلة ، وأُقيم اتصال هاتفي طيلة المساء مع باريس للتحدث إلى ديلادييه وبونيه . واتفق على أن تقوم الحكومتان بفرض ضغط جديد على براغ ، كما اتفق على إبلاغ الحكومة التشيكية بأنها إذا أصرت على موقفها ، فإن عليها أن لا تنتظر عوناً من فرنسا وبريطانيا .

وأدرك الرئيس بنيش في هذا الوقت أن الأشخاص الذين كان يفترض وجود صداقتهم قد تخلوا عنه . وراح يبذل محاولة أخيرة ، لاستنفار فرنسا على الأقل لنجدته . فبعيد الساعة الثامنة من مساء العشرين من ايلول ، أوعز إلى وزير

---

١ ـ من الجدير بالملاحظة ان أياً من الحكومتين البريطانية والفرنسية لم تنشر نص المذكرة التشيكية عندما اصدرتا فيما بعد الوثائق التي حاولتا عن طريقها تبرير سياستيهما اللتين ادتا الى ميونيخ .

خارجيته الدكتور كروفتا بأن يوجه إلى الوزير الفرنسي لاكروا السؤال الحيوي التالي : « هل ستفي فرنسا بعهدها لتشيكوسلوفاكيا في حالة تعرضها لهجوم من المانيا أو لا؟ » . وعندما أيقظ نيوتن ولاكروا الدكتور بنيش من نومه في الساعة الثانية والربع من صباح الواحد والعشرين من ايلول ، ليطلبا اليه سحب مذكرة الرفض ، وليعلنا اليه ، أنه إذا امتنع عن سحبها وعن قبول الاقتراحات الانكليزية – الفرنسية ، فإن على تشيكوسلوفاكيا أن تحارب المانيا وحدها ، طلب الرئيس التشيكي من الوزير الفرنسي المفوض أن يقدم اليه هذا التبليغ خطياً. ومن المحتمل أن يكون الدكتور بنيش قد قرر في هذه اللحظة التسليم ، ولكنه اراد هذا التسجيل الخطي للتاريخ [1] .

وقضى بنيش طيلة اليوم التالي ، أي الواحد والعشرين من ايلول في مشاورات مع اعضاء وزارته وزعماء حزبه ، ورجال القيادة العامة لجيشه وقد اجهده التعب والسهاد وتصور الخيانة والكارثة . وكان الجميع قد ابدوا شجاعة في مواجهة تهديدات العدو ، ولكنهم بدأوا في الانهيار أمام تخلي الاصدقاء والحلفاء عنهم . وانطلق سؤال ... ترى ما هو موقف روسيا ؟ وحدث أن القى لتفينوف وزير الخارجية السوفياتية خطاباً في ذلك اليوم في جنيف أكد فيه ان الاتحاد السوفياتي سيلتزم بمعاهدته مع تشيكوسلوفاكيا . واستدعى بنيش الوزير الروسي المفوض في براغ ، فأكد له هذا ما أعلنه وزير خارجيته . ولكن من سوء حظ التشيكيين أن الميثاق المعقود بينهم وبين روسيا ، ينص على أن يهرع السوفيات الى مساعدتهم شريطة ان تقدم فرنسا مثل هذه المساعدة . ولكن فرنسا قد تنصلت منها .

واستسلمت الحكومة التشيكية في ساعة متأخرة من بعد ظهر الواحد

١ ـ اعتقد ان خيانة بونيه في هذه الفترة ، اكثر شمولا من أن يجري الحديث عنها في مثل هذا التاريخ الشامل لألمانيا . فلقد حاول اشياء كثيرة منها اقناع اعضاء الحكومتين الفرنسية والبريطانية بالأكذوبة القائلة بأن الحكومة التشيكية ارادت من الفرنسيين ان يقولوا بأنهم لن يحاربوا في سبيل تشيكوسلوفاكيا وذلك حتى يجدوا المبرر للاستسلام . (راجع كتاب « ميونيخ » لويلر بنيت وكتاب « ميونيخ من قبل ومن بعد » لهيربرت ريبكا ،وكتاب«حافرو قبر فرنسا» لبيرتيناكس).

والعشرين من ايلول ، وقبلت الاقتراحات الانكليزية – الفرنسية . وصدر بلاغ حكومي رسمي يقول بلهجة تنطوي على المرارة والألم « لم يكن ثمة مجال للخيار فقد غدونا وحدنا في الميدان » . ورسم بنيش في حديث خاص ، الوضع بصورة اكثر ايجازاً فقال : « لقد خانونا بشكل وضيع » . واستقالت الحكومة التشيكية في اليوم التالي وقام الفريق جان سيردفي المفتش العام للجيش بتأليف حكومة جديدة للتركيز الوطني » .

تشمبرلين في غودسبرغ

٢٢ – ٢٣ ايلول

استحوذ القلق على تشمبرلين وهتلر عندما اجتمعا في مدينة غودسبرغ الصغيرة في حوض الراين بعد ظهر الثاني والعشرين من ايلول على الرغم من أن تشمبرلين قد حمل لهتلر كل ما طلبه عندما اجتمعا في برختسغادن قبل مدة قصيرة . فلقد هرع القائم بالأعمال الالماني في لندن بعد أن ودع رئيس الوزراء في المطار ، إلى مكتبه ليبرق إلى برلين قائلاً : « لقد غادرنا تشمبرلين وصحبه، وقد خيم عليهم جو ثقيل من القلق ... وليس ثمة من شك في أن المعارضة آخذة في الازدياد لسياسة تشمبرلين » .

وكان هتلر في حالة عصبية عنيفة . ولقد كنت اجلس في صباح الثاني والعشرين من ايلول اتناول فطوري على شرفة فندق دريسين ، حيث تقرر ان تدور المباحثات ، عندما مر بي هتلر في طريقه الى شاطىء النهر ليرى يخته . وبدت في وجهه اختلاجة غريبة . إذ كان كلما خطا بعض خطوات ، يرفع كتفه الأيمن بصورة عصبية ، بينما ترتفع ساقه اليسرى مع هذا الكتف . وكانت هناك بقع سوداء تظهر واضحة على جفنيه . وبدا لي ، كما دوّنت في يومياتي وكأنه على عتبة إنهيار عصبي . وتمتم رفيقي الألماني قائلاً .. لقد غدا فاقد الاتزان ، وكان هذا الرفيق محرراً يزدري النازيين بصورة سرية . وراح يوضح ان هتلر

كان في حالة أقرب الى الجنون ، بالنسبة إلى التشيكيين وذلك في غضون الايام القليلة الماضية ، حتى انه كان يفقد سيطرته على نفسه في اكثر من مناسبة ، قاذفاً بنفسه الى الارض يلوك طرف البساط بأسنانه . ومن هنا نشأ التعبير ... « آكل البسط » . وكنت قد سمعت هذا التعبير ، وقد ورد على ألسنة بعض المتهامسين ، في الليلة السابقة عندما كنت اتحدث الى بعض رجال الحزب في دريسين [1] .

وعندما وصل تشمبرلين إلى غودسبرغ ، بدا في أروع حالاته على الرغم من تشاؤمه من المعارضة المتزايدة لسياساته في الوطن ، وراح يجتاز في السيارة التي وضعت تحت تصرفه الشوارع المزدانة بأعلام الصليب المعقوف «واليونيون جاك» ، إلى المكان الذي أُعد لنزوله في فندق « بيترز هوف » وهو فندق كالقلعة يقوم على قمة « بيترزبرغ » على الضفة الثانية من «الراين» . وكان قد جاء ليحقق لهتلر كل ما طلبه في اجتماع برختسغادن بل وأكثر مما طلب . ولم يبق عليه الآن إلا أن يتفق معه على التفاصيل ، ولهذا السبب فقد استصحب معه بالاضافة الى السير هوراس ويلسون ووليام سترانغ ، والأخير من خبراء وزارة الخارجية البريطانية في شؤون اوروبا الشرقية السير ويليام مالكين رئيس الدائرة القانونية واعداد المعاهدات في وزارة الخارجية .

وعبر رئيس الوزراء نهر الراين في ساعة متأخرة من المساء ، في عبّارة الى فندق دريسين [2] ، حيث كان هتلر في انتظاره. وراح تشمبرلين في بداية الاجتماع على الأقل يتولى زمام الحديث . وبعد أن شرح رئيس الوزراء ما بذله من جهود قضى أكثر من ساعة في الحديث ، كما توحي الملاحظات المسهبة التي دونها الدكتور شميدت عن الاجتماع [3] ، وقد وصف في حديثه «المفاوضات المضنية»

---

١ ــ يوميات برلين ــ للمؤلف ص ١٣٧

٢ ــ انطلق هتلر من هذا الفندق نفسه ، الذي يديره الهر دريسين ، احد اخدانه القدامى في الحزب ليلة ٢٩ ــ ٣٠ حزيران ١٩٣٤ لقتل روهم وتنفيذ عملية التطهير الدامية . وكان هتلر يلجأ دائماً الى هذا الفندق كمكان للانزواء يستجمع فيه افكاره ويحزم أمره .

٣ ــ اهم مصادر اجتماع غودسبرغ هي ما يلي : الملاحظات التي دونها شميدت ، وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٢) ص ٨٧٠ ــ ٨٧٩ و ٨٩٨ ــ ٩٠٨ ، كتاب شميدت ترجمان هتلر ص ٩٥=

التي قام بها والتي مكنته من حمل الحكومات البريطانية والفرنسية والتشيكية على قبول طلبات الفوهرر . ثم أخذ يشرح بتفصيل واف الوسائل التي يمكن اللجوء اليها لتنفيذها . وقد قبل نصيحة رانسيان وبات على استعداد للرضى بانتقال ملكية بلاد السوديت الى المانيا دون أي استفتاء. أما بالنسبة الى المناطق المختلطة ، فيمكن تقرير مصيرها عن طريق لجنة تضم ثلاثه أعضاء ، أحدهم ألماني ، والثاني تشيكي ، والثالث من المحايدين .

وبدا كل شيء بسيطاً ومعقولاً ومنطقياً لرجل الأعمال البريطاني المحب للسلام الذي غدا رئيساً لوزراء بريطانيا . وتوقف عن الحديث وهو بادي الرضى عن نفسه ، كما ذكر شاهد عيان ، ينتظر رد فعل هتلر .

وقال هتلر يسأل ضيفه : « هل افهم من هذا أن الحكومات البريطانية والفرنسية والتشيكية قد قبلت بنقل اراضي السوديت من تشيكوسلوفاكيا الى المانيا ؟ » [1] . ولقد روى لتشمبرلين فيما بعد انه ذهل من ضخامة التنازلات التي قدمت اليه بمثل هذه السرعة .

وقال رئيس الوزراء البريطاني وهو يبتسم ... أجل .

وقال هتلر ... انني آسف جداً فبعد احداث الايام الاخيرة لم لم يعد لهذه الخطة اي جدوى .

ويروي شميدت أن تشمبرلين جلس ذاهلاً . وتضرج وجهه الذي يشبه وجه

=١٠٢ ، وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٢) ص ٨٨٧ ــ ٨٩٢ ، وثائق وزارة الخارجية البريطانية ــ الحلقة الثانية . ص ٤٦٣ ــ ٤٧٣ ، ٤٩٩ ــ ٥٠٨ ،وكتاب « فشل بعثة» لهندرسون ص ١٥٦ ــ ١٦٢ .

١ ــ عرف هتلر ان التشيكيين قد قبلوا الاقتراحات الانكليزية الفرنسية . وقد سجل يودل في يومياته انه في الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح ٢١ ايلول ، اي قبل وصول تشمبرلين الى غودسبرغ بيوم واحد ، تلقى هاتفاً من مرافق الفوهرر يقول ان هتلر تلقى انباء تقول أن براغ قد وافقت دون قيد أو شرط . وفي الساعة ١٢،٤٥ سجل يودل، ما يلي « صدر الأمر الى رؤساء الدوائر بمواصلة الاستعدادات للعملية الخضراء مع الاستعداد لكل امكانيات التغلغل السلمي» (المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٣٦٧) ، ومن المحتمل على أي حال ان لا يكون هتلر قد عرف بالشروط التي قبلها التشيكيون .

« البوم » بجمرة الغضب والدهشة . ولكن هذه الحمرة لم تكن حمرة السخط على أن هتلر قد خدعه ، وانه كأي « بلطجي » عادي ألف الابتزاز بالتهديد ، قد رفع مطالبه الآن بعد ان قبلت مطالبه الأولى . وقد شرح رئيس الوزراء مشاعره في هذه اللحظة في تقرير قدمه الى مجلس العموم بعد بضعة ايام قال فيه :

« أنا لا اريد من المجلس أن يتصور بأن هتلر قد خدعني عامداً متعمداً ، فأنا لا اعتقد بصحة ذلك لحظة واحدة . أما بالنسبة إلي فقد توقعت عندما عدت الى غودسبرغ أن ابحث معه الاقتراحات التي حملتها معي . وقد اصبت بصدمة عنيفة عندما قيل لي أن هذه الاقتراحات باتت غير مقبولة » .

وهكذا رأى تشمبرلين ان صرح السلام الذي « أجهد نفسه » في بنائه على حساب التشيكيين قد انهار كما ينهار بيت من الورق . ولذا فقد اصيب كما قال لهتلر « بخيبة الأمل والدهشة . » وكان في وسعه ان يقول ان الفوهرر قد حصل منه على كل ما طلبه .

وقد غامر تشمبرلين في سبيل تحقيق ذلك بكل مستقبله السياسي ... وقد اتهمته بعض الجهات في بريطانيا العظمى بأنه باع تشيكوسلوفاكيا وخانها ، وانه استسلم للديكتاتورية ، وعندما غادر انكلترة في ذلك اليوم انطلقت الأصوات ساخرة منه .

ولكن الفوهرر لم يتأثر بحالة رئيس الوزراء الشخصية . فمن الضروري أن تحتل المانيا منطقة السوديت فوراً . ومن الضروري أن تحل المشكلة « حلاً كاملاً ونهائياً قبل الاول من تشرين الاول على أكثر تقدير » . وكانت هناك خريطة جاهزة توضح المناطق التي يجب تسليمها فوراً .

وهكذا اكتظ عقل رئيس الوزراء البريطاني كما ذكر لأعضاء مجلس العموم فيما بعد ، بالأفكار السيئة ، وانسحب عبر نهر الراين « ليدرس ما يتحتم عليه عمله » . ولم يكن ثمة كبير أمل في ذلك المساء حتى انه عندما استشار عن طريق الهاتف اعضاء وزارته تلك الليلة ، وكذلك اعضاء الحكومة الفرنسية ، اتفق

على أن تقوم لندن وباريس بابلاغ الحكومة التشيكية في اليوم التالي بأن ليس في وسعها « ان تواصلا حمل مسؤولية نصحها بعدم اعلان التعبئة العامة [1] » .

وهتف الفريق كايتل في الساعة السابعة والثلث من ذلك المساء الى قيـــادة الجيش العامة يقول : « لا نستطيع حتى الآن تحديد موعد الغزو . واصلوا الاستعداد طبق الخطة المرسومة . اذا قدر للعملية الخضراء ان تقع فلن يكون ذلك قبل الثلاثين من ايلول . أما اذا وقعت في موعد اقرب، فانها ستكون مرتجلة في مثل هذه الحالة » [2] .

وهكذا وجد هتلر نفسه في ورطة حرجة . فعلى الرغم من جهل تشمبرلين بالحقيقة كان الفوهرر يهدف كما ظهر من التوجيه الذي بعث به الى القيادة العامة للقوات المسلحة بعد ازمة ايار الى « تدمير تشيكوسلوفاكيا بالعمل العسكري المباشر ».ولا يعني قبول المشروع الانكليزي – الفرنسي ، الذي وافق عليـــه التشيكيون ، برمين متذمرين، مجرد حصول هتلر على ما يريده من ضم السوديت الألمان الى بلاده ، بل يعني ايضاً تدمير الدولة التشيكية تـدميراً فعلياً ، لا سيما وانه سيترك الدولة التشيكية عزلاء من كل وسائل الدفاع . ولكن هذه الاهداف لم تتحقق عن طريق العمل العسكري ، وكان الفوهرر عـــازماً لا على اذلال الدكتور بنيش والحكومة التشيكية ، لمـــا ارتكباه من اساءة له في شهر ايار فحسب ، بل وعلى الكشف عن جبن الدولتين الغربيتين وخورهما أيضاً . ولهذا السبب وحده على الاقل، كان من الضروري أن يتم الاحتلال بطريقة عسكرية . وقد يكون هذا الاحتلال دون أي سفك للدماء كما حدث في النمسا ، ولكنه احتلال عسكري عـلى أي حـــال . فمن الواجب أن يثأر من تلك الدولة التشيكية الحديثة النعمة وينتقم منها .

ولم يدر أي اتصال آخر بين الرجلين في تلك الليلة . وهكذا نامـــا على المشكلة ، وعندما افاق تشمبرلين في الصباح التالي ، واخذ يذرع شرفة الجناح

---

١ ـ بدأت التعبئة العامة التشيكية فعلا في العاشرة والنصف من مساء الثالث والعشرين من ايلول .

٢ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٣٦٧ .

الذي يقيم فيه والمطلة على نهر الراين ، طولاً وعرضاً ، جلس بعد أن تناول افطاره ، يسطر رسالة الى هتلر ، يقول فيها انه سيقدم طلبات المانيا الجديدة الى التشيكيين وان كان غير واثق من قبولهم لها . وهو على ثقة من ان التشيكيين سيعارضون في الحقيقة ، في أي احتلال فوري من جانب القوات الألمانية . ولكنه على استعداد لأن يقترح على براغ ، طالما أن جميع الفرقاء قد وافقوا على نقل مناطق السوديت الى المانيا ، بأن يتولى السوديت انفسهم الاشراف على الأمن والنظام في منطقتهم الى أن يتم تسليمها الى الرايخ .

ولكن هتلر لن يقبل بمثل هذا الحل الوسط . وبعد أن جعل رئيس الوزراء ينتظر معظم ساعات النهار ، راح يرد عليه بمذكرة مقذعة وناطقة بالمرارة مكرراً شكاواه من مساوىء التشيكيين وما اقترفوه في حق الألمان ، ومجدداً رفضه لأي تعديل في موقفه ، ومتوصلاً الى النتيجة القائلة « بأن الحرب غدت أمراً لا مناص منه » . وكان رد تشمبرلين قصيراً ، فقد طلب من هتلر ، أن يقدم اليه طلباته خطياً مشفوعة بخريطة ، وتعهد بأن يبعث بها « كوسيط » الى براغ . وانتهى من رسالته قائلاً : « لا أعتقد أن في وسعي أن اؤدي أية خدمة أُخرى هنا . ولذا فإنني سأعود الى انكلترا »

ولكنه قبل أن يعود جاء مرة ثانية الى فندق دريسين ليجتمع بهتلر للمرة الأخيرة . وقد بدأ هذا الاجتماع في الساعة العاشرة والنصف من مساء الثالث والعشرين من أيلول . وقدم هتلر طلباته في شكل مذكرة ، وأرفقها بخريطة . ووجد تشمبرلين نفسه يواجه حداً زمنياً جديداً . فعلى التشيكيين أن يبدأوا بالجلاء عن المنطقه في الساعة الثامنة من صباح السادس والعشرين من أيلول — أي بعد يومين — وأن يكملوه قبل الثامن والعشرين .

وراح تشمبرلين يهتف قائلاً ... « ولكن هذا لا يعدو أن يكون انذاراً نهائياً » ورد هتلر ... « لا انه ليس بإنذار » . وعندما قال تشمبرلين ان كلمة « إملاء » الألمانية تنطبق على الوضع رد هتلر قائلاً : « كلا ، انه ليس املاء ابداً . انظر لقد استعملت في الوثيقة عبارة « مذكرة » .

ودخل مرافق عسكري في هذه اللحظة يحمل الى الفوهرر رسالة عاجلة . فتطلع اليها ثم دفع بها الى شميدت ترجمانه قائلاً : « اقرأ هذه للمستر تشمبرلين » .

وقرأها شميدت . « كان بنيش قد أذاع قبل قليل اعلان التعبئة العامة في تشيكوسلوفاكيا » .

وساد الغرفة كما ذكر شميدت فيما بعد صمت مطبق. ... ثم راح هتلر يتحدث وقال : « والآن ، لقد تقرر كل شيء بالطبع . فالتشيكيون لا يريدون ان يسلموا المانيا أية منطقة من البلاد » .

ويروي شميدت ايضاً ، أن تشمبرلين خالفه رأيه هذا . ودار بين الرجلين في الحقيقة حديث عاصف .

وقال هتلر : لقد كان التشيكيون البادئين بالتعبئة، ولكن تشمبرلين اعترض على هذا القول مؤكداً أن المانيا كانت البادئة... ونفى الفوهرر أن تكون المانيا قد عبأت قواتها .

واستمر الحديث على هذا النحو حتى الساعات الأولى من الصباح . واخيراً سأل تشمبرلين ، إذا كانت هذه المذكرة « هي كلمة هتلر الاخيرة فعلاً؟ » ، فرد هتلر بأنها الكلمة الاخيرة .

وقال رئيس الوزراء ، انه لم يعد ثمة جدوى من الاستمرار في المحادثات . لقد بذل وسعه ، ولكن جهوده منيت بالفشل . وها هو يقرر العودة ، وفؤاده مفعم بالأسى ، لأن الآمال التي حملها عندما جاء إلى المانيا قد انهارت .

ولكن الديكتاتور الألماني لم يرغب في ابتعاد تشمبرلين عن« الطعم ».وهكذا فقد رد عارضاً « تنازلاً واحداً » إذ قال ... « إنك ولا ريب أحد الرجال القلائل الذين اتساهل معهم على النحو الذي سأذكره الآن . انني على استعداد لتحديد موعد واحد للجلاء التشيكي ، وهو الأول من تشرين الأول ، إذا كان هذا التحديد يسهل عليك مهمتك » . والتقط قلماً ، وغير به الموعد بنفسه . وبالطبع لم يكن هذا تنازلاً . إذ أن الاول من تشرين الأول هو موعد الغزو[1].

---

١ ـ طلبت المذكرة سحب جميع القوات التشيكية المسلحة بما في ضمنها الشرطة. قبل الاول من=

ولكن يبدو أن هذا التنازل أثر على رئيس الوزراء . إذ سجل شميدت أنه قال : « إنني أُقدر تماماً موقف الفوهرر من هذه النقطة » . ولكنه أضاف بأنه ليس في وضع يمكنه من قبول الإقتراحات أو رفضها ، وأنه سيقوم بنقلها على أي حال .

لكن الجليد قدتحطم كما يقولون . وعندما انفض الاجتماع في الساعة الواحدة والنصف صباحاً ، بدا الرجلان ، رغم كل ما حدث ، قريبين من الناحية الشخصية لبعضهما ، أكثر من أي وقت مضى منذ اجتمعا لأول مرة ورحت أرقب الرجلين من نقطة مواتية ، إذ أقمت في غرفة البواب « استديو » مؤقتاً للإذاعة ، وهما يودعان بعضهما على باب الفندق ، ودهشت من هذا الود الشخصي القائم بينهما. ودوّن شميدت بالطبع الكلمات التي تبادلاها والتي لم استطع سماعها.

« وودع تشمبرلين الفوهرر وداعاً حاراً . وقال له أنه يحس بقيام علاقة من الثقة بينه وبين الفوهرر نتيجة المحادثات التي دارت في الأيام القليلة الماضية ... وأكد أنه لم يتوقف عن الايمان بإمكان التغلب على الأزمة العصيبة الراهنة. وأضاف ان مما يسره غاية السرور العودة إلى البحث معه في المشاكل الأخرى التي ما زالت معلقة ، بنفس الروح ».

« وقد شكر الفوهرر للمستر تشمبرلين ما قاله ، واكد له انه يحمل نفس آماله. وعاد يكرر ما سبق له ان قاله من أن المشكلة التشيكية هي آخر مطلب اقليمي له في أوروبا ».

ويبدو أن هذا التخلي عن فكرة اغتصاب أية أراض أُخرى قد أثرت على

=تشرين الاول من منطقة واسعة صبغت باللون الأحمر على الخريطة . كما طلبت إجراء إستفتاء لتقرير المصير في مناطق اخرى اشير اليها باللون الأخضر . ونصت المذكرة على وجوب بقاء كافة الأماكن العسكرية في المناطق التي سيجلى عنها سليمة ، وكذلك على تسليم جميع وسائل المواصلات والسكك الحديدية إلى الألمان سليمة ، وعلى عدم نقل أية مواد غذائية او سلع او ماشية او مواد اولية من المنطقة (وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٢) ص ٩٠٨ ـ ٩١٠) واشترطت المذكرة عدم السماح لمئات الالوف من التشيكيين في بلاد السوديت بنقل امتعتهم البيتية او مواشيهم عند نزوحهم إلى تشيكوسلوفاكيا .

رئيس الوزراء أيضاً ، إذ أنه في تقريره التالي إلى مجلس العموم أكد أن هتلر قد تقدم بهذا الوعد بمنتهى الجدية والصدق .

وعندما وصل تشمبرلين إلى فندقه حوالي الساعة الثانية صباحاً ، سأله أحد الصحفيين ... « هل الوضع يائس يا سيدي ؟ »

فرد رئيس الوزراء « لا أود أن أقول ذلك . فالموقف يعتمد الآن على التشيكيين »[١] .

ولم يخطر بباله ان يقول ، ان الموقف يعتمد على الألمان ايضاً بمطالبهم التي تنطوي على الغلو .

ولم يكد رئيس الوزراء يعود إلى لندن في الرابع والعشرين من ايلول ، حتى أخذ يحاول القيام بما سبق له التأكيد لهتلر بأنه لن يفعله ، وهو اقناع الوزارة البريطانية بقبول مطالب المانيا . ولكنه وجد الآن معارضة لم يكن يتوقعها ، فقد عارضه دف كوبر وزير البحرية معارضة عنيدة . ومن الغريب ان اللورد هاليفاكس قد وقف نفس الموقف ايضاً ، ولكن مع شيء من التردد . وعجز تشمبرلين عن اقناع اعضاء وزارته برأيه ، كما عجز عن اقناع الحكومة الفرنسية التي رفضت في الرابع والعشرين مذكرة غودسبرغ ، واعلنت التعبئة الجزئية في نفس اليوم .

وعندما وصل الوزراء الفرنسيون الى لندن برئاسة ديلادييه رئيس الوزراء يوم الأحد في الخامس والعشرين من ايلول ، تلقت الحكومتان الرفض الرسمي من الحكومة التشيكية لاقتراحات غودسبرغ[٢] . ولم يكن ثمة من سبيل للفرنسيين إلا ان يؤكدوا لتشيكوسلوفاكيا بأنهم سيحافظون على تعهدهم وسيمضون إلى مساعدتها اذا هوجمت . ولكنهم ارادوا الاطمئنان أولاً إلى موقف بريطانيا . واخيراً وجد تشمبرلين نفسه محصوراً في زاوية ، فوافق على ابلاغ هتلر ، بأن بريطانيا ستجد

---

١ ــ التايمز اللندنية عدد ٢٤ ايلول ١٩٣٨ .

٢ ــ كان الرد التشيكي مؤثراً وينطوي على شيء من التنبؤ . فقد ذكر أن اقتراحات غودسبرغ تحرم تشيكوسلوفاكيا من كل ضمانة لسلامتها الوطنية . (الكتاب البريطاني الابيض ٥٨٤٧ . رقم(٧))

نفسها مضطرة لمساعدة فرنسا ، في حالة اشتباكها في حرب مع المانيا نتيجة التزاماتها التعاهدية للتشيكيين .

واراد تشمبرلين أولاً التقدم بنداء اخير الى الديكتاتور الألماني . وكان من المقرر ان يلقي هتلر خطاباً في الميدان الرياضي في برلين في السادس والعشرين من ايلول . ورغبة منه في اقناع هتلر بألا يحرق كافة جسوره، أوفد في السادس والعشرين من ايلول مساعده المخلص السير هوراس ويلسون إلى برلين على متن طائرة خاصة تحمل رسالة شخصية منه إلى هتلر .

وغرق الألمان في جو من الكآبة والوجوم بعد سفر تشمبرلين من دريسين في الساعات الأولى من الرابع والعشرين من أيلول . فقد بدا للجميع أنهم أصبحوا على شفير الحرب وكان بعضهم على الأقل لا يحب خوضها . وقد تأخرت في الفندق بعض الوقت حيث تناولت عشاء متأخراً . ورأيت غورنغ وغوبلز وريبنتروب والفريق كايتل وبعض الرجال الآخرين الأقل شأناً يقفون وقد خاضوا في حديث جدي . ورأيتهم ذاهلين تقريباً من توقع الحرب .

وعندما عدت إلى برلين في ساعة متأخرة من ذلك اليوم ، وجدت أن الآمال قد عادت إلى الإنتعاش . وكان الاحساس الذي يسود الولهلمشتراسة (مقر وزارة الخارجية الألمانية) أن تشمبرلين بوصفه رئيساً لوزراء بريطانيا لا بد وأن يكون مؤيداً لاقتراحات هتلر ، طالما أنه وافق على نقلها إلى براغ . ولقد رأينا أن هذا الإفتراض كان صحيحاً .

وشهدت برلين في الخامس والعشرين من ايلول يوماً رائعاً من أيام الصيف التي تشبه أيامه في الهند ، فقد كان النهار دافئاً ومشمساً، ولما كانت هذه هي آخر عطلة اسبوع تمتاز بمثل هذا الطقس في ذلك الخريف ، فإن أكثر من نصف سكان العاصمة مضوا إلى البحيرات والغابات التي تحيط بالعاصمة . وعلى الرغم من أن الأنباء قد تناقلت ثورة هتلر على رفض كل من باريس ولندن وبراغ لانذار غودسبرغ ، إلا أنه لم يكن ثمة شعور لوجود أزمة كبيرة ، ولا إحساس بحمى الحرب في برلين . وقد سجلت في يومياتي في ذلك المساء ما نصه : « من الصعب

على المرء أن يصدق أن الحرب واقعة »[1]

وكان هناك تبدل نحو الأسوأ في يوم الاثنين الذي تلا عطلة نهاية الأسبوع . فقد وصل إلى دار المستشارية في الساعة الخامسة مساء ، السير هوراس ويلسون يرافقه السفير هندرسون وإيفون كيركباتريك السكرتير الأول في السفارة البريطانية يحملون رسالة تشمبرلين[2] . وقد وجدوا هتلر في حالةمزاجيةسيئة . إلا أنه كان على ما يبدو يحاول أن يعدنفسه لمستوى لائق لخطاب الميدان الرياضي الذي كان سيلقيه بعد ثلاث ساعات .

وعندما شرع الدكتور شميدت في ترجمة الرسالة التي بينت أن الحكومة التشيكية قد أبلغت رئيس الوزراء ، أن مذكرة غودسبرغ « مرفوضة كل الرفض » ، تماماً كما كان قد توقع أثناء محادثاتها في غودسبرغ ، قفز هتلر فجأة صارخاً « ليس ثمة من منطق في استمرار التفاوض » ، واتجه نحو الباب[3] .

ويقول المترجم الألماني أن المنظر كان مؤلماً ، « فلأول مرة ولعلها المرة الوحيدة ، رأيت هتلر ، وقد فقد عقله » . وروى البريطانيون الحاضرون أن الفوهرر عاد فوراً إلى مقعده ، مواصلاً مقاطعته لتلاوة الرسالة بالهتاف قائلاً ... « ان الألمان يعاملون الآن وكأنهم زنوج ... حسناً سأفعل بتشيكوسلوفاكيا ما أُريد في الأول من تشرين الأول وإذا كانت فرنسا وانكلترا ستقرران الحرب ... فلتفعلا ذلك .... ولن تهمني حربها قيد شعرة » .

وكان تشمبرلين قد اقترح في رسالته أن يعقد ممثلون عن ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا نظراً لاستعداد الأخيرة لاعطاء هتلر ما يريد من المناطق السوديتية ، اجتماعاً في أقرب وقت ممكن ليقرروا « عن طريق الاتفاق الطريقة التي سيتم التسليم

---

١ ـ سارع المراسلون الصحفيون البريطانيون والفرنسيون ورئيس مراسلي النيويوركتايمس في اوروبا وهو انكليزي الجنسية إلى مغادرة المانيا بعد انتهاء محادثات غودسبرغ ، إلى الحدود الفرنسية والبلجيكية والهولندية ، إذ أنهم جميعاً لم يرغبوا في أن يعتقلوا في حالة نشوب الحرب .

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٩٩٤ ـ ٩٩٥ .

٣ ـ ترجمان هتلر ـ الدكتور شميدت ص ١٠٢ ـ ١٠٣ . ووثائقوزارة الخارجية البريطانية الحلقة الثالثة (٢) رقم ١ ص ١١٨ .

فيها » . وأضاف أنه يرغب في اشراك الممثلين البريطانيين في هـذا الاجتماع . وكان رد هتلر أنه على استعداد للتفاوض في التفاصيل اذا كان التشيكيون يقبلون سلفاً بمذكرة غودسبرغ (التي كانوا قد رفضوها) ،واذا كانوا يوافقون على أن يحتل الألمان اراضي السوديت في الأول من تشرين الأول . وأضاف أنه يريد جواباً بالايجاب في غضون اربع واربعين ساعة اي قبل الثـانية من مساء الثامن والعشرين من ايلول .

واحرق هتلر في تلك الليلة جميع جسوره ، أو هكذا بدا لنـا نحن الذين اصغينا إلى اندفاعه الجنوني في الميدان الرياضي المكتظ في برلين . فلقـد راح يصرخ ويزعق في اسوأ نوبة رأيته فيها في حياتي ، ويوجه اقذع السباب والشتائم المسمومة إلى « الهر بنيش » ، قائلاً أن مستقبل السلام أو الحرب متوقف الآن على الرئيس التشيكي ، ومؤكداً انـه سيحتل اراضي السوديت في الأول من تشرين الأول مهما كانت النتائج ، واندفع مع تيار الكلمات الغاضبة التي تنطلق من فيه ، وتأثر بالهتافات الداوية التي واجهته الجماهير بها ، ومع ذلك فقـد احتفظ بدهائه ليقدم « طعماً » جديداً إلى رئيس وزراء بريطانيا ، إذ وجـه اليه الشكر على ما بذله من جهد لاحلال السلام ، ثم عاد يؤكد أن هذه هي آخر مطالبه الأقليمية في اوروبا ، ثم تمتم بازدراء قائلاً : « لا نريد أياً من التشيكيين في بلادنا » .

وجلست طيلة الفترة التي القى فيها هتلر خطابه في شرفة تعلو المكان الذي وقف فيه ، محاولاً دون أي نجاح يذكر ، أن اذيع ترجمة فورية لكلماتـه . ودوّنت في يومياتي تلك الليلة ما نصه :

« بدا لي الليلة لأول مرة طيلة السنوات العديدة التي عرفته فيها ، وكأنه قد فقد سيطرته على اعصابه تماماً . وعندما انتهى من خطابه ، واقتعـد مجلسه ، قفز غوبلز ليصرخ في مكبر الصوت ... « نحن واثقون من شيء واحد ، وهو ان عام ١٩١٨ لن يتكرر أبداً » . وتطلع اليه هتلر ، وقد بدا في وجهه تعبير متلهف واتقدت عيناه ببريق وحشي . انها عين الكلمات التي كان يبحث عنهـا

طيلة المساء ولم يستطع العثور عليها . ورأيته يقفز على قدميه ، واتقدت عيناه ببريق جنوني لن انساه ما حييت وضرب بيمناه بعد حركة طويلة على المنصة ، وصرخ بكل ما لديه من قوة . . . « نعم » ، ثم عاد يسترخي في مقعده منهوكاً.

وكان قد استعاد زمام السيطرة على أعصابه عندما استقبل السير هوراس ويلسون للمرة الثانية ظهر اليوم التالي أي السابع والعشرين من أيلول ، وهو رجل يفتقر إلى التجربة الدبلوماتية وإن كان تواقاً كتوق رئيس الوزراء ان لم يبزّه فيه لاعطاء هتلر اراضي السوديت ، إذا كان الديكتاتور يوافق على أخذها سلماً ، وراح ويلسون يلفت انتباه هتلر إلى بيان خاص صدر عن تشمبرلين في لندن بعيد منتصف الليلة الماضية رداً على خطاب هتلر في الميدان الرياضي . فلقد ذكر تشمبرلين أنه بالنظر إلى عدم ثقة المستشار بالوعود التشيكية ، فإن الحكومة البريطانية تعتبر نفسها «مسؤولة مسؤولية معنوية» عن ضمان تنفيذ الوعود التشيكية « تنفيذاً عادلاً وكاملاً وبمنتهى العزيمة » وأعرب تشمبرلين عن أمله في أن لا يرفض المستشار اقتراحه .

ولكن هتلر لم يبد أي اهتمام بهذا الإقتراح . وقال للمبعوث ، أنه ليست لديه رسالة أُخرى يوجهها إلى المستر تشمبرلين . فالموقف الآن يعتمد على التشيكيين . وفي وسعهم إما أن يوافقوا على مطالبه أو أن يرفضوها . وراح يصرخ غاضباً . . . وإذا رفضوها « فسأحطم تشيكوسلوفاكيا ». وظل يكرر هذا التهديد بشيء من التذوق والتلذذ .

وكان هذا أكثر مما يحتمل حتى ويلسون المتسامح ، إذ قفز من مقعده وقال : « اذن ففي مثل هذه الحالة ، انا مكلف من رئيس الوزراء ، بأن اتلو البيان التالي : « إذا أصبحت فرنسا وفاء منها لالتزاماتها التعاهدية ، في حالة حرب فعلية مع المانيا ، فإن المملكة المتحدة ستجد نفسها مضطرة إلى معاونة فرنسا » .

ورد هتلر بشيء من الحماس . . . « لا أستطيع إلا أن أُلاحظ هذا الموقف أنه يعني أن فرنسا إذا اختارت أن تهاجم المانيا فإن انكلترا ستجد نفسها مضطرة لمهاجمتها أيضاً » .

وعندما رد السير هوراس ، بأنه لم يعن ذلك ، وإنما الموضوع أصبح الآن بين

يدي هتلر الذي يستطيع أن يقرر ما إذا كانت الحرب واقعة أو أن السلام باق، راح هتلر ينفجر مزيداً ... «إذا أرادت فرنسا وانكلترا أن‌تضربا ، فلتفعلا ذلك . فهذه قضية لا تهمني كثيراً . إننا الآن في يوم الثلاثاء . وسنكون يوم الاثنين القادم في حالة حرب » .

وتقول تسجيلات شميدت الرسمية عن المقابلة ، ان ويلسون بدا وكأنه يود الاستمرار في الحديث ، ولكن السفير هندرسون نصحه بالتوقف . ولكن هذه النصيحة لم تحل بين المبعوث الخاص المفتقر الى الخبرة الدبلوماتية وبين ان يتبادل كلمة على انفراد مع الفوهرر عندما انتهى الاجتماع . وقال هوراس : «سأحاول أن أحمل هؤلاء التشيكيين على التزام العقل والمنطق »[1] ورد هتلر قائلاً : « انني ارحب بذلك » . ومن المحتمل ان يكون الفوهرر قد ظن بأن في سعه أن يتملق لتشمبرلين وأن يدفعه الى حمل التشيكيين على التعقل والمنطق . وراح في تلك الليلة ، يملي رسالة الى رئيس الوزراء تنطوي على الدهاء .

وكانت هناك مبررات عدة لكتابة هذه الرسالة . فلقد حدث الكثير في برلين وفي غيرها في ذلك اليوم السابع والعشرين من ايلول .

ففي الساعة الواحدة مساء ، اي بعد سفر ويلسون بقليل اصدر هتلر امراً سرياً للغاية ، موعزاً الى وحدات الهجوم المؤلفة من احدى وعشرين كتيبة أي نحواً من سبع فرق ، بالتحرك فوراً من مناطق تدريبها نحو نقاط القفز على الحدود التشيكية . ومضى الأمر يقول ... « على هذه الوحدات ان تكون متأهبة للبدء بالعملية الخضراء في الثلاثين من ايلول ، بعد أن اتخذ القرار بالشروع في العمل قبل يوم واحد عن الموعد السابق ».وبعد بضع ساعات اصدرهتلر امراً آخر بتعبئة سرية جديدة . وهكذا تمت تعبئة خمس فرق اخرى لتكون مع بعض الاجراءات الاخرى جاهزة في الغرب .

ولكن على الرغم من مضي هتلر في استعداداته العسكرية فقد وقعت تطورات

---

١ ـ توجد تأكيدات ويلسون باللغة الانكليزية في تسجيلات شميدت الألمانية الأصلية .
٢ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٣٥٠ ـ ٣٥٢ .

أُخرى في ذلك اليوم حملته على بعض التردد . فلقد أمر الفوهرر رغبة منـه في استثارة الحماس للحرب عند السكان باجراء عرض لفرقةمدرعة في شوارع العاصمة بعد الغروب ، أي في الساعة التي يكون فيهـا مئات الالوف من البرلينيين خارجين من مكاتبهم إلى الشوارع . ولكن هذا العرض تحول إلى مهزلة ، بالنسبة إلى القائد الأعلى على الأقل . فلقد عـزف شعب برلين الطيب عـن قبول أي تذكير بالحرب . وقد سجلت في يومياتي لتلك الليلة المنظر المدهش التالي :

« خرجت إلى زاوية شارع ليندن ، حيث كان رتل من الجنود يسير ماراً بالولهلمشتراسة ، وتوقعت أن أرى مظاهرة هائلة. وعادت إلى مخيلتي المناظر التي كنت قد قرأت عنها عندمـا جرى عرض مماثل في عـام١٩١٤ ، وخرجت الجماهير الهاتفة إلى نفس الشارع تقذف بالزهور على الجنود المستعرضين ، وراحت الفتيات يهجمن عليهم ليقبلنهم .أما اليوم، فقد اعتكف الناس في الشوارع الفرعية ، ورفضوا التطلع إلى الاستعراض ، بينما وقفت حفنات من الرجال في المنعطفات وقد خيم عليها صمت ثقيل ... ولقد كانت هذه المظاهرة أقوى احتجاج على الحرب رأيته في حياتي » .

ومضيت بطلب من رجـال الشرطة اعبر أمام الولهلمشتراسة الى ميدان المستشارية حيث وقف هتلر على شرفة الدار الرسمية يستعرض الجنود .

« ولم يكن هناك اكثر من مائتي إنسان . وبـدا هتلر عابساً مقطباً ، ثم أشتد غضبـه ، ومضى الى الداخل ، تاركاً الجنود يستعرضون دون أن يكون هناك من يستعرضهم . ولا ريب في أن ما رأيته الليلة يبعث على شيء من الثقة ، بالشعب الالماني . أنـه يعارض الحرب معارضة شديدة » .

وكانت هناك داخل دار المستشارية انباء سيئة أُخرى تنتظر هتلر ، وصلت اليه من الخارج . فهناك برقية من بودابست تقول أن يوغوسلافيا ورومانيا ابلغتا الحكومة المجريـة بأنها ستهاجمان المجر عسكرياً في حالة هجومهـا هي على

تشيكوسلوفاكيا . وكان هذا يعني إمتداد نيران الحرب إلى البلقان وهو امر لا يريده هتلر مطلقاً .

وكانت أنباء باريس أشد خطورة .فلقد وردت برقية « مستعجلة جداً» من الملحق العسكري الألماني هناك موجهة إلى وزارة الخارجية والقيادة العامة للقوات المسلحة ورئاسة هيئة أركان الحرب . وقد أنذرت البرقية بأن تعبئة فرنسا الجزئية تكاد تقرب من التعبئة الشاملة وأن الملحق العسكري « يعتقد أن توزيع خمس وستين فرقة على الحدود الألمانية سيتم في اليوم السادس من إعلان التعبئة » . وكان هتلر يعرف أن عدد الفرق الألمانية التي تواجه هذا العدد الضخم لا تربو على اثنتي عشرة فرقة نصفها من القوات الاحتياطية التي يشك في في قيمتها العسكرية . وأضاف الملحق العسكري في برقيته يقول ... « ويبدو أن من المحتمل في حالة اتخاذ اجراءات حربية ضد ألمانيا. . أن تهجم هذه الفرق على الغالب من الألزاس السفلى ومن اللورين باتجاه ماينز » .

وقال هذا الضابط الألماني في برقيته اخيراً أن الإيطاليين على ما يبدو لم يقوموا بأي عمل لإرغام فرنسا على الاحتفاظ بقوات كبيرة على الحدود الفرنسية الايطالية [١] . وبدا أن موسوليني الحليف الباسل ، قد تخلى عن هتلر في مثل هذه اللحظة الحرجة .

وهناك أيضاً رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وملك السويد ، فقد شرعا في التدخل . ففي اليوم السابق أي في السادس والعشرين من ايلول وجه روزفلت نداء الى هتلر يطلب اليه فيه أن يعمل على حفظ السلام ، وعلى الرغم من أن هتلر قد رد عليه في غضون أربع وعشرين ساعة قائلاً أن السلام يعتمد على التشيكيين قبل غيرهم ، فقد وصلت رسالة أُخرى من الرئيس الأميركي أثناء النهار ، أي في السابع والعشرين ، تقترح عقد مؤتمر فوري لجميع الدول ذات العلاقة المباشرة ، وتوحي بأن العالم سيعتبر هتلر مسؤولاً عن الحرب في حالة نشوبها [٢] .

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٩٧٧ .

٢ ـ يوجد نص رسالتي روزفلت ورد هتلر في وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٢) .

أما ملك السويد ، وقد برهن في الحرب الكونية الأولى ، علـــى صداقته المخلصـــة لألمانيا ، فكان اكثر صراحة ، اذ جاءت برقية الى برلين بعد ظهر ذلك اليوم من الوزير الألماني المفوض في ستوكهولم تقول أن الملك استدعاه على جناح السرعة ، وقال له انه اذا لم يمدد هتلر الموعد المضروب في الأول من تشرين الأول عشرة أيام أُخرى ، فان الحرب الكونية ستنشب حتماً ، وان المانيـــا ستكون المسؤولة الوحيدة عنها ، بالاضافة الى حتمية خسارتها لها بسبب « هذا الإئتلاف القائم بين الدول ضدها » . ولقد تمكن الملك الأريب الداهية في جو ستوكهولم المحايد البارد ، من تقييم حقيقة الوضع العسكري بصورة تفوق في موضوعيتها تقييم كل من حكومات برلين ولندن وباريس .

وقد اضعف الرئيس روزفلت ، كما يبدو تحت تأثير ضغط الرأي العام مفعول ندائيه السلميين بتأكيده أن الولايات المتحدة لن تتدخل في الحرب ولن تأخذعلى عاتقها أية التزامات في « تسيير دفة المفاوضات الحالية » . ولهـــذا رأى السفير الألماني في واشنطن ، هانز ديكهوف ، أن من الضروري ان يبعث برسالـــة عاجلة للغاية الى برلين في ذلك اليوم.وقد حذر في رسالته حكومته،من أن هتلر اذا لجأ الى القوة ، وعارضته بريطانيا معارضة عسكرية ، فان لديه كل ما يبرر الافتراض بأن « الولايات المتحدة ستلقي بكل ثقلها الى جانب بريطانيـــا » . وراح هذا السفير وهو معروف بجبنه أمام الفوهرر يضيف قائلاً : « واني لأشعر أن من واجبي ان أؤكد هذا تمام التأكيد » . وراح يقول انه لا يريد أن تقـــع الحكومة الألمانية في نفس الافتراضات الخاطئة التي وقعت فيها بالنسبة الى موقف أمريكا في عام ١٩١٤ .

وكيف تطور موقف براغ يا ترى ؟ هل هناك دليل واحد على ضعف هذا الموقف ؟ وصلت الى مقر القيادة العامة للقوات المسلحة الألمانية في المساء ، برقية من العقيد توسنيت ، الملحق العسكري في العاصمة التشيكية تقول : « الهدوء يخيم على براغ، لقدنفذ الإجراء الأخير في التعبئة العامة. ... يقدر عدد المدعوين إلى حمل السلاح بنحو مليون رجل ، بينما هناك في الميدان جيش قوامـــه

ثمانمائة الف ... »[1]. وكان هذا العدد من المدربين يعادل ما في حوزة المانيا في جبهتيها . وكان عدد التشيكيين والفرنسيين يتفوق على عدد الجنود الألمان بنسبة إثنين إلى واحد .

وهكذا عندما واجه هتلر هذه الحقائق جميعهـــا ، ورأى كل ما وقـع من تطورات ، ووعى ما قاله له ويلسون قبيل مغادرته ، وأدرك شخصية تشمبرلين وخوفه الكلي من الحرب ، راح في الساعات المبكرة من مساء ذلك اليوم السابـع والعشرين من ايلول ، يملي رسالة إلى رئيس الوزارة البريطانية . وأحس الدكتور شميدت الذي استدعي لترجمة الرسالة إلى الإنكليزية ، بأن الديكتاتور بدأ في التراجع عن « الخطوة المتطرفة » . ولم يعرف حتى الآن ، ما إذا كان هتلر قـد علم قبل أن يملي رسالته ، بالأمر الذي صدرذلك المساء بتعبئة الاسطول البريطاني. وكان الأميرال ريدر قد طلب مقابلة الفوهرر في العاشرة من ذلك المساء ، ومن المحتمل أن يكون الأسطول الألماني قد عرف بالحركة البريطانية التي بدأت في الثامنة مساء ، وأن لم يعلن رسمياً عنها إلا في الساعة الحـــادية عشرة والدقيقة الثامنة والثلاثين مساء ، وأن يكون ريدر قد أبلغ هتلر بها عن طريق الهاتف . على أي حال ، عندما وصل الأميرال ، ناشد الفوهرر بأن لا يمضي إلى الحرب .

وكل مـــا عرفه هتلر في تلك اللحظة أن براغ تقف موقف التحدي ، وأن باريس تستعجل تعبئة جيوشها ، وأن موقف لندن أخذ في التصلب ، وأن شعبه هو ، عزوف عن الحرب ، وأن قادته العسكريين يعارضونه أتم المعـارضة وأن إنذاره بوجوب قبول إقتراحات غودسبرغ ينتهي في الساعة الثـــانية من مساء اليوم التالي .

وهكذا جاءت رسالته نتيجة حساب دقيق كنداء موجـــه إلى تشمبرلين. كانت رسالةمعتدلة في لهجتها،وقد نفىفيها الافتراض بأن اقتراحاته « ستنزع من تشيكوسلوفاكيا جميع الضمانات اللازمة لوجودها » وان قواته لن تقف عنـــد خطالحدود الجديد.واعرب عن استعداده للتفاوض على التفاصيلمع التشيكيين،

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٩٧٦ .

و « لتقديم ضمانة رسمية لما يتبقى من تشيكوسلوفاكيا » . واضاف أن السبب في صمود التشيكيين راجع إلى أملهم في أن يؤدي عـون انكلترة وفرنسا إلى نشوب حرب أُوروبية . لكنه على أي حال لا يغلق الأبواب نهائياً في وجـه كل أمل في السلام .

وراح ينهي رسالته قائلاً :

« وأرى من واجبي أن اترك لتقديرك، ما إذا لم يكن فيوسعك بالنظر إلى جميع هذه الحقائق ، أن تواصل محاولاتك ... لافساد هذه المناورات ولحمـل حكومة براغ على التزام جانب العقل في الساعة الأخيرة [1] » .

الساعة الحادية عشرة ...

ووصلت رسالة هتلر العاجلة إلى لنـدن وإلى تشمبرلين في الساعة العاشرة والنصف من ليلة السابع والعشرين من ايلول ، وقد جاءت عقب يوم حـافل بالعمل بالنسبة إلى رئيس الوزراء .

وكانت الانباء التي حملها السير هوراس ويلسون الذي وصل إلى لندن في ساعة مبكرة بعد ظهر ذلك اليوم ، بعد مقابلته الثانية لهتلر ، قـد حفزت تشمبرلين واعضاء حكومتـه إلى العمل . وقررت الوزارة البريطانية تعبئة الأسطول، ودعوة القوات الجوية الاحتياطية إلى الخدمة، واعلان حالة الطوارىء في البلاد . وبدأ حفر الخنادق في الحدائق العامة والميادين للوقاية من الغارات الجوية ، كما شرع في اجلاء اطفال المدارس في مدينة لندن .

وبعث رئيس الوزراء ، على التو ، برسالة اخرى إلى الرئيس بنيش في براغ يحذره فيها من أن معلوماته الواردة من برلين « تؤكد أن الجيش الألماني سيتلقى الأوامر بعبور الحدود التشيكوسلوفاكية فوراً ، إذا لم تكن الحكومة التشيكية

١ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ٩٦٦ ـ ٩٦٨ .

قد قبلت قبل الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم التالي أي الثامن والعشرين من ايلول ، الشروط الألمانية » . وبعد هذا التحذير النبيل للتشيكيين ، لم يستطع رئيس الوزراء الامتناع عن نصحهم في نهاية رسالته « بأن الألمان سيجتاحون بوهيميا ، وان ليس في استطاعة أية دولة أو عدة دول ، أنقاذ بلادكم وشعبكم من هذا المصير . وسيظل هذا القول صحيحاً مهما كانت نتيجة أي حرب عالمية قد تقع » .

وهكذا أخذ تشمبرلين يحمل بنيش مسؤولية السلام أو الحرب ، بعد أن رفعها عن هتلر . وهكذا نراه يبدي رأياً عسكرياً ، كان القادة الألمان انفسهم كما رأينا فيما مضى لا يؤمنون بصحته . لكنه على أي حال ، راح يضيف في في نهاية رسالته أنه لا يود أن يتحمل مسؤولية توجيه النصح للتشيكيين بما يجب أن يفعلوه ، فهذا أمر متروك لهم .

ولكن هل تركها لهم حقاً ؟ لا ، اذ لم يكد بنيش ، يتسلم الرسالة الأولى ، حتى جاءته برقيه أخرى ، حاول فيها تشمبرلين أن يبصر الحكومة التشيكية بما يجب عليها أن تفعله . وقد أقترح في برقيته هذه أن يقبل التشيكيون باحتلال عسكري الماني محدود في الأول من تشرين الأول ، يشمل ايغرلاند وآخ ، الواقعتين خارج مناطق التحصينات التشيكية ، وأن تتولى لجنة المانية - تشيكية - بريطانية تخطيط الحدود وتقرير بقية المناطق التي يجب تسليمها الى الألمان [1] . وراح رئيس الوزراء يضيف بعد ذلك هذا التحذير :

« وسيكون الحل البديل لما أقترحه ، الغزو الكامل لبلادكم وتجزئتها بالقوة ، وعلى الرغم من أن حرباً قد تنشب ، وقد تؤدي الىنتائج وخسائر في الأرواح لا يمكن حسابها ، فإن تشيكوسلوفاكيا لا يمكن أن تعود إلى حدودها السابقة مهما كانت نتيجة الصراع [2] .

---

١ ـ وقد قدم السفير هندرسون هذه الاقتراحات ايضاً الى وزارة الخارجية الالمانية في الساعة الحادية عشرة مساء ، وطلب ان تنقل الى الفوهرر فوراً .

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) . ص ٩٨٧ ـ ٩٨٨ . ويوجد نص رسالة المستر تشمبرلين في كتاب ميونيخ لويلر ـ بنيت . ص ١٥١ ـ ١٥٢

وهكذا فقد تلقى التشيكيون إنذاراً من أصدقائهم (اذ أن فرنسا، اشتركت في تقديم هذه الإقتراحات الأخيرة) بأنهم حتى ولو تمكنوا مع حلفائهم من هزيمة الألمان في الحرب ، فإن على تشيكوسلوفاكيا أن تسلم بلاد السوديت الى المانيا . وكان الاستنتاج واضحاً ، وهو ترى ما الذي يدعوكم الى دفع اوروبا إلى الحرب طالما أنكم ستضيعون منطقة السوديت على أي حال ؟

وبعد أن أنهى كل هذه الأعمال ، راح رئيس الوزراء يذيع الى الشعب في الساعة الثامنة والنصف مساء هذه الرسالة :

« يا لها من فكرة مرعبة وخيالية ، لا يمكن تصديقها ، أن نقوم بحفر الخنادق ... هنا وذلك بسبب نزاع يقع في بلاد بعيدة بين شعبين لا نعلم عنهما شيئاً » .

وقد حصل هتلر على « لباب ما أراد » . وكانت بريطانيا قد تعهدت بأن يقبل التشيكيون هذه الإقتراحات وأن ينفذوها ... وراح تشمبرلين يقول :

« انني لن أتردد لحظة واحدة في أن أقوم بزيارة ثالثة الى المانيا اذا رأيت أن هذه الزيارة ستكون نافعة .

« ومهما كان شعور العطف الذي تحس به تجاه بلاد صغيرة تواجهها جارة قوية وضخمة ، فليس في وسعنا في جميع الحالات أن نقوم بإقحام الأمبراطورية البريطانية كلها في حرب ، من أجل هذه البلاد الصغيرة . واذا كان لا بد لنا من أن نحارب فإن حربنا يجب أن تكون في سبيل قضايا أضخم من هذه ....

« انني رجل من دعاة السلام في صميم فؤادي ، واعماق روحي . فالصراع المسلح بين الدول كابوس يجثم على صدري ، ولكن اذا قنعت من أن هناك دولة حزمت أمرها على السيطرة على العالم عن طريق التهديد بالقوة ، فانني أحس آنذاك بوجوب مقاومة هذه الدولة . وفي ظل مثل هذه السيطرة ، فان الحياة بالنسبة الى الشعوب التي تؤمن بالحرية قد لا تكون جديرة بالعيش . ولكن

الحرب شيء مخيف . وعلينا ان نكون واضحين كل الوضوح ، بأننا قبل أن نشرع فيها يجب أن نتأكد تمام التأكد من أن قضايا كبرى، هي المعرضة الى الخطر » .

وقد دوّن ويلر – بنيت أن معظم الناس في بريطانيا ،قد مضوا الى فراشهم تلك الليلة بعد أن استمعوا الى الخطاب ، وهم على ثقة من أن بريطانيا والمانيا ستكونان مشتبكتين فيحرب قبل مضي اربع وعشرين ساعة [1]. ولكن هؤلاء الناس الطيبين لم يعرفوا بما حدث في داوننغ ستريت في ساعة متأخرة من تلك الليلة .

وصل خطاب هتلر في الساعة العاشرة والنصف مساء ، وكان بمثابة «القشّة» التي تعلق بها رئيس الوزراء بلهفة زائدة. وراح يرد على الفوهرر قائلاً :

« لقد تأكدت بعد أن قرأت رسالتك ، بأن في وسعك أن تحصل على جميع المطالب الجوهرية دون حرب ودون تأخير . واني لعلى استعداد للمجيء فوراً الى برلين لأبحث معك ومع ممثلي الحكومة التشيكية ، وبإشتراك ممثلين عن فرنسا وايطاليا ، اذا رغبت في اشتراكهم الترتيبات لنقل المناطق الى المانيا . واني لعلى ثقة من أن في وسعنا الوصول الى اتفاق في غضون اسبوع . وليس في وسعي أن أُصدق بأنك ستتحمل مسؤولية اشعال حرب عالمية قد تكون فيها نهاية الحضارة ، من أجل التأخر بضعة أيام في هذه المشكلة التي طال عليها العهد » [2]

وبعث تشمبرلين في الوقت نفسه ببرقية الى موسوليني يطلب اليه فيها أن يحث الفوهرر على قبول مشروعه وان يوافق على الاشتراك في الإجتماع المقترح . وكانت فكرةمثل هذا المؤتمر تساور خيالرئيس الوزراء منذ وقت طويل . وكان السير نيفيل هندرسون قد اقترح هذا الإجتماع في رسالة بعث بها الى لندن

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ١٥٨ .

٢ – الكتاب البريطاني الابيض رقم ٥٨٤٨ رقم واحد .

منذ تموز الماضي ، وذكر فيها أنه يرى وجوب حل المشكلة السوديتية في مؤتمر رباعي يضم المانيا وايطاليا وبريطانيا وفرنسا . ولكن وزارة الخارجية البريطانية ذكرت كلاً من السفير ورئيس الوزراء بعدم إمكان استثناء دول أُخرى من هذا المؤتمر وعدم إشراكها فيه [١]. وكان المعني « بالدول الأخرى » هنا كل من روسيا التي يربطها بتشيكوسلوفاكيا ميثاق للمساعدة المتبادلة والحكومة التشيكية . وكان تشمبرلين قد عاد من غودسبرغ وهو مقتنع — وله الحق في اقتناعه هذا — بأن هتلر لن يوافق مطلقاً على أي مؤتمر يضم الإتحاد السوفياتي . ولم يكن رئيس الوزراء نفسه راغباً في اشراك الروس . وعلى الرغم من وضوح الحقيقة لأبسط الناس عقلاً في بريطانيا ، وهي أن اشتراك السوفيات إلى جانب الدول الغربية ، في أية حرب تنشب مع المانيا سيكون كبير النفع والفائدة ، وهو أمر طالما حاول تشرشل ايضاحه لرئيس الحكومة البريطانية ، إلا أن رئيس الوزراء لم يكن مقتنعاً بهذا الرأي . وكان قد رفض كما رأينا من قبل اقتراحاً روسياً بعقد مؤتمر بعد (الانشلوس) ، لبحث وسائل مقاومة أي عدوان الماني مقبل . وعلى الرغم من الضمانة السوفياتية لتشيكوسلوفاكيا ، ومن أن لتفينوف كان حتى هذه اللحظة يعلن أن روسيا ستفي بتعهدها ، فإن تشمبرلين ، لم يكن عازماً على السماح للسوفيات بالتدخل في تصميمه على الحفاظ على السلام عن طريق إعطاء مناطق السوديت إلى هتلر .

ولكنه حتى يوم الاربعاء في الثامن والعشرين من ايلول. لم يكن قد مضى بعيداً في تفكيره الى الحد الذي يقضي بحرمان التشيكيين أنفسهم من حضور هذا المؤتمر . وكان على النقيض من ذلك ، قد استدعى في الخامس والعشرين من ايلول ، وبعد أن رفضت براغ مطالب هتلر في غودسبرغ ، السيد جان مازاريك ، سفير تشيكوسلوفاكيا في لندن واقترح عليه ان توافق تشيكوسلوفاكيا على إجراء مفاوضات في « مؤتمر دولي تشترك فيه المانيا وتشيكوسلوفاكيا ودول أُخرى » . وسرعان ما قبلت الحكومة التشيكية

---

١ — هندرسون — فشل بعثة . ص ١٤٤ . وثائق وزارة الخارجية البريطانية الحلقة الثالثة (٢) ص ٦١٤

الفكرة في اليوم التالي. وقد رأينا قبل قليل أن المستر تشمبرلين قد حضّ في رسالته التي بعث بها إلى هتلر في ساعة متأخرة من ليلة السابع والعشرين على وجوب اشتراك « ممثلين عن تشيكوسلوفاكيا » في المؤتمر الرباعي المقترح لألمانيا وايطاليا وفرنسا وبريطانيا العظمى .

الأربعاء السوداء
ومؤامرة هولدر على هتلر

وسيطرت كآبة عميقة على برلين وبراغ ولندن وباريس عندما طلع نهار « الأربعاء السوداء » في الثامن والعشرين من ايلول . وبدت الحرب وكأنها شيء لا بد منه .

ونقل يودل عن غورنغ قوله في صباح ذلك اليوم : « قد لا يمكن تجنب الحرب الكبرى مدة أطول . إنها قد تدوم سبع سنوات ولكننا سنفوز فيها »[1] .

واستمرت في لندن عملية حفر الخنادق ، وإخلاء مدارس الأطفال ، واجلاء المستشفيات من المرضى . وتدافع الناس من باريس على القطارات التي تغادر المدينة ، كما اكتظت الطرقات بالسيارات التي تحاول الخروج من العاصمة . وكانت هناك مناظر مماثلة في المانيا الغربية . وسجل يودل في يوميته أنباء الصباح القائلة بفرار اللاجئين الألمان من مناطق الحدود . وكانت الساعة الثانية مساء وهي الموعد الأخير الذي حدده هتلر لقبول تشيكوسلوفاكيا اقتراحات غودسبرغ تقترب دون أية اشارة عن وجود نية لديها في قبولها . وكانت هناك على أي حال علامات أُخرى ، فالنشاط على أوسعه في الولهلمشتراسة ، وسفراء فرنسا وبريطانيا وايطاليا ، يأتون ويروحون في عصبية ظاهرة. أما الشعب الألماني والقادة العسكريون الألمان فقد كانوا على جهل مطبق بما هو واقع .

وحان الوقت الآن بالنسبة الى بعض القادة العسكريين والى الفريق هولدر

١ ــ يوميات يودل ــ ٢٨ ايلول ١٩٣٨ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٣٦٨ .

بصفة خاصة ،وهو رئيس هيئة أركان الحرب ، لتنفيذ المؤامرة للاطاحة بهتلر وانقاذ الوطن من الانغماس في حرب اوروبية لا بـــد وان يخسرها . وكان المتآمرون طيلة شهر ايـلول ، كما روى الذين عاشوا بعد المؤامرة ، يعدون خططهم [١] .

وكان الفريق هولدر على اتصال دائم ووثيق بالعقيـد اوستر ، وبرئيسه في مكتب المخابرات ، الاميرال كاناريس ، الذي حاول اطلاعه على جميع حركات هتلر السياسية وعلى أنباء المخابرات الأجنبية . ولقد رأينا المتآمرين ينذرون لندن بعزم هتلر على مهاجمة تشيكوسلوفاكيا ، في نهاية شهر ايـلول ، ويرجون الحكومة البريطانية بأن توضح تمام الايضاح مع فرنسا ، بأنها تعتزمان الرد على عدوان المانيا ، باستخدام القوة المسلحة . وكان الفريق فون ويتزليبين القـــائد العسكري لمنطقة برلين ، والذي كان من المقرر أن يقوم بتزويد معظم القطعات العسكرية اللازمة للحركة الانقلابية ، قد تردد وتخـاذل ، لأنه كان يشك في أن لندن وباريس ، قد سمحتا لهتلر بصورة سرية ، بأن يكون حـــر التصرف في الشرق . وأنها تبعاً لذلك لن تخوضا الحرب من أجل تشيكوسلوفاكيـا ، وهو رأي كان يشاركه فيه عدد كبير من القادة العسكريين، وكان هتلر وريبنتروب يشجعانه بدورهما . وكان أمثال هولدر وويتزليبين ، يرون أنه إذا صحت هذه النظرية ، فلا جدوى مطلقاً من مثل هذه المؤامرة ، إذ أن همهم الشاغـل كان منصرفاً في هذه الآونة من حياة الرايخ الثالث إلى الخلاص من الفوهرر لتجنب

١ ـــ تضمنت هذه الروايات اقوالا مباشرة من هولدر وغيزيفيوس وشاخت (المؤامرة النازية والعدوان . الملحق (ب) . ص ١٥٤٧ ـ ١٥٧١) ، وكتـــاب « الى النهاية المرة » لغيزيفيوس ص ٢٨٣ ـــ ٣٢٨ ، ومحاكمات كبـــار مجرمي الحرب (١٢) ص ٢١٠ ـــ ٢١٩ ، وكتـــاب « تصفية الحساب » لشاخت ١١٤ ـ ١٢٥) ولكن هذه الروايات كثيراً ما تتناقض وتتضارب . وعلينا ان نذكر ان هؤلاء الرجال الثلاثة الذين بدأوا بخدمة العهد النازي، كانوا تواقين بعد انتهاء الحرب ، لإقامة الدليل على معارضتهم لهتلر وعلى حبهم للسلام . وكـان اريـــخ كوردت رئيس سكرتيري ريبنتروب في وزارة الخارجية من كبار المسهمين في المؤامرة والذين نجوا من العقاب . اعد في نورمبرغ مذكرة مطولة عن احداث شهر ايلول عام ١٩٣٨ ، ووضعها تحت تصرف هـذا المؤلف .

الاشتباك في حرب اوروبية لم تكن المانيا مستعدة لها أو قادرة على كسبها .
وإذا لم يكن هناك خطر في نشوب حرب عظمى ، وإذا كان تشمبرلين على استعداد لاعطاء هتلر ما يريده في تشيكوسلوفاكيا دون حرب ، فليس ثمة فائدة في رأيهم من القيام بأية ثورة .

ولقد رتّب العقيداوستر وغيزيفيوس ،رغبة منهما في اقناع القادة العسكريين بأن بريطانيا وفرنسا جادتان في القضية ، اجتماعاً بين الفريقين هولدر وفون ويتز ليبين وبين شاخت ، الذي كان يتمتع بمكانة بارزة لدى الزمرة العسكرية المسيطرة ، لا بوصفه الرجل الذي تولى تمويل عملية التسلح الألماني فحسب ، او بوصفه الرجل المشغل لمنصب في الوزارة ، بل بوصفه ايضاً الخبير في الشؤون البريطانية . ولقد اكد لهما شاخت ان البريطانيين سيحاربون اذا لجأ هتلر الى السلاح ضد التشيكيين .

وأثارت الانباء التي وصلت الى ايريخ كوردت ،وهو أحد المتآمرين في وزارة الخارجية الألمانية في ساعة متأخرة من ليلة الثالث عشر من ايلول ، من ان تشمبرلين قد تقدم باقتراح عاجل « للمجيء عن طريق الجو » الى برلين ، بحثاً عن حل سلمي للمشكلة التشيكية ، الكثير من القلق والاضطراب في صفوف المتآمرين . وكانوا قد علقوا الكثير من الاهتمام على عودة هتلر الى برلين من مهرجان الحزب النازي في نورمبرغ في الرابع عشر من الشهر . وروى كوردت فيما بعد انهم كانوا قد اعدوا خططهم للقيام بحركتهم الانقلابية في اليوم التالي أو الذي يليه . ولكن الفوهرر لم يعد الى العاصمة [1] . وانما مضى الى ميونيخ ،

---

١ ــ هناك الكثير من التناقض بين اقوال المؤرخين وحتى المتآمرين ، حول المكان الذي كان فيه هتلر في الثالث عشر والرابع عشر من ايلول فلقد ذكر تشرشل استناداً الى رواية وردت في مذكرة للفريق هولدر ان هتلر وصل إلى برلين من برختسغادن « في صباح الرابع عشر من ايلول » ، وان هولدر وويتزليبين ، عندما سمعا بذلك « قررا ان يضربا في الساعة الثامنة من ذلك المساء » . وتمضي هذه الرواية فتقول انهما قررا تأجيل العملية عندما سمعا في الساعة الرابعة من مساء اليوم نفسه أن تشمبرلين قد طار الى برختسغادن . (مذكرات تشرشل ــ ص ٣١٢) .
ولكن يبدو ان ذاكرة هولدر ، وبالتالي رواية تشرشل ، كانتا على خطأ . فلقد روى كتاب=

حيث واصل سفره في الرابع عشر الى برختسغادن ، حيث أقـام ينتظر زيارة رئيس الوزراء البريطاني في اليوم التالي .

وكانت هناك أسباب مزدوجة من الشعور بخيبة الأمل الكاملة بين المتآمرين . ولم يكن ثمة مجال لوضع خططهم في حيّز التنفيذ ، إلا اذا كان هتلر في برلين ، وكانوا على ثقة من أنه سيعود الى برلين حتماً ، بعد أن أدّى مهرجان الحزب في نورمبرغ ، إلى ازدياد حدة الازمة التشيكية . وعلى الرغم من ان بعض المشتركين في المؤامرة ، كانوا يفترضون من الناحية الثانية ، افتراضـاً ينم عن الاسترخاء ، والهدوء النفسي ، ما ساور نفوس البريطانيين جميعاً ، من أن تشمبرلين ، يعتزم الطيران إلى برختسغادن ، لتحذير هتلر من ارتكاب الخطأ الذي وقع فيه غليوم الثاني في عام ١٩١٤ ، بالنسبة الى ما ستفعله بريطانيا في حالة وقوع العدوان الألماني ، إلا أن كوردت كان أكثر علماً بالحقيقة من زملائـه ، فلقد رأى بنفسه نص الرسالة العاجلة التي بعث بها تشمبرلين الى هتلر ، يشرح له فيها أنه يريد أن يراه ، « هادفاً الى الوصول الى حل سلمي » . وكان قد رأى أيضاً البرقية الأخرى التي بعث بها أخوه ثيودور كوردت ، مستشار السفارة الألمـانية في لندن ، في ذلك اليوم ، مُسِراً بها بأن رئيس الوزراء البريطاني ، على استعداد للمضي شوطاً بعيداً ، للاستجابة الى مطالب هتلر في بلاد السوديت .

ويقول كوردت « وكان تأثير هذه الحركة على خططنا مفجعاً ، حتمـاً . فلقد كان من السخف كل السخف ، ان نعد حركة انقلابية للاطاحة بهتلر ، في وقت ، كان فيه رئيس وزراء بريطانيا ، يصل إلى المانيـا ، للبحث معه في موضوع « السلام العالمي » .

ويمضي ايريك كوردت فيقول ، أن الدكتور بول شميدت ، وكان مشتركاً في المؤامرة ايضاً ، كما كان الترجمـان الوحيد ، والشاهد الفرد لمحادثات هتلر —

= « اعمال هتلر اليومية » الموجود الآن في مكتبة الكونغرس ، ان هتلر قضى يومي الثالث عشر والرابع عشر في ميونيخ ، حيث كان يتشاور مع ريبنتروب في دارة بورمان ، وانه زار في التاريخ نفسه ملهى « سونينونيكل » في المدينة ، ثم غـادرها في نهاية اليوم المذكور اي في الرابـع عشر الى « اوبر سالزبرغ » .

تشمبرلين ، قد أبلغه ، على الرغم من ذلك ، وفي مساء الخامس عشر من ايلول ، « بطريقة رمزية سرية أعد ترتيبها من قبل » ، أن الفوهرر ، كان لا يزال عازماً على احتلال تشيكوسلوفاكيا كلها ، وانه تقدم بطلبات مستحيلة إلى تشمبرلين « أملاً في أن يرفضها الرئيس البريطاني » . وقد احيت هذه المعلومات ، آمال المتآمرين من جديد . وسرعان ما قام كوردت بابلاغها إلى العقيد أوستر في نفس المساء ، وتقرر المضي قدماً بالخطط ، حالما يعود هتلر إلى برلين . وراح أوستر يقول : « ولكن علينـــا قبل كل شيء ، أن نضع الطائر في القفص في برلين أولاً » .

وطار العصفور إلى قفصه في برلين ، بعد ان انتهى من محـادثات غودسبرغ بعد ظهر الرابع والعشرين من ايلول . وعندما حل صباح « الأربعاء السوداء » ، في الثامن والعشرين من ايلول ، كان قد مضى على وجود هتلر في العاصمة أربعة ايام . وبدا وكأنه قد احرق جميـع جسوره في السادس والعشرين عندما القى خطابه الناري في الميدان الرياضي . وراح في السابع والعشرين ، يعيـــد السير هوراس ويلسون خالي الوفاض إلى لندن ، مما أدى إلى قيام الحكومة البريطانية كرد فعل لها ، بتعبئة الأسطول ، وبتحذير براغ من هجوم الماني متوقع . وكان هتلر في نفس اليوم،قد أصدر أيضاً ، كما رأينا من قبل ، إلى «وحدات الهجوم»، باتخاذ مواقعها استعداداً للقتال على الحدود التشيكية ، وان تكون متأهبـــة « للعمل » في الثلاثين من ايلول ، أي بعد ثلاثة أيام من هذا الموعد .

ترى ما الذي حمل المتآمرين على الانتظار؟ لقد تحققت لهم جميـع الاشتراطات التي وضعوها . إن هتلر موجود في برلين . وهو عـازم على المضي الى الحرب . وكان قد حدد اليوم الثلاثين من ايلول،للشروع في الهجوم على تشيكوسلوفاكيا، أي بعد يومين . وهكذا بات من المحتوم تنفيذ الانقـــلاب فوراً ، وإلا فاتت الفرصة للاطاحة بالطاغية ، ووقف الحرب .

ويقول كوردت ، إن المتآمرين في ذلك اليوم ، السابع والعشرين من ايلول قد حددوا اليوم التاسع والعشرين منه ، موعداً نهائياً للعمل. وذكر غيز يفيوس،

في شهادته أمام محكمة نورمبرغ ، وفي كتابه أيضاً ، أن الفريقين هولدر وويتزليبين ، قد قررا العمل فوراً في الثامن والعشرين من ايلول ، بعد ان حصلا على نسخة من « رسالة التحدي التي بعث بها هتلر » والتي ضمنها «مطالبه المهينة» إلى تشمبرلين في اليوم السابق .

ويقول غيزيفيوس : « لقد تلقى أوستر صورة من هذه الرسالة التي تنطوي على التحدي ، في ساعة متأخرة من ليلة السابع والعشرين من ايلول ، ثم حملت هذه الصورة في صباح الثامن والعشرين الى ويتزليبين . وحملها هذا بدوره الى هولدر فوراً . وهكذا حصل رئيس اركان الحرب ، اخيراً ، على ما كان يتوخاه من دليل قاطع ، على ان هتلر لم يكن يحاول البلف والخداع ، وانه يعتزم الحرب .

« وتساقطت دموع الغضب والسخط على وجنتي هولدر . . واصر ويتزليبين على أن الوقت قد حان للعمل أخيراً . وراح يقنع هولدر ، بالمضي لمقابلة براوخيتش . وعاد هولدر بعد فترة وجيزة ، يقول أنه يحمل أنباء سارة ... أن براوخيتش ثائر ايضاً ، ومن المحتمل أن يشترك في الانقلاب كذلك [1] » .

ولكن يبدو احد احتمالين ، فإما ان يكون نص رسالة هتلر قد ابدل ، او ان القادة العسكريين قد اساؤا فهمها ، اذ انها كانت كما رأينا على درجة كبيرة من اعتدال اللهجة ، ومن التدفق بالوعود « في التفاوض على التفاصيل مع التشيكيين » وفي « اعطاء الضمانة الرسمية الى ما يتبقى من تشيكوسلوفاكيا » ، ومن الميل الى التفاهم والى اقتراح مضي تشمبرلين ، في بذل محاولاته ، الى الحد الذي دفع رئيس وزراء بريطانيا ، الى الابراق فور قراءته لها ، الى هتلر ، مقترحاً عقد مؤتمر للدول العظمى ، لوضع التفاصيل ، والى الابراق ايضاً الى

---

١ ـ غيزيفيوس « حتى النهاية المرة » ص ٣٢٥ . وشهادته في نورمبرغ « محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٢) ص ٢١٩ » .

موسوليني طالباً تأييده لمثل هذا الاقتراح .

ويبدو ان القادة العسكريين قد جهلوا بهذه المحاولة ، التي بذلت في الساعة الأخيرة ، لتهدئة الأمور ، وان كان من الواضح ان الفريق فون براوخيتش القائد العام للجيش ، لا بد وأن يكون قد فهم شيئاً عنها ، ويقول غيزيفيوس ، أن ويتزليبين ، هتف لبراوخيتش من مكتب هولدر ، وأبلغه أن كل شيء قد بات جاهزاً ، وتوسل اليه ان يقود الثورة بنفسه . ولكن قائد الجيش لا يريد الالتزام بشيء . وأبلغ كلاً من هولدر وويتزليبين أنه يود أولاً أن يمضي الى مستشارية الفوهرر ، ليرى بنفسه اذا كان الفريقين ، قد قدرا الوضع تقديراً صحيحاً . ويقول غيزيفيوس ، أن ويتزليبين سارع بالعودة الى مقر قيادته العسكرية ... وهتف بحماس قائلاً ... « لقد حان الوقت يا غيزيفيوس » .

ورن جرس الهاتف في الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم الثامن والعشرين من ايلول في مكتب كوردت في وزارة الخارجية . كان تشيانو هو المتحدث على الجانب الآخر ، من الخط الهاتفي من رومة ، وهو يريد التحدث بصورة عاجلة الى وزير الخارجية الألمانية . ولم يكن ريبنتروب حاضراً في الوزارة ، اذ كان آنذاك في دار المستشارية ، فطلب الوزير الايطالي أن يوصل بسفيره فى برلين بيرناردو أوتوليكو . وقد استمع الألمان الى المخابرة الهاتفية وسجلوها . وسرعان ما تبيّن أن موسوليني هو المتحدث ، لا صهره ، ووزير خارجيته ، تشيانو ...

« موسوليني ... أنا الدوتشي . هل تستطيع أن تسمعني ؟

« اتوليكو ... نعم انا أسمعك .

« موسوليني ... اطلب مقابلة المستشار فوراً . قل له أن الحكومة البريطانية قد طلبت إلي عن طريق اللورد بيرث [1] ، التوسط في المشكلة السوديتية . إن نقطة الخلاف ضئيلة جداً . قل للمستشار ، إنني وإيطاليا الفاشية ، نقف إلى جانبه . إن عليه أن يقرر .

---

١ ـ السفير البريطاني في رومة .

ولكن قل له ، إنني أميل إلى قبول الاقتراح . هل تسمعني ؟
« اتوليكو ... نعم إني أسمعك .
« موسوليني ... إذن أسرع ! » [1] .

ويروي الدكتور شميدت ، المترجم ، ان السفير اتوليكو ، وصل وهو يلهث من الجري . وقد احمر وجهه من الحماس ، إلى دار المستشارية ، ليجد أن السفير الفرنسي ، قد اختلى بهتلر ، في حديث خاص . وكان المسيو فرانسوا ـ بونيه ، قد وجد مشقة في الوصول إلى هذه الخلوة . فلقد كان المسيو بونيه ، وزير خارجية فرنسا ، وهو العازم في هذه اللحظة على ان يبزّ تشمبرلين في تساهله ، قد تحدث هاتفياً في ساعة متأخرة من الليلة الفائتة ، إلى سفيره في برلين ، وأمره بمقابلة هتلر ، في أقرب فرصة ممكنة ، وأن يقدم إليه اقتراحاً فرنسياً ، بتسليم أراضي السوديت ، وأن يمضي إلى أبعد مما يمضي اليه المشروع البريطاني . إذ بينما كان اقتراح الرئيس البريطاني، الذي قدم الى هتلر في الساعة الحادية عشرة من مساء السابع والعشرين من ايلول ، يعرض عليه احتلال المنطقة « الأولى » من اراضي السوديت في الأول من تشرين الأول ، وهو احتلال رمزي مجرد ، لا يعدو الاستيلاء على بقعة محصورة ضيقة من الأرض ، جاء الاقتراح الفرنسي ، الآن ، يعرض عليه ، تسلم ثلاث مناطق واسعة ، تشمل الجزء الأكبر من الأراضي المختلف عليها ، وذلك في الموعد نفسه .

ولقد كان العرض مغرياً كل الاغراء ، ولكن السفير الفرنسي وجد كل صعوبة في تقديمه ، فلقد هتف في الساعة الثامنة من صباح الثامن والعشرين من ايلول، طالباً تحديد موعد فوري لمقابلة الفوهرر . وعندما حلت الساعة العاشرة، ولم يكن قد تلقى رداً إيجابياً بعد ، أوفد ملحقه العسكري على جناح السرعة إلى هيئة أركان الحرب الألمانية ، لإبلاغ القادة العسكريين الألمان بالعرض الذي لم يتمكن السفير من تقديمه بعد . وراح يستنجد بالسفير البريطاني لمساعدته .

---

١ ـ مذكرة ايريخ كوردت التي وضعت تحت تصرف المؤلف . وكذلك الصفحة (٤٦) من كتاب « الحركة السرية في المانيا » لآلان دالاس .

وكان السير نيفيل هندرسون ، على استعداد لتقديم كل خدمة لمن يعمل على منع الحرب –بأي ثمن– ولذا فقد هتف إلى غورنغ ، الذي أعرب عن استعداده للقيام بمحاولة لتحديد موعد المقابلة . وكان هندرسون يسعى في الحقيقة ، للحصول على موعد له مع المستشار ايضاً ، إذ كان قد تلقى الأمر بأن يقدم إلى هتلر «رسالة شخصية اخيرة من رئيس الوزراء» ، وهي الرسالة التي كان تشمبرلين قد أعدها في ساعة متأخرة من الليلة الماضية –والتي ذكرناها من قبل– والتي يؤكد فيها لهتلر ان في وسعه أن يحصل على ما يشاء «دون حرب وبدون ابطاء» ، مقترحاً عقد مؤتمر للدول الكبرى لاعداد التفاصيل [1] .

واستقبل هتلر ، المسيو فرنسوا – بونيه في الساعة الحادية عشرة والربع صباحاً . ووجده السفير في حالة من التوتر والهياج العصبي . وأخذ السفير يلوح بخريطة قام برسمها بسرعة ، تظهر الأجزاء الكبيرة من الأرض التشيكية التي كانت كبيرة حليفات تشيكوسلوفاكيا ، على استعداد الآن لتقديمها « على طبق » إلى هتلر ، وراح يحث الفوهرر على قبول الاقتراحات الفرنسية ، وعلى تجنيب أوروبا خطر الحرب . وعلى الرغم من تعليقات ريبنتروب السلبية ، التي يقول السفير انه عالجها بسرعة . فقد تأثر هتلر ، كما ذكر الدكتور شميدت ، بخريطة السفير ، وما فيها من تخطيط كريم وسخي .

وانقطعت المقابلة فجأة في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الاربعين ، عندما دخل رسول ، يعلن وصول اتوليكو ، سفير ايطاليا ، حاملاً رسالة مستعجلة إلى الفوهرر من موسوليني . وغادر هتلر القاعة مع ترجمانه ، شميدت ، لتحية السفير الايطالي ، اللاهث .

وصرخ اتوليكو ، ذو الصوت الأجش من مكان بعيد ... « إنني احمل اليك رسالة عاجلة من الدوتشي » [2] . وبعد أن نقل إلى الفوهرر الرسالة . أضاف أن

---

١ – تحدث كثيرون من المشتركين في هذه الاجتماعات عما دار فيها . فقد تحدث عنها شميدت في كتابه « ترجمان هتلر » في الصفحة ١٠٥ – ١٠٨ ، وتحدث عنها فرانسوا بونيه في كتابه « سنوات القدر » ص ٢٦٥ – ٢٦٨ ، وهندرسون في كتابه « فشل بعثة » ص ١٦٦ – ١٧١ .

٢ – شميدت ... « ترجمان هتلر » ص ١٠٧ .

الدوتشي يتوسل إليه أن يمتنع عن التعبئة العامة .

ويروي شميدت ، الشاهد الوحيد الذي عاش . أن القرار بإحلال السلام قد اتخذ في تلك اللحظة . وكان الوقت قد قارب الظهيرة ، أي قبل ساعتين فقط من الوقت الذي حدده هتلر في إنذاره إلى التشيكيين .

وقال هتلر لأتوليكو ، وقد بدا عليه الارتياح بوضوح ... « قل للدوتشي ، إنني أقبل إقتراحه » [١] .

ومضت بقية النهار ، في أوضاع عادية . فلقد حذا السفير هندرسون حذو زميليه اتوليكو وفرانسوا – بونيه في مقابلة الفوهرر .

وراح هتلر يقول للسفير البريطاني ... لقد قررت تلبية لطلب صديقي العظيم وحليفي ، موسوليني ، تأجيل تعبئة قواتي ، مدة أربع وعشرين ساعة [٢] . وأضاف أنه سيقرر المواضيع الأخرى ، كموضوع المؤتمر المقترح للدول العظمى بعد التشاور مع موسوليني [٣] .

وانشغل خط الهاتف بين برلين وروما في ذلك النهار ، ويقول شميدت ، أن الديكتاتورين الفاشيين ، تبادلا الحديث مباشرةمرةواحدة . وقبيل الساعة الثانية من بعد ظهر الثامن والعشرين من ايلول ، أي قبل دقائق قليلة من انتهاء موعد الانذار ، حزم هتلر أمره ، ووجه الدعوة العاجلة إلى رؤساء حكومات بريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا لمقابلته في ميونيخ ظهر اليوم التالي لحل المشكلة التشيكية . ولم يبعث هتلر ، بأية دعوة إلى براغ أو إلى موسكو . وهكذا تقرر أن لا يسمح لروسيا الشريكة في حماية كيان تشيكوسلوفاكيا في حالة تعرضها للعدوان ، بالتدخل . وهكذا لم يسمح ايضاً للتشيكيين ، بأن يحضروا صدور الحكم عليهم بالموت .

ويرد السير نيفيل هندرسون، في مذكراته معظم الفضل في انقاذ السلام في

---

١ ـ شميدت ... « ترجمان هتلر » ص ١٠٧

٢ ـ رأينا من قبل ، ان هتلر كان قد عبأ بالفعل جميع القوات المتوافرة لديه .

٣ـ هندرسون « فشل بعثة » ص ١٦٨ ـ ١٦٩ و شميدت « ترجمان هتلر » ص ١٠٨ .

هذه الآونة إلى موسوليني ، وقـــد أيده في ذلك كثيرون من المؤرخين ، الذين أرخوا هذا الفصل من التاريخ الأوروبي [1] . ولكنني لا أشك في أن هذا الرأي اغراق في السخاء . فلقد كانت ايطاليا أضعف الدول العظمى في اوروبا ،وكانت قوتها العسكرية ، تافهة إلى الحد الذي دفع القادة العسكريين الألمان ، كما تشير الى ذلك أوراقهم الرسمية الى اعتبارها مهزلة بل وأُضحوكة. فبريطانيا العظمى وفرنسا، هما الدولتان الوحيدتان اللتان تحتلان مكاناً كبيراً في الحسابات الألمانية . ولقد كان رئيس وزراء بريطانيا ، هو الرجـــل الذي حاول إقناع هتلر ، منذ البداية ، بأن في وسعه أن يحصل على بلاد السوديت دون حرب . ولقد كان تشمبرلين ، لا موسوليني ، هو الذي جعل تسوية ميونيخ ، شيئاً ممكناً ، فحفظ بذلك السلام ، أحد عشر شهراً اخرى . ولقد كان ثمن هذا السلام ، بالنسبة إلى بلاده ، والى حلفائها وأصدقائها، وهو ما سنتحدث عنه فيما بعد ، فوق كل تقدير ، في اية عملية حسابية مهما كان شكلها ، وهو ما قام الدليل عليه في الأحداث التالية .

وبدأ رئيس وزراء بريطانيا في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والخمسين من بعد ظهر تلك «الأربعاء السوداء» ،التي أخذ سوادها يضعف شيئاً فشيئاً ، كما بدا ، بالنسبة الى ما كان عليه في ساعات الصباح ، يخطب في مجلس العموم البريطاني في لندن، سارداً باسهاب وتفصيل المشكلة التشيكية والدور الذي لعبه هو وحكومته في محاولة حلها. وراح يتكهن بأن الوضع مازال موضع الشك، ولكنه قد تحسّن. وأضاف أن موسوليني قد نجح في حمـــل هتلر على تأجيل التعبئة العامـــة أربعاً وعشرين ساعة أخرى . وبلغت الساعة الرابعة والربـع ، وكان قـــد مضى على تشمبرلين وهو يخطب اكثر من ساعة وثلث الساعة ،وقد أشرف على نهاية خطابه . وهنا وقعت المفاجأة . فقد قطع عليه خطابه . إذ سلمه السير جون سيمون ، وزير المالية ، ورقة ، كان اللورد هاليفاكس ، الجالس في مقاعد اللوردات ، قد قدمها اليه . وكان تشمبرلين يقول في تلك اللحظة ...

« ومهما كان رأي النواب المحترمين في السنيور موسوليني ، فانني

١ــ آلان بولوك « هتلر ــ دراسة في الطغيان » . ص ٤٢٨ . . . وقد وردت العبارة التالية: « لقد كان تدخل موسوليني في الحقيقة ، هو الذي قلب الأوضاع كلها » .

اعتقد ، بأن كل واحد منا ، يرحب بهذه البادرة ... التي قام بها ... من أجل السلام » .

وتوقف رئيس الوزراء ... ثم تطلع إلى الورقة التي سلمت اليه ، وابتسم ... ثم راح يقول . ...

« وهذا ليس كل ما أود قوله . ... فهناك شيء آخر ، أود أن أبلغه إلى المجلس ايضاً ... لقد تلقيت نبأ من الهر هتلر في هذه اللحظة ، يدعوني فيه إلى لقائه في ميونيخ في صباح غد . ولقد وجه دعوة مماثلة ايضاً إلى السنيور موسوليني والمسيو ديلادييه . وقد قبل السنيور موسوليني الدعوة . وليس لدي من شك في أن المسيو ديلادييه سيقبلها أيضاً . ولا أرى داعياً إلى بيان ما سيكون عليه ردي ايضاً ... » .

أجل لم يكن ثمة من داع إلى ذلك . فلقد استجاب المجلس العريق ، الذي يعتبر والد المجالس البرلمانية ، بمظاهرة هستيرية جماعية ، لم يسبق لها مثيل في تاريخه الطويل إلى قوله وارتفعت الهتافات ، وتطايرت الأوراق ، في الهواء ، وانهالت العبرات ، ولم يسمع في القاعة إلا دوي واحد ، علا كل ما فيها من ضجة وضوضاء ، معرباً عن عواطف الجميع ... «الشكر لله» على هذا الرئيس» .

وتطلع جان مازاريك ، الوزير التشيكي المفوض ، ونجل مؤسس الجمهورية التشيكوسلوفاكية ، من شرفة رجال السلك الدبلوماتي ، وهو لا يكاد يصدق عينيه . وسارع إلى زيارة رئيس الوزراء ، ووزير الخارجية في داونينغ ستريت ، مستعلماً ، عما إذا كانت بلاده ، التي يطلب اليها تقديم كل هذه التضحيات ، ستدعى الى إجتماع ميونيخ . ورد تشمبرلين وهاليفاكس ، بأنها لن تدعى ، وان هتلر لن يستطيع الموافقة على دعوتها . وعرت الدهشة وجه مازاريك وهو يتطلع الى هذين السيدين الانكليزيين اللذين يخافان الله ، وجاهد جهاداً كبيراً ليكبت عواطفه .

وراح الرجل يقول لهما أخيراً ... « وإذا كنتما قد ضحيتما ببلادي لحماية

السلام العالمي ، فانني سأكون أول من يصفق لكما . أمـــا إذا لم تستطيعا حفظ هذا السلام ، فلترحمكما عناية الله ، أيها السادة [١] » .

* * *

ترى ماذا حدث للمتآمرين من قادة عسكريين ومدنيين ، وفي طليعتهم الفريق هولدر والفريق فون ويتزليبين ، وشاخت وغيزيفيوس وكوردت ، وبقيـــة الجماعة ، والذين كانوا قد اعتقدوا قبيل ظهر ذلك اليوم ؛ كما قال ويتزليبين ، أن ساعتهم قد حانت ؟ إن الرد على هـــذا السؤال ، يمكن أن يرد باختصار على لسانهم هم ، إذ راحوا يتحدثون به فيما بعد ، عندمـــا انتهى كل شيء ، وكانوا تواقين لإقامة الدليل للعالم ، على أنهـــم كانوا يعارضون هتلر أشد المعارضة ، ويقاومون حماقاته المدمرة ، وهي الحماقات التي قادت المانيا إلى خرابها الشامل. بعد حرب طويلة ومهلكة .

ولقد زعموا جميعاً أن نيفيل تشمبرلين كان وغـد المسرحية ! فلقد ارغمهم بموافقته على المجيء الى ميونيخ في اللحظة الأخيرة على الغـــاء جميع خططهم للاطاحة بهتلر والعهد النازي !

ففي الخامس والعشرين من شباط عام ١٩٤٦ ، وكانت محاكمات نورمبرغ الطويلة تقترب من نهايتها ، قـام الرئيس (الكبتن) سام هاريس ، المحـــامي الامريكي الشاب من أهل مدينة نيويورك ، والذي يعمل مع موظفي النيابـة العامة الامريكية في المحاكمات ، بتوجيه أسئلة خاصة الى الفريق هولدر ، وراح الفريق يقول :

« كانت خطتنا أن نحتل عسكرياً دار مستشارية الرايخ وبعض الدوائر الحكوميـــة الاخرى ولا سيما دور الوزارات التي يقوم على إدارتها أعضاء الحزب ، وأعوان هتلر المقربون ، وجل غايتنا ، تجنب سفك الدماء ، ومحاكمة الجميع أمام الشعب الألماني بأسره . . .

---

١ ـــ كان مازاريك قد حدثني فيما بعد عن هذا المنظر . ولكن اوراقي ضاعت . وقد اعتمدت على وصف ويلر ـــ بنيت في الصفحتين ١٧٠ و ١٧١ من كتابه « ميونيخ » .

وقد جاء ويتزليبين ظهر ذلك اليوم الثامن والعشرين من أيـــلول ، لرؤيتي في مكتبي . ورحنا نبحث القضية . وطلب مني أن اصدر اليه الأمر بالتنفيذ . ورحنا نناقش بعض التفاصيل الاخرى ، كالوقت الذي نحتاجه للتنفيذ . ومـــا شابه ذلك . وجـاءت الأنباء اثناء الحديث ، تقول أن رئيس الوزراء الـــبريطاني ، ورئيس الوزارة الفرنسية وافقا على القدوم لمقابلة هتلر ، واجراء محادثات اخرى معه . وكان ويتزليبين حاضراً عندما جاءت هذه الأنباء . ولهذا سحبت منـــه أمر التنفيذ ، إذ أن الأساس الكلي ، قـــد اختفى بسبب هذا الواقع ...

« وكنا على ثقة مطلقة من إننـــا سننجح في خطتنا . ولكن المستر تشمبرلين ، ظهر على المسرح من جديد في هذه اللحظة وأمكن اجتناب خطر الحرب بضربة واحـدة ... وهكذا اجتنبت ساعة العنف الحرجة ... ولم يكن ثمـة مناص من الانتظار لحلول فرصة اخرى مواتية ... »

وسأله الرئيس هاريس ... « هل أفهم من قولك ، أنه لو لم يأت تشمبرلين إلى ميونيخ ، لكنتم قد نفذتم خطتكم ، وأطحتم بهتلر ? » .

ورد الفريق هولدر قائلاً : « في وسعي أن أقول ، أننا كنا سننفذ الخطـــة حتماً . وليس في مكنتي أن أقول ، ما اذا كانت ستنجح حتماً » . [١]

وقد انحى الدكتور شاخت أيضاً ، وهو الرجل الذي بالغ بوضوح في محاكمات نورمبرغ ، وفي الكتب التي ألفهـا فيما بعد ، في الدور الذي لعبه في المؤامرات المختلفة على هتلر ، بالملامة على تشمبرلين ، لفشل الألمـان في تنفيذ مؤامرة الثامن والعشرين من ايلول اذ قال :

« لقد اتضح من سير التاريخ اللاحق ، أن هذه المحاولة الأولى ، من جانبي وجانب ويتزليبين ، للقيـام بإنقلاب على هتلر ، كانت

---

١ ــ المؤامرة النازية والعدوان (الملحق ب) . ص ١٥٥٣ ــ ١٥٥٨ .

العملية الوحيدة ، التي كان في وسعها أن تحقق تحولاً فاصلاً في مصير المانيا . فلقد كانت المحاولة الوحيدة التي تم إعدادها ووضعت لها المخططات اللازمة ، قبل مدة طويلة ... وفي الوقت المناسب ... فلقد كان في الامكان في خريف عام ١٩٣٨ ، الوثوق من امكان تقديم هتلر إلى المحاكمة أمام محكمة عليا . بينما تطلبت جميع المحاولات اللاحقة للخلاص منه ، وجوب اغتياله وقتله ... وكنت قد قمت بإعداداتي للانقلاب في الوقت المناسب ، ووصلت بهذه الاعدادات إلى عتبة النجاح . ولكن التاريخ شاء أن يقف ضدي . فلقد كان تدخل الساسة الأجانب ، شيئاً لم يكن في وسعي أن أحتاط له مسبقاً وأُدخله في حسابي »[1]

وأضاف غيزيفيوس الذي كان المدافع القوي عن شاخت على منصة الشهادة في نورمبرغ قائلاً :

« لقد وقع المستحيل . فلقد اعتزم تشمبرلين وديلادييه الطيران الى ميونيخ . وهكذا قضي على ثورتنا بالفشل . وخيل الي بضع ساعات أن في وسعنا أن نثور على أي حال . ولكن سرعان ما أكد لي ويتزليبين أن الجنود لن يثوروا مطلقاً على الزعيم الظافر ... لقد أنقذ تشمبرلين هتلر »[2].

هل أنقذه حقاً ؟ أو كان هذا القول مجرد مبرر اعتمد عليه المدنيون الألمان والقادة العسكريون لتبرير تقاعسهم عن العمل ؟

ولقد أوضح الفريق هولدر في الاستجواب الذي جرى معه في نورمبرغ ، على يد الرئيس هاريس ، أن هناك ثلاثة شروط لنجاح « العمل الثوري » ... فقد قال :

« ان الشرط الأول هو وجود قيادة واضحة ومصممة . أما

---

١ ـ شاخت « تصفية الحساب » ص ١٢٥ .

٢ ـ غيزيفيوس « حتى النهاية المرة » ص ٣٢٥

الشرط الثاني،فاستعداد الجماهير الشعبية للمضي وراء فكرة الثورة. ويكون الشرط الثالث في حسن اختيار الوقت . وكنا نرى أن الشرط الأول عن وجود القيادة الواضحة المصممة ، قائم تماماً . وكنا نعتقد ايضاً ، ان الشرط الثاني متوافر كذلك ، لأن الشعب الألماني لا يريد الحرب . وهكذا فقد كانت البلاد على استعداد للموافقة على العمل الثوري مخافة نشوب الحرب . وكان الشرط الثالث ، وهو حسن اختيار الوقت ، متوافراً أيضاً ، أذ كنا نتوقع أن يصدر الأمر للقيام بالعمل العسكري في غضون ثمان وأربعين ساعة . وعلى هذا فقد كنا على ثقة مطلقة من نجاحنا .

« ولكن تشمبرلين يقتحم المسرح ، ويتمكن بضربة واحدة من تجنب خطر الحرب » .

وفي وسع المرء أن يشك في أن شرط الفريق هولدر الأول كان متوافراً كما ادعى . إذ لو كانت هناك « قيادة واضحة ومصممة » كما قال ، فما الداعي إلى تردد القادة العسكريين أربعة أيام؟ كان المتآمرون يملكون القوة العسكريةالكافية لإزاحة هتلر وجميع عهده من الميدان،وكان لدى ويتزليبين فيلق كامل من الجيش، هو الفيلق الثالث،في برلين وضاحيتيها بروكدورف واهليفليدت ، وكان يسيطر كذلك على فرقة مشاة آلية في بوتسدام القريبة. وكان هوفنر – وهو من المتآمرين– يقود فرقة مدرعة في الجنوب بينما كان ضابطا الشرطة الكبيران في العاصمة وهما الكونت فون هيلدورف والكونت فون دير شولنبرغ، يسيطران على قوة ضخمة من رجال الشرطة الحسني التسلح ، لتقديم المساعدة اللازمة . وكان جميع هؤلاء الضباط ، كما قال المتآمرون أنفسهم ، لا ينتظرون إلا مجرد صدور الأمر من هولدر ليقفزوا إلى العمل ، على رأس قوة عسكرية طاغية . وكان أهل برلين أيضاً ، قد أفزعهم حتى حدود الموت ان هتلر ينتوي أن يأتي لهم بالحرب،وكان في وسعهم ، كما يستطيع مؤلف هذا الكتاب أن يؤكد بناء على خبرته ، أن يدعموا الحركة الانقلابية فوراً .

وليس في وسع أي انسان ، أن يؤكد تأكيداً جازماً ، أن هولدر وويتزليبين كانا سيعمدان اخيراً إلى العمل ، لو لم يوافق تشمبرلين على المجيء الى ميونيخ. ولو أخذنا بعين الإعتبار ، الموقف الواضح ، الذي كان هذان الفريقان يقفانه في تلك الآونة ، والذي لم يكن مهتماً بالاطاحة بهتلر ووضع حد لطغيانه وارهاب عهده ، بقدر اهتمامه بتجنب الوقوع في حرب قضي عليها بالخسارة ، لأمكننا أن نقول باحتمال لجوئهما إلى العمل ، لو لم تكن الترتيبات قد أعدت لعقد مؤتمر ميونيخ . لكننا ما زلنا نفتقر إلى المعلومات اللازمة لإقامة الدليل على أن هولدر وويتزليبين كانا على وشك اصدار الأمر بالعمل . وكل ما لدينا مجموعة من بيانات حفنة من المشتركين في المؤامرة كانوا تواقين بعد انتهاء الحرب إلى إقامة الدليل على معارضتهم للاشتراكية الوطنية ، ولا ريب في أن كل ما قالوه وكتبوه دفاعاً عن انفسهم يثير الكثير من التضارب والتناقض [١] .

وإذا صح ما أدعاه هؤلاء المتآمرون ، من أن خططهم كانت على وشك أن تنفذ ، فإن اعلان قيام تشمبرلين برحلته الى ميونيخ ، كان لا بد وان يهيل الأرض من تحت اقدامهم . إذ لم يكن في وسع القادة العسكريين ان يعتقلوا هتلر وان يقدموه إلى المحاكمة كمجرم حرب ، في الوقت الذي كان من الواضح فيه ، انه على وشك تحقيق نصر هام دون اللجوء إلى الحرب .

وكل ما نستطيع التأكد منه وسط هذا الجو من الغموض والشك . هو ما قاله الدكتور شاخت ، الذي يجب أن نصدقه في قوله هذا ، من أن الفرصة الذهبية التي أُتيحت الآن للمعارضة الألمانية للخلاص من هتلر ، ووضع نهاية سريعة للرايخ الثالث وإنقاذ ألمانيا والعالم من الحرب ، قد ضاعت ولن تعود ثانية . وفي وسع

---

١ ــ اود ان اضرب هنا مثلا ، باسباب الفشل التي اوضحها الفريق جورج توماس ، المدير البارع لفرع الاقتصاد والتسلح في القيادة العامة للقوات المسلحة ، وأحد المتآمرين اذ قال : «لقد فشل تنفيذ هذا المشروع لسوء الحظ بسبب ، ما ذكره القائد العسكري الذي اختير للقيام بالمهمة ــ وهو ويتزليبين ــ من ان الضباط الشبان ، قد برهنوا على عدم امكان الركون اليهم في عمل سياسي من هذا النوع » . راجع رسالته «التفكير والتطورات» المنشورة في عدد كانون الأول عام ١٩٤٥ من « المجلة الشهرية السويسرية » .

المرء ، إذا جارف بالتعميات أن يقول أن الألمان مصابون بمرض ايقاع اللوم على الاجانب ، بالنسبة إلى كل ما يمنون به من فشل . ولا ريب في أن مسؤولية تشمبرلين وهاليفاكس ، وكذلك ديلادييه وبونيه عن ميونيخ وعن كل ما لحق بها من نتائج مفجعة مسؤولية ضخمة وطاغية . ولكن في وسعنا أن نتسامح معهم إلى حد ما اذا لم يكونوا قد حملوا على محمل الجد ، نذر « الثورة » التي سيقوم بها لفيف من القادة العسكريين الألمان والمدنيين ، لأن هؤلاء ، كانوا ، ولم يزالوا حتى تلك اللحظة يخدمون هتلر بكل اخلاص ، وبكل ما لديهم من مؤهلات . وكان هؤلاء الساسة الأربعة أو بعض مستشاريهم على الأقل في لندن وباريس ، لا يزالون يذكرون الحقائق الصارخة المستمدة من التاريخ الألماني الحديث ، وهي أن الجيش هو الذي ساعد العريف النمسوي السابق على الوصول الى الحكم ، وأنه كان مبتهجاً من الفرص التي أتاحها له هذا العريف للتسلح ، ولم يكن قد اعترض كما يبدو على القضاء على الحرية الفردية في ظل الاشتراكية الألمانية ، ولم يكن قد عمل شيئاً لمعارضة قتل أحد جنرالاته وهو فون شلايخر ، أو للتخلص بعملية تواطؤ رخيصة من قائده البارز الفريق فون فريتشه ، وكان قد مضى مع هتلر في عملية لاغتصاب النمسا ، وزوده بالقوة العسكرية اللازمة لتنفيذ هذا الاغتصاب . ومهما كان اللوم الذي يلقى على كبار دعاة سياسة الترضية في لندن وباريس ، وهو لوم عظيم حتماً ، إلا أن الحقيقة تظل صارخة ، وهي أن القادة العسكريين الألمان أنفسهم ، والمتآمرين معهم من المدنيين قد فشلوا في أن يعملوا عندما أُتيحت لهم الفرصة المواتية للعمل .

استسلام ميونيخ

٢٩ — ٣٠ ايلول عام ١٩٣٨

استقبل ادولف هتلر في هذه المدينة البافارية الباروكية العجيبة ، التي شرع في غرفها الخلفية القاتمة القائمة في مقاهيها المنحطة ، بداية حياته السياسية الخفيضة ، والتي عانى في شوارعها ، مهزلة حركته الانقلابية الفاشلة في حانة الجعة ، رؤساء

حكومات بريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا ، استقبال الظافرين المنتصرين ، في الساعة الثانية عشرة والنصف من بعد ظهر التاسع والعشرين من ايلول

وكان قد ذهب في ساعة مبكرة من ذلك الصباح الى كوفستين الواقعة على الحدود النمسوية ـ الألمانية السابقة ، لإستقبال موسوليني ، وللاتفاق معه على اسس العمل المشترك في المؤتمر . وعندما استقل مع ضيفه القطار الى ميونيخ ، كان الفوهرر منشرح المزاج ، كل الانشراح ، وراح يشرح له على الخرائط التي يحملها ، الخطط التي وضعها « لتصفية » تشيكوسلوفاكيا . وقال للدوتشي ، انه إذا لم تسفر المحادثات التي ستبدأ في ذلك اليوم عن نجاح فوري ، فإنه سيعمد إلى استخدام السلاح فوراً . ويروي تشيانو ، الذي كان حاضراً المقابلة ، ان الفوهرر اضاف قائلاً : « وبالاضافة الى هـذا ، فان الوقت سيحين قريباً ، عندما يتحتم علينا ان نحارب أنا وأنت ، جنباً الى جنب ضد فرنسا وانكلترا . وقد وافـقه موسوليني على قوله [1] .

ولم يقم تشمبرلين بمحاولة مماثلة للاجتماع الى ديلادييه مسبقاً ، ولترتيب خطة مشتركة للعمل بين الديمقراطيتين الغربيتين ، تواجهان بها الديكتاتورين الفاشيين . وقد اتضح للكثيرين منا ، الذين كنا على اتصال بالوفدين البريطاني والفرنسي في ميونيخ ، مع مرور ساعات ذلك اليوم ، أن تشمبرلين كان عازماً عزماً أكيداً وقاطعاً عند مجيئه إلى ميونيخ ، على أن لا يسمح لأي انسان مهما كان ، تشيكياً كان أو فرنسياً ، بالوقوف في طريق وصوله إلى اتفاق سريع مع هتلر . [2] ولم يكن ثمة

---

١ ـ يوميات تشيانو الخفية ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ ، ص ١٦٦ . وقد ذكر موسوليني في برقيـة تاريخها ٢٦ حزيران ١٩٤٠ ، هتلر بأنه كان قد وعده في ميونيخ بالاشتراك في الهجوم على بريطانيا . ويوجد نص البرقية في وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٢٧ .

٢ ـ بعث تشمبرلين في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والاربعين من مساء اليوم السابق برسالة الى الرئيس بنيش ، يبلغه فيها رسمياً ، نبأ اجتماع ميونيخ . وقد قال في رسالته : « سأضع مصالح تشيكوسلوفاكيا نصب عيني دائماً ، واني ذاهب الى هناك ، وانا عازم عزماً اكيداً على ايجاد وسيلة للتقريب بين موقفي الحكومتين الالمانية والتشيكوسلوفاكية » . ورد عليه بنيش فوراً برسالة قال فيها : « اني لأرجو ان لا يتخذ اي قرار في ميونيخ قبل الاستماع الى وجهة نظر تشيكوسلوفاكيا » . (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٢) الحلقة الثالثة . ص ٥٩٩ و ٦٠٤) .

من حاجة إلى الاحتياط من جانب ديلادييه في ذلك النهار ، الذي كان أشبه ما يكون في دوّامة ، طيلة ذلك اليوم، ومع ذلك فإن تشمبرلين نظراً لتصميمه على هذا الموقف ، لم ير من حاجة إلى المغامرة .

وبدأت المحادثات في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين من بعد ظهر اليوم نفسه فيما يسمى «بدارة الفوهرر» في ميدان « كونيغز بلاتز » ، وكانت خالية من اية اثارة أو حماس ، إذ كانت بمثابة التسليم للفوهرر رسمياً بكل ما يطلبه عندما يطلبه . وقد لاحظ الدكتور شميدت الترجمان الذي لا يضاهى والذي طلب اليه أن يتولى الترجمة من لغات ثلاث هي الألمانية والفرنسية والانكليزية، منذ البداية « جواً من الوئام وحسن النية يسود الاجتماع ». وتذكر السفير هندرسون فيما بعد ، أن «المحادثات لم تصل في أية مرحلة من المراحل الى حد الحماس والحرارة» . وكانت الاجتماعات تعقد بلا رئيس . وساد جو من اللارسمية المحادثات من أولها، وإذا ما حكمنا على الوقائع من السجلات المدونة عند الألمان [٢]، والتي سلطت عليها الأضواء بعد الحرب ، تبيّن لنا أن رئيس الوزراء البريطاني ، ورئيس الوزارة الفرنسية، كانا يتناقشان في إرضاء هتلر ، حتى عندما استهل الاجتماع قائلاً :

« لقد اعلنت في الخطاب الذي ألقيته في ميدان برلين الرياضي أن علينا أن نزحف في الأول من تشرين الأول مهما كانت النتيجة. وقد تلقيت الرد بأن عملي هذا سيحمل طابع العنف . وهنا يقوم الواجب في تحرير هذا العمل من ذلك الطابع . لكن العمل يجب أن يقع على أي حال » .

وشرع المؤتمرون يعملون فوراً ، عندما أعلن موسوليني ، وكان ترتيبه الثالث في الكلام ، إذ ترك ديلادييه الى الأخير ، انه « رغبة منه في ايجاد حل عملي للمشكلة » .فقد حمل معه اقتراحات خطية محددة . ولا ريب في أن أصول هذه الاقتراحات مهمة للغاية ، وقد ظلت مجهولة من تشمبرلين ، كما أعتقد ، حتى مات . وتشير مذكرات فرانسوا — بونسيه وهندرسون ، أن السفيرين كانا

---

٢ — وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ١٠٠٣ — ١٠٠٨ و ١٠١١ — ١٠١٤).

يجهلان اصول هذه الاقتراحات جهلاً واضحاً أيضاً . ولم تعرف القصة الحقيقية إلا بعد عهد طويل ، من الميتة الفظيعة التي لاقاها الديكتاتوران .

فالخطة التي تقدم بها الدوتشي الآن ، وكأنها اقتراحات منه للوصول الى تسوية ، كانت قد أُعدت بصورة عاجلة في اليوم السابق ، في مقر وزارة الخارجية الألمانية في برلين ، وقد تولى اعدادها ، خفية عن فون ريبنتروب ، وزير الخارجية ، كل من غورنغ وفون نوراث ووايز ساكر ، وذلك لأن هؤلاء الثلاثة لم يكونوا يثقون بصحة أحكام ريبنتروب وسداد رأيه . وتولى غورنغ حملها الى هتلر ، الذي أعرب عن ارتياحه لها وقبوله بها ، وسرعان ما قام الدكتور شميدت بترجمتها ترجمة سريعة الى الفرنسية ، وسلمت الى السفير الايطالي اتوليكو ، الذي نقلها عن طريق الهاتف الى الديكتاتور الايطالي في رومة ، قبيل تحركه باتجاه ميونيخ . وهكذا فإن « الاقتراحات الايطالية » التي أمنت لهذا المؤتمر غير الرسمي ، جدول أعماله الوحيد ، والتي ضمنت له في النهاية الشروط التي غدت أساساً « لاتفاق ميونيخ » لم تكن في الحقيقة ، وعلى سبيل التأكيد إلا اقتراحات المانية تم اعدادها وطبخها في برلين نفسها [1] .

وكان لا بد ان تظهر هذه الحقيقة واضحة من نص المقترحات التي تطابقت تطابقاً كلياً مع نصوص طلبات هتلر المرفوضة في غودسبرغ ، ولكنها لم تتضح كما يبدو لأعين دلاديه وتشمبرلين ، واعين سفيريهما في برلين . وتقول السجلات

---

١ ـ روى ايريك كوردت ، قصة الاصول الالمانية لاقتراحات موسوليني في الشهادة التي تقدم بها الى المحكمة العسكرية الامريكية الرابعة في نورمبرغ في الرابع من حزيران عام ١٩٤٨ ، في القضية التي رفعتها الحكومة الامريكية على وايز ساكر . وتورد وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) في الصفحة (١٠٠٥) ، ملخصاً من سجل المحكمة الرسمية . ويروي كوردت القصة ايضاً في كتابه « اكاذيب وحقائق » في الصفحات من ١٢٩ الى ١٣١ . وتؤيد رواية الدكتور شميدت في صفحة ١١١ من كتابه « ترجمان هتلر » ، رواية كوردت وتضيف ان ترجمة اقتراحات الدوتشي كانت امراً سهلا ، لأنه كان قد ترجمها في برلين في اليوم السابق . وتروي يوميات تشيانو الخفية (ص ١٦٧) في يومية بتاريخ ٢٩ ـ ٣٠ ايلول فيميونيخ ان موسوليني اطلع في المؤتمر على الوثيقة التي « كان سفيرنا في برلين قد نقلها الينا في الليلة السابقة على اعتبار انها تمثل رغبات الحكومة الالمانية » .

الألمانية المدونة لوقائع الإجتماع ان رئيس الوزراء الفرنسي « رحب باقتراحات الدوتشي ، التي وضعت في روح واقعية وموضوعية » وان رئيس الوزراء البريطاني « رحب أيضاً باقتراحات الدوتشي واعلن انه كان قد فكر كذلك بحل على نفس الخطوط التي وضعها هذا الاقتراح » . أما السفير هندرسون ، فقد كتب فيما بعد ، انه رأى في اقتراح موسوليني « مزجاً بارعـــاً يبدو كأنه مبتكر لاقتراحات هتلر من ناحية ، والاقتراحات الانكليزية – الفرنسية من الناحيـة الأخرى » ، بينما اعتقد السفير الفرنسي فرانسوا بونيه ، ان الاقتراحات التي درسها المؤتمرون ، بدت وكأنها مذكرة بريطانية « اعدها هوراس ويلسون »[1] . وهكذا كان من السهل خداع هـــؤلاء الساسة والدبلوماتيين البريطانيين والفرنسيين العازمين عزماً قاطعاً على ترضية هتلر ، مهما كان الثمن .

وهكذا عندما وافق جميع المؤتمرين تلك الموافقة الحارة على « الاقتراحات الايطالية » ، لم يعد ثمة من حاجة إلا إلى بعض التفاصيل لوضعها وصياغتها . وكان من المنتظر من رجل سبق له أن عمل في التجارة كتشمبرلين ، وكان وزيراً سابقاً للمالية ، ان يسأل عن المصدر الذي سيتولى التعويض على الحكومـة التشيكية بالنسبة الى الممتلكات العامة التي سيجري نقلها في بلاد السوديت الى ملكية ألمانيا. ويقول فرنسوا – بونيه الذي ذكر أن هتلر بدا شاحب الوجه قلقاً الى حد ما ، وانه كان منزعجاً لتعذر متابعته الحديث بالانكليزية والفرنسية كزميله موسوليني ، ان الفوهرر ردّ بحرارة على الرئيس البريطاني مؤكداً أنه لن يكون هناك أي تعويض . وعندما اعترض تشمبرلين على الشرط القائل بعدم السماح للتشيكيين المطرودين من المنطقة بنقل مواشيهم معهم (وهو شرط كـــان قائماً في طلبات غودسبرغ المرفوضة) وقال : « ... هل يعني هذا أن الفلاحين سيطردون وأن مواشيهم ستظل في المنطقة ؟ انفجر هتلر غاضباً وهو يقول لتشمبرلين ... « ان وقتنا أثمن من أن نضيعه في مثل هذه التفاهات » [2] . واضطر رئيس الوزراء البريطاني الى

---

١ – هندرسون ... « فشل بعثة » ص ١٧١ . فرانسوا – بونيه – سنوات القدر ص ٢٧١

٢ – شميدت ... ترجمان هتلر ... ص ١١٠

اغلاق الموضوع .

وكان تشمبرلين قد أصر في البداية على وجوب اشراك ممثل تشيكوسلوفاكي في البحث ، أو على أن يكون « قريباً »على حد التعبير الذي استعمله.على الأقل. وأضاف أن بلاده « لا تستطيع أن تتعهد بالطبع ، بأن يتم اخلاء بلاد السوديت قبل العاشر من تشرين الأول ، كما اقترح موسوليني ، اذا لم تتلق تأكيداً من هذا النوع من الحكومة التشيكية » . وراح ديلادييه يؤيده تأييداً مستخذياً في قوله هذا فذكر أن الحكومة الفرنسية « لن تتسامح في الوقت نفسه بأية مماطلة من جانب الحكومة التشيكية » . ولكنه يرى على أي حال ان «وجود ممثل تشيكي تمكن مشاورته ، اذا اقتضى الأمر ، شيء نافع ومفيد » .

ولكن هتلر كان متصلباً في رأيه كالصخر . فهو لن يسمح بمثول أي تشيكي في حضوره وسرعان ماسلم له ديلادييه بما أراد مستخذياً ؛ أما تشمبرلين فقد تمكن أخيراً من الحصول على تنازل طفيف منه ، إذ اتفق أخيراً على السماح لممثل تشيكي بأن يكون في « متناول اليد في الغرفة المجاورة ، طلباً لاقتراح رئيس الوزراء البريطاني .

وبالفعل وصل ممثلان تشيكيان بعد الظهر الى المكان وهما الدكتور فوجتيش ماستني ، الوزير التشيكي المفوض في برلين ، والدكتور هيوبرت مازاريك ، من رجال وزارة الخارجية في براغ ،وأُدخلا بصورة تنطوي على الفتور والبرود الى الغرفة المجاورة . وهناك بعد أن مكثا من الساعة الثانية بعد الظهر حتى السابعة مساء ، لتهدئة أعصابهما الثائرة ، سقطت الصاعقة على رأسيهما أخيراً ، فقد جاء اليهما في السابعة فرانك اشتون – غواتكين ، العضو السابق في بعثة رانسيمان ، وأحد أفراد وفد تشمبرلين اليوم ، لينقل إلى مسامعهما الأنباء السيئة ، وأبلغهما المؤتمرين توصلوا إلى اتفاق عام ،لا يستطيع أن يفضي حتى تلك اللحظة بتفاصيله اليهما، وإن كانت هذه التفاصيل « أقسى » إلى حد ما من الاقتراحات الفرنسية – البريطانية . وعندما سأله مازاريك ، إذا لم يكن ثمة مجال ، للاستماع إلى وجهة نظر بلادهما ، رد الانكليزي قائلاً ، كما روى الممثل التشيكي فيما بعد لحكومته :

« بأنني أُبدو وكأنني أتجاهل الوضع الصعب الذي تواجهـــه الدول الكبرى ، وكأنني لا أستطيـع أن أفهم مدى الصعوبة في التفاوض مع هتلر » .

واستدعي التشيكيـان البائسان في الساعة العـاشرة مساء ، لمقابلة السـير هوراس ويلسون المستشار الأمين لرئيس الوزراء البريطاني ، وقد أبلغهما ويلسون نيابة عن رئيسه ، النقاط الأساسية في اتفاق الدول الأربـع ، وسلم إليهما خريطة للمناطق السوديتية التي يجب أن يجلو التشيكيون عنها فوراً . وعندما حـاول المبعوثان التشيكيان الاحتجاج ، راح الموظف البريطاني يقطع عليهما طريقه قائلاً أن ليس لديه ما يضيفه على ما أبلغهما إياه ، ثم بادر إلى مغـــادرة الغرفة فوراً . وواصل التشيكيان الاحتجاج إلى أشتون ـغواتكين ، الذي ظل معهما في الغرفة ولكن دون جدوى .

وقال لهما وهو يستعد للخروج ... « وإذا لم تقبلوا بهذا الاتفاق ، تحتم عليكم أُن تسووا مشاكلكم مع الالمان وحدكم . وقد يبلغكم الفرنسيون هذا بصورة اكثر نعومة . ولكن في وسعكم أن تصدقوني عندما أقول لكم أن الفرنسيين يشاطروننا الرأي . إنهم لم يعد لهم إهتمام بالموضوع » .

وكانت هذه هي الحقيقة بعينها ، على الرغم مما بدا فيها من مرارة في عيون الموفدين التشيكيين . فبعد دقائق قليلة من حلول الساعة الواحدة من صباح الثلاثين من ايلول . وقع كل من هتلر وتشمبرلـــين وموسوليني وديلادييه [1]، وعلى هذا

---

١ ـــ ارخ الاتفاق في التاسع والعشرين من ايلول ، على الرغم من ان التوقيـع الفعلي عليه لم يتم إلا في الساعات المبكرة من صباح الثلاثين من ايلول . وقد نص الاتفاق على ان يتم الاحتلال الالماني « للمناطق المأهولة بغالبية المانية » على اربـع مراحل بين الاول من تشرين الاول والسابـع منه . اما المنطقة الباقية التي ستتولى « اللجنة الدولية « تخطيط حدودها ، فيتم احتلالها قبل العاشر من تشرين الاول . وتقرر ان تتألف اللجنة المذكورة من ممثلين عن الدول الاربـع الكبرى وتشيكوسلوفاكيا . وقد وافقت بريطانيا وفرنسا وايطاليا « على ان يتم الجلاء عن المنطقة قبل العاشر من تشرين الاول ، دون ان تصاب التجهيزات والمؤسسات فيها بأي ضرر او اذى ، وتعتبر الحكومة التشيكية مسؤولة عن اتمام الجلاء دون الحاق الضرر بهذه التجهيزات » .

وتتولى « اللجنة الدولية » ايضاً اعداد العدة لاجراء استفتاء على « ان لا يتأخر موعده عن نهاية شهر تشرين الثاني » وذلك في المناطق التي يشك فيها في الطبيعة العرقية والعنصرية لأهلهـا ، وان =

الترتيب ، على اتفاق ميونيخ الذي قضى بـأن يبدأ الجيش الألماني زحفه على تشيكوسلوفاكيا في الأول من تشرين الأول ، تنفيذاً لوعد الفوهرر ، على ان يتم احتلال منطقة السوديت في العاشر منه . وهكذا حصل هتلر في ميونيخ على ما ضُنّ عليه به في غودسبرغ .

وظلت هناك قضية مؤلمة للضحايا على الأقل ، وهي كيفية ابلاغ التشيكيين بما يتوجب عليهم تسليمه ، ومتى يجب ان يتم التسليم . ولم يكن هتلر وموسوليني معنيين بهذا الجزء من الحفلة ، ولذا فقد انسحبا تاركين هذه المهمة الى ممثلي فرنسا حليفة تشيكوسلوفاكيا وإلى ممثـلي بريطانيا العظمى . وقد وصف مازاريك المنظر ، في التقرير الرسمي الذي بعث به إلى وزارة الخارجية التشيكية إذ قال:

« وفي الساعة الواحدة والنصف صباحاً ، قادونا إلى القاعة التي شهدت المؤتمر الذي انتهى . ورأينا هناك انا والدكتورماستني كلاً من المستر تشمبرلين والمسيو ديلادييه والسير هوارس ويلسون والمسيو ليغير (السكرتير العام لوزارة الخارجية الفرنسية)، والمستر أشتون غواتكين . وكان الجو مقبضاً للنفس . فالحكم بالاعـدام يوشك على الصدور . وبدا الفرنسيون في حالة الهياج العصبي الواضح ، تواقين للحفاظ على السمعة الفرنسية أمام المحكمة . وأشار المستر تشمبرلين في مقدمة طويلة ألقاها كخطاب متحمس إلى الاتفاق الذي وقـع ، ثم سلم نصه الى الدكتور ماستني ... »

= تقوم كذلك بتقرير الحدود الجديدة نهائياً. واعلنت بريطانيا وفرنسا في ملحق للاتفاق انهما تعلنان تأكيدهما « لعرضهما المتعلق بايجاد ضمانة دولية للحدود الجديدة للدولة التشيكوسلوفاكية ، ضد كل عدوان يقع عليها دون استفزاز . واعلنت المانيا وايطاليا بدورهما ، انهما عند ما تتم تسوية مشكلة الاقليات البولندية والمجرية ، سيضمنان حدود تشيكوسلوفـاكيا ضماناً ممـاثلا » (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ١٠١٤ ــ ١٠١٦) .

ولم ينفذ التعهد باجراء الاستفتاء قط . ولم تقم المانيا او ايطاليا باعطاء الضمانة لتشيكوسلوفاكيا ضد العدوان حتى بعد ان تمت تسوية مشكلة الاقليات البولندية والمجرية ، كما ان بريطانيا وفرنسا امتنعتا كما سترى فيما بعد ، عن الوفاء بالتزاماتهما .

ويمضي مازاريك ، فيقول انه ورفيقه شرعـــا في توجيه بعض الأسئلة ولكن ....

« كان المستر تشمبرلين يتثاءب باستمرار ، دون أن يقـوم بأي مجهود لاخفاء تثاؤبه . وسألت المسيو ديلادييه والمسيو ليغير ما إذا كانا ينتظران بياناً من حكومتنا أو رداً على الاتفاق . وبدا المسيو ديلادييه في حالة عصبية عنيفـة . ورد المسيو ليغير ، بأن الوقت ضيق مع الكبار الاربعة . واضاف مسرعاً في جوابه ، وبشيء من التظاهر بالهدوء المتصنع ، انهم لا يتوقعون رداً من جانبنا ، وانهم يعتبرون قبولنا بالاتفاق شيئاً منتهياً ، وان على حكومتنا ان توفد قبل الساعة الثالثـــة من مساء اليوم نفسه ، ممثلاً الى برلين ليشهد اجتماع اللجنة الدولية ، وان على الضابط التشيكي ، ان يكون في برلين ليعدّ مع اعضاء اللجنة تفاصيل الجلاء عن المنطقـة الأولى . وأضاف أن الجو ،قد بدأ يميل إلى الخطورة ، بالنسبة الى العالم كله .

« وكان في حديثه من الخشونة ما كفانا ... ... ولقـد سلك سلوك الفرنسيين حقاً . أما المستر تشمبرلين ، فلم يخف ما يحس به من تعب واعياء . وقدموا الينا خريطة ثانية مصححة . وهكذا انهوا عملهم معنا ، وبات في وسعنا أن ننصرف [١] » .

وعندما أعود بذاكرتي الآن الى ذلك اليوم ، اتمثل أمامي في تلك الليـــلة القدرية ، هتلر وهو يهبط سلم الدارة بخطوات واسعة ، وقد تألقت عيناه ببريق النصر بعد إنتهاء الاجتماع ، واتمثل موسوليني وهو يزهو مختالاً كالطاووس ببزته العسكرية الخاصة ، واتصور تشمبرلين وهو يواصل التثاؤب ، وتبدو عليـــه علائم الإرتياح والنعاس وهو يعود إلى الفندق في « ريجينا بالاس » .

---

١ ــ من التقرير الرسمي الذي بعث به الدكتور مازاريك الى وزارة خارجية براغ . المصادر هي ... وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ١٠١٤ ــ ١٠١٦ وثائق وزارة الخارجية البريطانية ــ الحلقة الثانية ــ الجزء الاول ص ٢٢٧ . ومؤلفات شيانو وشميدت وهندرسون . وفرانسوا ــ بونيه ووايز ساكر .

ودونت في يوميتي تلك الليلة أقول :

« وبدا لي ديلادييه من الناحية الأخرى رجلاً محطماً ومهزوماً كل الهزيمة . وسرعان ما وفد الى فندق ريجينا ليودع تشمبرلين .... وراح أحد الموجودين يسأله ... « يا سيدي الرئيس ، هـل أنت راض عن الاتفاق ؟ » ... والتفت ديلادييه الى سائله ، وكأنه يود ان يقول له شيئاً ... ولكنه صمت . وبدا عليه الإعياء الشديد ، وصورة الانسان المغلوب على أمره . ... وامتنعت الكلمـات على لسانه، وراح يتعثر ، جاراً قدميه، وهويخرج من الغرفة صامتاً[1] » .

ولم يكتف تشمبرلين بما أجراه من احاديث مع هتلر ، لتوطيد أركان السلام العالمي . ففي الساعات المبكرة من صباح اليوم التالي ، الثلاثين من ايلول ، راح يسعى الى لقاء الفوهرر في دارته الخاصة ، بعـد ان انعشته الساعات القليلة التي نامها ، وأحس بالارتياح مما حققته متاعب اليوم المنصرم من نتائج ، ليبحث معه في أوضاع أوروبا الاخرى ، وليحصل منه على شيء من التساهلات ، خيّل اليه انها ستكون ذات فائدة في تحسين وضعه السياسي في بلاده .

ويقول الدكتور شميدت ، الذي قام بدور المترجم في هـذا الإجتماع الطارىء ، والذي كان الشاهد الوحيد لما دار فيه من ابحاث ، ان هتلر بـدا شاحباً وفي حالة انفعال . واضاف أن الفوهرر استمع وهو شارد الذهن ، إلى رئيس الوزارة البريطانية الثرثار ، وهو يعرب عن ايمـانه بأن المانيا ستسلك « سلوكاً كريماً في تنفيذ اتفاق ميونيخ » ، ويكرر أمـله بأن ينطوي سلوك التشيكيين « على التعقل بحيث لا يثيرون متاعب جديدة » ، وبأن لا يقـوم هتلر ، حتى ولو اثاروا هذه المتاعب ، بضرب براغ جواً « موقعاً في اهلهـا من المدنيين خسائر بالغة من جراء هذا القصف الجوي » . ولم تكن هذه الأقوال إلا مقدمة لخطاب طويل وداوٍ لا يكاد المرء أن يصدق صدوره عن رئيس وزراء بريطانيا ، حتى ولو كان هذا الرئيس ، هو الذي استسلم في اليوم السابق ذلك

---

١ ـــ المؤلف – يوميات برلين . ص ١٤٥ .

الاستسلام المخزي المعيب للديكتاتور الألماني . ولكن الدكتور شميدت قد سجل هذا الخطاب في وثيقة رسمية من وثائق وزارة الخارجية الألمانية . وعندما يقرأ المرء حتى في هذه الأيام ، الوثيقة المصادرة ، يبدو عليه انه لا يستطيع تصديقها .

ولم تكن ملاحظات الرئيس البريطاني الأولى ، إلا مقدمة لما تلاها من أحاديث . فبعد هذا العرض غير المنقطع ، الذي راح تشمبرلين يتلوه على مسامع الديكتاتور الألماني المتجهم والذي ضمنه اقتراحاته للتعاون بين البلدين في إنهاء الحرب الأهلية الأسبانية (التي كان المتطوعون الألمان والايطاليون في طريق كسبها لفرانكو) ، وفي العمل على نزع التسلاح، وضمان الرخاء الاقتصادي للعالم، وتحقيق السلام السياسي لأوروبا، وحتى للتعاون بينهما على حل المشكلة الروسية ، أخرج الرئيس البريطاني من جيبه ورقة كان قد أعدها ، وأعرب عن أمله في أن يوقعاها معاً ، ليصدراها فوراً وهذا نص ما جاء فيها :

« عقدت أنا فوهرر المانيا ومستشارها اجتماعاً آخر اليوم مع مع رئيس وزراء بريطانيا واتفقنا معاً على اعتبار العلاقات الإنكليزية – الألمانية محتلة مركز الصدارة والأهمية بالنسبة لبلدينا ولأوروبا كلها .

« ونحن نعتبر الإتفاق الذي وقعناه ليلة أمس، والمعاهدة البحرية الانكليزية الألمانية ، رمزين للرغبة المسيطرة على شعبينا في أن لا يعودا إلى الإشتباك في حرب أُخرى مع بعضهما .

« ونحن عازمان على أن تكون طريقة التشاور هي الوسيلة التي نتبناها لمعالجة أية قضية أُخرى قد تهم بلدينا ، كما نصمم على مواصلة جهودنا لازالة كل أسباب الخلاف الممكنة ، وأن نسهم بذلك إسهاماً مباشراً في تثبيت دعائم السلام الأوروبي » .

ويروي الدكتور شميدت في تقريره الرسمي ، أن تشمبرلين قد دهش دهشة بالغة من السرعة الكبيرة التي تلا فيها هتلر الاعلان الرسمي ، والتي وقعه بها .

وكان الانطباع الذي حمله الراوي أن الفوهرر قد وافق على الصيغة المعروضة بشيء من التردد ... « رغبة منه في إرضاء تشمبرلين » الذي سرعان ما راح يوجه « شكره الحار إلى الفوهرر ... ويؤكد الأثر النفسي الذي يتوقعه من هذه الوثيقة » .

ولم يعرف رئيس الوزراء البريطاني المخدوع ، بالطبع ، أن هتلر وموسوليني كانا قد اتفقا قبل توقيع تلك الوثيقة ، كما كشفت الوثائق الألمانية والايطالية فيما بعد ، على أن يخوضا ، « جنباً إلى جنب » الحرب ضد بريطانيا العظمى . ولم يتمكن الرئيس البريطاني أيضاً من استشفاف ، ما كان يعده هتلر في عقله الكئيب من خطط ، سرعان ما تتكشف لنا [١] .

وعاد تشمبرلين إلى لندن كما عاد ديلادييه إلى باريس ، وقد سيطرت عليهما نشوة النصر والظفر . وواجه الرئيس البريطاني الذي أثمله السرور حشداً ضخماً من الجماهير التي اكتظت في داوننغ ستريت ، وهو يلوح بيده الوثيقة التى وقعها مع هتلر . وبعد أن استمع الرئيس إلى الجماهير وهي تهتف « لنيفيل الطيب العجوز » ، منشدة كذلك بشيء من الحماس أُنشودة « إنه حقاً لشخص طيب سعيد » عليهما ، أطل ، تشمبرلين ، من نافذة في الطبقة الثانية من الدارة رقم ١٠ في داوننغ وألقى عليهما الكلمات القليلة التالية :

« هذه هي المرة الثانية ، أيها الاصدقاء الخلص ، في تاريخنا ، يعود فيها السلام من المانيا إلى داوننغ ستريت محملاً بالشرف والكرامة[٢] . وإنني لأعتقد أيها السادة أن السلام سيسود العصر الذي نعيشه » .

وراحت صحيفة « التايمز » ، تعلن أنه « لم يعد قط أي فاتح منتصراً من ميادين القتال ، كما عاد تشمبرلين متوجاً بأكاليل الغار الشريفة » ، وظهرت حركة

---

١ ـ مصادر هذا الاجتماع ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٢) ص ١٠١ ، وثائق الوزارة (٤) ص ٢٨٧ ـ ٢٩٣ . كتاب شميدت « ترجمان هتلر » ص ١١٢ ـ ١١٣ ، ووثائق وزارة الخارجية البريطانية ـ الحلقة الثالثة (٢) . رقم ١٢٢٨ .

٢ ـ الاشارة هنا الى عودة دزرائلي من مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ .

تدعو إلى القيام «بحملة قومية لتقديم الشكر » إلى تشمبرلين ، تكريماً له ،ولكن الرئيس اعتذر عن قبولها اعتذاراً لطيفاً .وكان داف كوبر وزير البحرية هو الشخص الوحيد الذي استقال من الحكم احتجاجاً على استسلام ميونيخ . وعندما التأم شمل مجلس العموم ، لمناقشة السياسة الخارجية ، وهبّ ونستون تشرشل ، وكان لا يزال صوتاً وحيداً تائهاً في الصحراء ،ينطلق بكلماته الخالدة ... « لقد تعرضنا لهزيمة ساحقة لا مثيل لها » ،أرغمه النواب ، كما روى هو فيما بعد في مذكراته ، على التوقف عن الكلام ، حتى تهدأ عاصفة الاحتجاج التي أثارتها أقواله .

* * *

وكانت الحالة النفسية في براغ ، مختلفة بالطبع تمام الاختلاف . ففي الساعة السادسة والدقيقة العشرين من صباح الثلاثين من ايلول ، تولى القائم بالأعمال الألماني في براغ ، ايقاظ الدكتور كروفتا وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا من نومه ، ليسلمه نص اتفاق ميونيخ ، مع الطلب الموجه الى تشيكوسلوفاكيا لايفاد ممثلين عنها إلى الاجتماع الأول الذي ستعقده « اللجنة الدولية » في الساعة الخامسة من ذلك اليوم في برلين للاشراف على تنفيذ الاتفاق .

ولم يكن هناك سبيل آخر ، أمام الرئيس الدكتور بنيش ، الذي واصل عقد الاجتماعات في قصر « هرادشين » مع القادة السياسيين والعسكريين ، إلا أن يذعن. إذ لم تكتف بريطانيا وفرنسا ،بالتخلي عن بلاده ، وانما باتتا على استعداد لدعم هتلر في حالة لجوئه إلى استخدام القوة المسلحة إذا رفضت تشيكوسلوفاكيا الشروط التي وضعت في ميونيخ . واستسلمت تشيكوسلوفاكيا في الساعة الثانية عشر والدقيقة الخمسين من بعد ظهر ذلك اليوم ،وأعلنت في بلاغها الرسمي الذي أصدرته إلى العالم ، ان استسلامها هذا « مصحوب بالاحتجاج » . وراح الفريق سيروفي رئيس الوزارء الجديد يعلن بمرارة ، في الرسالة التي أذاعها على الشعب التشيكوسلوفاكي ، في الساعة الخامسة مساءً قائلاً : « لقد تخلوا عنا وخانونا . وأصبحنا نقف وحيدين » .

وواصلت بريطانيا وفرنسا ، الضغط حتى النهاية ، على الدولة التي توليا

غوايتها وخداعها . وراح وزراء بريطانيا وفرنسا وايطاليا في براغ ، يقابلون في ذلــك اليوم ، وزير الخارجيـــة الدكتور كروفتا ، للتأكد من أن تشيكوسلوفاكيا لن تثور في اللحظة الاخيرة ، احتجاجاً على الاستسلام . وبعث الدكتور هينكه ، القائم بالأعمال الألماني الى برلين برقية يشرح فيها الموقف قائلاً :

« عندما حاول الوزير الفرنسي توجيه بعض عبـارات العزاء الى كروفتا ، راح وزير الخارجية التشيكي يقاطعه قائلاً : « لقد أرغمنا على قبول هذا الوضع . وقد انتهى الآن كل شيء . لقد جاء دورنا اليوم ، ولكن دور غيرنا سيحل غداً » . وافلـــح الوزير البريطاني بعد مشقة بالغة في ان يقول للوزير التشيكي بأن تشمبرلين قد بذل كل ما في وسعه ، ولكنه تلقى عين الرد الذي تلقاه زميله الفرنسي . لقد كان وزير الخارجية التشيكي ، محطماً تمام التحطيم ولم يعرب إلا عن رغبة واحــــدة ، وهي أن يسارع الدبلوماتيون الثلاثة بمغادرة الغرفة ، وتركه الى افكار [1] » .

واستقال الدكتور بنيش في الخامس من تشرين الأول ، تلبية لإصرار المانيا على استقالته ، وعندما اتضح له ان حياته معرضة للخطر ، فر إلى انكلترا ، ليعيش في منفاه . وقد خلفه في الرئاسة مؤقتاً الفريق سيروفي . وفي الثلاثين من تشرين الثاني ، انتخبت الجمعية الوطنية الدكتور اميل هاشا ، رئيس المحكمة العليا ، وهو رجل حسن النية ، طيب القلب ، ضعيف الشخصية ، ليكون رئيساً لما تبقى من تشيكوسلوفاكيا ، البلد الذي غدت تسميته الرسمية الآن ، بايجـــاد فاصل بين الكلمتين اللتين يتألف منهما الاسم « تشيكو – سلوفاكيا » ترمز إلى الحكم عليه بالموت .

وراحت « اللجنة الدولية » تسلم الآن لألمانيا ، في تشيكوسلوفاكيا ما نسي تشمبرلين وديلادييه تسليمه اليها في ميونيخ . وقد تألفت هذه اللجنة بسرعة من سفراء ايطاليا وبريطانيـــا وفرنسا ومن وزير تشيكوسلوفاكيا في برلين

ـــ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ص ٤ ــ ٥ .

بالاضافة إلى البارون فون وايز ساكر وزير الدولة في وزارة الخارجية الألمانية. وكان كل نزاع على أرض اضافية ، سرعان ما يسوى لمصلحة الألمان ، تحت وطأة التهديد المتواصل من هتلر والقيادة العليا للقوات الألمانية المسلحة باللجوء الى القوة المسلحة . واقترعت اللجنة أخيراً وفي الثالث عشر من تشرين الأول على العدول عن الاستفتاء الذي اقر إتفاق ميونيخ اجراءه في المناطق المتنازع عليها، إذ رأت اللجنة أن لا ضرورة لهذا الاستفتاء .

وراح البولنديون والمجريون ، بعد التهديد باستخدام القوة ، ضد البلاد التي غدت بلا حول أو طول ، ينتزعون منها كالنسور مساحات من الأراضي التشيكوسلوفاكية . واستولت بولندة بالحاح من وزير خارجيتها جوزيف بيك ، الذي قدر له أن يغدو في الأشهر الاثني عشر المقبلة شخصية بارزة في هذا السرد التاريخي ، على نحو من ٦٥٠ ميلاً مربعاً من الأرض حول تيشّين تضم نحواً من (٢٢٨) الفاً من السكان بينهم (١٣٣) الفاً من التشيكيين . واستولت المجر على قطعة اكبر ، في الجائزة التي اقرها لها شيانو وريبنتروب في اجتماعها في الثاني من تشرين الثاني ، فقد حصلت على (٧٥٠٠)ميل مربع من الارض تضم نصف مليون من المجريين و (٢٧٢) الفاً من السلوفاكيين .

وأرغمت البلاد المجزّأة التي غدت الآن فاقدة لمقومات الدفاع ، تلبية لأوامر برلين ، على قبول حكومة موالية لألمانيا ذات ميول فاشية واضحة ، واتضح تمام الوضوح أن بقاء الدولة التشيكوسلوفاكية ، غدا منذ هذه اللحظة رهناً بمشيئة زعيم الرايخ الثالث .

نتائج ميونيخ

وهكذا حصل هتلر بموجب شروط اتفاق ميونيخ على معظم الطلبات التي تقدم بها في غودسبرغ ، بينما تولت « اللجنة الدولية » إذعاناً منها لتهديداته ، إعطاءه اكثر مما سبق له ان طلبه . وأرغمت التسوية النهائية التي تم الوصول اليها في

العشرين من تشرين الثاني ، تشيكوسلوفاكيا ، على التسليم لألمانيا بأحد عشر الف ميل مربع من الأرض يسكنها نحو من (٢،٨٠٠،٠٠٠) من الألمــان السوديت وثمانمائة الف من التشيكيين . وتضم هذه المنطقة كافة التحصينات التشيكية ،التي كانت تؤلف حتى ذلك التاريخ ، أكثر الخطوط الدفاعية مناعة في اوروبا ، إذا استثنينا خط ماجينو في فرنسا .

ولم يكن هذا كل شيء . فقد تحطم جهــاز تشيكوسلوفاكيا في طرق مواصلاتها الحديدية والبرية والهاتفية والبرقية تحطيماً كلياً . وتقول الأرقــام الألمانية نفسها ان تشيكوسلوفاكيا المجزأة خسرت (٦٦) في المائة من فحمهـا و (٨٠) في المائة من الفحم المعدني و(٨٦) في المائة من موادها الكيمائية و (٨٠) في المائة من اسمنتها ، و (٨٠) في المائة من صناعة نسيجها و (٧٠) في المائــة من حديدها وفولاذها و (٧٠) في المائة من قوتها الكهربائية و (٤٠) في المائة من خشبها . وتم تمزيق شعب صناعي ناجح تمزيقاً كاملاً واصبــح معرضاً للإفلاس بين عشية وضحاها .

وليس من الغريب والحالة هذه أن نجــد يودل ، يدوّن طرباً في يومياته على تلك الليلة في ميونيخ ما يلي :

« لقد وقع ميثاق ميونيخ ، وانتهت تشيكوسلوفاكيا كدولة قوية . ... وقد تمكنت عبقرية الفوهرر وتصميمه حتى ولو أدى الأمر الى حرب عالمية من تحقيق نصر جديد دون اللجوء الى القوة. ويتركز الأمل الآن في أن يكون المتشككون والضعفــاء ، والمتخوفون قد تحولوا إلى شيء آخر وانيظلوا كذلك [١] »

وحقاً لقد تحول الكثيرون من المتشككين الى مؤمنين ، أما القلة الباقيــة منهم ، فقد هووا في غمرة طاغية من اليأس . وثبت ان القادة العسكريــين من امثال بيك وهولدر ، وويتزليبين ومستشاريهم المدنيين كانوا على خطأ في رأيهم، فقد حقق هتلر ما أراد ، وتمكن من إحراز نصر ضخم آخر ، دون أن يطلق

---

١ ــ يوميات يودل ــ المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٣٦٨ .

رصاصة واحدة . وحلقت مكانتـــه في ذرى جديدة . وليس في وسع إنسان ، وجد في المانيا ، بعـد مؤتمر ميونيـخ ، كما وجـــد مؤلف هذا الكتاب ، أن ينسى ما سيطر على الشعب الألماني من نشوة النصر والابتهـــاج . فلقد غمرهم شعور طـاغ من الإرتيـاح لتجنب الحـــرب ، واستفزهم إحساس ضخم من الكبرياء والزهو لما حققه هتلر من نصر دون أن يسفك دماً ، لا على تشيكوسلوفاكيا وحدها بل وعلى بريطانيا العظمى وفرنسا أيضـاً . وكانوا لا يتوانون عن تذكير من يقابلهم بأن الفوهرر قد تمكن في غضون ستة أشهر فقط ، من احتلال النمسا ومناطق السوديت ، وأن يضيف عشرة ملايـــين إلى مجموع سكان الرايخ الثالث ، وأن يضم إلى أراضيه مناطق سوقية (استراتيجية) ضخمة . مهدت لألمانيا السبيل للسيطرة على الأجزاء الجنوبية الشرقية من اوروبا. وقد تم كل ذلك دون أن تفقد المانيا رجلاً واحداً من أبنائها . وتمكن هتلر بغريزة العبقري ، النادر الظهور في المانيا وتاريخها ، أن يسيطر لا على الدول الصغيرة في اواسط اوروبا ويرهبها فحسب بل وعلى الدول الديموقراطية الغـــربية الكبرى أيضاً ، وفي مقدمتها بريطانيا العظمى وفرنسا ، وأن يرغمها على الإذعان لمشيئته. وقد ابتكر بنجاح مذهل اسلوب « الحرب السياسية » وسوقيتها ، واستعملهـــما استعمالاً ناجحاً جعل الحرب الفعلية أمراً لا ضرورة له البتة .

وفي غضون ما لا يزيد عن أربع سنوات ونصف ، تمكن هذا الرجل المغمور الأصل والوضيع القواعد ، من أن يشمخ بألمانيا المفلسة تقريباً والمنزوعة السلاح ، والخاضعة للفوضى ، والمعتبرة أقل الدّول الكبرى شأناً وأضعفها قوة ، وأن يصل بها إلى وضع باتت تعتبر فيه أقوى دولة في العالم القديم ، تقف أمامها الدول الأخرى ، وبينها بريطانيا أيضـاً وفرنسا ، مرتجفة هلوعة . ولم تجـــرؤ دول فرساي الظافرة ، في أية مرحلة من مراحل هذا الارتقاء المذهل ، على محـــاولة وقفه ، حتى عندما كانت تملك القوة الكافية لتحقيق ذلك . وفي ميونيخ ، التي سجلت الانتصار الأكبر لألمانيا ، انجرفت بريطانيا وفرنسا إلى الحد الذي دفعها إلى محاولة مساعدة هذا الإرتقاء والتضخم . ولا ريب في أن ما أدهش هتلر وأذهله ،

من مستخذية كهذه التي تقفها الدولتان الكبيرتان أمامه ، قد أذهل الفريق بيك وهاّسيل وغيرهما أيضاً من رجال تلك الفئة الصغيرة من المعارضين ،إذ أدركوا ، أن أياً من الرجال المسيطرين على حكومتي بريطانيا وفرنسا ، والذين كثيراً ما أسماهم هتلر « بالحشرات الصغيرة » امتهاناً لهم في أحاديثه الخاصة بعد ميونيخ ، لم يكن ليقدر نتائج هذا العجز في الرد رداً قوياً وفعلياً على حركات الفوهرر العدوانية المتوالية .

ويبدو أن ونستون تشرشل كان الوحيد في انكلترا ، الذي فهم هذه النتائج وقدرها حق قدرها ، ولم يكن هناك من اوضحها ايضاحاً كافياً اكثر منه في الخطاب الذي ألقاه في مجلس العموم بعد ميونيخ ، وفي الخامس من تشرين الأول عندما قال :

« لقد منينا بهزيمة كلية ، لا مثيل لها . ... وها نحن نجد أنفسنا في خضم كارثة من الطراز الأول . فقد باتت الطريق مفتوحة إلى الدانوب . .. وإلى البحر الأسود ايضاً . ... وسنرى عما قريب جميع بلاد أُوروبا الوسطى وحوض الدانوب ، تجر واحدة إثر أُخرى إلى فلك السياسات النازية . ... الذي يتلقى الإشعاع من برلين . ... ولا يخيل لكم أن هذه هي النهاية...فهي في الحقيقة بداية البداية ... » .

ولكن تشرشل لم يكن في الحكم آنذاك ، وضاعت أقواله في مهاب الرياح.

فهل كان هناك ضرورة لإستسلام الانكليز والفرنسيين في ميونيخ ؟ وهل كان هتلر جاداً في تهديداته ، ولا يلجأ إلى البلف ؟

إن الرد على هذين السؤالين ، أصبح معروفاً الآن . وهو لا يعدو كلمة «لا». فجميع القادة العسكريين الذين كانوا على اتصال بهتلر ، والذين عاشوا إلى ما بعد انتهاء الحرب ، يتفقون على انه لو لم يقع اجتماع ميونيخ ، لهاجم هتلر تشيكوسلوفاكيا في الأول من تشرين الأول عام ١٩٣٨ . وهم يفترضون ، انه مهما كانت الترددات المؤقتة آنذاك في لندن وباريس وموسكو ، فإن بريطانيا

وفرنسا وروسيا ، كانت ستخوض الحرب حتماً .

ولعل كل ما يهم السرد التاريخي الراهن في هذه المرحلة ، أن القادة العسكريين الألمان ، يتفقون دون استثناء ، على أن ألمانيا كانت ستخسر الحرب حتماً ، وفي وقت قصير . أما ادعاء أنصار تشمبرلين وديلادييه ، وكانوا كثراً في ذلك الحين بأن ميونيخ قد أنقذت الغرب لا من الحرب فقط بل ومن الهزيمة فيها ، وحفظت بالتالي مدينتي لندن وباريس من أن تزالا من الوجود بقنابل السلاح الجوي الألماني الفتاكة ، فلا أساس له من الصحة ، إذ نفاه اولئك الذين كانوا يعرفون الحقيقة أكثر من غيرهم ، وأعني بهم القادة العسكريين الألمان ولا سيما اولئك ، المقربين من هتلر والذين تعاونوا معه وساعدوه بحماس منقطع النظير منذ البداية حتى النهاية .

ولعل أبرز الأنوار الكاشفة هذه قد سطع من جانب الفريق كايتل ، الرئيس الأعلى للقيادة العليا للقوات الألمانية المسلحة ، ورفيق هتلر ، والواقف إلى جانبه في كل حين . فعندما وجه السؤال اليه في محاكمات نورمبرغ عن موقف القادة العسكريين الألمان ورأيهم في اجتماع ميونيخ ، قال :

« لقد كنا جد سعداء لأن الأمر لم يتطور إلى عمل عسكري . ولقد كان من رأينا أن وسائلنا الهجومية ضد تحصينات الحدود في تشيكوسلوفاكيا لم تكن كافية . ولقد كنا نفتقر من ناحية عسكرية مجردة إلى الوسائل الهجومية التي يتطلبها إختراق تحصينات منيعة على الحدود »[1] .

وكان الخبراء العسكريون في دول الحلفاء يفترضون دائماً أنه كان في وسع الجيش الألماني أن يقتحم تشيكوسلوفاكيا بسهولة ، ولكن في وسعنا أن نضيف إلى شهادة كايتل السابقة بأن هذا الافتراض كان خاطئاً ، شهادة اخرى صدرت عن المشير فون مانشتاين ، الذي أصبح من أبرز قادة الميدان العسكريين عند الألمان . فعندما تقدم إلى الشهادة في محاكمات نورمبرغ ، ولم يكن متهماً ككايتل ويودل ، قال موضحاً موقف ألمانيا العسكري أيام ميونيخ :

---

١ ــ شهادة كايتل ــ ٤ نيسان ١٩٤٦ . محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٥٠٩ .

« لو نشبت الحرب آنذاك ، لما تمكنا من الدفاع بصورة فعّالة عن حدودنا الغربية وحدودنا مع بولندة ، وليس ثمة من شك في أن تشيكوسلوفاكيا لو دافعت عن نفسها ، لتمكنت من الصمود أمامنا بتحصيناتها الدفاعية إذ أننا لم نكن نملك الوسائل اللازمة لإقتحامها [١] » .

أما يودل ، وهو « الدماغ المفكر » للقيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية فقد وصف الوضع على النحو التالي في نورمبرغ ، عندما شرع يدافع عن نفسه :

« ولم يكن هناك أمل في ان نتمكن بخمس فرق مقاتلة وسبع فرق احتياطية في تحصيناتنا الدفاعية الغربية التي لم تكن اكثر من مجرد مواقع ضخمة مشيدة ، من الصمود أمام مائة فرقة فرنسية . لقد كان هذا الصمود أمراً مستحيلاً من الناحية العسكرية » [٢] .

فإذا صح ما يقوله هؤلاء القادة العسكريون الألمان ، من ان جيش هتلر كان يفتقر إلى الوسائل اللازمة لإختراق الحصون التشيكية ، وان المانيا كانت في « وضع عسكري مستحيل » أمام قوة فرنسا الطاغية في الغرب ، وإذا كان ثمة خلاف خطير كما رأينا من قبل ، بين القادة العسكريين الألمان حتى أن هيئة أركان الحرب كانت على استعداد للاطاحة بهتلر لتجنب حرب يائسة ، فلماذا ، كانت هيئتا أركان الحرب البريطانية والفرنسية تجهلان هذه الحقائق يا ترى ؟ وإذا افترضنا الرأي الأخير ، فكيف أمكن لرئيسي حكومتي بريطانيا وفرنسا أن يتعرضا في ميونيخ إلى ذلك الارغام الذي حملها على التضحية بالكثير

---

١ ـ شهادة مانشتاين ـ ٩ آب ١٩٤٦ ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٠) ص ٦٠٦ . ويقال ان هتلر نفسه بات، مقتنعاً بعض الاقتناع بهذه الحقيقة بعد ان قام بزيارة خطوط تشيكوسلوفاكيا الدفاعية ، فلقد ذكر للدكتور كارل بيركهاردت مفوض عصبة الامم في دانزيغ فيما بعد انه عندما قام بعد ميونيخ بفحص تحصينات تشيكوسلوفاكيا العسكرية من الداخل ، اصابه الكثير من الإضطراب ، فقد ادرك ان المانيا تعرضت لأخطار كبيرة ، اذ كانت الخطط المعدة من العسكريين التشيكيين هائلة . واضاف يقول : « وقد فهمت آنذاك لماذا كان قادتي العسكريون ينصحون بالتريث » (بيرتيناكس ـ الذين حفروا قبر فرنسا . ص ٥) .

٢ ـ شهادة يودل . ٤ حزيران ١٩٤٦ . محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٥) ص ٣٦١

من مصالح بلديهما ؟ وعندما نحاول العثور على ردود هذه الأسئلة ، فإننا نواجه بعض الأسرار المتعلقة بذلك العهد ، وهي أسرار لم يحسر النقاب عنها بعد . فتشرشل نفسه ، على الرغم من عنايته الكلية بالشؤون العسكرية ، لا يحاول المساس بهذه الأسرار في مذكراته الضخمة .

ولا يستطيع المرء أن يصدق أن هيئتي أركان الحرب في بريطانيا وفرنسا ، وأن حكومتيهما ، كانتا على جهل بمعارضة هيئة أركان الحرب الألمانية ، لنشوب حرب اوروبية . فلقد لاحظنا من قبل ، أن المتآمرين في برلين كانوا قد أبلغوا الحكومة البريطانية بهذه المعارضة عن أربع طرق في شهري آب وايلول ، وقد عرفنا أيضاً ، أن هذه القضية أُثيرت أمام تشمبرلين نفسه كذلك . ولا ريب في أن باريس ولندن قد عرفتا في مستهل شهر أيلول باستقالة الفريق بيك ، وبما ينطوي عليه عصيان أبرز قائد عسكري ألماني وأكثرهم موهبة من نتائج واضحة على الجيش الألماني .

وكان من المعروف في برلين في ذلك الحين أن المخابرات العسكرية البريطانية والفرنسية كانت قوية إلى حدٍ ما. وهكذا يصبح من العسير علينا أن نصدق أن القادة العسكريين في لندن وباريس لم يكونوا على علم بالضعف الواضح في جيش ألمانيا وسلاحها الجوي ، وبعجزها عن الاشتباك في حرب على جبهتين . فأية شكوك يمكن أن تثور في رأس الفريق غاملان ، رئيس أركان حرب فرنسا ، على الرغم من شدة حذره ومن حرصه الفطري ، عن احتمال عجزه بمائة فرقة فرنسية عن اكتساح خمس فرق المانية نظامية وسبع فرق احتياطية في الغرب ، وعن التوغل بسرعة وسهولة داخل المانيا ؟ .

لقد روى غاملان فيما بعد ، أن شكوكه كانت قليلة على الغالب [1] . فلقد ذكر القائد العسكري الفرنسي الكبير ، أنه أبلغ ديلاديه في الثاني عشر من ايلول وهو نفس اليوم الذي تدفق فيه هتلر بوعيده القاصف في الخطاب الذي ألقاه في

---

١ ـــ كتاب غاملان الفاشل « الانصاف » ص ٣٤٤ ـ ٣٤٦ . وكتاب بيرتينا كس . « الذين حفروا قبر فرنسا » ص ٣ .

مهرجان نورمبرغ ، مهدداً تشيكوسلوفاكيا بالويل والثبور وعظائم الأمور ،بأن « الدول الديمقراطية قادرة في حالة نشوب الحرب على فرض السلام » . وأضاف غاملان أنه عزز قوله هذا بمذكرة خطية ضمنها الأسباب التي تحمله على هذا التفاؤل . وذكر أنه في السادس والعشرين من أيلول ،وكانت الأزمة التشيكية قد بلغت أوج حدتها بعد اجتماع غودسبرغ ، رافق رجال الحكومة الفرنسية في رحلتهم إلى لندن ، حيث أعاد تأكيداته السابقة على مسامع تشمبرلين ، محاولاً دعمها بتحليل للوضع العسكري قصد منه التأثير لا على رئيس الوزراء البريطاني فحسب ، بل وعلى رئيسه الفرنسي المتردد . ويبدو أنه فشل في هذه المحاولة فشلاً ذريعاً ، ولكنه راح يبذل محاولة اخيرة ، قبل طيران دیلادییه إلى ميونيخ إذ حدد له المناطق التي يمكن للألمان الاستيلاء عليها في بلاد السوديت دون تعريض سلامة فرنسا للخطر . وأكد له وجوب عدم تخلي تشيكوسلوفاكيا لألمانيا عن الحصون الدفاعية الرئيسية ، وشبكات السكك الحديدية الاساسية وبعض الخطوط الفرعية الاستراتيجية والصناعات الدفاعية المهمة . وأضاف أن من الواجب قبل كل شيء عدم السماح للألمان بقطع مضيق مورافيا . ولا ريب في أن هذه النصيحة كانت طيبة إذا اريد من تشيكوسلوفاكيا أن تكون ذات نفع لفرنسا في أية حرب مقبلة ، ولكن دیلادییه ، لم يكن كما رأينا من قبل ، من طراز الذين يعملون بهذه النصيحة .

ولقد قيل الكثير ايام ميونيخ ، أن من أهم الاسباب التي دعت تشمبرلين الى الاستسلام ، خوفه من أن تمحى لندن من الوجود بفعل القذائف الجوية الألمانية ، وليس ثمة من شك في أن الفرنسيين قد خافوا على عاصمتهم الجميلة من نفس المصير ايضاً . ولكن طبقاً لما نعرفه الآن عن حقيقة قوة السلاح الجوي الألماني آنذاك ، يتبين لنا ان أهل لندن وباريس وفي طليعتهم رئيسا وزارتيهما ، لم يكونوا على حق في هذا الفزع من القوة الجوية الألمانية . لقد حشدت هذه القوة كما حشد الجيش على حدود تشيكوسلوفاكيا ولذا فقد كانت عاجزة ، كعجز الجيش تماماً عن القيام بأي عمل جدي في الغرب . ولو افترضنا تمكن الألمان من توفير عدد

من قاذفاتهم لمهاجمة لندن وباريس ، فان هذه الطائرات لم يكن في وسعها على الغالب أن تصل إلى اهدافها . فلقد كان الألمان ضعفاء كالبريطانيين والفرنسيين في طائراتهم الدفاعية المحاربة ، ولم يكن في وسعهم والحالة هذه ان يوفروا الطائرات اللازمة لحماية طائراتهم القاذفة إذ توافر عدد منها للهجوم . يضاف إلى هذا أن قواعد الطائرات المحاربة الألمانية كانت بعيدة للغاية عن أهداف الهجوم الجوي في لندن وباريس .

ولقد قيل ايضاً ، وكان السفيران فرانسوا – بونيه وهندرسون ، في مقدمة هؤلاء القائلين ، بأن اتفاق ميونيخ اتاح للدولتين الديموقراطيتين الغربيتين فرصة سنة واحدة للحاق بالألمان في ميدان السباق على التسلح ، لكن الحقائق تقيم الدليل على كذب هذه الأقوال وتفندها . ولقد روى تشرشل ، وايده في روايته هذه ، مؤرخ عسكري من الحلفاء يعتبر حجة في موضوعه بأن « السنة التي قيل ان ميونيخ قد اتاحتها للحلفاء ، قد تركت بريطانيا وفرنسا في موضع أسوأ بكثير بالنسبة إلى المانية هتلر ، من الوضع الذي كانتا فيه عند أزمة ميونيخ [1] . وسنرى بعد قليل ان جميع الحسابات العسكرية الألمانية بعد سنة واحدة من ميونيخ ، تؤيد رواية تشرشل ، كما ان الأحداث التالية ، تزيل أية شكوك في الموضوع مهما كانت .

وفي وسعنا الآن وبعد التفكير في الأحداث التي وقعت ، وعلى ضوء ما تجمع لدينا من معلومات من وثائق الألمان السرية ، ومن شهادات الألمان أنفسهم بعد الحرب ، أن نلخص الوضع على النحو التالي ، الذي لم يكن ميسوراً في أيام ميونيخ :

كانت المانيا على استعداد للمضي إلى الحرب في الأول من تشرين الأول عام ١٩٣٨ ضد تشيكوسلوفاكيا وفرنسا وبريطانيا ، دون أن نذكر شيئاً عن روسيا ، ولو مضت إلى الحرب في ذلك التاريخ فعلاً ، لكان في الامكان هزمها بسهولة وسرعة ، ولكانت في ذلك نهاية هتلر والرايخ الثالث . ولو تدخل

---

١ – مذكرات تشرشل . . . . ص ٣٣٩

الجيش الألماني في اللحظة الأخيرة للحيلولة دون نشوب حرب اوروبية ، لكان من المحتمل أن ينجح هولدر وويتزليبين وشركائهما ، من تنفيذ الخطة للاطاحة بهتلر فور إصداره الامر النهائي بالهجوم على تشيكوسلوفاكيا .

وليس ثمة من شك في أن هتلر بتبجحه العلني أكثر من مرة في أنه سيزحف على مناطق السوديت في الاول من تشرين الاول « مهما كان الثمن » ، قد وضع نفسه في موقف حرج ، وتعرض « لورطة لا طاقة له بها » ، كما توقع الفريق بيك من قبل . إذ لو حاول هتلر بعد كل هذه التهديدات وذلك الاعلان التراجع ذاتياً ، عن تنفيذ ما أعلنه ، لما استطاع البقاء طويلاً في الحكم ، إذا أخذنا بعين الإعتبار الشروط الاساسية اللازمة لبقاء الحكم الديكتاتوري ، ولا سيا حكمه هو . فلقد كان من العسير جداً ، بل ومن المستحيل عليه أن يتراجع ، إذ لو تراجع ، فإن هيبته في أوروبا وبين شعبه ، وعند قادته العسكريين ستنهار ،وفي انهيارها • القضاء المبرم عليه .

ولكن عناد تشمبرلين وإصراره الحماسي على إعطاء هتلر ما أراده ، ورحلاته الى برختسغادن وغودسبرغ ، وأخيراً سفرته المفجعة إلى ميونيخ ، كلها عوامل أنقذت هتلر من ورطته وقوّت مركزه قبل بضعة أسابيع. ولا ريب في أن هذه العوامل قد أضافت إلى حد كبير إلى سلطان الرايخ الثالث وقوته على مواجهة الدول الديموقراطية الغربية والاتحاد السوفياتي .

ولقد كانت ميونيخ كارثة بالنسبة إلى فرنسا ، وليس في إمكان المرء أن يفهم كيف أن باريس لم تدرك هذه الحقيقة . فقد تحطم موقف فرنسا العسكري في اوروبا . إذ لما كان جيش فرنسا لا يربو في تعداده في حالة التعبئة العسكرية الكاملة في ألمانيا نصف الجيش الألماني ، بالنظر الى أن عدد سكان ألمانيا يبلغ ضعف عدد سكان فرنسا ، ولما كان انتاجها في الأسلحة لا يزيد أيضاً على نصف ما تنتجه ألمانيا من ناحية الطاقة الإنتاجية ، فلقد عملت فرنسا جاهدة على اقامة محالفات مع الدول الصغرى في الشرق أي الى الجانب الآخر من ألمانيا وهي تشيكوسلوفاكيا وبولندة ويوغوسلافيا ورومانيا بالاضافة الى ايطاليا ، لأن

طاقاتها العسكرية جميعها تؤلف طاقات دولة كـــبرى . أما الآن فقد غدت خسارة نحو من خمس وثلاثين فرقة تشيكية حسنة التدريب والتسلح ، تتوزعها حصون دفاعية جبلية منيعة ، وترغم عدداً أكبر من الفرق الألمانية على مواجهتها ضربة شلت الجيش الفرنسي كله . ولم يكن هذا كل شيء . اذ كيف يمكن لمن تبقى من حلفاء فرنسا في اوروبا الشرقية بعد اجتماع ميونيخ أن تحافظ على ثقتها في عهود فرنسا الخطيرة ؟ وأي قيمة هناك للأحلاف مع فرنسا ؟ وكان الرد على هذين السؤالين في وارشو وبوخارست وبلغراد، غير ايجابي ، فقد تعالت الصيحات في هذه العواصم مطالبة بعقد أحسن الصفقات ، قبل أن يفوت الوقت مـــع الفاتحين النازيين .

وساد القلق موسكو ، ان لم نقل أن الهياج قد سادها . فعلى الرغم من الحلف العسكري المعقود بين الاتحاد السوفياتي وبين كل من تشيكوسلوفاكيا وفرنسا ، فان الحكومة الفرنسية سارت مع ألمانيا وبريطانيا في مسعاهما لإبعاد روسيا عن اجتماع ميونيخ حتى دون أي احتجاج . ولم ينس ستالين قط هذه الاهانة التي كلفت الدولتين الديمقراطيتين الغربيتين غالياً في الأشهر القادمة . وقد بعث ويرنر فون تيبلسكيرش ، مستشار السفارة الألمانية في موسكو بـبرقية في الثالث من تشرين الأول ، أي بعد اربعة ايام من ميونخ يتحدث فيها عن «نتائج» ميونيخ وآثارها على السياسة السوفياتية . واعرب عن اعتقاده بأن ستالين سيتوصل إلى « استنتاجات معينة » كما أعرب عن ثقته بأن الاتحاد السوفياتي « سيعيد النظر في سياسته الخارجية » وسيغدو أقل وداً لحليفته فرنسا « وأكثر ايجابية » مـــع المانيا . وعاد الدبلوماتي الألماني فأكد أن « الظروف الراهنة تتيح فرصاً اجدى لعقد اتفاق جديد واكثر شمولاً بين المانيا والاتحاد السوفياتي [١] » . وكان هذا التقرير أول ذكر ، في الوثائق السرية الألمانية لوقوع التبدل الجديد في اتجـــاه الرياح التي بدأت بالهبوط ضعيفة الآن ، على برلين وموسكو ، والتي قدر لها أن

١ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٦٠٢ ـ ٦٠٤ .

تثمر في غضون عام واحد عن نتائج ضخمة للغاية .

* * *

وقــد أصيب هتلر على الرغم من نجاحه المدهش في ميونيخ ومن اذلاله لا لتشيكوسلوفاكيا وحدها ، بل الدولتين الغربيتين أيضاً ، بشيء من خيبة الأمل في نتائج ميونيخ . ولقد استمع اليه شاخت وهو يقول عند عودته إلى برلـين ، إلى افراد بطانته من قادة الحرس النازي : « لقد فسد علـي هــذا الرجل ، تشمبرلين ، أملي في دخول براغ ظافراً [1] » . وكان هذا الدخول ، هو ما تطلع اليه دائماً وما أسرّ به إلى قادته العسكريين منذ القى عليهم محاضرته في الخامس من تشرين الثاني السنة الفائتة . وقــد أوضح لهم في تلك المحاضرة، ان احتلال النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، لم يكن إلا مجرد خطوة أولية في طريق سعيه إلى تحقيق « المجال الحيوي » في الشرق والى الوصول إلى تسوية عسكرية مع فرنسا في الغرب ، وكان قد ذكر في العشرين من ايلول لرئيس وزراء المجر ، أن خير ما يفعله هو « أن يحطم تشيكوسلوفاكيا » ، واضاف أن هذا التحطيم ، يؤمن له « أفضل الحلول المرضية » ، ولم يكن يخشى إلا أن يذعن التشيكيون لجميع طلباته .

ولكن المستر تشمبرلين ، جاء يحمل مظلته التي اشتهر أمرهــا الى ميونيخ وأرغم التشيكيين على الاذعان لجميع مطالبه ، فحرمه بذلك من أن يحقق حلمه في الاحتلال العسكري . وقد اتضح من الوثائق الألمانية المصادرة ، أن هذه هي الأفكار التي اقضت على هتلر مضجعه بعد ميونيخ. وقد أسر إلى قادته العسكريين فيما بعد بقوله : « لقد اتضح لي في أول وهلة ، أن المناطق السوديتية الألمانية لن تكون مرضية لي . انها لا تؤلف إلا حلاً جزئياً » [2]

ولم تمضِ إلا أيام قليلة على انتهاء مؤتمر ميونيخ حتى كان الطاغية الألماني يثير خططاً جديدة للوصول إلى حل كامل .

---

١ ـ شاخت في محاكمات نورمبرغ . محاكمات كبار مجرمي حرب الألمان (١٢) ص ٥٣١ .
ـ خطاب الى القادة العسكريين في ٢٣ تشرين الثاني عام ١٩٣٩ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٥٧٣ .

١٣

زالت تشيكوسلوفاكيا من الوجود

لم تكد تمضي أيام عشرة على التوقيع على اتفاق ميونيخ ، وقبل أن يتم احتلال مناطق السوديت عسكرياً وبصورة سلمية حتى كان أدولف هتلر ، يبعث برسالة سرية للغاية وعاجلة إلى الفريق كايتل رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة يوجه اليه فيها الأسئلة التالية :

« ١ – ماهي القوات اللازمة في الوقت الحالي لتحطيم كل مقاومة تشيكية ممكنة في بوهيميا ومورافيا ؟

« ٢ – ما هو الوقت المطلوب لاعادة تجميع القوات الجديدة او تحريكها ؟

« ٣ – ما هو الوقت المطلوب لتحقيق نفس الهدف ، إذا كان التنفيذ سيتم بعد التسريح المقرر للقوات وبعد اتخاذ إجراءات العودة ؟

« ٤ – ما هو الوقت اللازم لتحقيق نفس حالة الاستعداد التي كانت قائمة في الأول من تشرين الأول ؟ »[١]

وقد بعث كايتل إلى الفوهرر في الحادي عشر من تشرين الأول برقية ضمنها ردوداً مسهبة على أسئلته . وقد جاء في هذه الردود أن الأمر لا يتطلب نجدات كبيرة ، ولا وقتاً طويلاً . فهناك اربع وعشرون فرقة المانية موجودة الآن في

---

١ – الملف الاخضر . ٤٨ – المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٣٧٢ – ٣٧٤

منطقة السوديت نفسها بينها ثلاث فــرق مدرعة ، واربع آلية . وراح كايتل يقول : « وتعتقد القيادة العامة للقوات المسلحة ، أن في الإمكان البدء بالعمليات دون حاجة إلى تعزيزات جديدة ، بالنظر إلى الــدلائل الراهنة على الضعف في المقاومة التشيكية » [١]

وبعد أن اطمأن هتلر إلى الوضع راح ينقل بعد عشرة ايام أفكاره إلى قادته العسكريين على النحو التالي :

سري للغاية برلين ٢١ تشرين الأول ١٩٣٨

« سأقوم في توجيه لاحق ، بتحديد الواجبات المقبـلة للقوات المسلحة ، والإعدادات اللازمة لإدارة العمليات الحربية الناجمة عن هذه الواجبات .

« وإلى أن يصدر هذا التوجيه ويغدو قابلاً للتنفيذ ، على القوات المسلحة في جميع الأوقات ، أن تكون متأهبة للطوارىء التالية :

« ١ — ضمان سلامة حدود ألمانيا

« ٢ — تصفية ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا

« ٣ — إحتلال منطقة ميميل »

وكانت ألمانيا قد خسرت في معاهدة فرساي ، ميناء ميميل الواقـع على بحر البلطيق والذي يبلغ تعداد سكانه أربعين الفاً ، إذ ضم الميناء إلى جمهورية ليتوانيا. ولما كانت ليتوانيا بلداً أصغر وأضعف من النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، فإن إحتلال هذا الميناء ، لم يكن يشكل أية مشكلة للجيش الألماني ، ولذا فقد اكتفى هتلر في توجيهه بالقول بـأن هــذا الميناء « سيضم » إلى ألمــانيا. ومضى يتحدث عن تشيكوسلوفاكيا قائلاً :

« يجب أن يكون في إمكاننا تحطيم ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا في أية لحظة ، هذا إذا اتجهت سياستها إتجاهاً معادياً لألمانيا . »

« ويجب أن تكون الإعدادات التي تتخذها القوات المسلحة لهذه

---

١ ــ الملف الاخضر . نفس الرقم ايضاً .

الحالة الطارئة ، أضيق مدى ومجالاً من تلك المتخذة للعملية «الخضراء».
ومن الواجب أن تضمن على أي حال ، حالة أكبر من الاستعداد ، لاسيما وان اجراءات التعبئة العامة ، المخطط لها ، قد تم التصرف فيها. ومن الواجب ترتيب الوحدات وتنظيمها ونسق تأهبها للمعارك وحالة تأهبها ، في أوقات السلم ، بشكل يضمن قيامها بعملية هجوم مباغتة ، بحيث تعجز تشيكوسلوفاكيا نفسها عن كل إمكان لتقديم مقاومة منظمة ، وتصبح محرومة من ذلك تمام الحرمان . ولا ريب في أن الغاية من هذه الاعدادات كلها ، احتلال بوهيميا ومورافيا احتلالاً سريعاً ، وعزل سلوفاكيا عنهما » .[١]

ومن الممكن طبعاً ، قطع سلوفاكيا وعزلها بالوسائل السياسية مما لا يتطلب استخدام القوات العسكرية الألمانية . ولهذا فقد عهد إلى وزارة الخارجية الألمانية باعداد الترتيبات اللازمة لذلك ، وقد واصل ريبنتروب ومساعدوه طيلة الأيام الأولى من تشرين الاول حث المجريين على المطالبة بحصتهم من الاسلاب في سلوفاكيا ، ولكن ، عندما راحت المجر ، التي لم تكن في حاجة كبرى الى مثل هذا الحث من جانب ألمانيا لإشباع نهمها ، تتحدث عن احتلال سلوفاكيا كلها ، تدخلت الولهلمشتراسة (وزارة الخارجية الألمانية) فوراً . فلقد اعدت ، لهذه البلاد خططاً أُخرى تتناول المستقبل . وكانت حكومة براغ قد سارعت بعد مؤتمر ميونيخ الى منح سلوفاكيا استقلالاً ذاتياً فورياً واسع النطاق . وقد نصحت وزارة الخارجية الألمانية « بقبول » هذا الحل في الوقت الحاضر . أما بالنسبة الى المستقبل فقد تولى الدكتور ايرنست ويرمان ، مدير الدائرة السياسية في وزارة الخارجية الألمانية ، تلخيص خطط المانيا المقبلة في مذكرة اعدها في السابع من تشرين الأول ، قال فيها : « تتيح سلوفاكيا المستقلة والضعيفة دستورياً الفرصة لدعم حاجات المانيا في التوسع والإستقرار في الشرق[٢] » .

---

١ ـ توجيه هتلر ٢١ تشرين الاول ١٩٣٨ . المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص٩٤٧ـ٩٤٨ .
٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٤٦ .

وهنا تقوم نقطة تحول جديدة بالنسبة الى الرايخ الثالث. فلأول مرة ، يصل هتلر الى مرحلة الشروع في فتح بلاد غير المانية ، فلقد كان في الأسابيع الستة الأخيرة ، يؤكد لتشمبرلين ، سراً وعلانية ، ان بلاد السوديت هي آخر مطامحه الأقليمية في أوروبا . وعلى الرغم من أن رئيس الوزراء البريطاني كان ميالاً حتى أقصى حدود الميل إلى قبول وعود هتلر ، فلقد كانت هناك بعض الدوافع التي تحمله على الاعتقاد بأن الديكتاتور الألماني سيتوقف عن الغزو عندما ينتهي من هضم جميع الالمان الذين كانوا يعيشون في السابق خارج حدود الرايخ واصبحوا يعيشون في داخلها الآن . او لم يقل الفوهرر مراراً وتكراراً ، انه لا يريد «تشيكياً» داخل الرايخ الثالث ؟ أو لم يؤكد في كتابه « كفاحي » وفي عدد كبير من خطبه العامة النظرية النازية القائلة بأن قوة المانيا تتطلب نقاءها عنصرياً وان عليها أن لا تضم إليها شعوباً غريبة ولا سيما من الشعوب السلافية ؟ أجل لقد أكد ذلك . ولكنه قد نادى ، ولعل لندن قد نسيت ذلك ، في اكثر من صفحة متضخمة من صفحات كفاحي ، بأن مستقبل المانيا ، يقوم في السيطرة على مجالها الحيوي في الشرق . والشعوب السلافية ، هي التي تسيطر على هذا المجال منذ اكثر من الف عام .

اسبوع الجليد المتحطم

ووصلت ألمانيا النازية في خريف عام ١٩٣٨ الى نقطة تحول اخرى . وقد وقع هذا التحول في غضون الفترة التي اطلقت عليها دوائر الحزب اسم « اسبوع الجليد المتحطم » ..

فلقد قام لاجىء يهودي ألماني في السابعة عشرة من عمره ، يدعى هيرشيل غرينزبان في السابع من تشرين الثاني باطلاق النار على ايرنست فون ران ، السكرتير الثالث في السفارة الألمانية في باريس . وأصابه إصابة قاتلة . وكان هذا الشاب قد أراد أن يثأر لما لقيه والده الذي نفي مع عدة الوف آخرين من اليهود

في سيارات الشرطة إلى بولندة قبل نحو من اسبوع ، ولما لقيه اليهود من اضطهاد عام في ألمانيا النازية ، فمضى الى السفارة الألمانية معتزماً اغتيال سفيرها الكونت جوهان فون ويكلزيك ، ولكن السفير اوفد سكرتيره الثالث لمقابلة الشاب والاستعلام منه عما يريده ، فكان نصيبه الطلقات النارية التي أصابته ، وكان ثمة الكثير من سخرية القدر في مصرع السكرتير الشاب ، الذي وصف رجال الغستابو مصرعه كشيء ناجم عن موقفه المناوىء للنازية ، إذ أن هذا السكرتير لم يكن موافقاً قط على الموقف المناوىء للسامية الذي يقفه حكام بلاده .

ولم يكن زعماء النازي وفي مقدمتهم هتلر وغورنغ ، ينتهون من الاحتفال ليلة التاسع – العاشر من تشرين الثاني بالذكرى السنوية لحركة انقلاب حانة الجعة في برلين حتى بدأت أقسى عمليات اضطهاد اليهود التي شهدها الرايخ الثالث . وذكر الدكتور غوبلز ، والصحافة التي يسيطر عليها ، أن هذه العملية كانت رداً عارضاً على حادث الاغتيال في باريس . ولكن الوثائق التي صودرت بعد انتهاء الحرب ، ألقت ضوءاً على هذا الرد العارض ، إذ أن هذه الوثائق ، من اكثر الأوراق « سرية » في الحقبة النازية التي سبقت الحرب [١] .

ويقول تقرير سري كتبه كبير القضاة في الحزب ، الرائد ولتربوخ ، أن الدكتور غوبلز اصدر أمراً ليلة التاسع من تشرين الثاني ، بإعداد « مظاهرات عارضة » وتنفيذها في تلك الليلة . لكن المنظم لهذه المظاهرات كان رينهارد هايدريش الرجل الثاني بعد هملر في الحرس النازي والفرقة الخاصة والغستابو ، والذي لا يتجاوز عمره الرابعة والثلاثين . وكانت أوامره المطبوعة تلك الليلة بين الوثائق الألمانية المصادرة .

فلقد بعث برسالة برقية عاجلة على آلات « التليبرنيتر » في الساعة الواحدة والدقيقة العشرين من صباح العاشر من تشرين الثاني وجهها إلى مراكز قيادات الشرطة والفرقة الخاصة ، مصدراً أمره إلى رجالها للاجتماع إلى قادة الحزب والحرس النازي في مناطقهم للبحث في تنظيم « هذه المظاهرات » . وقد تضمنت

١ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٧٩٧ ــ ٨٠١ .

هذه الأوامر ...

أ ــ عدم اتخاذ أية إجراءات قد تؤدي إلى إنزال الخطر بأرواح الألمان وممتلكاتهم .

ب ــ يمكن تدمير مساكن اليهود ومكاتبهم دون نهبها .

ج ــ يجب أن لا تتدخل الشرطة في منع هذه المظاهرات .

د ــ يمكن اعتقال اكبر عـدد من اليهود ولا سيما الأثرياء الذين يمكن للسجون القائمة إيواءهم ...

وقد دمر عدد كبير من كنائس اليهود ومنـازلهم وحوانيتهم في تلك الليلة كما قتل عدد كبير منهم وهم يحاولون النجاة بأرواحهم [1] وقـد قدم هايدريش تقريراً اولياً سرياً إلى غورنغ في اليوم التالي جاء فيه :

« لا يمكن حتى الآن التأكد بالارقام من مدى الدمار الذي لحق بحوانيت اليهود ومساكنهم . ولكن المعروف أن ٨١٥ مخزناً قد دمرت و ١٧١ مسكناً قد احرقت . واحرق ١١٩ كنيساً . كما دمر ٧٦ كنيساً آخر تمام التدمير . واعتقل (٢٠) الف يهودي . وقتل (٣٦) كما اصيب ستة وثلاثون آخرون ... وكلهم من اليهود » [1] .

ومن المعتقد أن عدد من قتل من اليهود في تلك الليلة. كان يبلغ عدة أضعاف هذه الأرقام . وقد قدر هايدريش نفسه بعد يوم واحد من هذه الأرقـام الأولية التي قدمها عدد الحوانيت اليهودية التي تم نهبهـا بسبعة آلاف وخمسمائة . وكانت هناك عدة حوادث من الاعتداء على الفتيات اليهوديات ، طبقاً لما ورد في تقـرير الرائد بوخ إلى محكمة الحزب ، وهي تعتبر من وجهة النظر الحزبية اكثر خطورة من القتل لأنها تعتبر مخالفة صريحة لقوانين نورمبرغ التي حرمت العلاقات الجنسية

---

١ ــ يبدو ان المؤلف كان متأثراً كل التأثير في هـذا السرد بالدعايات اليهودية التي بالغت كل المبالغة بما نزل باليهود الألمان. وهناك حقيقة اخرى يجب ان لا ننساها في هذا الصدد وان كان المؤلف قد تسيها ، وهي ان اليهود انزلوا بعرب فلسطين الابرياء . مظالم وارتكبوا جرائم تفوق في اهوالها ما ارتكب مع اليهود في المانيا مما اجمع المنصفون من المؤرخين وغير المؤرخين كتويبني والكونت برنادوت على وصفه بالهول . ــ المعرب ــ

بين اليهود والاغيار . وقد طرد مرتكبو هذه الحوادث من الحزب وقدموا إلى المحاكم المدنية . وقال الرائد بوخ أنه لم يكن في الامكان عقاب اعضاء الحزب الذين ارتكبوا عمليات القتل إذ أنهم كانوا ينفذون تعليمات الحزب وأضاف بعبارة صريحة واضحة ... وكان « الجمهور يدرك أن العمليات السياسية التي انطوت عليها حوادث التاسع من تشرين الثاني كانت من عمل الحزب [١] » .

ولم يقتصر العقاب الذي فرض على اليهود بسبب قتل راث في باريس على القتل والاغتصاب والسلب بل تعداه ايضاً إلى إرغام اليهود على دفع نفقات تدمير ممتلكاتهم ، وقامت الدولة بمصادرة أموال التأمين التي كانت من حق اليهود. وفرضت على اليهود غرامة جماعية قدرها بليون من الماركات ، عقوبة كما قال غورنغ لهم « على جرائمهم البشعة » . وقد قدرت هذه العقوبات الاضافية في اجتماع ضخم ضمّ عدداً كبيراً من أعضاء الوزارة الالمانية وكبار الموطفين ورئسها غورنغ نفسه في الثاني عشر من تشرين الثاني .

وواجهت شركات تأمين ألمانية عديدة الافلاس . اذا تحتم عليها أن تدفع قيمة التأمين على الأبنية التي تم تهديمها ، والتي كان يملكها ألمان منغير اليهود، وان كان اليهود هم الذين أقاموا فيها . وقد قدر الخراب الذي لحق بالزجاج فقط في الابنية بنحو من خمسة ملايين مارك ، وهو رقم ذكره الهر هيلفارد الذي أوكل اليه أمر الدفاع عن شركات التأمين في الحديث الذي دار بينه وبين غورنغ ، ويبدو أن معظم هذا الزجاج كان مستورداً من الخارج وكان على ألمانيا أن تؤمن النقد الاجنبي اللازم لاستبداله ، وهو أمر غير متوفر لها .

وراح غورنغ يهتف قائلاً وهو المسيطر على الاقتصاد الالماني .... لا يمكن الاستمرار في هذا ، إذ لا يمكن لنا أن نستمر مع كل هذه الخسائر ... والتفت إلى هايدريش قائلاً : « كنت اود لو قتلت مئتي يهودي ولا تدمر هذه الكمية الضخمة من الاشياء الثمينة ! » [٢]

١ ــ سرد الرائد بوخ عدداً من الحوادث ، ذاكراً اسماء القتلى من اليهود وقاتليهم من النازيين الألمان ــ المؤلف .

٢ ــ رد غورنغ عندما سأله القاضي جاكسون في محاكمات نورمبرغ عما اذا كان قد صدر عنه مثل هذا القول ... « اجل لقد كنت في ساعة غضب وثورة عصبية » ، انني لم اكن جدياً في قوله .

ورد هايدريش مدافعاً عن نفسه : « لقد قتل خمسة وثلاثون يهودياً .[1]

ولم يكن جميع الحديث المسجّل في هذه الجلسة في نحو من عشرة آلاف كلمة من النوع الجدي . فلقد سخر غورنغ وغوبلز كثيراً في موضوع تعريض اليهود لمهانات أكثر ، فلقد قال وزير الدعاية أن على اليهود أن يقوموا بتنظيف حطام الكنس المهدمة ، وأن تحوّل هذه الكنس إلى حدائق وأماكن لوقوف السيارات . وأصر على حرمان اليهود من كل شيء ومنعهم من دخول المدارس ودور السينما والمسارح وأماكن الاصطياف ، وشواطىء الاستحمام العامة ، والحدائق وحتى الغابات . واقترح أن تكون هناك عربات خاصة باليهود في القطارات . على أن لا يسمح لهم باستخدامها إلا بعد أن تكون الاماكن اللازمة للآريين قد وجدت .

وضحك غورنغ وهو يقول ... «حسناً ، واذا أصبح القطار مكتظاً بالركاب فسنرغم اليهود على اللجوء إلى المراحيض » .

وعندما طلب غوبلز بمنتهى الجدية ان يمنع اليهود من دخـــول الغابات قال غورنغ ... « سنعطي اليهود جزءاً معيناً من الغابة ، ونضع فيها جميع الحيوانات التي يشبهونها كالبوم مثلاً » .

وهكذا قضى زعماء الرايخ الثالث طيلة عام ١٩٣٨ الكثير الخطورة والحراجة وهم يهزأون ويسخرون . ولكن مشكلة من سيتولى التعويض على الأضرار المادية التي وقعت إبان الحوادث والتي قدرت بخمسة وعشرين مليوناً من الماركات ظلت المشكلة التي تؤرق غورنغ ، الذي غدا الآن مسؤولاً عن كيان المانيا النازيـــة الإقتصادي . وقد أشار هيلفارد وكيل شركات التأمين ، بأن ثقة الشعب الألماني بهذه الشركات ستزول إذا لم تتول دفع قيم « بوالص » التــأمين الى اليهود ، كما أن ثقة الناس في الخارج بشركات التأمين الألمانية ستنهار ايضاً ، واضاف أنــه لا يستطيع أن يرى كيف يمكن ان تفي الشركات الصغيرة بالتزاماتها دون أن تفلس وتنهار .

---

١ ــ ارتكب اليهود من الجرائم في فلسطين ما يفوق بكثير هذه الاقوال ، ومع ذلك لم تستفز المؤلف . فقد قتلوا في دير ياسين وحدها نحواً من ثلاثمائة ومعظمهم من النساء والاطفال والامهات الحبالى اللائي بقر اليهود بطونهن . المعرب .

وسرعان ما حل غورنغ المشكلة برمتها . فعلى الشركات أن تدفع لليهود قيمة التأمين كاملاً ، وتقوم الدولة بمصادرة هذه المبالغ فتعيد الى الشركات بعض ما دفعته . ولكن هذا الحل لم يرض الهر هيلفارد ، الذي يبدو من وقائع الإجتماع المدوّنة وكأنه قد أحس بأنه يواجه مجموعة من المجانين .

غورنغ ... « سيقبض اليهودي قيمة تأمينه من شركة التأمين ولكن الدولة تتولى مصادرة هذه القيمة . أما الشركة فتفيد من أن جزءاً من القيمة سيعاد اليها ، ولا ريب في ان من واجبك يا هر هيلفارد ان تعتبر نفسك حسن الحظ بهذا الحل .

هيلفارد ... « ليس ثمة ما يدعوني إلى هذا الاعتبار ... فأنت تعتبر أن عدم اضطرارنا إلى دفع المبالغ بكاملها نفع وفائدة !

ولم يكن المشير قد الف هذا النوع من الحديث ، وسرعان ما اسكت رجل الأعمال الحائر ...

غورنغ ... « ماذا دهاك ... لحظة واحدة ... إذا كان القانون يجبرك على أن تدفع خمسة ملايين ، ثم يهبط عليك ملاك من السماء ، في شكل شخص بدين عريض الكتفين ويقول لك أن في وسعك الاحتفاظ بمليون ودفع اربعة ملايين فقط ... ألا يعتبر هذا ربحاً بحق السماء ؟ ، إنني أُريد أن أخطو معك نصف الطريق ... وليس علي إلا أن أتطلع إليك ... وإنى لارى علائم الرضى تنطلق من محياك ...

ولكن ممثل شركات التأمين كان بطيئاً في الفهم ...

هيلفارد ... « إن شركات التأمين هي الخاسرة وحدها . هذه هي الحقيقة ، وستظل كذلك . وليس في إمكان أحد أن يقنعني بعكسها» .

غورنغ ... « إذن لم لا تعمل حسابك على أن عدد النوافذ التي تحطمت أقل مما تقول؟... »

وملّ المشير من هذا الرجل ذي العقل التجاري ، فصرف الهر هيلفارد من حضرته ، وانطوى الرجل في زوايا النسيان والتاريخ .

وجاء ممثل لوزارة الخارجية الالمانية يجترىء على القول أمام المشير بأن على النظام الاهتمام بالرأي العام الامريكي من أية حوادث مقبلة تقع لليهود [1] وراح المشير يتفجر غاضباً ... « شعب دولة الاوغاد ! تلك الدولة اللصّة » .

وتم الاتفاق بعد محادثات طويلة، على حل المشكلة اليهودية على النحو الآتي : إزالة اليهود من الاقتصاد الألماني ، ونقل ملكية جميع المشاريع والممتلكات اليهودية الى أيدٍ آرية بعد التعويض على اليهود بسندات يستطيعون الإفادة من أرباحها دون قيمها ، وتقرر أن يعهد إلى لجنة خاصة بدراسة موضوع حرمان اليهود من دخول المدارس والمصايف والحدائق والغابات وما شابهها . وقضية طردهم أو نقلهم إلى معتقلات خاصة بعد انتزاع املاكهم منهم .

وقال هايدريش في نهاية الاجتماع ... « على الرغم من حرمان اليهود من حياة البلاد الاقتصادية ، فان المشكلة الرئيسية تظل قائمة ، وهي كيف يمكن طردهم من المانيا » ووافق الكونت شفيرين فون كروزيك وزير المالية ، والعالم البحاثة الذي يعتز بأنه كان يمثل « المانيا التاريخية والكريمة » في الحكم النازي على وجوب « القيام بكل عمل لطرد اليهود الى الخارج » ، ولكنه عارض في فكرة عزل اليهود في معازل خاصة .

وأنهى غورنغ الإجتماع بعد نحو من اربع ساعات من بدئه أي في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر وهو يقول :

---

١ ـ استدعى الرئيس روزفلت سفيره في برلين هيو ويلسون في الرابع عشر من تشرين الثاني « لاجراء مشاورات»ولم يعد قط الى منصبه . واستدعى الألمان سفيرهم من واشنطن هانز ديكهون في الثامن عشر ، بعد ان بعث بتقرير الى حكومته قال فيه ان « بركاناً من الغضب قد تفجر في امريكا» من عملية اليهود ، ولم يعد الى منصبه كذلك . واقترح هانز توبسون القائم بأعمال السفارة الالمانية في واشنطن في الثلاثين منه انه بالنظر الى توتر الوضع : يقترح نقل ملفات السفارة السرية الى برلين لا سيما وانها من الضخامة بحيث لا يمكن تدميرها في وقت قصير» . وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٦٣٩ ـ ٦٤٩ .

« أود أن انهي الاجتماع بالعبارات التالية . على اليهود الألمان عقاباً لهم على جرائمهم المخزية ان يدفعوا غرامة قدرها بليون من الماركات ، أعتقد أن هذا يكفي . ولن يعود هؤلاء الخنازير إلى ارتكاب جريمة أُخرى ، وأود ان أقول على أي حال ... انني لا احب أن اكون يهودياً في المانيا » .

وقدر لهذا الرجل ودولته النازية وزعيمه هتلر ، أن يرتكبوا مظالم أُخرى تجاه اليهود ، (أين ذهبت مظالم اليهود في فلسطين !) . فلقد فتحت المانيا ليلة التاسع من تشرين الثاني عام ١٩٣٨ ، صفحة جديدة لم يكن هناك سبيل للنكوص عنها ، ولقد وقعت حوادث من قبل ولكن مرتكبيها كانوا أفراداً من ذوي القمصان البنية المعروفين بروحهم الاجرامية ، أما الآن فقد تولت الحكومة الالمانية نفسها تنظيم هذه الاعمال . وقد صدرت الآن وبعد الاجتماع ثلاثة مراسيم يفرض أولها على اليهود غرامة مشتركة قدرها بليون من الماركات ويحرمهم الثاني من العمل في الاقتصاد الألماني ، ويسلبهم الثالث ما تبقى من ممتلكاتهم .

وقد اهتز الرأي العام العالمي ، وثار على هذا العمل يصدر عن دولة تعتبر نفسها من الدول العريقة في الثقافة المسيحية والانسانية. (أين ذهب هذا الشعور في قضية ما أنزله اليهود بأهل فلسطين) . ولكن هتلر ثار على هذا الرأي العالمي ، وأقنع نفسه بأن ما حدث من رد فعل ، يقوم دليلاً جديداً على سلطان «المؤامرة اليهودية العالمية » .

وإذا ما عدنا بافكارنا الآن إلى الماضي ، أمكننا أن نرى أن ما أنزله الألمان باليهود في التاسع من تشرين الثاني ، وما تبع ذلك من اجراءات قاسية ، كانت من العوامل التي أدت إلى اضعاف المانيا اضعافاً كلياً ، وإلى الاطاحة نهائياً بالطاغية وعهده ، وبلاده . ولقد قام الدليل على جنون هتلر في أكثر من صفحة واحدة من صفحات هذا الكتاب ، ولكنه كان قادراً حتى الآن على كبح جماح هذا الجنون وذلك أثناء نهوض بلاده وارتقاء عهده . وكانت عمليات الحساب

الدقيقة التي تميزت بها عبقريته أثناء كل ما قام به من عمل جريء ، قد أكسبه نصراً إثر آخر . ولكن عمليات التاسع من تشرين الثاني وما تلاها ، أقامت الدليل على أن هتلر ، قد بدأ يفقد سيطرته على نفسه . وعلى أن جنونه قد بدأ يطغى على كل شيء . وأظهرت السجلات المحفوظة عن اجتماع الثاني عشر من تشرين الثاني ، أن هتلر ، كان في النهاية المسؤول عن كل ما وقع ، وأنه هو الذي أصدر أمره بالسماح بما وقع ، وأنه الرجل الذي استحث غورنغ على المضي في عمله لإزالة اليهود من الحياة الألمانية . ومنذ هذا التاريخ ، لم يعد سيد الرايخ الثالث المطلق يظهر شيئاً من ضبط النفس الذي كان يحرص على اظهاره في الماضي ، وعلى الرغم من أن عبقريته وعبقرية بلاده ، كانتا ستؤديان حتماً إلى انتصارات مذهلة أخرى ، إلا أن البذور المسمومة ، للدمار الذاتي بالنسبة إلى الدكتاتور وإلى بلاده كانت قد بذرت الآن .

وكان مرض هتلر من النوع الساري ، والناقل للعدوى ، وقد بدأت البلاد تصاب به ، وكأنه وباء مستشر . ويستطيع مؤلف هذا الكتاب أن يقرر من ناحية فردية بحكم تجربته بأن كثيرين من الألمان ، قد أصابهم شعور من السخط على ما وقع في التاسع من تشرين الثاني تماماً كالانكليز او الامريكيين وغيرهم من الاجانب . ولكن أياً من قادة الكنائس المسيحية أو القادة العسكريين أو ممثلي المانيا « الطيبة » لم يرفع صوته على الفور احتجاجاً على ما وقع ، فقد أحنى جميعهم رؤوسهم إذعاناً لما وصفه الفريق فون فريتشه بالشيء « المحتوم » أو « مصير المانيا » .

وسرعان ما اختفى جو ميونيخ . وقد القى هتلر في ساربروكن وويمار وميونيخ خطباً نارية في ذلك الخريف محذراً العالم الخارجي ولا سيا البريطانيين من التدخل في شؤون الغير . وطالباً إلى الانكليز الاهتمام بشؤونهم ، وأن يتوقفوا عن الاهتمام « بمصير الألمان ضمن حدود الرايخ » . وقال موعداً أن هذا المصير هو من شؤون الألمان وحدهم . وتبين أنه لن يمضي طويل وقت قبل أن يستفيق نيفيل تشمبرلين إلى طبيعة الحكومة الألمانية التي مضى شوطاً بعيداً في

محاولة إرضائها . وشرع رئيس وزراء بريطانيا مع اقتراب عام ١٩٣٨ المشحون بالأحداث من نهايته مخلياً الطريق لعام ١٩٣٩ المليء بالنذر المشؤومة ، يـــدرك بصورة متدرجة ما هي عليه حقيقة الفوهرر الذي عمل كل ما في وسعه لارضائه شخصياً ، حرصاً منه على مصلحة السلام الاوروبي [١] .

ولم يكن قد انقضى على ميونيخ طويل عهد ، عندما راح ريبنتروب يسافر إلى رومه. ودوّن شيانو في يومياته بتاريخ الثامن والعشرين من تشرين الاول أن عقله كان « متركزاً » على وجوب خوض الحرب . [٢] ثم قال :

« أبلغنا وزير خارجية المانيا أنا والدوتشي ، أن الفوهرر مقتنع من ان علينا ان نقيم حساباتنا الحتمية على نشوب حرب مع الدول الغربية في غضون بضع سنوات ، قد تكون ثلاثاً أو اربعاً . . . . وقد اظهرت ازمة تشيكوسلوفاكيا مدى قوتنا ! ونحن نتمتع بميزة المبادرة ووجود زمامها في ايدينا ، كما اننا سادة الموقف تماماً . ولا يمكن لأحد ان يهاجمنا ، والموقف العسكري ممتاز ، وفي قدرتنـــا اعتباراً من ايلول عام ١٩٣٩ ان نواجه حرباً مع الدول الديموقراطية الكبيرة [٣] » .

---

١ ــ بعث اللورد هاليفاكس في الثامن والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٣٩ بتحذير سري الى الرئيس روزفلت يقول فيه انه منذ « تشرين الثاني عام ١٩٣٨ ، كانت هناك دلائل ، اصبحت اكثر وضوحاً بصورة متدرجة على ان هتلر ، يعتزم القيام بمغامرة خارجية اخرى في ربيع عـام ١٩٣٩ » . واضاف وزير خارجية بريطانيا ان التقارير « تشير الى ان هتلر، وقد تلقى التشجيع من ريبنتروب وهملر وغيرهما يدرس احتمال القيام بهجوم على الدول الغربية ، كشيء تمهيدي لعمل لاحق في الشرق » ، (وثائق وزارة الخارجية البريطانية ــ الحلقة الثالثة (٤) . رقم ٥) .

٢ ــ يوميات شيانو الخفية . ص ١٨٥ ، اوراق شيانو السرية ص ٢٤٢ ــ ٢٤٦ .

٣ ـ يؤيد الرواية الألمانية عن الحديث الذي دار في رومة بين ريبنتروب وشيانو في الثـامن والعشرين من تشرين الاول والتي اعدها الدكتور شميدت الموقف المشاغب الذي وقفــه ريبنتروب . وتنقل عن الوزير الالماني قوله ان على المانيا وايطاليا ان تستعدا « لصراع مسلح مع الديموقراطيتين الغربيتين منذ هذه اللحظة» . وقد اكد ريبنتروب لشيانو في هذا الاجتماع ايضاً ان ميونيخ قد حسرت النقاب عن قوة دعاة العزلة في الولايات المتحدة . مما يحمل المانيا وايطاليا على « الاطمئنان الى موقف امريكا » . (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٥١٥ ــ ٥٢٠) .

ووصف وزير خارجية إيطاليا الشاب ، زميله الألماني بأنه « مغرور ، وتافه وثرثار » ، وراح يضيف بعد ذلك قوله : « ويقول الدوتشي ان في امكانك من مجرد التطلع إلى رأسه ، ان ترى مدى ما يتميز به من صغر عقل » ، وقد جاء وزير خارجية المانيا الى رومه لإقناع موسوليني بتوقيع ميثاق تحالف عسكري بين المانيا واليابان وايطاليا وكان الألمان قد سلموا مسودته الى موسوليني اثناء اجتماع ميونيخ ، ولكن موسوليني تردد بعض الوقت في توقيعه . وقد دوّن شيانو في يومياته ، ان الدوتشي لم يكن مستعداً بعد لأغلاق الباب نهائياً في وجه بريطانيا وفرنسا .

واستهوت هتلر في ذلك الخريف ، فكرة القيام بمحاولة لانتزاع فرنسا من من احضان حليفتها عبر المانش ، وعندما أستقبل فرانسوا – بونيه السفير الفرنسي الذي جاء لوداعه بمناسبة انتقاله ، في مقره في « عش النسر » الواقع على قمة جبل مرتفع فوق برختسغادن[1] ، انفجر في هجوم عنيف على بريطانيا العظمى وقد وجد السفير الفرنسي هتلر ، شاحب الوجه تبدو عليه آثار الإعياء ، ولكن هذا الهجوم لم يكن من الضخامة بحيث يمكن أن يعتبر انتقاصاً من قدر بريطانيا . وقال إن بريطانيا ترد « بالتهديد والدعوة إلى السلام » . ثم أتهمها بالأنانية والغطرسة ، وقال أن بريطانيا هي التي تعمل على تحطيم روحية اتفاق ميونيخ ، وكال لها شتى التهم ، ثم أعرب عن اعتقاده بأن فرنسا تختلف عنها في موقفها كل الاختلاف ، ولذا فهو يريد أن يوثق أواصره وصلاته بها ، وهو على استعداد لأن يوقع معها على الفور ميثاق صداقة ضامناً لها حدودها

---

١ – كان من الصعب الوصول الى هذا الملاذ الخيالي ، الذي استغرق بناؤه ثلاث سنوات كلف نفقات طائلة . فقد شقت طريق طولها عشرة أميال ، ورفعها رفع الشعرة ، داخل الجبل ، لتصل الى نفق طويل تحت الارض ، حفر في الصخر ، يرتفع منه مصعد كهربائي يعلو الى مسافة ٣٧٠ قدماً ليصل الى مسكن صغير ارتفاعه ستة آلاف قدم على قمة احد الجبال . وكان هذا المسكن يطل على منظر يخلب الالباب لجبال الالب . ويمكن للانسان أن يرى منه سالزبرغ على مدى بعيد . وقد وصف فرانسوا – بونيه هذا المكان فيما بعد قائلا : « ترى هل كان هذا الصرح من نتاج عقل عادي ، او من ابتكار عقل يسيطر عليه الجنون والرغبة المطلقة في السيطرة والعزلة . »

الحالية ، ومتنازلاً من جديد عن أية مطالب لألمانيا في الالزاس واللورين ، ومقترحاً حل أي خلاف في المستقبل عن طريق التشاور .

وقد وقع الميثاق المقترح في وقت قريب في باريس في السادس من كانون الأول عام ١٩٣٨ ، وتولى توقيعه وزيرا خارجيتي المانيا وفرنسا . وكانت فرنسا قد استفاقت إبان ذلك إلى حدٍ ما ، من الفزع الإنهزامي الذي أصابها في أيام مؤتمر ميونيخ . وكان مؤلف هذا الكتاب في باريس في يوم توقيع هذا الميثاق ، ولاحظ الجو الفاتر الذي أحاط بالتوقيع . فعندما مر ريبنتروب بسيارته عبر الشوارع كانت هذة الشوارع مهجورة تماماً ، ورفض عدد كبير من الوزراء ومن الشخصيات البارزة في حياة فرنسا السياسية والادبية، وبينها رئيسا مجلس الشيوخ والنواب المسيو جانيني والمسيو هربو ، حضور ، الحفلات التي صاحبت زيارة الوزير النازي .

ونجم على الاجتماع الذي عقد بين بونيه وريبنتروب ، سوء تفاهم قدر له أن يلعب دوراً معيناً في احداث المستقبل . وقد زعم وزير خارجية ألمانيا أن بونيه قد أكد له بان فرنسا غدت بعد ميونيخ ، لا تهتم بشؤون اوروبا الشرقية ، وقد فسر هو هذا القول على أنه تسليم من فرنسا، لألمانيا بحرية التصرف في تلك المنطقة ولا سيا بالنسبة الى الاجزاء الخلفية من تشيكوسلوفاكيا وبولندة . وقد نفى بونيه ذلك . وتقول الرواية التي دوّنها شميدت عن هذا الاجتماع أن بونيه قد أعلن رداً على طلب من ريبنتروب بأن تعترف فرنسا لألمانيا بمنطقة نفوذها في الشرق « إن الأوضاع قد تبدّلت تبدلاً جوهرياً منذ أيام ميونيخ [1] وسرعان ما حوّر وزير خارجية ألمانيا المتلّون هذه الملاحظة المبهمة الى بيان صريح قدمه إلى هتلر ذكر فيه أن بونيه قد اعلن في باريس ، أنه لم يعد مهتماً بالقضايا المتعلقة بالشرق » . ولا ريب في أن استسلام فرنسا السريع في ميونيخ قد أقنع هتلر بصحة هذا الادعاء . ولكن الحقيقة لم تكن على هذا النحو أبداً .

---

١ ـ شميدت « ترجمان هتلر » ص١١٨ . وثائق وزارة الخارجية الالمانية(٤) ص ٤٧١-٤٧٧

ترى ماذا حدث للضمانة الألمانية التي وعد هتلر وعداً قاطاً في ميونيخ بتقديمها الى ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا ؟ لقد جاء السفير الفرنسي الجديد في برلين المسيو روبير كولوندر الى وزارة الخارجية الألمانية في الواحد والعشرين من كانون الاول عام ١٩٣٨ ، مستعلماً من وايزساكر ، عما حل بهذه الضمانة ، فكان رد هذا بأن مصير تشيكوسلوفاكيا رهن بمشيئة المانيا ، وانها ترفض تبعاً لذلك أية ضمانة من جانب بريطانيا وفرنسا . وعندما جاء وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا الجديد فرانتيسك شفالكوفسكي الى ميونيخ في الرابع عشر من تشرين الأول مستجدياً الفتات من هتلر ، ومستفهماً عما إذا كانت المانيا ستشترك مع بريطانيا وفرنسا في ضمان حدود بلاده المحطمة ، رد الفوهرر متعالياً ، بأن « الضمانات البريطانية والفرنسية تافهة ولا قيمة لها.... وان الضمانة الفعالة الوحيدة هي تلك التي تصدر عن ألمانيا [1] » .

وبدأ عام ١٩٣٩ دون أن تصل هذه الضمانة . والسبب في ذلك في غاية البساطة . فالفوهرر لا ينوي التقدم بها ، لان مثل هذه الضمانة ستعرقل الخطط التي شرع في وضعها فور الانتهاء من ميونيخ . ولن تبقى هناك عما قريب بلاد تحمل اسم تشيكوسلوفاكيا ، وتكون صالحة لإعطاء مثل هذه الضمانة . ورأى ان الخطة الأولى يجب ان تتجه إلى اقناع سلوفاكيا ، بالخروج عن تشيكوسلوفاكيا .

وقد استقبل غورنغ بعد بضعة ايام من انتهاء اجتماع ميونيخ ، أي في السابع عشر من تشرين الأول ، زعيمين سلوفاكيين ، هما فيرديناند دوركانسكي دماخ ، كما أستقبل فرانز كارماسين زعيم الأقلية الألمانية في سلوفاكيا ، وقد أكد دوركانسكي ، نائب رئيس وزراء دولة سلوفاكيا التي نالت استقلالها الذاتي حديثاً ، للمشير ان سلوفاكيا تريد « الاستقلال الكامل حقاً ، وتريد ان تكون لها علاقات اقتصادية وسياسية وعسكرية وثيقة العرى مع المانيا » . وتقول مذكرة سرية لوزارة الخارجية الألمانية تحمل نفس التاريخ أن غورنغ قرر أن من الواجب

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٦٩ ــ ٧٢

دعم فكرة استقلال سلوفاكيا ، واضافت المذكرة تقول ... « أن دولة تشيكية تقتطع منها سلوفاكيا تكون اكثر خضوعاً لإرادتنا . ولا ريب في ان قاعدة جوية في سلوفاكيا للعمل ضد الشرق ، أمر في منتهى الأهمية [1] » .... هذه هي الافكار التي راودت غورنغ في أواسط شهر تشرين الاول .

وأرى لزاماً علينا هنا ، أن نتابع خيطاً مزدوجاً في الخطة الألمانية ، يتناول أحدهما ، فصل سلوفاكيا عن براغ ، وثانيهما اعداد العدة لتصفية ما تبقى من الدولة التشيكوسلوفاكية باحتلال الأراضي التشيكية عسكرياً ، وأعني بها بوهيميا ومورافيا . وقد رأينا من قبل كيف أن هتلر أصدر أمره في الواحد والعشرين من تشرين الأول إلى الجيش الألماني « الفير ماخت » بأن يكون على استعداد لتنفيذ عملية التصفية . [2] واصدر كايتل في السابع عشر من كانون الأول ، ما دعاه « بملحق لتوجيه الواحد والعشرين من تشرين الأول » .

سري للغاية

بالاشارة إلى « تصفية الدولة التشيكية المحطمة » أصدر الفوهرر الأوامر التالية :

« من الواجب إعداد العملية على اساس الافتراض بعدم توقع أية مقاومة تستحق الذكر .

« ويجب ان يظهر العمل أمام العالم الخارجي وكأنه اجراء سلمي لا عسكري .

« ومن الواجب أن يتم العمل عن طريق القوات العسكرية الجاهزة في أوقات السلم العادية وبدون أية إجراءات تعبوية »[3] .

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٨٢ ــ ٨٣

٢ ــ اصدر هتلر في الرابع والعشرين من تشرين الثاني امراً سرياً آخر ، يطلب فيه الى القوات المسلحة ان تتخذ استعداداتها لاحتلال دانزيغ على ان يتم ذلك في وقت لاحق . ويتبين من هذا ان الفوهرر اخذ يتطلع الى ما بعد احتلال تشيكوسلوفاكيا .

٣ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) . ص ١٨٥ ــ ١٨٦ . المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٥٠ ــ ٩٥١ .

وعلى الرغم من جميع المحاولات التي بذلتها الحكومة التشيكوسلوفاكية الجديدة . الموالية للالمان ، لإرضاء هتلر ، فإنها بدأت تدرك مع طلوع العام الجديد ، أن طبخة « البلاد » قد أصبحت جاهزة للإلتهام . وكانت الوزارة التشيكية قد أصدرت أمرها قبيل عيد الميلاد ، رغبة منها في إرضاء الفوهرر أيضاً ، بحل الحزب الشيوعي ، ومنع جميع المعلمين اليهود من التعليم في المدارس الألمانية . وأكد وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا تشفالكوفسكي في مذكرة بعث بها في الثامن عشر من كانون الثاني إلى زارة الخارجية الألمانية أن حكومته « ستبذل كل جهودها ، لإثبات ولائها وحسن نيتها ، عن طريق تحقيق كل ما تبديه ألمانيا من رغبات . » وقد لفت في نفس اليوم اهتمام القائم بالأعمال الألماني في براغ ، إلى الإشاعات الدائرة عن « قرب ضم تشيكوسلوفاكيا إلى الرايخ الألماني » [١]

وتمكن تشفالكوفسكي أخيراً من إقناع هتلر بمقابلته في الواحد والعشرين من كانون الثاني محاولاً إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأجزاء الباقية من البلاد . وسرعان ما تبين أن هذه المقابلة كانت من النوع المؤلم جداً للتشيكيين وإن لم تكن على نفس الدرجة من الالم بالنسبة إلى الاحداث التالية . فلقد تذلل وزير الخارجية التشيكية في حضرة الديكتاتور الالماني الجبار ، الذي كان في حالة نفسية من أكثر حالاته « بلطجة ». ولقد ذكر هتلر أثناء هذه المقابلة ، أن إنقاذ تشيكوسلوفاكيا قد تم بفضل « اعتدال المانيا » . ولكنه مصمم على ابادة التشيكيين إلا إذا أظهروا روحاً مختلفة تمام الإختلاف عما يظهرون الآن . وعليهم أن ينسوا « تاريخهم » الذي لا يعدو مجرد « سخافات اطفال » ، وأن ينفذوا كل ما يأمرهم الألمان بتنفيذه، إذ أن هذا سبيلهم الوحيد للخلاص. وحدد ما يتحتم على تشيكوسلوفاكيا عمله ، فقال ، إن عليها أن تتخلى عن عصبة الامم وأن تخفض من جيشها خفضاً « جذرياً » لأن هذا الجيش لا « ينفعها شيئاً في أية حال من الاحوال » وأن تنضم إلى ميثاق مكافحة الشيوعية ،

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ص ١٨٨ ــ ١٨٩ .

وتقبل بتوجيه المانيا في سياستها الخارجية وتعقد معها اتفاق الدولة المفضلة في الميدان الاقتصادي على ان ينص في هذا الاتفاق على عدم السماح باقامة أية صناعات تشيكية جديدة ، بدون موافقة المانيا [1] . وان تطرد جميع الموظفين ومحرري الصحف المعادين للرايخ وان تعزل جميع اليهود من الحياة العامة على غرار ما فعلته المانيا في قوانين نورمبرغ ، وراح هتلر يقول لزائره : « لن يبقى اليهود في وجودنا » . وتلقى تشفالكوفسكي في نفس اليوم طلبات جديدة من ريبنتروب ، الذي أنذره « بنتائج مفجعة » ، إلا إذا قام التشيكيون باصلاح أوضاعهم ، ونفذوا ما يطلب إليهم فوراً . وراح وزير الخارجية الالماني الذي يبدو طيّعاً ذليلاً في حضرة هتلر ، ومتكبراً متعجرفاً أمام من يشعر بقوته تجاههم، يأمر تشفالكوفسكي ، بأن لا يذكر مطالب المانيا الجديدة للبريطانيين والفرنسيين ، وان يمضي فوراً في تنفيذها دون اعتراض [2] .

وعلى تشيكوسلوفاكيا أن تفعل ذلك دون ان تقلق نفسها بأية ضمانات المانية للحدود التشيكية . وبدا ان لندن وباريس كانتا غير قلقتين من تأخر هذه الضمانات ، فلقد انقضت اشهر اربعة منذ مؤتمر ميونيخ ، ولم يكن هتلر قد نفذ وعده بعد ، باضافة الضمانة الالمانية لتلك التي قدمتها بريطانيا وفرنسا . وأخيراً وجهت الحكومتان البريطانية والفرنسية مذكرة شفوية إلى برلين في الثامن من شباط تقولان فيها أن الحكومتين « ستشعران بالسعادة إذا عرفتا وجهة نظر الحكومة الألمانية في خير السبل المؤدية الى ما تم الاتفاق عليه من تفاهم في

---

١ ــ طلب هتلر ان يقوم المصرف الوطني التشيكوسلوفاكي ، بتسليم جزء من احتياط الذهب فيه الى مصرف الرايخ ، وكان المبلغ المطلوب (٣٩١،٢) مليوناً من الكرارنات التشيكية بالعملة الذهبية . وبعث غورنغ في الثامن عشر من شباط الى وزارة الخارجية الالمانية يقول : « بالنظر الى الصعوبة المتزايدة في وضع النقد ، ارى لزاماً ان اصر بشدة ، على وجوب تسلمنا ٣٠ او ٤٠ مليوناً من الماركات الذهبية من المصرف التشيكي الوطني في أقرب وقت ممكن ، وذلك لان هذا المبلغ ضروري لتنفيذ أوامر الفوهرر » (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٢١٥ .

٢ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ١٩٠ ــ ٢٠٢ • الكتاب الفرنسي الاصفر ص ٥٥ ــ ٥٦

ميونيخ بالنسبة إلى الضمانات لتشيكوسلوفاكيا »[1]

وقد كتب هتلر نفسه كما تؤكد وثائق وزارة الخارجية الألمانية المصادرة الرد الذي لم يسلم إلا في الثامن والعشرين من شباط . وذكر هذا الرد أن الوقت لم يحن بعد لصدور ضمان ألماني، وأن على ألمانيا أن تنتظر أولاً « إيضاحاً للموقف الداخلي في تشيكوسلوفاكيا »[2]

وبدا أن الفوهرر كان يرسم صورة « هذا التطور الداخلي » على النحو الذي يريده للوصول إلى النتيجة الواضحة . وقد استقبل في الثاني عشر من شباط في دار المستشارية في برلين الدكتور فوجتيش توكا ، أحد الزعماء السلوفاكيين ، الذين أثارت المدة الطويلة التي قضاها في السجن حقده على التشيكيين . وتقول المذكرة السرية الألمانية التي دوّنت وقائع الاجتماع أن الزائر السلوفاكي كان يخاطب هتلر بعبارة « يا زعيمي » ثم راح يرجوه تحرير سلوفاكيا وإعلانها دولة مستقلة ، ويقول : « إنني أضع مصير شعبي في يديك يا زعيمي ، وذلك لأنه ينتظر منك تحريره تحريراً كاملاً » .

وانطوى رد هتلر على بعض التهرب ، فقد ذكر أنه لم يفهم لسوء الحظ ، حقيقة المشكلة السلوفاكية . وأضاف بأنه لو عرف أن السلوفاكيين يريدون الاستقلال ، لحقق لهم ذلك في مؤتمر ميونيخ ، ولكن في وسعه أن يضمن للسلوفاكيين الاستقلال في كل حين حتى في هذه اللحظة . وكانت هذه العبارات مطمئنة للدكتور توكا[3] أيضاً فقد ذكر فيما بعد ، أن تلك المقابلة كانت أعظم حادث وقع له في تاريخه .

وهكذا بات في الامكان أن يزاح الستار عن الفصل التالي في المأساة التشيكوسلوفاكية . ولعل من سخريات الأقدار أيضاً التي يحتشد بها هذا السرد التاريخي ، أن التشيكيين في براغ ، كانوا هم الذين رفعوا هذا الستار قبل أوانه .

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ٢٠٧ ــ ٢٠٨

٢ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٢١٨ ــ ٢٢٠

٣ ــ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ص ٢٠٩ ــ ٢١٣ .

فلقد واجهتهم في مستهل شهر آذار عـــام ١٩٣٨ مشكلة مستعصية للغاية . إذ وصلت الحركتان الانفصاليتان في سلوفاكيا وروثينيا ، اللتان أثارت ألمـــانيا اولاهما ، وأثارت المجر ثانيتهما طمعاً منها باغتصاب تلك المنطقة الصغيرة ، حداً ، بات لزاماً على تشيكوسلوفاكيا معالجته وإخماده ، وإلا تعرضت للانهيار .وصار من حق هتلر أن يحتل براغ في هذه الحالة . ولكن كان هناك خوف من الناحية الاخرى بأن يؤدي قيام الحكومة المركزية باخماد الحركة الانفصالية ، إلى انتهاز الفوهرر ،فرصة الاضطرابات التي ستنجم عن هذه المحاولة للزحف على براغ أيضاً.

وقد آثرت الحكومة التشيكية بعد كثير من التردد،وبعد أن بات الاستفزاز من النوع الذي لا يحتمل ، اختيار السبيل الثاني . وفي السادس من آذار ، أقال الدكتورهاشا رئيس الجمهورية التشيكوسلوفاكية ، حكومةروثينيا المستقلة ، كما أقال ليلة التاسع ـ العاشر منه، حكومة سلوفاكيا المستقلة أيضاً . وأصدر امره في اليوم التالي ، باعتقال المونسنيور تيزو رئيس وزراء سلوفاكيا والدكتور توكا والسيد دوركانسكي ، واعلن الاحـــكام العرفية في البلاد . ولكن هذا العمل الجريء الوحيد ، الذي قامت بـــه هذه الحكومة التي غدت خانعة مستكينة لبرلين قد تحوّل ليصبح السبب في الكارثة التي حلت بها وحطمتها .

وذهلت برلين لهـذه المفاجأة التي أثارهـا عمل براغ السريع ، وكان غورنغ قد مضى إلى سان ريمو ، ليستجم ويتمتع بشمسها الدافئة . وكان هتلر بـدوره يستعد للمضي إلى فيينا ليحتفل بالذكرى الاولى لضم النمسا إلى الرايخ . ولكن سرعان مامضى المخطّـط الأعظم إلى العمل بحماس وقرر في الحادي عشر من آذار احتلال بوهيميا ومورافيا بانذارهما . وقد أعد الفريق كايتل بأمر من هتـلر في نفس اليوم صيغة الإنذار الذي بعث به إلى وزارة الخارجية الالمانية والذي يطلب إلى التشيكيين الإذعان دون مقاومة لاحتلال المانيا العسكري [١] ولكن هـذا الانذار ظل بعض الوقت يحمل طابع السرية الكبيرة .

وقد حان الوقت الآن لتحرير سلوفاكيا . وكان الرئيس هـاشا قــد عين

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥

كارول سيدور ، ممثل حكومة سلوفاكيا ذات الاستقلال الذاتي في براغ ، رئيساً لوزرائها بدلاً من المونسنيور تيزو الذي كان قد أقاله . وعندما عاد سيدور إلى براتيسلافا، عاصمة الحكومة السلوفاكية يوم السبت في الحادي عشر من آذار دعا وزارته الجديدة إلى اجتماع عاجل ، ولكن الجلسة التي عقدتها الحكومة ، انقطعت فجأة في الساعة العاشرة مساء ، بوصول زائرين في منتهى الغرابة ، هم سايس – انيكوارت الحاكم النازي « الكويزلنغي » في النمسا ، وجوزيف بيركل ، ممثل الحزب النازي فيها ، وخمسة من الفرقاء العسكريين الألمان ، وقد شقوا طريقهم إلى قاعة الاجتماع ، وطلبوا إلى أعضاء الوزارة إعلان استقلال سلوفاكيا فوراً ، وهدد الزائرون أعضاء الوزارة ، بأنهم إذا لم يفعلوا ذلك ، فإن هتلر الذي قرر تسوية مشكلة سلوفاكيا تسوية نهائية وفورية ، سيفقد اهتمامه بمصير سلوفاكيا .[1]

وتردد سيدور الذي كان يعارض قطع جميع العلاقات مع التشيكيين ، في تنفيذ الأمر ، ولكن المونسنيور تيزو الذي كان قد فرّ من الدير الذي كان قد أودع فيه رهن الاعتقال ، وصل في الصباح التالي ، وطلب عقد اجتماع عاجل للوزارة التي لم يكن في تلك اللحظة عضواً فيها . ورغب سيدور في إحباط أي تدخل جديد من كبار الموظفين الألمان والقادة العسكريين ، فطلب عقد الاجتماع في الشقة التي يقيم فيها ، ولكن عندما بات هذا المكان مفتقراً إلى السلامة والامن أيضاً ،بسبب إقتحام جنود العاصفة الالمان للمدينة ، فض سيدور الاجتماع وطلب التئامه من جديد ، في مكاتب إحدى الصحف المحلية . وأبلغه تيزو إبان الاجتماع أنه تلقى برقية قبل لحظات من بيركل ، يدعوه فيها إلى المضي فوراً إلى برلين لمقابلة الفوهرر . وأضافت البرقية ، أنه إذا رفض الدعوة ، فإن فرقتين ألمانيتين ستعبران الدانوب عند براتيسلافا ، وأن سلوفاكيا ستجزأ بين ألمانيا والمجر .ووصل الكاهن الرث الهيئة القميء الى فيينا في الصباح التالي الثالث عشر

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (شهادة الوزير البريطاني في براغ) (٧) ص ٨٨ ـ ٩٠

من آذار ، معتزماً المضي منها بالقطار الى برلين [١] ، ولكنه حمل حملاً الى الطائرة التي أقلته لمقابلة هتلر . ولم يكن الفوهرر راغباً في اضاعة الوقت.

وعندما وصل تـيزو ودوركانسكي الى دار المستشارية في برلين في الساعة السابعة والدقيقة الاربعين من مساء الثالث عشر من آذار ، وجـدا هتلر وقد أحاط به ريبنتروب وزير خارجيته والفريقان براوختش القائد العام للجيش الالمـاني وكايتل رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة . وقـد وجد السلوفاكيان ، الفوهرر أيضاً في حالة مزاجية خاصة ، لم يستطيعا فهمها ، ويرجع الفضل هنا في الكشف أيضاً عما دار في هذا الاجتماع الى السجلات السرية للوقائع التي صودرت كذلك ، كما تكشف أيضاً عن الحـالة العقلية التي سيطرت عـلى الديكتاتور الالماني الذي سرعـان ما تحول الى الجنون وعن صورته وهو ينسج اكاذيبه الخيالية ، مطلقاً تهديداتـه الجريئة بطريقة لم يكن يتوقع قط أن يطلع عليها الرأي العام وبأسلوب ماكان يأمل في أن يصل الى الناس [٢]

قال هتلر ... « ان تشيكوسلوفاكيا مدينة لالمانيا وحدها ، إذا لم تكن قد جزّئت أكثر من تجزئتها الحالية » وأضاف أن الرايخ قد أظهر منتهى التسامح وضبط النفس ، ومع ذلك لم يقدر له التشيكيون هذا الموقف . وراح يقول بعد ذلك وقد اشتد حماسه ... « وفي غضون الاسابيع الاخيرة ، أصبحت الاوضاع من الطراز الذي لا يطاق . فقد بعثت روحية بنيش القديمة من مرقدها ثانية ».

وقال ان السلوفاكيين قد خيّبوا أمله كذلك . وراح يمنّ على زائريه بالقول أنه اختلف مع حلفائه المجريين بعد مؤتمر ميونيخ لانه لم يسمح لهم باغتصـاب سلوفاكيا. وكان يخيل إليه، بأن سلوفاكيا تنشد الاستقلال فعلاً . وراح يقول:

---

١ ـ كان المونسنيور تيزو بديناً وقصيراً . وكان نهماً اكولا . ولقد قال للدكتور بول شميدت ذات يوم . . « عندما اجد نفسي منهمكاً في العمل آكل رطلا من لحم الخنزير فتهدأ اعصابي المتعبة » وقدر له ان يموت على حبل المشنقة إذ اسره الامريكيون في الثامن من حزيران عام ١٩٤٥، وسلموه الى الحكومة التشيكوسلوفاكية الجديدة فقضت عليه بالاعدام بعد محاكمة استغرقت اربعة اشهر وقد نفذ الحكم في الثامن عشر من نيسان .

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٤) ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥ .

« لقد استدعيت تيزو الآن لايضاح هذه القضية في وقت قصير للغاية ... والقضية الآن ... هي هل تريد سلوفاكيا حقاً أن تنال وجوداً مسقلاً او لا ؟ إنها قضية ساعات لا أيام ... وإذا كانت سلوفاكيا ... تريد أن تستقل حقاً فإنه سيؤيدها ويضمن استقلالها كذلك ... أمـا إذا ترددت ورفضت أن تنفصل عن براغ ، فإنه سيترك مصير سلوفاكيا إلى الاحداث التي لن يعود مسؤولاً عنها ».

وتقول الوثيقة الالمـانية أن ريبنتروب سلّم في هذه اللحظة إلى الفوهرر ، تقريراً تلقاه قبل لحظات عن تحركات عسكرية مجرية على حدود سلوفاكيـا . وقد قرأ هتلر التقرير ثم نقل محتوياته إلى تيزو ، معرباً عن أمـله في أن تصل سلوفاكيا إلى قرار عاجل » .

ولم يتخذ تيزو قراره على الفور وانما رجا من الفوهرر أن يغفر له اذا كان تحت وطأة كلمات المستشار قد آثر عدم اتخاذ أي قرارٍ فوري ، ولكنه أضاف بسرعة قائلاً ... « ان السلوفاكيين سيقيمون الدليل على أنهم جديرون بإحسان الفوهرر » .

وقد أُقيم هذا الدليل في اجتماع عقد في وزارة الخارجية واستمر حتى ساعة متأخرة من الليل . ويقول كيبلر عميل هتلر السري في براتيسلافا والذي كان عميلاً له قبل عام في فيينا عشية عملية ضم النمسا ، في شهادته أمام محكمةنورمبرغ ان الألمانساعدوا تيزو في اعداد برقية تقرر أن يبعث بها « رئيس الوزراء»حال عودته الى براتيسلافا ، معلناً استقلال سلوفاكيا ، ومناشداً الفوهرر بسرعة أن يتولى حماية الدولة الجديدة [١] . ولا ريب في أن هذه البرقية تذكرنا بالمذكرة التي أملاها غورنغ قبل نحو من عام تقريباً على سايس – انيكوارت ليناشد بها هتلر ارسال القوات الالمانية الى النمسا ، وكان اسلوب النازيين في اعـداد البرقيات قد بلغ حد الكمال هذه المرة . اذ اختصرت البرقية هذه المرة ، وبعث بها تيزو في السادس عشر من آذار ، وردّ هتلر على الفور ، بأنه سيكون مسروراً غاية

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٢٥٠ .

السرور « لتولي حماية الدولة السلوفاكية » .

ووضع ريبنتروب فيوزارة الخارجية أيضاً تلك الليلة الاعلان السلوفاكي بالاستقلال ، وتمت ترجمته بسرعة الى اللغة السلوفاكية ليحمله تيزو معه الى براتيسلافا ، حيث يتولى رئيس الوزراء قراءته . بعد أن حرفه بعض التحريف ـ كما روى عميل ألماني ـ أمام البرلمان في اليوم التالي أي الثلاثاء في الرابع عشر من آذار . وقد احبط كارمازين زعيم الأقلية الألمانية أية محاولات قام بها بعض النواب السلوفاكيين للبحث في البيان ، بعد أن أنذرهم بأن القوات الألمانية ستهرع الى احتلال البلاد في حالة تأخرهم في اعلان الاستقلال . وقد أذعن النواب أمام هذا التهديد وسكتوا .

وهكذا ولدت سلوفاكيا المستقلة في الرابع عشر من آذار عام ١٩٣٩ . وعلى الرغم من اسراع الممثلين الدبلوماسيين البريطانيين الى ابلاغ لندن عن الطريقة التي ولدت فيها الدولة الجديدة ، إلا أن تشمبرلين كان سريعاً أيضاً ، كما سنرى ، في استخدام « انفصال » سلوفاكيا ذريعة تتحلل فيها بريطانيا من تعهداتها لتشيكوسلوفاكيا ، بعد أن قام هتلر في تلك الليلة نفسها بإكمال مالم يتمه في ميونيخ .

وانتهت الآن حياة جمهورية مازاريك وبنيش ، واذعن زعماء براغ الواقعين تحت الضغط من جديد لإرادة هتلر ، لوضع تصميم الفصل الاخير في مأساة بلادهم . وراح الرئيس العجوز هاشا ، الذي سيطرت عليه الحيرة ، يطلب الاجتماع بالفوهرر [١] . ووافق هتلر على ان يسمح له برؤيته ، فقد أتاحت له

---

١ ـ هناك خلاف في الآراء حول هذه النقطة ، إذ يرى بعض المؤرخين ان هتلر قد ارغم هاشا على المجيء الى برلين ، ولا ريب في انهم يقيمون ادعاءهم هذا على برقية بعث بها السفير الفرنسي في برلين يقول فيها انه علم هذه الحقيقة من « مصدر موثوق » ، ولكن وثائق وزارة الخارجية الالمانية التي تم الوصول اليها فيما بعد ، تظهر ان المبادرة جاءت من هاشا نفسه ، فلقد طلب هذا في البداية ، إجراء مقابلة له مع هتلر في الثالث عشر من آذار عن طريق المفوضية الألمانية في براغ ثم عاد فكرر هذا الطلب في صباح الرابع عشر منه ، وقد وافق هتلر على المقابلة بعد ظهر ذلك اليوم ايضاً . (وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ص ٢٤٩ ـ ٢٦٠ ، اما برقية السفير الفرنسي فقد وردت في الكتاب الفرنسي الاصفر ٩٦) .

المقابلة ، الفرصة ، ليرسم مخططات فصل يعتبر من أقسى الفصول التي ارتكبها في حياته كلها .

وعلينا ان ندرس بإمعان الطريقة الممتازة التي أعدّ فيها الديكتاتور منظر المسرحية ، عندما كان يترقب بعد ظهر الرابع عشر من آذار وصول الرئيس التشيكوسلوفاكي . وكان اعلان استقلال سلوفاكيا وروثينيا ، الذي رتبه ببراعة ودقة ، قد ترك براغ ، لا تسيطر إلا على مقاطعتي بوهيميا ومورافيا التشيكيتين، او لم ُيزل وجود تشيكوسلوفاكيا من حكم الواقع ، وهي الدولة التي ضمنت بريطانيا وفرنسا حدودها ضد العدوان؟ وكان قد أدرك ان تشمبرلين ودیلادییه زميليه في ميونيخ ، حيث قدمت الضمانات بصورة تنطوي على الجد، قد وجدا « المخرج » من الإلتزامات ، ولم يكن يشك مطلقاً في انهما سيتحللان من هذه الالتزامات ، وكان محقاً في يقينه كل الحق . وكان هذا اليقين مزيلاً لكل خطر في وقوع تدخل خارجي . ولكن رغبة منه في التأكد تمام التأكد من هذا اليقين ، ومن التظاهر بالشرعية والقانونية في خطوته التالية طبقاً لمفاهيم القانون الدولي الغامضة ، من ناحية نصها على الأقل ، رأى أن يرغم هاشا الشيخ المهدم والضعيف ، بعد أن طلب هذا مقابلته ، راجياً السماح له بها ، على قبول نفس الحل الذي كان قد عزم على الوصول اليه مستخدماً القوة العسكرية . وأيقن أنه بعمله هذا ، سيجعل اجراءه ، بعد أن أتقن الأسلوب الجديد في الاحتلال الذي لا تسفك فيه الدماء في اوروبا . كما فعل في النمسا وفي ميونيخ ، وكأنه ناجم عن طلب فعلي ورسمي من الرئيس التشيكوسلوفاكي . وهكذا أراد أن يحافظ على مظاهر « الشرعية » التي أتقنها تمام الإتقان في وصوله إلى الحكم في المانيا ، إبان احتلال أرض غير المانية .

وأعد هتلر المسرح أيضاً لخداع الشعب الألماني وغيره من شعوب اوروبا السليمة الطوية . وكان المحرضون الألمان ، يحاولون منذ بضعة ايام إحداث إضطرابات في مختلف المدن التشيكية كبراغ وبروين وايفلاد . ولم يكونوا قد حققوا نجاحاً فيها ، وذلك لأن الشرطة التشيكية ، كما روت المفوضية الألمانية

في براغ قد تلقت الاوامر من المسؤولين « بأن لا تتخذ أي إجراء ضد الالمان حتى في حالة وقوع الاستفزاز »[1] ولكن هذه الاوامر ، لم تحل بين الدكتور غوبلز ، وبين إلهاب سخط جماهير الالمان عن طريق الصحافة التي راحت تخترع روايات عن أعمال إرهابية يقوم بها التشيكيون ضد الالمان المساكين . وذكر السفير الفرنسي المسيو كولندر في تقريره لباريس ، أن هذه القصص ، كانت عين الروايات التى اختلقها غوبلز إبان أزمة السوديت ، وحملت عين العناوين في في الصحف الالمانية كالإدعاء بقتل الوحوش التشيكيين للنساء والحوامل من الالمانيات وكحمامات الدم التي تعرض لها الالمان على أيدي البرابرة التشيكيين . وكان في وسع هتلر أن يؤكد للشعب الالماني المتغطرس ، بأن إخوانه لن يظلوا مفتقرين إلى الحماية أمداً طويلاً .

هكذا كان الوضع ، وهكذا كانت خطط هتلر ، كما كشفت عنها الوثائق الألمانية فيما بعد ، عندما وصل القطار الذي يقل الرئيس هاشا ووزير خارجيته شفالكوفسكي الى محطة انهولت في برلين في الساعة العاشرة والدقيقة الاربعين من مساء الرابع عشر من آذار . وكان الرئيس عاجزاً عن ركوب الطائرة بسبب ضعف في قلبه ، نجم عن سوء حالته الصحية .

محنة الدكتور هاشا

أُستقبل هاشا استقبالاً رسمياً رائعاً ، وأُقيمت له المراسيم التي تقام لرئيس أية دولة من الدول ، فلقد كان حرس الشرف في المحطة ينتظر وصول الضيف حيث قدم لكريمته التي رافقته باقة من الزهر ، ووجدت الآنسة هاشا في فندق ادلون الفخم ، حيث حل الضيوف في أجنحة رائعة خاصة ، علبة من « الشوكولاته » هدية خاصة من ادولف هتلر ، الذي كان يعتقد بأن الناس جميعاً يشاركونه حبه للحلوى . وعندما وصل الرئيس العجوز ووزير خارجيته إلى دار المستشارية ،

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٢٤٦ .

أدت لهما التحية ثلة من الحرس النازي .

ولكنهما ظلا ينتظران المثول بين يدي هتلر حتى الساعة الواحدة والربع صباحاً ، ولا ريب في أن هاشا ، كان يعرف مقدماً ، ما هو مخبوء له . فقبل أن يغادر القطار الذي أقله من الارض التشيكية ، كانت الانباء قد وصلته من براغ ، بأن القوات الالمانية احتلت فعلاً مورافسكا - اوسترافا ، المدينة التشيكية الصناعية الهامة . وكانت قد انتشرت على طول قطاع بوهيميا ومورافيا مستعدة للهجوم . وعندما دخل إلى مكتب الفوهرر في الساعة المبكرة من الصباح ، رأى على الفور إلى جانبه بالاضافة الى ريبنتروب ووايز ساكر ، كلاً من المستر غورنغ ، الذي استدعي على عجل من إجازته في سان ريمو ، والفريق كايتل . ولعله لم يرَ عندما دخل عرين الأسد أن طبيب هتلر الخاص الدكتور تيودور موريل كان على مقربة ، وأن وجوده هناك كان ضرورياً ولأمرٍ ما .

وتكشف الوثائق الألمانية السرية عن الاجتماع ، النقاب عن منظر في منتهى الألم ، وقع منذ البداية ، فلقد هدر الدكتور هاشا التعس ، أمام الفوهرر الالماني المزهو بنفسه ، كل ما لديه من كرامة انسانية ، على الرغم من ماضيه العريق كقاض محترم في المحكمة العليا . ولعل الرئيس قد فكر أنه بتصرفه هذا وحده ، يستطيع ان يستفز رحمة هتلر وكرامته ، وينقذ لشعبه بعض ما يمكن انقاذه ، ولكننا إذا تجاهلنا هذا الحافز ، فإن كلماته ، مهما كان سببها ، كانت طبقاً لما سجله الالمان في وثائقهم السرية عنها ، من النوع الذي تتقزز منه نفس القارىء ، حتى ولو تلاها بعد انقضاء هذا الأمد الطويل عليها . فلقد راح يؤكد لهتلر ، أنه لم يسبق له قط ، أن أقحم نفسه في السياسة ، وأنه لم يلق مؤسسي الجمهورية التشيكوسلوفاكية ، مازاريك وبنيش ، إلا لماماً « وأن ما رآه منهما لم يعجبه ، وقال أن عهدهما كان « غريباً » عليه ، وان هذه الغرابة قد دفعته فور تبدل العهد بعد ميونيخ « إلى أن يسائل نفسه عما إذا كان بقاء تشيكوسلوفاكيا دولة مستقلة ، أمراً يراه صالحاً » . ثم راح يقول . . . .

« إنني على ثقة من أن مصير تشيكوسلوفاكيا رهن بإرادة

الفوهرر ، وإن هذا المصير أمين بين يديه ... وراح الدكتور هاشا، يصل بعد ذلك إلى ما كان له أبلغ الأثر عليه ، وهو مصير شعبه . وهو يشعر تمام الشعور بأن الفوهرر ، يفهم كل الفهم ، رأيه في انمن حق تشيكوسلوفاكيا ان تحيا حياة قومية ... وما اللوم الموجه الى تشيكوسلوفاكيا إلا نتيجة وجود بعض العناصر التي مازالت تؤيد نظام بنيش ... ولكن الحكومـــة لن تتقاعس عن اللجوء إلى كل وسيلة لاسكات هذه العناصر . واضاف بعد ذلك أن هذا هو كل ما ود أن يقوله الى الفوهرر » .

وراح هتلر يفضي بعد ذلك ، بكل ما كان قد أعده من قول ، فبعد أن كرر جميع الاخطاءالمزعومة التي ارتكبتها تشيكوسلوفاكية مازاريك وبنيش في حق المانيا والألمان ، وبعد ان اكد ان التشيكيين ، لم يتبدلوا لسوء الحـظ ، بعد ميونيخ ، وصل إلى النقطة المهمة ... قائلاً . ... بأنه :

« قد توصل إلى الإستنتاج بأن هذه الرحلة التي قام بها الرئيس على الرغم مـــن شيخوخته ، قـــد تكون كبيرة النفـع لبلاده إذ لم يبق أمام تدخل الألمان إلا بضع ساعات ... واضاف انه لا يحمل عداء لأي بلد من البلاد ..وانوجود تشيكوسلوفاكيا المحطمة لا يعود إلا لموقفه الودي منها ... ولم يكن قد رغب في الخريف الماضي أن يصل إلى النتيجة الحاسمة ، لأنه اعتقد بامـــكان وجود تعايش ودي بين البلدين ، ولكنه كان قد أوضح إيضاحاً ، بأنه ما لم تختف الاتجاهات المؤيدة لبنيش اختفاء كلياً ، فانـــه سيحطم الدولة الصغيرة تحطيماً نهائياً » .

وراح هتلر يؤكد ان هذه الاتجاهات لم تختفِ ، وأخذ يعدد « الأمثلة » على وجودها قائلاً :

« وهكذا لم يعد في امكانه الصبر بعد الثاني عشر من آذار .... ولقد اصدر اوامره إلى القوات الألمانيـــة بالزحف ، وضـــم

تشيكوسلوفاكيا إلى الرايخ الالماني » .

ويقول الدكتور شميدت في سجله عن الاجتماع « ان هاشا وشفالكوفسكي جلسا وكأنهما قد تحولا إلى صنمين من الحجر . ولم يكن هناك من دليل على بقائهما في قيد الحياة إلا ما يبدو في عينيهما من بريق » ، ولكن هتلر لم يستكمل حديثه بعد ، فقد رأى ان واجبه يحتم عليه إذلال ضيفيه بسيل من الوعيد التيوتوني ... ولذا مضى يقول :

« لقد بدأ الجيش الالماني زحفه اليوم . وتولى تحطيم إحدى الثكنات العسكرية التي أبدت شيئاً من المقاومة . »

« وسيقوم الجيش الالماني في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي بدخول بلاد التشيك من جميع أطرافها ، كما سيتولى السلاح الجوي الالماني احتلال المطارات التشيكية ، وهناك احتمالان . فقد يتطور دخول القوات الالمانية إلى معارك ، وفي مثل هذه الحالة ، ستسحق المقاومة بمنتهى القوة والقسوة ، وقد يقع دخول القوات الالمانية في شكل سلمي ، وسيكون من السهل في مثل هذه الحالة على الفوهرر أن يمنح لتشيكوسلوفاكيا شكلاً كريماً من اشكال الحياة الذاتية ، كبلد يتمتع بالاستقلال الذاتي ، كما سيتيح لها شكلاً معيناً من أشكال الحرية القومية .

« وهو لا يعمل كل هذا بدافع الكراهية ، بل بدافع الرغبة في حماية المانيا . ولو لم تستسلم تشيكوسلوفاكيا في الخريف الماضي ، لكان مصير الشعب التشيكي الابادة . ولم يكن في وسع أحد أن يحول بينه وبين ذلك . ولو تطور الامر إلى قتال .... لتحطم الجيش التشيكي في يومين ، وزال من الوجود . ومن الطبيعي أن يقتل عدد من الالمان في مثل هذه الحالة ، وسيولد ذلك كراهية ، ستجعله مضطراً نتيجة الرغبة في الحماية الذاتية إلى الضن بالاستقلال الذاتي على البلاد . ولن يكترث العالم مطلقاً بذلك . وهو يشعر بالعطف على الشعب التشيكي عندما يقرأ الصحف الاجنبية ، إذ ان ما يقرؤه ، يوحي له بالانطباع الذي يمكن تلخيصه بالمثل الالماني القائل ....

لقد قام المغربي بواجبه ... وأصبح في وسعه أن يمضي ... »

« وهذا هو السببالذي دعاه إلى استدعاء هاشا للمجيء .ولعل هـذه هي الفرصة الطيبة الاخيرة التي يستطيعمنحهـا إلى الشعب التشيكي ... ولعل فيزيارة هاشا ، ما يحول دون وقوع الاسوأ ...

« وهـا هي الساعات تمضي ... وفي الساعة السادسة ستزحف الجيوش داخلة إلى البلاد . وهو يخجـل من أن يكرر على مسامع الرئيس ان هناك فرقة المانية مقابل كل فوج تشيكي . وهو يود ان ينصح هاشا بأن يختلي مـع وزيره شفالكوفسكي لبحث مـا يمكن عمله » .

ولكن ترى ما الذي يجب ان يعمل ؟ لم يكن الرئيس العجوز المحطـم في حاجة إلى الانسحاب إلى الغرفة المجاورة لاتخـاذ قرار . وراح يقول لهتلر على التو واللحظة : « ان الوضع في غاية الوضوح .فالمقاومة امر في منتهى الجنون »، ولكن كيف يمكن له ، وقد تجاوزت الساعة الثانية صباحاً ان يرتب في غضون اربع ساعات فقط ، حمل الشعب التشيكي كافةعلى الامتناع عن تقديم المقاومة. وردالفوهرر ، بأنه يؤثر ان يستشير رفاقه . فالآ لة العسكرية الالمانية قد بدأت العمل ولا يمكن وقفها مطلقاً . وعـلى هاشا ان يتصل فوراً ببراغ . وروت السجلات الالمانية عن هتلر قوله ... « انه قرار خطير ، ولكنـه يرى امكان اشراقة عهد طويل من السلام بين الشعبين . أما إذا كان القرار من نوع آخر فهو لا يرى إلا احتمالاً واحداً ، وهو إبادة تشيكوسلوفاكياومحوهامن الوجود».

وراح يصرف ضيفيه بعد هذه الكلمات . كانت الساعة قد بلغت الثانيـة والربع ، وراح غورنـغ وريبنتروب في الغرفة المجاورة يواصلان الضغطعلى الضحيتين ، ويقول السفير الفرنسي في رسالة رسمية بعث بها إلى باريس واستند في محتوياتها التي وصف فيهـا الموقف الى مصدر يعتقد بصحته ، أن هاشا وشفالكوفسكي قد احتجا على هذا العمل المجحف الذي تتعرض اليه بلادهما . واعلنا انهما لا يستطيعان توقيع وثيقة الاستسلام . واكدا انهما إن فعلا ذلك ، فستحل اللعنة بهما من الشعب إلى الأبد . ... وواصل المسيو كولوندر الحديث

في رسالته قائلاً :

« وخلت روح الوزيرين الألمانيين (غورنــغ وريبنتروب) من كل رحمة أو شفقة . وواصلا الضغط على الدكتور هـــاشا والمسيو شفالكوفسكي ، اللذين يجلسان معهما إلى المائدة التي تقوم فوقهـــا الأوراق اللازمة دافعين إلى أيديهما بالاقلام ليوقعا بهـــا ، مكررين باستمرار ، انهما إذا واصلا الرفض ، فـــان أكثر من نصف براغ سيتعرض الى الهدم بالقنابل ، في غضون ساعتين ، وان هذا العمل سيكون مجرد البداية . فهناك المئــات من القاذفات تنتظر الأمر بالطيران وستتلقى هذا الأمر في السادسة صباحاً هذا إذا لم يوقعــا على الوثائق [1] » .

وسمع الدكتور شميدت في هذه اللحظة ، وهو الرجل الذي يبدو حــاضراً دائماً كلما وصلت مسرحية الرايــخ الثالث إلى الذروة ، غورنغ ، يصرخ منادياً الدكتور موريل ... « اسرع أيها الطبيب لقد اغمي على هاشا » .

وخشي وحوش النازية لحظة واحـــدة ان يموت الرئيس التشيكي العجوز بين ايديهم ، وان يقول العالم بأسره ، كما روى شميدت «في اليوم التالي ان الرجل قد قتل في دار المستشارية » ، وكان الدكتور موريل اخصائياً في استعمال«الإبر» وقد قدر له فيما بعد ان يشرف على قتل هتلر بها تدريجاً فيما بعد ، وسرعان مـــا غرز « إبرته » في الدكتور هاشا واعاده إلى الوعي ، وقد استعاد الرئيس حيويته تقريباً إلى الحد الذي مكنه من الأمساك بجهاز الهاتف الذي وضعه الألمان في يده ، ليتحدث منه إلى اعضاء حكومته في براغ ، على خط هاتفي خاص كان ريبنتروب قد أمر باعداده له . وقد نقل إلى الحكومة التشيكية كل مـــا وقع

---

١ ـــ اعترف غورنغ امام محكمة نورمبرغ ، انه قـــال للرئيس هاشا ... « سيحزنني كل الحزن ان اضطر لقصف براغ الجميلة بالقنابل » ، واكد انه لم يكن يعتزم حقـــاً تنفيذ الوعيـد موضحاً « ان هذا التنفيذ لم يكن امراً ضرورياً » . واضاف قائلا ... « ولكنني ظننت ان نقطة كهذه قد تصلح حجـــة للنقاش ، وقد تؤدي الى الاسراع وبعث الحيويـــة في الموضوع كله » . (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩) ص ٣٠٣ ـــ ٣٠٤) .

رونصحها بالاستسلام . وعاد اليه وعيه كاملاً بعد « إبرة » أُخرى من الدكتو موريل ، وراح رئيس الجمهورية التي اشرفت على الموت ، يخطو عائداً إلى حضرة ادولف هتلر ، ليوقع شهادة وفاة بلاده ، وكانت الساعةقد بلغت الثالثة والدقيقة الخامسة والاربعين من صباح الخامس عشر من آذار عام ١٩٣٩ .

ويروي شميدت أن هتلر نفسه هو الذي أعد نص هـذه الوثيقة ، وقد عمل المترجم الألماني أثناء الفترة التي اغمي فيها على هاشا في نسخ البلاغ الرسمي الذي كانقد أعد من قبل أيضاً ، والذي أرغم هاشا وشفالكوفسكي علىتوقيعه أيضاً. وهذا نصه :

برلين في ١٥ آذار ١٩٣٩

« استقبلالفوهرر اليوم في برلين كلاًمن الرئيسالتشيكوسلوفاكي الدكتور هاشا ووزير خارجيته الدكتور شفالكوفسكي بحضور فون ريبنتروب وزير الخارجية . وقد بحث في هـذا الاجتماع وفي منتهى الصراحة الأوضاع الخطيرة التي خلفتها أحداث الأسابيع الأخيرة في الأراضي التشيكوسلوفاكية الراهنة .

« وكان ثمة إجماع في هذا الإجتماع في الاعراب من الفريقين على أن الهدف من جميع المحاولاتيجب أن يكون ضمان الهدوء والنظام والسلام في هذا الجزء من اوروبا الوسطى . وقـد أعلن الرئيس التشيكوسلوفاكي ، أنه رغبة منه في خدمة هذا الهدف ، وللوصول إلى التهدئة المطلقة ، يضع مصير الشعب التشيكي والبلاد التشيكية في يدي فوهرر الرايخ الألماني،وقد قبل الفوهرر هذا الاعلان،وأعرب عن عزمه على وضع الشعب التشيكي في حماية الرايخ الألماني ، وفيأن يضمنله تطويراً ذاتياًلحياته العنصريةعلى النحو الذييتفقمع طبيعته».

وهكذا فقد وصل خداع هتلر في هذا البيان إلى ذروتـه . وتقول إحدى سكرتـيرات الفوهرر ، أن هتلر راح يركض بعد التوقيع إلى مكتبه ، حيث عانق كلمن في المكتبمن السكرتيرات، وهويهتف قائلاً: «أيتها الطفلات..إنه

أعظم أيام حياتي كلها! وسيسجل التاريخ أنني أعظم من أنجبته ألمانيا من الرجال».

ولم يدر في خلده، كيف يمكن للتاريخ أن يسجل ذلك، ولم يخطر في باله آنذاك أن نهاية تشيكوسلوفاكيا قد تكون بداية النهاية بالنسبة إلى ألمانيا فمنذ فجر الخامس عشر من آذار عام ١٩٣٩ - أو منذ منتصف آذار على حد تعبير شكسبير - انفتحت كما نعرف الآن الطريق فسيحة إلى الحرب وإلى الهزيمة وإلى الكارثة. ولم يحدس نفسه بأن هذه الطريق قد تكون قصيرة، وقد تكون مستقيمة كخط مستقيم، وأنه - أي هتلر. وقد بدأ في السير عليها كالاسكندر ونابوليون من قبل، قد لا يستطيع الوقوف مطلقاً. [١]

* * *

وراحت القوات الألمانية تتدفق على بوهيميا ومورافيا في الساعة السادسة من صباح الخامس عشر من آذار. ولم تلق هذه القوات أية مقاومة، واستطاع هتلر عند هبوط المساء، أن يحقق الدخول إلى براغ دخول الظافرين وهو ما اعتقد بأن تشمبرلين قد حرمه منه في ميونيخ. وقد أصدر قبل مغادرته برلين بياناً يملؤه الغرور إلى الشعب الألماني، مكرراً فيه أكاذيبه المملة عن «أعمال التطرف الوحشية وعن الارهاب» «الذي وجد نفسه مضطراً لوضع حد له، ومعلناً في الوقت نفسه بأن «تشيكوسلوفاكيا قد زالت من الوجود».

وقضى هتلر تلك الليلة في قلعة هرادشين المقر العريق لملوك بوهيميا الأقدمين، والقائمة فوق نهر مولداو، حيث كان مازاريك وبنيش، اللذان كرههما أشد الكراهية، قد عاشا قبل قليل، وعملا لإقامة أول حكم ديمقراطي عرفته اوروبا الوسطى. وتم للفوهرر ما أراده من الانتقام، وكان هذا الانتقام عذباً، وقد ظهر بوضوح في السلسلة المتلاحقة من النداءات التي أصدرها. وهكذا تخلص من كل ما كان يتسلط عليه من أحقاد محرقة ضد التشيكيين، وهي الأحقاد التي أرقت عليه حياته كنمسوي في أيام تشرده في فيينا قبل ثلاثة أحقاب من العمر،

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ٢٦٣ - ٢٦٩، المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٤٣٣ - ٤٤٠. كتاب ترجمان هتلر ص ١٢٣ - ١٢٦. الكتاب الفرنسي الاصفر ص ٩٦. زولر - حياة هتلر الخاصة ص ٨٤.

والتي عادت إلى الإشتعال من جديد عندما جرؤ بنيش على معـارضة الديكتاتور الألماني الجبار طيلة السنة الماضية كلها .

وأعلن هتلر في اليوم التالي من قلعة هرادشين الحماية عـلى بوهيميا ومورافيا وهي الحماية التي جاءت إلى التشيكيين عـلى الرغم من وعدها لهم « بالاستقلال والحكم الذاتي » ، بالعبودية المطلقة للنير الألماني ، طبقاً لما جاء في تعبيرها من نص . فلقد تضمن الاعلان إضفاء السلطان كله عـلى « حامي البلاد » المعيّن من الرايخ وعلى وزير دولته ورئيس الادارة المدنية عنده ، وكلهم يعينهم الفوهرر . وأخرج هتلر نوراث « المعتدل » من جيبه رغبة منه في تهدئة الرأي العـام في بريطانيا وفرنسا وعيّنه حامياً [١] . واتيحت الآن للزعيمين السوديتين البارزين كونراد هينلاين وقاطع الطرق كارل هيرمان فرانك ، الفرصة للإنتقام من التشكيين ، إذ عين أولهما رئيساً للإدارة المدنية والثاني وزيراً للدولة ، ولم يمض طويل وقت حتى كان هملر بوصفه رئيساً للشرطة الألمانية يفرض سيطرته عـلى المحميّة . وقرر تسهيلاً لأعماله أن يعـيّن فرانك المشهور بشروره رئيساً للشرطة في المحميّة وقائداً للحرس النازي [٢] . وأعلن هتلر في بيانه إلى الشعب التشيكي قائلاً :

« لقد كانت مقاطعتا بوهيميا ومورافيا منذ اكثر من الف عام وما زالتا تؤلفان جزءاً من المجال الحيوي للشعب الألماني . ... ولقد اظهرت تشيكوسلوفاكيا عجزها الفطري الموروث عن الحيـاة ،

---

١ ــ اعلن نوراث في محاكمات نورمبرغ انه فوجىء مفاجأة تامة بقرار هتلر تعيينه حامياً لبوهيميا ومورافيا وإن الظنون قد ساورته وتردد في قبول المنصب . لكنه قبل التعيين على كل حال عندما اوضح له هتلر انه بتعيينه رغب في بعث الطمأنينة عند بريطانيا وفرنسا وانه لا يرغب في تنفيذ سياسة معادية لتشيكوسلوفاكيا . (محاكمات كبار مجرمي الحرب ص ٦٥٤ ــ ٦٥٥) .

٢ ــ قد يكون المفيد هنا ، ان نتخطى السرد التاريخي في هذه القصة ، وان نرى ما حدث لبعض الشخصيات في هذه المسرحية التي شاهدناها . فلقد حكمت محكمة تشيكية بعد الحرب على فرانك ، وشنق بصورة علنية على مقربة من براغ في الثاني والعشرين من ايار عام ١٩٤٦ وانتحر هينلاين بعد ان اعتقلته قوات المقاومة التشيكية في عام ١٩٤٥ . وقتل شفالكوفسكي الذي اصبح ممثلاً للمحمية في برلين إبان غارة جوية قام بهـا الحلفاء على العاصمـة في عام ١٩٤٤ . واعتقل التشيكيون هاشا في الرابع عشر من ايار عام ١٩٤٥ ، ولكنه مات قبل ان يحاكم .

ولذا فقد هوت الآن فريسة حقيقية للتفسخ العملي . وليس في وسع الرايخ الالماني ان يتسامح باستمرار الاضطرابات في هذه المناطق . ... والرايخ الالماني ، رغبة منه في الحفاظ على قانون الحماية الذاتية ، مصمم الآن على التدخل بصورة حاسمة لإعادة بناء الاسس لقيام نظام معقول في أوروبا الوسطى ، ولقد اثبت الرايخ في اكثر من الف عام ، بفضل عظمته وبفضل مزايا الشعب الألماني ، انه الوحيد الذي توحي له رسالته بالقيام بهذا العمل » .

وجثم ليل طويل من الوحشية الألمانية الآن على مدينة براغ واراضي التشيكيين .

وتولى هتلر في السادس عشر من آذار أيضاً حماية سلوفاكيا كرماً منه وسخاء وتلبية « لبرقية » ، تم وضعها كما رأينا بالفعل في المانيا ، وبعث بها رئيس الوزراء تيزو . وسرعان ما دخلت القوات الالمانية إلى سلوفاكيا لتولي « الحماية » . ومضى هتلر في الثامن عشر من آذار إلى فيينا حيث تولى الموافقة على معاهدة الحماية « التي وقعت نهائياً وبصورة رسمية في برلين في الثالث والعشرين باشتراك ريبنتروب وتوكا ، وقد تضمنت هذه المعاهدة ملحقاً سرياً يعطي لألمانيا الحقوق الكاملة في استقلال الإقتصاد السلوفاكي . [١]

ولم يستمر استقلال روثينيا التي تؤلف الطرف الشرقي من تشيكوسلوفاكيا والتي أعلنت جمهورية « اوكرانيا الكاراباتيه » في الرابع عشر من ايار اكثر من اربع وعشرين ساعة فلقد ذهب استصراخها لهتلر طلباً لحمايته ادراج الرياح ، إذ أن الفوهرر كان قد وعد المجر بها من قبل . وقد عثر في وثائق وزارة الخارجية الالمانية المصادرة على رسالة طريفة بخط يد ميكلوس هورتي الوصي على عرش المجر ، موجهة إلى أدولف هتلر هذا نصها :

« يا صاحب السعادة ... الشكر العميق لك ... . لن استطيع ان أصف لك ما أحس به من سعادة ، من قرار تسليمك هذه

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٤٢ ـ ٤٥ .

المنطقة روثينيا ، ذات مساقط المياه إلى المجر ، التي تعتبرها – وانا لا أود المبالغة مطلقاً – قضية حيوية .... وها نحن نعالج القضية بكثير من الحماس . وقد تم وضع الخطط اللازمة . ففي يوم الخميس السادس عشر من آذار ، ستقع على الحدود مشكلة ، سرعان ما يتبعها يوم السبت الزحف الكبير [١] » .

ولكن التطورات التالية ، لم تترك سبيلاً لوقوع « حادث » على الحدود . ففي السادس من صباح الخامس عشر من آذار زحفت القوات المجرية على روثينيا موقتة دخولها بدخول الالمان من الغرب ، وقامت المجر في اليوم التالي بضمها كلها إليها ضماً رسمياً .

وهكذا ففي ذلك اليوم الخامس عشر من آذار ، الذي بدأ في برلين ، في الساعة الواحدة والربع ، عندما وصل هاشا إلى دار المستشارية ، توقفت تشيكوسلوفاكيا عن الوجود كما قال هتلر .

* * *

ولم تقم بريطانيا او فرنسا بأية حركة لانقاذ تشيكوسلوفاكيا وان كانتا قد تعهدتا في ميونيخ تعهداً مقدساً بحمايتها من كل عدوان .

ولم يكن هتلر الوحيد الذي توصل بعد اجتماع ميونيخ الى الاستنتاج القائل بأن البريطانيين قد أصبحوا ضعفاء للغاية ، وان رئيس وزرائهم وهو على هذا النحو من التساهل قد وضعهم في موضع الذي لا يؤبه به مطلقاً ، بل كان موسوليني مشتركاً معه في هذا الرأي. وسافر تشمبرلين يرافقه اللورد هاليفاكس في الحادي عشر من كانون الثاني عام ١٩٣٩ إلى رومه باحثاً عن تحسين علاقات بريطانيا مع ايطاليا . وحدث أن كان مؤلف الكتاب في رومه عندما وصل السيدان إليها ودوّن في يومياته أن « بسمة متكلفة ساخرة » بدت على وجه موسوليني عندما حيّا ضيفيه . ورحت أقول في يوميتي ... « وعندما مر بي موسوليني ، إذ اتجه الجمع مغادراً المحطة ... رأيته يمازح صهره شيانو ، وهو يتفوّه بعبارات ساخرة » [٢] ولم يكن في وسعي أن أسمع آنذاك ما كان يقوله

١ – وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ص ٢٤١ .

٢ – يوميات برلين . ص ١٥٦ .

لصهره ، ولكن شيانو كشف في يومياته فيما بعد عن حقيقة ما دار :

فقد كتب شيانو في الحادي عشر والثاني عشر منه يقول :

« وصل تشمبرلين ... ما أبعدنا عن هؤلاء الناس . انهم من عالم آخر . ولقد كنا نتحدث عنهم مع الدوتشي بعد العشاء .... وراح يقول ... « ان هؤلاء الناس ليسوا من طينتنا ... كما أنهم ليسوا من نفس جبلة فرنسيس دريك وغيره من عظماء المغامرين الذين خلقوا الأمبراطورية . انهم على أي حال الأبناء المنهكون لسلسلة طويلة من الاغنياء ، ولا ريب في أنهم سيفقدون أمبراطوريتهم » .

« إن البريطانيين لا يريدون أن يقاتلوا . وهم يحاولون أن يؤخروا ما أمكن تراجعهم وانسحابهم ... وقد انتهت محادثاتنا مع البريطانيين ولم نستطع الوصول إلى شيء من ذلك . وقد هتفت لريبنتروب أقول له أن الزيارة كانت مجرد سخرية ومجون .

« ورافقت الدوتشي إلى المحطة عندما سافر تشمبرلين ... كانت عينا الرئيس البريطاني مغرورقتين بالدموع ، عندما شرع القطار في التحرك ... وبدأ مواطنوه ينشدون ... « حقاً إنه لانسان طيب ودليع » ... وسمعت الدوتشي يسأل ، ترى ما هذه الأغنية الحقيرة ؟ » [1] .

وعلى الرغم من ان هتلر كان ابان أزمة السوديت شديد الاهتمام بآراء تشمبرلين ، فليس ثمة كلمة واحدة في الوثائق الألمانية المصادرة تشير إلى أنه أخذ في الآونة الأخيرة ، يهتم قيد إنملة بما يفكر به رئيس الوزراء البريطاني ، في موضوع تدمير ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا على الرغم من الضمانة البريطانية ، وعلى الرغم من اتفاق ميونيخ ، وفي الرابع عشر من آذار ، وعندما كان هتلر ينتظر في برلين إذلال هاشا ، وبينما كانت الأسئلة تنهال في مجلس العموم البريطاني عن قيام المانيا بطبخ استقلال سلوفاكيا ، وتأثير ذلك على الضمانة التي

---

١ ــ مذكرات شيانو ص ٩ ــ ١٢ .

قدمتها بريطانيا الى براغ ضد العدوان ، ردّ تشمبرلين قائلاً : « إن عدواناً من هذا النوع لم يقع » .

ولكن العدوان وقع في اليوم التالي أي في الخامس عشر من آذار ، واستخدم المستر تشمبرلين اعلان « استقلال » سلوفاكيا ذريعة ، لعدول بلاده عن الوفاء بتعهداتها . وراح يوضح قائلاً : « ان تأثير هذا الإعلان ، هو وضع حد نهائي عن طريق التفسخ الداخلي لدولة كنا قد اقترحنا ضمان حدودها . ولا تستطيع حكومة جلالته ان تعتبر نفسها والحالة هذه مرتبطة بهذا الالتزام » .

وهكذا وصلت تخطيطات هتلر الاستراتيجية حدود الكمال ، اذ اتاح لتشمبرلين المجال للخلاص من الورطة ، وقد استغل رئيس الوزراء هذه الفرصة .

ولعل ما يلفت النظر ان رئيس الوزراء لم يرغب ايضاً في اتهام هتلر ، بعدم الوفاء لالتزاماته ، فقد قال : « وكثيراً ما سمعت الاتهامات توجه عن النكث بالعهود ، وبدا لي أن هذه الاتهامات لم تكن تقوم قط على أُسس معقولة كافية ، مما يجعلني اليوم عزوفاً عن الرغبة في الارتباط باتهامات من هذا النوع ». وهكذا لم يوجه أية كلمة من كلمات التأنيب الى الفوهرر ، حتى ولا في موضوع معاملته لهاشا ، أو الخديعة القذرة التي بدا على الرغم من عدم معرفة تفاصيلها في ذلك الحين انها قد وقعت في دار مستشارية الرايخ في الساعات المبكرة من صباح ذلك اليوم الخامس عشر من آذار .

ولم يكن من المستغرب والحالة هذه ، ان يكون الاحتجاج البريطاني ، اذا استطعنا ان نسمّيه احتجاجاً ، فاتراً كل الفتور ، وان يعامله الألمان ، كما عاملوا جميع الشكاوى البريطانية والفرنسية اللاحقة ، معاملة تنطوي على الزراية والغرور [١]. وقد جاء في هذا الاحتجاج ما يلي :

« لا تود حكومة جلالته ان تتدخل تدخلاً لا ضرورة له ، في قضية تكون الحكومات الاخرى ، معنيّة بها بصورة اكثر

---

١ ـ قال المستر تشمبرلين في السادس عشر من آذار لمجلس العموم ، ان حكومته لم تكن قد قدمت بعد أي احتجاج الى الحكومة الألمانية .

مباشرة .... ولكن حكومة جلالته ، معنيّة كل العناية ، كما تدرك الحكومـــة الألمانية ولا شك ، بنجاح جميـع الجهود التي تبذل ، لاعادة الثقة ، وانقضاء التوتر في جميع انحاء اوروبا . وهي تستنكر ولا شك كل عمل يقع في اوروبا الوسطى ، ويؤدي الى نكسة في نمو الثقة العامة .... »[1] .

وهكذا لم تشر هذه المذكرة التي قدمهـــا في الخامس عشر من آذار السفير هندرسون الى ريبنتروب كرسالة رسمية من اللورد هاليفاكس ، الى الاحـــداث المحددة التي وقعت في ذلك النهار

وكان الفرنسيون أكثر تحديداً على أي حال . ولم يكن روبرت–كولوندر ، السفير الفرنسي الجديد في برلين ، ليشترك مع زميله البريطاني في اوهـــامه عن النازية ، ولا في ازدرائه للتشيكيين . وراح يطلب في صباح الخـــامس عشر من آذار مقابلة ريبنتروب ، ولكن الوزير الألماني المغرور ، والذي يتقن الدفاع عن نفسه ، كان في طريقه إلى براغ ليشترك مع هتلر في إذلال شعب مهزوم . وقام الفون وايز ساكر باستقبال السفير الفرنسي بدلاً منه عند الظهيرة . ولم يتوان السفير عن قول ما تقاعس عن الافضاء به كل من تشمبرلين وهندرسون ، وعـن التأكيد بأن المانيا قد خالفت بتدخلها العسكري في بوهيميا ومورافيا كلاً من اتفـــاق ميونيخ والبيان الألماني – الفرنسي المشترك والصادر في السادس من كانون الاول. ولكن البارون فون وايزساكر ، الذي زعم فيما بعد ، وأصر على زعمـه ، بأنه كان من اشد خصوم النازية طيلة الوقت ، كان في تلك المقابلة كثـير الاستفزاز والعنجهية بحيث تتضاءل امام موقفه ، مواقف ريبنتروب السابقة . ويروي هو عن هذه المقابلة ما نصه :

« ورحت اتحدث بحـــدة الى السفير واطلب اليه ان لا يذكر اتفاق ميونيخ ، الذي زعم أننا خالفناه ، وأن لا يتكرّم علينـــا بمحاضراته البليغة ... وقلت له أنه بالنسبة إلى الاتفـــاق الذي تم

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ص ٢٧٤ – ٢٧٥ .

الوصول اليه في الليلة الماضية مع الحكومة التشيكية لا أستطيع أن أرى مبرراً لأي احتجاج من جانبه ... وإنني واثق من أنه سيجد تعليمات جديدة في انتظاره عند عودته إلى سفارته ، وأن هذه التعليمات كافية لتهدئة ثائرته ... » [1]

وفي الثامن عشر من آذار ، أي بعد ثلاثة ايام قدمت الحكومتان البريطانية والفرنسية إحتجاجين رسميين إلى الرايخ بعد أن أولتا الرأي العام الساخط في بلاديهما ، بعض العناية واستجابتا أخيراً لضغطه . وبزّ وايز ساكر رئيسه ريبنتروب في الغطرسة والكبرياء ، وذلك طبقاً لما ورد على لسانه من اعتراف . فقد روى في مذكرة عثر عليها في سجلات وزارة الخارجية الألمانية ، بشيء من الاشراق واللمعان كيف أنه رفض حتى مجرد تسلم الوثيقة الاحتجاجية الرسمية التي قدمها السفير الفرنسي ... وقال :

« وسرعان ما اعدت المذكرة إلى غلافها ، وقذفت به إلى السفير ملاحظاً ، إنني أرفض رفضاً باتاً أن أتسلمنه أي احتجاج في الموضوع التشيكوسلوفاكي. وأضفت أنني أرفض كذلك أن آخذ علماً بالمذكرة ، وإنني اؤثر أن أنصح المسيو كولوندر بحث حكومته على إعادة النظر في المسوّدة ... » [2]

وكان كولوندر يختلف عن هندرسون في هذه الفترة ، في انه لم يكن من المبعوثين الدبلوماسيين الذين يستطيع الألمان أن يؤنبوهم وينتهروهم ، فعاد يؤكد ان حكومته قد وضعت مذكرتها بعد دراسة وافية ، واكد انه لا يعتزم مطلقاً أن يطلب اليها إعادة النظر فيها. وعندما واصل وزير الدولة رفض قبول الوثيقة أخذ السفير يذكره بالعرف الدبلوماسي ، ويصر على أن من حق فرنسا المطلق أن تعلن عن وجهة نظرها الى الحكومة الألمانية . وأخيراً يروي وايز ساكر في وثيقته انه ترك المذكرة على مكتبه ، موضحاً انه سيعتبرها وكأنها قد وصلت

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ص ٢٠ ـ ٢١ .
٢ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٢٠ ـ ٢١ .

اليه « عن طريق البريد » . ولكنه قبل التوصل الى هذه الايماءة التي تنطوي على الحمق ، راح يعلن كل ما يطوف في رأسه ..

« فهناك من الناحية القانونية اعلان مشترك صادر عن الفوهرر وعن رئيس الدولة التشيكوسلوفاكية . ولقد جاء الرئيس التشيكي بطلب منه الى برلين ، واعلن على الفور ، بأنه يود أن يضع مصير بلاده في يدي الفوهرر . وقلت للسفير انني لا استطيع ان اتصور الحكومة الفرنسية ملكية اكثر من الملك نفسه أو كاثوليكية أكثر من البابا ، وانها تعتزم التدخل في أمور قد تمت تسويتها مباشرة بين برلين وبراغ [1] »

وسلك وايز ساكر سلوكاً مغايراً مع السفير البريطاني المتساهل ، الذي نقل احتجاج حكومته في ساعة متأخرة من بعد ظهر الثامن عشر من آذار . وقد ذكرت بريطانيا في مذكرتها انها لا تستطيع إلا ان تعتبر احداث الايام الاخيرة، خرقاً فاضحاً وكاملاً لاتفاق ميونيخ ، وان « الاعمال العسكرية الألمانية خالية من كل اساس من اسس الشرعية » . وقد ذكر وايز ساكر في تسجيله ذلك الاجتماع، ان «المذكرة البريطانية لم تمض بعيداً في هذا الميدان الى الحد الذي وصلت اليه مذكرة الاحتجاج الفرنسية التي قالت ان فرنسا لن تعترف «بشرعية الاحتلال الألماني» .

وقد مضى هندرسون لمقابلة وايز ساكر . في السابع عشر من آذار ، لابلاغه نبأ استدعائه الى لندن لاجراء « مشاورات » معه ، ويقول وزير الدولة الألماني، ان السفير جاء يجسّ نبضه « بحثاً عن حجج يستطيع ان يقدمها الى تشمبرلين ليستخدمها هذا للرد على خصومه السياسيين .... وقد اوضح هندرسون ان ليس لبريطانيا مصلحة مباشرة في الارض التشيكوسلوفاكية » . واضاف ان

---

١ ــ تضمن الكتاب الفرنسي الاصفر رواية كولوندر عن المقابلة (الطبعة الفرنسية رقم ٧٨ ص ١٠٢ و ١٠٣) . وقد اكد الكتاب رواية وايز ساكر . وقد ادعى وايز ساكر فيما بعد ابان محاكمته في نورمبرغ ، انه غالى في اظهار عواطفه المشايعة للنازية ليخفي حقيقة نشاطه المناوىء للنازية . ولكن رواية كولوندر ، تقيم دليلا آخر على ان وايز ساكر كان مؤيداً حقاً للنازية . .

مما يحس به من قلق يتناول شؤون المستقبل[١].

ويبدو ان قيام هتلر بتدمير تشيكوسلوفاكيا لم يحمل السفير البريطاني على ادراك طبيعة الحكومة التي يتولى تمثيل بلاده فيها، كما يبدو انه لم يكن على احساس بما يقع للحكومة التي يمثلها هو في ذلك اليوم.

فلقد شعر نيفيل تشمبرلين فجأة وبصورة غير متوقعة في السابع عشر من آذار، أي بعد يومين من قيام هتلر بازالة تشيكوسلوفاكيا من الوجود، بتيقظة ذاتية تهزه هزاً عنيفاً. ولم تكن هذه الهزة دون شيء من الحث العنيف. فلقد ادهشه ان يرى معظم الصحف البريطانية، وبينها التايمز اللندنية، باستثناء الديلي ميل، ومعظم اعضاء مجلس العموم البريطاني، يتجاوبون تجاوباً عنيفاً مع العدوان الاخير الذي قام به هتلر. وقد ثار، وهنا يكمن موضع الخطر، معظم نواب حزبه، واكثر من نصف اعضاء وزارته، على القيام بأية محاولة جديدة لترضية هتلر. وابلغ السفير الألماني برلين بأن اللورد هاليفاكس قد اصرّ على ان يعترف رئيس الوزراء بما وقع، وان يبدل موقفه بصورة مفاجئة[٢]. واتضح لتشمبرلين ان موقفه الشخصي كرئيس للحكومة وكزعيم لحزب المحافظين قد اصبح معرضاً للخطر....

وقد جاءه التبدل الجذري في تفكيره بصورة مفاجئة. وألقى السير جون سيمون بالنيابة عن الحكومة ليلة السادس عشر من آذار، خطاباً في مجلس العموم، يحمل طابع الشر بالنسبة إلى التشيكيين، كما يحمل طابع « روح ميونيخ »، مما أثار المجلس على حد تعبير روايات الصحف إلى حد « الغضب بشكل لم يعهد له مثيل من قبل ». وكان من المقرر ان يلقي تشمبرلين خطاباً في مدينة بيرمنغهام مسقط رأسه في اليوم التالي بمناسبة عيد ميلاده السبعين. وكان قد أعد مسودة خطاب عن القضايا الداخلية مع التأكيد تأكيداً خاصاً على الخدمات الاجتماعية. واتخذ تشمبرلين أخيراً قراره النهائي وهو يستقل

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية ص ١٦ ـ ١٧.

٢ ـ تقارير ديركسين ـ ١٨ آذار ص ٤٣ في هوامش ...

قطار المساء المسافر إلى برمنغهام ، وفقاً لرواية سمعها مؤلف هــذا الكتاب من المصادر الدبلوماتية الفرنسية . وسرعان ما عدل عن خطابــه الذي أعده في السابق ، وراح يضع نقاطاً سريعة لخطاب من طراز مختلف .

وأخذ تشمبرلين يعتذر في خطابه الذي اذيع ، إلى الشعب البريطــاني والى معظم أنحاء العالم ، من « البيان الذي يتصف بالحذر وضبط النفس ... والفتور والموضوعية » الذي وجد نفسه مضطراً إلى إلقائــه قبل يومين اثنين . واضاف قائلاً ... « واني لآمل في أن اصحح ما ورد في ذلك الخطاب في هذه الليلة » .

وقد ادرك رئيس الوزراء في النهاية أن ادولف هتلر ، قد خدعــه . وراح يلخص تأكيدات الفوهرر المختلفة بأن بلاد السوديت هي آخر مطالب أقليمية له في أوروبا ، وانه « لا يريد في بلاده أياً من التشيكيين » . « وها إن هتلر يتراجع عن هذه التأكيدات الآن ، « وها هو يلجأ إلى فرض القانون بيديه » . ثم راح يقول :

« وها هم يقولون لنا الآن أن اغتصاب الاراضي قــد حتمته ضرورة الاضطرابات التي وقعت في تشيكوسلوفاكيا ... ولكن إذا كانت هناك اضطرابات ، أو لم تكن هذه الاضطرابات وليــدة تدبير خارجي ؟ ... وهل هذه هي نهاية مغامرة قديمــة ، أو بــداية مغامرة جديدة ؟ وهل هذا هو الهجوم الأخير عــلى دولة صغيرة ، أو انه ستتلوه هجمات جديدة أخرى ؟ وهل يعتبر هذا الهجوم في حكم الواقع خطوة في طريق المحاولة التي تستهدف السيطرة على العالم بالقوة ؟ وبينا لا أجد نفسي على استعداد لربط هذه البلاد بالتزامات جديدة وغير محدودة تعمل عملهــا في ظل أوضاع لا تمكن رؤيتها الآن ، ولكن لا يمكن ارتــكاب خطيئــة أكبر من الإفتراض بأن هذه البلاد بالنظر الى ايمانها بأن الحرب شيء فظيع وجنوني ، قد فقدت ما فيها من قوة ، وانها لن تشترك إلى اقصى ما لديها من طاقات في مقاومة مثل هذا التحدي فيا إذا وقع » .

وكان هذا التحول مفاجئاً وقدرياً بالنسبة الى بريطانيا والى تشمبرلين نفسه. وقد تلقى هتلر مثل هذا الانذار في اليوم التالي على التو ، عن طريق السفير الألماني الجبار في لندن . فقد بعث هيربرت فون ديركسين الى وزارة الخارجية في تقرير بعث به في الثامن عشر من آذار يقول : « قد يكون من الخطأ ، التعلق بأية آمال كاذبة ، بأن تبدلاً جوهرياً لم يقع في موقف بريطانيا من المانيا[1] » .

وكان من الواضح لكل إنسان قرأ كتاب « كفاحي » وألقى بنظره على خريطة اوروبا، ورأى الأوضاع الجديدة التي اتخذها الجيش الألماني في سلوفاكيا، وأحس ببعض الحركات الدبلوماتية الألمانية التي وقعت منذ أيام ميونيخ ، أو فكر بالأساليب التي اتبعها هتلر في فتوحاته الخالية من سفك الدماء في النمسا وتشيكوسلوفاكيا في الاثني عشر شهراً الماضية ، أن يساءل نفسه ترى أية دولة صغيرة تقع الآن في قائمة الفوهرر ؟ وقد عرف تشمبرلين كأي إنسان آخر هذه الحقيقة تمام المعرفة .

وأعلن رئيس الوزراء في مجلس العموم في الواحد والثلاثين من آذار ، أي بعد ستة عشر يوماً من دخول هتلر الى براغ قائلاً :

« وفي حالة وقوع أي حادث يهدد بوضوح استقلال بولندة ، وتعتبره الحكومة البولندية من الأمور التي تستدعي المقاومة ، باستخدام القوات العسكرية ، فإن حكومة جلالته سترى نفسها مضطرة الى المبادرة لتقديم كل عون في طاقتها إلى الحكومة البولندية . وقد قدّمت الحكومة البريطانية إلى الحكومة البولندية التأكيد اللازم في هذا الصدد . وفي وسعي أن أضيف بأن الحكومة الفرنسية قد اكدت لي أنها تقف عين الموقف الذي نقفه في هذه القضية » .

وقد حان دور بولندة فعلاً .

---

١ ـ تقارير ديركسين ـ ص ٣٩ .

١٤

دور بولندة

كان ريبنتروب في الرابع والعشرين من تشرين الاول عام ١٩٣٨ ، أي بعد أقل من شهر واحد من مؤتمر ميونيخ ، ضيف الشرف في مأدبة غداء أقامها جوزيف ليبكي ، السفير البولندي في برلين ، واستمرت اكثر من ثلاث ساعات في الفندق الكبير في برختسغادن . وكانت بولندة قد تآمرت مع المانيا ، واغتصبت شطراً من الأرض التشيكية . ودار حديث طويل إبان الغداء في جو وصفته مذكرة عثر عليها في وزارة الخارجية الالمانية « في منتهى الود » .[1]

ومع ذلك ، لم يضع وزير خارجية المانيا وقتاً في المباشرة بالعمل . وذكر للسفير البولندي ، أن الوقت قد حان للوصول إلى تسوية عامة بين المانيا وبولندة. ومضى يقول ان من الضروري قبل كل شيء ، « التحدث إلى بولندة بصدد دانزيغ التي يجب أن تعود إلى المانيا » . وقال ريبنتروب أيضاً أن الرايخ راغب في بناء طريق بري واسع، وطريق حديدي مزدوج عبر الرواق البولندي لايجاد اتصال بين المانيا ودانزيغ وبروسيا الشرقية . وهو يود أن تتمتع الطريقان بالامتيازات الخاصة بالممتلكات التي تقع خارج الحدود . وأنهى الوزير الألماني حديثه معلناً رغبة هتلر في أن تنضم بولندة إلى ميثاق مكافحة الشيوعية المناوىء

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٠٤ ـ ١٠٧ . كماالكتاب البولندي الابيض رقم ٤٤ المدرج في « المؤامرة النازية والعدوان (٨) ص ٤٨٣ .

لروسيا . وتتعهد المانيا مقابل هذه الامتيازات بتمديد أجل المعاهدة الألمانية — البولندية من عشر سنوات إلى عشرين ، وبضمان حدود بولندة .

وأكد ريبنتروب أنه يعالج مع السفير هذه المشاكل « في منتهى التكتم والسرية »،واقترح أن يقوم السفير بتقديم تقريره عن الحديث إلى وزير خارجيته بيك ، شفوياً ، « مخافة تسرب الأنباء ولا سيما إلى الصحافة » . ووعد ليبسكي بنقل الحديث إلى وارشو . ولكنه حذر ريبنتروب من أنه لا يرى هناك إمكاناً بصورة شخصية في الاستجابة الى طلب استعادة دانزيغ . وذكّر الوزير الألماني ايضاً بحادثتين وقعتا مؤخراً ، في الخامس من تشرين الثاني عام ١٩٣٧ والرابع عشر من كانون الثاني عام ١٩٣٨ ، عندما أكد هتلر شخصياً للبولنديين انه لن يؤيد أي تبدل في وضع دانزيغ [١] ورد ريبنتروب بأنه لا يود الاجابة في الوقت الحاضر ، ولكنه ينصح البولنديين « بالتفكير في الموضوع » .

ولم تكن حكومة بولندة في حاجة الى وقت طويل لاستجماع افكارها . ففي الواحد والثلاثين من تشرين الأول ، أي بعد اسبوع واحد ، بعث وزير الخارجية البولندية بيك ، بتعليماته المفصلة الى سفيره في برلين ، موضحاً له الطريقة التي يجب عليه اتباعها للرد على الألمان . ولكن السفير لم يستطع أن يحظى بمقابلة ريبنتروب إلا في التاسع عشر من تشرين الثاني ، مما يشير إلى ان الألمان قد ارادوا اعطاء البولنديين مجالاً طويلاً للتفكير قبل ردهم . وكان هذا الرد سلبياً . واعلنت بولندة عن رغبتها في التفاهم ، وعن استعدادها للاستعاضة عن ضمانة عصبة الأمم لدانزيغ باتفاق الماني— بولندي يحدد وضع المدينة الحرّة .

وكتب بيك في المذكرة التي تلاها ليبسكي على مسامع ريبنتروب يقول :

« ولا ريب في أن كل حل آخر ، ولا سيما كل محاولة ، لدمج المدينة الحرة في حدود الرايخ يجب أن تؤدي إلى نزاع مسلح » . وأضاف أن الماريشال بلسوسكي ديكتاتور بولندة الراحل ، قد أوضح للألمان في عام ١٩٢٤ وإبان المفاوضات لعقد ميثاق عدم إعتداء بأن قضية « دانزيغ تعتبر قاعدة واضحة لتقدير حقيقة

١ — وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٢٦ — ٢٧ .

نوايا المانيا تجاه بولندة » .

ولم يرق مثل هذا الرد بالطبع إلى ذوق ريبنتروب . « فأعرب عن أسفه للموقف الذي اتخذه بيك » ونصح البولنديين « بأن مما يستحق العناء أن يولوا الاقتراحات الألمانية ما تستحقه من عناية بالدرس العميق والجدي »[1] .

وكان رد هتلر على رفض بولندة اكثر صرامة وقسوة . ففي الرابع والعشرين من تشرين الثاني أي بعد خمسة ايام من الاجتماع بين ريبنتروب وليبسكي ، أصدر توجيهاً آخر الى قادة قواته المسلحة هذا نصه :

سري للغاية

يأمر الفوهرر بما يلي : بالاضافة الى الاحتمالات الثلاثة المذكورة في التعليمات الصادرة في ٢١ / ١٠ / ٣٨[2]، يجب اتخاذ الاستعدادات اللازمة لتمكين قوات الرايخ من احتلال دانزيغ الحرة بطريق المباغتة .

« ومن الواجب أن تتم جميع الاستعدادات على الأساس التالي وهو الاشتراط بأن يتم احتلال دانزيغ بطريقة شبه ـ ثورية ، مع استغلال الأوضاع السياسية المواتية دون الاشتباك في حرب مع بولندة .

ومن الواجب أيضاً أن لا تستخدم القوات التي ستعمل لهذا الهدف في الوقت نفسه لاحتلال أرض ميميل ، بحيث يكون في في الامكان تحقيق العمليتين الحربيتين في وقت واحد . وسيعزز الاسطول هجوم الجيش بالغارة من البحر . ومن الواجب تقديم

١ ـ الكتاب البولندي الابيض رقم ٤٥ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٤٨٤ ـ ٤٨٦ ووثائق وزارة الخارجية الالمانية (٥) ص ١٢٧ ـ ١٢٩ .

٢ ـ كانت الاحتمالات الثلاث تصفية ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا واحتلال ميميل وحماية حدود الرايخ .

الخطط التي تعدها فروع القوات المسلحة قبـــل العاشر من كانون الثاني عام ١٩٣٩ » .

وعلى الرغم من أن بيك كان قد أنذر بأن اية محاولة من جانب المانيا لاحتلال دانزيغ ستؤدي بصورة « حتمية » الى الصراع ، إلا ان هتلر أقنع نفسه الآن بأن في الامكان اتمام هذا الاحتلال دون اللجوء الى الحرب . فالنازيون المحليون هم الذين يسيطرون على دانزيغ ، وكانوا يتلقون أوامرهم كالسوديت من برلين . وليس من الصعب احداث وضع « شبه ثوري » في المدينة .

وهكذا عندما دنا عام ١٩٣٨ من نهايته ، وهو العـــام الذي شهد احتلال النمسا وبلاد السوديت دون أي سفك للدماء ، كان هتلر غارقـــاً الى أُذنيه في الاعداد لفتوحات جديدة تشمل ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا وميميل ودانزيغ . ولقد كان من السهل عليه أن يتولى إذلال شوشنيغ وبنيش . وقد حان الآن دور جوزيف بيك .

ولكن عندما استقبل الفوهرر وزير خارجية بولندة في برختسغادن بعد أيام قليلة من مطلع العام ؛ أو في الخامس من كانون الثاني عام ١٩٣٩ على وجـه التحديد ، لم يكن على استعداد بعد لمعاملته على نفس الأسس التي عامـــل بها شوشنيغ والتي كان على وشك تطبيقها مع الرئيس هاشا . فلقد كان من رأيه أن ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا يجب أن يصفّى أولاً . وقد كان هتـــلر كما تظهر الوقائع البولندية والسرية للإجتماع ، في أحد أوضاعه المزاجية الميّالة إلى التفاهم . ولقد بدأ حديثه قائلاً بأنه على استعداد كلي ليكون تحت تصرّف بيك . وراح يسأل وزير خارجية بولندة إذا كان يفكر في شيء خـــاص معين . ورد بيك بأنه يفكر في موضوع دانزيغ ، وكان من الواضح أن هتـلر كان يفكر في نفس الموضوع أيضاً .

وراح الفوهرر يذكّر ضيفه قائلاً : « إن دانزيغ المانية وستظل كذلك إلى الأبد ، ولا بد من أن تصبح جزءاً من المانيا إن عاجلاً وإن آجـــلاً » . ولكن كان في وسعه أن يؤكد لزائره أن « عملاً من أعمـال الأمر الواقع لن يرتّب في

دانزيغ ولن يقع فيها » .

فهو يريد دانزيغ ، ويريد طريقاً المانيةوسكة حديد تعبران الممر البولندي. وأضاف أنه إذا تنكّب هو وبيك « الاساليب القديمة وراحا يبحثان عن حلول على أسس جديدة كل الجدّة » فإنه واثق من أنهما سيصلان إلى اتفاق ، يكون فيه العدل والخير لكل من البلدين .

ولكن بيك لم يكن واثقاً كثقة الفوهرر . وعلى الرغم من أنه لم يكن يود ، كما أسرّ لريبنتروب في اليوم التالي ، أن يكون خشناً وجافاً مع الفوهرر ،إلا أنه رد قائلاً بأن « مشكلة دانزيغ مشكلة مستعصية معقدة » . وهو لا يرى في اقتراح المستشار ما يمكن لبولندة أن تعتبره شيئاً يعادل التضحية التي يطلب إليه تقديمها . وهنا أشار هتلر إلى « النفع العظيم » الذي تجنيه بولندة من « رؤية حدودها مع المانيا بما في ضمنها الممر ، وقد ضمنتها المعاهدة » . لكن بيك لم يتأثر كما يبدو بهذا العرض ، ولكنه وافق في النهاية على أن يفكر في الموضوع من جديد[1] .

وراح الوزير البولندي يقتل الموضوع تلك الليلة تفكيراً وبحثاً قبل ان يعود الى التحدث مع ريبنتروب في اليوم التالي في ميونيخ . وطلب الى الوزير الألماني ان ينقل الى الفوهرر ، انه بعد أن كانت جميع محادثاته السابقة مع الالمان تبعث في نفسه التفاؤل ، فانه اليوم وبعد اجتماعه بهتلر ، يشعر لأول مرة « بحالة من التشاؤم » . واضاف أنه لا يرى بالنسبة الى دانزيغ على ضوء ما أثاره من نقاط، أي إمكان مهما كان نوعه في الاتفاق[2] .

ويبدو ان الكولونيل بيك ، وغيره كثير من الذين ظهرت صورهم في صفحات هذا الكتاب ، قد تأخروا كثيراً في الوعي والوصول الى مثل هذا

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٥) ص ١٥٢ ــ ١٥٨ والكتاب البولندي الابيض رقم ٤٨ . المؤامرة النازية والعدوان (٨) ص ٤٨٦ ــ ٤٨٨ .

٢ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٥) ص ١٥٩ ــ ١٦١ . الكتاب البولندي الابيض رقم ٤٩ . المؤامرة النازية والعدوان (٨) ص ٤٨٨ .

الرأي المتشائم . فلقد كان بيك كمعظم البولنديين من أشد خصوم الروس . يضاف الى هذا ، انه كان يكره الفرنسيين الذين حمل لهم حقداً في فؤاده منذ عام ١٩٣٢ ، عندما كان ملحقاً عسكرياً لبولندة في باريس فطردته السلطات الفرنسية زعماً منها بأنه باع وثيقة تتعلق بالجيش الفرنسي . وكان الطبيعي على وجه الاحتمال ، بالنسبة إلى هذا الرجل الذي غدا وزيراً لخارجية بولندة في تشرين الثاني عام ١٩٣٢ ، أن يتجه نحو المانيا . وكان قد أحس بشيء من العطف الدافىء نحو الديكتاتورية النازية منذ نشوئها ، وقد جهد في السنوات الست الماضية جهداً كبيراً للتقريب بين بلاده وبين الرايخ الثالث ولاضعاف ما يربطها من علاقات تقليدية بفرنسا .

ولكن تحتم على بولندة في النهاية أن تكون أكثر الدول المحاذية لألمانيا خوفاً. ومع ذلك فقد كانت أكثر هذه الدول عمى وتجاهلاً للخطر الألماني . إذ لم يكن هناك في بنود معاهدة فرساي ، بند آلم إلى الألمان من ذلك البند الذي نص على إقامة الممر البولندي ، متيحاً لبولندة فرصة الوصول إلى البحر ، وعازلاً بروسيا الشرقية عن بقية اجزاء الرايخ . وكان القرار بفصل ميناء دانزيغ « الهنسي Hanseatic » [1] القديم عن المانيا وإعلانه مدينة حرة تحت إشراف عصبة الأمم وسيطرة بولندة الاقتصادية عليه ، قد أثار سخط الرأي العام الألماني بصورة مماثلة . ولم تكن حتى جمهورية ويمار الضعيفة والمسالمة ، قد قبلت قط ما اعتبرته تجزئة من جانب بولندة للرايخ الألماني . ولقد رأينا في السابق كيف أن الفريق سيخت قد حدد موقف الجيش الألماني من هذا الموضوع في عام ١٩٢٢ إذ قال :

« ان وجود بولندة ، شيء لا يطاق . ويتعارض مع الأوضاع الاساسية للحياة الألمانية . ومن الواجب أن تزول بولندة ، ولا ريب في انها ستزول ، وذلك نتيجة عوامل الضعف الداخلية فيها

---

١ ــ الهنسي نسبة إلى عصبة المدن الهنسية الالمانية التي انشئت في اواخر القرون الوسطى وظلت مزدهرة حتى القرن السابع عشر ، تسيطر على تجارة اوروبا . وكانت دانزيغ من اهم مدنها .

والعمل العسكري من جانب روسيا بمساعدتنا ... ومن الواجب ان يكون محو بولندة من الخريطة ، دافعاً من الدوافع الاساسية للسياسة الألمانية ... وأن يتم الوصول اليه عن طريق روسيا وبمساعدتها » .

يا لها من نبوءات صادقة !

وقد نسي الألمان أو انهم شاؤوا أن يتناسوا ، أن معظم الأراضي الألمانيةالتي منحتها معاهدة فرساي الى بولندة ، بما في ضمنها مقاطعتا بوزون وبوميرانيا البولندية (بومورز Pomorze) ، اللتان تؤلفان الممر ، كانت بروسيا قد اغتصبتها إبان تقسيم بولندة ، عندما اتفقت بروسيا وروسيا والنمسا على تحطيم الدولة البولندية وتجزئتها . ولقد كان البولنديون يسكنون هذه البلاد أكثر من نحو الف عام وما زالوا يسكنونها إلى حد كبير حتى الآن .

ولم تشهد أية بلاد أعادت معاهدة فرساي خلقها ، ما شهدته بولندة من متاعب ومشاق . وكانت قد شنت في السنوات المضطربة الأولى من بعثها عدة حروب عدوانية ضد روسيا وليتوانيا والمانيا وحتى تشيكوسلوفاكيا ، مطالبة الأخيرة بمنطقة تيشيّن الغنية بمناجم الفحم فيها . وكانالبولنديون بعد أن حرموا من حريتهم السياسية اكثر من قرن ونصف القرن ، وباتوا مفتقرين إلى التجارب العصرية في الحكم الذاتي ، قد غدوا عاجزين عن إقامة حكومة ثابتة مستقرة ، وحتى عن الشروع في حل مشاكلهم الاقتصادية والزراعية . وكان المشير بلسودسكي ، بطل ثورة عام ١٩١٨ قد زحف في عام ١٩٢٦ على وارشو ، وسيطر على الحكومة فيها ، وعلى الرغم من ميوله الاشتراكية القديمة ، استعاض بصورة متدرجة، عن النظام الديموقراطيالفوضوي القائم بديكتاتورية شخصية أقامها . وكان من آخر الأعمال التي قام بها قبل وفاته في عام ١٩٣٥ توقيع معاهدة عدم اعتداء مع هتلر ، إذ تم التوقيع عليها في السادس والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٣٤ ، وكانت كما سبق لنا ان ذكرنا ، من الخطوات الأولى في هدم نظام المحالفات التي أقامته فرنسا مع جارات المانيا في الشرق ، وفي

اضعاف عصبة الأمم ومفهومها عن الأمن الجماعي . وتولى الحكم في بولندة بعد وفاة بلسودسكي ، فريق صغير من « العقداء » ، الذين عملوا تحت إمرته في الفيلق البولندي القديم ، والذين حاربوا الروس إبان الحرب الكونية الأولى . وكان في طليعة هؤلاء المشير سميغلي-ريدز ، وهو جندي يتمتع بكفاية عسكرية ممتازة ، ولكنه يفتقر إلى الفراهة السياسية . وتحوّلت السياسة الخارجية إلى أيدي العقيد (الكولونيل) بيك ، واتجهت منذ عام ١٩٣٤ إتجاهاً متزايداً نحو الالمان .

وكان من المحتوم ان تكون هذه السياسة انتحارية . وعندما يدرس المرء وضع بولندة في القارة الأوروبية التي خططتها معاهدة فرساي ، يجد من الصعب عليه ان لا يصل إلى الاستنتاج القائل بأن البولنديين كانوا في حقبة الثلاثين كما في عهود مضت من القرون السابقة ، يسيرون-غير مخيرين ، بدافع نقص في طبيعتهم القومية- نحو تحطيمهم الذاتي ، وأنهم كانوا في هذه الحقبة الأخيرة ، كما كانوا في الماضي أسوأ الأعداء لأنفسهم . وكان من المحال أن يستتب السلام الدائم بين المانيا النازية وبولندة . طالما أن الوضع في دانزيغ والممر سيظل على ما كان عليه . ولم تكن بولندة كذلك من القوة على درجة تمكنها من أن تسلك سلوك الترف الذي سلكته ، فتعادي كلاً من جاريها العملاقين ، روسيا والمانيا . ولقد كانت علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي على أسوأ ما تكون عليه العلاقات منذ عام ١٩٢٠ عندما راحت بولنده تهاجم روسيا التي أضعفتها الحرب الكونية والحرب الأهلية ، ووقع بعد ذلك صراع وحشي بين الجارتين [١] .

واغتنم هتلر الفرصة المتاحة لكسب صداقة دولة من أشد أعداء روسيا ،

---

١ - تمكنت بولندة نتيجة تلك الحرب من دفع حدودها الشرقية مسافة مائة وخمسين ميلا الى الشرق من خط كيرزون ، الذي يعتبر الحد الفاصل بين العنصرين الروسي والبولندي على حساب الاتحاد السوفياتي ، وادى هذا التحول في الحدود إلى نقل نحو من اربعة ملايين ونصف المليون من الاوكرانيين ومليون ونصف المليون من الروس البيض إلى الحكم البولندي . وهكذا كانت حدود بولندة الشرقية والغربية على حد سواء ، وهي حقيقة يبدو ان الدول الديموقراطيةالغربية قد اغفلتها عندما بدأت برلين وموسكو تقتربان من بعضهما في صيف عام ١٩٣٩ .

ورغب في الوقت نفسه في انتزاعها من تأييد عصبة الأمم ومن صداقة باريس ، ليحطم عن طريقها نظام فرساي ، فبادر إلى العمل لعقد الميثاق الألماني البولندي لعام ١٩٣٤ . ولم تكن مثل هذه الحركة من النوع الذي يحبه الألمان او يستسيغونه. وثار عليها الجيش الألماني الذي كان ميالاً إلى الروس ومعادياً للبولنديين منذ ايام سيخت . ولكن هذه الحركة كانت نافعة لهتلر كل النفع في الوقت الحاضر . وكانت صداقات بولندة العاطفية قد ساعدته على تحقيق ما يهتم به أولاً من إعادة احتلال منطقة الراين ، وتحطيم النمسا المستقلة وحرية تشيكوسلوفاكيا. وظل بيك ورفاقه من العقداء في وارشو يتطلعون بعطف إلى جميع هذه الخطوات التي شدّت من أزر المانيا وأضعفت الغرب وهددت الشرق . ويغمضون عيونهم عن عمى عن نتائجها الوخيمة .

* * *

وإذا صح ما قاله وزير خارجية بولنده منذ مستهل العام الجديد ، من أن روحه المعنوية قد اصابها شيء من المزاج المتشائم عن طريق مطالب هتلر ، فإن هذه الروح هبطت أكثر وأكثر مع مجيء الربيع . وعلى الرغم من أن هتلر قد تحدث في خطابه السنوي إلى الرايشستاغ في الثلاثين من كانون الثاني بتعليمات تنطوي على الدفء عن « الصداقة بين المانيا وبولنده » معلناً أن هذه الصداقة تؤلف « احد العوامل المطمئنة في حياة اوروبا السياسية » فان ريبنتروب قد تحدث بصراحة اكثر عندما قام بزيارة رسمية لوارشو قبل اربعة ايام من هذا التاريخ ، فقد أثار من جديد مع بيك موضوع مطالب هتلر المتعلقة بدانزيغ ، والمواصلات عبر الممر ، مصراً على انها « متناهية في الإعتدال » . ولكن وزير خارجية المانيا لم يتلق رداً مرضياً لا على هذه الاسئلة ولا على إصراره بأن تنضم بولندة إلى ميثاق مكافحة الشيوعية ضد الاتحاد السوفياتي[1] . وبدأ العقيد (الكولونيل) بيك يشعر بالسأم من اصدقائه . ولو تحرينا الحقيقة

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٥) ص ١٦٧ ـ ١٦٨ . والكتاب البولندي الابيض رقم ٥٢ .

لقلنا انه بدأ يتلوى ويتعرج. وراح السفير الألماني في وارشو يبلغ برلين في السادس والعشرين من شباط ان بيك قد بادر إلى سؤال لندن ان تدعوه لزيارتها في نهاية شهر آذار ، وانه قد يمضي بعد انتهاء زيارته لها إلى باريس . وعلى الرغم من أن هذا الإتصال جاء متأخراً ، فقد راح مولتكيه يضيف في برقيته ان بيك « يرغب في الإتصال بالدولتين الديموقراطيتين مخافة ان ينشب نزاع مع المانيا على دانزيغ[1] ». وهكذا فبالنسبة إلى بيك كما هو بالنسبة إلى الكثيرين من الذين حاولوا إرضاء نهم هتلر الذي لا يشبع ، بدأت الموازين تتساقط أمام ناظريه .

وقد انهارت هذه الموازين تماماً وإلى الأبد في الخامس عشر من آذار عندما احتل هتلر بوهيميا ومورافيا وبعث بقواته تتولى حماية سلوفاكيا « المستقلة » ، وأفاقت بولندة في الصباح لتجد أن المانيا قد طوقت جناحيها من الجنوب على على الحدود السلوفاكية بعد ان كان جيشها قد طوق حدودها من الشمال من ناحية بوميرانيا وبروسيا الشرقية . وهكذا بات موقفها العسكري بين عشية وضحاها شاقاً للغاية .

* * *

واليوم الواحد والعشرون من آذار عام ١٩٣٩، تاريخ لا ينسى في قصة سير اوروبا نحو الحرب .

فقد أشتد النشاط الدبلوماتي في ذلك اليوم في برلين ووارشو ولندن . ووصل رئيس الجمهورية الفرنسية يرافقه وزير خارجيته إلى العاصمة البريطانية في زيارة رسمية واقترح تشمبرلين على الفرنسيين أن تنضم بريطانيا وفرنسا إلى بولنده والإتحاد السوفياتي في إعلان رسمي يوضح أن الدول الأربع ستهب إلى التشاور فوراً للبحث في الخطوات المؤدية إلى الحيلولة دون عدوان جديد في اوروبا . وكان لتفينوف قد اقترح قبل ثلاثة ايام ، ما سبق له أن اقترحه قبل نحو من عام بعد ضم النمسا (الانشلوس) وهو عقد مؤتمر اوروبي يضم في هذه المرة فرنسا وبريطانيا وبولندة وروسيا ورومانيا وتركيا ، ويقرر التعاون معاً

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٧٢

لوقف هتلر . ولكن رئيس الوزراء البريطاني وجد أن الفكرة ما زالت « سابقة لأوانها » . وكان كثيرَ الشكوك في موسكو ، وخيِّل اليه أن مجـــرد صدور « بلاغ » عن الدول الاربع ، وبينها الاتحاد السوفياتي ، هو أقصى مـــا يمكن له أن يمضي اليه .[1]

وقام السفير البريطاني في وارشو ، بتقديم اقـــتراحه هذا إلى بيك في نفس اليوم أي الواحد والعشرين من آذار ، فاستقبل هذا الإقـــتراح بشيء من البرود ولا سيما بالنسبة إلى إدخال الروس في الموضوع . فلقد كان وزير خارجية بولنده أكثر شكوكاً بالإتحاد السوفياتي من تشمبرلين ، وكان بالاضافة إلى ذلك يشاطر الرئيس البريطاني آراءه في تفاهة العون العسكري الروسي . وقد ظل متمسكاً بآرائه هذه دون أي تردد أو تبدل ، حتى اللحظة التي وقعت فيها الكارثة .

ولكن وقعت في برلين نفسها . في هذا اليوم الواحد والعشرين من آذار اكثر الاحداث خطورة بالنسبة إلى بولندة . فقد استدعى ريبنتروب السفير البولندي لمقابلته ظهر ذلك اليوم . وروى ليبسكي في تقرير لاحق ، أن الوزير الألمـــاني لم يكتف باظهار الفتور له لأول مرة في علاقاتها بل كان كثير الاستفزاز ايضاً ، وراح يتوعد زائره قائلاً بأن الفوهرر « بات بالغ الحـــيرة من موقف بولندة » . وأضاف ان المانيا تريد رداً مرضياً على طلباتها بالنسبة إلى دانزيغ وإلى الطريق والخط الحديدي عبر الرواق البولندي ، وان مثل هـــذا الرد شرط اساسي لاستمرار العلاقات الودية بين بولندة والمانيا . ثم قال ريبنتروب « على بولندة أن تدرك أن ليس في استطاعتها أن تتبع طريقاً وسطاً بين روسيا والمانيـــا » . فسبيلها الوحيد للخلاص يقوم في « علاقة معقولة مع المانيـــا ومع الفوهرر » ومن المفروض ان تتضمن هذه العلاقة سياسة مشتركة مناوئة للسوفيـــات .

---

١ ـ كتب تشمبرلين في رسالة شخصية مؤرخة في السادس والعشرين من آذار يقول : « يجب ان اعترف بما احمله من شك مطلق في روسيا . فأنا لا اؤمن مطلقاً بقدرتها على القيام بأي هجوم فعال حتى ولو ارادت ذلك . يضاف إلى هذا انني اشك في دوافعها ، كما ان عـــدداً من الدول الصغرى وفي طليعتها بولندة ورومانيا وفنلندة ، تكرهها كرهاً شديداً وتشك في نواياها . (فيلينغ حياة نيفيل تشمبرلين . ص ٤٠٣)

ونصح ريبنتروب السفير البولندي ايضاً بأن يسرع في الذهاب إلى وارشو ليوضح إلى وزير خارجيته شخصياً حقيقة الوضع . وقال ليبسكي في تقريره لبيك « أن ريبنتروب ينصح بأن لا يتأخر الحديث إلى هتلر ، مخافة ان يصل المستشار إلى الاستنتاج القائل بأن بولندة ترفض كافة عروضه [١] » .

عدوان طفيف شيئاً فشيئاً

وجه ليبسكي قبل ان يغادر الولهمشتراسة سؤالاً إلى ريبنتروب عمّا إذا كان في استطاعته ان يفضي إليه بشيء عن المحادثات التي اجراها مع وزير خارجية ليتوانيا . ورد الوزير الألماني بأن الحديث تناول قضية ميميل « التي تتطلب حلاً » .

وكان ريبنتروب قد استقبل بالفعل جوزاس ادربيز وزير خارجية ليتوانيا الذي مر ببرلين في اليوم الفائت بعد زيارته لرومة ، وطلب اليه أن تقوم ليتوانيا باعادة منطقة ميميل إلى المانيا ، واضاف ريبنتروب انه في حالة تقاعس ليتوانيا عن ذلك فإن « الفوهرر سيقوم بعمل صاعق » . وراح يحذر الليتوانيين من أن لا يتعلقوا بالأوهام وان لا ينتظروا « أية مساعدة تأتيهم من الخارج [٢] . »

وكان السفير الفرنسي في برلين والقائم بالأعمال البريطاني قد قاما قبل بضعة أشهر فعلاً ، أي في الثاني عشر من كانون الأول عام ١٩٣٨ ، بلفت نظر الحكومة الألمانية إلى الأنباء القائلة بأن سكان ميميل من الألمان يضعون المخططات للثورة ، وطالباها بأن تستخدم نفوذها لضمان إحترام دستور ميميل الذي ضمنته كل من بريطانيا وفرنسا ، وقد أعربت وزارة الخارجية الألمانية في ردها عن « دهشتها واستغرابها » من الخطوة الدبلوماتية الأنكلو - فرنسية ، وأصدر ريبنتروب أوامره ، بأن على الوزارة في حالة إتخاذ خطوات مماثلة من جانب السفارتين

---

١ - الكتاب البولندي الابيض رقم ٦١ - المؤامرة النازية والعدوان (٨) ص ٤٨٩ - ٤٩٢ .
٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٥) ص ٥٢٤ - ٥٢٦

المذكورتين ، تبلغها بأنها « تنتظر من الانكليز والفرنسيين أن يكونوا قد ملّوا أخيراً من التدخل في شؤون المانيا [1] » .

وكانت الحكومة الألمانية وزعماء الحزب والحرس النازي ، قد اشرفوا منذ أمد طويل على تنظيم الألمان في ميميل على غرار الاساليب التي عرفناها من تجربتنا في النمسا وبلاد السوديت . ورأينا من قبل ان القوات الألمانية المسلحة قد سئلت أيضاً التعاون في هذا الصدد وذلك بعد ثلاثة أسابيع فقط من اجتماع ميونيخ ، إذ أصدر هتلر أوامره إلى قادته العسكريين باتخاذ الاستعدادات اللازمة لاحتلال ميميل في نفس الوقت الذي تتم فيه تصفية ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا . ولما كانت الفرصة لم تتم للاسطول للاشتراك في أمجاد الزحف على النمسا وبلاد السوديت المعزولتين عن البحار ، فان هتلر قد صمم هذه المرة على ان يتم الاستيلاء على ميميل بطريق البحر . وتم في شهر تشرين الثاني وضع المخططات البحرية للمغامرة ، وأطلق عليها الاسم الرمزي « تمرينات ستيتين في النقل البحري » . وقد اهتم كل من هتلر والاميرال ريدر أبلغ الاهتمام بهذا العرض الجزئي للقوة البحرية . حتى انهما استقلا من ميناء سوانيموند بارجة الجيب دوتيشلاند في الثاني والعشرين من آذار . متجهين بها الى ميميل ، وذلك بعد اسبوع واحد من دخول الفوهرر دخول الظافرين إلى براغ ، وقبل أن تتمكن ليتوانيا المسالمة من إيجاد الوقت الكافي للاستسلام للإنذار الألماني .

وكان وايز ساكر الذي طالما ادعى فيما بعد احتقاره لوحشية الاساليب النازية قد ابلغ الحكومة الليتوانية في الحادي والعشرين من آذار أن « المانيا لا تستطيع الانتظار » وأن على موفدي ليتوانيا أن يأتوا إلى برلين « في طائرة خاصة غداً » ، ليوقعوا وثيقة التنازل لألمانيا عن مقاطعة ميميل . وأطاع الليتوانيون الأمر ووصلوا إلى برلين في ساعة متأخرة من بعد ظهر الثاني والعشرين من آذار ، ولكن على الرغم من الضغط الألماني الذي تعرضوا له شخصياً من جانب ريبنتروب الذي كان يتلقى التعليمات التي تحثه من هتلر

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٥) ص ٥٠٢ ــ ٥٠٤ .

المصاب بدوار البحر وهو على ظهر البارجة ، فإنهم لم يكونوا على عجلة من أمرهم في توقيع وثيقة الاستسلام . وتكشف الوثائق الألمانية المصادرة أن الفوهرر بعث برسالتين برقيتين تلك الليلة من ظهر البارجة إلى ريبنتروب يسأله عما إذا كان الليتوانيون قد استسلموا لطلبه او لا . فلقد كان الطاغية واميراله يريدان أن يعرفا ما إذا كانا سيقتحمان الميناء في تلك الليلة او لا . وتمكن ريبنتروب اخيراً في الساعة الواحدة والنصف من صباح الثالث والعشرين من آذار من أن يبرق باللاسلكي إلى سيده نبأ توقيع الليتوانيين على الوثيقة .[1]

وفي الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر الثالث والعشرين دخل هتلر مرة اخرى إحدى المدن الجديدة المحتلة دخول الظافرين ، وراح يلقي في المسرح الرياضي في ميميل خطاباً في الجمهور الألماني الذي أمّله التحرر . ومزّق بذلك بنداً آخر من بنود معاهدة فرساي . وتم للفوهرر تحقيق فتح هتلر آخر من فتوحاته التي تتم بلا سفك للدماء . ولم يكن الفوهرر يدري آنذاك أن هذا الفتح سيكون آخر فتوحاته السلمية .

تسليط الحرارة على بولندة

جاء احتلال الالمان لمنطقة ميميل « مباغتة مزعجة للغاية » للحكومة البولندية ، على حد تعبير هانز – ادولف فون مولتكيه السفير الألماني في وارشو في التقرير الذي بعث به إلى برلين في اليوم التالي . وأضاف في تقريره قائلاً : « ولعل السبب في هذا ، هو ما يسود هذه الحكومة من خوف من أن دور دانزيغ والمر البولندي قد حان »[2] وراح يبلغ وزارة الخارجية الألمانية أيضاً أن بولندة قد استدعت قواتها الاحتياطية . ونقل الأميرال كاناريس رئيس دائرة المخابرات الألمانية في اليوم التالي أي الخامس والعشرين من آذار أن

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٥) ص ٥٢٨ – ٥٣٠ .

٢ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٩٧

بولندة أتمت تعبئة ثلاث دفعات من قواتها الاحتياطية ، وأنهــا تحشد الجنود حول دانزيغ . ولم يصدق الفريق كايتل أن هذا العمل «يظهر أية نوايا عدوانية من جانب البولنديين» ولكنه أضاف أن هيئة أركان حرب الجيش كانت «ترى رأياً مخالفاً لذلك وتجد فيه بعض الخطورة» [١] .

وعاد هتلر إلى برلين من ميميل في الرابع والعشرين من آذار وأجرى حديثاً مطولاً مع الفريق فون براوختش ، القائد العام للجيش . ويبــدو من المذكرة السرية التي وضعها الأخير عن الحديث ، أن الزعيم لم يكن قد حزم أمره بعد على الطريقة التي يجب أن يسير عليها بالنسبة إلى بولندة [٢] . وبــدا أن فكره المضطرب ، كان في الحقيقة مشحوناً بالمتناقضــات . وكان من المتوقع أن يعود السفير ليبسكي إلى برلين في اليوم التالي أي السادس والعشرين من آذار ولكن الفوهرر لم يكن راغباً في رؤيته ...

وكتب براوخيتش يقول :

« سيعود ليبسكي من وارشو يوم الأحد في السادس والعشرين من آذار . وكانت مهمته هنــاك ان يسأل ما إذا كانت بولندة على استعداد للتفاهم بالنسبة إلى دانزيغ . وغادر الفوهرر العاصمة ليــلة الخامس والعشرين ، إذ لم يكن راغباً في لقاء ليبسكي عندما يعود . فعلى ريبنتروب تقع مهمة المفاوضة أولاً . أن الفوهرر لا يود حــل مشكلة دانزيغ عن طريق القوة . فهو لا يريد أن يدفع ببولندة إلى أحضان بريطانيا العظمى عن هذا السبيل .

« ولن يكون هناك بحث في احتلال دانزيغ عسكرياً إلا إذا كان ليبسكي ، سيشير بصورة خفية إلى أن الحكومة البولنديــة لا تستطيع أن تحمل على عاتقها المسؤولية تجاه شعبها في تسليم دانزيغ

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١١٠ ـ ١١١

٢ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٨٣ ـ ٨٦ .

طوعاً إلى الرايخ ، وان الحل يصبح أسهل عليها إذا تم عن طريق الأمر الواقع » .

ولا ريب في أن هذه الاشارة تحليل ممتع لعقلية هتلر وطبيعته في تلك اللحظة، فلقد كان يؤكد لبيك قبل ثلاثه اشهر ، وبصورة شخصية ، انه لن يكون هناك أي أمر واقع ألماني في دانزيغ . لكنه يتذكر الآن أن وزير خارجية بولندة قد أكد له ان الشعب البولندي ، لن يوافق مطلقاً على تسليم دانزيغ إلى المانيا . إذن هل يكون إستيلاء الألمان عليها عن طريق الأمر الواقع شيئاً يسهل على الحكومة البولندية قبول الحقيقة ؟ ومن هنا تظهر عبقرية هتلر في قياس ما يبدو على خصومه الاجانب من ضعف ، ومن استغلال هذا الضعف ، ولكن حكمه هنا ، ولأول مرة ، بدأ ينهار . فلقد كان « العقداء » الذين يحكمون بولندة من أوساط الناس ومن اكثرهم رغبة في التشويش ، ولكن الشيء الوحيد الذي لا يرغبون فيه أو الذي لا يقبلونه ، هو أن يتحقق الامر الواقع في دانزيغ .

وكانت « المدينة الحرة » الشغل الشاغل لتفكير هتلر ، ولكنه كان قد شرع الآن يفكر بما وراء هذه المغامرة ، تماماً كما فعل بالنسبة إلى تشيكوسلوفاكيا بعد أن قرر إجتماع ميونيخ اعطاءه بلاد السوديت . ... ولقد دوّن براوختش يقول :

« ان الفوهرر لا يريد في الوقت الحاضر حل المشكلة البولندية. الا أن من الواجب مواصلة العمل في هذا السبيل . ومن الواجب أن يتركوا الحل في المستقبل القريب على اوضاع سياسية مواتية بصورة خاصة . وفي مثل هذه الحالة يمكن أن تصرع بولندة وأن تحطم تحطيماً كاملاً ، بحيث لا يغدو من المحتمل اعتبارها كعامل سياسي في غضون الحقب القليلة القادمة . ويفكر الفوهرر على هذ الاساس في حل يستند إلى خط حدود يمتد من الحدود الشرقية لبروسيا الشرقية إلى الطرف الشرقي من سليزيا العليا » .

ولا ريب في أن براوختش كان يدرك تمام الادراك ما يعنيه خط حدود

كهذا . إنها حدود المانيا الشرقية كما كانت قبل الحرب، وقبل أن تحطمها معاهدة فرساي والتي ظلت قائمة طالما أن بولندة ليست في حيّز الوجود .

وإذا كان هتلر قد شك بعض الشيء في ما سيكون عليه رد بولندة فإن هذه الشكوك سرعان ما اختفت عندما عاد ليبسكي إلى برلين يوم الأحد في السادس والعشرين من آذار ، وقدم رد بلاده في مذكرة مكتوبة [١] وقرأ ريبنتروب المذكرة فوراً ، ثم أعلن رفضه لها ، وراح يصب جام سخطه على إجراءات التعبئة التي قامت بها بولندة وحذر السفير من « مغبة النتائج المرتقبة » . وأعلن كذلك أن أي خرق من جانب القوات البولندية لاراضي دانزيغ ، سيعتبر عدواناً مباشراً على الرايخ .

وكان رد بولندة الخطي على الرغم من صياغته في عبارات ملطّفة ، بمثابة رفض قاطع للمطالب الألمانية . فقد أعرب الرد عن استعداد الحكومة البولندية لبحث وسائل أخرى لتسهيل مواصلات المانيا الحديدية والبرية عبر الممر البولندي، وإن كانت ترفض أن تعتبر مثل هذه المواصلات خارجة عن نطاق سلطانها . وأعلنت بولندة استعدادها للاستعاضة بالنسبة إلى دانزيغ عن وجود عصبة الأمم بضمانة بولندية ــ المانية مشتركة ،ولكنها ترفض رفضاً تاماً أن ترى المدينة جزءاً من المانيا .

ولم تكن المانيا قد ألفت حتى الآن أن ترى دولة صغيرة تجرؤ على رفض مطالبها ، وراح ريبنتروب يلمح لليبسكي ، بأن موقفه هذا ذكره « ببعض الخطوات الخطرة التي قامت بها دولة أُخرى » ، مشيراً بقوله هذا من طرف خفي إلى تشيكوسلوفاكيا التي قامت بولندة بمساعدة هتلر في تمزيقها . ولا ريب في انه كان من الواضح لليبسكي ، عندما استدعي ثانية إلى وزارة الخارجية الألمانية في اليوم التالي لمقابلة ريبنتروب ، ان الرايخ الثالث سيلجأ الآن ضد بولندة إلى نفس الاساليب التي سبق له ان استخدمها بنجاح ضد النمسا

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٢٢ ــ ١٢٤ . والكتاب البولندي الابيض رقم ٦٣ .

وتشيكوسلوفاكيا . وراح الوزير النازي يرغي ويزبد متذمراً من الاضطهـــاد المزعوم للأقلية الألمانية في بولندة ، الذي أثار على حد قوله « انطباعات مفجعة في المانيا » :

« وراح وزير الخارجية (الألماني) يلمح في النهاية بأنه لم يعـد يستطيـع ان يفهم الحكومة البولندية ... فالاقتراحات التي نقلهـا السفير البولندي بالامس لا يمكن ان تعتبر أساساً لاية تسوية . ولهذا فإن العلاقات بين البلدين تسير ولا شك سيراً حثيثـــاً في طريق التدهور [1] » .

ولكن لم يكن منالسهل بث الرعب في وارشو بنفس السهولة التي القت المانيا الرعب فيها في كل من فيينـــام وبراغ . وبعث بيك في اليوم التالي أي الثامن والعشرين من آذار في طلب السفير الألماني وابلغه رداً على بيان ريبنتروبالذي ذكر فيه بأن المانيا تنظر إلى أية حركة عسكرية بولندية ضد دانزيـغ وكأنها ميدان حرب ، بأن بولندة تجد نفسها مضطرة بدورها إلى القول بأنها تعتبر أية محاولة من جانب المانيا او مجلس الشيوخ النازي في دانزيـغ لتغيير وضع المدينة الحرة عملاً من اعمال الحرب والعدوان أيضاً .

وراح السفير الألماني يصرخ بمحدثه قائلاً : « إذن فأنتم تريـــدون التفاوض تحت ضغط الحراب !! »

ورد بيك قائلاً : « لقد تعلمنا هذه الطريقة منكم [2]» .

وهكذا كان في استطاعة وزير خارجية بولندة الذي استفاق من سباته ، أن يقف أمام برلين موقفاً اكثر صموداً من ذلك الموقف الذي اتخـذه بنيش في الماضي ، إذ عرف الوزير أن الحكومة البريطانية التي كانت توّاقة قبل عام فقط لمساعدة هتلر في الحصول على مطالبه من تشيكوسلوفاكيا ، قد باتت الآن تتخذ

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية ـ مذكرة شميدت (٦) ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .

٢ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية ـ برقية مولتكيـه (٦) ص ١٤٧ ـ ١٤٨ • الكتـاب البولندي الابيض رقم ٦٤ .

على وجه التحقيق موقفاً معاكساً تماماً لموقفها السابق ، بالنسبة إلى بولنـــدة . وكان بيك نفسه هو الذي نسف الاقتراح البريطاني بإصدار بيان رباعي ، معلناً أن بولندة ترفض تمام الرفض أن تربط نفسها إلى روسيا بأي شكل من الاشكال . ولكنه اقترح بدلاً من ذلك ، وفي الثامن والعشرين من آذار ، على السير هوارد كينارد ، السفير البريطاني في وارشو ، عقد معاهدة انكليزية – بولندية سرية فوراً ، للتشاور في حـــالة وقوع تهديـــد بالهجوم من أية دولة ثالثة . ولكن تشمبرلين وهاليفاكس ، بعد أن أفزعها ما بلـغ إلى مسامعهما من تحـــركات عسكرية ألمانية على مقربة من دانزيـغ والممر البولندي ، وما نقلته اليهما المخابرات البريطانية عن المطالب الالمانية الموجهة إلى بولندة ، والتي نفى بيك المخـــاتل للبريطانيين وجودها ، رغبا في أن يمضيا إلى أكثر من « المشاورات » .

وقدم كينارد إلى بيك مساء الثلاثين من آذار اقتراحاً بريطانيـــاً – فرنسياً مشتركاً يقضي بعقد ميثاقين للمساعـــدة المشتركة في حالة وقـــوع اعتداء الماني [1] ولكن الاحداث سبقت حتى هـــذه الخطوة . فلقد دفعت الانبـــاء الجديدة التي تلقتها الحكومة البريطانية عن احتمال قيام المانيا بهجوم فوري على بولندة ، هذه الحكومة إلى أن تطلب في نفس المساء من بيك رأيه فيما إذا كان لا يرى مانعاً في أن تصدر بريطانيا ضمانة فردية مؤقتـــة لاستقلال بولندة . وطلب تشمبرلين أن يتلقى رد الحكومة البولندية في الغد ، اذ انه كان يود الاجابة على سؤال وجـــه اليه في البرلمان ، في هذا الصدد . وبالطبع لم يكن لدى بيك ، وقد أحس بشيء من الانفراج في وسعنا تصوره ، أي اعـــتراض على ذلك ؛ وراح بالفعل يقول

١ – اوضحت الحكومة البريطانية في البرقية التي ضمنتها تعليماتها إلى كينارد (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٤) رقم ٥٣٨) ان روسيا لن تشرك في هذه الترتيبات وقالت البرقية : « اصبح من الواضح ان محاولاتنا لتثبيت الوضع ستتعرض للفشل اذا اشرك الاتحـــاد السوفياتي بصورة علنية في وضع المشروع . فالبرقيات الواردة من مختلف بعثات جلالته الدبلومـــاتية في الخارج ، تحذرنا من ان إدخال روسيا لن يحبط جهودنا البناءة فحسب ، بل يساعد كذلك على توطيد اواصر العلاقات بين الدول الأعضـــاء في ميثاق مكافحة الشيوعية ، كما يثير قلقـــاً عند عـــدد من الحكومات الصديقة » .

لكينارد « انه موافق على هذا الاقتراح بلا تردد »[1] .

* * *

ولم يستطع كل من كان في برلين في عطلة نهاية ذلك الاسبوع، التي انتهى بها شهر آذار عام ١٩٣٩ ، كما يشهد مؤلف هذا الكتاب الذي كان في العاصمة الألمانية آنذاك ، ان يفهم هذه الضمانة البريطانية الصادرة عن جانب واحد لبولندة ، مهما كان الترحيب بها شديداً في البلاد الواقعة الى الشرق والغرب من المانيا . ولقد رأينا من قبل المرة تلو المرة ، عندما زحف الألمان في عام ١٩٣٦ على منطقة الراين المنزوعة السلاح ، وفي عام ١٩٣٨ عندما استولوا على النمسا ، وهددوا بحرب اوروبية في سبيل انتزاع بلاد السوديت ، وحتى قبل نحو من اسبوعين عندما اغتصبوا تشيكوسلوفاكيا ، كيف كان في وسع بريطانيا العظمى وفرنسا بدعم من روسيا ، ان تقوما بعمل يوقف هتلر عند حده ، ودون أن يكلفهما هذا العمل كبير ثمن ، بل كان هذا الرجل قد فقد عقله ، وقامر كما قال ، بمستقبله السياسي ليساعد ادولف هتلر على الحصول على ما يبغيه من الدول المجاورة لألمانيا . ولم يكن قد فعل شيئاً لإنقاذ استقلال النمسا . وتواطأ مع الطاغية الألماني على تحطيم استقلال تشيكوسلوفاكيا. الدولة الديموقراطية الحقة الوحيدة، التي تقع على حدود المانيا الشرقية ، والتي كانت مخلصة في صداقتها للغرب وفي تأييدها لعصبة الأمم ولفكرة الضمان الجماعي . ولم يكن قد اهتم حتى بالقيمة العسكرية بالنسبة إلى الغرب ، لفرقها الخمس والثلاثين المدربة أحسن تدريب . والمرابطة وراء حصونها الجبلية المنيعة ، في وقت لم تكن بريطانيا قادرة على ان ترسل اكثر من فرقتين إلى فرنسا ، ولم يكن الجيش الألماني قادراً على القتال في جبهتين ، أو حتى على اختراق الخطوط الدفاعية التشيكية طبقاً لاعتراف الفرقاء الألمان انفسهم .

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٤) . ٤٨٥ ، ٥١٨ ، ٥٣٨ ، ٥٦١ ، ٥٦٣ ، ٥٦٦ ، ٥٧١ و ٥٧٣ .

أما الآن ، وبين عشية وضحاها ، يقوم تشمبرلين في سورة تأثره العميق من حتلال هتلر للبقية الباقية من تشيكوسلوفاكيا ، وبعد أن كان قد أضاع عن عمد وإهمال ، الكثير من الفرص المواتية ، فيتعهد من جانبه ، ومن طرف واحد ، بضمان دولة شرقية تحكمها زمرة من « العقداء » العاجزين سياسياً ، والذين كانوا حتى هذه اللحظة قد تعاونوا تعاوناً وثيقاً مع هتلر ، وانضموا كالذئاب إلى الألمان في نهش لحم تشيكوسلوفاكيا ، وعرضوا بلادهم إلى أن تغدو غير صالحة للدفاع عسكرياً نتيجة الفتوحات الألمانية التي ساعدت بريطانيا وبولندة ، الرايخ على تحقيقها [1]. وها هو الآن يغامر هذه المغامرة في الساعة الاخيرة دون أن يكلف نفسه عناء البحث عن مساعدة روسيا التي رفض اقتراحاتها لاتخاذ إجراء مشترك ضد أي عدوان نازي مقبل مرتين في سنة واحدة .

وأخيراً لقد فعل تشمبرلين الآن ما كان يواصل منذ اكثر من عام واحد التبجح مؤكداً بأن بريطانيا لن تفعله قط ، وهو أن تترك لدولة أُخرى حق التقرير بدخول بريطانيا الحرب .

---

١ ـ ليس من المحتمل ان يكون تشمبرلين قد جهل ما كانت عليه بولندة من ضعف عسكري . فلقد كان العقيد سورد الملحق العسكري البريطاني في وارشو قد بعث قبل نحو من اسبوع إلى لندن اي في الثاني والعشرين من آذار تقريراً مطولا يشرح فيه وضع بولندة السوقي المفجع « بعد ان غدت محاطة من جميع اطرافها بألمانيا » كما يشرح ما في القوات البولندية المسلحة من مظاهر الضعف ولا سيما من ناحية الاسلحة العصرية والمعدات . (وثائق وزارة الخارجية البريطانية رقم ٤٩٨)

وفي السادس من نيسان وكان بيك في لندن يباحثها في عقد ميثاق عون مشترك ، بعث العقيد سورد والملحق الجوي البريطاني في وارشو قائد المجموعة فاشيل تقارير جديدة كانت اقل مدعاة إلى الأمل . واكد فاشيل في تقاريره ان السلاح الجوي البولندي لن يتمكن في غضون الإثني عشر شهراً القادمة من ان يحشد « اكثر من ستمائة طائرة ، معظمها من النوع الذي لا يصلح لمقابلة الطائرات الألمانية » . وذكر سورد في تقاريره ان الجيش والطيران البولنديين يفتقران إلى المعدات الحديثة بحيث لا يستطيعان ان يقدما إلا مقاومة محدودة في وجه هجوم الماني شامل . وراح السفير كينارد يلخص تقارير ملحقيه فأبلغ لندن ان البولنديين لن يتمكنوا من الدفاع عن الممر البولندي او الحدود الغربية ضد المانيا ، وانهم سيضطرون الى التراجع نحو الفستوك في قلب بولندة . واضاف قائلا : « وهكذا فإن بقاء روسيا صديقة لبولندة امر في منتهى الأهمية للاخيرة » (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٥) رقم ١٢)

لكن الخطوة المتهورة التي خطاها رئيس الوزراء ، قد جعلت هتلر على الرغم من تأخرها ، يواجه وضعاً مختلفاً كل الاختلاف عن ذاك الذي عهده حتى الآن . فلقد قررت بريطانيا منذ هذه اللحظة أن تقف في طريقه لتحول بينه وبين اقتراف أي عدوان جديد . ولم يعد في وسعه بعد الآن أن يواصل الاسلوب الذي اتبعه في السابق ، وهو اغتصاب دولة واحدة بعد أخرى في الوقت الذي تواصل فيه الدولتان الديموقراطيتان الوقوف جامدتين تناقشان ما يمكن لهما أن تفعلاه . يضاف إلى هذا أن خطوة تشمبرلين وكأنها الحركة الجدية الاولى في طريق تأليف حلف دولي ضد المانيا ، وهو حلف قد يؤدي إذا لم ينجح هتلر في إحباطه وتفسيخه إلى إعادة عملية التطويق التي كانت الكابوس الذي يقضي على الرايخ منذ أيام بسمارك .

العملية البيضاء

اثارت أنباء الضمانة التي اعلنها تشمبرلين لبولندة الديكتاتور الألماني ، ودفعت به إلى سورة من سورات غضبه المعروفة . وحدث أن كان في غرفة مع الاميرال كاناريس رئيس دائرة المخابرات ، وروى هذا أنه أي الفوهرر أخذ يدور في الغرفة كالمجنون قارعاً بقبضته المائدة الرخامية احياناً وقد احمر وجهه من سورة الغضب ، وموجهاً سبابه إلى البريطانيين وهو يقول : « سأطبخهم في حساء يختنقون فيه »[1] .

وراح في اليوم التالي الأول من نيسان يلقي خطاباً في ويلهلمسهافن ، بمناسبة إنزال البارجة تيربتز إلى البحر ، وكان وهو يلقي الخطاب في وضع الرجل الذي ينشد القتال ، حتى أنه خرج عن طوره كثيراً ، وأمر في اللحظة الأخيرة بوقف الاذاعة المباشرة للخطاب ، على أن تعاد إذاعته في تسجيلات بعد إعادة

١ ــ غزيفيوس ــ إلى النهاية المرة . ص ٣٦٣

النظر فيها [1] ومع ذلك فقد تضمنت الإذاعة المسجلة الكثير من الإنذارات التي وجهها إلى بريطانيا وبولندة ... فقد قال :

« واذا كان يخيل للحلفاء الغربيين ان المانيا اليوم ستقف ساكتة صابرة حتى اللحظة الاخيرة ، وهي تراهم يخلقون الدول التابعة ، ويدفعون بها ضد المانيا ، فإنهم ولا شك يحسبون ان المانية اليوم هي المانية ما قبل الحرب .

« وعلى كل من يعرب عن استعداده لاخراج الكستناء من النار لهذه الدول ان يدرك انه بعمله هذا سيحرق أصابعه ....

« وعندما يقولون في البلاد الأخرى ، انهم سيتسلحون ، وسيواصلون التسلح ، فان في وسعي أن أقول لهؤلاء الساسة شيئاً واحداً ليس إلا ... « ان ما أرجوه هو أن لا يدرككم الاعياء . انني عازم على مواصلة السير في هذه الطريق » .

وهكذا كان هتلر حذراً إلى الحد الذي يمنعه من الإغراق في استفزاز الرأي العام العالمي ، كما اثبتت أوامره بإلغاء الاذاعة المباشرة . ولقد قيل في برلين في ذلك اليوم ان هتلر سيعلن إلغاء المعاهدة البحرية بين انكلترا والمانيا كأول رد على تشمبرلين ، ولكنه أكتفى بأن يقول : « وإذا لم تعد بريطانيا العظمى راغبة في التمسك بهذه المعاهدة. فان المانيا « على استعداد لقبول ذلك بهدوء » .

وانتهى هتلر كعادته من قبل ، باحدى عباراته المعهودة عن السلام فقال :

---

١ ـ انقطعت إذاعة الخطاب إلى شبكة الاذاعات الأمريكية فعلا بعد ان شرع هتلر في خطابه . وادى انقطاع الإذاعة إلى انتشار الشائعات في نيويورك بأن هتلر قد اغتيل . ولقد كنت في غرفة المراقبة في قسم الموجات القصيرة في شركة الاذاعة الالمانية في برلين ارقب الارسال الى شبكة اذاعات كولومبيا في نيويورك ، عندما توقف البث فجأة . وعندما احتججت على ذلك قيل لي أن الأمر قد صدر عن هتلر مباشرة . وتلقيت بعد خمس عشرة دقيقة مكالمة هاتفية من نيويورك تطلب مني الشركة ان اتحقق من اغتيال هتلر . وكان في وسعي بالطبع ان انفي الشائعة بسهولة ، إذ انني كنت في تلك اللحظة استمع الى هتلر وهو يخطب عن طريق خط هاتفي متصل بوهلمسهافن مباشرة . وكان من الصعب إطلاق النار على الفوهرر في ذلك اليوم اذ انه كان يخطب في قفص زجاجي لا ينفذ منه الرصاص .

« ليست لألمانيا أية نوايا في مهاجمة أي شعب من الشعوب ... وانطلاقاً من هذا الاعتقاد ، قررت قبل ثلاثة أسابيع أن اطلق على مهرجان الحزب القادم اسم « مؤتمر الحزب للسلام » ... وهو شعار بدا في منتهى السخرية، مع تقدم صيف عام ١٩٣٩ .

كان هذا الخطاب للاستهلاك الداخلي . أما رد هتلر الحقيقي على تشمبرلين وعلى بيك ، فقد صدر في منتهى السرية بعد يومين أي في الثالث من نيسان ، على شكل توجيه سري للغاية ، الى القوات المسلحة . ولم يطبع من هذا التوجيه الذي حمل اسم « العملية البيضاء » ، إلا خمس نسخ . وقدر لهذا الاسم الرمزي ان يلعب دوراً ضخماً في التاريخ اللاحق للعالم .

سري للغاية

العملية البيضاء

« يتطلب موقف بولندة الراهن ... البدء في إعدادات عسكرية لازالة هذا الخطر من هذه الناحية إذا اقتضى الأمر ، مرة وإلى الأبد ...

١ ـ المقتضيات والأهداف السياسية :

« سيكون هدفنا تحطيم القوة العسكرية البولندية ، وخلق وضع في الشرق يتفق مع مقتضيات دفاعنا القومي . ومن الواجب إعلان دولة دانزيغ الحرة جزءاً من أراضي الرايخ عند بدء العمليات العسكرية على أبعد تقدير .

وعلى القادة السياسيين أن يعتبروا أن مهمتهم في هذه الحالة ، عزل بولندة إذا أمكن ، أي حصر الحرب في بولندة وحدها .

«وقد يخلق تطور الأزمات السياسية المتزايدة في فرنسا وما

ينجم عنه من وعي بريطاني وضعاً كهذا في المستقبل القريب جداً .

« ولا ينتظر أن يكون تدخل روسيا ذا نفع لبولندة ... أما موقف ايطاليا فيقرره محور رومة — برلين .

٢ — الاستنتاجات العسكرية :

« سيظل عداء الدول الديموقراطية الغربية هو العامل الذي يقرر الأهداف العظيمة التي نتوخاها من بناء القوات العسكرية الالمانية . وليست « العملية البيضاء » إلا تكملة احتياطية لهذه الاعدادات ...

وسيكون في إمكاننا تحقيق عزل بولندة بسهولة ، حتى بعد بدء العمليات الحربية ، إذا نجحنا في أن نبدأ الحرب بضربات ماحقة مفاجئة ، وفي أن نحقق انتصارات سريعة عاجلة ...

٣ — واجب القوات المسلحة :

« سيكون من واجب القوات المسلحة « الفيرماخت » تدمير القوات البولندية المسلحة . وعلينا لتحقيق هذه الغاية ان نعد العدة لهجوم مفاجىء » .

وتحدث عن دانزيغ فقال :

« قد يصبح احتلال دانزيغ بصورة مباغتة أمراً ممكناً وبصورة مستقلة عن « العملية البيضاء » ،عن طريق استغلال الوضع السياسي المواتي .... وسيقوم الجيش بهذا الاحتلال من بروسيا الشرقية . وسيتولى الاسطول مساعدةالجيش في عمليته ، عن طريق التدخل من البحر » .

و « العملية البيضاء » وثيقة مطولة تتضمن عدداً من الذيول والملحقات والأوامر الخاصة ، وقد أعيد أصدار معظمها في أمر موحد في الحادي عشر من نيسان ، ثم اضيفت بالطبع إلى أوامر لاحقة أُخرى مع اقتراب الموعد المحدد للعمليات . ولكن هتلر أصدر في الثالث من نيسان على أي حال الملحق

التالي من التوجيهات المتعلقة بالعملية :

« ١ – يجب أن تتخذ الاعدادات بطريقة تضمن تنفيذ العملية في أي وقت بعد الاول من ايلول عام ١٩٣٩ » .

وكما أن القيادة العامة حافظت على الموعد الذي ضربه هتلر لاحتلال اراضي السوديت قبل مدة طويلة من وقوعه وهو الأول من تشرين الأول عام ١٩٣٨ ، فإنها حافظت ايضاً على الموعد الآخر الأكثر أهمية وهو الأول من ايلول عام ١٩٣٩ .

ومضى التوجيه يقول :

« ٢ – ان القيادة العامة للقوات المسلحة مكلفة بأن تضع مخططاً دقيقاً للعملية البيضاء ، وعليها أن تتخذ التدابير لتوقيت متزامن بين الفروع الثلاثة للقوات المسلحة .

« ٣ – من الواجب تقديم كافة المخططات التي تضعها فروع القوات المسلحة الثلاثة ، وتفاصيل المخططات والتوقيت الى القيادة العامة للقوات المسلحة قبل الاول من ايار عام ١٩٣٩ [١] »

وتركزت الأهمية الآن ، على ما إذا كان بإمكان هتلر أن يتلف أعصاب البولنديين إلى الحد الذي يدفعهم دفعاً إلى قبول مطالبه ، تماماً كما فعل مع النمسويين ومع التشيكيين بمساعدة بريطانيا ، أو ما إذا كانت بولندة ستظل في موقفها وتقاوم العدوان النازي إن وقع . وعلى ما تستطيع تأمينه من سلاح لهذه المقاومة إن قررتها . وراح مؤلف هذا الكتاب ، يقضي الأسبوع الأول من شهر نيسان في بولندة بحثاً عن الردود على هذه الأسئلة . وكان ما حصل عليه من ردود على ضوء مشاهداته ، أن البولنديين لن يستسلموا لتهديدات هتلر ، وأنهم كانوا في وضع مفجع من الناحية العسكرية والسياسية . ولقد كان سلاحهم

---

١ – المؤامرة النازية والعدوان (٦) . ص ٩١٦ – ٩٢٨ . وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٨٦ – ١٨٧ و ٢٢٠ – ٢٢٨ – محاكمات كبار مجرمي الحرب (٣٤) ص ٣٨٠ – ٤٢٢

الجوي من الطراز الذي فات وقته وكان جيشهم مشوشاً ، وكان موقفهم السوقي (الاستراتيجي) يائساً نظراً لإحاطة الألمان بهم من ثلاث جهات . يضاف إلى هذا أن تعزيز الجدار الالماني في الغرب ، قد جعل من الصعب كل الصعوبة على الانكليز والفرنسيين القيام بهجوم على ألمانيا من الغرب ، في حالة مهاجمة بولندة. وكان من الواضح أخيراً أن « العقداء » البولنديين العنيدين لن يوافقوا قط على قبول المساعدة الروسية حتى ولو وصل الالمان إلى أبواب وارشو .

وراحت الاحداث تتحرك بسرعة . ووقع العقيد بيك في السادس من نيسان في لندن اتفاقاً مع بريطانيا العظمى احال الضمانة البريطانية الصادرة من جانب واحد الى ميثاق مؤقت للعون المشترك . وأضاف الاعلان الرسمي الذي صدر في لندن أن المعاهدة الدائمة ستوقع بعد استكمال التفاصيل المتعلقة بها .

وبعث موسوليني في اليوم التالي أي في السابع من نيسان بقواته إلى البانيا وأضاف إلى احتلاله الحبشة من قبل ، الاستيلاء على هذه البلاد الجبلية الصغيرة . وأتاح له هذا الاحتلال نقطة قفز يستخدمها ضد اليونان ويوغوسلافيا ، كما ساعد هذا الجو المتوتر في اوروبا على بعث الرعب في افئدة الدول الصغيرة التي تجرؤ على تحدي المحور . وتظهر وثائق وزارة الخارجية الألمانية ان هذا العمل تم بموافقة المانيا الكاملة ، التي أبلغها موسوليني اعتزامه القيام بهذه الخطوة مسبّقاً . وردت فرنسا وبريطانيا في الثالث عشر من نيسان على هذا العمل بضمان كل من اليونان ورومانيا . وهكذا بدأ الجانبان يعدان صفوفهما . ووصل غورنغ في منتصف شهر نيسان إلى رومة ، واجرى محادثتين طويلتين في الخامس عشر والسادس عشر منه مع موسوليني مما اثار حفيظة ريبنتروب وسخطه [1] . وقد أتفق الرجلان على انهما « في حاجة إلى سنتين أو ثلاث سنوات » لاستكمال العدة لخوض « حرب عامة » ولكن غورنغ أعلن بأن الحرب إذا وقعت في وقت

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) - ٢٤٨ - ٢٠٣ - ٢٥٨ و ٢٦٣ . ويوميات شيانو ص ٦٦ ــ ٦٧ .

ابكر من هذا « فإن المحور في وضع قوي للغاية ، وفي استطاعته أن يهزم أي اعداء محتملين » .

وسبق لي أن أشرت إلى نداء وجهه الرئيس روزفلت، وتسلمته رومة وبرلين في الخامس عشر من نيسان . ويروي شيانو أن الدوتشي رفض تسلّم النداء في البداية ، وان غورنغ أعلن بأن هذا النداء لا يستحق الرد. ووصفه موسوليني بأنه « ثمرة شلل الاطفال » ، بينما كان انطباع غورنغ أن روزفلت يعاني من مرض « عقلي بدائي » . وكان رئيس الولايات المتحدة قد وجّه في برقية إلى هتلر وموسوليني السؤال الصريح التالي :

« هل انتما على إستعداد لاعطاء تأكيدات بأن قواتكما المسلحة لن تهاجم أو تغزو أراضي الدول المستقلة التالية ؟ » .

وتضمنت القائمة اسماء إحدى وثلاثين دولة بينها بولندة ودول البلطيق وروسيا والدانمارك وهولندة وبلجيكا وفرنسا وبريطانية . واعرب الرئيس عن أمله في اعطاء مثل هذا التعهد بعدم الاعتداء لمدة «عشر سنوات على الاقل» أو « لمدة ربع قرن إذا غامرنا بالتطلع الى مثل هذا الأمد الأبعد» ووعد في حالة إعطاء مثل هذا التعهد باشتراك أمريكا في « محادثات »عالمية شاملة تستهدف تحرير العالم من عبء « التسلح الساحق » ، وفتح السبل أمام التجارة العالمية .

وراح الرئيس يذكر هتلر قائلاً : « لقد أكدت مراراً وتكراراً ، أنك أنت والشعب الألماني لا ترغبان في الحرب . وإذا كان تأكيدك هذا صادقاً ، فلن تكون ثمة حاجة إلى الحرب » .

ويبدو على ضوء ما نعرفه الآن من وقائع أن هذا النداء كان ساذجاً حسن الطوية ولكن الفوهرر وجده مربكاً له على الحد الذي دفعه إلى الاعلان بأنه سيرد عليه لا بصورة مباشرة ، بل في خطاب يلقيه في جلسة طارئة للرايشستاغ في الثامن والعشرين من نيسان ، تعقد خصيصاً لهذه الغاية .

وتكشف وثائق وزارة الخارجية الألمانية المصادرة انالوهلمشتراسة،وجهت في غضون ذلك برقية دورية بتاريخ السابع عشر من نيسان إلى جميع الدول التي

ذكرها روزفلت باستثناء بولندة وروسيا وبريطانيا وفرنسا ، ضمنتها سؤالين : عما إذا كانت هذه الدول تشعر بأنها مهددة بأي شكل من الأشكال من جانب المانيا وما إذا كانت قد خوّلت روزفلت التقدم بهذا الاقتراح .

وراح ريبنتروب يبرق إلى جميع مبعوثيه في الدول المعنية قائلاً : « إننا على ثقة من أن الرد على هذين السؤالين سيكون سلبياً ، ومع ذلك ، ولأسباب خاصة ، فإننا نرغب في أن نتلقى معلومات موثوقة فوراً » . وسرعان ما اتضحت هذه الأسباب الخاصة في الخطاب الذي ألقاه هتلر في الثامن والعشرين من نيسان .

وتمكنت وزارة الخارجية الالمانية في الثاني والعشرين من نيسان من تقديم تقرير إلى الفوهرر ذكرت فيه أن معظم الدول المعنية وبينها يوغوسلافيا وبلجيكا والدانمارك والنروج وهولندة ولكسمبورغ « قد ردت على السؤالين بالنفي » ، وهو رد سرعان ما ستكشف الأيام القريبة التالية عن الرأي البريء الذي كانت تراه حكومات هذه الدول في الرايخ الثالث . أما رومانيافقد ردت رداً لاذعاً ، إذ قالت ان « على حكومة الرايخ نفسها أن تكون في وضع يمكنها من معرفة ما إذا كان التهديد سيصدر عنها » . ولم تفهم حكومة لاتفيا الصغيرة الواقعة على البلطيق في بداية الأمر ، ما يطلب اليها تقديمه من رد ، ولكن سرعان ما صححت وزارة الخارجية الألمانية هذا الوضع ، فقد هتف وايزساكر في الثامن عشر من نيسان إلى وزيره المفوض في ريغا يقول :

> « قل لهم ، أننا لم نستطع فهم رد وزير خارجية لاتفيا على السؤال الذي وجهناه بصدد برقية روزفلت . وبينما تلقينا الرد تقريباً من جميع الحكومات الأخرى ، وكان سلبياً بطبيعة الحال ، فان المسيو مونترز عامل هذه الدعاية الامريكية السخيفة كقضية تتطلب منه استشارة مجلس وزرائه . وإذا لم يرد المسيو مونترز « بالنفي » على سؤالنا فوراً ، فاننا نجد أنفسنا مضطرين إلى إضافة اسم لاتفيا إلى قائمة تلك البلاد التي آثرت أن تجعل من نفسها شريكات للمستر روزفلت . ولقد قلت انني أفترض بأن كلمة واحدة منك

يا هرفون كوتزي ، على ضوء هذه التعليمات ستكون كافية للحصول على الرد الواضح من الوزير اللاتفي [1] » .

رد هتلر على روزفلت

كانت الردود ذخيرة مؤثرة أعتمد عليها هتلر ، واستخدمها بنجاح ، عندما انطلق يهدر في خطابه الى الرايشستاغ في ذلك اليوم المشرق من ايام الربيع صبيحة الثامن والعشرين من نيسان عام ١٩٣٩ . ولقد كان هذا الخطاب كما أعتقد أطول خطاب رئيسي القاه في اجتماع عام ، إذ استغرق منه اكثر من ساعتين . ولقد كان هذا الخطاب من نواح عدة ولا سيا من ناحية ما فيه من قوة تأثير على الألمان واصدقاء المانيا النازية من الخارج ، أروع ما ألقاه في حياته من خطب . ولا ريب في أنه اعظم ما سَمِعْتُهُ منه . وقد حلق هتلر في خطابه هذا من ناحية البلاغة اللفظية والدهاء ، والسخرية ، والتهكم ، والتصنع ، بشكل لم يصل إلى مستواه في أي خطاب لاحق . وعلى الرغم من أن هذا الخطاب قد أُعد لمسامع الالمان ، إلا أنه لم يذع على جميع محطات الاذاعة الالمانية فحسب بل وعلى مئات الاذاعات في العالم ايضاً . وقد تناقلته جميع الشبكات الاذاعية في الولايات المتحدة كذلك . ولم يقدر لهتلر أن يستمع إلى أي خطاب من خطبه اللاحقة مثل ذلك العدد الضخم الذي استمع اليه وهو يخطب في ذلك اليوم في جميع انحاء العالم . [2]

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٢٦٤ ــ ٢٦٥ ، وص ٣٠٩ ــ ٣١٠ ، و ص ٢٨٣ ــ ٢٨٤ .

٢ ــ ابرق وايز ساكر يوم القاء الخطاب إلى هانز تومسون القائم بأعمال المانيا في واشنطن . مصدراً تعليماته بأن يعمل على إتاحة اوسع ما يمكن من النشر والاذاعه لخطاب الفوهرر في الولايات المتحدة ، مؤكداً له أن اموالا إضافية خاصة ستوضع تحت تصرفه لهذه الغاية • ورد تومسون في الاول من ايار يقول : « لقد فاق الإهتمام بالخطاب كل ما عهدناه من قبل . ولهذا فقد امرت =

بدأ هتلر خطابه بعد المقدمات المألوفة من التحدث عن إجحاف معـــاهدة فرساي ، وما أنزلته بالشعب الالماني من مظالم لا عد لهـا ولا حصر ، ومن آلام ومتاعب طويلة ، بالرد أولاً على بريطانيا العظمى وبولندة ، رداً أثار الخوف في اوروبا التي يسيطر عليها القلق والفزع .

وبعد أن أعلن ما يحس به من إعجاب وصداقة لانكلترا ، وبعد أن هاجمهـا على شكها فيه وعلى « سياسة التطويق الجديدة » التي تتبعهـــا ضد المانيا ، راح يعلن إنهاء المعاهدة البحرية التي عقدت بينها وبين المانيا في عام ١٩٣٥ قائــلاً أن الأسس التي أدت إلى عقدها قد زالت .

وكان حديثه عن بولندة ، مماثلاً ... فبعد ان اعلن الاقتراح الذي قدمه اليها بصدد دانزيغ والممر (وكان هذا الاقتراح سراً حتى الآن) ، قال انــه – أي الاقتراح – يمثل «أعظم ما يمكن تصوره من تساهل في مصلحة السلام الاوروبي» وابلغ الرايشستاغ أن الحكومة البولندية قد « رفضت هذا العرض الوحيد » ، ثم قال :

« ولقد آلمني هذا الموقف الذي وقفته الحكومة البولنـــدية ، والذي لا يمكن فهمه مطلقاً .... ولعل ما هو أسوأ من ذلك أن بولندة تعتقد اليوم كما اعتقدت تشيكوسلوفاكيا قبل نحو من عام ، تحت ضغط حملة عالمية من الأكاذيب ، أن عليها أن تستنفر قواتها، على الرغم من أن المانيا لم تدع إلى الخدمة جندياً واحداً من قواتهـا الاحتياطية ، وعلى الرغم من انها لم تفكر قط في التقدم باتجـــاه بولندة بأي شكل من الاشكال ويدعو مثل هـذا الموقف ، إلى الأسف حقاً ، وستقرر الأجيال القادمة مـــا إذا كان من الصواب حقاً أن ترفض بولندة هذا الاقتراح الذي تقدمتُ به ذات يوم اليها،

=بإرسال النسخة الانكليزية من الخطاب التي تم طبعها هنا إلى عشرات الالوف من الناس من مختلف الطبقات والإتجاهات تنفيذاً للمخطط المقترح . وسأبعث اليكم فيما بعد بقائمة النفقات » (وثائق وزارة الخارجية إلالمانية (٦) ص ٣٥٥ ، ٣٩٩ .

والذي يؤلف في الحقيقة حلاً وسطاً فريداً من نوعه ... » .

ومضى هتلر يقول أن الأنباء القائلة بأن المانيا تعتزم مهاجمة بولندة ليست « إلا مجرد اختلاقات من الصحافةالعالمية » ،(ولم يكن رجل واحد من عشرات الملايين من الاشخاص الذين استمعوا إلى الخطاب يعرف أن الرجل هذا قد أصدر قبل ثلاثة أسابيع أوامره الخطية إلى قواته المسلحة بأن تعد العدة لتحطيم بولندة قبل الأول من ايلول على ابعد تقدير) . واضاف ان اختلاقات الصحف قد حملت بولندة على عقد اتفاقها مع بريطانيا العظمى الذي «سيرغم بولندة في ظل ظروف معينة على اتخاذ اجراءات عسكرية ضد المانيا » . ولهذا فإن بولندة بعملها هذا قد خرقت ميثاق عدم الاعتداء المعقود بينها وبين المانيا . ثم قال : « ولهذا فانني انظر إلى الميثاق ، وكأنه لا وجود له بعد ان خرقته بولندة من جانبها وحدها » .

ولما كان هو وحده الذي مزق معاهدتين رسميتين في لحظة ، فقد راح يبلغ الرايشستاغ أنه على استعداد للتفاوض لاستبدالهما بمعاهدتين أُخريين ثم قال : ليس في وسعي إلا أن أرحب بمثل هذه الفكرة ، ولن يكون هناك من هو أسعد مني إذا ما تحقق هذا الأمل » . ولم يكن قوله هذا إلا مجرد تكرار للخدعة التي طالما اتبعها في الماضي ، عندما كان كما رأينا ، يمزق المعاهدات ، ولكن يبدو كما ظهر فيما بعد ، أنه كان يجهل بأن حيلته لن تنطلي بعد اليوم على أي إنسان .

واتجه هتلر بحديثه بعد ذلك إلى الرئيس روزفلت ، وهنا وصل الديكتاتور الألماني إلى القمة في بلاغته الخطابية . وكان هذا الحديث بالنسبة إلى المستمع العادي ، حافلاً بالاصطناع والخداع ، أما بالنسبة إلى أعضاء الرايشستاغ الذين انتقاهم هو بيده ، وبالنسبة إلى ملايين الألمان ، فقد كان ما فيه من سخرية ومن هزء لاذع ، مصدر متعة وتسلية. وانفجر النواب المهوشون في ضحك مدوٍ مرعد عندما راح الفوهرر ، يتدفق بقوة متزايدة بسخريته اللاذعة التي لا تنتهي بالرئيس الامريكي . وشرع يتلو نقاط برقية الرئيس واحدة تلو أُخرى ، متوقفاً بعد كل واحدة منها ليبتسم ، ثم ليقول في صوت خفيض وكأنه أُستاذ مدرسة :

إن ردّنا هو هذا . وما زال مؤلف هذا الكتاب ، يتصور هتلر وهو يتوقف مرة تلو المرة ليقول بصوت خفيض ... الرد ... كذا ، بينما جلس غورنغ في مقعد على المنصة ، يحاول أن يكتم عطسة ، وبينما كان الأعضاء بعد كل مرة يتلفظ فيها بكلمة الرد ، يستعدون للانفجار في ضحكة داوية » وقال هتلر :

« يعلن الرئيس روزفلت أن من الواضح اليه أن جميع المشاكل الدولية يمكن حلها على مائدة المفاوضات والمشاورات ...

.. وردنا ... ان ما يسعدني كل السعادة أن تحل جميع هذه المشاكل على مائدة المفاوضات . ولكن شكي يرتكز على أي حال على الحقيقة الواقعة ، وهي أن أمريكا نفسها هي التي تنطلق بتعبيرها الصارخ على عدم ثقتها في جدوى المؤتمرات . فلقد كانت عصبة الأمم ، هي أعظم مؤتمرات التاريخ كله إذ أنها تمثل جميع شعوب العالم ، وقد تم خلقها تنفيذاً لرغبة الرئيس الامريكي ، ولكن الولايات المتحدة ، كانت الدولة الأولى على أي حال التي تراجعت عن هذه المحاولة .... ولم اتخذ قراري باحتذاء حذو امريكا إلا بعد سنوات طويلة من الأشتراك الذي لا فائدة فيه ...

« ولم تتحقق حرية امريكا الشمالية على مائدة المفاوضات كما لم يقرر الصراع بين ولايات الشمال والجنوب على تلك المائدة ايضاً . ولا أرى ضرورة لتعداد الحروب التي لا حد لها ولا حصر والتي اسفرت في النهاية عن اخضاع القارة الامريكية الشمالية بمجموعها .

« وانني لأورد كل هذه الأمثلة لاظهر أن رأيك يا مستر روزفلت على الرغم من جدارته بالاحترام والتقدير لا يجد مستنداً له في تاريخ بلادك أو في تاريخ ما تبقى من اجزاء العالم » .

وراح هتلر يذكر الرئيس بأن المانيا مضت ذات يوم الى مائدة المفاوضات في فرساي لا لتشترك في البحث ، بل لتملى عليها الأوامر املاء ، « وتعرض ممثلوها لإذلالٍ اكبر مما تعرض له حتى رؤساء قبائل السيوكس من الهنود الحمر » .

ووصل هتلر أخيراً إلى النقطة الاساسية في رده على طلب الرئيس بأن يتعهد بعدم مهاجمة أي من الدول الاحدى والثلاثين وقال :

« وردنا هو كيف تمكن المستر روزفلت من معرفة الدول التي تعتبر نفسها مهددة بالسياسة الألمانية والدول التي لا تعتبر نفسها مهددة ؟ وهل المستر روزفلت في موقف يمكنه تلقائياً على الرغم من جسامة المهام الضخمة الملقاة على عاتقه للعمل في بلاده ، من ادراك كل ما لدى الشعوب الاخرى وحكوماتها من انطباعات عقلية وروحية ذاتية ؟

« ويطلب المستر روزفلت أخيراً ان نقدم اليه التأكيدات بأن القوات الألمانية المساحة لن تهاجم أو تغزو أراضي وممتلكات الدول المستقلة التالية ... »

ثم راح هتلر يقرأ ببطء اسم كل دولة من الدول . واني لأذكر أن الضحكات كانت تتعالى من أعضاء الرايشستاغ مع كل اسم يـذكره ، ولم يلحظ أي عضو من أعضاء المجلس ، أو أي شخص من برلين وبينهم مؤلف هذا الكتاب ، انـه قد تجاهل بولندة عن دهاء ومكر ....

وأخيراً أخرج هتلر ورقة « الآس » الرابحة من جيبه ، أو خيل إليه أنـه أخرجها فقال :

« أن ردي ، هو اني جشمت نفسي مشقة التأكد من هـذه الدول التي ذكرتها عما إذا كانت أولاً تحس بأنها مهددة حقاً . وعمّا إذا كانت ثانياً ، وهـذا هو الشيء المهم ، هي التي اقترحت على الرئيس الامريكي أن يوجه إلينا هذا السؤال ، أو انها وافقت على الأقل على توجيهه ...

« ولقد كان رد هذه الدول في جميع الحالات سلبياً ... ومن الحق انني لم استطع التحري عن هـاتين النقطتين من بعض الدول والبلاد المذكورة لأن هـذه البلاد نفسها ـ كسوريا مثلاً ـ ليست

حائزة لحريتها في الوقت الحاضر ، ولأنها محتلة ، ومغتصبة الحقوق في النتيجة من قبل الممثلين العسكريين للدول الديموقراطية .

« وإذا ما استثنينا هذه الحقيقة ، فإن جميع الدول المتاخمة لألمانيا قد تلقت منا تأكيدات اكثر إلزاماً من تلك التي تفضل المستر روزفلت بطلبها في برقيته الغريبة ....

« وأرى لزاماً علي ان الفت نظر المستر روزفلت إلى خطأ أو خطأين تاريخيين . فلقد ذكر ايرلندة مثلاً ، وطلب من المانيا بياناً بأنها لن تهاجمها . ولقد قرأت قبل قليل خطاباً ألقاه ديفاليرا رئيس وزراء ايرلندة (Taoiseach)[1] لم يتهم فيه المانيا ، ولعل هذا يبدو غريباً ومناقضاً لرأي المستر روزفلت ، بمحاولة اضطهاد ايرلندة ، وانما وجه الملامة إلى انكلترا ، متهماً اياها بتعريض بلاده إلى عدوان متواصل ...

« ويبدو أن الحقيقة قد فاتت ملاحظة المستر روزفلت بنفس الطريقة ، من أن القوات الألمانية ليست هي التي تحتل فلسطين الآن ، وإنما تحتلها القوات الانكليزية ، وأن حرية تلك البلاد تتعرض الآن إلى اشد القيود عن طريق اللجوء الوحشي جداً إلى العنف ... »

ومع ذلك فلقد ذكر هتلر ، أنه على استعداد لتقديم الضمانات التي يرغب فيها المستر روزفلت إلى كل دولة من هذه الدول ، وأضاف قائلاً ، وقد لمع البريق في عينيه :

« ولكنني لا أُريد أن أترك هذه الفرصة تمر دون أن أقدم إلى رئيس الولايات المتحدة تأكيداً يتعلق بتلك البلاد ، التي تسبب له حتماً ، وقبل كل شيء ، الكثير من القلق ، وأعني بها الولايات

---

١ ـ كان هتلر حريصاً على استخدام الكلمة الغالية (لغة ايرلندة الاصلية) التي تعني رئيس الوزراء .

المتحدة نفسها والدول الاخرى الموجودة في القارة الامريكية ...

« وها أنا اعلن إعلاناً صادقاً ، بأن جميع المزاعم المنتشرة ، والمتعلقة بما يقال عن هجوم أو غزو الماني مقصود لأرض أمريكية أو داخلها ، ليست إلا إختلاقات وأكاذيب ضخمة ، بالإضافةِ إلى الحقيقة الواقعة وهي أن هذه المزاعم ، لا يمكن أن تكون بالنسبة إلى الامكانات العسكرية ، إلا ثمرة خيال سخيف ... »

وانفجر الرايشستاغ في قهقهة داوية ساخرة ، ولم يبتسم هتلر محافظاً بمجهود جبار على هيئة الجدية الوقور .

وراح هتلر يتدفق بعد ذلك بأبلغ ما استمعت اليه آذان الألمان كما اعتقد من عبارات إذ قال :

« والآن يا مستر روزفلت ! إنني افهم تمام الفهم أن اتساع بلادك وضخامة ما فيها من ثروات عظيمة قد يسمحان لك بأن تحس نفسك مسؤولاً عن تاريخ العالم بأسره ، وعن تاريخ جميع الدول . لكنني يا سيدي ، أرى نفسي في مجال اصغر من مجالك وأكثر تواضعاً ...

« ولقد سبق لي أن تسلمت الحكم في دولة كانت تواجه الدمار الكامل بفضل ما أولته من ثقة للوعود التي قطعتها لها بقية اجزاء العالم ، وبفضل النظام السيىء للحكم الديموقراطي .... وتغلبت على الفوضى في المانيا ، واعدت فرض النظام ، وضاعفت الانتاج إلى حدٍ هائل .... وطوّرت طرق المواصلات ، وامرت بشق طرق ضخمة ، وقنوات عظيمة ، وخلقت مصانع جديدة هائلة وحاولت في نفس الوقت السير بالتعليم والثقافة عند شعبنا في مجالات التقدم .

« وقد افلحت في العثور على العمل النافع من جديد لنحو من سبعة ملايين عاطل من ابناء شعبنا .... ولم اكتف بتوحيد الشعب

الألماني سياسياً ، بل قمت ايضاً بإعادة تسليحه . وحاولت كذلك ان احطم ورقة ورقة تلك المعاهدة التي انطوت ببنودها الثمانية والاربعين بعد الاربعمائة ، على اسوأ طغيان يمكن للشعوب أو لبني البشر تصوره .

« وقد أعدت للرايخ مقاطعات سرقت منه في عام ١٩١٩ . وأعدت ملايين الألمان الذين سلخوا عنا وكانوا يحيون حياة الشقاء إلى وطنهم الأب ... وكل ذلك يا مستر روزفلت ، دون أن أسفك الدماء ، ودون أن أحمّل شعبي وبالتالي الشعوب الاخرى ما تجره الحروب من شقاء ....

« أما مهمتك أنت يا مستر روزفلت ، فأهون بكثير إذا ما قورنت بمهمتي ، فلقد أصبحت رئيساً للولايات المتحدة في عام ١٩٣٣ أي في نفس العام الذي غدوتُ فيه مستشاراً للرايخ . وخطوت منذ البداية يا مستر روزفلت إلى قيادة دولة تعتبر من أكبر دول العالم واكثرها ثراء .... ولا ريب في أن الأوضاع التي تسود بلادك ، ضخمة إلى الحد الذي يمكنك من أن تجد الوقت والمتعة الكافيين لتوجيه اهتمامك إلى المشاكل العالمية .... وتشمل اقتراحاتك ونقاط اهتمامك منطقة أوسع بكثير واضخم من نقاط اهتمامي واقتراحاتي وذلك لأن عالمي يا مستر روزفلت الذي شاءت العناية الإلـهية ان تضعني فيه ، والذي أجد نفسي مرغماً على العمل من اجله ، اصغر بكثير ولسوء الحظ من عالمك ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي أنه أثمن علي من أي شيء آخر ، لأنه محصور في شعبي ! » وإني لاعتقد على أية حال ، أن هذه هي الطريقة التي استطيع أن أخدم بها كل ما يثير اهتمامنا وقلقنا واعني بها العدالة والرخاء والتقدم والسلام للمجموع بأسره » .

ويعتبر هذا الخطاب اعظم روائع هتلر البلاغية في خداع الشعب الالماني .

ولكن تبين لكل من جال في اوروبا في الايام التالية بكل سهولة أن هذا الخطاب على النقيض من عددٍ من خطبه السابقة لم يخدع أي شعب أو أية حكومة في الخارج . فلقد تمكنت هذه الشعوب على النقيض من الالمان ، من رؤية الحقيقة عبر السراب الخادع . وأدركت ايضاً أن الفوهرر الألماني على الرغم من قوته الخطابية الرائعة . وعلى الرغم من تفوقه على روزفلت لم يجب إجابة حقيقية على سؤالَيْ الرئيس الجوهريين — : ترى هل انتهى من العدوان ؟ وهل سيهاجم بولندة ؟ .

ولقد كان هذا الخطاب كما ثبت فيما بعد آخر ما القاه هتلر من خطب عامة ضخمة في حياته السلمية . وقد تمكن الأفاق النمسوي السابق من التقدم في هذا العالم إلى أقصى ما امكنه بفضل ما تتميز به خطابته من عبقرية . أما الآن فقد تحتم عليه أن يحاول حفر مكانته في التاريخ كإنسان محارب .

وعاد هتلر إلى ملاذه الجبلي في برختسغادن لقضاء فصل الصيف فيه دون أن يرد علناً على جواب بولندة الذي قدمته اليه في الخامس من أيار على شكل خطاب القاه العقيد بيك في البرلمان وتضمنته مذكرة رسمية بعثت بها الحكومة البولندية إلى المانيا في ذلك التاريخ ايضاً . وقد انطوى البيان البولندي وخطاب بيك على ردٍ ودود يحمل طابع المجاملة مع الانفة ، ويظهر بمظهر الصلابة والحسم ... وقد جاء في هذا الرد ما يلي :

« من الواضح أن المفاوضات التي تضع فيها دولة مطالبها وترغم الدولة الأخرى على قبولها دون تغيير لا يمكن أن تعتبر مفاوضات مطلقاً » .

تدخل روسيا ـ ١

لم يضمّن هتلر خطابه في الرايشستاغ في الثامن والعشرين من نيسان هجماته المعهودة على الاتحاد السوفياتي ، ولم يشر إلى روسيا فيه بكلمة واحدة . أما رد

العقيد بيك فقد ذكر عبارة « وبعض التلميحات الاخرى » من جانب المانيا التي تمضي إلى ابعد من المواضيع التي يتناولها الحديث « ثم أحتفظ بالحق في العودة إلى الموضوع إذا اقتضت الضرورة » ، وهي إشارة مبطنة ولكنها واضحة إلى جهود المانيا السابقة في اقناع بولندة بالانضمام إلى ميثاق مكافحة الشيوعية ضد روسيا . وعلى الرغم من أن بيك لم يعرف الحقيقة آنذاك ، كما لم يعرفها تشمبرلين أيضاً ، إلا أن الجهود ضد روسيا بدأت تختفي الآن . وأخذت آراء جديدة في التوالد في كل من برلين وموسكو في هذه اللحظة .

ومن الصعب علينا التحقق من التاريخ الذي بدأت فيه أول خطى في العاصمتين للوصول إلى تفاهم بين المانيا النازية والاتحاد السوفياتي ، قدر له أن يؤدي إلى تلك النتائج الهائلة بالنسبة إلى العالم بأسره . وكان أول ما وقع في اتجاه الريح من تبدل طفيف ، كما شرحنا من قبل ، في الثالث من تشرين الأول عام ١٩٣٨ ، أي بعد أربعة أيام فقط من مؤتمر ميونيخ ، عندما بعث مستشار السفارة الألمانية في موسكو ، تقريراً إلى برلين يبلغها فيه ان ستالين سيستخلص ولا شك استنتاجات معينة من تسوية مشكلة السوديت التي استثني منها ، وأن هذه الاستنتاجات قد تجعله « اكثر ايجابية » مع المانيا . وقد تبنى الدبلوماتي المذكور فكرة قيام تعاون اقتصادي « اوسع نطاقاً » بين البلدين ، وعاد يكرر اقتراحه بعد اسبوع واحد في تقرير برقي ثان .[١] وأبلغ السفير الألماني في موسكو ، فريدريش فيرنر كونت فون دير شولنبرغ برلين حوالي نهاية شهر تشرين الأول ، أنه يعتزم « في المستقبل القريب الاتصال بمولوتوف رئيس مجلس قوميسيري الشعب (رئيس الوزراء) محاولاً الوصول معه إلى تسوية لكافة المشاكل التي تثير الاضطراب في العلاقات الألمانية الروسية .[٢] ومن المستبعد جداً أن يكون السفير نفسه ، هو صاحب هذه الفكرة بالنظر إلى مواقف هتلر العدائية السابقة من موسكو والتي تجاوزت كل حد . ولا ريب في أن الاشارة

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ص ٦٠٢ ــ ٦٠٧ .

٢ ــ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٤) ص ٦٠٧ــ٦٠٨ .

الأولى في هذا الاتجاه قد صدرت عن برلين .

وتوضح دراسة وثائق وزارة الخارجية الألمانية التي صودرت بعد الحرب ،ان هذه الاشارة قد صدرت عن برلين حقاً . وكان من رأي الألمان ، أن الخطوة الأولى يجب أن تتخذ شكل تحسين الاتجار بين البلدين . وتحسر مذكرة لوزارة الخارجية الألمانية بتاريخ الرابع من تشرين الثاني عام ١٩٣٨ النقاب عن أن « مكتب المشير غورنغ يلحف في المطالبة بمحاولة تنشيط الاتجار مع روسيا على الأقل ، ولا سيما فيما يتعلق بالمواد الأولية الروسية »[١] . وكان من المتوقع أن تنتهي الاتفاقات التجارية الألمانية - الروسية في نهاية العام ، وقد امتلأت ملفات الويلهمشتراسة بالوثائق التي تظهر ما صادف المفاوضات لتجديد هذه الاتفاقات من نكسات وما رافقها من آمال. وكان كل من الجانبين يشك كل الشك في الجانب الآخر ، ومع ذلك فإنهما شرعا يتقاربان بصورة غامضة . وجرت في الثاني والعشرين من كانون الأول في موسكو محادثات مطوّلة بين موظفي وزارة التجارة الروسيةوبين جوليوس شنوري ، الحلاّل الماهر للمشاكل الاقتصادية الألمانية .

وقام اليكسي ميريكالوف السفير السوفياتي في برلين بعيد رأس السنة الجديدة بزيارة من زياراته غير المألوفة لوزارة الخارجية الالمانية لابلاغها « رغبة الاتحاد السوفياتي في بدء عهد جديد من العلاقات الاقتصادية بين البلدين » . واستمرت المحادثات موحية بالتفاؤل بضعة اسابيع ، ولكن عندما حل شهر شباط عام ١٩٣٩ ، بدت هذه المحادثات على وشك الانهيار تقريباً . وذلك بسبب الخلاف كما يبدو على ما إذا كانت المفاوضات الرئيسية ستدور في موسكو أو في برلين . لكن السبب الحقيقي لهذا الانقطاع ، ظهر فيما بعد جلياً في مذكرة لمدير دائرة السياسة الاقتصادية في وزارة الخارجية الألمانية مؤرخة في الحادي عشر من آذار عام ١٩٣٩ ، فقد اشارت هذه المذكرة إلى انه على الرغم من حاجة المانية الماسة إلى المواد الروسية الأولية وعلى الرغم من

---

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٦٠٨ - ٦٠٩

ان غورنغ يواصل الالحاف بوجوب الحصول عليها ، إلا أن الرايخ كان عاجزاً عن توفير السلع التي سيحصل عليها الاتحاد السوفياتي على سبيل المقايضة بدلاً من تلك المواد . وكان من رأي المدير ان « انقطاع المفاوضـــات » شيء يدعو إلى الأسف البالغ ، بالنظر إلى مركز المانيا المفتقر إلى المواد الأولية [1] .

ولكن إذا قدر لأولى المحاولات ان تفشل في مجال العلاقات الاقتصادية بين البلدين مؤقتاً ، فإن هنـــاك مجالات أُخرى تلوح في الأفق . والقى ستالين في العاشر من آذار عـــام ١٩٣٩ خطاباً طويلاً في الجلسة الاولى التي عقدها المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعي في موسكو . ولم تمض ايام ثلاثة حتى كان شولنبرغ الساهر على مصلحة بلاده ، يبعث بتقرير مطوّل عن هـــذا الخطاب الى برلين . وذكر السفير في تقريره أنه يرى بأن «مما تجدر ملاحظته ان سخريـــة ستالين وانتقاداته كانت موجهـــة بصورة اعنف إلى بريطانيا منهـــا إلى الدول المعتدية المزعومة او المانيـــا بصورة خاصة » . واكد السفير على ملاحظات ستالين التي قال فيها أن « ضعف الدول الديموقراطية .... بات واضحاً من الحقيقة الواقعة وهي انها قد تخلت عن مبدأ الأمن الجماعي وتحولت إلى سياسة عـــدم التدخل والحياد . ولا ريب في ان النيّة المبيتة وراء هذه السياسة هي الرغبة في تحويل الدول المعتدية الى ضحايا أخرى « وراح يقتطف بعد ذلك اتهامات الديكتاتور السوفياتي بأن الدول الغربية ....

« تدفع بالالمان دفعـــاً إلى الشرق ، واعدة إياهم بفريسة سهلة جديدة وقائـلة لهم .... « عليكم فقط ان تشرعوا في حرب مـــع البلاشفة ، وآنذاك ستحل كافة المشاكل تلقائياً » . إن هذا يبدو بمثابة تشجيع لهم ... ويبدو ان الهدف من هذه الأقوال استثارة حنق الاتحاد السوفياتي ضد المانيا واستفزاز حرب بينهما دون أي سبب واضح معقول ... »

وختم ستالين خطابه متوصلاً إلى النتائج المبدئية التالية :

---

١ ـــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٤) ص ٦٣١ .

« ١ – مواصلة السير على سياسة سلمية وتوطيـــد العلاقات الاقتصادية مع جميع البلاد .

« ٢ – ان لا نسمح لبـــلادنا بالانسياق إلى الحرب تحت تأثير دعاتهـا ، الذين الفوا أن يعهدوا إلى الآخرين بانتزاع الكستناء من النار » [١]

ولقد كانت هذه الأقوال انذاراً واضحاً من الرجل الذي يتصرف بمقدرات الاتحاد السوفياتي ويتخذ له قراراته النهائية ، بأن روسيا لا تعتزم ان تساق عن طريق المناورات إلى حرب مع المانيا النازية ، لتوفر على بريطانيا وفرنسا عبء الاشتباك فيها معها . وقد تجاهلت لندن هذا الإنذار ، لكن برلـين لم تتجاهله ابداً [٢] .

ومع ذلك فـما زال واضحاً من خطاب ستالين ومن الاتصالات الدبلوماتية المختلفة التي جرت فيما بعد ، ان سياسة السوفيات الخارجية كانت لاتزال صريحة

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٦) ص ١ – ٣

٢ – على الرغم من ان البرقية التي بعثت بها وكالة الصحف المشتركة من موسكو ونشرتهـا النيويورك تايمز في عددها الصادر في الثاني عشر من آذار قد ذكرت بأن حملة ستالين على المحاولات للزج بروسيا في حرب ضد المانيا قد اثارت الكثير من الاقوال في الدوائر الدبلوماتية في موسكو عن احتمال قيام تقارب بين الاتحاد السوفياتي والمانيا ، فان السير ويليام سيدس ، السفير البريطاني لم يشترك في هذه الأقوال على الغالب . إذ يذكر السفير في برقيته التي نقل فيها خطاب ستالين شيئاً عن مثل هذا الاحتمال . وقد توصل دبلوماتي غربي هو جوزف ديفيز السفير الامريكي السابق في موسكو والذي كان يقيم آنذاك في بروكسل الى الاستنتاجات الصحيحة من خطاب ستالين . وسجل في يوميته بتاريـخ الحادي عشر من آذار يقول : « حقاً انه لبيان هام للغاية . فهو يحمل صورة الانذار الواضح الى الحكومتين البريطانية والفرنسية بأن السوفيات قد بدأوا يحلون من هذه المعارضة « اللاواقعية للمعتدين ، ولا ريب في ان هذا الملل نذير شر بالنسبة الى المفاوضات بين وزارة الخارجية البريطانية والاتحاد السوفياتي . ولا ريب عندي في ان هذا الخطاب اوضح ناقوس للخطر رأيته في حياتي » وبعث في الواحد والعشرين من آذار برسالة الى الشيـخ الامريكي كي بتمان قال فيها . . . « يبذل هتلر محاولات يائسة لابعاد ستالين عن فرنسا وبريطانيا . واني لأتوقع له النجاح اذا لم تستفق الدولتـان للخطر . » (ديفيز – بعثة دبلوماتيـة الى موسكو . ص ٤٣٧ – ٤٣٩ . وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٤) ص ٤١٩ .

مكشوفة على الرغم من حيطتها . وفي الخامس عشر من آذار، وكانت ثلاثة ايام قد انقضت على احتلال النازيين لتشيكوسلوفاكيا ، اقترحت الحكومة السوفياتية كما رأينا من قبل عقد مؤتمر سداسي لبحث الوسائل الرامية إلى منع العدوان في المستقبل ، فرفض تشمبرلين الاقتراح على اعتبار أنه « سابق لأوانه »[١] . وكان الرفض البريطاني في الثامن عشر من آذار . ولم يمض يومان حتى صدر بلاغ رسمي في موسكو ، حمل السفير الألماني فيها على المسارعة إلى الابراق به إلى برلين فقد نفى البلاغ أن يكون الاتحاد السوفياتي قد عرض على بولندة ورومانيا مساعدتها « في حالة تعرضها كفريستين للعدوان » وشرح البلاغ قائلاً « إن بولندة ورومانيا لم تتقدما إلى الحكومة السوفياتية بأي طلب لمعونتها كما لم تبلغاها بوجود أي خطر يهددهما »[٢] .

وليس ثمة من شك في أن ضمانة « الطرف الواحد » التي أصدرتها الحكومة البريطانية لبولندة في الواحد والثلاثين من آذار قد ساعدت على إقناع ستالين بأن بريطانيا العظمى ، تؤثر التحالف مع البولنديين على التحالف مع الروس وأن تشمبرلين عازم كما يبدو ، وكما كان في ايام ميونيخ على إبقاء الاتحاد السوفياتي بعيداً عن مجموعة الدول الاوروبية[٣].

وراح الألمان والايطاليون يلمحون في هذا الوضع بعض الفرص المواتية . وكان غورنغ الذي بات يتمتع الآن بنفوذ ضخم عند هتلر في الشؤون الخارجية

---

١ ـ قال اللورد هاليفاكس في محاولته ان يوضح للسفير السوفياتي في لندن ، ايفان مايسكي ، في التاسع عشر من آذار ، الاسباب التي تدعو بريطانيا إلى اعتبار الاقتراح الروسي بعقد المؤتمر السداسي في بوخارست « أمراً غير مقبول » ، بأن بريطانيا لا تستطيع ان تستغني في تلك اللحظة عن أي من وزرائها للاشتراك في مؤتمر بوخارست . ومن الواضح ان هذا التفسير الفظ قد اثار حفيظة الروس وحملهم حقداً في المفاوضات المقبلة مع البريطانيين والفرنسيين . ولقد ذكر مايسكي فيما بعد لروبرت بوثبي العضو المحافظ في مجلس العموم ان رفض الاقتراح الروسي « ضربة قاصمة أخرى لسياسة الأمن الجماعي الفعالة » وانه قرر مصير لتفينوف (بوثبي ـ احارب لاعيش . ص ١٨٩ ووثائق وزارة الخارجية البريطانية (٤) رقم ٤٣٣

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٨٨ ـ ٨٩ .

٣ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٣٩ .

قد قابل موسوليني في رومة في السادس عشر من نيسان ولفت انتباه الدوتشي الى خطاب ستالين الاخير الذي وجهه الى مؤتمر الحزب الشيوعي . ولقد اثر عليه قول الديكتاتور الشيوعي « بأن الروس لن يسمحوا باستخدامهم حشيَّة مدافع للدول الاستعمارية » . واضاف « انه سيسأل الفوهرر عما إذا لم يكن من الممكن بالنسبة اليه أن يجس نبض روسيا بمنتهى الحيطة والحذر ... هادفاً إلى شيء من التقارب » ، وراح يذكر موسوليني بأنه « لم يرد أي ذكر مطلقاً لروسيا في خطب الفوهرر الاخيرة » . وتروي المذكرة الألمانية السرية عن الاجتماع ان الدوتشي رحب ترحيباً حاراً بفكرة التقارب بين دول المحور وبين الاتحاد السوفياتي ، ويبدو ان الديكتاتور الايطالي قد لمس ايضاً تبدلاً في موقف موسكو ، ورأى ان عملية التقارب « يمكن ان تتم بسهولة نسبية » .

وقال موسوليني : « سيكون الهدف اقناع روسيا باتخاذ موقف الفتور والبرود من محاولات بريطانيا القيام بأعمال التطويق على ضوء الخطوط التي وردت في خطاب ستالين ، يضاف إلى هذا أن دولتي المحور في نضالها العقائدي ضد البلوتوقراطية والرأسمالية تقفان الى حد ما هادفتين إلى نفس الاهداف التي يتطلع اليها النظام السوفياتي[1] » .

ولا ريب في أن هذا التحول كان جذرياً بالنسبة الى سياسة المحور ، وليس ثمة من شك في ان تشمبرلين كان لا بد وان يدهش منه لو عرف به آنذاك . وليس من شك في ان لتفينوف ايضاً كان لا بد وان يدهش منه .

واستقبل وزير الخارجية السوفياتية في نفس اليوم الذي دار فيه هذا الحديث بين غورنغ وموسوليني أي في السادس عشر من نيسان سفير بريطانية في موسكو وقدم اليه اقتراحاً رسمياً بعقد ميثاق ثلاثي للمساعدة المتبادلة يشمل بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتي . وانطوى الاقتراح على عقد حلف عسكري بين الدول الثلاث لتنفيذ الميثاق ، مع تقديم ضمان من الدول الموقعة عليه ، تشترك فيه بولندة إذا أرادت ، إلى جميع الدول في الأوروبتين الوسطى والشرقية ، التي تشعر بأنها مهددة من جانب المانيا النازية . وكان هذا الاقتراح آخر محاولة

١ ـ المذكرة الالمانية عن الاجتماع ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ .

من جانب لتفينوف لعقد حلف ضد الرايخ الثالث ، ولا ريب في أن وزير الخارجية الروسية الذي كان قد قامر بمستقبله السياسي على سياسة وقف هتلر بعمل جماعي ، لا بد وان يكون قد ظن أخيراً بأنه لا بد ناجح في توحيد الديموقراطيتين الغربيتين مع الاتحاد السوفياتي لهذه الغاية . وكان تشرشل قد ذكر في خطاب ألقاه في الرابع من ايار محتجاً على التأخر في قبول الاقتراح السوفياتي في لندن ، بأن « ليست هناك وسيلة للحفاظ على جبهة في الشرق ضد العدوان النازي دون العون الفعلي من جانب روسيا » . واضاف أن ليست هناك دولة في أوروبا الشرقية ، حتى ولا بولندة بالتأكيد ، تملك القوة العسكرية اللازمة للحفاظ على جبهة قوية في تلك المنطقة . ومع ذلك فقد لقي الاقتراح السوفياتي شيئاً من التجهم من جانب لندن وباريس .

ولكن ، حتى قبل صدور هذا الرفض قام ستالين بأول محاولة جدية من جانبه لمنازلة الجانب الآخر . فلقد زار السفير السوفياتي في برلين في السابع عشر من نيسان أي في اليوم الذي تلا العرض الشامل الذي قدمه لتفينوف الى السفير البريطاني في موسكو ، بزيارة وايز ساكر في وزارة الخارجية الألمانية . وقد دوّن وزير الدولة في مذكرة رسمية ، ان هذه الزيارة كانت الأولى التي قام بها ميريكالوف له منذ توليه منصبه هذا قبل نحو من عام . وبعد محادثات تمهيدية عن العلاقات الاقتصادية بين المانيا وروسيا تحوّل السفير إلى السياسة فقال كما روى وايز ساكر :

« لقد سألني بصورة صريحة عما أراه بصدد العلاقات الألمانية – الروسية ، وكان حديث السفير على النحو التالي : لقد سارت السياسة الروسية دائماً في خط واضح مستقيم . فلم تكن للخلافات العقائدية أي تأثير سيىء على العلاقات بين روسيا وايطاليا ، ولذا فليس ثمة من حاجة إلى أن تثير هذه الخلافات المشاكل مع المانيا . ولم تستغل روسيا النزاع الحالي القائم بين المانيا والديموقراطيات الغربية ضدنا كما لم ترغب في استغلاله . أما بالنسبة إلى روسيا فليس ثمة من داعٍ

يدعوها إلى عدم العيش على نطاق العلاقات العادية معنا ، ولا ريب في أن هذه العلاقات العادية يمكن أن تنمو بصورة متزايدة إلى علاقات افضل .

« وقد انهى المسيو ميريكالوف حديثه بهذه الملاحظة التي كان يوجه الكلام نحوها . ثم اضاف انه يعتزم زيارة موسكو بعد يوم او يومين »[1] .

ويبدو أن شيئاً ما كان يجري إعداده الآن في العاصمة الروسية التي عاد اليها السفير السوفياتي .

وقد بان هذا الشيء في الثالث من ايار . فلقد ظهر في ذلك اليوم في الصفحة الاخيرة من الصحف السوفياتية ، وبشكل مغمور ، في العمود الذي يحمل عنوان «الاخبار باختصار» النبأ الصغير التالي: « أُعفي المسيو لتفينوف قوميسار الشؤون الخارجية من منصبه بناء على طلبه » . وقد خلفه فياشيسلاف مولوتوف رئيس مجلس قوميساري الشعب (رئيس الوزراء) .

وراح القائم بالأعمال الألماني في موسكو ينقل النبأ إلى برلين في اليوم التالي على النحو الآتي :

« لقد اثار التبدل المفاجىء دهشة كبيرة هنا ، إذ كان لتفينوف في خضم المفاوضات مع الوفد البريطاني ، وكان قد بدا قريباً جداً من ستالين في استعراض الاول من ايار ...

« ولما كان لتفينوف قد استقبل السفير البريطاني ، في الثاني من ايار ، وكان اسمه قد ورد في الصحف أمس على أنه كان ضيف الشرف في الاستعراض ، فإن إخراجه من منصبه يبدو وكأنه نتيجة قرار ذاتي من ستالين... وكان ستالين في مؤتمر الحزب الاخير قد حذر من جرّ الإتحاد السوفياتي إلى ميدان الصراع ، أما مولوتوف ، وهو غير يهودي ، فمعروف بأنه « أقرب أصدقاء

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧ .

ستالين إلى فؤاده ، واكثر القادةالسوفيات تعاوناً معه » . ولا ريب في أن القصد من تعيينه واضح ، وهو ايجاد ضمان بأن السياسة الخارجية ستسير وفقاً لخطوط يضعها ستالين نفسه »[1] .

واتضحت اهمية تنحية لتفينوف المفاجئة للجميع . فقد عنت تحولاً عنيفاً وحاداً في سياسة السوفيات الخارجية . إذ كان هذا الرجل المدافع الاكبر عن سياسة الأمن الجماعي وتقوية سلطان عصبة الأمم ، والبحث عن أمن روسيا وسلامتها من خطر المانيا النازية عن طريق التحالف العسكري مع بريطانيا العظمى وفرنسا . وكان تردد تشمبرلين في عقد مثل هذا التحالف ضربة قاضية للوزير الروسي . وقضى ستالين ، وقضاؤه هو المبرم في موسكو ، أن سياسات لتفينوف قد منيت بالفشل . يضاف إلى هذا ان هذه السياسات قد تدفع بالاتحاد السوفياتي إلى حرب مع المانيا ، تقف فيها الديموقراطيتان الغربيتان موقف المتفرج . وقرر ستالين ان الوقت قد حان لتجربة اتجاه جديد .[2] وإذا كان تشمبرلين قد أرضى هتلر في الماضي فلماذا لا يرضيه الديكتاتور الروسي الآن ؟ ولا ريب في ان الحقيقة الواقعة وهي ان لتفينوف اليهودي قد استبدل بمولوتوف ، وهو غير يهودي كما تؤكد السفارة الالمانية في موسكو في

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٤١٩ ـ ٤٢٠ .

٢ ـ إذ شئنا ان نصدق ، على الرغم من حذرنا ، اليوميات المطبوعة التي اصدرها لتفينوف ، تبين لنا ان ستالين كان يفكر في مثل هذا التبدل في السياسة منذ مؤتمر ميونيخ الذي استبعد الاتحاد السوفياتي منه . وتقول هذه اليوميات ان ستالين قال للتفينوف حوالي نهاية عام ١٩٣٨ . . . « اننا على استعداد للاتفاق مع الالمان . . . ولجعل بولندة غير قادرة على الاذى » . ودون وزير الخارجية في شهر كانون الثاني قائلا : « يبدو لي انهمقرروا تنحيتيمنمنصبي » . وكشفالنقاب في نفس اليومية عن ان ستالين قد طلب ان تمر عليه جميع اتصالات الوزير بالسفير الروسي في برلين، واضاف ان السفير ميريكالوف ، على وشك ان يبدأ المفاوضات مع وايزساكر تنفيذاً لتعليمات ستالين ، لابلاغ هتلر عملياً « ان في وسعنا الآن ان نصل الى اتفاق معه ، بعد ان كانهذا مستحيلا في الماضي » . وهناك شكوك كثيرة تحيط بهذه اليوميات . ويقول البروفسور ادوارد هاليتكار ، وهو حجة بريطاني في شؤون الاتحاد السوفياتي ، بعد ان درس اليوميات ، ان مما لا شك فيه انها تعرضت لبعض التحريف الى الحد الذي يظهر بعض اجزائها بمظهر « الاساطير والاقاصيص الكاذبة ». الا ان قسماً كبيراً منها يمثل وجهات نظر لتفينوف .

برقيتها الى برلين ، تترك انطباعاً معيناً في الدوائر النازية العليا .

وأراد الروس ان يتأكدوا من ان الألمان قد فهموا مغزى التبدّل واهميته ، فراح جيورجي استاخوف ، القائم بالأعمال الروسي في برلين يثير الموضوع في الخامس من ايار عندمـــا تحدث إلى الدكتور جوليوس شنوري ، خبير وزارة الخارجية الألمانية في الشؤون الاقتصادية لأوروبا الشرقية . وقـــال شنوري في تقريره عن المقابلة :

« وتحدث استاخوف عن تنحية لتفينوف وحاول أن يعرف ما إذا كان هذا الحادث سيؤدي إلى تبدل في موقفنا من الاتحـــاد السوفياتي . وراح يؤكد الأهمية الكبرى لشخصية مولوتوف ، الذي لم يكن خبيراً في السياسة الخارجية ، ولكنه سيلعب دوراً اكـثر أهمية في السياسة الخارجية المقبلة [1] » .

وحث القائم بالاعمال الألمان على استئناف المفاوضات التجارية التي كانت قد انقطعت في شهر شباط الماضي .

ولم ترد الحكومة البريطانية على الاقتراح السوفياتي الذي وجه اليهـــا في السادس عشر من نيسان حول موضوع الحلف ، إلا في الثامن من آذار ، وكان الرد ، منطوياً على الرفض ، وادى إلى تعزيز الشكوك في موسكـو في أن تشمبرلين لا يرغب في عقد ميثاق عسكري مع روسيا لمنع هتلر من الاستيلاء على بولندة .

ولم يكن من المستغرب بعد هذا الرفض ان يشدد الروس في تقربهـم من الألمان « وعاد استاخوف في السابع عشر من ايار إلى مقابلة شنوري في وزارة الخارجية الألمانية وبعد ان تحدث في القضايا التجارية، راح يعالج القضايا الكبرى وذكر شنوري في تقريره عن المقابلة ما نصه :

« قال استاخوف أن ليس ثمة من مجـال للاصطدام في السياسة الخارجية بين المانيا والاتحاد السوفياتي ، ولذا فليس ثمة من داعٍ إلى

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٤٢٩ .

العداء بينهما . واضاف ان من الواضح أن الشعور يسود الاتحاد السوفياتي ، من انه مهدد من المانيا ، ولا ريب في ان من الممكن إزالة هذا الشعور من التهديد وعدم الثقة في موسكو .... وقال رداً على سؤال عارض من جانبي أن المفاوضات بين انكلترا والاتحاد السوفياتي ، لا تبشر بامكان النجاح بالنسبة إلى موقفها الحالي[1] » .

ودار حديث طويل بعد ثلاثة أيام بين السفير فون دير شولنبرغ وبين مولوتوف في موسكو . وكان وزير الخارجية السوفياتية الجديد في « موقف ودود للغاية » ، وابلغ المبعوث الألماني أن في الامكان استئناف المفاوضات بين البلدين إذا أمكن الوصول إلى الأسس السياسية اللازمة لها . ولقد كانت هذه البادرة حديثة عهد من الكرملن ولكنها تمت بمنتهى الحذر من جانب مولوتوف المتناهي في المكر والدهاء . وعندما سأله شولنبرغ عما يعنيه «بالأسس السياسية» رد الوزير الروسي بأن هذا المفهوم أمر يتطلب التفكير من الفريقين . وراحت جميع المحاولات التي بذلها السفير ، لاستخلاص المعاني من الوزير الداهية عبثاً . وبعث شولنبرغ إلى برلين يقول : « ومن المعروف عن مولوتوف انه رجل عنيد » . ومر السفير في طريق خروجه من وزارة الخارجية بفلاديمير بتومكين نائب مولوتوف وقال له انه لم يستطع ان يفهم ما يريده الوزير من امور ذات طابع سياسي . واضاف شولنبرغ في تقريره ... « لقد سألت الهر بتومكين ، أملاً في أن « أجد ما يريده مولوتوف[2] » .

ولم تفت الاتصالات المتجددة بين برلين وموسكو ، انتباه السفير الفرنسي في العاصمة الألمانية . وبعث المسيو كولوندر في السابع من أيار ، أي بعد أربعة ايام فقط من تنحية لتفينوف بتقرير إلى وزير خارجيته يقول فيه ان المعلومات الموثوقة التي تلقاها ، من شخص قريب من الفوهرر تفيد أن المانيا تسعى إلى التفاهم مع روسيا وان هذا التفاهم سيؤدي إلى اشياء كثيرة منها تقسيم بولندة

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٥٣٥ ــ ٥٣٦ .

٢ ــ العلاقات النازية ــ السوفياتية (١٩٣٩ ــ ١٩٤١) ص ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ .

للمرة الرابعة . وراح السفير بعد يومين يرسل برقية ثانية إلى باريس يذكر فيها ان الشائعات تنتشر في برلين « بأن المانيا قد قدمت أو على وشك ان تقدم إلى روسيا أقتراحات تهدف إلى تقسيم بولندة [١] »

ميثاق الفولاذ

أخذ هتلر يضغط الآن لعقد حلف عسكري مع ايطاليا ، على الرغم من ان كبار قادة القوات المسلحة الالمانية لا ينظرون نظرة طيبة إلى قوة ايطاليا العسكرية ، ولكن موسوليني لم يكن على عجلة من امره في قبول عقد هذا الحلف . وبدأت المحادثات العسكرية بين اركان حرب القيادتين في نيسان ، ونقل كايتل الى القيادة العامة للقوات المسلحة « انطباعه » بأن القوات الايطالية المقاتلة والتسلح الايطالي ، ليسا في وضع طيب . واضاف ان نتيجة الحرب يجب أن تقرر بسرعة ، وإلا فإن ايطاليا ستضطر إلى الخروج منها [٢].

وتظهر يوميات شيانو أنه اصيب بالفزع في منتصف شهر نيسان [٣] ، من الدلائل المتزايدة على ان المانيا قد تهاجم بولندة في اية لحظة ، وتثير حرباً اوروبية لم تكن ايطاليا مستعدة لخوضها . وعندما ابرق اتوليكو السفير الايطالي في برلين الى رومة في العشرين من نيسان يقول ان العمل الالماني ضد بولندا اصبح « قريباً » راح شيانو يحثه على الاستعجال في إعداد الترتيبات لعقد اجتماع مع ريبنتروب حتى لا تفاجأ ايطاليا بالتطورات .

واجتمع وزير الخارجية في ميلان في السادس من ايار . ووصل شيانو إلى الاجتماع يحمل تعليمات خطية من موسوليني يؤكد فيها للألمان ان ايطاليا راغبة في تجنب الحرب مدة سنوات ثلاث على الأقل . ودهش الوزير الايطالي عندما

---

١ ـ الكتاب الفرنسي الاصفر ـ البرقيتان رقم ١٢٣ و ١٢٥

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١ ـ ١١١ الملحق ١

٣ ـ يوميات شيانو ص ٦٧ ـ ٦٨ .

اعلن ريبنتروب أن المانيا تود أيضاً الابقاء على السلام مثل هـذه المدة. كذلك وقد وجد شيانو زميله الالماني « لاول مرة ، في حالة نفسية وعقلية هـادئة » . وراح الوزيران يعرضان الموقف الاوروبي واتفقا على تحسين علاقـات المحور بالاتحاد السوفياتي ثم افترقا ليستعدا لحضور حفلة تنكرية راقصة في المساء .

وعندما هتف موسوليني بعد الحفلة إلى وزيره يسأله عن سير المحادثات ، رد هذا بأنها سارت سيراً مرضياً ، وسرعان مـا أُصيب الدوتشي بنوبة عصبية مباغتة ، فطلب إلى صهره أن يصدر بلاغاً إلى الصحافة يقول فيه أن المانيـا وايطاليا اتفقتا على عقد حلف عسكري . وتردد ريبنتروب في بداية الأمر ، ثم وافق اخيراً على أن يسأل الفوهرر في الموضوع ،فلما سأل هتلر هاتفياً راح يوافق بسرعة على اقتراح موسوليني [1] .

وهكذا ربط موسوليني نفسه بصورة لا تقبل الفصم ، بمصـير هتلر ، نتيجة حافز فجائي وبعد نحو سنة طويلة من التردد. وكانت هذه الخطوة الاشارة الأولى إلى أن الديكتاتور الايطالي مثل زميله الالماني بدأ يفقد تلك الارادة الحديدية من ضبط النفس ، التي مكنتهما حتى تلك السنة ١٩٣٩، ، من صيانة مصالحهما القومية بشيء من الوضوح المتأني . وسرعان ما أثبتت النتائج أنهـا كانت مفجعة بالنسبة إلى موسوليني .

وقد وقع « الميثاق الفولاذي » ، وهو الاسم الذي عرف به ، في حفـل اتصف بالابهة ومظاهر العظمة في دار مستشارية الرايخ في برلـين في الثاني والعشرين من ايار . وقدم شيانو إلى ريبنتروب قلادة « انونزياتا » ، مما اثار حنق غورنغ ، ودفع بالدموع إلى عينيه . وبالفعل اثار المشير مشكلة ، فقد احتج بأنه صاحب الحق في القلادة المهداة ، إذ أنه الرجل الذي عمـل فعلاً لتحقيق الحلف.

وروى شيانو في يومياته ... « ووعدت ماكنزن ، سفير المانيا في رومة بأن احاول الحصول على قلادة لغورنغ . »

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٤٥٠ ـ ٤٥٢ اوراق شيانو الدبلوماتية ص ٢٨٢ ـ ٢٨٧

ووجـــد شيانو هتلر « في اتم صحة وعافية ، واضح الهـــدوء . وقليل الاستفزاز » ، وان بدا على حد تعبير الوزير الايطالي ، أكبر سناً وتملأ التجاعيد وجنتيه ، نتيجة الارق [1] . وكانت عـــلائم الانشراح تبدو على وجه الفوهرر وهو يشهد وزيري الخارجية يوقعان الوثيقة .

وكانت عبارات الوثيقة واضحة كل الوضوح كحذاء عسكري . وكانت طبيعتها الاستفزازية قد تجسدت في عبارة وردت في المقدمة ، واصرّ هتلر على ادراجها ، معلقة ان البلدين « متحدان في وشائج اصيلة من العقائد المشتركة . وعازمان على العمل جنباً إلى جنب وباستخدام قواهما المسلحة لضمان مجـــالهما الحيوي . أما زبدة المعاهدة فقد تمثلت في الفقرة الثالثة ... التي تقول :

« وإذا حدث خلافاً لرغبات الفريقـين الساميين المتعـــاقدين وآمالهما ، ان تورط احدهما في تعقيدات عسكرية مع دولة أخرى او مجموعة دول ، فـــإن الفريق الثاني السامي يسارع فـــوراً إلى مساعدته كحليف ، ويقدم له كل ما لديه من قوات في البر والبحر والهواء »

ونصت المادة الخامسة من الميثاق ، على عدم السماح لأي من الفريقين المتعاقدين في حالة الحرب بعقد صلح أو هدنة على انفراد [2] .

ولكن موسوليني ، كما ظهر فيما بعد لم يحافظ على الفقرة الأولى كما أن ايطاليا لم تكن صادقة في التزام الفقرة الأخيرة في النهاية .

---

١ ـ في يوميات شيانو للثاني والعشرين من ايار الكثير من النتف عن هتلر وحـــاشيته الغريبة . فقد ذكر الوزير الايطالي ان السيدة غوبلز تذمرت من ان الفوهرر يحمل اصدقاءه على البقاء ساهرين طيلة الليل وقالت : « ان هتلر هو المتحدث دائماً . وهو يعود ويكرر ما يقوله مضايقاً ضيوفه . » وسمع شيانو كذلك تلميحات عن مشاعر الفوهرر الرقيقة تجاه فتاة جميلة . انهـــا في العشرين من عمرها . ولها عينان وديعتان جميلتان ، وتقاطيـع منتظمة وجسم رائع واسمها سيغريد فون لاباس . واضاف ان هتلر يلتقي بها كثيراً وله صلة وثيقة بها . (يوميات شيانو ص ٨٥) . ويبـــدو ان شيانو نفسه ، وهو شديد الولع بالسيدات قد تعرض ايضاً لاغراء شديد . ومن الواضح انه لم يكن قد سمع بعد بايفا براون عشيقة هتلر . التي لم يكن يسمح لها في هذا الوقت بالمجيء إلى برلين .

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٥٦١ ـ ٥٦٤ .

وفي الثالث والعشرين من ايار أي بعد يوم واحد من توقيع «ميثاق الفولاذ» ستدعى هتلر قادته العسكريين إلى مكتبه في دار المستشارية في برلين، وابلغهم بصورة صريحة انه لم يعد في الامكان الحصول على مكاسب جديدة دون الحاجة إلى سفك الدماء ، وان الحرب باتت والحالة هذه أمراً لا مناص منه .

وقد ضم اجتماع اليوم عدداً اكبر من الاجتماع المماثل السابق الذي عقد في الخامس من تشرين الثاني عام ١٩٣٧ ، عندما أسرّ الفوهرر لأول مرة بقراره في المضي إلى الحرب الى قادة الفروع الثلاثة من قواته المسلحة . فقد حضر اجتماع اليوم نحو من اربعة عشر قائداً بينهم المشير غورنغ والاميرال الاكبر رايدر ، والفريق فون براوختش والفريق هولدر والفريق كايتل والفريق ايرهارد ميلش المفتش العام للسلاح الجوي والرير اميرال اوتوشنيويند رئيس هيئة اركان حرب البحرية ، وحضر الاجتماع ايضاً مستشار هتلر العسكري المقدم رودلف شموندت ولعل من حسن حظ التاريخ انه دوّن وقائع الاجتماع « وكان ما دونه بين الوثائق الألمانية المصادرة . ويبدو أن اقوال هتلر في هذا الاجتماع ، اعتبرت متناهية في السرية ، بحيث لم تعد نسخ عن الوقائع التي دونها شموندت ، والتي حفظت لنا بخط يده [١] .

وتعتبر هذه الوثيقة من أهم الأوراق السرية التي تلقي ضوءاً على اتجاه هتلر في الطريق إلى الحرب . وهنا وفي هذا الاجتماع الذي ضم نخبة من الرجال الذين تقع على عاتقهم مسؤولية الحقيقة ، عن الأسباب التي تحمله على مهاجمة بولندة ، وعلى احتلال بريطانيا العظمى وفرنسا إذا اقتضت الضرورة . وأخذ يتكهن بشيء من الدقة عن الصورة التي ستسير الحرب فيها في سنتها الأولى على الأقل . ومع ذلك فإن خطابه على الرغم من صراحته – وكان هو المتحدث معظم

---

١ – المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٨٤٧ – ٨٥٤ . وثائق وزارة الخارجية الالمانية(٦) ص ٥٧٤ – ٥٨٠ محاكمات كبار مجرمي الحرب (٣٧) ص ٤٦ . – ٥٥٦ .

الوقت – يحسر النقاب ، عن الكثير من الشكوك واضطراب الفكر ، اكثر من أي شيء آخر صدر عنه حتى هذه اللحظة . فالبريطانيون ما زالوا يحاولون إقامة العراقيل في طريقه ، وهو ما دأبوا عليه حتى نهاية حياته .

ولكنه كان دقيقاً وواضحاً في موضوع وقوع الحرب واهدافه من شنها ، ولم يكن من الممكن ان يغادر أي قائد عسكري أو اميرال دار المستشارية في ذلك اليوم ، الثالث والعشرين من أيار دون أن يعرف بالضبط ، ما سيحدث في ذلك الصيف . وقد بيّن هتلر للمجتمعين أن السبيل الوحيد لحل مشاكل المانيا الإقتصادية هو في الحصول على مزيد من المجال الحيوي لها في اوروبا ، ومثل هذا « مستحيل دون غزو بلاد أخرى ، أو مهاجمة ممتلكات شعوب ثانية »....

ومضى يقول :

« ولم يعد في الامكان تحقيق مكاسب جديدة دون سفك دماء..

« وليست دانزيغ موضع خلاف على الاطلاق . فالقضية تتعلق بتوسيع مجالنا الحيوي في الشرق ، وتأمين ما نحتاج اليه من مواد غذائية ، وحل مشكلة دول البلطيق .... وليس ثمة امكانية أُخرى في أوروبا . وإذا ما حتم علينا القدر ان ندخل في صراع مع الغرب ، فان مما يفيدنا أكبر فائدة ان تكون لنا ممتلكات واسعة في الشرق . ولن يكون في وسعنا أن نركن في أيام الحرب إلى الأرقام القياسية عن الحصاد ، لا سيا وان من المستحيل الاعتماد عليها زمن السلم » .

واضاف هتلر ، ان هناك فائدة اخرى ، وهي أن في إمكاننا استخدام سكان المناطق اللا ألمانية في الشرق كمصدر لتوفير اليد العاملة ، وكانت إشارته هذه تلميحاً مبكراً إلى برامج العمل الالزامي التي نفذها فيما بعد .

وكان الواضح انه اختار الضحية الأولى ...

« فليس هناك مجال لتوفير بولندة .. وقد اصبحنا نواجه قراراً واحداً لا ثاني له وهو أن نهاجم بولندة في أول فرصة ممكنة . فلا

يمكن ان نتوقع تكراراً لمـــا حدث في تشيكوسلوفاكيا . اذن فالحرب ناشبة . وعلينا ان نعزل بولندة ، ونجاحنا في هـذا العزل شيء حاسم » .

وهكذا قرر هتلر خوض الحرب ولكن اتكون مـــع بولندة « المعزولة » وحدها . ان الفوهرر لا يوضح نواياه في هذا الصدد . بـــل هو على النقيض من ذلك مشوش وكثير التناقض . وهو يحتفظ لنفسه كما يقول ، بالأمر الاخـير في توجيه الضربة ... فهو يقول :

« ويجب أن لا تؤدي هذه الحركة إلى معركة متزامنة مع الغرب أي مع فرنسا وانكلترا .

« وليس من الثابت ان الصراع الألماني – البولندي لن يؤدي إلى الحرب مع الغرب ، وفي هذه الحالة يجب أن يتجه القتال بصورة اولية ضد انكلترا وفرنسا .

« وعلى هذا فمن الامور الجوهرية ان الصراع مع بولندة ، الذي سيبدأ بهجوم على بولندة ، لن ينجح الا اذا ظل الغرب بعيداً عنه .

« وإذا تعذر هذا ، فمن الافضل أن يقـــع الهجوم على الغرب وان يصفّى أمر بولندة في وقت واحد »

وليس ثمة من شك في أن الفرقاء « الجنرالات » قد انقبضت نفوسهم من هذه التناقضات السريعة ، ولا ريب ايضاً في أنهم أرخوا « مونوكلاتهم » على انوفهم على الرغم من أن سجل شموندت عن الاجتماع لم يرد حدوث أي شيء من هذا النوع ، أو أن أي فرد من الصفوة المختارة من المجتمعين قـــد جرؤ على توجيه سؤال لوضع الامور في نصابها الصحيح .

وعاد هتلر يتحدث عن روسيا ، فقال « ان ليس من المستبعد ان تفقد روسيا أي اهتمام لها بتهشيم بولندة » . أما إذا تحالف الاتحاد السوفياتي من الناحيـة الأخرى مع بريطانيا وفرنسا ، فان هذا التحالف « سيحملني على مهاجمة انكلترا وفرنسا بضربات ساحقة قليلة » ، وهذا يعني أن تقع المانيا في نفس الخطأ الذي

وقع فيه غليوم الثاني في عام ١٩١٤ . ولكن على الرغم من أن هتلر قد أفاد من دروس الحرب الكونية الأولى من عدة نواح ، إلا انه لم يستخلص هذه العبرة مطلقاً . وعادت أفكاره تتجه إلى بريطانيا العظمى ..

« إن الفوهرر يشك في امكان الوصول إلى تسوية سلمية مع انكلترا ، ومن الضروري أن نتأهب للمعركة . وترى انكلترا في نمو بلادنا قيام قوة منسجمة تضعف من قوتها . فهذه هي عدوتنا . والصراع معها ، قضية موت أو حياة .

« ولكن ترى ما شكل هذا الصراع ؟

« إن انكلترا عاجزة عن سحقنا بعدة ضربات قاضية وارغامنا على الاستسلام . ولعل من الأهمية بمكان عظيم بالنسبة الى انكلترا ، ان نحمل الحرب الى اقرب مكان من حوض الروهر . وبالطبع لن نوفر الدم الفرنسي .... ثم الجدار الغربي !! ان مدة وجودنا وصمودنا تتوقف على الاستيلاء على الروهر » .

وبعد أن قرر إتباع أخطاء القيصر في ناحية واحدة على الأقل وهي مهاجمة انكلترا وفرنسا في حالة وقوفهما إلى جانب روسيا ، أعلن هتلر انه سيحذو حذو الامبراطور في موضوع آخر ثبت ان له نتائج مفجعة بالنسبة الى المانيا :

« من الواجب احتلال القواعد الجوية في هولندة وبلجيكا عسكرياً . وفي مكنتنا أن نتجاهل ما يصدر من بيانات عن الحياد فإذا ارادت انكلترا ان تتدخل في الحرب البولندية ، فعلينا ان نقوم بهجوم خاطف كالبرق على هولندة . وعلينا ان نعمل لاقامة خط دفاعي جديد على الارض الهولندية يمتد حتى خليج زويدرزى فالحرب مع انكلترا وفرنسا • هي حرب حياة أو موت .

« والقول بأن في وسعنا أن نفوز بثمن بخس فكرة خطرة ، فليس هناك احتمال من هذا النوع . وعلينا في هذه الحالة ان نحرق مراكبنا إذ لم تعد القضية موضوع خطأ أو صواب ، بل موضوع

وجود أو لا وجود لنحو من ثمانين مليوناً من الناس » .

وعلى الرغم من انه اعلن قبل قليل بأن المانيا ستهاجم بولندة « في اول فرصة مواتية ممكنة وعلى الرغم من أن سامعيه كانوا يعرفون بأن القسم الاكبر من قوة المانيا العسكرية قد تركز على ذلك الهدف ، إلا أن هتلر وهو يرغي ويزبد ، كان عاجزاً عن ابعاد أفكاره عن بريطانيا العظمى .

وراح يقول مؤكداً : « ان انكلترا هي القوة المحركة ضد المانيا » . ثم أخذ يشرح ما فيها من مظاهر قوة وضعف فقال :

« والبريطاني إنسان متعجرف وشجاع ، وصلب ، وثابت على مواقفه ، ومنظم من الطراز الاول . فهو يعرف خير معرفة كيفية استخدام كل تطور جديد . وهو مولع بالمغامرة ، كما يتميز ببسالة عنصر أهل الشمال . .

« وانكلترا دولة عالمية في حد ذاتها لقد ظلت محافظة على مركزها ثلاثمائة عام ، وهي تتقوى عن طريق الاحلاف التي تعقدها . وعلينا أن لا نعتبر هذه القوة مجرد شيء محدود بل علينا أن نعتبرها قوة بسيكولوجية تشمل العالم بأسره .

« وعلينا أن نضيف إلى ذلك ما تتميز به من ثراء لا حدود له ، وما يصحب الثراء من تراخ وتكاسل .

« وعلينا أن نحسب ايضاً حساب ما يمكن لقوة بحرية عظمى وسلاح جوي باسل أن يضمناه من أمن سياسي جغرافي ، وحماية عسكرية »

وراح هتلر يذكر سامعيه بأن لبريطانيا العظمى ايضاً ، مظاهر ضعفها ، ثم أخذ يعدد هذه المظاهر فقال :

« ولو كانت لدينا في الحرب الكونية بارجتان إضافيتان وطرادان آخران ، وبدأنا معركة جتلند في الصباح ، لكان في إمكاننا أن نهزم الاسطول البريطاني وأن نحمل انكلترا على الركوع

على ركبتيها ... »[1] . فلقد كانت هذه المعركة تعني انتهاء الحرب الكونية ... وكان من الضروري في الماضي غزو انكلترا للتمكن من احتلالها . فلقد كان في وسعها أن تعتمد على نفسها في غذائها ، أما الآن فلم يعد هذا ممكناً » .

« ففي اللحظة التي تقطع المؤن عنها الآن ، تغدو مرغمة على الاستسلام . وتعتمد مستوردات الوقود والمواد الغذائية فيها على الحماية البحرية اللازمة . « ولن يكون في مكنة غارات سلاحنا الجوي على انكلترا ، إرغامها على الاستسلام ، أما إذا ازيل اسطولها البحري من الوجود ، فإن استسلامها يصبح حتمياً . وليس ثمة من شك في أن هجوماً مفاجئاً قد يؤدي إلى قرار سريع » .

ولكن بماذا يكون الهجوم المفاجىء ؟ لا ريب ان الاميرال ريدر قد تصوّر وهو يستمع إلى هذا الحديث ، بأن هتلر قد جنّ . فطبقاً للخطة (ز) التي تم وضعها في نهاية عام ١٩٣٨ ، كان من المنتظر ان تبدأ القوة البحرية الألمانية في مضاهاة القوة البريطانية في عام ١٩٤٥ ، أما في تلك الآونة أي في ربيع عام ١٩٣٩ ، فلم تكن المانيا تملك السفن الحربية الثقيلة اللازمة لإغراق الاسطول البريطاني حتى في هجوم مباغت .

ولكن قد يكون في الامكان إرغام بريطانيا على الركوع بوسائل أُخرى . وهنا عاد هتلر إلى دنيا الواقع من جديد ، هابطاً من خيالاته ، وراح يخطط خطة سوقية (ستراتيجية) ، كان في إمكانها أن تقع بعد نحو من عام وان تؤدي إلى نجاح مدهش .. وراح يقول :

« علينا ان نستهدف توجيه ضربة قاصمة أو حاسمة نهائياً منذ البداية . وعلينا ان لا نأخذ في حساباتنا موضوع الشرعية أو اللاشرعية ولا موضوع المعاهدات والمواثيق . وسيكون هذا الوضع ممكناً عندما لا « ننزلق » إلى حرب مع انكلترا بسبب بولندة

---

١ ـ لا شك في ان مفهوم هتلر عن معركة جتلند كان مفهوماً خاطئاً .

« ومن الواجب اتخاذ الأهبة لحرب طويلة ، ولهجوم مفاجىء ، كما يجب تحطيم أي تدخل ممكن من جانب انكلترا في القـــارة الأوروبية .

« وعلى الجيش أن يتولى احتلال المواقع المهمة لكل من الاسطول والسلاح الجوي . وإذا نجحنا في احتلال كل من هولنــده وبلجيكا والاحتفاظ بهما وتمكنا من هزم فرنسا ، فإننا نكون قد خلقنــا الاساس لحرب ناجحة ضد انكلترا .

« وفي وسع سلاحنا الجوي آنــذاك ان يفرض حصـــاره على انكلترا من غرب فرنسا ، كما تقوم غواصاتنا بفرض حصــار بحري اوسع شمولاً » .

هذه هي الخطوات التي قدر لها أن تتخذ بعد نحو اكثر من سنة واحدة . كما نفذت ايضاً خطة سوقية حاسمة تولى الفوهرر تأكيدها في الثـالث والعشرين من ايار . فقد ذكر ان الجيش الالماني لو نفذ في مستهل الحرب الاخيرة حركة دولابية التفافية باتجاه موانىء القناة الانكليزية (المانش) بدلاً من الاتجاه نحو باريس ، لتغيرت النتيجة حتماً . وانا أقول أن مثل هذا الاحتمال كان ممكناً . لكنه على أي حال قرر أن يحاوله في عام ١٩٤٠ .

وانتهى هتلر قائلاً بعــد أن نسي بولندة مؤقتـاً على الاقـل : « سيكون هدفنا دائماً ارغام انكلترة على الإذعان والركوع على ركبتيها » .

وكان هناك أمر اخير :

« فالسرية شرط اولي حاسم للنجاح . وعلينا أن نحتفظ بسرية اهدافنا حتى عن ايطاليا واليابان » .

وكان من المحتوم عدم الوثوق ثقة مطلقة حتى برئيس هيئـة اركان حرب جيش هتلر وهو الفريق هولدر ، الذي كان يصغي إلى كل كلمة تقال ... وراح الفوهرر يقول : « علينا أن لا نترك أمر دراساتنا إلى هيئة اركان الحرب ، ففي مثل هذه الحالة لن يكون هناك تكتم او سرية » . وأصدر أمره بإنشاء هيئة

صغيرة من اركان الحرب في القيادة العامة للقوات المسلحة تتولى وضع الخطط العسكرية .

وهكذا احرق هتلر في الثالث والعشرين من ايار عام ١٩٣٩ مراكبه على حد تعبيره . فالحرب واقعة حتماً . والمانيا محتاجة إلى المجال الحيوي في الشرق . وللحصول على هذا المجال ، يجب ان تهاجم بولندة في أقرب فرصة ممكنة . وليس لدانزيغ أية علاقة بالموضوع ، فليست إلا مجرد مبرر . وبريطانيا تقف في طريق المانيا ، وهي القوة المحركة في كل مناوأة لألمانيا . ومن الواجب احتلالها واحتلال فرنسا ايضاً ، فالصراع سيكون صراع حياة أو موت .

ويذكر القارىء ان المشير فون بلومبرغ والفريق فون فريتشه كانا قد أعلنا معارضتهما عندما تحدث الفوهرر عن نواياه العدوانية إلى الرؤساء العسكريين في الخامس من تشرين الثاني عام ١٩٣٧ ، وكانت ذريعتهما للاحتجاج على الأقل بأن المانيا اضعف من ان تستطيع خوض غمار حرب اوروبية ، وكان الفريق بيك قد استقال في الصيف التالي من وظيفته كرئيس لهيئة اركان الحرب لنفس السبب ايضاً . أما الآن وفي الثالث والعشرين من أيار عام ١٩٣٩ ، لم يرتفع صوت واحد لا من الفرقاء ولا من الاميرالات كما يظهر السجل ، معترضاً على حكمة الطريق الذي اختطه الفوهرر .

ولم تكن مهمتهم كما رأوا ، ان يناقشوا ، بل ان يطيعوا ، وان تكون طاعتهم عمياء . وكانوا قد شرعوا بالفعل في الافادة من مواهبهم الضخمة في اعداد الخطط للعدوان العسكري وفي السابع من ايار ، قدم العقيد غونتربلومينتريت من هيئة اركان حرب الجيش الذي عمل بالتعاون مع الفريقين رونشتادت ومانشتاين ، تقديراً للموقف بالنسبة إلى « العملية البيضاء » وهي الخطة التي أعدت ، لاحتلال بولندة . وقد انطوت على الكثير من الخيال والجرأة والمغامرة ولم يدخل عليها فيما بعد إلا بعض التبدلات الطفيفة [١] .

وجاء الاميرال ريدر بالخطط البحرية البيضاء في توجيه سري للغاية وقعه في

---

١ ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب . وثائق نورمبرغ ـ رقم ٢٥٨٤

السادس عشر من ايار [١] . ولما كانت بولندة لا تملك إلا بضعة أميال من الساحل على بحر البلطيق إلى الغرب من دانزيغ ، وليس في حوزتها إلا اسطول صغير ، فلم تكن الصعوبات المنتظرة ضخمة . وكانت فرنسا وبريطانيا هما أهم ما يقلق الاميرال . ولذا فقد قرر حماية مداخل البلطيق بالغواصات على ان تقوم بارجتا الجيب والبارجتان الأخريان باعداد العدة « للحرب في الاطلنطي » . وقضت تعاليم الفوهرر بأن يكون الاسطول على استعداد لتنفيذ الجزء المختص به من العملية البيضاء في الأول من ايلول ، ولكن ريدر حث قادته على الاسراع في الخطط ، إذ ان العمل العسكري قد يقع قبل هذا الموعد بسبب « التطورات السياسية الأخيرة [٢] » .

وعندما أقترب أيار عام ١٩٣٩ من نهايته ، كانت الخطط الألمانية للمضي إلى الحرب في نهاية الصيف تمضي على قدم وساق . وكانت عجلات مصانع التسلح تدور ، هادرة ومنتجة المدافع والدبابات والطائرات والسفن الحربية . ووصل أركان الحرب الاكفاء من رجال الجيش والبحرية والسلاح الجوي إلى المرحلة الاخيرة مں التخطيط . وتضخمت القوات المسلحة بالرجال الجدد الذين استدعوا « للتدريبات الصيفية » . وطرب هتلر لما حققه من نجاح .

ولخص الفريق جورج توماس رئيس الدائرة الاقتصادية ودائرة التسلح في القيادة العامة للقوات المسلحة ما تم في اجتماع الثالث والعشرين من ايار ، بعد يوم واحد من عقده في محاضرة سرية ألقاها على موظفي وزارة الخارجية . وقال توماس ، انه بينما انقضى ستة عشر عاماً من ١٨٩٨ حتى ١٩١٤ ، حتى يرتفع عدد الجيش الالماني من ثلاث واربعين فرقة إلى الخمسين فرقة فإن جيش الرايخ الثالث قد قفز من سبع فرق إلى احدى وخمسين في اقل من اربع سنوات واضاف ان هذه الفرق تضم خمساً مدرعة ثقيلة وأربعاً مدرعة خفيفة

---

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٩٢٦ ـ ٩٢٧

٢ ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب (٣٤)ص ٤٢٨ ـ ٤٤٢. المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٣٧ ـ ٩٣٨ .

وفرقة حديثة للفرسان لا مثيل لها عند أية دولة أُخرى . وتمكنت البحرية من أن تبني من العدم تقريباً اسطولاً يضم بارجتين حمولة الواحدة منهما (٢٦) الف طن[١]. وطرادين ثقيلين وسبع عشرة مدمرة وسبعاً واربعين غواصة . وكانت البحرية قد شرعت في بناء بارجتين حمولة الواحدة منهما خمسة وثلاثين الف طن وحاملة للطائرات واربعة طرادات ثقيلة وخمس مدمرات وسبع غواصات ، وبدأت تعد لانزال سفن حربية أخرى . وتمكن السلاح الجوي الألماني من أن يخلق من العدم قوة تعد واحداً وعشرين سرباً قوامها (٢٦٠) الف رجل . واضاف الفريق توماس أن صناعة الاسلحة اخذت تنتج الآن ارقاماً تفوق ما وصلت اليه في ذروة الحرب الاخيرة . وأن هذا الانتاج يفوق في معظم الميادين انتاج اية بلاد اخرى . واعلن توماس ان مجموع انتاج التسلح الالماني فريد من نوعه في العالم .

وعلى ضوء هذه القوة العسكرية الضخمة التي توصلت اليها المانيا في مطلع صيف عام ١٩٣٩ ، اعتمد الفوز في الحرب التي كان هتلر يعد العدة لخوضها في مطلع الخريف على طراز هذه الحرب وشكلها . فلم تكن المانيا قد بلغت حداً من القوة يمكنها من ان تخوض الحرب مع فرنسا وبريطانيا وروسيا بالاضافة إلى بولندة وأن تنتصر عليها ، ولم يكن منتظراً قط ان تبلغها. وعندما بدأ الخريف القدري ، بات كل شيء معتمداً على قدرة الفوهرر على تحديد الحرب وحصرها ، وعلى إبعاد روسيا عن أي تحالف عسكري مع الغرب ، وهو التحالف الذي كان لتفينوف قد اقترحه قبيل سقوطه ، والذي كان تشمبرلين ، على الرغم من

---

٢ ـــ كان الفريق توماس في هذه الأرقام التي سردها يخدع وزارة الخارجية نفسها . فهناك وثيقة بحرية المانية هامة يرجع تاريخها الى اكثر من عام أي الى الثامن عشر من شباط عام ١٩٣٨ (المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٨٢٧) تقول ان الالمان قدموا ارقاماً زائفة عن حمولة بوارجهم بموجب المعاهدة الانكليزية الالمانية الى الحكومة البريطانية . وتقول هذه المذكرة ان الحمولة الحقيقية لبارجة الستة والعشرين الف طن هي ٣١،٣٠٠ وان حمولة بارجة الخمسة والثلاثين الف طن ، وهو اعلى رقم وصلت اليه الاساطيل البريطانيــة والامريكية ، هو ٤١،٧٠٠ . ولا شك في ان هذا المثل نموذجي على الخديعة النازية .

ظهوره بمظهر الرافض له في البداية ، قد بدأ في نهاية شهر ايار يمعن النظر في احتمالاته .

تدخل روسيا ـ ٢

اتخذ رئيس الوزراء البريطاني في مناقشة عامة اخرى جرت في مجلس العموم في التاسع عشر من ايار موقفاً فاتراً او منطوياً على الازدراء ، كما تصور تشرشل ، من الاقتراحات الروسية . وراح بشيء من السأم والضجر يوضح للمجلس ان « هناك نوعاً من القناع أو من الجدار يقوم بين الحكومتين بحيث يبدو ان اختراقها اصعب للغاية » . وأخذ تشرشل يؤيده لويد جورج يقول من الناحية الأخرى أن موسكو قد تقدمت « بعرض عادل ، اكثر بساطة ، وصراحة وتأثيراً » من اقتراحات تشمبرلين نفسه ، ثم اخذ يرجو حكومة جلالته ، في أن تفتح « عقولها لتقبل بعض الحقائق القاسية . فبدون جبهة قوية في الشرق ، لن يكون هناك دفاع مرض في الغرب ، ولن تكون جبهة قوية في الشرق ، إذا لم تكن روسيا مشتركة فيها » .

واذعن تشمبرلين لعواصف النقد تهب عليه من جميع الجهات ، فراح يصدر تعليماته إلى السفير البريطاني في موسكو ليوافق على الشروع في محادثات لعقد ميثاق للمعونة المتبادلة ، وحلف عسكري ، واعلان ضمانات للدول التي يهددها هتلر [١] . وبعث السفير فون ديركسين من لندن إلى حكومته في برلين يقول أن الحكومة البريطانية قد اتخذت هذه الخطوة وهي في منتهى البرم والتذمر . يضاف إلى هذا ان ديركسين اعلن لحكومته ما بدا أنه السبب الاول والحقيقي في الخطوة التي خطاها تشمبرلين . وذكر أن وزارة الخارجية البريطانية احست

---

١ ـ قدم السفير البريطاني والقائم بالأعمال الفرنسي في موسكو الى مولوتوف في السابع والعشرين من ايار مسودة مشروع مشترك لعقد ميثاق من هذا النوع . وقد دهش المبعوثان الغربيان من ان مولوتوف استقبلها استقبالا فاتراً (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٥) رقم ٦٢٤).

بما تقوم به المانيا من حركات في موسكو وباتت « تخشى من ان تتمكن المانيا من الابقاء على حياد روسيا السوفياتية أو من إقناعها باتخاذ موقف الحياد العطوف » . وكان مثل هذا النجاح كافياً ليعني انهيار خطط التطويق انهياراً تاماً »[1]

والقى مولوتوف في اليوم الأخير من شهر ايار أول خطاب عام له كوزير للخارجية في اجتماع مجلس السوفيات الأعلى. وراح يؤنب الدولتين الديموقراطيتين الغربيتين على ترددهما ، واعلن ان الواجب يدعوهما ، إذا كانتا جادتين في الانضمام إلى روسيا في محاولة وقف العدوان ، إلى الشروع في تحقيق ذلك فوراً، وان تصلا إلى اتفاق معها على ثلاث نقاط رئيسية :

« ١ – عقد ميثاق ثلاثي لعدم الاعتداء ذي طبيعة دفاعية مجردة .

« ٢ – تقديم ضمانات إلى دول اوروبا الوسطى الشرقية بما في ضمنها جميع الدول الاوروبية المحاذية للاتحاد السوفياتي .

« ٣ – التوصل إلى عقد اتفاق محدود عن شكل المساعدة الفورية والعملية التي يجب تقديمها الى الدول الصغيرة المهددة بالعدوان ومدى هذه المساعدات » .

واعلن مولوتوف ايضاً أن المحادثات مع الغرب لا تعني مطلقاً أن روسيا ستتخلى عن «علاقاتها التجارية على الاسس الواقعية» مع المانيا وايطاليا . واضاف أن «استئناف المفاوضات التجارية مع المانيا لم يعد أمراً مستبعداً». وعندما أبرق السفير الالماني فون دير شولنبرغ الى برلين بالخطاب ، اشار إلى أن مولوتوف قد ألمح أن روسيا ما زالت على استعداد لعقد معاهدة مع بريطانيا وفرنسا «شريطة ان تُقبل جميع طلباتها» لكن من الواضح الآن من هذا الخطاب ، أن وقتاً طويلاً سينقضي قبل الوصول إلى اتفاق حقيقي . ومضى السفير يوضح أن مولوتوف « قد تجنّب توجيه أي سباب إلى المانيا واظهر استعداده لمواصلة المحادثات التي

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٦١٦ – ٦١٧ .

بدأت في برلين وموسكو »[1]

وقد بات هتلر يشاركه الآن بصورة مفاجئة هذا الاستعداد .

* * *

وتحمس هتلر ومستشاروه في الايام العشرة الاخيرة من شهر ايار وهم يتناقشون في القضية الشائكة حول موضوع التقرب إلى موسكو لاحباط المفاوضات الانكليزية الروسية . وساد الاحساس برلين بأن مولوتوف إبان حديثه الأخير مع فون دير شولنبرغ في العشرين من ايار قد ابدى فتوراً ملحوظاً تجاه خطوات المانيا للتقرب من موسكو ، وراح وايزساكر في الواحد والعشرين من ايار يبرق إلى السفير انه بالنسبة إلى ما قاله الوزير السوفياتي فإن علينا ان « نجلس يقظين وان ننتظر ما إذا كان الروس سيقولون شيئاً آخر بصراحة اكثر »[2]

ولكن هتلر الذي كان قد حدد الأول من ايلول موعداً لهجومه على بولندة لم يكن في وسعه أن ينتظر . ففي الخامس والعشرين من ايار استدعي كل من وايز ساكر وفريدريك غارس مدير الدائرة القضائية في وزارة الخارجية الألمانية إلى دارة ريبنتروب الريفية في سوننبرغ ، وقيل لهما طبقاً لما ذكره في شهادته المشفوعة باليمين أمام محكمة نورمبرغ[3] ، ان الفوهرر يريد « إقامة علاقات اكثر تسامحاً بين المانيا والاتحاد السوفاتي » . وارسلت تعليمات خطية ، وضع ريبنتروب مسودتها إلى شولنبرغ ، توضح بتفصيل وافٍ المخطط الجديد الذي يتحتم عليه السير فيه مع مولوتوف الذي طلب اليه ان يجتمع به « في أقرب وقت ممكن » . وما زالت هذه التعليمات بين وثائق وزارة الخارجية الألمانية ،

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٦٢٤ ـ ٦٢٦ .

٢ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٥٤٧ .

٣ ــ رفضت المحكمة اعتبار هذه الشهادة المشفوعة باليمين دليلا ، ولذا فهي ليست واردة في مجموعة وثائق « المؤامرة النازية والعدوان » او مجموعة « محاكمات كبار مجرمي الحرب » لكن هذا الرفض لا يقلل من قيمتها وصحتها . فلقد عولجت قضية التعاون النازي ــ السوفياتي في هذه الفترة معالجة تنطوي على الحذر والرفض في المحكمة بالنظر الى ان احد قضاتها الأربعة كان روسياً .

المصادرة [1] .

وتفيد أشارة مكتوبة على الوثيقة انها عرضت على هتلر في السادس والعشرين من ايار . وليس ثمة من شك في انها وثيقة تحسر النقاب عن الكثير . فهي توضح أن وزارة الخارجية الألمانية كانت مقتنعة في هـــذا التاريخ من ان المفاوضات الانكليزية ـ الروسية ستصل حتماً إلى نجاح إذا لم تتدخل المانيـــا في الوقت المناسب تدخلاً حاسماً لوقفهـــا . وقد اقترح ريبنتروب تبعاً لذلك ان يتولى شولنبرغ ابلاغ مولوتوف ما يلي :

« ليس ثمة من تعارض واقعي في المصالح في الشؤون الخارجية بين المانيا والاتحاد السوفياتي .... ولقـــد حان الوقت للبحث في ايجاد حالة من التهادن ومن العودة إلى الوضع الطبيعي في العلاقات الخارجية بين البلدين... وليس الحلف الألماني ـ الايطالي موجهاً بحال من الاحوال ضد الاتحاد السوفياتي . انه موجه اولاً وآخراً ، ضـد التواطؤ الانكليزي الفرنسي . .

« وإذا ما اضطررنا على الرغم منا إلى الاشتباك مع بولنـــدة ، فنحن على ثقة مطلقة واقتناع ، من أن هذا الاشتبـــاك يجب أن لا يتطلب بأي حال من الاحوال تصادماً بين مصالحنا ومصالح الاتحاد السوفياتي . وفي وسعنا أن نمضي إلى أبعد من ذلك وأن نقول أننا في حلنا للمشكلة الألمانية ـ البولندية ، مهما كان شكل هذا الحل ، فإننا سنأخذ المصالح الررسية بعين الاعتبار قدر طاقتنا » .

وأضافت التعليمات أن على السفير أن يوضح لروسيا خطر التحـــالف مع بريطانيا العظمى ...

« وليس في وسعنا أن نرى حقاً مايدعو الاتحاد السوفيـاتي إلى أن يلعب دوراً عملياً في لعبة السياسة البريطانية الرامية إلى تطويق المانيا ... فهذا يعني أن تتحمل روسيا التزامات من جانب واحـد

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجيـــة الالمانية (٦) ٥٨٩ ـ ٥٩٣ .

دون ان تحصل من بريطانيا على أي شيء يقابل هذه الالتزامات . .
وليست بريطانيا بأي حال من الاحوال فيوضع يمكنها من ان تقدم
إلى روسيا أي مقابل ثمين ، مهما كانت الصورة التي ستصاغ فيها هذه
المعاهدات ... فالجدار الغربي كاف لإحباط أية مساعدة من اوربا
وجعلها مستحيلة ... ولذا فنحن واثقون من ان بريطانيا ستظل
مخلصة من جديد لسياستها التقليدية في ان تدفع بالدول الاخرى إلى
رفع حبات كستنائها من النار » .

وطلب إلى شولنبرغ ان يؤكد لمولوتوف بأن المانيا« لاتحمل اية نوايا عدوانية
ضد روسيا » . وصدرت اليه التعليمات اخيراً بأن يقول لمولوتوف ان المانيا على
استعداد للبحث مع الاتحاد السوفياتي لا في القضايا الاقتصادية فحسب بل وفي
عودة العلاقات السياسية إلى الوضع الطبيعي .

وخيل إلى هتلر ان مسوّدة التعليمات كانت مغرقة في التساهل فأمر بوقف
ارسالها . ويقول غاوس ان الفوهرر قد تأثر ببيان تشمبرلين المتفائل ، الذي
القاه قبل يومين اثنين ، أي في الرابع والعشرين من ايار ، عندما ابلغ رئيس
مجلس الوزراء مجلس العموم انه نتيجة الاقتراحات البريطانية الاخيرة فانه يأمل
في إمكان الوصول الى اتفاق كامل مع روسيا « في موعد مبكر » . وكان كل
ما يخشاه هتلر هو صدمة الفشل . فهو لم يتخلّ عن فكرته في ايجاد تقارب مع
موسكو ولكنه قرر ان الوضع الراهن يقتضيه المزيد من الحذر في كل
خطوة جديدة .

وقد سجلت افكار الفوهرر وخواطره في الاسبوع الاخير من شهر ايار في
وثيقة عثر عليها في وثائق وزارة الخارجية الالمانية المصادرة . ففي الخامس
والعشرين من الشهر أو حواليه ، إذ أن التاريخ الصحيح غير معروف ، أخذ
هتلر يلحف بوجوب البدء بالمحادثات مع الاتحاد السوفياتي ، سعياً منه وراء
احباط المفاوضات الانكليزية ـ الروسية . وكان من المقرر أن يجتمع شولنبرغ
إلى مولوتوف فوراً لهذه الغاية . ولكن تعليمات ريبنتروب اليه ، وهي

التعليمات التي عرضت على هتلر في السادس والعشرين ، لم ترسل اليه قط . فلقد أمر الفوهرر بالغائها . وابرق وايز ساكر في تلك الليلة الى شولنبرغ ينصحه باتخاذ « موقف من التحفظ المطلق ، وان لا يتقدم بأية خطوة جديدة إلى ان يصله اشعار آخر. »[1]

وتوضح هذه البرقية ، والرسالة التي بعث بها وزير الدولة إلى السفير في موسكو ، في السابع والعشرين من ايار ، والتي لم ترسل إلا في الثلاثين منه بعد ان اضيفت اليها فقرة هامة ، حقيقة الموقف المتردد الذي وقفته برلين [2] . فلقد ابلغ وايز ساكر الذي أرّخ رسالته في السابع والعشرين ، شولنبرغ بأن رأي برلين في أن « الحيلولة دون اتفاق انكليزي – روسي ليس بالأمر السهل » وان المانيا مترددة في التدخل تدخلاً حاسماً لمنع هذا الاتفاق ، مخافة ان تستثير قهقهة تتارية عالية » في موسكو . وكشف وزير الدولة النقاب ايضاً عن ان ايطاليا واليابان تقفان موقفاً فاتراً من خطوة المانيا المقترحة في موسكو . وان هذا التحفظ من جانب الحليفتين قد حمل المانيا على ان تقف موقف التريث . وانتهى من رسالته يقول : « وهكذا فنحن نريد ان ننتظر وأن نرى إلى أي مدى ستصل موسكو وباريس ولندن في ترابطها المشترك » .

ولا ندري السبب الذي حدا بوايز ساكر إلى التوقف عن ارسال هذه الرسالة فوراً ، ومن المحتمل ان يكون قد احس بأن هتلر لم يتخذ قراره الحاسم بعد . ولكنه عندما بعث بها في الثلاثين من ايار اضاف اليها بخطه العبارة التالية :

« ملاحظة ... أرى لزاماً علي ان اضيف الى سطوري السابقة انا بموافقة الفوهرر سنجري اتصالاً على أي حال مع الروس ، وان كان هذا الاتصال من النوع المتحفظ وعن طريق حديث سيجري اليوم بيني وبين القائم بالاعمال الروسي » .

وعلى الرغم من أن الحديث مع جورجي استاخوف لم يمض بعيداً إلا أنه

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٦) ٥٩٣

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٦) ٥٩٧ ـ ٥٩٨

شـّل بالنسبة إلى الالمان بداية جديدة . وكانت حجة وايز ساكر في استدعـاء القائم بالاعمال الروسي بحث مستقبل الوفد التجاري السوفياتي في براغ ، الذي كان الروس توّاقين كل التوق الى استبقائه هنـاك . واصطرع الدبلوماسيان حول هذا الموضوع وكل منهما يحاول ان يصل إلى ما في فكر الآخر . وقال وايز ساكر انه يتفق مع مولوتوف في أن القضايا السياسية والاقتصادية متصلة كل الاتصال ولا يمكن الفصل بينها وأعـرب عن اهتمامه في « عودة العلاقات بـين روسيا السوفياتية والمانيا إلى وضع مألوف » . وأكـد استاخوف ان مولوتوف « لا يعتزم أن يقفل الباب في وجه اية محادثات روسية – المانية مقبلة » .

وقد تشجع الالمان على الرغم من جو الحذر الذي ساد المحادثات بين الرجلين وبعث وايز ساكر في الساعة العاشرة والدقيقة الاربعين من مساء الثلاثين من ايار برقية « عاجلة للغاية » إلى شولنبرغ في موسكو [1] ... جاء فيها :

« خلافاً للخطة السابقة التي كنت قد بعثت بهـا اليك ، قررنا الآن على أي حال إجراء شكل من اشكال الاتصال مـع الاتحاد السوفياتي [2] » .

ومن المحتمل ان تكون المذكرة السرية الطويلة التي بعث بها موسوليني إلى هتلر في الثلاثين من ايار ، هي التي شددت من تصميم الفوهرر على الاتجاه نحو الاتحاد السوفياتي مهما كانت درجة الحيطة والحذر في هذا الاتجاه . ومع بداية الصيف ، تزايـدت شكوك الدوتشي في جدوى الصراع المبكر . فكتب الى

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٦٠٨ ٦٠٩

٢ – ورد نص البرقية في الترجمة الانـكليزية التي نقلها كتاب «العلاقات النازية – السوفياتية» والذي اصدرته وزارة الخارجية الامريكية في عام ١٩٤٩ متضمناً وثائق وزارة الخارجية الالمانية عن ذلك الموضوع بشكل اقوى . ولقد وردت العبارة الاساسية في الترجمة على النحو التالي : « لقد قررنا الان القيام بمفاوضات صريحة ومحدودة مع الاتحاد السوفياتي » ، وقد ادت هذه العبارة الى استنتاج الكثيرين من المؤرخين وبينهم تشرشل ان هذه البرقية ترمز الى نقطة التحول الحاسم في جهود هتلر لعقد صفقة مع موسكو . ولكن نقطة التحول الفعلية جاءت بعد ذلك . فلقد اشار وايز ساكر في الملحق الذي « اضافه في الثلاثين من ايار على رسالته الى شولنبرغ الى ان الخطـوة الالمانية التي وافق عليها هتلر « يجب ان نكون معتدلة جداً » .

هتلر يقول بأنه مقتنع كل القناعة من «ان الحرب بين المحور وبين الدول المحافظة البلوتوقراطية المفرطة في الانانية شيء لا بد منه » . ولكن ايطاليا في حاجة إلى فترة من الاستعداد التي قد تمتد حتى نهاية عام ١٩٤٢ ... وليس ثمة من أمل كبير في النجاح عن طريق الجهود الحربية إلا بعد عام ١٩٤٣ » . وبعد ان عدد أسباباً عدة ، « لحاجة إلى فترة من السلام » انتهى الدوتشي إلى القول ..« ولهذه الاسباب كلها ، لا ترغب ايطاليا في استعجال الحرب الأوروبية على الرغم من اقتناعها من أن هذه الحرب أمر لا بد منه .»[١]

وقد رد هتلر الذي لم يكن قد اسرّ صديقه المخلص وحليفه بموعد الأول من ايلول ، الذي حدده كتاريخ لغزو بولندة بأنه قرأ المذكرة السرية ببالغ الاهتمام واقترح ان يجتمع الزعيمان في المستقبل القريب للتشاور . وقرر الفوهرر في غضون ذلك أن يرى إذا كان في إمكانه أن يحدث تصدعاً في اسوار الكرملين. ودارت طيلة شهر حزيران محادثات تمهيدية حول موضوع عقد اتفاق تجاري جديد بين السفارة الألمانية في موسكو وبين انستاس ميكويان ، وزير التجارة الخارجية الروسية .

وكانت الحكومة السوفياتية لا تزال تشك في برلين شكاً كبيراً . ولقد روى شولنبرغ في السابع والعشرين من حزيران ان الكرملين يعتقد ان الألمان في ضغطهم لعقد معاهدة تجارية يريدون ان ينسفوا المفاوضات الروسية مع بريطانيا وفرنسا . وراح يبرق إلى برلين قائلاً : « وهم يخشون من أننا إذا حققنا هذا الكسب فإننا سنترك المفاوضات تذوي وتنتهي إلى الفشل[٢] .

وتحدث شولنبرغ في الثامن والعشرين من حزيران حديثاً طويلاً إلى مولوتوف دار بصورة ودية كما روى لبرلين في برقية « سرية وعاجلة » . ومع ذلك فعندما اشار السفير الالماني بلهجة مطمئنة إلى معاهدات عدم الاعتداء التي عقدتها المانيا

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ـ ٦١٨ ـ ٦٢٠ .
٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٧٩٠ ـ ٧٩١

مؤخراً مع دول البلطيق [1] رد وزير الخارجية السوفياتية رداً ينطوي على المكر بقوله انه يشعر « بواجبه في الشك بمثل هذه المعاهدات بعد التجارب التي مرّت بها بولندة» . ولخص شولنبرغ الحديث قائلاً :

« إن الانطباع الذي تولد لدي هو أن الحكومة السوفياتية مهتمة اعظم الاهتمام بمعرفة آرائنا السياسية وفي استمرار الاتصال بنا . وعلى الرغم من استحالة خطأ المرء في نغمة الشك القوية الواضحة في كل ما قاله مولوتوف ، إلا انه على أي حال وصف عودة العلاقات الطبيعية مع المانيا كشيء ممكن ومرغوب فيه [2] »

وطلب السفير تعليمات برقية حول خطوته التالية . وكان شولنبرغ واحداً من الاحياء الباقين من مدرسة سيخت – مالتزان – بروكدورف – رانتراو ، التي اصرت على ايجاد تقارب بين المانيا وروسيا السوفياتية بعد عام ١٩١٩ ، والتي حققت هذا التقارب في رابالو . وتوضح البرقيات التي بعث بها في عام ١٩٣٩ ، انه جهد مخلصاً لاعادة العلاقات الوثيقة التي كانت قائمة في عهد جمهورية ويمار . ولكنه كالكثيرين غيره من الدبلوماتيين الالمان الآخرين ، الذين قضوا حياتهم في السلك الدبلوماتي ، والذين يسيرون على نظم المدرسة القديمة ، لم يكن يفهم هتلر تمام الفهم .

واصدر هتلر فجأة في التاسع والعشرين من حزيران ومن مقره الجبلي في برختسغادن أوامره بقطع المحادثات مع الروس .

برختسغادن ٢٩ حزيران ١٩٣٩

« .... قرر الفوهرر ما يلي :

---

١ – سارعت المانيا رغبة منها في احباط ضمانة انكليزية – فرنسية – روسية الى لاتفيا وليتوانيا اللتين تحاذيان الاتحاد السوفياتي إلى توقيع ميثاق عدم اعتداء مع هاتين الدولتين البلطيقيتين في السابع من حزيران . وكانت المانيا قبل هذا التاريخ اي في الواحد والثلاثين من ايار قد عقدت ميثاقاً مماثلا مع الدانمارك وهو ميثاق إذا اعتبرنا بالاحداث الاخيرة ، اتاح للدانمركيين احساساً مذهلا من الأمن والطمأنينة .

٢ – وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٨) . ٨٠٥ ، ٨٠٧

« عليكم ان تبلغوا الروس بأننا نستنتج من موقفهم بأنهم يرون وجوب اعتماد استمرار المحادثات على قبول الاسس التي وضعوها في شهر كانون الثاني لمحادثاتنا الاقتصادية . ولما كانت هذه الأسس غير مقبولة لدينا ، فإننا والحالة هـــذه لن نهتم باستئناف المحادثات الاقتصادية مع روسيا في الوقت الحاضر .

« وقد وافق الفوهرر على تأجيل اعطاء هذا الرد بضعة أيام .[1]

ونقل فحوى هذا الرد فعلاً عن طريق البرق إلى السفارة الألمانية في موسكو في اليوم التالي ... وهذا ما ابرق به وايز ساكر :

« يرى وزير الخارجية اننا قلنا ما فيه الكفاية في المجال السياسي وان عليكم انتظار تعليمات جديدة ، وان لا تبدأوا بأية محادثات جديدة من جانبكم في الوقت الحاضر .

« أما بالنسبة إلى المفاوضات الاقتصادية مع الحكومة الروسية ، فإن المشاورات ما زالت دائرة ولم تصل إلى نهاية . وعليكم في هذا المجال ايضاً ، أن لا تقوموا بأي عمل جديد في الوقت الحـــاضر ، وان تنتظروا تعليماتنا » .[2]

وليس ثمة من ايضاح في الوثائق الألمانية السرية لهذه الحالة العقلية المفاجئة التي تعرض لها هتلر . فلقد بدأ الروس يتساهلون في اقتراحاتهـــم التي قدموها في شهري كانون الثاني وشباط . وحذر شنوري في الخامس عشر من حزيران من ان انقطاع المفاوضات الاقتصادية من جديد سيكون بمثابـة نكسة لالمانيا في الحقلين الاقتصادي والسياسي .

ولا يعتقد ان الطريق الوعرة التي سارت فيهـــا المفاوضات الانكليزية ـ الفرنسية ـ الروسية ، قد ثبّطت من عزيمة هتلر إلى الحد الذي حمله على اتخاذ هذا القرار فلقد نمي إلى علمه من تقارير السفارة الألمانية في موسكو ان الأزمـــة

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٨١٠
٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٨١٣

نشأت بين الدولتين الغربيتين وبين روسيا بصدد الضمانات التي ستمنح إلى بولندة ورومانيا ودول البلطيق وان هذه الازمة أدّت إلى توقف المفاوضات . ولقد احست بولندة ورومانيا بالسعادة لنوال ضمانة من بريطانيا وفرنسا ، على الرغم من أن هذه الضمانة لن تفيدهما في حالة وقوع عدوان الماني إلا عن طريق غير مباشر بإقامة جبهة غربية . ولكنهما ترفضان قبول أية ضمانة روسية أو حتى السماح للقوات السوفياتية بالمرور في أراضيهما لمواجهة الهجوم الألماني . ورفضت لاتفيا وايسونيا وفنلندة كذلك رفضاً قاطعاً قبول أية ضمانة روسية ، وهو موقف شجعه الالمان كما ظهر فيما بعد في الوثائق الألمانية المصادرة عن طريق التهديد المفزع ، في حالة تخاذلها وترددها في تصميمها على الرفض .

واقترح مولوتوف في خضم هذه الأزمة المعقدة في مطلع شهر حزيران على بريطانيا ان توفد وزير خارجيتها إلى موسكو للاشتراك في المفاوضات. وترى روسيا أن مثل هذا العمل ، لا يساعد على تحطيم الجمود الذي يرافق المفاوضات فحسب بل سيظهر ايضاً أن بريطانيا جادة في الوصول إلى اتفاق مع روسيا . ولكن اللورد هاليفاكس امتنع عن الذهاب .[1] وعرض انتوني ايدن ، وهو وزير خارجية سابق على الاقل ، أن يذهب بدلاً منه ، ولكن تشمبرلين رفض عرضه هذا. وتقرر ايفاد وليام سترانغ بدلاً منه، وهو موظف كفؤ دائم من موظفي وزارة الخارجية سبق له ان عمل في سفارة موسكو ويتقن الروسية ، ولكنه مجهول في بلاده وخارجها . وهكذا كان ايفاد هذا الموظف للروس ، ليقود مثل هذه البعثة المهمة وليتفاوض مباشرة مع مولوتوف وستالين ، دليلاً عند الروس ، كما ذكروا فيما بعد ، على أن تشمبرلين ما زال ينظر إلى قضية إقامة حلف لوقف

---

١ ــ تروي وثائق وزارة الخارجية البريطانية ان هاليفاكس ابلغ مايسكي في الثامن من حزيران بأنه فكر بأن يقترح على رئيس الوزراء ، بأن يمضي الى موسكو : ولكنه ما لبث ان وجد ان من المستحيل عليه ان يمضي اليها . وعاد مايسكي فاقترح في الثاني عشر من حزيران بعد ان كان سترانغ قد سافر فعلا الى موسكو ، ان من الخير ان يذهب وزير الخارجية اليها « بعد ان تكون الامور قد هدأت نوعاً » « ولكن هاليفاكس عاد فأكد استحالة تغيبه عن لندن في الوقت الحاضر » . (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٥) رقما ٥ و ٣٨)

هتلر عن العدوان نظرة لا تنطوي على الاهتمام .

ووصل سترانغ إلى موسكو في الرابع عشر من حـزيران ، وعلى الرغم من اشتراكه في احد عشر اجتماعاً انكليزياً – فرنسياً مشتركاً مع مولوتوف ، إلا أن مظهره لم يترك اثراً كبيراً على سير المفاوضات الانكليزية السوفياتية . وبعد نحو من اسبوعين أي في التـاسع والعشرين من حزيران عرضت روسيا شكوكها وسخطها علناً في مقال نشرته البرافـدا وكتبه اندريه جدانوف تحت عنوان « حكومتا بريطانيا وفرنسا لا ترغبان في معاهدة على اساس المساواة للاتحـاد السوفياتي » . وعلى الرغم من تأكيده في مقدمة المقال انه « يكتب كفرد عادي ، ولا يلزم الحكومة السوفياتية بما يكتبه » إلا أن جدانوف لم يكن مجرد عضو في المكتب السياسي للحزب الشيوعي ورئيس لجنة الشؤون الخارجية في البرلمـان السوفياتي فحسب ، بل كان كما اكد شولنبرغ في تقريره إلى برلين عن الموضوع « أحد اعوان ستالين الخلـّص الذي كتب مقـاله ولا شك بأوامر من عَلُ » ، ولقد كتب جدانوف يقول :

> « يبدو لي أن الحكومتين البريطانية والفرنسية ليستا جادتين في عقد اتفاق حقيقي يقبله الاتحاد السوفياتي ، وان كل ما تهدفـان اليه إجراء محادثات حول عقد اتفاق ، لتعرضا على الرأي العام في بلديهما ، موقفاً مزعوماً من التعنت ينقضه الاتحـاد السوفياتي ، فتسهلا بذلك الوصول إلى اتفاق مع المعتدين . وستظهر الأيام القليلة القادمة مدى ما في هذا الرأي من صحة . » [١]

وهكذا عرض ستالين شكوكه ، في بريطانيا وفرنسا ومخاوفـه من أن الدولتين الحليفتين الغربيتين ، قد تصلان في النهاية إلى عقد صفقة مـع هتلر ، تماماً كما فعلتا قبل نحو من عام في ميونيـخ ، على العالم بأسره ، ليفكر العالم في هذه الشكوك والمخاوف . وقد فكر السفير فون دير شولنبرغ بها واقترح عـلى برلين بأن من اهداف هذا المقال « إلقاء اللوم على بريطانيا وفرنسا في حـالة

---

١ ـ البرافدا عدد ٢٩ حزيران ١٩٣٩ .

الانقطاع المحتمل للمفاوضات - » [1]

خطط الحرب الشاملة

ومع ذلك لم يقفز هتلر لالتقاط الطعم الروسي. ولعل تقاعسه عن ذلك يرجع إلى انشغاله طيلة شهر حزيران في برختسغادن في الاشراف على استكمال الخطط العسكرية لغزو بولندة في نهاية الصيف.

وتسلم في الخامس عشر من حزيران الخطة السرية كل السرية التي اعدها الفريق فون براوختش للعملية التي سيقوم بها الجيش ضد بولندة. [2] وراح القائد العام للجيش يردد « صوت سيده » فيقول ان « هدف العملية ، تحطيم القوات المسلحة البولندية. فالقيادة السياسية تطلب أن تبدأ الحرب بضربات مفاجئة قاصمة تؤدي إلى انتصارات سريعة ». واضاف « ان غاية القيادة العليا للجيش الحيلولة بين الجيش البولندي وبين القيام بتعبئة منظمة وتركيز صحيح عن طريق غزو مباغت للارض البولندية ، وتحطيم القسم الاكبر من الجيش البولندي الذي ينتظر ان يكون محتشداً إلى الغرب من خط الفستولا — نارو ، بضربة مركزة تتجه من سيليزيا من ناحية ومن بوميرانيا — بروسيا الشرقية من الناحية الاخرى ».

وقام براوختش لتنفيذ هذا المخطط بإقامة مجموعتين من الجيوش ، الاول مجموعة جيوش الجنوب وتتألف من الجيوش الثامن والعاشر والرابع عشر ، والثانية مجموعة جيوش الشمال وتتألف من الجيشين الثالث والرابع. وقرر ان تقوم مجموعة جيوش الجنوب التي يتولى قيادتها الفريق فون رونشتادت بالهجوم من ناحية سيليزيا « باتجاه عام يستهدف وارشو ، لتمزيق القوات البولندية التي تواجهها ، واحتلال حوض الفستولا ، بأقوى قوات ممكنة على جانبي وارشو ،

---

١ ـــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٨٠٨ - ٨٠٩ .

٢ ـــ محاكمات كبار مجرمي الحرب (٣٤) ص ٤٩٣ ـــ ٥٠٠ والمؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٥٦ .

بقصد تحطيم القوات البولندية التي تظل صامدة في غرب بولندة ، بالتعاون مع مجموعة جيوش الشمال » وكانت المهمة الاولى الملقاة على عاتق المجموعة الاخيرة « إقامة الاتصال بين الرايخ وبروسيا الشرقية » بالزحف عبر الرواق البولندي . وحددت للجيوش المختلفة الاهداف المفصلة ، كما حددت ايضاً اهداف السلاح الجوي والاسطول . وذكر براوختش ايضاً أن مدينة دانزيغ ، ستعلن جزءاً من الارض الالمانية منذ اليوم الاول من بدء العمليات العسكرية ويجري الدفاع عنها بواسطة قواتها المحلية العاملة تحت لواء القيادة الالمانية .

ويقول توجيه متمم صدر في نفس الوقت ان الأمر بنشر القوات استعداداً للعملية البيضاء سيصدر في العشرين من آب ويبدأ تنفيذه . واضاف التوجيه « ومن الواجب أن تكون جميع الاعدادات قد استكملت في ذلك التاريخ ».[1]

وقدم الفريق كايتل بعد نحو من اسبوع أي في الثاني والعشرين من حزيران إلى هتلر ، « جدولاً مبدئياً لتوقيت العملية البيضاء .[2] وقد وافق الفوهرر على الجدول بعد دراسته بصورة مجملة « ولكنه أمر « خشية من بعث الفزع في نفوس الناس من جراء دعوة القوات الاحتياطية بمقياس أكثر من المألوف .... بأن يقال لكل من يستفهم عن هذه الاجراءات من المؤسسات المدنية ، واصحاب الأعمال والافراد العاديين بأن افراد الأحتياطي إنما يدعون للاشتراك في مناورات الخريف » . واشترط هتلر كذلك « لأسباب تتعلق بالامن ، عدم إخلاء المستشفيات الواقعة على الحدود والتي اقترحت القيادة العليا للجيش ان يتم اخلاؤها اعتباراً من شهر تموز . »

فالحرب التي يخطط لها هتلر ، ستكون شاملة جماعية ، ومثل هذه الحرب لا تتطلب تعبئة عسكرية فحسب ، بل تعبئة جماعية لكل موارد البلاد. ودعي مجلس دفاع الرايخ إلى اجتماع عاجل في اليوم التالي أي في الثالث والعشرين من حزيران برئاسة غورنغ ليتولى تنسيق هذا المجهود الهائل . وحضر هذا الاجتماع

---

١ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ١٠٣٥ ــ ١٠٣٦

٢ ــ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٣٤ .

نحو من خمسة وثلاثين رجلاً من كبار رجال الدولة بينهم كايتل وريدر وهولدر وتوماس وميلش بالنيابة عن القوات المسلحة ووزراء الداخلية والاقتصاد والمالية والمواصلات وهملر ايضاً. وكان هذا هو الاجتماع الثاني الذي عقده المجلس منذ إنشائه ولكن غورنغ أوضح للمجتمعين ان هذه الهيئة لا تجتمع إلا لاتخاد اكثر القرارات اهمية ، ولم يترك شكاً في إذهان سامعيه ، كما تحسر الوقائع السرية المصادرة للاجتماع النقاب ، في أن الحرب قريبة وان امام المجلس الكثير من العمل لتأمين القوة العاملة في الصناعة والزراعة ، وإنجاز الكثير من القضايا المتعلقة بالتعبئة الجماعية الشاملة [١] .

وابلغ غورنغ المجلس بأن هتلر قرر تعبئة سبعة ملايين رجل . وتحتم على الدكتور فونك ، وزير الاقتصاد رغبة منه في زيادة عدد العمال « ان يقرر نوع الاعمال التي يمكن ان يعهد بها إلى أسرى الحرب وإلى سكان السجون ومعسكرات الاعتقال » . وتدخل هملر قائلاً ان « من الممكن المزيد من الافادة من معسكرات الاعتقال في ايام الحرب » . واضاف غورنغ ان من الواجب « تشغيل المئات من الالوف من العمال من أهل المحميّة التشيكية ، تحت اشراف المختصين من المانيا ، ولا سيما في اعمال الزراعة ، بعد إسكانهم في اكواخ خاصة » . وهكذا اتضح ان البرنامج النازي لرقيق العمل قد بدأ يتخذ شكله الحقيقي .

ووعد الدكتور فريك وزير الداخلية « بالاقتصاد في العمل في الادارة العامة » ، وراح يعترف للحاضرين بأن عدد الموظفين البيروقراطيين قد ارتفع في العهد النازي « من عشرين إلى اربعين ضعفاً » وان هذا الوضع لا يطاق . وتقرر تأليف لجنة لمعالجة هذا الوضع المحزن .

وقدم العقيد رودلف غيركي رئيس قسم المواصلات في هيئة اركان حرب الجيش تقريراً آخر اكثر مدعاة الى التشاؤم. فقد اعلن للمجتمعين بمنتهى الصراحة « ان المانيا غير متأهبة للحرب في ميدان النقل في الوقت الراهن » .

وتعتمد كفاية تسهيلات النقل الألماني لاداء المهمات المفروضة عليها ، على ما

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٧١٨ ـ ٧٣١ .

اذا كانت الحرب ستظل محصورة في بولندة . واعرب العقيـــد عن خشيته بأن نظام المواصلات لن يكون كافياً لمواجهة المسؤوليات في حـــالة نشوب الحرب في الغرب ضد فرنسا وبريطانيا العظمى . ودعي مجلس الدفاع الى اجتماعـــين طارئين في شهر تموز « لحـــل الجدار الغـــربي قبل الخامس والعشرين من آب على ابعد تقدير في اتم وضع ممكن من الاستعداد عن طريق المـــواد التي يمكن الحصول عليها في ذلك الوقت نتيجة مجهود هائل » . وتقرر ان يعهـــد إلى كبار الموظفين في مصانع كروب وفي احتكار صناعة الفولاذ بتأمين المعـــادن اللازمة لاستكمال تسليح التحصينات الغربية . ولقد عرف الألمان انه استناداً إلى مناعة هذه التحصينات يتوقف مدى ماستحس به الجيوش الانكليزية — الفرنسية من ميل إلى القيام بهجوم جدي على المانيا الغربية ، في الوقت الذي يكون فيه الجيش الألماني « الفيرماخت » مشغولاً في بولندة .

* * *

وعلى الرغم من ان هتلر بما عرف عنه من صراحة طبيعية قد قال لقادتـه العسكريين في الثالث والعشرين من ايار ان دانزيغ لم تكن السبب في النزاع مع بولندة على الاطلاق ، إلا انه بدا لعدة اسابيـع في منتصف الصيف ان المدينـة الحرة قد تكون مستودع « البارود » ، الذي قد يؤدي إلى انفجار الحرب في أي يوم . وكان الالمان منذ مـــدة يهربون إلى دانزيـغ الاسلحة وضباط الجيش النظامي لتدريب حرس الدفاع المحلي على استعمالها [1] وكانت هـذه الاسلحة ،

---

١ ــ ابلغت القيادة العليا للجيش وزارة الخارجية الالمانية في التاسع عشر من حزيران ان ١٦٨ ضابطاً من ضباط الجيش الالماني قد منحوا « اذونات للسفر عبر دولة دانزيـغ الحرة في الملابس المدنية للقيام برحلة لاغراض دراسية » . وسأل الفريق كايتل في مطلع شهر تموز وزارة الخارجية عما إذا كان من المرغوب فيه سياسياً ان تعرض علناً المدافع الخفيفة الاثنا عشر والمدافع الثقيلة الاربعة الموجودة في دانزيـغ وان يجري التدريب عليها علنا ، او أن من الافضل اخفاء وجود هذه المدافع في المدينة الحرة » (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٧٥٠ ، ٩٢٠ ، ٩٢١) ولا تكشف الوثائق الألمانية المصادرة كيف افلح الالمان في تهريب المدافع الثقيلة على مرأى من المفتشين البولنديين على الحدود .

وهؤلاء الضباط ، يتوافدون عبر الحدود من بروسيا الشرقية ، ولذا فقد فرض البولنديون رقابة شديدة عليها عن طريق زيادة موظفي جماركهم وحرس حدودهم . وردت سلطات دانزيغ المحلية التي كانت تعمل الآن تبعاً لتعليمات برلين ، بمحاولة منع الموظفين البولنديين من تنفيذ واجباتهم .

وبلغت الأزمة ذروتها في الرابع من شهر آب عندما راح الممثل الدبلوماسي البولندي في دانزيغ يبلغ السلطات المحلية ان التعليمات قد صدرت إلى مفتشي الجمارك البولنديين بالقيام بمهامهم مستخدمين الاسلحة ، وأن اية محاولة يقوم بها أهل دانزيغ ، لعرقلة اعمالهم . ستعتبر « عملاً عدوانياً » ضد الموظفين البولنديين وان الحكومة البولندية في مثل هذه الحالة « ستثأر دون إبطاء من المدينة الحرة » .

وكان هذا التهديد دليلاً جديداً لهتلر على أن البولنديين لن يذعنوا ، ولا يفلح الارهاب معهم ، وتعزز هذا الدليل بالبرقية التي بعث بها السفير الألماني في وارشو الذي أبرق لحكومته في السادس من آب ، بأنه « لا يشك مطلقاً في أن بولندة ستحارب إذا وقع أي اعتداء على حقوقها في دانزيغ . » ونحن نعرف الآن من ملاحظة مدوّنة على هامش هذه البرقية بخط يد ريبنتروب انها عرضت على الفوهرر .[1]

وثار هتلر . واستدعى في اليوم التالي السابع من آب البرت فوستر الزعيم النازي في دانزيغ إلى برختسغادن وأبلغه انه وصل حدود صبره مع البولنديين. وتبودلت المذكرات الغاضبة بين برلين ووارشو ، وكانت عنيفة في لهجتها إلى الحد الذي لم يجرؤ أي من الفريقين على إعلانها . ووجهت حكومة الرايخ في التاسع من آب تحذيراً إلى بولندة ، بأن تكرار انذارها الى دانزيغ « سيؤدي إلى تحرّج العلاقات الألمانية البولندية ، بشكل لا تكون الحكومة الألمانية مسؤولة عنه » . وردت الحكومة البولندية في اليوم التالي رداً لاذعاً ... جاء فيه :

« إنها ستواصل الرد كما في السابق على أية محاولة من جانب

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٨٦٤ ـ ٨٦٥

سلطات المدينة الحرة للمساس بحقوق بولندة في دانزيغ ومصالحها فيها ، وانها ستفعل ذلك مستخدمة طرقاً ووسائل تجدها صالحة ، معتبرة أي تدخل من جانب حكومة الرايخ عملاً عدوانياً.(١)

ولم تكن أية دولة صغيرة ، وقفت في وجه هتلر من قبل ، قد جرؤت على استعمال هذه اللغة التي استعملتها بولندة اليوم . وعندما استقبل الفوهرر في اليوم التالي الحادي عشر من آب كارل بير كهاردت السويسري ومفوض عصبة الامم في دانزيغ والذي كان قد قطع نصف الطريق لقبول المطالب الألمانية ، كان هتلر في حالة عصبية شديدة ، وراح يقول لزائره انه « سيقوم بهجوم خاطف على بولندة في حالة قيامها بأية محاولة ، مستخدماً كل ما تحت تصرفه من اسلحة قوية لا يعرف البولنديون شيئاً عنها » .

ولقد روى بير كهاردت فيما بعد انه قال للفوهرر ان هذا سيؤدي إلى حرب عامة فرد الهر هتلر قائلاً بأنه إذا كانت الحرب محتومة ولا بد منها ، فإنه يؤثر ان يخوضها اليوم على ان يخوضها غداً ، وبأنه لن يسير فيها كما سار غليوم ، الذي كانت الشكوك تساوره دائماً بالنسبة إلى استعمال كل سلاح من الاسلحة استعمالاً كاملاً مما دفع به إلى التردد ، أما بالنسبة اليه ، أي إلى هتلر ، فإن الرحمة لن تصل إلى شغاف قلبه أبداً .(٢)

وهذه الرحمة التي لن يعرفها ... من المقصود بها يا ترى ؟ بولندة بالطبع . وقد تكون بريطانيا وفرنسا مقصودتين بها ايضاً إذا اقتضى الامر . وهل يجفو الرحمة مع روسيا ايضاً ؟ لا ... فلقد حزم هتلر امره اخيراً بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي .

تدخل روسيا ايضاً ـــ ٣

وجاءت البادرة الجديدة من جانب الروس .... ففي الثامن عشر من تموز ،

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٤ ـ ٥ و ٩ ـ ١٠ .

٢ ـ وثائق في المشاكل الدولية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٦ (١) ص ٣٤٦ ـــ ٣٤٧ .

قام المسيو بابارين الممثل التجاري السوفياتي في برلين ، يرافقه اثنان من مساعديه بزيارة جوليوس شنوري ، في دار وزارة الخارجية الالمانية وأبلغه ان روسيا راغبة في توسيع العلاقات الاقتصادية الالمانية ــ السوفياتية وتمديدهـــا . وكان يحمل مذكرة مطولة لعقد اتفاقية تجارة تدعوإلى تبادل اكبرمن السلع بينالبلدين، واعلن انه في حالة التمكن من توضيح بعض الخلافات بين الجانبين وتذليلهـا فإنه مخوّل بتوقيع اتفاق تجاري مع المانيا في برلين . وقد سر الالمان لهـــذه الخطوة الروسية كما تشير إلى ذلك مذكرة المانيا السرية عن الاجتماع . وقـال شنوري في مذكرته ان مثل هذه المعاهدة « لا بد وان تترك أثرها في بولندة ، وبريطانيا على الاقل [١] » . واعلنت الصحافة الروسية في موسكوبعد أربعـــة ايام أي في الثاني والعشرين من تموز أن المفاوضات التجارية بين الاتحاد السوفياتي والمانيا قد استؤنفت في برلين .

وابرق وايز ساكر في نفس اليوم برقيـــة مسهبة مطولة إلى السفير فون دير شولنبرغ في موسكو ، ضمنها تعليمات جديدة مهمة . فقد أشار اولاً الى المفاوضات التجارية وابلغ السفير « ان المانيا ستسلك في برلين سلوكاً صريحاً واضحاً لا سيما وان عقد مثل هذه المعاهدة في اسرع وقت ممكن شيء مرغوب فيه هنا لأسباب عامة » . وأضاف « انه بالنسبة الى الناحية السياسية المجردة من محادثاتنـا مع الروس ، فإننا نعتبر ان فترة الانتظار التي اشترطناها عليك في برقيتنا المؤرخة في الثلاثين من حزيران قد انتهت ، وان في وسعك والحـــالة هذه ان تعود الى الامساك بالخيوط ، دون أن تبدي الحافاً في القضية . [٢]

وبالفعل عادت المانيـــا الى الامساك بالخيوط بعد أربعة ايام أي في السادس والعشرين من تموز . فقد اصدر ريبنتروب تعليماته إلى الدكتور شنوري ، بأن يدعو استاخوف القائم بالاعمال السوفياتي وبابارين الممثل التجاري إلى العشاء في احد مطاعم برلين الانيقة لسبر غورهما . ولم يكن الروسيان في حاجة إلى من

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٩٣٦ ــ ٩٣٨ .

٢ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٩٥٥ ــ ٩٥٦ .

يحثهما . فلقد روى شنوري في مذكرته السرية عن الاجتماع يقول : « لقد مكث الروسيان معي حتى الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل ، وكانا يتحدثان باسلوب تملؤه الحيوية ويفعمه الاهتمام عن المشاكل السياسية والاقتصادية التي يهتم بها بلدانا » .

وقد اعلن استاخوف بتأييد حارٍ من بابارين أن التقارب السياسي بين السوفيات والمانيا يتفق مع المصالح الحيوية للبلدين . وقال ان المسؤولين في موسكو لم يستطيعوا قط ان يفهموا لماذا تقف المانيا النازية هذا الموقف العدائي من الاتحاد السوفياتي . ورد الدبلوماتي الالماني « ان السياسة الالمانية في الشرق قد اتخذت الآن موقفاً مغايراً كل المغايرة لما كان عليه موقفها في السابق » ... ومضى يقول :

« ولن يكون هناك من ناحيتنا أي تهديد للاتحاد السوفياتي مطلقاً . فأهدافنا تتجه إلى ناحية مختلفة تمام الاختلاف ... ان السياسة الالمانية تستهدف بريطانيا ... وفي وسعي ان اتصور ترتيباً شاملاً للمصالح المتبادلة مع إحلال المشاكل الروسية محل الاعتبار المطلق .

« لكن هذا الاحتمال سيتوقف حتماً في اللحظة التي يتحالف فيها الاتحاد السوفياتي مع بريطانيا ضد المانيا . فالفرصة للتفاهم بين المانيا والاتحاد السوفياتي متاحة الآن ، ولكنها لن تكون متاحة بعد توقيع أي ميثاق مع لندن .

« وبعد ماذا تستطيع بريطانيا تقديمه للاتحاد السوفياتي ؟ ان غاية ما تستطيع تقديمه هو الاشتراك في حرب اوروبية واكتساب اعداء المانيا . ولكن ماذا بوسعنا أن نقدم نحن مقابل هذا ؟ الحياد والبقاء بعيداً عن الحرب في اوروبا ، وايجاد تفاهم الماني – روسي على اساس المصالح المشتركة ، إذا رغبت موسكو فيه يكون في مصلحة كل من البلدين ، كما كان الوضع في الماضي ... وليست هناك

في رأيي اية مشاكل متعارضة بين المانيا وروسيا على طول الحدود من بحر البلطيق إلى البحر الاسود وإلى الشرق الاقصى . يضاف إلى هذا ان البلدين على الرغم من جميع الخلافات بين وجهات نظرهما في الحياة . يربطهما شيء مشترك في عقائديتهما ويشمل ايطاليا ايضاً ، وهو معارضة الدول الديموقراطية الرأسمالية في الغرب ». [1]

وهكذا في الساعات المتأخرة من ليلة السادس والعشرين من تموز وفي مطعم صغير في برلين ، وامام وجبة شهية من الشراب والغذاء ، تناولها دبلوماتيون. من رجال الطبقة الثانية ، قدمت المانيا اول عرض جدي لها في سبيل عقد صفقة مع روسيا السوفياتية . ولكن الخط الجديد الذي سار فيه شنوري ، كان موحى به من ريبنتروب نفسه وطرب استاخوف لسماع العرض ، ووعد شنوري بأن ينقله فوراً إلى موسكو .

وانتظرت وزارة الخارجية الألمانية بفروغ صبر رؤية رد الفعل في العاصمة السوفياتية . وبعد ثلاثة ايام ، أي في التاسع والعشرين من تموز ، بعث وايزساكر إلى السفير شولنبرغ في موسكو برسالة سرية يحملها رسول خاص ... وجاء في الرسالة :

« من المهم لنا كل الأهمية ان نعرف ما إذا كانت الملاحظات التي قيلت لاستاخوف وباباربن قد لاقت اية استجابة في موسكو . وإذا اتيحت فرصة أخرى لاجراء حديث مع مولوتوف ، نرجو أن تجس نبضه على نفس الأسس . وإذا اسفرت هذه المقابلة ، عن تخلي مولوتوف عن موقف التحفظ الذي لا يزال يتخذه ، ففي وسعك أن تخطو خطوة أُخرى .... وينطبق هذا بصورة خاصة على المشكلة البولندية . فنحن على استعداد مهما كان الشكل الذي ستتطور فيه القضية البولندية ... لحماية جميع المصالح السوفياتية ورعايتها والوصول إلى تفاهم مع حكومة موسكو . أما في موضوع

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١١٠٦ ـ ١١٠٩ .

دول البلطيق ، ففي وسعك أن تقدم إذا سارت المحادثـات سيراً إيجابياً ، فكرة احتمال تكييف موقفنا من هذه الدول بشكل يضمن احترام المصالح السوفياتية الحيوية في المنطقة . » [١]

وبعث وزير الدولة بعد يومين أي في الواحد والثلاثين من تموز البرقيـة العاجلة والسرية التالية إلى شولنبرغ :

« اشارة إلى رسالتنا بتاريخ التاسع والعشرين من تموز التي حملها رسول خاص إلى موسكو فوصلها اليوم ...

« ارجو ان تبرق لنا بموعد مقابلتك المقبلة مع مولوتوف حـال تحديده .

« اننا توّاقون لاتمام المقابلة فوراً [١]

وهكذا اتصفت البرقيـات المرسلة من برلين إلى موسكو لأول مرة بصفة الاستعجال .

وكانت هناك اسباب مهمة تدعو إلى استعجال برلين . ففي الثالث والعشرين من تموز وافقت بريطانيا وفرنسا اخيراً على اقـتراح روسيا بإجراء محـادثات عسكرية بين اركان الحرب فوراً ، لعقد ميثاق عسكري يحـدد الخطط لمواجهة الدول الثلاث لجيوش هتلر . وعلى الرغم من ان تشمبرلين لم يعلن هـذا الاتفاق إلا في الواحد والثلاثين من تموز عندما أذاعـه في مجلس العموم ، إلا أن الالمان عرفوا بوجوده قبل هذا التاريخ. فقد ابرق السفير الألماني فون ويلكزيك من باريس إلى برلين في الثامن والعشرين من تموز يقول انه علم من « مصـدر عليم فوق العادة » ان بريطانيا وفرنسا قررتا ايفاد بعثتين عسكريتين إلى موسكو ، وأن الفريق دومينك (Doumenc) سيرئس البعثة الفرنسية ، وهو على حـد تعبيره « ضابط قدير للغاية » وكان يشغل في الماضي منصب نائب رئيس هيئـة

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ١٠١٥ ــ ١٠١٦ .

٢ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٠٢٢ ــ ١٠٢٣

اركان الحرب في ايام مكسيم ويغان .[١] وذكر السفير الألماني في برقية لاحقة بعد يومين ان الانطباع السائد لديه هو أن باريس ولندن قد وافقتا على إجـراء المحادثات العسكرية بين اركان الحـــرب كآخر وسيلة للحيلولة دون تأجيـــل مفاوضات موسكو .[٢]

ولا ريب في أن هذا الانطباع كان صحيحاً . فـأوراق وزارة الخـــارجية البريطانية السرية توضح أن المحادثات السياسية في موسكو ، كانت قد وصلت الى ازمة مستعصية في الاسبوع الاخير من تموز وذلك بالنظر إلى استحـــالة الوصول إلى تحديد « للعدوان غير المباشر وكان البريطانيون والفرنسيون يرون في التفسير الروسي لذلك الاصطلاح شمولاً واتساعاً، بحيث يمكن استخدامه لتبرير التدخل السوفياتي في فنلنـــدة ودول البلطيق حتى ولو لم يكن هناك أي تهديد نازي جدي ، مما تعارضه لندن معارضة تامة على الرغم من أن الفرنسيين بدوا اكثر رغبة في التساهل .

وأصرّ الروس أيضاً في الثاني من حزيران على وجوب اتفاق عسكري يحدد بالتفصيل الاساليب والشكل والمدى « للمساعدة العسكرية ، التي يجب أن تقدمها الدول المتعاقدة الثلاث إلى بعضها البعض على أن ينفذ هذا الاتفاق في نفس الوقت الذى ينفذ فيه ميثاق المساعدة المتبادلة . وحاولت الدولتان الغربيتان اللتان لم تكونا تحملان رأياً طيباً في قوة روسيا العسكرية[٣] التسويف مـــع

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٠١٠ - ١٠١١

٢ ــ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٦) ص ١٠٢١ .

٣ ــ اساءت القيادة العليا البريطانية تماماً كالقيادة العليا الالمانية فيما بعد تقدير القوة المحتملة للجيش الاحمر . وقد يعزى السبب في هذا الخطأ الى حد كبير الى التقارير التي تلقتها من ملحقيها العسكريين في موسكو . فقد بعث العقيد فاير بريس الملحق العسكري مثلا في السادس من اذار ، وقائد الجناح هولويل ، الملحق الجوي بتقريرين مطولين الى لندن يقولان فيهما انه على الرغم من ان طاقات الجيش الاحمر والسلاح الجوي السوفياتي ضخمة في مجالات الدفاع إلا انها عاجزة عن القيام بأي عمل هجومي جدي . واضاف هولويل في تقريره ان السلاح الجوي الروسي « كالجيش يمكن تجميده عن طريق انهيار خدماته الاساسية تماماً كما يمكن تجميده بعمل عسكري معاد . ورأى فاير بريس ان عمليات التطهير التي تناولت كبار الضباط قد اضعفت الى حد كبير الجيش الاحمر .=

مولوتوف . واعلنتا انهما على استعداد فقط للبدء في محادثات الأركان بعد توقيع الاتفاق السياسي. ولكن روسيا تصلبت في موقفها. وعندما حاول البريطانيون عقد صفقة يعرضون فيها في السابع عشر من تموز البدء بمحادثات الاركان فوراً إذا كان الاتحاد السوفياتي على استعداد للتخلي عن اصراره على وجوب توقيع الاتفاقين العسكري والسياسي في وقت واحد ، وإذا كانوا يوافقون كدليل على على حسن النية على التفسير البريطاني للتعبير « العدوان اللامباشر » ، رفض مولوتوف هذه المساومة البريطانية رفضاًباتاً . واضاف انه ما لم يوافق البريطانيون والفرنسيون على عقد اتفاقات سياسية وعسكرية في آن واحد ، فليس ثمة من فائدة في استمرار المفاوضات . وقد اثار هذا التهديد بوقف المحادثات شيئاً من من التجهم والقلق في باريس ، التي كانت كما يبدو اكثر احساساً من لندن بما يدور من مغازلات بين النازيين والسوفيات ، وكان من نتائج الضغط الفرنسي أن رفضت الحكومة البريطانية في الثالث والعشرين من آب قبول الاقتراحات الروسية في موضوع « الاعتداءات اللامباشرة » ووافقت وهي برمة متذمرة على التفاوض لعقد ميثاق عسكري .[1]

وكان تشمبرلين في منتهى الفتور في موضوع محادثات اركان الحرب .[2] وفي

= ولكنه اشار الى لندن ايضاً بأن « الجيش الاحمر يعتبر ان الحرب واقعة لا بد منها ، وانه يبذل كل ما لديه من جهود ، للاستعداد لها . » (وثائق وزارة الخارجية البريطانية ٤ – رقم ١٨٣) .

١ – وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٦) ارقام ٣٢٩ ، ٣٣٨ ، ٣٤٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٧٦ ، ٣٩٩ .

٢ – كان سترانغ في مفاوضاته مع مولوتوف في موسكو اكثر برودة . ولقد بعث الى وزارة الخارجية البريطانية في العشرين من تموز يقول : « لا ريب في ان من المخالف للمألوف ان ينتظر الناس منا التفاوض في اسرار عسكرية مع الحكومة السوفياتية قبل ان نتأكد من انها ستكون حقاً حليفتنا » .

أما وجهة نظر السوفيات فكانت على النقيض من ذلك تماماً ، وقد عرضها مولوتوف على المفاوضين الانكليز والفرنسين في السابع والعشرين من تموز. فقد قال لهم : « ان النقطة الهامة هي ان نرى كم عدد الفرق التي يستطيع كل فريق تقديمها الى القضية المشتركة واين ستتمركز هذه الفرق » (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٦) رقم ٣٧٦ و ٤٧٣) . وقد اراد الروس قبل ان يلتزموا بأي شيء سياسي . التأكد من مدى المساعدات العسكرية التي في وسعهم انتظارها من الغرب.

الاول من آب ابلغ السفير الالماني في لندن فون ديركسين حكومته في برلين ان دوائر الحكومة البريطانية تنظر نظرة متشائمة وملأى بالشكوك إلى المفاوضات العسكرية مع الروس .. ثم قال :

« ويبدو هذا من الطريقة التي تألفت فيهـــا البعثة العسكرية البريطانية[1]

« ولقد كان الاميرال من الضباط المتقاعدين بالفعل ولم يكن في يوم ما على قائمة اركان حرب البحرية . أمـــا الفريق فهو ضابط ميدان مجرد . واشتهر مشير الجو بأنه من خيرة الطيارين والمدربين ولكنه ليس من الخبراء في السوقية العسكرية . ويبدو ان هـذه الحقائق تشير إلى ان مهمة البعثة العسكرية مجرد التأكد من القيمة القتالية للقوات السوفياتية لا عقـــد اتفاقات معهـــا في موضوع العمليات .... ويتفق ملحقو الفيرماخت ، في الاقرار بوجود شك يبعث على الدهشة في الدوائر العسكرية البريطانية حول موضوع المحادثات المقبلة مع القوات السوفياتية المسلحة . »[2]

وبالفعل كانت الحكومة البريطانية كثيرة التشكك إلى الحد الذي حملها على الاهمال في اعطاء صلاحيات خطية إلى الاميرال دراكس للقيام بالمفاوضات ، وهو اهمال دعا المشير فورشيلوف إلى التذمر في أول جلسة عقدها ضباط الاركان ولم تصل أوراق اعتماد الاميرال إلا في الواحد والعشرين من آب ، وبعد ان كانت قد فقدت كل ما لها من أهمية وفائدة .

ولكن إذا صح ان الاميرال دراكس لم يكن يحمل أوراق أعتماد رسمية ، فإنه على أي حال ، كان يحمل تعليمات سرية خطية عن السير الذي يجب أن ينتهجه في محادثات موسكو العسكرية . وقد كشفت وثائق وزارة الخارجيـة

---

١ ــ تألفت البعثة البريطانية من الاميرال السير ريجينالد بلانكيت دراكس ، القائد العام السابق في بلايموث ١٩٣٥ ــ ١٩٣٨ ومشير الجو السير تشارلز بيرنيت واللواء هيورد .

٢ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٠٣٣ ــ ١٠٣٤

البريطانية في وقت لاحق النقاب عن ان الاميرال زود بتعليمات « للسير بمنتهى البطء في المحادثات العسكرية مراقباً بعين يقظة سير المفاوضات السياسية » إلى أن يتم الوصول إلى اتفاق سياسي . [1] ولقد اوضح المسؤولون له ان ليس في وسعه ان يفضي بأية معلومات عسكرية سرية إلى الروس قبل توقيع الميثاق السياسي.

ولكن لما كانت المحادثات السياسية قد توقفت في الثامن من آب ، ولما كان مولوتوف قد اوضح بأنه لا يوافق على استئنافها الى أن تكون المحادثات العسكرية قد احرزت بعض التقدم ، بات لزاماً علينا ان نستنتج بأن حكومة تشمبرلين كانت على استعداد كامل ، للتطويل في تحديد الالتزامات العسكرية التي تترتب على كل بلاد تشترك في الميثاق المقترح للعون المتبادل . [2] ولا تترك وثائق وزارة الخارجية البريطانية السرية أي شك في أن تشمبرلين وهاليفاكس كانا في مطلع شهر آب ، قد تخليا عن كل أمل في الوصول إلى اتفاق مع الاتحاد السوفياتي لوقف هتلر ، ولكنهما فكرا في أن التسويف في مفاوضات اركان الحرب في موسكو قد يؤدي إلى منع الديكتاتور الألماني ، من اتخاذ الخطوة القدرية باتجاه الحرب في غضون الاسابيع الاربعة التالية . [3]

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية البريطانية ــ الملحق الخامس ــ ص ٧٦٣.

٢ ــ توصل ارنولد توينبي ومساعدوه الى هذا الاستنتاج في كتابهم «عشية الحرب عام ١٩٣٩» . وقد استندوا فيه الى وثائق وزارة الخارجية البريطانية . انظر صفحة ٤٨٢ .

٣ ــ كتب مشير الجو السير تشارلز بورنيت في السادس عشر من آب من موسكو الى لندن يقول : « لقد علمت ان سياسة الحكومة ترمي الى تطويل المفاوضات ما امكن اذا لم نستطع حمل الروس على قبول المعاهدة ». وكان سيدس السفير البريطاني في موسكو قد ابرق الى لندن في الرابع والعشرين من تموز أي في اليوم الذي تلا موافقة حكومته على البدء بمحادثات اركان الحرب يقول: « لست متفائلا بامكان نجاح المفاوضات العسكرية ، كما لا اعتقد انها ستنتهي في وقت سريع على اي حال ، ولكن البدء فيها الآن سيؤدي الى ما يشبه الحفرة لدولتي المحور ، كما يشجع اصدقاءنا ، في الوقت الذي سيؤدي تمديدها وقتاً كافياً الى التغلب على المخاطر التي تنطوي عليها الاشهر الخطرة التالية » (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) الملحق الثاني ص ٦٠٠ ونفس المصدر رقم ٤١٦) وبالنظر الى ما عرفته المخابرات البريطانية الفرنسية عن الاجتماعات التي عقدها مولوتوف مع السفير الالماني وعن الجهود الالمانية لحمل روسيا على الاهتمام بتقسيم جديد لبولندة ، وهو ما بعث كولوندر=

وإذا ما قارنا البعثتين البريطانية والفرنسية بالبعثة الروسية ، تبين لنا أن الروس قد عهدوا بالمحادثات إلى اكبر الضباط في قواتهم المسلحة ، كالمشير فورشيلوف وزير الدفاع والفريق شابوشنيكوف رئيس هيئة أركان حرب الجيش الاحمر ، والقائدين العامين للاسطول والسلاح الجوي . ولم يفت الروس ملاحظة الحقيقة الواقعة وهي أن البريطانيين في الوقت الذي اوفدوا الفريق السير ادموند ايرونسايد ، رئيس هيئة اركان حرب الامبراطورية إلى وارشو في شهر تموز لاجراء محادثات عسكرية مع القيادة العامة البولندية ، فإنهم لم يروا ضرورة لايفاد هذا الضابط الكبير إلى محادثات موسكو .

ولا يمكن ان يقال مطلقاً ان البعثتين العسكريتين الانكليزية والفرنسية قد ارسلتا على وجه العجلة إلى موسكو . فلقد كان في إمكان الطائرة أن تنقلهما اليها في يوم واحد . ولكنهما في الحقيقة ، ارسلتا على سفينة بطيئة ، هي باخرة تعمل للنقل وللركاب ، وقد استغرقت في عملية نقلها إلى روسيا ما تستغرقه الباخرة « الملكة ماري » في نقلهما إلى امريكا لو ارادتا الذهاب اليها . ولقد ابحرت هذه الباخرة إلى لينغراد في الخامس من آب ولم تصل إلى موسكو إلا في الحادي عشر منه .

وكان الوقت قد فات . فقد سبقهما هتلر. وبينما كان العسكريون البريطانيون والفرنسيون ينتظرون وصول باخرتهما البطيئة إلى لينغراد ، كان الألمان يعملون بسرعة خارقة . ولقد كان الثالث من آب يوماً دقيقاً للغاية في كل من برلين وموسكو .

ففي الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثامنة والخمسين من بعد ظهر ذلك اليوم راح فون ريبنتروب وزير الخارجية الذي كان قد ترك مهمة إرسال البرقيات إلى وايز ساكر وزير الدولة ، يبعث ببرقية منه وقد دوّن عليها عبارة « سرية .... ومستعجلة للغاية » ، إلى شولنبرغ في موسكو وهذا نصها :

= يحذر باريس منه في السابع من ايار ، وعن الحشود الالمانية على حدود بولندة ، وعن نوايا هتلر فان هذه الثقة البريطانية في امكان احتجاز موسكو هذه المدة الطويلة ، تبعث على الدهشة حقاً .

« لقد جرى لي أمس حديث طويل مع استاخوف ، وسأرسل إليك بفحوى ما دار فيها في برقية لاحقة .

« وقد اعربت له عن رغبة المانيا في اعادة صياغة العلاقات الألمانية الروسية ، وقلت له أن ليست هناك مشكلة بين بحري البلطيق والاسود لا يمكن حلها بين البلدين في شكل مرض لهما معاً. ولقد اعلنت رداً على رغبة استاخوف في اجراء محادثات اكثر تحديداً حول مواضيع الساعة ، بأنني على استعداد لإجراء مثل هذه المحادثات إذا كانت الحكومة السوفياتية على استعداد لإبلاغي عن طريق استاخوف بأنها ترغب أيضاً في الوصول بالعلاقات الألمانية – الروسية إلى اساس جديد ومحدود. [1]

وعرف في وزارة الخارجية الألمانية أن شولنبرغ سيقابل مولوتوف في ساعة متأخرة من ذلك اليوم . وبعد ارسال برقية ريبنتروب بساعة واحدة ، بعث وايز ساكر ببرقية أُخرى وقد أشار عليها ايضاً « سرية ... وعاجلة للغاية » وقد جاء فيها :

« بالنظر إلى الموقف السياسي الراهن وحرصاً منا على السرعة ، فنحن تواقون دون أن يؤثر ذلك على محادثاتك اليوم مع مولوتوف للمضي في محادثات في برلين على أسس اكثر تحديداً لتنسيق العلاقات الألمانية السوفياتية وخلق الانسجام فيها . ولذا سيستقبل شنوري اليوم استاخوف ويبلغه رغبتنا في المضي في المحادثات على اسس اكثر تحديداً . » [2]

وعلى الرغم من ان رغبة ريبنتروب الفجائية في اجراء محادثات « محدودة » حول جميع القضايا المتعلقة بالمنطقة الممتدة بين بحري البلطيق والاسود لا بد وان تكون قد ادهشت السوفيات ، وعلى الرغم من انه قد ابلغ شولنبرغ في برقيته

---

١ – وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٦) ص ١٠٤٧ .

٢ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٠٤٨ – ١٠٤٩ .

التالية التي بعث بها في الساعة الثالثة والدقيقة السابعة والاربعين مساء من انه « قد المح إلى استاخوف بامكان الوصول إلى تفاهم مع روسيا حول مستقبل بولندة ، إلا انه أكد لسفيره في موسكو بأنه أبلغ القائم بالاعمال الروسي .... « اننا لسنا على عجلة من أمرنا . » [1]

ولكن هذ القول كان مجرد « بلفة » كاذبة ، وهذا ما فهمه القائم بالاعمال السوفياتي الذي عندما اجتمع إلى شنوري في وزارة الخارجية في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والاربعين بعد الظهر . ولقد ذكر المبعوث الروسي انه في الوقت الذي يبدو فيه شنوري على عجلة من أمره إلا أن وزير الخارجية الألمانية لم يظهر في مقابلته له بالأمس مثل هذه العجلة . واغتنم شنوري الفرصة كما تكشف المذكرة السرية عن الاجتماع: [2]

« قلت للمسيو استاخوف انه على الرغم من ان وزير الخارجية لم يبد في الليلة الفائتة أي استعجال للموضوع في البحث مع الحكومة السوفياتية ، إلا اننا نرى وجوب الافادة من الأيام القليلة القادمة في مواصلة المحادثات لنتمكن من إقامة أساس في اسرع وقت ممكن . »

وهكذا باتت القضية بالنسبة إلى الألمان قضية بضعة أيام تالية . وابلغ استاخوف شنوري بأنه تلقى « رداً أولياً مؤقتاً » من مولوتوف على الاقتراحات الالمانية وكان هذا الرد سلبياً في مجمله . إذ على الرغم من ان موسكو ترغب ايضاً في تحسين العلاقات إلا ان مولوتوف قد أبلغه « بأن المانيا لم تبد حتى الآن شيئاً محدوداً عن موقفها . »

ونقل وزير الخارجية السوفياتية آراءه مباشرة إلى شولنبرغ في تلك الليلة . فقد بعث السفير في برقية مطولة ، ابرق بها بعيد منتصف الليل [3] ، يقول ان

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٠٤٩ ــ ١٠٥٠
٢ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٠٥١ ــ ١٠٥٢
٣ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٠٥٩ ــ ١٠٦٢

مولوتوف تخلى في الحديث الذي دار بينهما في تلك الليلة والذي استغرق ساعة وربع الساعة « عن تحفظه المعهود وبدا صريحاً بصورة غير مألوفة » . وليس ثمة ما يدعو إلى الشك في هذه الحقيقة . إذ بعد ان كرر شولنبرغ وجهة نظر المانيا بعدم وجود أي خلاف بين الدولتين « من البلطيق حتى البحر الاسود » ، واكد رغبة المانيا في « الوصول إلى تفاهم » راح الوزير السوفياتي الصلب يعدد بعض الاعمال العدائية التي اقترفها الرايخ ضد الاتحاد السوفياتي ، كميثاق مكافحة الشيوعية ، وتأييد اليابان ضد روسيا ، واستثناء السوفيات من مؤتمر ميونيخ .

وراح مولوتوف يتساءل ... « ترى كيف يمكن لنا ان نوفق بين هذه البيانات الألمانية الجديدة وبين تلك النقاط الثلاث ؟ ان الأدلة على وجود تبدل في موقف الحكومة الالمانية ما زالت غير قائمة في الوقت الحاضر ».

ويبدو ان شولنبرغ قد ساوره شعور من تثبيط العزيمة عندما استمع إلى هذا القول إذ راح يبرق لبرلين :

« وكان الانطباع الذي تولّد لدي ، أن الحكومة السوفياتية مصممة في الوقت الحاضر على التوصل إلى اتفاق مع بريطانيا وفرنسا ، إذا نفذت لها هاتان الدولتان جميع رغباتها .... واعتقد ان بياناتي قد تركت انطباعاً على مولوتوف ، فهذه البيانات تتطلب جهوداً كبيرة من جانبنا لحمل الحكومة السوفياتية على تغيير موقفها وسلوكها».

وعلى الرغم من معرفة الدبلوماتي الألماني المحنك بالشؤون السوفياتية ، إلا أنه كما يبدو ، بالغ في تقدير ما وقع من تقدم في موسكو بين المفاوضين البريطانيين والفرنسيين . ويبدو انه لم يدرك ايضاً المدى الذي كانت برلين على استعداد الآن للمضي فيه لبذل « الجهود الكبيرة التي رأى انها ضرورية لحمل الحكومة السوفياتية على تغيير إتجاهها الدبلوماتي .

وازدادت الثقة في الويلهلمشتراسة بإمكان تحقيق هذا التحول . وفكرت المانيا في أن إبقاء روسيا على الحياد ، سيحمل بريطانيا وفرنسا على عدم المجازفة

بخوض الحرب في سبيل بولندة . أو أنهما إذا حاربتا ، فسيكون في مكنة المانيا الصمود امامهما في الحصون الدفاعية الغربية إلى أن تتم لها تصفية أمر بولندة بسرعة وآنذاك يتحول الجيش الألماني بكامل قوته نحو الغرب .

ولاحظ جاك تاربيه دي سان هاردوان ، القائم بالاعمال الفرنسي الذكي في برلين هذا التبدل الطارىء في جو العاصمة الالمانية . وفي نفس اليوم الثالث من آب ، عندما كانت برلين وموسكو تعجان بالنشاط الدبلوماتي السوفياتي – الالماني ، بعث إلى باريس يقول : « وقع تبدل واضح جداً في الاسبوع الاخير في الجو السياسي في برلين ... فلقد انتهت فترة الحيرة والتردد والميل إلى التهدئة وحتى إلى الترضية عند القادة الالمان ليحل محلها مرحلة جديدة . »[1]

تردد حلفاء المانيا

واختلف موقف حليفتي المانيا ايطاليا والمجر ، عن هذا الموقف . فلقد أخذ الخوف يدب في حكومتي بودابست وروما مع تقدم اشهر الصيف ، بصورة متزايدة من أن بلديهما قد يجران إلى حرب هتلر إلى جانب المانيا .

وفي الرابع والعشرين من تموز وجه الكونت تيليكي رئيس وزراء المجر رسالتين متشابهتين إلى هتلر وموسوليني يبلغهما فيهما ان « المجر في حالة نشوب حرب عامة ستوجه سياستها بشكل ينسجم مع سياسة المحور ». وأحس انه قد أوغل كثيراً في التزاماته فراح يحاول الانسحاب ، فبعث في نفس اليوم رسالة ثانية إلى الديكتاتورين يقول فيها : « منعاً لأي التباس أو اساءة فهم لرسالتي بتاريخ الرابع والعشرين من تموز ، أود ان أكرر ان المجر لا تستطيع لأسباب اخلاقية ومعنوية ، ان تكون في موقف من يتخذ عملاً حربياً ضد بولندة . »[2]

واثار الكتاب الثاني من بودابست هتلر فعرضه إلى نوبة جديدة من

---

١ ــ الكتاب الفرنسي الاصفر ــ الطبعة الفرنسية . ص ٢٥٠ ــ ٢٥١

٢ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ٩٧٣ ــ ٩٧٤

نوبات غضبه المألوفة . وعندما استقبل الكونت تزاكي ، وزير خارجية المجر في اوبرسالزبورغ في الثامن من شهر آب بحضور ريبنتروب ، استهل الحديث بقوله انه قد اصيب « بصدمة » من رسالة رئيس وزراء المجر . وراح يؤكد طبقاً للمذكرة السرية التي دونتها وزارة الخارجية الألمانية عن المقابلة ، انه لم يدر في خلده يوماً ما أن يطلب معونة من المجر أو من أية دولة أخرى « في حالة نشوب حرب بين المانيا وبولندة ». واضاف يقول : «ولكن رسالة الكونت تيليكي ، شيء لا يطاق . وراح يذكر ضيفه المجري ، بأن كرم المانيا هو الذي مكّن المجر من استعادة تلك الاراضي الواسعة على حساب تشيكوسلوفاكيا . ومضى يقول : «ولو قدر لألمانيا أن تهزم في الحرب ، فإن « المجر ستتعرض للتحطيم بصورة اوتوماتيكية ايضاً . »

وتحسر المذكرة الالمانية عن هذا الحديث ، وهي بين الوثائق المصادرة من وزارة الخارجية ، النقاب عن الحالة الفكرية التي كان هتلر يعيش فيها ، إبان انقضاء ايام شهر آب . فلقد ذكر لضيفه أن بولندة لا تؤلف في حد ذاتها أية مشكلة عسكرية بالنسبة إلى المانيا . وهو على أي حال ، قد اقام حساباته منذ البداية على خوض حرب في جبهتين . وراح يتبجح قائلاً : « وليس في استطاعة أية قوة في العالم أن تخترق حصون المانيا الغربية . ولم يتمكن انسان طيلة حياتي كلها من بعث الخوف في نفسي ، وينطبق هذا القول على بريطانيا ايضاً . كما لن استسلم لما يتكهنون به من إصابتي بانهيار عصبي » . اما عن روسيا ، فراح هتلر يقول :

> « ان الحكومة السوفياتية لن تشترك في حرب ضدنا ... ولن يكرر السوفيات خطيئة القيصر ، ويسفكون دماءهم في سبيل بريطانيا . ولكنهم قد يحاولون على أي حال ، الافادة على حساب دول البلطيق او بولندة دون الاشتباك في عمل عسكري » .

ويبدو ان خطاب هتلر كان مؤثراً الى الحد الذي حمل الكونت تزاكي بعد محادثته الثانية معه في نفس اليوم على أن يطلب اليه « اعتبار الرسالتين اللتين

كتبها الكونت تيليكي وكأنها لم تكتبا قط » وأضاف أنه سيوجه عين الطلب ايضاً إلى موسوليني .

وكان الدوتشي منذ عدة اسابيع يعيش في قلق وخوف دائمين من خطر قيام الفوهرر بجر ايطاليا إلى الحرب . وكان سفيره في برلـــين ، اتوليكو ، يواصل ارسال التقارير المفزعة عن تصميم هتلر على مهاجمة بولندة. [1] وأخذ موسوليني منذ مطلع حزيران يلحف لعقد اجتماع آخر مع هتلر ، وقد تقرر في شهر تموز ان يعقد هذا الاجتماع في الرابـع من شهر آب في ممر برينر . وقـــدم في الرابع والعشرين من تموز إلى هتلر عن طريق اتوليكو ، « بعض الأسس الجوهرية » للمحادثات التي ستجري بينهما . فإذا اعتبر الفوهرر ان الحرب « لا مناص منها » فإن ايطاليا ستقف إلى جانبه . ولكن الدوتشي ذكر هتلر ، بأن الحرب مـع بولندة لا يمكن ان تحصر في نطاق محلي ، وسرعان ما ستنتشر لتغدو حربـــاً

---

١ ــ لعل خير نموذج على هذه التقارير ، ما بعث به اتوليكو في السادس من تموز عن اجتماع له مع ريبنتروب . فلقد ذكر السفير الايطالي في تقريره ان الوزير الالماني ابلغه ان المانيـا ستسوي موضوع دانزيغ ، في وارشو نفسها ، في غضون ثمان واربعين ســاعة ، اذا جرؤت بولندة على مهاجمة المدينة . واذا قررت فرنسا ان تتدخل ، في قضية دانزيغ ، مشعلة اوار حرب عالميـة ، فلتفعل ما يحلو لها ، فليس احب الى المانيا من هذا التدخل . وسيقضى على فرنسا وتبـاد نهائياً . واذا قررت بريطانيا ان تتحرك ، فانها ستأتي عن طريق حركتها هذه بالدمار الى الامبراطوريـة البريطانية . أما روسيا ؟ فستعقد معاهدة المانية ــ روسية ، ولن تدخل روسيـا الحرب . امـا امريكا ؟ فلقد تمكن الفوهرر من هزيمة روزفلت ، ولن يتحرك الامريكيون على اي حـال ، اذ ان خوفهم من اليابان سيحملهم على الهدوء . ومضى اتوليكو يقول :

« وظللت استمع والدهشة تعقل لساني ، في الوقت الذي اخــذ فيه ريبنتروب يرسم صورة الحرب مع المانيا طبقاً للشكل الذي شاءت مخيلته ان ترسمها لها وليس في وسعـه ان يرى إلا هذه الصورة التي تبعث على الدهشة ، من الانتصار الالماني المضمون في كل ميدان وضد كل من يشاء دخولها . وألحت للوزير في النهاية ، انني حسب ما اعرف ، هناك اتفاق كامل بين الدوتشي والفوهرر حول استعداد ايطاليا والمانيا لخوض حرب ليست فورية (الوثائق الدبلوماتية الايطاليـة ــ الحلقـة السابعـة (١٢) رقم ٥٠٣ وكتاب « عشية الحرب » لتوينبي .)

ولكن اتوليكو الداهية لم يكن يصدق ما قاله لريبنتروب فقد ظلت برقياته طيلة شهر تموز تحذر من عمل فوري الماني في بولندة .

أوروبية . وهو لا يعتقد ان الوقت قد حان بعد بالنسبة إلى المحور لإشعال مثل هذه الحرب . واقترح بدلاً منها « سياسة سلمية انشائية تستمر عدة سنوات » وتسوّي فيها المانيا مشاكلها مع بولندة ، وايطاليا مشاكلهامع فرنسا عن طريق المفاوضات الدبلوماتية . ومضى الى أبعد من ذلك فاقترح عقد مؤتمر دولي آخر تشترك فيه كافة الدول الكبرى .[١]

وكان رد فعل الفوهرر، كما روى شيانو في يومياته بتاريخ السادس والعشرين من تموز ينطوي على السخط، ولذا فقد قرر موسوليني انه قد يكون من الافضل تأجيل اجتماعه بهتلر .[٢] واقترح عوضاً عن ذلك في السابع من آب ان يجتمع وزيرا خارجية البلدين فوراً . وتوضح يوميات شيانو في هذه الفترة ما ساد رومة من موجات القلق المتزايدة. فقد دوّن في يومياته بتاريخ السادس من آب ما يلي:

« علينا ان نجد وسيلة للخلاص من هذا المأزق . فمسيرنا في ركاب الألمان يطوح بنا إلى الحرب التي سنخوضها في اسوأ الاوضاع بالنسبة إلى المحور ولا سيما بالنسبة إلى ايطاليا. فلقد نضبت خزائننا من احتياطي الذهب عندنا ، كما نفد مخزوننا من المعادن ... علينا أن نتجنب الحرب وننأى عنها . وقد اقترحت على الدوتشي فكرة اجتماعي بريبنتروب ... وسأحاول في هذا الاجتماع مواصلة البحث في مشروع موسوليني لعقد مؤتمر عالمي ...

« ٩ آب — وافق ريبنتروب على فكرة اجتماعنا . قررت ان اسافر مساء غدٍ لاجتمع اليه في سالزبرغ . ويرغب الدوتشي رغبة اكيدة في أن اقيم الدليل للالمان بالبراهين الخطية على أن نشوب الحرب في هذه الآونة حمق ما بعده حمق .

« ١٠ آب — ان الدوتشي اكثر اقتناعاً اليوم منه في أي وقت مضى بضرورة تأجيل الصراع . ولقد وضع بنفسه مخطط التقرير

---

١ — وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٦) ص ٩٧١ — ٩٧٢

٢ — يوميات شيانو ص ١١٣ — ١١٤

الذي سأقدمه عن اجتماع سالزبورغ ، وانتهى فيه إلى الاشـارة إلى المفاوضات الدولية ، لتسوية المشاكل التي تهدد حياة اوروبا تهديداً خطيرا .

« وقبل ان يسمح لي بالسفر أوصاني بأن ابلغ الألمان بصراحة ان الواجب يقضي علينا بتجنب الحرب مع بولندة بالنظر إلى استحالة حصرها ، وإلى أن الحرب العامة ستأتي بالكوارث للجميـع »[١]

وهكذا تسلح وزير الخارجية الفاشي الشاب بمثل هذه الآراء المعقولة ، وان بدت ساذجة بالنسبة إلى الاوضاع الراهنة ، وبما زوده به الدوتشي من توصيات فغادر بلاده إلى ايطاليا ، حيث تلقى من ريبنتروب ومن هتلر بوجه خاص في الايام الثلاثة التالية ، الحادي عشر من آب والثاني عشر منـــه والثالث عشر ، اعظم صدمة واجهها في حياته .

شيانو في سالزبورغ واوبرسالزبورغ

١١ ، ١٢ ، ١٣ آب

امتد الحديث عشر ساعات في الحادي عشر من شهر آب ، بين شيانو وريبنتروب ، في « الضيعــة » التي يملكها الأخير في فوشل ، في ضواحي سالزبورغ والتي استولى عليها وزير الخارجية من أحد الملكيين النمسويين بعد ايداعه في احد معسكرات الاعتقال . ووجد وزير الخارجية الايطالي المعروف بحدة مزاجه ان جو المقابلة ينطوي على حد تعبيره هو على الفتور والكآبة . وخـــيم الصمت على الوزيرين فلم يتبادلا كلمة واحدة طيلة العشاء الذي تناولاه في نزل « الحصان الابيض » في بلدة سان ولفغانغ ، إذ لم يجدا ضرورة للحديث . وكان ريبنتروب قد ابلغ زائره في ساعة مبكرة من النهار ان القرار بمهاجمة بولندة ثابت لا يتغير .

---

١ – يوميات شيانو ص ١١٦ – ١١٨

ويقول شيانو انه سأل محدثه ... «حسناً يا ريبنتروب ؟ ماذا تريدون ؟ هل تريدون الرواق البولندي او تريدون دانزيغ ؟ »

فرد ريبنتروب وهو يتفرّس في وجهه بعينيه الجامدتين الباردتين ... « لم يعد هذا ما نريده ، اننا نريد الحرب .. »

ورفض الوزير الألماني رفضاً قاطعاً صريحاً قبول حجة شيانو من أن الحرب مع بولندة لا يمكن حصرها في نطاق محلي ، وان الدولتين الديموقراطيتين الغربيتين ، ستسرعان الى الحرب في حالة مهاجمة بولندة . وكان شيانو لا يزال يذكر هذا اليوم الشديد البرودة الذي قضاه في فوشل وسالزبرغ ، عندما اقتعد زنزانته رقم ٢٧ في سجن فيرونا بعد اربع سنوات في اليوم الذي سبق عيد ميلاد عام ١٩٤٣ تنفيذ حكم الاعدام فيه بتحريض من الالمان ، فقد روى في اليوميّة الأخيرة التي دونها في حياته في الثالث والعشرين من كانون الأول عام ١٩٤٣ ، ان ريبنتروب قد راهنه « إبان وجبة من هذه الوجبات الكئيبة التي تناولاها معاً في اوستيرايخشيشر هوف في سالزبرغ » على ان فرنسا وبريطانيا ستظلان على الحياد . ولم يؤد ريبنتروب قط الرهان الذي خسره والذي تعهد فيه باعطاء مجموعة من الدروع الألمانية القديمة لشيانو في حالة خسارته ، مقابل صورة ايطالية فنية جميلة . [١]

وانتقل شيانو الى اوبرسالزبورغ حيث عاد هتلر ، الذي قابله مرتين في اليومين التاليين ، الثاني عشر والثالث عشر من آب يؤكد فيه ان فرنسا وبريطانيا لن تحاربا . وكان الفوهرر اكثر دماثة ولطفاً من وزير خارجيته ، ولكنه لم يكن اقل منه تصميماً وصلابة في عزمه على خوض الحرب . وقد اتضح هذا التصميم في يوميات شيانو وتقاريره ، وكذلك في الوقائع الالمانية السرية عن الاجتماع . وقد عثر عليها مع الوثائق الالمانية المصادرة [٢]. وقد رأى الوزير الايطالي هتلر

---

١ ـ يوميات شيانو ص ١١٨ ـ ١١٩ وص ٥٨٢ ـ ٥٨٣ واوراق شيانو الدبلوماتية ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ وكذلك الوثائق الدبلوماتية الايطالية الحلقة الثامنة (٨) رقم (١)

٢ ـ المؤامرة النازية والعدوان(٨)ص ٥١٦ ـ ٥٢٩ . وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧)=

يقف امام منضدة ضخمة وقد تناثرت فوقها الخرائط العسكرية التي يستعملها رجال الاركان . وبدأ الفوهرر حديثه مزهواً بقوة جدار المانيا الغربي ، فوصفه بأنه لا يمكن اختراقه . واضاف ان بريطانيا لا تستطيع أن تقذف فرنسا بأكثر من ثلاث فرق . وفي وسع فرنسا بالطبع ان تزج في الميدان قوة اكبر بكثير ، ولما كانت بولندة ستهزم « في وقت قصير للغاية » فسيصبح في وسع المانيا أن ان تحشد مائة فرقة في الغرب في « معركة الحياة او الموت ،التي يمكنها أن تبدأ آنذاك » .

ولكن هل ستبدأ المعركة ؟ لقد راح الفوهرر بعد لحظات قليلة ، وقد ازعجه رد شيانو الاول ، يناقض نفسه . فلقد جرؤ الوزير الايطالي ، كما قرر في قرارة نفسه ، على الحديث بصراحة إلى هتلر ، وقال ، نقلاً عن الوثائق الألمانية « ان ايطاليا مندهشة جداً من هذا التحرج غير المنتظر كلية في الوضع العام » . وراح يعلن برمه من أن المانيا قد أخفت نياتها عن حليفتها ثم قال : « بل ولعل ما هو ادهى وامر ، أن وزير خارجية الرايخ قد ذكر له في ميلان وبرلين فيشهر ايار ، ما يناقض اقوال اليوم ، واكد له ان قضية دانزيغ ستسوّى في الوقت المناسب ، وعندما مضى شيانو ، يعلن رأيه بأن الحرب مع بولندة ستتوسع لتصبح حرباً اوروبية ، قاطعه مضيفه قائلاً انه يخالفه رأيه هذا .

ومضى هتلر يقول : « انني مقتنع شخصياً غاية القناعة من ان الدولتين الغربيتين ، ستتراجعان في النهاية عن إيقاد نيران حرب عامة » . ورد شيانو على ذلك قائلاً « انه مع أمله في ان يصح ما يقوله الفوهرر ، إلا أنه لا يستطيع أن يصدقه » . وراح وزير خارجية ايطاليا يشرح بعد ذلك بتفصيل واسهاب أوجه الضعف في ايطاليا ، ودوّن الالمان في تسجيلهم للاجتماع ان الفوهرر لا بد وأن يكون قد استنتج اخيراً من صورة الشقاء والتعاسة التي رسمها الوزير الايطالي لمضيفه ، بأنه لا يستطيع ان يعتمد على ايطاليا وأنها لن تكون

=ص ٣٩ـــ٤٩ و٥٣ ـــ ٥٦ . اوراق شيانو الدبلوماتية ـــ ٣٠٣ ـــ ٣٠٤ ، الوثائق الدبلوماتية الايطالية ـــ الحلقة الثالثة عشرة . رقما (٤) و(٢١) . يوميات شيانو ١١٩ ـــ ١٢٠ و٥٨٢ـــ٥٨٣ .

ذات عون كبير له في حربه المقبلة [1] . وقال شيانو ان من اهم الاسباب التي تدعو موسوليني إلى الرغبة في تأجيل الحرب ، « تعليقه اهمية كبرى على المعرض العالمي لعام ١٩٤٢ الذي قرر اقامته وفقاً للخطة المرسومة » . ولا ريب في ان هذه الملاحظة قد اذهلت هتلر ، الذي كانت الخرائط والحسابات العسكرية تشغل عليه جماع تفكيره . ولا ريب ايضاً في ان ذهوله قد تزايد ، عندما اخرج شيانو من جيبه بكل سذاجة وبساطة مسودة بلاغ رسمي طلب نشره واذاعته، ينص على ان اجتماع وزيري خارجية دولتي المحور قد « اكد النوايا السلمية لدولتيهما » وايمانهما بامكان الحفاظ على السلام عن « طريق المفاوضات الدبلوماتية العادية » . واوضح شيانو ان الدوتشي كان يفكر بعقد مؤتمر سلمي للدول الأوروبية الكبرى ، ولكن بالنظر إلى « شكوك الفوهرر »،فانه يعدّل الاقتراح باستبدال فكرة المؤتمر ، بالمفاوضات الدبلوماتية العادية .

ولم يرفض هتلر في اليوم الأول رفضاً قاطعاً فكرة المؤتمر ، ولكنه ذكّر شيانوبأن «روسيا لا يمكن ان تستثنىفي المستقبل من أي اجتماعللدول الكبيرة». وكان هذا القول ، أول ذكر للاتحاد السوفياتي ، ولكنه لم يكن الاخير على أي حال .

وعندما حاول شيانو اخيراً ان يعرف من مضيفه موعد الهجوم على بولندة ، رد هتلر ، ان اقتراب موسم الخريف بأمطاره الشديدة التي تحيل شوارع تلك البلاد الفقيرة وطرقها القليلة المعبدة إلى عائق يحول دون استخدام القوات الآلية والمدرعة على نطاق واسع ، يجعل من المحتوم « ايجاد التسوية مع بولندة بأي شكل من الاشكال قبل نهاية شهر آب . »

وهكذا عرف شيانو اخيراً موعد الغزو أو الموعد الاخير المحدد له ، إذ لم تمض ثوان على هذا القول حتى راح الفوهرر ينفجر قائلاً بأنه مصمم في حالة قيام

---

١ ــ أحس ريبنتروب في لحظة من لحظات الاجتماع بالملل والضيق فراح يقول لشيانو ضجراً. . . « اننا لسنا في حاجة اليكم ». ورد عليه شيانو قائلا . . . « سيكشف لنا الغد عن صحة قولك » . (من يوميات الفريق هولدر غير المطبوعة ــ يومية الرابع عشر من آب (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٥٦ ٤ . ويقول هولدر انه سمع هذا الكلام من وايز ساكر).

أي استفزاز جديد من جانب البولنديين على « مهاجمة بولندة في غضون ثمان واربعين ساعة » . ومضى يقول ... « ولذا فمن الواجب توقع مهاجمة بولندة في أية لحظة » . وقد انهت هذه الثورة العاصفة محادثات اليوم الأول ، بعد أن وعد هتلر على أي حال ، بالتفكير في الاقتراحات الايطالية .

وبعد تفكير دام اربعاً وعشرين ساعة ، قال الفوهرر لشيانو في اليوم التالي انه يرى من الأفضل عدم إذاعة أي بلاغ رسمي عن المحادثات [1] . وراح يضيف انه بالنسبة إلى رداءة الطقس في الخريف ..

« فإن من المهم كل الأهمية أولاً ان توضح بولندة نواياها في اقصر وقت ممكن ، وان لا تقوم ثانية بأي عمل من اعمال الاستفزاز ، لأن المانيا لن تتسامح به » .

وعندما استفهم شيانو عن المقصود « بأقصر وقت ممكن » رد هتلر قائلاً : « قبل نهاية آب على اكثر تقدير » . واوضح لسامعه ان هزم بولندة لن يستغرق اكثر من اسبوعين ، إلا أن « التصفية النهائية » قد تتطلب من اسبوعين إلى اربعة اسابيع أخرى . وهو تكهن رائع بالوقت الذي استغرقته العملية فعلاً .

١ ــ على الرغم من ان السجلات الألمانية توضح صراحة ان شيانو قد وافق هتلر « على عدم نشر أي بلاغ رسمي عند انتهاء المحادثات » إلا ان الالمان سرعان ما خدعوا حليفهم الايطالي ، فقد اصدرت وكالة الانباء الالمانية الرسمية (د.ن.ب.) بلاغاً بعد ساعتين من سفر شيانو ، ودون مشاورة الايطاليين مطلقاً ، يقول بأن المحادثات قد تناولت جميع مواضيع الساعة ، مع العناية الخاصة بموضوع دانزيغ ، واسفرت عن اتفاق كامل « مائة في المائة » . واضاف البلاغ قائلا ان المحادثات لم تترك مشكلة واحدة معلقة ، ولذا فلا حاجة الى اية اجتماعات اخرى لعدم قيام ضرورة لها . وثار اتوليكو ، واحتج على الالمان متهماً اياهم بالخداع . وراح يسر الى هندرسون سفير بريطانيا ، بأن الحرب باتت وشيكة الوقوع . ووصف في برقية غاضبة بعث بها الى رومه البلاغ الالماني « بالمكيافلية » ، وان اذاعته كانت متعمدة لربط ايطاليا الى عجلة المانيا بعد هجوم الاخيرة على بولندة ، ورجا في البرقية من موسوليني ان يكون صلباً مع هتلر في مطالبة المانيا بتحقيق شرط « التشاور » الذي تضمنه ميثاق الفولاذ المعقود بين البلدين وفي الاصرار على المانيا بموجب هذا الشرط ، بمنح بولندة مهلة شهر واحد لتسوية قضية دانزيغ بالطرق الدبلوماسية (الوثائق الدبلوماسية الايطالية ــ الحلقة السابعة (٨) رقم ٢٨ ووثائق وزارة الخارجية البريطانية (٦) رقم ٦٦٢) .

وراح هتلر في نهاية الاجتماع يكرر الفاظ النفاق التي الف توجيهها إلى موسوليني على الرغم من أن شيانو لا بد وان يكون قد أقنعه باستحالة الركون اليه . فقد قال ان من حسن حظه ، كما يشعر شخصياً « بأن يعيش في عصر يضم بالاضافة اليه سياسياً آخر، يستطيع أن يقف في التاريخ كشخصية عظيمة وفذة . وأن من مصادر سعادته البالغة ان يكون صديقاً لهذا الرجل . وعندما يحين الوقت للصراع المشترك ، فسيجد نفسه دائماً إلى جانب الدوتشي مهما تكن النتيجة » .

ومهما يكن لهذه العبارات من تأثير على موسوليني المزهوّ بشخصه . إلا أنها لم تؤثر على صهره الشاب مطلقاً . فقد دوّن في يومياته بتاريخ الثالث عشر من آب وبعد اجتماعه الثاني بهتلر يقول: « إنني اعود لرومه وأنا اشعر بالتقزز المطلق من الألمان ومن زعيمهم ، ومن طريقتهم في العمل . فلقد خدعونا وضللونا ، وكذبوا علينا . وها هم الآن يجرّوننا إلى مغامرة لسنا راغبين فيها ، وقد تطوح بعهدنا بل وببلادنا إلى الهاوية . »

لكن ايطاليا كانت في تلك الآونة ابعد البلاد عن اهتمام هتلر . فقد تركزت جميع افكاره على روسيا . وتروي وقائع المحادثات مع شيانو كما دوّنها الألمان أن الفوهرر ، تلقى قبيل نهاية الاجتماع الأول في الثاني عشر من آب برقية من موسكو . وقد توقف الحديث بضع دقائق بينما كان هتلر وريبنتروب يدرسانها ، ثم افضيا إلى شيانو بمحتوياتها .

وقال هتلر لشيانو : « لقد وافق الروس على ايفاد مفاوض سياسي الماني الى موسكو »

١٥

الميثاق النازي - السوفياتي

يبدو ان « برقية موسكو » التي افضى هتلر بمحتوياتها الى شيانو في أوبر سالزبرغ بعد ظهر الثاني عشر من آب ، شأنها في ذلك شأن « برقيات » مماثلة سابقة تحدثنا عنها في هذا الكتاب ، مختلقة ولا وجود لها . فلم اعثر في وزارة الخارجية الالمانية على أية برقية من هذا النوع . وكل ما عثرت عليه ، برقية ، بعث بها شولنبرغ من موسكو الى برلين في نفس التاريخ تتحدث عن وصول البعثتين العسكريتين البريطانية والفرنسية الى العاصمة الروسية ، وعن الانخاب الودية التي تبادلها الروس مع ضيوفهم .

ولكن يبدو ان هناك بعض الاساس لهذه «البرقية» التي حاول هتلر وريبنتروب التأثير بها على شيانو . فقد تلقت أوبر سالزبرغ رسالة على جهاز « التليبرنيتر » من وزارة الخارجية في برلين تتحدث عن نتائج الزيارة التي قام بها القائم بالاعمال الروسي في ذلك اليوم لشنوري في برلين. ولقد ابلغ استاخوف الموظف الألماني بأن مولوتوف بات على استعداد للبحث في المواضيع التي اثارها الألمان بما فيها قضية بولندة وغيرها من المسائل السياسية . وتقترح الحكومة السوفياتية أجراء هذه المفاوضات في مدينة موسكو ، ولكن استاخوف أوضح بأن العجلة يجب ان لا ترافق هذه المفاوضات . وسجل شنوري في تقريره الذي ابرق به على صورة الاستعجال الى اوبر سالزبرغ ، بأن الدبلوماتي الروسي قد اكد له

بأن « تعليمات موسكو من مولوتوف تصر على التفاوض على مراحل .... وان المحادثات يجب ان تدور على درجات »[1]

ولكن ادولف هتلر ، لا يستطيع انتظار مفاوضات « على مراحل او درجات » . فلقد رأينا كيف انه حسر النقاب لشيانو الذي اصابه الفزع بأنه حدد الأول من ايلول آخر موعد للهجوم على بولندة ، ولم يبق على هذا الموعد اكثر من اسبوعين . واذا كان ثمة من سبيل لتهديم المحادثات الانكليزية-الفرنسية مع الروس ، وعقد صفقته مع ستالين ، فان هذا يجب أن يتم بسرعة ، وبقفزة واحدة ، لا على درجات أو مراحل .

وحل يوم الاثنين الرابع عشر من آب ، وكان من الايام العصيبة ايضاً. وبينما كان السفير فون دير شولنبرغ ، الذي لم يكن كما يبدو موثوقاً كل الثقة من هتلر وريبنتروب، يبرق إلى وايز ساكر من موسكو ،ذاكراً له بأن مولوتوف« رجل غريب وشخصية معقدة » وبأنه لا يزال « على رأيه في وجوب تجنب أية إجراءات مستعجلة في علاقاتنا مع الاتحاد السوفياتي » ، إذا به يتلقى من برلين برقية « عاجلة للغاية . »[2]وقد بعث ريبنتروب الذي كان لا يزال في «ضيعته» في فوشيل بهذه البرقية الى الوهلمشتراسة في برلين فأبرقت بها في الساعة العاشرة والدقيقة الثالثة والخمسين من بعد ظهر الرابع عشر من آب الى سفيرها في موسكو، طالبة اليه زيارة مولوتوف فوراً وتلاوة مذكرة طويلة على مسامعه « حرفياً » .

كانت هذه هي مقامرة هتلر العظيمة والاخيرة . ولقد ذكر ريبنتروب في برقيته ان العلاقات الالمانية الروسية قد « وصلت الى نقطة تحول تاريخية » ... وان ليس ثمة أي اختلاف في المصالح بين المانيا وروسيا ... ولقد كانت الامور تسير على احسن ما يرام بالنسبة إلى البلدين عندما كانا من الاصدقاء ثم ساءت عندما باتا من الاعداء . « ومضى ريبنتروب يقول :

« وليس ثمة من شك في أن الأزمة التي خلقتها السياسة البريطانية

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٥٨ ــ ٥٩ .
٢ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٦٧ ــ ٦٨ .

في العلاقات البولندية – الألمانية ، والمحاولات لعقد تحالف يترابط مع تلك السياسة، تجعل من اللازم اللازب ، ايضاح العلاقات الألمانية الروسية ايضاحاً سريعاً . وإذا لم يتحقق هذا فإن الامور قد تتحول بشكل يحرم كلتا الحكومتين من إمكانية إعادة الصداقة الألمانية – الروسية ، ومن الايضاح المشترك للقضايا الأقليمية في اوروبا الشرقية بالنسبة إلى البلدين . ومن واجب القيادة في كلتا البلدين والحالة هذه ان لا تسمح للوضع بالتردي ، وعليها ان تتخذ من الاجـراءات في الوقت المناسب ما يضمن عدم حـدوث ذلك . وقـد يكون من المفجع أن يؤدي الجهل المتبادل للنوايا ووجهات النظر بالشعبين إلى التفرق عن بعضها بصورة قاطعة ونهائية .

وهكذا بات وزير الخارجية الألماني على استعداد للعمل في الوقت المنـاسب « نيابة عن الفوهرر » ثم مضى يقـول :

« ولقد قيل لنا ان الحكومة السوفياتية راغبة ايضاً في توضيح العلاقات الالمانية – الروسية ، ولما كانت التجارب السابقة توحي على أي حال بأن هذا الايضاح لا يمكن الوصول اليـه إلا ببطء وبالطرق الدبلوماتية المألوفة ، فإنني على استعداد للقيـام بزيارة إلى موسكو ، لأشرح نيابـة عن الفوهرر آراءه إلى المسيو ستالين مباشرة . واني لأرى ان مثل هذا الحديث المباشر كفيل بأن يحدث تبدلاً في الموقف ، وآنذاك لا يغدو من المستحيل ، وضع القواعد لايجاد تسوية نهائية للعلاقات الألمانية – الروسية . »

ويتبيّن من هذا انه في الوقت الذي لم يكن فيه وزير الخارجية البريطانية راغباً بزيارة موسكو ، كان وزير الخارجية الألمانية راغباً كل الرغبة في القيـام بمثل هذه الزيارة ، وهي مقارنة اعتقد النازيون ، وكانوا مصيبين في اعتقادهم ، بأنها لا بد وان تترك انطباعاً عميقـاً في نفس ستالين الكثير الشكوك . ورأى الألمان ان من الاهمية بمكان عظيم ان ينفذوا برسالتهم رأساً الى الطاغية الروسي

نفسه . ولهذا أضاف ريبنتروب ملحقاً إلى برقيته العاجلة الى شولنبرغ قال فيه :

« وانني اطلب اليك ان لا تقدم هذه التعليمات خطياً الى المسيو مولوتوف ، بل أن تحاول ايصالها مباشرة إلى المسيو ستالين في ادق صورة ممكنة ، واخولك ، إذا ما اتيحت لك الفرصة ان تطلب إلى المسيو مولوتوف نيابة عني ، ترتيب مقابلة لك مع المسيو ستالين تتمكن عن طريقها من نقل هذه الرسالة الهامة مباشرة اليه . وانني لاشترط للقيام بزيارتي ان تجري محادثة مسهبة مع ستالين بالاضافة إلى ما سيتم من حديث بينك وبين مولوتوف . »[١]

وقد انطوى اقتراح وزير الخارجية الالمانية على «طعم» يكاد يكون مكشوفاً وكان من حق الالمان ان يعتقدوا بأن روسيا ستسارع إلى التقاطه . وبالاضافة إلى تكرار التأكيد « بعدم وجود مشكلة بين بحري البلطيق والاسود لا يمكن حلها في مصلحة البلدين حلاً كاملاً » راح ريبنتروب يوضح تأكيده بذكر « دول البلطيق وبولندة وقضايا جنوب اوروبا الشرقي وما شابهها » . كما راح يتحدث عن ضرورة « ايضاح القضايا الاقليمية في شرق اوروبا ايضاحاً مشتركاً » .

وهكذا كانت المانيا على استعداد لاقتسام اوروبا الشرقية ، بما في ضمنها بولندة ، مع الاتحاد السوفياتي . وكان هذا العرض من النوع الذي لا تستطيع بريطانيا وفرنسا تقديمه إلى موسكو ، ولا ترغبان في عرضه حتى ولو استطاعتا. وكان هتلر بعد تقديم هذا العرض واثقاً من أن موسكو لن ترفضه ، ولذا فقد استدعى في نفس اليوم أي الرابع عشر من آب القادة العامين لقواته المسلحة ليستمعوا إلى محاضرته عن خطط الحرب واحتمالاتها .

المؤتمر العسكري في اوبرسالزبورغ[٢]

١٤ آب

قال هتلر لسامعيه من النخبة المختارة عندما اجتمعوا : « ان المسرحية

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٦٢ ــ ٦٤ .

٢ ــ كانت يوميات الفريق هولدر رئيس هيئة اركان حرب الجيش ، والتي لم تطبع ، هي=

الكبرى تقترب الآن من ذروتهـــا » . ومضى يقول انه على الرغم من أن الانتصارات السياسية والعسكرية لا يمكن أن تنال دون مجازفة . الا أنه واثق من أن بريطانيا وفرنسا لن تحاربا . فهناك سبب واحـد على الأقل يحول دون ذلك ؛ وهو ان بريطانيا « تفتقر الى القادة من ذوي الوزن الحقيقي . فالرجال الذين تعرّفت اليهم في ميونيخ ليسوا من الطراز الذي يقدم على اشعـال حرب عالمية جديدة » . ولم يستطع الفوهرر ، كما في الاجتماعا - السابقة مع القـادة العسكريين ، أن ينأى بفكره لحظة واحدة عن انكلترا ، فـراح يسهب في الحديث عن مصادر قوتها وضعفها ولا سيما عن النواحـي الاخيرة . ودوّن هولدر في يومياته اقوال الفوهرر على النحو التالي :

« لن تسمح انكلترا اليوم ، خلافاً لما كان عليه الوضع في عام ١٩١٤ ، لنفسها بالانغماس في حرب تستغرق سنوات عـدة ... وهذا مصير جميع البلاد الغنيَّـة ... ولا تملك انكلـترا اليوم حتى المال الذي يمكنها من خوض حرب عالمية . فلماذا تحارب انكلترا ؟ ليس هناك من هدف ، ولن تسمح لنفسها بأن تقتل دفاعـاً عن حليف لها . »

وراح هتلر يتساءل بعد ذلك عن الاجـراءات العسكرية التي تستطيع بريطانيا وفرنسا القيام بها فقال :

=المصدر الوحيد لما دار في هذا الاجتماع ، وقد ادرج وقائعه في يوميته بتاريخ الرابع عشر من آب عام ١٩٣٩ . وقد احتفظ هولدر بيومياته مكتوبة بطريقه الاختزال في غابلزبيرغر ، وهي وثيقة لا تقدر بثمن إذ تسجل الاحداث العسكرية والسياسية السرية التي وقعت في المانية النازية بين الرابع عشر من آب عا ١٩٣٩ وبين الرابع والعشرين من ايلول عام ١٩٤٢ ، وهو تاريخ اقصائـه من منصبه . وتألفت يوميته عن اجتماع اوبرسالزبرغ من ملاحظات دونها بالاختزال وسجل فيها ما قاله هتلر ، بالاضافـة الى ملخص اورده في النهاية . ومن الغريب كل الغرابة عدم اقدام اي ناشر امريكي او بريطاني على نشر يوميات هولدر . وقد تمكن المؤلف من الوصول الى النسخة الالمانية المفصلة لهذه اليوميات كما كتبها هولدر نفسه إبان وضع هذا الكتاب . ويؤيد التسجيل اليومي لاعمال هتلر ، تاريخ هذا الاجتماع ويضيف بأن الدكتور تورت المهندس الالماني الذي بنى الجدار الغربي قد شهد هذا الاجتماع بالاضافة الى القادة العامين وهم براوختش وغورنغ وريدر .

« ليس من المعقول ان تهاجم الدولتان جدارنا الغربي . والقيام بحركة إلتفاف في الشمال عبر بلجيكا وهولندة لن يضمن لهما النصر العاجل . على أي حال ، ان أي اجراء من هذا النوع ، لن يكون ذا نفع للبولنديين .

« وتقف هذه العوامل حائلاً دون خوض الحـــرب من جانب انكلترا وفرنسا ... وليس ثمة ما يدعوهما الى خوضهـــا ... وانا واثق من ان رجال ميونيخ لن يغـــامروا بها ... وينظر اركان الحرب في بريطانيا وفرنسا نظرة متشائمة الى احـــتمالات الصراع المسلح ، ولذا فهم ينصحون حتماً بعدم خوضه .

« وتدعم جميع هذه الحجج اعتقادي بأنه على الرغم من تبجحات انـكلترا وتهديداتها ، وعلى الرغم من انها قد تسحب سفيرهــا ، أو تفرض حصاراً كاملاً على تجارتنا ، إلا انها لن تلجأ حتماً إلى التدخل المسلح في الصراع . »

وراح هتلر يوضح بعد ذلك ان في الإمكان والحالة هذه الانتهاء من أمـر بولندة وهي وحيدة ، ولكن من الضروري هزمهـــا في غضون « اسبوع أو اسبوعين » ، بحيث يقتنع العالم بانتهائها فلا يحرك ساكناً لمحاولة انقاذها .

ولم يكن هتلر على استعداد في ذلك اليوم لابلاغ قادته العسكريين بالمدى الذي يريد ان يمضي فيه لعقد صفقة مع روسيا ، على الرغم من ان مثل هـــذه المعلومات كان لا بد وان ترضيهم ، لا سيما وانهم كانوا واثقين من شيء واحـد وهو عجز المانيا عن خوض الحرب في جبهتين . ولكنه تحدث اليهم بما (حرك) شهيتهم طلباً للمزيد .

وراح يقول ... (ان روسيا ليست على استعداد مطلقاً . لرفع الكستناء من النار لمصلحة غيرهـــا) . واوضح لسامعيه (الاتصالات المسترخية) مع موسكو ، والتي بدأت بالمفاوضات التجارية . واضاف انه يفكر الآن بارسال (مفاوض إلى موسكو ، ويتساءل عمـــا إذا كان الوضع يتطلب ان يكون من

ذوي الشخصيات الكبيرة) . ولا يحس الاتحاد السوفياتي بأي التزام نحو الغرب وقد تفهم الروس وجوب تحطيم بولندة ، وهم مهتمون (بتحديد مناطق المصالح) بين البلدين . وذكر الفوهرر انه (ميال لمقابلتهم في منتصف الطريق) .

ولا تتضمن ملاحظات هولدر الوفيرة العدد والتي دوّنها بطريقة الاختزال عن هذا الاجتماع أي ذكر إلى انه ، بوصفه رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش ، أو ان الفريق فون براوختش القائد العام ، أو غورنغ ، قد ناقشوا الفوهرر في الطريق التي ينتوي سلوكها ، والتي ستؤدي بألمانيا إلى حرب اوروبية . إذ على الرغم من ثقة هتلر ، لم يكن هناك ادنى دليل على ان فرنسا وبريطانيا لن تخوضا الحرب أو على ان روسيا ستظل بعيدة عنها وعلى النقيض من ذلك ، تلقى غورنغ قبل نحو من اسبوع انذاراً مباشراً بأن البريطانيين سيخوضون الحرب حتماً إذا قامت المانيا بمهاجمة بولندة .

فلقد حاول صديق سويدي له هو بيرغر داهليروس في مطلع شهر تموز اقناعه أن الرأي العام البريطاني لن يستطيع احتمال أي عدوان نازي جديد ، وعندما اعرب قائد السلاح الجوي الالماني عن شكوكه فيما قاله الصديق ، اعد له هذا اجتماعاً خاصاً بجماعة مؤلفة من سبعة من كبار رجال الاعمال البريطان ، عقد في دار داهليروس المذكور في السابع من آب في شلزوج - هولشتاين على مقربة من الحدود الدانماركية . وحاول رجال الاعمال البريطانيون شفوياً عن طريق مذكرة مكتوبة اقناع غورنغ بأن بريطانيا العظمى ستحترم التزاماتها التعاهدية مع بولندة في حالة وقوع هجوم الماني عليها . ومن المشكوك فيه ان يكونوا قد افلحوا في اقناعه ، وان داهليروس وهو من رجال الأعمال ايضاً قد اعتقد بنجاحهم (١) . ويبدو ان هذا السويدي الغريب ، الذي قدر ان يلعب دوراً

---

١ - قال داهليروس في محكمة نورمبرغ في التاسع عشر من آذار عام ١٩٤٦ ، عند ظهوره امامها كشاهد دفاع عن غورنغ ، ان المشير قد اكد له ولرجال الاعمال البريطانيين مقسماً بشرفه ، انه سيعمل كل ما في وسعه لتجنب الحرب . ولكن حقيقة الحالة الفكرية التي كان غورنغ واقعاً تحت سيطرتها ظهرت بوضوح في بيان افضى به بعد يومين من مقابلته لزائريه البريطانيين ، إذ قال=

معيناً كرسول سلام بين المانيا وبريطانيا في الاسابيع القليلة المحمومة التالية ، كان على علاقات وثيقة مع كبار المسؤولين في برلين ولندن . فلقد كان في وسعه ان يدخل « داوننغ ستريت » حيث اجتمع في العشرين من تموز الى اللورد هاليفاكس ، وبحث معه موضوع الاجتماع المقبل لرجال الاعمال بغورنغ . وما عتم ان دعي لمقابلة كل من هتلر وتشمبرلين ايضاً . وعلى الرغم من نواياه الطيبة في سعيه لانقاذ السلام ، إلا انه كان ساذجاً وكان من الهواة تماماً في عمله الدبلوماتي . وقد تمكن السير ديفيد ماكسويل – فايف ، بعد سنوات طويلة وفي اثناء محاكمات نورمبرغ ، اثر مناقشة حادة محطمة ، من حمل المتطفل على الدبلوماتية ، على الاعتراف وهو مثقل بالهم والحزن ، بأنه كان ضحية خداع غورنغ وهتلر . (١)

ولماذا لم يجرؤ هولدر وهو الذي كان زعيم المؤامرة قبل احد عشر شهراً لاقصاء هتلر عن الحكم ، على الحديث في اجتماع الرابع عشر من آب ومعارضة الفوهرر في تصميمه على المضي في الحرب ؟ وحتى لو اعتقد بأن لا جدوى من هذه المعارضة ، ألم يكن في وسعه أن يستأنف خطه السابقة للخلاص من الطاغية لنفس الاسباب التي دفعته الى التآمر عليه قبل مؤتمر ميونيخ والتي كان أهمها أن الحرب ستكون كارثة بالنسبة الى المانيا ؟ وقد حاول هولدر بعد عهد

=متبجحاً بالقوة الدفاعية للسلاح الالماني الجوي . . . « لن يتعرض الروهر لقنبلة واحدة . واذا تمكنت قاذفة معادية واحدة من الوصول الى الروهر فلن يكون اسمي هيرمان غورنغ ، بل في وسعكم ان تطلقوا علي اسم ماير » . . . وقد قدر له ان يبتلع هذا التبجح بعد فترة قصيرة .

١ – عثر على مذكرة رجال الاعمال البريطان في ملف في مكتب غورنغ ونشرت في « وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٦) ص ١٠٨٨ – ١٠٩٣ » وتتضمن الوثيقة ملاحظات كتبها غورنغ بخط يده مبدياً دهشته من بعض البيانات التي يبدو انه لم يستطع تصديقها . وقد شرح داهليروس في كتابه « المحاولة الاخيرة » القصة الخيالية والسخيفة لجهوده السلمية التي دفعت بـه الى مقدمة مسرح الحوادث لمدة قصيرة في فترة من اخطر فترات التاريخ . وقد جاءت القصة ايضا في شهادته في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب ٩ – ص ٤٥٧ – ٤٩١) وفي كتاب « مقدمة دبلوماتية للسير لويس ناميير ص ٤١٧ – ٤٣٣ . وعنوان الفصل « متطفل على الدبلوماتية » .

طويل وفي محاكمات نورمبرغ شرح تقاعسه هذا فقال انه حتى ذلك التاريخ أي اواسط آب عام ١٩٣٩. كان لا يزال يعتقد بأن هتلر لن يغامر في النهاية بإشعال الحرب ، مهما صدر عنه من تهديد ووعيد. [١] وتظهر اليوميّة التي كتبها هولدر في اليوم التالي ، أي في الخامس عشر من آب ، وبعد اجتماع اوبرسالزبورغ مع هتلر ، أن الفريق لم يكن يعتقد كذلك أن فرنسا وبريطانيا ستغامران بالحرب ايضاً .

أما بالنسبة إلى براوختش ، فلم يكن هذا القائد من طراز الرجال الذين يستطيعون مناقشة الفوهرر فيما اعتزم القيام به. اما هاسّيل الذي عرف في الخامس عشر من آب من غيزيفيوس بالاجتماع العسكري الذي عقد في اوبرسالزبرغ ، فقد بعث برسالة شفوية إلى الجيش يعرب له فيها عن اقتناعه الاكيد من أن بريطانيا وفرنسا ستتدخلان في الحرب إذا هاجمت المانيا بولندة . ودوّن هاسيل في يومياته قائلاً : « لا يمكن عمل شيء معه ، فهو أما ان يكون جباناً أو انه لا يفهم ما يدور حوله ... وليس في وسعنا أن نأمل بشيء من القادة العسكريين .. فقليلون منهم يحملون افكاراً صافية من امثال هولدر وكاناريس وتوماس . » [٢]

وكان الفريق توماس ، الرئيس اللامع لفرع الاقتصاد والتسلح في القيادة العامة للقوات المسلحة هو الرجل الوحيد الذي جرؤ على تحدي الفوهرر علناً ، فبعد بضعة ايام من انعقاد المؤتمر العسكري في الرابع عشر من آب، واثر محادثات مع المتآمرين الكسالى والخاملين من امثال غويرديلر وبيك وشاخت، أعد الفريق توماس مذكرة قرأها بنفسه على الفريق كايتل رئيس القيادة العامة للقوات المسلحة . وقد ذكر ان التفكير بحرب سريعة وصلح سريع ، مجرد خيال ووهم فالهجوم على بولندة ، سيطلق الحرب العالمية من عقالها ، والمانيا تفتقر إلى المواد الأولية والغذائية التي تمكنها من خوضها. ولكن كايتل ،الذي كان يستمد آراءه من هتلر ، هزأ بفكرة الحرب الكبرى ، وقال ان بريطانيا اكثر ضعفاً ، وفرنسا

١ ـ المؤامرة النازية والعدوان ـ الملحق ب ـ ص ١٥٦٢

٢ ـ هاسيل ـ يوميات ص ٥٣ و ٦٣ ـ ٦٤

اكثر انحلالاً وتفسخاً ، وامريــكا أقل اهتماماً ، من ان تخوض كلهــا الحرب في سبيل بولندة .[1]

وهكذا عندما بدأ النصف الثاني من شهر آب ، اندفع القادة العسكريون الألمان إلى الامام ينفذون خططهم لإزالة بولندة من الوجود وحمايـــة الرايـخ الالماني من الغرب في حالة تقرير الدولتين الديموقراطيتين خلافاً لكل ما هــو متوقع ولكل دليل ، التدخل في الحرب ، وصدر في الخامس عشر من آب ، قرار سري بالغاء مهرجان الحزب النازي السنوي في نورمبرغ ، وهو المهرجان الذي كان هتلر قد اعلنه مهرجاناً للسلام ، وكان مقرراً عقده في الاسبوع الأول من شهر ايلول . واستدعي نحــو من ربــع مليون للانضمام الى جيوش الغرب . وصدرت أوامر مسبقة بالتعبئة العامـــة إلى محطات السكك الحديدية . واعدت الخطط لنقل قيادة الجيش العامـــة إلى زوسين الواقعة إلى الشرق من برلين . وابلغت قيادة البحرية العامة الفوهرر في الخـامس عشر من آب ان بارجتي الجيبغراف شبي دويتشلاند، ومعها احـدى وعشرون غواصة اصبحت مستعدة للإبحار إلى مراكزها في الاطلسي .

وكتب هولدر في السابع عشر من ايلول يوميّة غريبة إذ قال فيها : « اتصل كاناريس بالشعبة الأولى (العمليات) للتأكد. هملر . هايدريش ، اوبرسالزبورغ: ١٥٠ بزة عسكرية بولندية مع ملحقاتها إلى سيليزيا العليا » .

ترى ما معنى هذ الكلام ؟ لقد اتضح معناه بعد الحرب ، فهو متعلق بحادثة من اكثر الحوادث التي رتبها النازيون رخصاً وخداعاً . فكما سبق لنا أن رأينا ، من تفكير هتلر وقادة جيشه في طبخ « حادث » كاغتيال الوزير الالماني المفوّض في براغ او فيينا لتبرير غزو ثشيكوسلوفاكيا ، أو النمسا ، أخذ هتلر وقـادته يدرسون الآن ، استباقاً للتطورات ، طبخ حادث مماثل يستطيعون استخدامه في نظرهم كمبرر أمام العالم لعدوانهم المبيّت على بولندة .

وكان الاسم الرمزي للخطة « عملية هملر » وكانت الفكرة بسيطة للغـــاية ،

---

١ ـ توماس ـ التفكير والتطورات في عدد كانون اول ١٩٤٥ من المجلة السويسرية الشهرية.

وخالية من الاصطناع . إذ تقرر ترتيب هجوم زائف أعده الحرس النــازي والغستابو على محطة إذاعة المانية في غليويتز على مقربة من الحدود البولنـدية ، يقوم به بعض المعتقلين المحكوم عليهم بالاعدام ، بعد إلباسهم الملابس العسكرية البولندية . ويقع اللوم نتيجة هذه الخطة على بولندة في مهاجمة المانيا . وصدرت الأوامر من هتلر في مستهل شهرآب إلى الاميرال كاناريس رئيس دائرة المخابرات في القيادة العليا للقوات المسلحة ، طالبة اليه أن يسلم هملر وهايدريش مـائة وخمسين بدلة عسكرية بولندية وبعض الاسلحة البولندية الصغيرة . وبدا هـذا الطلب غريباً لكاناريس وراح في السابع عشر من الشهر يسأل الفريق كايتل عن معناه . وعلى الرغم من أن الرئيس الضعيف للقيادة العليا للقوات المسلحة ، قد اعلن لسائله أنه لا ينظر إلى « أعمال من هذا النوع » نظرة رضى ، إلا أنـه لا يستطيع أن يفعل شيئاً طالما أن الأمر صادر عن الفوهرر نفسه .[1] وعلى الرغم مما احسّ به كاناريس من تقزّز إلا أنه وجـد نفسه مضطراً لاطـاعة الأوامر الصادرة اليه وسلم البدلات العسكرية إلى هايدريش .

وقد اختار رئيس الحرس الخاص (S. D) شباباً من رجال الخدمة السريـة يدعى الفريد هيلمون نوجوكس ، لتنفيذ هذه العملية . ولم تكن هذه المهمة هي الاولى من نوعها التي يعهد بها الى هذا الرجل الغريب كما لم تكن الاخيرة . ففي مستهل آذار عام ١٩٣٩ ، أي قبيل احتلال الالمان لتشيكوسلوفاكيا ، انهمك نوجوكس بأمر من هايدريش في نقل المتفجرات إلى سلوفاكيا حيث استخدمت كما قال هو في شهادته اللاحقة « لخلق الحوادث » .

وكان الفريد نوجوكس ثمرة نموذجية لمدرسة الغستابو والحرس النـازي ، وطرازاً نابهاً منقاطع الطرق . فلقد درس الهندسة في جامعة كييل ، حيث ذاق طعم المشاحنات مع خصوم النازيين ، وجدع الشيوعيون له أنفه ذات يوم . وانضم في عام ١٩٣١ الى الحرس النازي ثم ألحق بالفرقة الخاصة عند انشائهـا في عام ١٩٣٤ . وانغمس كالكثيرين من الشبان الذين عملوا مـع هايدريش في بعض

١ــ المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٥٨٠

الدراسات الفكرية في الحرس النازي كالتاريخ والفلسفة ، بينما كان يتحول إلى شاب خشن قاس ، يمكن ان يوكل اليه تنفيذ بعض المشاريع الأقل مذاقاً حسناً من التي يحلم بها هملر وهايدريش . [1] وفرّ في التاسع عشر من كانون الاول عام ١٩٤٤ إلى صفوف الامريكيين حيث ادى بعد نحو من سنة عدة شهادات مشفوعة باليمين في محاكات نورمبرغ حفظت احداها للتاريخ السرد الحقيقي «للحادث» الذي استخدمه هتلر ليبرر به هجومه على بولندة ، قال الرجل :

« أمرني هايدريش رئيس الفرقة الخاصة في العاشر من آب أو حواليه شخصياً أن ارتب هجوماً على محطة الاذاعة القريبة من غليويتز والمجاورة للحدود البولندية وأن أُظهر هذا الهجوم بمظهر الصادر عن قوات بولندية . وقال هايدريش : « نطلب منك أدلة عملية على أن البولنديين هم الذين قاموا بالهجوم لتقديمها إلى الصحافة الاجنبية ولاستخدامها في الدعاية الألمانية المحلية . »

« وكانت الأوامر الصادرة إلي تقضي بأن استولي على محطة الاذاعة . وأن احتفظ بها أمداً يسمح لألماني أن يتكلم بالبولندية ، ويوضع تحت تصرفي بإذاعة خطاب بالبولندية من الاذاعة . وأبلغني

---

١ ـ كان لنوجوكس ضلع في « حادث فينلو » ، الذي سنتحدث عنه فيما بعد . واشتغل في فترة الغزو في الغرب في ايار عام ١٩٤٠ في مشروع لاخفاء الجنود الالمان في بزات حرس الحدود من البجليكيين والهولنديين . وكان في مطلع الحرب قائداً لجماعة من الفرقة الخاصة (S. D) تتولى تزييف جوازات السفر ، واقترح إبان ذلك « عملية بيرنهارد » وهي مشروع خيالي يقضي بالقاء اوراق نقد بريطانية زائفة على انكلترا . ومل منه هايدريش اخيراً فارغمه على الخدمة العملية في صفوف فوج من افواج الحرس النازي في روسيا حيث اصيب بجراح . ووصل في عام ١٩٤٤ الى بلجيكا كمدير اقتصادي ، ولكن مهمته الرئيسية كانت في ان ينفذ في الدانمارك عملية قتل عدد من زعماء حركة المقاومة الدانماركية . ويبدو انه هرب الى القوات الامريكية لينجو بجلده . ولقد عاش حياة خفية . فقد اعتقل كمجرم حرب ولكنه تمكن من الفرار فراراً مسرحياً من المعتقل الخاص الذي اعد في المانيا لمجرمي الحرب في عام ١٩٤٦ ونجا بذلك من المحاكمة . ولم يتمكن احد من العثور عليه حتى كتابة هذا المؤلف كما لم يسمع به انسان . وقد روى شومبرغ ليبه في كتابه « بين التاج والكنيسه » قصة هروبه من السجن .

هايدريش أن على الخطيب أن يقول أن الوقت قد حان للصراع بين الألمان والبولنديين ... وقال لي هايدريش ايضاً أنه يتوقع هجوماً تشنه المانيا على بولندة في غضون بضعة ايام .

« ومضيت إلى غليويتز وانتظرت فيها اربعة عشر يوماً .... وذهبت بين الخامس والعشرين والواحد والثلاثين من آب إلى بلدة اوبيلن القريبة لمقابلة هنريخ مويلر ، رئيس الغستابو ، الذي كان يقوم بزيارة البلدة آنذاك . وقد بحث مويلر في حضوري مع رجل آخر يدعى ميهلهورن[1] الخطط للقيام بحادث آخر على الحدود يبدو فيه الجنود البولنديون وكأنهم يهاجمون القوات الألمانية ..... وقال مويلر أن لديه عدداً من المجرمين المحكوم عليهم بالاعدام ، يتراوحون بين الاثني عشر والثلاثة عشر شخصاً ، سيرتدون ألبسة عسكرية بولندية ثم تترك جثثهم على الأرض التي سيقع عليها الحادث لتظهر انهم قد قتلوا وهم يقومون بالهجوم . وتقرر أن يقوم طبيب انتدبه هايدريش بتطعيمهم بإبر قتالة لهذه الغاية . ثم تطلق عليهم عيارات نارية لتظهر آثار الجراح في ابدانهم . وسينقل رجال الصحافة وغيرهم من الناس بعد الحادث إلى مكان وقوعه ليروا بأعينهم ما وقع ...

« وقال لي مويلر أنه تلقى أمراً من هايدريش بأن يقدم أحد هؤلاء المجرمين ليتولى القيام بالعمل في غليويتز . وكان الاسم الرمزي الذي يشار به إلى هؤلاء المجرمين هو « سلع معلبة »[2] .

---

١ ـ الدكتور ميهلهورن من كبار قادة الحرس النازي وكان يتولى قيادة الفرقة الخاصة تحت اشراف هايدريش . ويقول شيلينبرغ في يومياته (الكهف ص ٤٨ ـ ٥٠)ان ميهلهورن ابلغه في السادس والعشرين من آب ، بأن هايدريش قد عهد اليه بتنفيذ الهجوم الزائف على غليويتز ولكن ميهلهورن تخلص من المهمة بادعاء المرض . وما عتمت جرأته ان ازدادت في السنوات الاخيرة ، فبات في الحرب احد المحرضين البارزين على ارهاب الغستابو في بولندة .

٢ ـ المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٣٩٠ ـ ٣٩٢ .

وبينما كان هملر وهايدريش ومويلر ، يرتبون موضوع استخدام « السلع المعلبة » بأمر من هتلر لايجاد مبرر مصطنع لعدوان المانيا على بولندة ، قام الفوهرر بأولى الخطوات الحاسمة لتوزيع قواته المسلحة استعداداً لحرب كبرى. وصدرت الأوامر في التاسع عشر من آب، وهو من ايام القدر المميتة ايضاً ، إلى الاسطول الألماني بالابحار. واتجهت إحدى وعشرون غواصة إلى مواقعها في شمال الجزر البريطانية وشمالها الغربي ، بينما ابحرت بارجة الجيب غراف شبي إلى المياه القريبة من الساحل البرازيلي، وابحرت اختها البارجة دويتشلند إلى مركزها الذي تقرر أن يكون في الطرق البحرية البريطانية عبر شمال الاطلسي.[1]

وكان تاريخ صدور الأمر إلى البوارج الحربية للابحار استعداداً لعمل محتمل ضد بريطانيا ، مهماً كل الأهمية ، إذ ردت الحكومة السوفياتية اخيراً في هذا التاريخ وبعد اسبوع محموم من النداءات العاجلة من برلين ، على هتلر مستجيبة إلى ما طلبه منها.

المحادثات النازية ــ السوفياتية
١٥ ــ ٢١ آب عام ١٩٣٩

قابل السفير فون دير شولنبرغ مولوتوف في الساعة الثامنة من بعد ظهر الخامس عشر من آب ، وراح طبقاً للتعليمات التي تلقاها ، يتلو على مسامعه البرقية العاجلة ، التي تلقاها من ريبنتروب والتي تقول ان وزير خارجية المانيا على استعداد للمجيء إلى موسكو لتسوية العلاقات السوفياتية ــ الألمانية. وتقول البرقية « العاجلة جداً والسرية » التي بعث بها السفير إلى برلين في ساعة متأخرة من تلك الليلة ان وزير الخارجية السوفياتية تلقى هذه المعلومات « باهتمام عظيم للغاية » ورحب « ترحيباً حاراً بنوايا الالمان في تحسين علاقاتهم مع الاتحاد

---

١ ــ ابحرت الغواصات بين التاسع عشر والثالث والعشرين من آب كما ابحرت غراف شبي في الواحد والعشرين ودويتشلاند في الرابع والعشرين.

السوفياتي » . ولكن مولوتوف وهو الخبير بلعبة « البوكر » الدبلوماتية ، لم يبد أية اشارة إلى انه في عجلة من امره . واعرب عن رأيه في ان مثل هذه الرحلة التي يعتزم ريبنتروب القيام بها « تتطلب اعداداً كافياً حتى يؤدي تبادل الآراء إلى نتائج طيبة » .

ولكن اية نتائج يا ترى ؟ لقد اطلق الروسي الداهيـــة بعض التلميحات الماكرة . وراح يتساءل ، هل ترغب الحكومة الألمانية في عقد ميثاق عدم اعتداء بين البلدين ؟ وهل هي على استعداد لاستخدام نفوذهـــا مع اليابان لتحسين العلاقات السوفياتية — اليابانية ووضع « نهاية لحوادث الحدود بين البلدين» مشيراً بذلك إلى حرب غير معلنة كانت مستعرة الاوار طيـــلة الصيف على الحدود المنشورية — المغولية . وتساءل مولوتوف اخيراً ، عن موقف المانيا من اصدار ضمان مشترك لدول البلطيق .

وانهى الوزير السوفياتي حديثه قائلاً : ان من الواجب بحث جميع هذه القضايا في عبارات محددة واضحة بحيث إذا جاء الوزير الالماني إلى هنا ، لم تكن زيارته لمجرد تبادل في وجهات النظر بل لاتخاذ قرارات محددة واضحة » . وعاد يؤكد من جديد « ان الاعداد اللازم للمشاكل وتهيئتها شيء لا بد منه . » [١]

وهكذا كان الاقتراح الأول لعقد ميثاق عـــدم اعتداء بين المانيا وروسيا صادراً عن موسكو ، في نفس الوقت الذي كانت فيه الحكومـــة السوفياتية تتفاوض مع فرنسا وبريطانيـــا العظمى على خوض الحرب ، إذا اقتضى الامر لوقف أي عدوان الماني جديد [٢] . وكان هتلر اكثر من مجرد راغب في البحث

---

١ — وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٧٦ — ٧٧ ونفس المصدر ٨٧—٩٠ و٩٩—١٠٠ .

٢ — سرعان ما علمت الحكومة البريطانية بهـــذا الاقتراح . فقد نقل سمنرويلز وكيل وزارة الخارجية الامريكية في السابع عشر من آب الى السفير البريطاني في واشنطن الاقتراح الذي تقدم به مولوتوف الى شولنبرغ . وكان السفير الامريكي في موسكو قد ابرق قبل يوم واحد بما دار في المقابلة من حديث الى واشنطن وكان تقريره في منتهى الدقة . (وثائق وزارة الخارجيـــة البريطانية — الحلقة الثالثة — ٧ — ص ٤١ — ٤٢ . ووثائق وزارة الخارجية الالمانيـــة (٧) ص ٨٤ — ٨٥) وكان السفير الامريكي ستاينهاردت قد قابل مولوتوف في السادس عشر من آب .

في مثل هذا الميثاق ضمن « شروط محدودة » ، طالما ان عقده سيبقي على روسيا خارج نطاق الحرب ويمكنه من غزو بولندة دون خوف من أي تدخل سوفياتي . وكان على ثقة من ان بقاء روسيا خارج هذا النطاق سيضعف من عزيمة بريطانيا وفرنسا على خوضها .

وكانت اقتراحات مولوتوف عين ما كان يرجوه ، فلقد كانت اكثر تحديداً ووضوحاً من أي شيء كان في وسعه اقتراحه . ولم تكن ثمة إلا صعوبة واحدة ، فأيام آب تمضي متتالية سراعاً ، ولم يكن في وسعه ان ينتظر خطو السوفيات البطيء الذي ظهر جلياً من اصرار مولوتوف على « الاعداد اللازم » قبل زيارة وزير خارجيته لموسكو . ولقد نقلت وزارة الخارجية هاتفياً الى ريبنتروب في فوشيل التقرير الذي تلقته من شولنبرغ عن محادثاته مع مولوتوف ، وذلك في الساعة السادسة والدقيقة الاربعين من صباح السادس عشر من آب ، فراح هذا يقطع الجبال إلى اوبر سالزبرغ ناشداً تعليمات الفوهرر الجديدة . ولم تكد الظهيرة تحل ذلك اليوم ، حتى كان الرجلان يعدان رداً إلى مولوتوف وسرعان ما بعثا بهذا الرد عن طريق جهاز « التليبرينتر » الى وايز ساكر في برلين مع تعليماتهما اليه بابراق هذا الرد كشيء عاجل للغاية الى موسكو فوراً .[1]

وقد قبل الديكتاتور النازي الاقتراحات السوفياتية بلا قيد أو شرط ، وصدرت التعليمات إلى ريبنتروب لمقابلة مولوتوف ثانية وإبلاغه بأن :

« المانيا على استعداد لعقد ميثاق عدم اعتداء مع الاتحاد السوفياتي . وأن يكون هذا الميثاق إذا رغبت الحكومة السوفياتية في ذلك ، غير قابل للابطال او الالغاء لمدة عشرين عاماً . والمانيا على استعداد ايضاً لضمان دول البلطيق ضمانة مشتركة مع الاتحاد السوفياتي . واخيراً فإن المانيا على استعداد لبذل نفوذها لتحسين العلاقات الروسية — اليابانية وتأمين استقرارها » .

وهكذا بطلت جميع الادعاءات التي تتهم حكومة الرايخ بعدم الرغبة في

---

١ — وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٨٤ — ٨٥ .

عقد صفقة مع موسكو .... ومضت برقية ريبنتروب تقول :

« ويرى الفوهرر انه بالنظر إلى الوضع الراهن وإلى احتمال تكرر الحوادث الخطيرة في أي يوم (وارجو ان توضح في هذا الصدد للمسيو مولوتوف أن ألمانيا عازمة على عدم احتمال الاستفزاز البولندي إلى أجل غير محدود) فإن من الافضل أن يجري ايضاح العلاقات الألمانية — الروسية وموقف كل من البلدين من المسائل الراهنة بسرعة وبطريقة اساسية » .

« ولهذه الاسباب كلها ، فإني على استعداد للمجيء بطريق الجو إلى موسكو في أي وقت بعد يوم الجمعة الثامن عشر من آب ، لأعالج ، مزوداً بطلق الصلاحيات من الفوهرر ، كافة ما في العلاقات الألمانية — الروسية من عقد ، وأن أوقع المعاهدات المطلوبة إذا اقتضى الأمر » .

وراح ريبنتروب يضيف من جديد ملحقاً لبرقيته هذه ضمنه تعليماته الشخصية إلى سفيره قال فيه :

« اطلب اليك ثانية أن تقرأ هذه التعليمات كلمة كلمة على مولوتوف وأن تطلب إليه الحصول على رأي الحكومة الروسية والمسيو ستالين فوراً . واضيف الآن بصورة سرية لمعلوماتك الشخصية ، وكإرشاد لك ، أن من المهم لنا كل الأهمية أن تتم رحلتي إلى موسكو في نهاية هذا الاسبوع أو بداية الأسبوع القادم » .

وظل هتلر وريبنتروب طيلة اليوم التالي وهما على قمة الجبل الذي يحل فيه الفوهرر ينتظران رد موسكو بفارغ الصبر . ولم تكن المواصلات البرقية بين برلين وموسكو من النوع السريع بأي حال من الاحوال . وهو وضع يبدو أنه لم يكن معروفاً في الجو المرهف لجبال الالب البافارية ، ولذا فقد قلق الرجلان من التأخر من وصول الرد . وراح ريبنتروب ظهر السابع عشر من آب يبعث ببرقية «عاجلة للغاية» إلى شولنبرغ يطلب اليه أن يرسل « تقريراً برقياً عن الوقت

الذي تقدم فيه بطلبه الى مولوتوف لمقابلته وعن الموعد الذي حدد لاجراء المقابلة»[1] وبعث السفير، المتضايق من هذا الالحاف، عند العشاء ببرقية «عاجلة للغاية» ايضاً إلى سفيره يقول فيها أنه تلقى برقيةالوزير في الساعة الحادية عشرة من مساء الليلة الماضية، وأن الوقت كان متأخراً للقيام بأي نشاط دبلوماتي، وأن ما فعله في صباح اليوم السابععشرمن آب، هو طلب موعد لمقابلة مولوتوف التي حددت في الساعة الثامنة مساء.[2]

وكانت المقابلة مخيبة لآمال القائدين النازيين المحمومين. فلقد ادرك وزير خارجية الروس تلهف هتلر، وفهم الأسباب الداعية اليه، فأراد أن يداعب الألمان ويعذّبهم. وبعد أن أصغى إلى شولنبرغ وهو يتلو على مسامعه برقية ريبنتروب الجديدة، وبعد أن دوّن بعض الملاحظات بصدد محتوياتها، راح يطلع رد الحكومة السوفياتية الخطي على برقية وزير خارجية الرايخ الأولى المؤرخة في الخامس عشر من آب.

استهلت الحكومة السوفياتية ردها بتذكرة لاذعة لمواقف الحكومة النازية العدائية السالفة من روسيا السوفياتية ثم قالت «ان الحكومة السوفياتية كانت حتى عهد قريب جداً تقيم سياستها على أساس الافتراض بأن الحكومة الألمانية تبحث عن فرصة للتصادم مع الاتحاد السوفياتي .... تضاف إلى ذلك الحقيقة الواقعة وهي أن الحكومة الألمانية عن طريق ما يسمَّى بميثاق مكافحة الكومنترن، كانت تحاول أن تخلق، وخلقت بالفعل جبهة متحدة تضم عدداً من الدول، تقف مناوئة للاتحاد السوفياتي». وكان هذا هو السبب الذي دفع روسيا إلى الاسهام في تنظيم جبهة دفاعية ضد العدوان الألماني».ومضت المذكرة تقول:

«ومع ذلك فإذا كانت الحكومة الألمانية قد تبنّت الآن إجراء تحول في سياستها القديمة هادفة إلى ايجاد تحسن جدي في علاقاتها

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٧) ص ١٠٠

٢ ــ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٧) ص ١٠٢

السياسية مع الاتحاد السوفياتي » فإن الحكومة السوفياتية لا يسعها إلا أن ترحب بهذا التبدل .وهي بدورها على استعداد لاعادة النظر في سياستها على اساس ايجاد تحسن جدي فيها تجاه المانيا . »

ولكن المذكرة الروسية اصرت على أن يكون هـذا التحول « في خطوات جدية وعملية » ، لا في شكل قفزة واحدة على النحو الذي يقترحه ريبنتروب .

وما هي هذه الخطوات يا ترى ؟

تكون الخطوة الاولى في التوصل إلى اتفاق تجاري وائتماني .

وتكون الخطوة الثانية « التي تقع بعد الاولى مباشرة» في توقيع ميثاق عدم اعتداء .

وطلب السوفيات أن يعقد في نفس الوقت الذي تتم فيـه الخطوة الثانيـة « ملحق خاص يحدد مصالح الفريقين المتعاقدين في هذه الناحيـة او تلك من السياسة الخارجية».وكان هذا القول ، اكثر من مجرد تلميح إلىان مولوتوف على استعداد لقبول وجهة النظر الألمانية في إمكانعقد صفقة بالنسبة إلى تقسيم اوروبا الشرقية .

أما بالنسبة الى زيارة ريبنتروب المقترحة لموسكو ، فقد أعلن مولوتوف أن الحكومة السوفياتية تشعر « بأكثر من الامتنان » بالنسبة الى هـذه الفكرة ، « لا سيما وان ايفاد مثل هذا السياسي البارز ورجل الدولة الكبـير ، يؤكد النظرة الجدية التي تصحب نوايا لحكومة الألمانية » . وأضاف مولوتوف قائلاً : « ولا ريب في أن هذا العرض مهم للغاية لا سيما أذا قورن بموقف انكلترا ، التي بعثت في شخص سترانغ ، موظفاً من الدرجة الثانية الى موسكو . لكن رحلة وزير خارجية المانيا ، تتطلب عـلى أي حال استعداداً كامـلاً . ولا ترغب الحكومة السوفياتية فيما قد تخلقه هذه الرحلة من دعاية واسعة ، اذ أنهـا تؤثر العمل الجدي غير المصحوب بالضجة والدعاية »[1]

---

١ – برقية شولنبرغ في الساعة ٥،٥٨ من صباح الثامن عشر من آب . وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ١١٤ - ١١٦

ولم يشر مولوتوف الى اقتراح ريبنتروب العاجل والمحدود بأن يزور موسكو في عطلة نهاية الاسبوع ، ويبدو ان شولنبرغ قد فوجىء بالشكل الذي دارت فيه المقابلة ، فآثر أن لا يلحف بتكرار هذه النقطة .

ولكن ريبنتروب عاد يلحف عليها في اليوم التالي بعد أن تلقى تقرير سفيره. وكان من الواضح ان هتلر ، اخذ يحس باليأس . وصدرت عن مقر الفوهرر الصيفي عشية الثامن عشر من آب برقية عاجلة اخرى موجهة إلى شولنبرغ وموقعة من ريبنتروب . ووصلت البرقية دار السفارة الألمانية في موسكو في الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والاربعين من صباح التاسع عشر ، وهي تأمر السفير بإعداد العدة لاجراء محادثة اخرى مع المسيو مولوتوف وأن يفعل كل ما في وسعه أن تتم هذه المقابلة فوراً ودون أي إبطاء . فلقد كان الوقت ثميناً للألمان ، ولم يكن في وسعهم أن يضيعوه . وقال ريبنتروب لسفيره في برقيته : « اطلب اليك أن تبلغ المسيو مولوتوف ما يلي :

« في ودنا نحن ايضاً لو كانت الظروف عادية ،أن نتابع بصورة طبيعية المساعي لتنسيق العلاقات الألمانية – الروسية وتحسينها بالطرق الدبلوماتية وأن نسير بها في الشكل المألوف . ولكن الفوهرر يرى أنه بالنسبة الى الوضع الشاذ الراهن من الضروري استخدام وسائل مختلفة تؤدي إلى نتائج سريعة .

« فالعلاقات الألمانية – البولندية تزداد توتراً وحدة من يوم إلى آخر . وعلينا أن نضع في حسابنا أن الحوادث تقع في أي يوم وأنها قد تجعل نشوب الصراع المكشوف أمراً لا مناص منه .... ويعتبر الفوهرر أن من الضروري أنلا نفاجأ ببدء الصراع الألماني البولندي في الوقت الذي نحاول فيه توضيح العلاقات الألمانية – الروسية . وهو لهذا يجد أن من الضروري توضيح هذه العلاقات مسبقاً ، لأسباب عدة لعل أقلها أهمية ، الأخذ بالمصالح الروسية بعين الاعتبار ، في حالة نشوب الصراع، وهو أمر قد يكون من الصعب

تحقيقه ، اذا لم يتم هذا التوضيح . »

وطلب الوزير من سفيره أن يبلغ مولوتوف أن « المرحلة الاولى » من المشاورات التي ذكرها ، وهي عقد الاتفاق التجاري ، قد تحققت وأن الاتفاق قد وقع في برلين في هذا اليوم (الثامن عشر من آب) ، وأن الوقت قد حان الآن لمعالجة « المرحلة الثانية » . ويقترح وزير الخارجية الألماني لتحقيق ذلك « أن يسافر فوراً إلى موسكو » التي سيصلها « مزوداً بكامل الصلاحيات من الفوهرر الذي خولني تسوية كافة المشاكل المعقدة تسوية كاملة وشاملة » . وأضاف ريبنتروب انه سيكون في وسعه عندما يصل إلى موسكو « أن يولي رغبات روسيا كل اعتبار . »

ولكن ما هي هذه الرغبات ؟ لقد خرج الألمان من سياسة المداورة إلى سياسة الصراحة .... إذ مضى ريبنتروب يقول :

« وسيكون في وسعي توقيع ملحق خاص ، ينظم مصالح الفريقين المتعاقدين في قضايا السياسة الخارجية مهما كان نوعها ، كتسوية مناطق المصلحة والنفوذ في حوض البلطيق مثلاً . ولا يمكن لمثل هذه التسوية أن تتم على أي حال إلا في محادثات شفوية مباشرة . »

وعلى السفير في هذه المرة ان لا يسمع كلمة (لا) ، اذ انتهى ريبنتروب من برقيته قائلاً :

« أرجو ان تؤكد لهم ان سياسة المانية الخارجية قد وصلت اليوم الى نقطة تحول تاريخية .... وأرجو ان تلح على وجوب تحقيق سفرتي إلى موسكو في منتهى الاستعجال ، وان تعترض بكياسة على كل عقبة يضعها الروس من جديد . وعليك ان تذكر في هذا الصدد الحقيقة الحاسمة وهي ان الصراع المكشوف بين المانيا وبولندة قد يقع في أية لحظة ، واننا والحالة هذه ، مهتمون غاية

الاهتمام في اتمام زيارتي لموسكو فوراً وعلى التو . »[١]

وكان التاسع عشر من آب يوماً حاسماً . فلقد توقف الألمان عن اصدار أوامرهم إلى غواصاتهم وبوارجهم الحربية بالابحار إلى المياه البريطانية حتى يصل رد موسكو . وكان من الضروري ان تتحرك هذه القطع البحرية فوراً ، إذا كان المقصود ان تصل الى مراكزها المعينة قبل الموعد الذي حدده هتلر للبدء بالحرب وهو الأول من ايلول ، إذ لا تفصل هذا الموعد إلا ثلاثة عشر يوماً فقط . وكان من الضروري ان يجري نشر مجموعتي الجيوش اللتين تقرر ان يعهد اليهما بالهجوم على بولندة فوراً .

وبات التوتر في برلين ولا سيما في اوبرسالزبرغ ، حيث قبع هتلر ووزيره ريبنتروب في انتظار قرار موسكو ، من النوع الذي لا يطاق . وحسرت برقيات وزارة الخارجية ومذكراتها في ذلك اليوم النقاب عن الحالة العصبية التي سيطرت على الويلهلمشتراسه . ونقل الدكتور شنوري إلى وزيره ان المحادثات مع الروس بصدد الاتفاق التجاري قد انتهت في الليلة الماضية الى (اتفاق كامل) ، ولكن المندوبين السوفيات ما فتئوا يماطلون في توقيعه . واضاف شنوري ، انه كان من المقرر ان يتم التوقيع ظهر اليوم التاسع عشر ولكن الروس هتفوا في اللحظة الاخيرة يقولون انهم ما زالوا ينتظرون تعليمات موسكو . ومضى شنوري يقول : ومن الواضح انهم تلقوا تعليمات من موسكو تقضي بتأجيل التوقيع على الاتفاق لأسباب سياسية» .[٢] وأبرق ريبنتروب من اوبرسالزبورغ إلى شولنبرغ برقية « عاجلة للغاية » ، يطلب فيها اليه أن يبرق فوراً بكل ما يقوله مولوتوف أو كل ما يشير إلى « نوايا الروس » ، ولكن كل ما تلقته برلين من السفير في ذلك اليوم مجرد برقية واحدة ، تتضمن نفياً صادراً عن وكالة «تاس» السوفياتية الرسمية من موسكو لما نشر من أن المفاوضات بين الوفود العسكرية الروسية والبريطانية — الفرنسية ، قد تعقّدت بسبب الخلاف حول المواضيع

---

١ — وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ١٢١ — ١٢٣

٢ — مذكرة شنوري . ١٩ آب — وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ١٣٢ — ١٣٣

المتعلقة بالشرق الأقصى . وأضاف تكذيب تاس أن هناك خلافات بين الوفود على أي حال حول قضايا « مختلفة كل الاختلاف » . وكان هذا البيان بمثابة اشارة إلى هتلر ، بأن المجال ما زال فسيحاً امامه . وأن في وسعه أن يأمل .

ووصلت أخيراً في الساعة السابعة والدقيقة العاشرة من مساء التاسع عشر من آب البرقية التي طال انتظارها :

سري

مستعجل للغاية

« توافق الحكومة السوفياتية على أن يقوم وزير خارجية الرايخ بزيارة موسكو بعد اسبوع واحد من إعلان التوقيع على الاتفاق الاقتصادي . وقد بيّن مولوتوف أنه في حالة اعلان هذا التوقيع غداً ، فإن في وسع وزير الخارجية أن يصل موسكو في السادس والعشرين من آب أو في السابع والعشرين منه .

« وقد قدّم لي مولوتوف مسوّدة مشروع ميثاق لعدم الاعتداء

« وسأبرق لكم فوراً بوصف مسهب للمحادثتين اللتين اجريتهما اليوم مع مولوتوف ، بالاضافة إلى نص المشروع السوفياتي .

شولنبرغ [١]

وذكر السفير في برقيته التالية أن الحديث الأول الذي بدأ في الكرملين في الساعة الثانية من بعد ظهر التاسع عشر والذي استغرق ساعة كاملة « لم يسر سيراً مرضياً » ، وبدا للسفير ان ليس في الامكان حمل الروس على استقبال وزير خارجية هتلر ، فقد « اصر مولوتوف على رأيه في ان هذه الزيارة مستحيلة في الوقت الحاضر ، كما لا يمكن تحديد موعدها تقريباً لأنها في حاجة إلى اعدادات

---

١ ـ برقية شولنبرغ الساعة ٦،٢٢ من ١٩ آب،وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص١٣٤

كاملة مسبقة .... وكان مولوتوف يرد على الاسباب التي كررت تقديمها مؤكداً فيها على السرعة ، بأن التوقيع على الاتفاق الاقتصادي لم يتم بعد . ولذا من الواجب توقيع هذا الاتفاق اولاً وإذاعته ، لكي يحقق تأثيره في الخارج ، وآنذاك يحل دور ميثاق عدم الاعتداء والملحق .

« وبدا لي ان مولوتوف ظل غير متأثر بما قدمته من حجج ، وهكذا انتهى الحديث الاول برد من مولوتوف بأنه افضى إلي بكل ما لديه من آراء الحكومة السوفياتية وانه لا يستطيع ان يضيف إليها شيئاً » .

ولكن سرعان ما كان لديه شيء جديد يضيفه ... فلقد ذكر شولنبرغ في تقريره « انه لم يكد يمضي نصف ساعة على انتهاء الحديث الأول ، حتى كان مولوتوف يبعث في طلبي لاقابله في الكرملين في الساعة الرابعة والنصف مساء . وعندما قابلته اعتذر لي على ما سببه لي من ازعاج ، وأوضح لي انه قدم تقريره إلى الحكومة السوفياتية » .

وهنا قدم وزير الخارجية إلى السفير الذي غمرته الدهشة الممتزجة بالسرور ، مشروع ميثاق لعدم الاعتداء ، وابلغه ان في وسع ريبنتروب ان يصل الى موسكو في السادس والعشرين أو السابع والعشرين من آب ، في حالة توقيع الاتفاق التجاري واذاعته غداً .

وأضاف شولنبرغ في برقيته يقول : « ولم يبد مولوتوف أي سبب لهذا التحول الفجائي في تفكيره ، ولكني افترض ان هذا التحول نجم عن تدخل ستالين » [1]

ولا ريب في ان افتراض السفير كان صحيحاً كل الصحة . فلقد روى تشرشل في مذكراته : ان ستالين أعلن عزم السوفيات على توقيع الميثاق مع المانيا إلى المكتب السياسي للحزب عشية التاسع عشر من آب . [2] واتضح من برقية

---

١ ـ برقية شولنبرغ ، الساعة ١٢،٠٨ من صباح ٢ آب ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

٢ ـ تشرشل ـ مذكرات ـ ص ٣٩٢ . لا يورد تشرشل مصدراً لروايته .

شولنبرغ ، انه في ساعة مبكرة من ذلك اليوم أي بين الثالثة والرابعة والنصف من بعد الظهر ، كان ستالين قد نقل الى مولوتوف قراره القدري الخطير .

وروى تشرشل فيما بعد ان الديكتاتور الروسي شرح له بعد نحو من ثلاث سنوات أي عند زيارته لموسكو في شهر آب عام ١٩٤٢ بعض الاسباب التي حملته على اتخاذ تلك الخطوة الجريئة المكشوفة فقال [1] :

« تولد لدينا الانطباع بأن الحكومتين البريطانية والفرنسية لم تكونا قد حزمتا أمرهما على المضي إلى الحرب في حالة مهاجمة بولندة ، وان كل ما تأملانه هو ان يؤدي وقوف بريطانيا وفرنسا وروسيا في صف واحد إلى وقف هتلر عن مهاجمتها . وكنا على ثقة من أن هتلر لن يتوقف . وراح ستالين يسأل المفاوضين الغربيين « كم عدد الفرق التي تستطيع فرنسا ان تزج بها في الحرب ضد المانيا بعد التعبئة العامة ؟ » وكان الرد « نحو من مائة فرقة » ثم راح يسأل ثانية « وكم عدد الفرق التي ستبعث بها انكلترا إلى الميدان ؟ » وكان الرد « فرقتان وأخريان بعد مدة » ... وقال ستالين ... « آه فرقتان وأخريان بعد مدة ! هل تعرفون عدد الفرق التي يتحتم علينا الزج بها في الجبهة الروسية في حالة مضينا الى الحرب ضد المانيا ؟ » . وساد الصمت برهة ... ثم قال : « اكثر من ثلاثمائة فرقة . »

واضاف شولنبرغ في برقيته التي ضمنها نتيجة محادثتيه مع مولوتوف في في التاسع عشر من آب ، ان جميع المحاولات التي بذلها لاقناع وزير الخارجية بقبول موعد مبكر لسفرة ريبنتروب إلى موسكو «قد منيت بالفشل لسوء الحظ . »

ولكن الألمان كانوا يريدون نجاحها . فجميع المخططات لتوقيت هجومهم على بولندة ، تعتمد على ذلك ، كما ان موضوع وقوع الهجوم في الفترة القصيرة قبل حلول الشتاء يعتمد على نجاح هذه المحاولة . فإذا لم يستقبل ريبنتروب في

---

١ ــ تشرشل ــ مذكرات . ص ٣٩١ .

موسكو قبل السادس او السابع والعشرين ، واذا تباطأ الروس في محادثاتهم ، وهذا ما يخشاه الألمان : فلن يكون في إمكانهم المحافظة على موعد الاول من ايلول كتاريخ للهجوم على بولندة .

وقرر ادولف هتلر في هذه المرحلة الحرجة ان يتدخل شخصياً مع ستالين . وابتلع هتلر كبرياءه وراح يرجو شخصياً من الديكتاتور الروسي ، الذي كثيراً ما شهر به وأساء إليه ، أن يستقبل وزير خارجيته في موسكو فوراً . وبعث ببرقية عاجلة إلى موسكو في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والاربعين من مساء يوم الأحد العشرين من آب ، أي بعد إثنتي عشرة ساعة من تلقيه برقية شولنبرغ . وأمر الفوهرر سفيره بتسليم الرسالة إلى مولوتوف فوراً . وهذا نصها :

« المسيو ستالين موسكو

« يسرني ان أرحب ترحيباً حاراً بتوقيع الاتفاق التجاري الجديد بين روسيا والمانيا . كخطوة اولى في إعادة تنظيم العلاقات الألمانية السوفياتية . [1]

« ويعني توقيع ميثاق عدم إعتداء مع الاتحاد السوفياتي بالنسبة إليّ ، توطيد أسس السياسة الألمانية إلى وقت طويل قادم . وبهذا الميثاق تستأنف المانيا خطاً سياسياً كان نافعاً ومفيداً لكلتا الدولتين قروناً طويلة ....

« وإنني لأقبل بمشروع الميثاق الذي قدمه المسيو مولوتوف وزير خارجيتك الينا ، ولكنني اشعر في الوقت نفسه بضرورة ايضاح القضايا المتعلقة به في أسرع وقت ممكن .

« وفي الامكان ، كما اثق ، توضيح ما سيتضمنه الملحق الاضافي للميثاق الذي يرغب الاتحاد السوفياتي فيه ، في اقصر وقت ممكن ، إذا كان في الامكان ايفاد سياسي الماني مسؤول ، إلى موسكو للتفاوض معكم . وما لم يقع هذا فإن حكومة الرايخ لا تستطيع أن

---

١ ــ وقع الاتفاق في برلين في الساعة الثانية من صباح الاحد في ٢٠ آب .

ترى كيف يمكن توضيح الملحق الاضافي وإقراره في وقت قصير .

« ولقد بلغ التوتر بين المانيا وبولندة حداً لا يطاق ... وقد تنشب الأزمة في أي يوم . والمانيا عازمة منذ اليوم ، على العناية بمصالح الرايخ بجميع الوسائل الموجودة تحت تصرفها .

« واني لأرى أن من الافضل بالنسبة إلى نوايا الدولتين ، أن لا نضيع أي وقت في الشروع بهذه العلاقة الجديدة بين بلدينا . ولهذا اعود فأقترح بأن تستقبلوا وزير خارجيتي يوم الثلاثاء في ٢٢ آب أو على اكثر تقدير يوم الاربعاء في الثالث والعشرين منه . ووزير خارجية الرايخ مزوّد بكافة الصلاحيات لاعداد ميثاق عدم الاعتداء ، وملحقه الاضافي وتوقيعها . وبالنظر الى خطورة الوضع الدولي ، فإن بقاء وزير خارجيتنا في موسكو أكثر من يوم أو يومين أمر مستحيل . واكون سعيداً لو تلقيت ردك العاجل . »

ادولف هتلر [١]

وكان الفوهرر طيلة الاربع والعشرين ساعة التالية منذ مساء الأحد في العشرين من آب عندما ابرق بندائه إلى ستالين في موسكو ، حتى مساء اليوم التالي في حالة تقرب من الانهيار الكامل . فلقد هجر الكرى مقلتيه . وراح في منتصف الليل ، يهتف إلى غورنغ ، ليسري عن نفسه بعض الشيء بالإفضاء إلى مشيره بهمومه وقلقه من تأخر رد ستالين على رسالته ، وبالتنفيس عن سخطه على تسويف موسكو . وتلقت وزارة الخارجية الالمانية في الساعة الثالثة من صباح الواحد والعشرين برقية « عاجلة للغاية » من شولنبرغ تقول ان برقية هتلر التي كان وايز ساكر قد ابلغه نبأ ارسالها لم تصل بعد اليه . وراح السفير يذكر وزارة الخارجية بأن « البرقيات الرسمية المرسلة من برلين إلى موسكو تصل بعد أربع ساعات او خمس ، بما في ضمنها ساعتان من الفرق الزمني بين ساعتي البلدين

١ — برقية هتلر الى ستالين ٢٠ آب . وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ١٥٦ — ١٥٧

وعلينا ان نضيف إلى هذه المدة الوقت الذي تستغرقه عملية حل رموز البرقية» [١]
وراح ريبنتروب الذي لا يقل قلقاً عن زعيمه يبرق في الساعة العاشرة والربع صباح الاثنين الواحد والعشرين من آب ، برقية عاجلة الى شولنبرغ يقول فيها : أرجو ان تبذل كل ما لديك للتأكد من تحقيق الزيارة حسب الموعد الوارد في البرقية » [٢] وتلقت برلين بعيد الظهر برقية من السفير يقول فيها : « سأقابل مولوتوف في الساعة الثالثة من مساء اليوم » [٣]

واخيراً وفي الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والثلاثين من مساء الواحد والعشرين من آب ، حملت اسلاك البرق إلى برلين رد ستالين الذي طال انتظاره ، وهذا نصه :

« ادولف هتلر

« اشكرك على رسالتك . وكلي أمل في أن يؤدي ميثاق عدم الاعتداء بين المانيا والسوفيات إلى تحوّل مقرر نحو الافضل في العلاقات السياسية بين بلدينا

« ويحتاج شعبانا إلى قيام علاقات سلمية بينهما . وتؤمن موافقة الحكومة الألمانية على عقد ميثاق عدم اعتداء الأساس السليم لازالة التوتر السياسي ولاقامة السلام والتعاون بين بلادينا .

« وقد اوعزت الحكومة السوفياتية إلي بأن أُبلغك موافقتها على وصول الهر فون ريبنتروب إلى موسكو في الثالث والعشرين من آب .

ج . ستالين [٤]

---

١ ــ برقية شولنبرغ الساعة ١٫١٩ صباح ٢١ آب ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ١٦١ ــ ١٦٢

٢ ـ برقية ريبنتروب ٢١ آب ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ١٦٢ .

٣ ــ برقية شولنبرغ الساعة ١٫٤٣ من بعد ظهر الواحد والعشرين من آب : وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ١٦٤

٤ ــ رسالة ستالين الى هتلر في ٢١ آب ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ١٦٨

وتشاء سخرية الأقـدار أن يلقى الديكتاتور النازي نداً له في الطـاغية السوفياتي . وهكذا اصبح المجال فسيحاً امامهما للتفاهم والاتفـاق على صفقة من اكثر الصفقات قذارة في هذه الفترة الشريرة من تاريخ العالم .

وقد نقل رد ستالـين إلى الفوهرر في « عش النسر » في السـاعة العاشرة والنصف مساء . ويذكر مؤلف هذا الكتاب انه بعد بضع دقائق أي بعد الساعة الحادية عشرة مساء ، توقفت الاذاعة الألمانية عن بث حفـلة موسيقية بصورة مفاجأة ، لينطلق صوت يذيع ان « حكومتي الرايخ والاتحاد السوفياتي قـد اتفقتا على عقد ميثاق عدم اعتداء بينهما . وأن وزير خارجية الرايخ سيصل إلى موسكو يوم الأربعاء في الثالث والعشرين من آب لإنهاء المفاوضات » .

وبعد أن تأكد هتلر من ستالين بأن روسيا ستقف موقف الحياد الودي ، راح في اليوم التالي الثاني والعشرين من آب يدعو كبار قادته العسكريين إلى اجتماع في اوبرسالزبورغ ليحاضرهم فيه عن عظمته وعن ضرورة قيـامهم بشن الحرب بوحشية ودون رحمة او هوادة . وليبلغهم أنه قد يأمر بالبدء بالهجوم على بولندة قبل ستة ايام من موعده المحـدد أي يوم السبت في السادس والعشرين من آب ، فلقد مكّنه ستالين عدوه اللدود من أن يفعل ذلك .

المؤتمر العسكري
في ٢٢ آب ١٩٣٩

وجد القادة العسكريون هتلر في حالة مزاجية من اكثر حالاتـه استفزازاً وفظاظة[1] وبدأ الفوهرر حديثه اليهم قائلاً : «لقد دعوتكم الى الاجتماع لأقدم اليكم

١ــلم استطع العثور على أي سجل رسمي لخطاب هتلر في هذا الاجتماع ، ولكن هناك تدوينات عدة ، كتب اثنين منها ضابطان من ارفع الضباط رتبة ، جمعاها من الملاحظات التي سجلاها ابان الاجتماع ، وقد تعرضت للنور مؤخراً . وكان التدوين الأول بقلم الاميرال هيرمان بوهيم قائد اسطول البحار البعيدة وقد قدم الى محكمة نورمبرغ دفاعاً عن الاميرال ريدر كما نشر في « محاكمات كبـار مجرمي الحرب (١٦) ص ١٦ ــ ٢٥ » . اما الثاني فمن وضع الفريق هولدر الذي سجل ملاحظات ضخمة=

صورة عن الوضع السياسي ، لتتمكنوا عن طريقها من تفهم العوامل الفردية التي استندت اليها في الوصول إلى قراري الذي لا يقبل النقض، ولكي اقوّي من ثقتكم واشدّد من عزيمتكم . وبعد الانتهاء من الصورة سنشرع في بحث التفصيلات العسكرية . » وأضاف ان هناك قبل كل شيء اعتبارين شخصيين ثم قال :

« انهما شخصيتي انا وشخصية موسوليني .

« فكل شيء يعتمد في الاساس علي وعلى وجودي ، وذلك نتيجة ما اتمتع به من مواهب سياسية . تضاف إلى هذا حقيقة أخرى وهي انه لن يتاح لأي رجل آخر في المستقبل ان يحظى بثقة الشعب الألماني قاطبة على النحو الذي اولانيها . ومن المحتمل ان لا يظهر قط في هذه البلاد ، رجل آخر ، يتمتع ما اتمتع به من سلطة . ولهذا فإن وجودي عامل له اهميته العظمى . ولكن قد ازول من الوجود في أية لحظة على يدي مجرم أو مجنون .

« اما العامل الشخصي الثاني فهو الدوتشي . ووجوده أمر

=بطريقة الاختزال التي اتقنها وقد نشرت في الترجمة الانكليزية ليومياته (يومية ٢٢ آب في وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٥٥٧ ـ ٥٥٩ . اما الوثيقة الاساسية عن الاجتماع والتي استخدمها الادعاء العام كدليل في محاكمات نورمبرغ فقد جاءت في مذكرة غير موقعة تقع في جزئين منقولة من ملفات القيادة العليا للقوات المسلحة التي استولت عليها القوات الامريكية في قرية سالفيلدين في التيرول النمسوي . وقد طبعت بالانكليزية في « المؤامرة النازية والعدوان ٣ ص ٥٨١ ـ ٥٨٦ و ٦٦٥ ـ ٦٦٦ » وفي « وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٢٠٠ ـ ٢٠٦ . » اما النص الالماني للمذكرة ذات الشقين فيوجد بالطبع في « محاكمات كبار مجرمي الحرب . » وفي هذا النص تتميز لغة هتلر بحيوية اكثر من الصورة التي تنقلها فيها مذكرتا الاميرال بوهيم والفريق هولدر . لكن المصادر الثلاثة متشابهة في محتواها وليس ثمة من شك في صدقها ودقتها . والقيت بعض الشكوك في محاكمات نورمبرغ حول وثيقة رابعة عن خطاب هتلر (المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٧٥٢ ـ ٧٥٤) ، وعلى الرغم من الاشارة اليها في مرافعات النيابة العامة . إلا انها لم تقدمها كدليل . وعلى الرغم من صحة ما فيها من محتويات ، إلا أنها كما يبدو ، قد صاحبها بعض التزويق الذي ادخله عليها رجال لم يحضروا اجتماع « عش النسر » . وقد استندت في جمع خطاب هتلر وملاحظاته إلى ما دونه عنه كل من بوهيم وهولدر وإلى المذكرة غير الموقعة التي قدمت الى نورمبرغ كدليل ومستند .

حاسم ايضاً . فلو حدث له عارض ، فإن ولاء ايطاليا لتحالفها معنا لن يظل مضموناً . وليس ثمة من شك في معارضة البلاط الايطالي للدوتشي . »

وقال هتلر : ان وجود فرانكو عامل مساعد ايضاً ، إذ انه سيضمن «حياد اسبانيا الخيّر» . وراح يؤكد لسامعيه ... « أما بالنسبة إلى الجانب الآخر ، فليس ثمة من شخصية ، بارزة في انكلترا وفرنسا » .

وظل الديكتاتور الذي اصابته جنّة يخطب سامعيه عدة ساعات لم تقطعها إلا فترة غداء متأخر ، وهو يرعد ويزبد ، ولم يقم دليل من السجلات على ان قائداً واحداً سواء أكان فريقاً أو اميراً للبحر ، أو قائداً للسلاح الجوي قد جرؤ على مقاطعته مناقشاً حكمه أو حتى متحدياً أكاذيبه . ولقد قال لهم انه اتخذ قراره في الربيع ، وان الحرب مع بولندة شيء لا بد منه ، ولكن خيّل اليه ان عليه أولاً الاتجاه نحو الغرب . ولكن اتضح له في هذه الحالة ان بولندة ستهاجم المانيا في مؤخرتها ولذا فمن الضروري تصفيتها قبل كل شيء وازالتها من عالم الوجود .

وقد حان الوقت لخوض الحرب على أي حال... ثم مضى يقول:

« ومن السهل علينا أن نتخذ قرارنا . فليس ثمة ما نخشى عليه الضياع ، وليس ثمة من مجال إلا للكسب . وقد بات وضعنا الاقتصادي من الحراجة بحيث لم يعد في استطاعتنا ان نصمد اكثر من بضع سنوات . وفي وسع غورنغ ان يؤكد لكم قولي . وليس امامنا أي مجال للاختيار وعلينا ان نعمل ...

« وبالاضافة إلى العامل الشخصي فإن الوضع السياسي مؤاتٍ لنا . فهناك في البحر الابيض المتوسط تنافس بين ايطاليا وفرنسا وانكلترا . وهناك في الشرق الكثير من التوتر ...

« وبريطانيا في خطر عظيم . وقد ساء موقف فرنسا وتدهور ايضاً . فهناك هبوط في نسبة المواليد ... وتحمل يوغوسلافيا

جرثومة الانهيار في ذاتها ... أما رومانيا فهي اضعف اليوم منها في أي وقت مضى ... وتركيا ، يحكمها بعد وفاة كمال اتاتورك ، رجال صغار ضعفاء من ذوي العقول الواهنة غير المستقرة .

« ولن تتكرر هذه الظروف السعيدة في غضون عامين أو ثلاثة أعوام .

« ولا يعلم إلا الله ، كم يقدّر لي ان اعيش ، ولذا بات لزاماً علينا ان نخوض اليوم الصراع الذي لا يمكن تأجيله اربع سنوات أو خمس ، فهذا أفضل وأجدى » .

هذا هو المنطق الحماسي الذي كان يسود تفكير الزعيم النازي . وهو يعتقد ان من « المحتمل جداً » أن لا يخوض الغرب الحرب ، ولكن المجازفة يجب ان تقع على أي حال . أو لم يجازف هو من قبل عند احتلال منطقة الراين وعندما أراد القادة العسكريون الانسحاب ؟ أو لم يغامر أيضاً في الاستيلاء على النمسا وبلاد السوديت وما تبقى من تشيكوسلوفاكيا؟ «وقد جازف كل من هانيبال في معركة كانيه وفردريك الاكبر في معركة لوستين وهندنبورغ ولودندورف في معركة تاننبرغ . ولذا علينا نحن الآن ايضاً ان نغامر ، وان نعزز مغامرتنا هذه بتصميم فولاذي » . وعلينا ان لا نضعف أو تهون عزيمتنا ... ثم قال :

« ولقد لحقنا ضرر كبير مما افضى به بعض الالمان الخائري العزيمة من ذوي الرتب العالية إلى بعض الانكليز خطياً أو شفاهاً ، بعد حل المشكلة التشيكية . فالفوهرر يظل رابط الجأش في الوقت الذي تفقدون فيه اعصابكم وتسارعون إلى الاستسلام . »

ولا ريب في أن هولدر وويتزليبين وتوماس وغيرهم من الفرقاء الذين اشتركوا في مؤامرة ميونيخ ، قد احسوا بالانقباض من هذا التلميح . وبدا لهم أن هتلر يعرف أكثر مما كانوا يظنون .

لكن الوقت قد حان الآن على كل حال لاظهار كفاياتهم الحربية . وراح هتلر يذكرهم بأنه خلق المانيا العظمى « بالبلف السياسي » . وقد بات لزاماً الآن . .

اختبار الجهاز العسكري . وعلى الجيش ان يجرّب القتال الفعلي قبل ان يخوض المعركة النهائية الكبرى في الغرب . ولا ريب في انبولندا تؤمن الفرصة المؤاتية.

وعاد في حديثه الى انكلترا وفرنسا :

« هناك طاقتان يستطيع الغرب محاربتنا بهما :

« ١ – الحصار البحري : ولن يكون هذا الحصار فعّالاً بفضل اكتفائنا الذاتي وما نضمنه من موارد العون من الشرق .

« ٢ – الهجوم من الغرب عن طريق خط ماجينو ، وانا اعتبره مستحيلاً .

« وهناك احتمال ثالث وهو ان تخرق الدولتان الغربيتان حياد هولندة وبلجيكا ، وسويسرا . ولكن انكلترا وفرنسا لن تخرقا حياد هذه الدول . ولذا فلن يكون في وسعهما مساعدة بولندة مساعدة فعلية . »

ولكن هل ستكون الحرب طويلة ؟ انه يرد على ذلك قائلاً :

« ليس ثمة من يقيم حساباته على حرب طويلة . ولو أبلغني الهر فون براوختش اننا نحتاج إلى أربع سنوات لاحتلال بولندة ، لأجبته بأننا لن نحارب . ومن السخف ان يقال بأن انكلترا تريدها حرباً طويلة .

وبعد ان انتهى من الحديث وهو راض على الأقل ، عن شرحه لمواقف بولندة وبريطانيا وفرنسا ، راح هتلر يسحب ورقته الرابحة من جيبه ، فالتفت إلى روسيا وقال :

« ويأمل العدو من شيء آخر ، وهو ان تصبح روسيا عدوة لنا بعد الانتهاء من أمر بولندة . ويبدو أن العدو لا يأخذ في حسابه ما اتمتع به من قوة تصميم هائلة . فأعداؤنا لا يعدون مجرد حشرات . ولقد رأيتهم في ميونيخ .

« وكنت على ثقة من ان ستالين لن يقبل قط بعرض بريطانيا .

ولم يكن في مكنة إلا كل انسان اعماه التفاؤل ان يصدق بأنستالين سيكون من الحماقة إلى الحد الذي لا يبصر فيـــه نوايا انكلترا ويدركها . وليست لروسيا مصلحة في الحفاظ على بولنـدة .... وكانت إقالة لتفينوف خطوة حاسمة . وبدا لي هذا العمل وكأنه قذيفة مدفع مشيراً إلى تبدل موقف موسكو من الدولتين الغربيتين.

« وشرعت في تبديل موقفنـــا من روسيا بصورة متدرجة . وساقتنا المعاهدة التجارية إلى محادثات سياسية . واخيراً وصلنا عرض من الروس بعقد معاهدة عدم اعتداء . وقمت قبل أربعـة ايام بخطوة خاصة حملت الروس على أن يعلنوا بالأمس استعدادهم لتوقيع هذه المعاهدة . وأقمت بذلك اتصالاً شخصياً مع ستالين . وسيوقع ريبنتروب المعاهدة بعد غدٍ . وباتت بولندة الآن في الوضع الذي اردتها أن تكون فيه . وتمكنا من تحقيق بداية ناجحة لتحطيم محالفات انكلترا . أما وقـد قمت بالخطوات التمهيدية السياسية ، فقد بات المجال فسيحاً امام العسكريين للعمل . »

وهكذا فإن المجال بات فسيحاً امام العسكريين إلا إذا اختار تشمبرلين أن يعد العدة لميونيخ جديدة . وراح هتلر يقول لقوّاده :« وكل ما اخشاه ،أن يتقدم كلب قذر ، باقتراح للتوسط . »

وانفض الاجتماع عند هذا الحد لتناول الغداء ، ولكن بعد ان أعرب غورنغ للفوهرر عن شكر المستمعين لارشاداته وتوجيهـــاته ، مؤكداً له أن القوات المسلحة ستقوم بواجبها خير قيام .[1]

---

١ ــ تقول الوثيقة التي قدمت الى محاكمات نورمبرغ ان غورنغ قفز عن المائدة وقدم «تشكراته المتعطشة للدماء مصحوبة بالوعود الدموية » ثم اخذ يرقص وكأنه متوحش مجنون . اما المتشككون القلائل من القادة فقد سادهم الوجوم والصمت . وقد اثار هذا الوصف الذي تضمنته الوثيقة ثائرة غورنغ إبان استجوابه في نورمبرغ في الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من آب عـام ١٩٤٥ . وراح يقول : « انني انفي ما قيل من انني وثبت الى المنضدة ، واريد منكم ان تعرفوا ان هتلر القى خطابه في القاعة الكبرى في منزله الخاص . ولم يكن من شأني ولا مألوفي ان اقفز على الموائد=

وكرّس هتلر محاضرته بعد الغداء لبعث روح الزهو في قـــادته العسكريين ومحاولة تشديد عزائمهم للقيام بالمهمة الملقاة على عواتقهم . وتشير الوثائق الثلاث التي استندت اليها إلى بيان هذه الطبيعة التي تميّز بها الخطاب . إذ قال :

« سنتميز من جانبنا بالتصميم الفولاذي . ولن نتخاذل أو ننكمش امام أي شيء . وعلى كلٍ منا أن يحمل الرأي العام بأننا كنا عازمين على محاربة الدولتين الغربيتين منذ البداية . إنها حرب حيـــاة أو موت ... واستمرار السلام أمداً طويلاً لن يكون في مصلحتنـــا مطلقاً .. فعلينا أن نبدو رجالاً ... وجنودنا خير من جنودهم .. فهم اضعف منا بكثير ... وقد انهارت البـلاد في عام ١٩١٨ لأن المتطلبات الروحية لم تكن كافية . وانتصر فريدريك الأكبر بسبب ما تميَّز به من صبر وقوة احتمال .

« ويحتل تحطيم بولنـدة مكان الصدراة . وهدفنا إبادة القوات العاملة ، لا الوصول إلى خط معين . وحتى لو نشبت الحـــرب في الغرب فإن تحطيم بولندة سيظل هدفنا الأول . وعلينا أن نصل فيها إلى قول فصل في اسرع وقت ممكن بسبب عوامل الطقس .

« وسأقدم سبباً دعائياً للشروع في الحرب ، ولا يهمني مطلقاً إن كان هذا السبب معقولاً او لم يكن . فالمنتصر لا يسأل في النهاية ان كان قد صدق او كذب . وفي شن الحروب وخوضها تكون الأهمية للنصر لا للحق .

« اغلقوا أفئدتكم عن الرحمة ! واعملوا بوحشية وصلابة ! فعلينا ان نضمن لثمانين مليوناً من الناس ، مـــا هو حق لهم ... والقوي

=في المساكن الخاصة . فمثل هذا الوضع يتعارض تمام التعارض مع سلوك الضابط الالماني . »

وراح العقيد جون . اش . آمين ، المحقق الامريكي يسأله ... « ولكن الحقيقة قائمة وهي انك كنت زعيم المتافين بعد القاء الخطاب . أليس كذلك ؟

ورد غورنغ قائلا : أجل ، ولكنني لم اقفز على المائدة ابداً .

(المؤامرة النازية والعدوان ـ الملحق ب . ص ١١٠٣ ـ ١١٠٥)

عادة هو صاحب الحق ... كونوا قساة لا يعذبكم ضمير ! وتدرعوا بدروع الفولاذ لتقيكم من عواطف الرحمة والاشفاق ... وكل من فكر في نسق هذا العالم يدرك أن معناه يقوم في نجاح الأفضل عن طريق القوة ... »

وبعد أن تدفق بهذه النصائح النيتشيَّة (نسبة إلى الفيلسوف الالماني نيتشه المنادي بسياسة القوة) أخذ الفوهرر بعد أن وصل قمة الحماس التيوتوني يهدأ شيئاً فشيئاً ، وشرع يتلو توجيهاته بصدد الحملة المنتظرة . فأكد على أهمية السرعة . وأعرب عن « ايمانه الذي لا يتزعزع » بالجندي الألماني . وإذا اما وقعت أي أزمة او ظهر أي موقف حرج فإن السبب في ذلك يرجع ولا شك إلى ضعف اعصاب القادة . وسيكون الهدف الأول، فتحثغرات من الجنوب الشرقي إلى نهر الفيستولا ، ومن الشمال نحو نارو والفيستولا . واصرَّ على أن العمليات الحربية يجب أن لا تتأثر مطلقاً بما قد يعتزم القيام به تجاه بولندة بعد هزيمتها . وهنا كان هتلر غامضاً كل الغموض فلقد بيَّن لقادته أن حدود المانيا الجديدة ستقوم على « اسس سليمة » . وذكر بأنه قد يقيم دولة بولندية صغيرة لتكون عازلاً بين المانيا وروسيا .

وأنهى خطابه قائلاً ان الأمر ببدء العمليات الحربية سيصدر فيا بعد وربما صباح السبت في السادس والعشرين من آب .

وسجل الفريق هولدر في اليوم التالي أي الثالث والعشرين من آب بعد اجتماع عقده رؤساء الأقسام في القيادة العامة للقوات المسلحة ، في يوميَّته : « أن موعد الهجوم قد حدد نهائياً في يوم السبت السادس والعشرين من آب . »

مأزق الحلفاء في موسكو

وكانت المحادثات العسكرية في موسكو بين الدولتين الديموقراطيتين والاتحاد السوفياتي ، قد وصلت في منتصف شهر آب إلى ما يشبه التوقف . وذلك بسبب

حماقة البولنديين إلى حد كبير . ويذكر القارىء أن البعثتين العسكريتين الانكليزية والفرنسية قد وصلتا إلى لينغراد في باخرة صغيرة بطيئة ثم انتقلتا إلى موسكو التي وصلتاها في الحادي عشر من آب ، أي بعد اسبوع واحد من مغادرة المستر سترانغ الخائب الأمل للعاصمة الروسية . وكان هذا قد أحس بشيء من الراحة ولا شك اذ سلم إلى العسكريين من فرقاء وأُمراء بحر ، المهمة الشاقة والمتعبة في محاولة التفاوض مع الروس .[1]

وكان المقصود من المفاوضات الجديدة الوصول بسرعة إلى ميثاق عسكري ، يحدد بالتفصيل الطريقة التي يمكن بواسطتها مواجهة القوة النازية المسلحة ، ومكان هذه المواجهة والقوى التي ستستخدم فيها . ولكن تظهر الوثائق البريطانية السرية عن وقائع المحادثات العسكرية يوماً بعد يوم والتقارير التي بعث بها المفاوضون البريطانيون[2] أن الفريقين العسكريين الانكليزي والفرنسي لم يرسلا إلى

---

١ ــ اطلق سترانغ على هذه المفاوضات اسم « التجربة المذلة » في برقيـة بعث بها الى وزارة الخارجية البريطانية في العشرين من تموز (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٦) رقم ٣٧٦) .

٢ ــ وثائق وزارة الخارجية البريطانية ــ الخاتمة السابعة ــ الملحق الثاني . ص ٥٥٨ ــ ٦١٤ ويتضمن هذا الملحق تسجيلا يومياً لمحادثات موسكو العسكرية ويؤلف اكثر مصدر شمولا لعرض الحلفاء للمحادثات . ويتضمن الملحق تقارير بعث بها الى لندن مشير الجو بيرنيت والفريق هيوود والتقرير النهائي للبعثة العسكرية البريطانية الذي قدمه الاميرال دراكس الى حكومة لندن . ويتضمن الملحق ايضاً ، صورة حرفية للاجتماع الذ اماتيكي الذي عقده الفريق دومينك مع المشير فوروشيلوف عشية الثاني والعشرين من آب عندما قام رئيس البعثة الفرنسية بمحاولة يائسة لانقاذ الوضع على الرغم من البيان الرسمي الذي صدر عن توقع وصول ريبنتروب في اليوم التالي . وفي الملحق ايضاً تسجيل للاجتماع المؤلم الاخير الذي عقدته البعثتان العسكريتان الغربيتـان مع فوروشيلوف في السادس والعشرين من آب . ويتضمن الجزء السابع ايضاً عدداً من البرقيات المتبادلة بين وزارة الخارجية البريطانية ، وبين سفارة موسكو ، وهي تلقي اضواء جديدة على هذه الحقبة . ويستند هذا الجزء من هذا الفصل على تلك الوثائق البريطانية السرية الى حد كبير . ومن سوء الحظ ، ان الروس ، على حد علمي ، لم ينشروا وثائقهم عن الاجتماعات على الرغم من ورود رواية روسية في كتـاب النيكونوف « اصول الحرب الكونية الثانية » اعتمد المؤلف فيها كثيراً على وثائق وزارة الخارجية البريطانية . وقد ظهرت الرواية ايضاً في كتاب « تاريخ الدبلوماتية » الذي اعده ونقحه « في . بوتيمكين » .

موسكو للبحث في التفاصيل بل في « المبادىء العامة » . ولكن الروس اصروا على أي حال ، على الدخول فوراً في بحث الحقائق الثابتة والمحددة ، أو ما أسماها الحلفاء بالحقائق الغريبة . وكان رد فوروشيلوف على بيان المبادىء الذي القاه الفريق دومينك الفرنسي ، بأن هذه المبادىء « مغالية في اطلاقيتها وعدم واقعها ، ولا تلزم أى جانب بأي شيء » . ثم مضى يقول بهدوء وبرود «ونحن لم نجتمع هنا لإصدار البيانات المطلقة ، بل لإعداد ميثاق عسكري شامل »

وراح المشير السوفياتي يوجه بعض الاسئلة المحدودة : فهل هناك أية معاهدة تحدد العمل الذي تقوم به بولندة ؟ وما عدد الفرق البريطانية التي ستعزز الجيش الفرنسي عند نشوب الحرب ؟ وما هو موقف بلجيكا؟ وكانت الردود التي تلقاها على اسئلته تبعث على الاطمئنان . فلقد رد دومينك بأنه لا يعرف شيئاً عن خطط البولنديين . ورد الفريق هيوود ان البريطانيين يتصورون « إيفاد دفعة أولى تضم ست عشرة فرقة للخدمة فوراً في المراحل الأولى من الحرب تعقبها دفعة ثانية تضم ست عشرة فرقة أُخرى » . وعندما ألحّ عليه فوروشيلوف في الاسئلة ليكشف النقاب عن عدد القوات البريطانية المتأهبة للعمل فور نشوب الحرب ، رد هيوود قائلاً : « هناك الآن خمس فرق نظامية وفرقة آلية في انكلترا في الوقت الحاضر » . وجاءت هذه الارقام التافهة مفاجأة لا تدعو إلى الرضى بالنسبة إلى الروس الذين كانوا على استعداد كما قالوا ، للزج بمائة وعشرين فرقة من فرق المشاة لمحاربة أي معتد في الغرب فور نشوب الحرب .

أما بالنسبة إلى بلجيكا فقد رد الفريق دومينك ان (القوات الفرنسية لا تستطيع الدخول اليها ، إلا إذا طلبت بلجيكا منها ذلك . وإن كانت فرنسا على استعداد للاستجابة إلى أي نداء .)

وأدى هذا الرد إلى ظهور مشكلة عويصة امام المفاوضين العسكريين في موسكو ، كان البريطانيون والفرنسيون توّاقين كل التوق لتجنبها ، فقد اصر فوروشيلوف في الجلسة الأولى ، وفي جلسة عصيبة اخرى عقدها المتفاوضون في الرابع عشر من آب على معرفة ما إذا كانت بولندة على استعداد للسماح للقوات

السوفياتية بدخول اراضيها ، لمقابلة الألمان وردهم . وأضاف فوروشيلوف يقول: « انه في حالة عدم وجود هذا الاستعداد ، فكيف يمكن للحلفاء أن يحولوا بين الجيش الألماني وبين اجتياح بولندة بصورة سريعة ؟ » وراح فوروشيلوف في جلسة الرابع عشر يوجه السؤال المحدَّد التالي : « هل يعتقد اركان الحرب البريطانيون والفرنسيون أن في وسع الجيش الأحمر ان يزحف عبر بولندة ولا سيا عبر مضيق فيلنا وغاليسيا ليتمكن من الاتصال بالعدو ؟ »

هذا هو بيت القصيد في القضية . ولقد ابرق سيدس إلى لندن يقول إن الروس قد اثاروا الآن :

« المشكلة الاساسية التي يتوقف عليها نجاح المحادثات العسكرية أو فشلها والتي كانت والحق يقال الاساس في جميع متاعبنا منذ بدأت المحادثات السياسية ، وهي كيف يمكن الوصول إلى أي اتفاق مجدٍ مع الاتحاد السوفياتي طالما أن جارات هذا البلد ، تحافظ على موقف مقاطعتها والذي لا يمكن تبدله ... إلا بعد فوات الأوان . »

وكانت الحكومة البريطانية قد اصدرت تعليماتها إلى الاميرال دراكس محددة له طريقة التصرف في حالة إثارة هذا الموضوع الذي لم يكن ثمة مناص من إثارته. وعندما يقرأ المرء هذه التعليمات اليوم ، وهي التي حسرت عنها النقاب الوثائق البريطانية السرية ، يجد انها متناهية في السذاجة بشكل لا يكاد يصدق . فقد تضمنت تحديد (الخط) الذي يجب ان يسير فيه اثناء النقاش بالنسبة إلى اصرار كل من بولندة ورومانيا « حتى على عدم التفكير في أية خطط لايجاد تعاون محتمل » فقالت :

« ان أي غزو لبولندة ورومانيا لا بد وان يبدل تبديلاً جوهرياً وجهة نظر هاتين الدولتين . يضاف إلى هذا ان مما لا يتفق مع مصلحة روسيا ان تحتل المانيا مراكز على الحدود الروسية مباشرة... ولهذا فإن من مصلحة روسيا نفسها ان تضع الخطط اللازمة لمساعدة

كل من بولندة ورومانيا في حالة تعرضها للغزو .

« وإذا اقترح الروس ان تقوم الحكومتان البريطانية والفرنسية بالاتصال ببولندة او رومانيا أو دول البلطيق لتقديم مقترحات اليها تنطوي على التعاون مع الحكومة السوفياتية أو مع هيئة أركان حربها ، فإن على الوفد البريطاني ان لا يلتزم بشيء . وان يعود في القضية إلى لندن . »

وهذا ما وقع فعلاً . فلقد طلب فوروشيلوف في جلسة الرابع عشر من آب ردوداً صريحة على اسئلته . واضاف أنه بدون «مثل هذه الردود الدقيقة ، والواضحة فإن استمرار المحادثات العسكرية يغدو غير مجدٍ ولا نافع ... فليس في مكنة البعثة العسكرية السوفياتية ، ان توصي حكومتها بالاشتراك في مشروع مقضي عليه بالفشل الحتمي ، بصورة واضحة . »

وبعث الفريق غاملان من باريس يشير على الفريق دومينك بأن يحاول ابعاد الروس عن الموضوع . ولكن الروس ما كانوا ليقبلوا هذا الابعاد . [١]

وكانت جلسة الرابع عشر من آب كما وصفها الفريق دومينك فيما بعد جلسة مسرحية . ووجد الوفدان البريطاني والفرنسي نفسيهما في زاوية ضيقة ، وكانا يعرفان ذلك تمام المعرفة . وقد حاولا تجنب الموضوع بقدر ما لديهما من طاقة . وراح دراكس ودومينك يؤكدان أنهما على ثقة بأن البولنديين والرومانيين سيطلبون مساعدة الروس فور وقوع الهجوم عليهم . وأخذ دومينك يؤكد ايمانه « بأنهم سيبتهلون إلى المشير لمساعدتهم . » وقال دراكس ان « ليس من المعقول مطلقاً أن لا ينشدوا العون السوفياتي » ، وأضاف قائلاً ، بكل ما في قوله من بعد عن الدبلوماتية ، أنه يبدو ، كأنهم إذا لم يطلبوا المساعدة عند الحاجة اليها ، يريدون ان تجتاح بلادهم ، وأنهم يتوقعون ان تغدو هذه البلاد امارات المانية . » وكان هذا آخر ما يريده الروس إذ أنه يعني وجود الجيوش

---

١ ــ بول رينو ــ في حمأة المعركة ص ٢١٢ . وص ٢١٠ ــ ٢٣٣ . بونيه ــ كتاب « نهاية اوروبا » .

الألمانية على الحدود السوفياتية، وقد دوّن فوروشيلوف ملاحظة الاميرال السيئة الحظ وجعل منها نقطة اساسية .

وأخيراً ، ادعى الممثلون الانكلو – فرنسيون المتضايقون بأن فوروشيلوف قد أثار مواضيع سياسية ، وأن ليس من صلاحياتهم البحث فيها. واعلن دراكس انه لما كانت بولندة دولة ذات سيادة ، فإن على حكومتها اولاً ان توافق على دخول القوات الروسية وتباركه . ولكن لما كانت هذه القضية من المسائل السياسية ، فمن حق الحكومات وحدها أن تقررها . واقترح ان توجه الحكومة السوفياتية سؤالها إلى الحكومة البولندية . واعلن الوفد الروسي ان القضية سياسية حقاً ، ولكنه يصر على أن تقوم الحكومتان البريطانية والفرنسية بتوجيه هذا السؤال إلى البولنديين وأن تضغطا عليهم ليكونوا عقلاء .

فهل كان الروس بالنظر إلى ما كانوا يقومون به من اتصالات مع الالمان في هذه الآونة يفاوضون الغربيين بنية صادقة عن طريق ممثليهم العسكريين ؟ أو هل كانوا كما ذكرت وزارتا خارجية بريطانية وفرنسا وكما قال الاميرال دراكس فيما بعد ، يصرون على حقهم في توزيع قواتهم ونشرها داخل بولندة ، لمجرد الرغبة في تجميد المحادثات والمماطلة فيها كسباً للوقت ليروا إذا كان بإمكانهم ان يعقدوا صفقة مع هتلر ؟ [1]

وتكشف المصادر البريطانية والفرنسية السرية ان الحليفتين الغربيتين كانتا

---

١ ــ كان عنصر التوقيت مهماً للغاية . اذ لم يتلق مولوتوف الاقتراح النازي بزيارة ريبنتروب الى موسكو إلا في مساء الخامس عشر من آب . وعلى الرغم من انه لم يقبل به قبولا واضحاً إلا انه اشار الى ان روسيا مهتمة بموضوع عقد ميثاق عدم اعتداء مع المانيا وهو الاهتمام الذي كان حرياً به ، ان يجعل من المفاوضات لعقد حلف عسكري مع فرنسا وبريطانيا أمراً لا داعي له . ولعل خير استنتاج يستطيع المؤلف الوصول اليه هو ان الروس في الرابع عشر من آب وعندما طلب فوروشيلوف « رداً جلياً » على السؤال المتعلق بالسماح للقوات للسوفياتية بمواجهة الالمان في بولندة ، كانوا لا يزالون متحررين من أي التزام ، ولم يحزموا أمرهم على الانضمام الى أي جانب . ومن سوء الحظ ان الوثائق الروسية التي في وسعها وحدها ان توضح هذه القضية المعقدة التي لم تنشر بعد . ويبدو ان ستالين على أي حال ، لم يكن قد اتخذ قراره النهائي بعد حتى مساء التاسع عشر من آب .

تتصوران في البداية أن الوفد العسكري السوفياتي ، كان يفاوضهما بنية صادقة ، وانه ينظر إلى مهمته في الحقيقة نظرة جدية للغاية ، وقد بعث السفير سيدس إلى لندن في الثالث عشر من آب أي بعد يومين من بدء المحادثات العسكرية ، ان الوفد الروسي يبدو « مهتماً كل الاهتمام بالعمل الذي عهد به اليه . » وتبدّلت نتيجة لذلك تعليمات الاميرال دراكس « بأن يمضي ببطء للغاية في مفاوضاته » ، وصدرت اليه التعليمات في الخامس عشر من آب من الحكومة البريطانية بأن يعزز دومينك ويسنده في الوصول بالمفاوضات العسكرية الى نتيجة « بأسرع وقت ممكن » . ورفعت بصورة جزئية القيود المفروضة على عدم الافضاء بمعلومات عسكرية سرية إلى الروس .

وكانت التعليمات التي أصدرها رئيس الوزارة الفرنسية ديلادييه شخصياً إلى الفريق دومينك مخالفة تمام المخالفة لتعليمات الاميرال البريطاني الاصلية بالتسويف والمماطلة ، فقد أوعز اليه بأن يبذل كل ما في وسعه للوصول إلى ميثاق عسكري مع روسيا في أسرع وقتٍ ممكن . وعلى الرغم من مخاوف البريطانيين من تسرب الاسرار إلى الالمان فإن الفريق دومينك أسرّ في اليوم الثاني من المفاوضات إلى الروس« بأرقام متناهية في السرية » على حد تعبيره، تتناول قوة الجيش الفرنسي مما دعا الاعضاء السوفيات إلى الوعد بتناسيها أو« نسيانها » فور انتهاء الاجتماع .

وابرق الفريق دومينك في السابع عشر من آب . وبعد ان انتظر ورفيقه دراكس عبثاً ثلاثة ايام طويلة التعليمات من حكومتيهما بصدد الرد على القضية البولندية ، إلى باريس يقول: « ان الاتحاد السوفياتي راغب في ميثاق عسكري... ولكنه لا يريد ان نقدم اليه مجرد قصاصة من الورق دون تعهّدات لها قيمتها. ولقد أوضح المشير فوروشيلوف بأن جميع المشاكل يمكن لها ان تعالج وان تحل دون صعوبة حالما تتم تسوية ما دعاها بالقضية المعقدة » . وراح دومينك يحث باريس بقوة على ان تضغط على وارشو لقبول العون الروسي .

وكان الاعتقاد يسود لا موسكو وحدها في ذلك الوقت بل العواصم الغربية ايضاً ، بأن الحكومتين البريطانية والفرنسية لم تقوما بأي عمل لاقناع البولنديين

بالموافقة على السماح للقوات الروسية بمواجهة الالمان على الارض البولندية . ولكن إلى الحد الكافي في سبيل هذا الاقناع . ويتضح من هـــذه الوثائق نفسها أن البولنديين تصرفوا تصرفاً بليداً يفوق حدود التصور . [1]

وفي الثامن عشر من آب ، وبعد ان جرت المحاولة الانكلو – فرنسية الأولى من وارشو لتبصير البولنديين بعواقب عنادهم ، راح وزير الخارجية بيك يقول لليون نوبل ، سفير فرنسا في وارشو ان ليست « للروس أية قيمة عسكرية . » وأيده الفريق ستاشيويكز رئيس هيئة اركان الجيش البولنـــدي في قوله هذا ، معلناً انه لا يرى « أي فائدة متوخاة من السماح لقوات الجيش الأحمر بالعمل في بولندة . »

وقابل سفير بريطانيا وفرنسا الوزير بيك مرة ثانية في اليوم التالي ، وأخذا يحثانه على قبول الاقتراح السوفياتي ، وحاول الوزير التسويف ولكنه وعدهمـا بأن يرد عليهما رداً رسمياً في اليوم التالي .وقد جاءت هذه الخطوة الانكليزية – الفرنسية المشتركة في وارشو نتيجة حديث دار صباح التاسع عشر في باريس بين بونيه وزير خارجية فرنسا وبين القائم بالأعمال البريطاني . ولعل ممـــا ادهش الدبلوماتي البريطاني ان هذا الداعية الكبير لترضية هتلر قـد استفاق الآن من غفلته خشية من ضياع روسيا كحليفة للغرب بسبب عناد البولنديـــين . وراح يقول لزائره :

« سيكون من الكوارث ان تتحطم المفاوضـــات مع الروس وتنهار نتيجة العناد البولندي... ولا ريب في أن موقف البولنديين في رفض المعونة الفعّالة والفورية الوحيدة التي بإمكانها أن تصل اليهم في حالة الهجوم الالماني ، شيء لا يصدق مطلقـاً . ولا ريب في أن هذا الموقف ايضاً يضع الحكومتين البريطـانية والفرنسية في وضع

---

١ – وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) . ومن المهـم ان يقال ان الكتاب البريطاني الازرق والكتاب الفرنسي الاصفر لم يتضمنا سطراً واحداً عن المحاولات الدبلوماتية التي جرت في وارشو لاقناع البولنديين بقبول المساعدة الروسية ولا عن سير المحادثات العسكرية في موسكو .

حرج للغاية ، إذا كنا سنطلب إلى حكومتينا الحرب دفاعاً عن بولندة التي ترفض مثل هذا العون الروسي . »

وإذا صح ما قاله الوزير ، وليس ثمة من داعٍ للشك في صحته ، فمن حقنا أن نتساءل ، لم تقاعست الحكومتان البريطانية والفرنسية في هذه اللحظة الحرجة عن فرض غاية الضغط على وارشو ، إذا كان في وسعهما ان تقولا لحكومتها أنها ما لم تقبل العون الروسي فإن بريطانيا وفرنسا لا تجدان فائدة في أن تمضيا هما إلى الحرب لمساعدتها ؟ ولم تكن معاهدة الضمان المشترك بين بريطانيا وبولندة ، قد وقعت بصورة رسمية بعد . أو لم يكن في وسع بريطانيا أن تجعل توقيعها على هذا الميثاق مشروطاً بقبول وارشو للمساعدة العسكرية الروسية ؟ [1]

واقترح بونيه في حديثه مع القائم بالأعمال البريطاني في باريس في التاسع عشر من آب مثل هذا الموقف ، ولكن حكومة لندن قابلت مثل هذه « المناورة » على حد تعبير داونينغ ستريت بالتقطيب والعبوس . إذ لم يكن تشمبرلين وهاليفاكس على استعداد للمضي إلى هذا الحد .

وابلغ رئيس هيئة اركان حرب الجيش البولندي الملحق العسكري البريطاني في وارشو صبيحة العشرين من آب ان بولندة « لن توافق بأي حال من الاحوال على قبول دخول القوات السوفياتية إلى بلادها . » . ورفض الوزير بيك في مساء اليوم نفسه الطلب الانكليزي ــ الفرنسي المشترك رفضاً رسمياً. وعاد هاليفاكس

---

١ ــ كان لويد جورج ،في خطاب القاه في مجلس العموم في الثالث من نيسان ، اي بعد اربعة ايام من اعلان تشمبرلين الضمانة من جانب واحد لبولندة ، قد اقترح على الحكومة البريطانية ان تطلب هذا الشرط من بولندة . فلقد قال : « واذا كنا سنخوض الحرب دون مساعدة روسيا ، فإننا نكون كمن يسير بنفسه الى شراك . ان روسيا هي البلاد الوحيدة التي تستطيع جيوشها ان تصل الى بولندة . . . وليس في مكنتي ان افهم كيف اننا لم نضمن مسبقاً انضمام روسيا وتأييدها قبل ان نربط انفسنا بهذا الالتزام في مشروع هائل كهذا . . . واذا لم تكن روسيا قد ادخلت في في هذه القضية بدافع مشاعر معينة من ان البولنديون لا يريدون الروس في بلادهم ، فان من حقنا ان نفرض الشروط ، وما لم يقبل البولنديون هذا الشرط الوحيد الذي يمكننا من مساعدتهم بنجاح فإن المسؤولية تقع على عواتقهم وحدهم . »

في عين الليلة يحث عن طريق سفيره في وارشو ، وزير خارجيـــة بولندة ، على إعادة النظر في موقفه ، مؤكداً له بعبارات قوية ان الموقف البولندي « يحطم » المحادثات العسكرية في موسكو . ولكن بيك كان متصلباً كل التصلب في رأيه . وقال للسفير ... « لا يسعني الموافقة ابداً على قيام أي نوع من المحادثات حول استخدام القوات الاجنبية لأي جزء من بلادنا . فليس بيننا وبين الاتحـــاد السوفياتي أي اتفاق عسكري ، ونحن لا نريد هذا الاتفاق ابداً . »

وأحس ديلادييه رئيس الوزارة الفرنسية باليأس من هـــذا العرض الواضح للعناد الأعمى ، من جانب الحكومة البولندية ، فقرر ، طبقاً لبيـان أدلى به في الجمعية التأسيسية الفرنسية في الثامن عشر من تموز عام ١٩٦٤ ، أن يتولى القضية بنفسه . وبعد أن ناشد البولنديين مرة أخرى أن يكونوا واقعيـين ، أبرق إلى الفريق دومينك صباح الواحد والعشرين من آب ، مخولاً إياه توقيـع افضل مـا يمكنه الوصول اليه من مواثيق عسكرية مع روسيا ، مع النص في الميثـاق عـلى وجوب موافقة الحكومة الفرنسية عليه . وصدرت التعليمات في الوقت نفسه من بونيه وزير الخـــارجية إلى سفيره في موسكو بول أميل ناجيار ، بأن يبلـــغ مولوتوف ، طبقاً لتصريح صدر عن السفير فيما بعـــد ، أن فرنسا توافق « من ناحية المبدأ » على عبور القوات السوفياتية أراضي بولندة في حالة وقوع هجوم الماني .

ولكن هذه الايماءة كانت باطلة لا قيمة لها طالما أن البولنديـــين انفسهم لم يوافقوا على ذلك ، كما كانت ايماءة غير مجدية ، كما نعرف اليوم ، على ضوء مـــا وصلت اليه المساومات الروسية الالمانية . ولم يتلق دومينك برقية ديـلادييه الا في ساعة متأخرة من مساء الواحد والعشرين من آب . وعندما عرضها على مسامع فوروشيلوف مساء اليوم التالي أي عشية سفر ريبنتروب إلى موسكو ، كان المشير السوفياتي كثير الشكوك . فقـد طلب من الفريق الفرنسي ان يطلعه على صورة التخويل الصادر اليه بأن يقول - كما قال فعلاً - بأن الحكومة الفرنسية خولته توقيـع ميثاق عسكري يسمح بمرور القوات الروسية عـــبر بولندة . ولكن

دومينك رفض هذا الطلب كما يبدو ، واراد فوروشيلوف أن يعرف بعد ذلك رد بريطانيا وما إذا كانت بولندة قد وافقت على ذلك. وكانت هذه الأسئلة بالطبع محرجة كل الاحراج، واكتفى الفريق الفرنسي بالرد بأنه لم يتلق اية معلومات عن ذلك.

وكانت الأسئلة والردود قد فقدت في هذه الآونة أهميتها وواقعها إذ جاءت متأخرة . وها هو ريبنتروب في طريقه الآن إلى موسكو . وقد اعلن عن هذه الزيارة رسمياً في الليلة الفائتة ، كما اعلن عن الهدف منها ، وهو عقد ميثاق عدم اعتداء بين المانيا النازية والاتحاد السوفياتي .

وحاول فوروشيلوف الذي يبدو وكأنه قد احب القائد الفرنسي حباً اصيلاً ، ان يفهمه بلطف وكياسة أن اتصالاتها قد اوشكت على نهايتها فقال له :

« وكل ما اخشاه شيء واحد . لقد سمح الجانبان الفرنسي والبريطاني للمحادثات السياسية والعسكرية بأن تمتد اكثر من اللزوم. ولهذا يجب أن نتوقع في هذا الوقت حدوث تطورات سياسية معينة . »[1]

---

١ ـ طلب فوروشيلوف في الجلسة التي عقدها المفاوضون العسكريون في صباح اليوم الفائت أي في الواحد والعشرين من آب تأجيل المحادثات إلى اجل غير مسمى ،بحجة اضطراره هو وزملاؤه إلى التغيب للاشتراك في مناورات الخريف . وعندما احتج المفاوضون البريطانيون والفرنسيون على هذا التأجيل رد المشير الروسي قائلا : « لقد كانت نوايا الوفد السوفياتي وما زالت ، تهدف إلى الاتفاق على تنظيم التعاون العسكري بين القوات المسلحة للفرقاء الثلاثة . . . ولما كان الاتحاد السوفياتي يفتقر إلى الحدود المشتركة مع المانيا فإن السبيل الوحيد لتقديمه العون إلى فرنسا وبريطانيا وبولندة ورومانيا يكون عن طريق السماح لقواته بحق المرور عبر الاراضي البولندية والرومانية . . . وليس في مكنة القوات السوفياتية التعاون مع قوات بريطانيا وفرنسا المسلحة إلا إذا سمح لها بدخول الاراضي البولندية والرومانية . . . ولا يستطيع الوفد العسكري السوفياتي ان يتصور كيف أن حكومتي بريطانيا وفرنسا وهيئتي اركان حربها في إرسالها للبعثتين العسكريتين إلى الاتحاد السوفياتي . . . قد اهملتا تزويد هاتين البعثتين بالتوجيهات اللازمة والمتعلقة بمثل هذه القضية البدهية . . . وكل ما نستطيع استنتاجه من ذلك ان هناك اسباباً تدعونا إلى الشك في رغبتها في الوصول إلى تعاون جدي وفعال مع الاتحاد السوفياتي . »

ولا ريب في ان منطق المشير السوفياتي في هذه الاقوال سليم كل السلامة ، ولا ريب في ان فشل الحكومة الفرنسية والحكومة البريطانية بصورة خاصة في الرد عليه، كان مفجعاً. ولكن تكرار=

ريبنتروب في موسكو
٢٣ آب ١٩٣٩

وبالفعل حدثت هذه « التطورات السياسية المعينة » الآن .

ففي الثاني والعشرين من آب استقل ريبنتروب الطائرة إلى موسكو مزوداً من هتلر بالصلاحيات الخطية الكاملة لعقد معاهدة عدم اعتداء « وأية اتفاقات أُخرى » مع الاتحاد السوفياتي على أن تصبح سارية المفعول فور توقيعها . وقضى الفريق الألماني الكبير العدد الليل في كونيغسبرغ في بروسيا الشرقية ، حيث عمل وزير الخارجية النازي ، كما ذكر الدكتور شميدت طيلة الليل في التحدث هاتفياً إلى برلين وبرختسغادن وفي إعداد ما يحتاج إليه من ملاحظات وافرة تمهيداً لمحادثاته المقبلة مع ستالين ومولوتوف .

ووصلت طائرتا النقل الكبيرتان من طراز « كوندور » تحمل الوفد الألماني إلى موسكو ظهر الثالث والعشرين من آب ، وبعد أن تناول ريبنتروب وجبة عاجلة في السفارة الألمانية سارع إلى الكرملين لمقابلة الديكتاتور السوفياتي ووزير خارجيته . وقد استغرق الاجتماع الاول ثلاث ساعات ، وابرق ريبنتروب بعده برسالة « عاجلة للغاية » إلى هتلر يبلغه فيها أن المحادثات سارت سيراً مرضياً للألمان . [١] وإذا ما حكمنا على الأمور من البرقية التي بعث بها الوزير الألماني ، تبيَّن لنا أنه لم تقم أية صعوبة في طريق الوصول إلى اتفاق على شروط ميثاق عدم الاعتداء الذي يضمن بقاء الاتحاد السوفياتي بعيداً عن حرب هتلر . وكانت الصعوبة الوحيدة التي ذكرها في رسالته في الواقع ، تافهة للغاية وتتعلق باقتسام الغنائم. فلقد طالب الروس كما قال ، باعتراف المانيا بأن مينائي ليباو وويندواو

=هذه الاقوال كلها ، في مثل هذا التاريخ المتأخر اي في الواحد والعشرين من آب ، وبعد ان كان فوروشيلوف قد عرف حقاً بقرار ستالين في التاسع عشر من آب ، لا بد وان يكون منطوياً على الخداع .

١ـ برقية ريبنتروب الساعة ٩ ، ٥ مساء ٢٣ آب وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٢٢٠

الصغيرين في لاتفيا يقعان في « منطقة مصالحه » . ولما كانت لاتفيا كلها ستضم إلى منطقة مصالح الاتحاد السوفياتي على ضوء خط تقسيم المصالح بين الدولتين ، فإن هذا الطلب لا يشكل أية عقبة ولذا فقد وافق عليه هتلر فوراً . وابلغ ريبنتروب الفوهرر ايضاً بعد الاجتماع الأول « بأن من المحتمل التوقيع على ملحق سري يحدد مناطق المصالح والنفوذ المشتركة في جميع ارجاء اوروبا الشرقية . »

وانتهى العمل كله ، ووقعت معاهدة عدم الاعتداء والملحق السري في الاجتماع الثاني الذي عقد في الكرملين في ساعة متأخرة من تلك الليلة . وهكذا تم الوصول بسهولة الى اتفاق بين الالمان والروس . ولم تتسم هذه الجلسة المرحة التي استطالت حتى الساعات المبكرة من الصباح التالي ، بطابع المساومة القاسية بل بطابع الاحاديث الودية والدافئة عن اوضاع العالم ، دولة بعد دولة ، وبتبادل الانخاب المألوفة والتي لا بد منها في أية حفلات مرحة في الكرملين . وقد سجلت مذكرة المانية سرية كتبها احد اعضاء الوفد الالماني الذي شهد الاجتماع ، المنظر الذي لا يكاد يصدق والذي بدا في هذا الاجتماع .[1]

فعندما تساءل ستالين عن مطامع شريكتي المانيا ، أي ايطاليا واليابان . رد ريبنتروب ردوداً مطمئنة هوائية . وسرعان ما وجد الديكتاتور السوفياتي ووزير الخارجية النازي الذي كان في أحسن اوضاعه السلوكية ، نفسيهما على اتفاق تام في موضوع انكلترا . وأسر ستالين لضيفه ان البعثة العسكرية البريطانية الموجودة في موسكو « لم تبلغ الحكومة السوفياتية قط حقيقة ما تطلبه » . ورد ريبنتروب مؤكداً أن بريطانيا حاولت دائماً تشويه العلاقات بين المانيا والاتحاد السوفياتي . وراح يزهو بقوته قائلاً : « إن انكلترا ضعيفة ، وهي تريد من الآخرين ان يحاربوا دفاعاً عن ادعائها المغرور بالسيطرة على العالم . »

وتقول المذكرة الالمانية ان ستالين سرعان ما وافق على قول ضيفه ، واضاف

---

١ ــ المذكرة الالمانية السرية بتاريخ ٢٤ آب . وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٢٢٥ ــ ٢٢٩) .

ان « تمكن بريطانيا من تحقيق سيطرتها على العالم راجع إلى بلادة الدول الأخرى التي سمحت لنفسها دائماً بأن تكون عرضة للبلف والخداع . »

وكان الحاكم السوفياتي ووزير خارجية هتلر قد وصلا الآن إلى مرحلة من التفاهم الرائع ، بحيث لم يعد لعبارة ميثاق مكافحة الشيوعية أي أثر في مضايقتهما. ولقد أوضح ريبنتروب ثانية أن الميثاق لم يكن موجهاً في الحقيقة ضد روسيا وانما ضد الدول الديموقراطية الغربية . وقاطعه ستالين ليقول « ان ميثاق مكافحة الشيوعية قد أثار الفزع اكثر ما يكون في مدينة لندن (اشارة إلى رجال المال في حي السيتي » ، كما اخاف اصحاب الحوانيت الانكليز . »

وتكشف المذكرة الالمانية عن ان ريبنتروب أحس في هذه اللحظة بالكثير من المرح ، لدى استماعه إلى اقوال ستالين المرضية وطريقته المرحة ، فأراد ان يحاول المزاح ، مخالفاً بذلك طبيعته الجدّية التي لا تعرف النكتة . ومضت المذكرة تقول :

« وقد رد وزير خارجية الرايخ مازحاً بأن ستالين كان في الحقيقة أقل فزعاً من ميثاق مكافحة الشيوعية من رجال المال في لندن واصحاب الحوانيت في انكلترا . ولا ريب في أن رأي الشعب الالماني في هذه القضية يتمثل في النكتة التي صدرت عن أهل برلين المعروفين بذكائهم ومرحهم وميلهم إلى المزاح ، والتي تقول ان ستالين سينضم ايضاً إلى ميثاق مكافحة الشيوعية . »

وراح الوزير النازي يؤكد في النهاية الحرارة التي استقبل بها الشعب الألماني التفاهم مع روسيا ، وتقول الوثيقة الالمانية ان المسيو ستالين رد قائلاً : « انه يصدق هذا القول تمام التصديق إذ ان الألمان يريدون السلام فعلاً . »

وتطورت هذه الصورة الحمقاء نحو الاسوأ مع اقتراب موعد تبادل الانخاب .

« ورفع المسيو ستالين كأسه يشرب تلقائياً نخب الفوهرر وقال:

« انني اعرف الحب العظيم الذي يحمله الشعب الالماني لزعيمه الفوهرر : ولذا فانني أود ان أشرب نخب صحته . »

« وشرب المسيو مولوتوف نخب وزير خارجية الرايخ .... ثم شرب مولوتوف وستالين مرات عدة نخب ميثاق عدم الاعتداء والعهد الجديد في العلاقات الألمانية ـ الروسية ونخب الشعب الألماني «واقترح وزير خارجية الرايخ أن يشرب الحاضرون بدورهم نخب المسيو ستالين ، ونخب الحكومة السوفياتية ، والتطور الرائع للعلاقات بين المانيا والاتحاد السوفياتي . »

ومع ذلك ، وعلى الرغم من هذا التبادل الحار للانخاب بين هؤلاء الذين كانوا حتى عهد قريب من ألد الأعداء ، فإن ستالين بدا وكأنه لا يزال يحتفظ ببعض الشكوك العقلية بالنسبة إلى تمسك النازيين بالميثاق . فعندما اوشك ريبنتروب على مغادرة المكان ، انتحى به ستالين جانباً وقال : « تنظر الحكومة السوفياتية إلى هذا الميثاق الجديد نظرة جدية . وفي وسعي ان اضمن بشرفي ان الاتحاد السوفياتي لن يخون شريكه فيه . »

ولكن ترى ما الذي وقعه الشريكان الجديدان ؟

لقد حملت المعاهدة العلنية تعهداً بأن لا تقوم أي من الدولتين بمهاجمة الدولة الاخرى . ولو تعرضت إحداهما « إلى عمل حربي معاد » من دولة ثالثة فإن الفريق الثاني لا يقدم أي عون بأي شكل من الأشكال لهذه « الدولة الثالثة. » وتعهدت الدولتان بأن « لا تنضم أي منهما إلى أي تجمّع دولي مهما كان شكله يوجّه بصورة مباشرة أو لا مباشرة ضد الدولة الثانية . » [1]

---

١ ـ كانت عبارات المواد الاساسية في الميثاق مماثلة تمام المماثلة لمشروع الميثاق السوفياتي الذي قدمه مولوتوف الى شولنبرغ في التاسع عشر من آب ، والذي ذكر هتلر في برقيته لستالين قبوله به . وكان المشروع السوفياتي قد نص على ان معاهدة عدم الاعتداء تصبح سارية المفعول فقط في حالة التوقيع في نفس الوقت على« ملحق خاص » لا يتجزأ من الميثاق نفسه(وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ١٥٠ ـ ١٥١) .

ويقول فريدريش غاوس الذي اشترك في جلسة المساء . ان ستالين اصر على رفض المقدمة المنمقة التي اراد ريبنتروب ادخالها ليؤكد فيها قيام علاقات ودية بين المانيا والاتحاد السوفياتي، واحتج الديكتاتور السوفياتي بأن ليس في وسع « الحكومة السوفياتية ان تقدم الى شعبها على هذا النحو المفاجىء مثل هذه التأكيدات عن الصداقة ، بعد ان كانت قد تعرضت لأكوام من =

وهكذا حصل هتلر على ما أراده، وهو موافقة الحكومة السوفياتية الفوري على عدم الاشتراك مع بريطانيا وفرنسا، إذا شاءت هاتان الدولتان الوفاء بالتزاماتها والمسارعة إلى مساعدة بولندة في حالة تعرضها للهجوم.[1]

أما الثمن الذي دفعه، فقد تحدد في «الملحق الاضافي السري» الذي اعتبر جزءاً من الميثاق وهذا نصه:

«بمناسبة توقيع معاهدة عدم الاعتداء بين المانيا والاتحاد السوفياتي بحث المفوّضون الموقعون على هذا الملحق، في محادثات سرية مغلقة، موضوع تخطيط الحدود لمناطق مصالحها في اوروبا الشرقية.

«١ – في حالة وقوع تحوّل اقليمي وسياسي في المناطق التي تمت إلى دول البلطيق (فنلندة، ايستونيا، لاتفيا، ليتوانيا)، تمثل الحدود الشمالية لليتوانيا الخط الفاصل بين منطقتي المصالح لكل من المانيا والاتحاد السوفياتي.

«٢ – في حالة وقوع تحول اقليمي وسياسي في الاراضي التي تمت إلى الدولة البولندية، فإن خط الحدود الذي يفصل مناطق المصالح والنفوذ بين المانيا والاتحاد السوفياتي سيكون محاذياً على وجه التقريب الخط الذي تؤلفه انهار نارو والفستولا وسان.

«اما الموضوع المتعلق بما إذا كانت مصالح الفريقين المتعاقدين تجعل من المرغوب فيه الحفاظ على وجود دولة بولندية مستقلة، وبحدود هذه الدولة، فيمكن تقريره نهائياً في مجال التطورات

=القاذورات ظلت الحكومة النازية تصبها عليها اكثر من ست سنوات (شهادة غاوس المشفوعة باليمين في نورمبرغ ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٣١٢).

١ ـ نصت المادة السابعة من المعاهدة على ان تصبح سارية المفعول فور توقيعها. اما الابرام الرسمي في مثل هاتين الدولتين الجماعيتين المتعاقدتين، فلم يكن إلا مجرد شكليات ليس إلا وان كانت ستستغرق بضعة ايام على اي حال. وقد اصر هتلر على هذا النص، رغبة منه في الاستعجال دون انتظار الابرام الرسمي.

السياسية المقبلة .

« على أي حال تقوم الحكومتان بتقرير هـذا الموضوع بواسطة تفاهم ودي متبادل . »

وهكذا اتفقت المانيا وروسيا مرة اخرى كما في ايام الملوك والأباطرة الروس على تقسيم بولندة . وهكذا سمح هتلر ايضاً لستالين بحرية التصرف في الجزء الشرقي من بحر البلطيق .

واكد الروس في النهاية ، وبالنسبة إلى جنوب اوروبا الشرقي وجود مصالح لهم في بسارابيا التي استولت عليها رومانيا في عام ١٩١٩ ، وأعلن الألمان أن لا مصالح لهم في هذه المنطقة ، وهو تساهل سرعان ما تحتم على ريبنتروب أن يندم عليه .

وانتهت الوثيقة إلى القول : « ويعامل الفريقان هـذا الملحق كوثيقة سرية للغاية . »[١]

وبالفعل لم تعرف محتويات هذا الملحق إلا بعد انتهاء الحـرب وعن طريق الاستيلاء على الوثائق الألمانية السرية .

وطلبت البعثتـان العسكريتان الحليفتان في اليوم التالي أي في الرابـع والعشرين من آب ، وكان ريبنتروب المنتصر ، يقطع الفضاء عائداً إلى برلـين ، مقابلة فوروشيلوف . وكان الاميرال دراكس قد بعث بالفعل برسالة عـاجلة إلى المشير يطلب اليه بيان وجهات نظره في موضوع استمرار المحادثات .

وسلّم فوروشيلوف إلى الوفدين العسكريين البريطـاني والفرنسي في الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التالي ، الخامس والعشرين من آب الرسـالة التـالية : « بالنظر إلى الوضع السياسي المتبدّل . فلم يعد هناك مـبرر مفيد لاستمرار المحادثات . »

وبعد عامين اثنين ، وكانت القوات الألمانية تتدفق زاحفة على روسيـا ، مخترقة بذلك هذا الميثاق . وجد ستالين أن في مكنته ايضاً تبرير صفقته الكريهة

---

١ ـ نص ميثاق عدم الاعتداء والملحق السري وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٢٤٥-٢٤٧)

مع هتلر، وهي الصفقة التي عقدها وراء ظهور اعضاء الوفدين العسكريين البريطاني والفرنسي الذين أمّوا موسكو للتفاوض مع حكومتها وقال متبجحاً في اذاعة وجهها إلى الشعب الروسي في الثالث من تموز عام ١٩٤١ ... : « لقد ضمنا السلام لبلادنا بذلك الميثاق عاماً ونصف العام ، كما اتحنا لأنفسنا الفرصة لإعداد قواتنا للدفاع عن البلاد في حالة مجازفة المانيا الفاشية بمهاجمتها ، مناقضة بذلك الميثاق الذي عقدته معنا . ولا ريب أننا كسبنا بذلك كسباً واضحاً لبلادنا كما كان الميثاق خسارة لألمانيا الفاشية . »

ولكن هل صحيح ما قاله ستالين ؟ وهل كان الميثاق خسارة لألمانيا ؟ لقد نوقشت هذه النقطة عشرات المرات منذ ذلك التاريخ . أما ان هذه الصفقة السرية الغريبة قد اتاحت لستالين مجال التنفس والاستعداد الذي أتاحته معاهدة تلسيت في عام ١٨٠٧ للقيصر الاسكندر الأول من نابوليون أو ذاك الذي أتاحته معاهدة بريست ليتوفسك في ١٩١٧ للينين من الألمان ، فهذا واضح كل الوضوح . وقد اتاح للاتحاد السوفياتي كذلك وبعد فترة قصيرة تقديم خطوطه الدفاعية ضد المانيا إلى ما وراء حدود روسيا الحالية ، شاملة ايضاً القواعد في دول البلطيق وفنلندة ، وذلك على حساب البولنديين واللاتفيين والايستونيين والفنلنديين . ولعل ما هو أهم من ذلك كله ، كما أكد الكتاب السوفياتي الرسمي « تاريخ الدبلوماتية » فيما بعد ، هو أن هذا الميثاق قد ضمن للكرملين في حالة تعرض روسيا فيما بعد لهجوم المانيا ، وجود الدولتين الغربيتين في الحرب بصورة قاطعة ضد الرايخ الثالث ، وبهذا لا يقف الاتحاد السوفياتي وحيداً ضد القوة الألمانية الطاغية ، وهو ما كان يخشاه ستالين كل الخشية طيلة صيف عام ١٩٣٩ .

وليس ثمة من شك في صحة جميع هذه الحجج . ولكن هناك جانباً آخر للقضية ، ففي الوقت الذي استدار فيه هتلر لمهاجمة روسيا ، كانت جيوش بولندة وفرنسا ، والحملة البريطانية في القارة قد تحطمت ، وكانت المانيا قد غدت مسيطرة على جميع ما في اوروبا من موارد ، ولم تكن هناك جبهة غربية تستطيع إرباكها وتقييد يديها . وقد تركزت شكاوى ستالين المرة طيلة اعوام

١٩٤١ و ١٩٤٢ و ١٩٤٣ من عدم وجود جبهة ثانية في اوروبا ضد المانيا ، وان روسيا تجد نفسها مضطرة لاحتمال اعباء الهجوم الذي يقوم به الجيش الالمـــاني بمجموعه تقريباً . أما في عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٠ ، فقد كانت هناك جبهة غربية تجتذب القوات الالمانية وتستأثر بإهتمامها . وما كانت بولندة لتنهار وتجتاح في غضون اسبوعين لو ان الروس قد سندوها بدلاً من ان يطعنوهـــا في ظهرها . يضاف إلى هذا ان الحرب كلها ما كانت لتنشب على الغالب لو ان هتلر قد عرف بأن عليه ان يواجه روسيا بالاضافة الى بولندة وانكلترا وفرنسا . وكان من المحتمل ايضاً ان يقوم الفرقاء (الجنرالات) الالمان الجبناء سياسياً ، اذا حكم المرء على ضوء شهاداتهم اللاحقة في نورمبرغ ، بإظهار معارضتهم الصلبة لشن حرب ضد مثل هذا التحالف القوي الضخم . ويروي السفير الفرنسي في برلين ان كلاً من كايتل وبراوختاش قد حذرا هتلر في نهاية شهر ايار تقريباً من ان المانيـا لا تستطيـع ان تنتصر في حرب تشترك فيها روسيا إلى جانب العدو .

وليس في وسع أي من رجال الحكم والسياسة حتى ولو كانوا من الديكتاتورين ان يتكهنوا بسير الاحداث مدة طويلة من الزمن . ومن حق المرء ان يناقش ، كما ناقش تشرشل نفسه ، هذه الخطوة المدروسة المتعمدة التي خطاهـــا ستالين عندما عقد صفقته مع هتلر ، فلقد كانت « في تلك اللحظة واقعيـــة إلى حدٍ كبير »[١] . إذ كان الهم الأول والأخير لستالين كما لغيره من رؤساء الحكومات ان يضمن سلامة بلاده . ولقد كان مقتنعاً في صيف عـــام ١٩٣٩ ، كما ذكر لتشرشل فيما بعد ، من ان هتلر حزم امره على خوض الحرب . وكان عازماً كل العزم على ان لا يسمح لروسيا بأن تذهب ضحية المناورات وان توضع في موقف يحتم عليها ان تواجه الجيش الالماني وحدها . ولذا فقد رأى ستالين انه إذا تعذر إقامة حلف متين مع الغرب ، فإن في وسعه ان يستدير نحو هتلر الذي اخـــذ يقرع بابه بصورة مفاجئة .

ولم تحل نهاية تموز عام ١٩٣٩ ، حتى كان ستالين قد اقتنع كما هو واضح ، لا

---

١ ــ تشرشل ــ مذكرات . ص ٣٩٤ .

من ان فرنسا وبريطانيا لا تريدان حلفاً ملزماً مع روسيا فحسب ، بل وبأن ما تسعى اليه حكومة تشمبرلين في بريطانيا ، هو اقناع هتلر بشن حروبه في شرق اوروبا . وكان يشك كل الشك في ان بريطانيا ستحترم ضمانتها لبولندة ، اكثر من احترام فرنسا لضمانتها السابقة لتشيكوسلوفاكيا . وادى كل ما وقع في الغرب في غضون السنتين الماضيتين إلى زيادة شكوكه ومخاوفه ، كرفض تشمبرلين للاقتراحات السوفياتية بعد ضم النمسا ، وبعد احتلال النازيين لتشيكوسلوفاكيا ورفضه ايضاً عقد مؤتمر يتولى وضع الخطط اللازمة لوقف أي عدوان نازي جديد، وقيامه كذلك – أي تشمبرلين – بتلك العملية الغريبة من الترضية لهتلر في مؤتمر ميونيخ الذي حرمت روسيا من حضوره ، وعمليات التسويف والتأجيل التي اتبعها في التفاوض على عقد حلف دفاعي ضد المانيا مع مرور ايام صيف عام ١٩٣٩ القدرية.

وكان هناك شيء واحد . بات مؤكداً لكل انسان باستثناء تشمبرلين ، هو افلاس الدبلوماتية الانكليزية – الفرنسية . فهذه الدبلوماتية التي تذبذبت وترنحت كلما قام هتلر بحركة من حركاته قد افلست الآن كل الافلاس . [1] وقد تراجعت الدولتان الديموقراطيتان الغربيتان خطوة خطوة ، كلما قام هتلر بتحديها ، كإعلانه التجنيد العام الالزامي في عام ١٩٣٥ ، واحتلاله منطقة الراين في عام ١٩٣٦ ، ومطالبته بأراضي السوديت وحصوله عليها في نفس العام ، ووقوفها موقف الضعيف الخائر الذي لا يستطيع عمل شيء عندما وضع يده على ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا في آذار عام ١٩٣٩ . ولو ظل الاتحاد السوفياتي إلى جانبها لكان في إمكانها إقناع الديكتاتور الألماني بعدم شن الحرب ، أما لو فشلنا في ذلك ، لكان في إمكانها أن تهزماه في صراع مسلح وبسرعة نسبية معقولة . ولكنها سمحتا بضياع هذه الفرصة الاخيرة من أيديها . [2] أما الآن فقد باتتا

---

١ – وينطبق هذا القول على الدبلوماتية البولندية ايضاً . فقد نقل السفير الفرنسي نوبل الى باريس رد فعل بيك وزير الخارجية البولندية على الميثاق النازي السوفياتي فقال : « لا يبدو على بيك اي اضطراب او قلق مطلقاً . وهو يعتقد بعدم وجود كبير تبدل في الجوهر . »

٢ – وقد وقع هذا على الرغم من التحذيرات الكثيرة التي تلقتها الدولتان الغربيتان كما رأينا من=

ملتزمتين في أسوأ الظروف والاحوال ، بالمسارعة إلى نجدة بولندة عند تعرضها للهجوم .

وارتفعت في كل من لندن وباريس حملات السباب والشتائم على الدور المخادع الذي لعبه ستالين ، وكانت مشفوعة بالمرارة والألم . وكان الطاغية السوفياتي قد حمل لواء الهجوم سنوات طويلة على « الوحوش الفاشيين» داعياً جميع الدول المحبة للسلام إلى التعاون معاً لوقف العدوان النازي . أما الآن فقد بات اداة لهتلر يستخدمها في أغراضه . وكان في وسع الاتحاد السوفياتي ان يرد على هذه

=قبل ، من ان هتلر يحاول التقرب من الكرملين . ففي الاول من حزيران ابلغ المسيو كولوندر سفير فرنسا في برلين وزير خارجيته بونيه بأن روسيا اخذت تحتل مكانة اكبر واكبر في تفكير هتلر . ومضى السفير يقول : « سيغامر هتلر بشن الحرب إذا تخلص من خطر محاربة روسيا . اما إذا تأكد من انها ستحاربه ايضاً ، فإنه سيتراجع حتماً مخافة تعريض نفسه وبلاده وحزبه إلى الخراب والدمار . » وحث السفير على وجوب الوصول بالمفاوضات الانكليزية ـ الفرنسية في موسكو إلى نهاية ناجحة وسريعة ، واكد لحكومته ان السفير البريطاني في برلين قد رفع نداءاً مماثلا إلى حكومته في لندن (الكتاب الفرنسي الاصفر ـ الطبعة الفرنسية . ص ١٨٠ - ١٨١) .

وقابل كل من كولوندر وهندرسون في الخامس عشر من آب وايزساكر في وزارة الخارجية في برلين . وابلغ السفير البريطاني حكومته في لندن ان وزير الدولة الالماني مقتنع بأن الاتحاد السوفياتي « سينضم اخيراً إلى المانيا في اقتسام الغنائم البولندية » (الكتاب البريطاني الازرق ص٩١). وابرق كولوندر ايضاً إلى باريس بعد مقابلته لوايزساكر يقول : « من الضروري جداً الوصول إلى حل ما للمحادثات مع روسيا في اسرع وقت ممكن » (الكتاب الفرنسي الازرق ص ٢٨٢) .

وواصل لورنس ستاينهاردت السفير الامريكي في موسكو طيلة شهري حزيران وتموز ، ارسال التحذيرات إلى واشنطن بتوقع عقد صفقة قريبة بين النازيين والسوفيات ، وتولى الرئيس روزفلت نقل هذه المعلومات إلى سفارات بريطانيا وفرنسا وبولندة في الولايات المتحدة . وعندما غادر السفير السوفياتي قسطنطين اومانسكي ، واشنطن إلى بلاده حمل معه رسالة من روزفلت إلى ستالين تحذره من الاتفاق مع هتلر مؤكداً « انه في مثل هذه الحالة ، فإنه على ثقة كثقته من حلول الليل بعد النهار من ان هتلر بعد ان ينتهي من احتلال فرنسا ، سيستدير نحو روسيا للسيطرة عليها » (جوزيف ديفيز بعثة إلى موسكو ص ٤٥٠ . وقد ارسل تحذير الرئيس بطريق البرق ايضاً الى ستاينهاردت في موسكو مع التعليمات اللازمة بتولي نقلها الى مولوتوف ، وهو ما نفذه السفير فعلا في السادس عشر من آب . (اوراق الولايات المتحدة الدبلوماتية . ١٩٣٩ (١) ص ٢٩٦ - ٢٩٩) .

الاتهامات محتجاً بأنه لم يفعل اكثر مما فعلته بريطانيا وفرنسا في ميونيخ قبل نحوٍ من عام ، وانه اشترى السلام وفسحة من الوقت ، ليسلح نفسه ضد المانيا على حساب دولة صغيرة . واذا كان تشمبرلين على حق ، وكان شريفاً في ترضية هتلر في ايلول عام ١٩٣٨ على حساب التضحية بتشيكوسلوفاكيا ، أمن المنطق ان يعتبر ستالين مخطئاً ، وغير شريف ، في ترضية الفوهرر بعد نحو من سنة على حساب بولندة ، التي احتقرت المساعدة السوفياتية ورفضتها على أي حال من الاحوال ؟ (١)

ولم تكن صفقة ستالين السرية والحقيرة مع هتلر على اقتسام بولندة ، والحصول على حرية العمل لابتلاع لاتفيا وايستونيا وفنلندة وبسارابيا ، معروفة خارج برلين وموسكو . ولكن سرعان ما اتضحت هذه الصفقة من اعمال السوفيات انفسهم ، فأثارت الاشمئزاز في معظم انحاء العالم حتى في هذا الوقت المتأخر . وقد يكون في وسع الروس ان يقولوا كما قالوا بالفعل انهم كانوا يستعيدون مناطق انتزعت منهم في نهاية الحرب الكونية الأولى. ولكن شعوب هذه المناطق ليسوا من الروس ، ولم يكونوا قد ابدوا أية رغبة في العودة إلى روسيا. وكان في وسع القوة وحدها ، التي تنكّب الروس سبيلها أيام لتفينوف الذهبية ، ان تستعيد هذه المناطق .

ولقد بنى الروس لأنفسهم منذ انضمامهم إلى عصبة الامم قوة معنوية معينة ، وشيدوا سمعتهم على انهم حماة السلام والمدافعون عنه، والخصوم الاشداء للعدوان الفاشي . أما الآن فقد تمت تصفية هذا الرأسمال ، من القوة المعنوية .

يضاف إلى هذا ان ستالين بموافقته على الصفقة الزائفة التي عقدت مع المانيا

---

١ ـ يؤثر المؤلف هنا ان ينقل آراء الغرب والاتحاد السوفياتي وحدها دون ان يعلق عليها او يتخذ قراره فيها . وقد يكون من الموضوعية ان ينقل المؤلف الآراء المتضاربة ، ولكن اصدار حكمه الشخصي عليها ، لا سيما في مثل هذه الناحية المهمة التي يعالجها ، لا يخرج عن حدود الموضوعية ابداً . ـ المعرب ـ

النازية ، قد اعطى اشارة الانطلاق للبدء في حرب كان من المؤكد تحولها الى إلى صراع عالمي . وليس ثمة من شك في ان هتلر كان يعرف هذه الحقيقة .[1] ولقد اثبتت الأيام ان عمله هذا كان اكبر خطأ ارتكبه في حياته .

---

١ ـــ كان هتلر قد تنبأ منذ سنوات طويلة في كتابه « كفاحي » بما يلي : « لا ريب في ان التوصل الى تحالف مع روسيا ينطوي على وضع خطة الحرب المقبلة . ولا ريب في ان نتيجة هذه الحرب ستؤدي الى نهاية المانيا » ص ٦٦٠ من طبعة هوتون ميفلين لعام ١٩٤٣ من الكتاب .

١٦

آخر أيام السلام

لم تقف الحكومة البريطانية مكتوفة الأيدي في انتظار التوقيع الرسمي على الميثاق النازي السوفياتي في موسكو . إذ ان البيان الرسمي الذي صدر عن برلين في ساعة متأخرة من مساء الواحد والعشرين من آب معلناً اعتزام ريبنتروب الطيران إلى موسكو لعقد اتفاق بين المانيا والاتحاد السوفياتي ، قد استفز الوزارة البريطانية إلى العمل . وعقد مجلس الوزراء في الساعة الثالثة بعد ظهر الثاني والعشرين من آب جلسة صدر على أثر انتهائها بلاغ رسمي يعلن بصورة جلية واضحة أن عقد ميثاق عدم اعتداء بين روسيا والمانيا « لن يؤثر بأي حال من الأحوال على التزامات بريطانيا تجاه بولندا ، التي كثيراً ما اعلنت عنها ، والتي تعتزم تنفيذها بشكل قاطع . » ووجهت الوزارة في الوقت نفسه دعوة إلى البرلمان للاجتماع في الرابع والعشرين من الشهر لإقرار مشروع قانون صلاحيات الطوارىء (قانون الدفاع) ، كما أقرت عدداً من اجراءات التعبئة العامة ، تحسباً لكل طارىء .

وعلى الرغم من وضوح العبارات التي استخدمت في هذا البلاغ الرسمي ، إلا أن تشمبرلين اراد أن لا يترك أي شك في نفس هتلر تجاه موقف بريطانيا . وسرعان ما مضى بعد انتهاء الاجتماع الوزاري يسطر رسالة شخصية إلى الفوهرر ... قال الرئيس البريطاني في رسالته :

« ... يبدو لي أن بعض الدوائر في برلين تعتقد أن إعـــلان الاتفاق الألماني ـ السوفياتي يجعل من تدخل بريطانيــا العظمى دفاعاً عن بولندة ، احتمالاً زائلاً يجب أن لا يؤخذ بعين الاعتبـار . ولكن هذا الاعتقاد ، اكبر خطأ يمكن للإنسان أن يقع فيه . ومهما كانت طبيعة هـــذا الاتفاق الألماني ـ السوفياتي ، فلن يكون في وسعه أن يبدل قيد أنملة من إلتزامات بريطانيا العظمى تجاه بولندة.

« وكثيراً ما زعم في الماضي ، أن حكومة جلالته ، لو اوضحت موقفها بصورة اكثر جلاء في عام ١٩١٤ ، لكان في الامكان تجنب الكارثة العظمى . وسواء أكان هذا الزعم صحيحاً او لم يكن فإن حكومة جلالته مصممة كل التصميم الآن ، على أن لا تترك مجـــالاً لمثل هذا الفهم السيىء المفجع ...

« فإذا ما تطلب الأمر ، فإن حكومة جلالته مصممة ومستعدة لاستخدام كل ما تحت تصرفها من قوات ، ودون إبطـــاء . ومن المستحيل على المرء أن يتكهن بموعد انتهاء العمليات الحربية في حالة الشروع فيها ... »[١]

وأضاف رئيس الوزراء ، انه إثر هـذا الايضاح الكامل لموقف بلاده ، راح يناشد هتلر البحث عن حل سلمي لخلافاته مع بولندة . ويعرض عليه من جديد استعداد الحكومة البريطانية للتعاون في الوصول إلى هذا الحل .

وأثارت هذه الرسالة التي حملها هندرسون طائراً بها من برلين إلى برختسغادن ليقدمها إلى هتلر بعيد الساعة الواحدة من بعد ظهر الثالث والعشرين من آب ، غضب الطاغية النازي وقـــذفت به في نوبة من نوبات حنقه المعهودة . وراح هندرسون يبرق إلى اللورد هاليفاكس قائلاً : « كان هتلر ثائراً . وغـير مستعد للتفاهم . وكانت عباراته عنيفة ومغالية في الشدة بالنسبة إلى انكلترا وبولندة

---

١ ـ الكتاب البريطاني الازرق ص ٩٦ ـ ٩٨

معاً . »[1] وتتفق رواية هندرسون عن الاجتماع ومذكرة وزارة الخارجية الألمانية بصدده ، وهي المذكرة التي عثر عليها بين الوثائق الألمانية المصادرة ، في وصف طبيعة الخطاب المقذع الذي تدفق به هتلر . فقد انفجر قائلاً ، ان بريطانيا هي المسؤولة عن عناد بولندة واصرارها على عدم التفاهم ، تماماً كما كانت المسؤولة قبل نحو عام عن موقف تشيكو سلوفاكيا المنافي للعقل والمنطق. فهناك عشرات الالوف من أبناء الشعب الألماني يتعرضون للاضطهاد في بولندة. وزعم أن هناك ست حوادث من اجتثاث معالم الرجولة من ستة من الألمان ، وهي حقيقة تتسلط ككابوس على اعصابه . وأضاف انه لم يعد في وسعه أن يحتمل اكثر مما احتمل . وأي عمل من اعمال الاضطهاد للألمان على أيدي البولنديين سيدفعه إلى العمل الفوري .

وابرق هندرسون إلى هاليفاكس يقول :

« وقد اعترضت على كل نقطة اثارها ونفيتها ، مواصلاً وصف اقواله بالافتقار إلى الدقة ، ولكن كل ما احدثه موقفي من تأثير ، هو أنه اندفع في سبابه من جديد . »

ووافق هتلر اخيراً على ان يسلم السفير رداً خطياً على رسالة رئيس الوزراء بعد ساعتين ، فانسحب هندرسون الى سالزبرغ لينال قسطاً من الراحة . [2] واستدعاه هتلر ، بعد الظهر ليسلمه رده . وابرق هندرسون الى لندن يقول أن الفوهرر كان في الاجتماع الثاني على النقيض من حالته في الاجتماع الاول ، إذ « اتسم بالهدوء الكامل . ولم يرفع صوته مطلقاً اثناء الحديث » ثم قال :

« وقال هتلر انه بلغ الخمسين من عمره ، وانه يؤثر الحرب الآن

---

١ ـ الكتاب البريطاني الازرق ص ٩٨ ـ ١٠٠ . ووثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٢١٠ ـ ٢١٥ . والكتاب البريطاني الازرق ـ تقرير هندرسون عن اجتماعه الثاني ص ١٠٠ ـ ١٠٢

٢ ـ دون وايز ساكر الذي شهد المقابلة فيما بعد « ان السفير ما كاد يغادر الغرفة مغلقاً الباب خلفه حتى راح هتلر يقرع بكفه على فخذه وهو يضحك مقهقهاً ثم قال : « ان تشمبرلين لن يبقى في الحكم بعد هذا الحديث . فليس ثمة من شك في ان حكومته ستسقط هذا المساء » (مذكرات وايز ساكر ص ٢٠٣ .)

على أن تنشب عندما يكون قد بلغ الخامسة والخمسين او الستين ».

وكان جنون العظمة عند الديكتاتور الألماني ، الذي يبدو أكثر ما يبدو عندما يكون قابعاً في « عش النسر » فوق قمة الجبل الشاهق ، اشد ظهوراً في السجل الألماني عن الاجتماع منه في تصوير السفير البريطاني له . وبعد ان اقتبس هذا السجل قول الفوهرر بأنه يؤثر شن الحرب وهو في الخمسين من عمره على ان يشنها في وقت لاحق ... أضاف ما يلي :

«وقال هتلر ان من الخير لانكلترا ان تدرك بأنه كجندي خاض الحرب في الصفوف الأولى من الجبهة ، يعرف تمام المعرفة ما تعنيه الحرب ، وانه سيستخدم كل وسيلة متوافرة لديه . ولا ريب في ان من الواضح لكل انسان الآن ان المانيا ما كانت لتخسر الحرب الكونية الاولى (١٩١٤ – ١٩١٨) لو انه كان مستشاراً لها آنذاك »

وتضمن رد هتلر على رسالة تشمبرلين مزيجاً من جميع الاقاصيص الآسنة العفنة والمبالغات التي كان ينبح بها باستمرار للأجانب وأمام شعبه منذ ان جرؤ البولنديون على الوقوف في وجهه . وقال هتلر في رسالته ان المانيا لا تريد الحرب مع بريطانيا العظمى . فلقد كانت دائماً على استعداد لبحث قضايا دانزيغ والرواق البولندي مع وارشو « على اساس اقتراح لا مثيل له في الشهامة . » ولكن الضمانة غير المشروطة التي قدمتها بريطانيا لبولندة ، قد شجعت البولنديين « على اطلاق حملة لا مثيل لها من الارهاب من عقالها على المليون ونصف المليون الماني من سكان بولندة . » ومضى يقول : « ومثل هذه الشدائد قد تكون فظيعة بالنسبة إلى ضحاياها ، ولكنها شيء لا يطاق بالنسبة إلى دولة عظمى كالرايخ الألماني . » واضاف ان المانيا لم يعد في وسعها ان تتسامح بمثل هذه الفظائع .

واشار اخيراً إلى تأكيد رئيس الوزراء بأن بريطانيا العظمى ستفي بالتزاماتها لبولندة وأكد له أن « هذا الموقف لايؤثر مطلقاً على تصميم حكومة الرايخ على حماية مصالح المانيا ... وإذا ما هوجم الرايخ من انكلترا ، فستجده على

استعداد ، وقوي التصميم على النضال »[1]

ترى ما الذي حققه هذا التبادل في الرسائل ؟ لقد تلقى هتلر الآن تأكيداً حازماً من تشمبرلين بأن بريطانيا ستمضي إلى الحرب إذا قامت المانيا بمهاجمة بولندة . وتلقى رئيس الوزراء وعداً من الفوهرر بأن هذا التأكيد لا يبدل من الوضع شيئاً . ولكن احداث الايام الثمانية المحمومة التالية اظهرت تماماً أن أياً من الرجلين ما كان ليصدق في الثالث والعشرين من آب ،ما سمعه من الرجل الآخر .

ويصدق هذا القول بصورة خاصة على هتلر ، فقد استخفه ما وصل اليه من انباء سعيدة من موسكو ، وآمن على الرغم من الرسالة التي تلقاها قبل قليل من تشمبرلين ، بأن بريطانيا وفي أعقابها فرنسا ستعيدان التفكير في موضوع الوفاء بالتزاماتها لبولندة بعد تخلي روسيا عنهما ، فراح يحدد عشية الثالث والعشرين من آب ،عندما كان هندرسون يستقل الطائرة عائداً إلى برلين موعد الهجوم النهائي على بولندة في الساعة الرابعة والنصف من صباح السبت السادس والعشرين من آب .

ودوّن الفريق هولدر في يومياته يقول : « لن يصدر بعد اليوم أي أمر جديد يتعلق بيوم الغزو وساعته ، فسيسير كل شيء رتيباً وفق الخطة المرسومة »

ولكن رئيس اركان حرب الجيش الألماني كان مخطئاً في رأيه . فقد وقعت في الخامس والعشرين من آب حادثتان حملتا ادولف هتلر على التراجع قليلاً عن الهاوية الفاغرة فاها ، وذلك قبل اربع وعشرين ساعة من الموعد الذي حدده لاجتياز قواته الحدود البولندية . وكانت لندن مصدر الحادثة الاولى بينما كانت رومة مصدر الثانية .

ففي صباح الخامس والعشرين من آب ، وكان هتلر قد عاد في اليوم السابق إلى برلين ليستقبل ريبنتروب القادم من موسكو ويتلقى منه تقريراً شخصياً عن محادثاته مع الروس ، بعث الفوهرر برسالة إلى موسوليني ،ضمنها شرحاً متأخراً للاسباب التي حالت بينه وبين اطلاع شريكه في المحور على سير مفاوضاته مع

---

١ ــ رسالة هتلر إلى تشمبرلين في ٢٣ آب ــ الكتاب البريطاني الازرق ص ١٠٢ ــ ١٠٤ ووثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٢١٦ ــ ٢١٩ .

الاتحاد السوفياتي . وقال أنه لم يكن يظن ، ان هذه المفاوضات ستقطع مثل هذا الشوط البعيد بمثل هذه السرعة . واعلن عن وجوب اعتبار هـذا الميثاق الروسي ـ الألماني « اعظم كسب ممكن للمحور . »

وكان القصد الحقيقي من الرسالة ، التي عثر على نصها بين الوثائق المصادرة التلميح للدوتشي بأن الهجوم الألماني على بولندة قد يقع في أية لحظة . وان كان هتلر قد امتنع في رسالته عن تحديد الموعد الذي قرره للهجوم لصديقه وحليفه . وراح يقول في رسالته : « فإذا وقعت احداث لا يمكن تحملهـا في بولندة ، فسأقدم على العمل فوراً ... وفي مثل هذا الوضع لا يستطيع المرء أن يتكهن بما تخبئه الساعة القادمة في طياتها . » ولم يوضح هتلر انه في حاجة إلى معونة ايطاليا فهذه المعونة شيء مفترض بصورة بدهية بموجب نصوص الحلف الايطالي الالماني ، واكتفى بالاعراب عن أمله في تفهم ايطاليا حقيقة الموقف . [1] لكنـه على أي حال ينتظر رداً فورياً من الدوتشي . وقد قام ريبنتروب شخصياً بنقـل الرسالة عن طريق الهاتف إلى سفيره في رومه فوصلت إلى الدوتشي في الساعة الثالثة والثلث بعد ظهر اليوم نفسه .

واستقبل الفوهرر في غضون ذلك أي في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر السفير البريطاني هندرسون في دار المستشارية . وعلى الرغم من أن تصميمه على تحطيم بولندة لم يضعف قط إلا أنه كان اكثر تلهفاً اليوم منه قبل يومين عنـدما اجتمع إلى هندرسون في برختسغادن ، على القيام بآخر محاولة للابقـاء على بريطانيا خارج الحرب . [2] ويقول السفير في تقريره إلى لندن ، أنه وجـد الفوهرر « هادئاً كل الهدوء وفي حالة طبيعية ، ويتحدث بكل جـد وبمنتهى

---

١ ـ نص رسالة هتلر الى الدوتشي ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٢٨١ ـ ٢٨٣

٢ ـ يقول اريك كوردت في الصفحة ١٩٢ من كتابه « اكاذيب وحقائق » ان هتلر كان متحمساً لما حققه من نجاح في موسكو ، وانه طلب في صباح الخامس والعشرين من آب من مكتبه الصحفي تزويده بانباء الازمة الوزارية في باريس ولندن . وكان يعتقـد ان الحكومتين ستسقطان في تلك الآونة . وما لبثت احلامه ان تهاوت عندما نقل اليـه نص الخطابين الحازمين اللذين القاهما كل من تشمبرلين وهاليفاكس في البرلمان في اليوم السابق .

الصدق البيّن . » وهكذا لم يستطع هندرسون على الرغم من كل تجارب العام المنصرم ، وفي هذا الوقت المتأخر ، أن ينفذ ببصره عبر هذا « الاخلاص » من جانب الزعيم الالماني . فكل ما كان هتلر يود قوله مناقض للعقل تمام المناقضة . فهو « يقبل » ، بالامبراطورية البريطانية ، وهو يقول للسفير أنه على استعداد « للتعهد شخصياً باستمرار وجودها ، وأن يلتزم بما للرايخ الألماني من قوة للحفاظ عليها . » وراح هتلر يوضح قائلاً ... أنه يرغب :

« في القيام بخطوة نحو بريطانيا تكون مماثلة في حسمها للخطوة التي اتخذها تجاه روسيا ... وهو على استعداد لأن يعقد مع انكلترا اتفاقات لا تضمن وجود الامبراطورية البريطانية في جميع الظروف من ناحية المانيا فحسب بل وتؤكد لها أيضاً إذا اقتضى الأمر مساعدة المانيا دون اكتراث بالناحية التي يتحتم تقديم المساعدة ضدها . »

واضاف انه على استعداد ايضاً « لقبول تحديد معقول للتسلح » واعتبار حدود الرايخ الغربية نهائية. ويقول هندرسون ان هتلر في لحظة من لحظات هذه المقابلة تردى في عرض نموذجي للتفاهات العاطفية ، وإن كان السفير لم يصف هذه الحالة على هذا النحو عندما بعث برسالته إلى لندن . وقال الفوهرر انه بسليقته لا سياسي ، وأنه عندما ينتهي من تسوية المشكلة البولندية ، فسينهي حياته كفنان لا كداعية حرب .

ولكن الفوهرر أنهى حياته في شكل آخر . ومضت المذكرة التي اعدها الألمان لهندرسون عن نص ما دار في المقابلة تقول :

«واعاد الفوهرر على مسامع السفير ، انه رجل قرارات عظيمة ... وان هذا آخر ما يقدمه من عروض . فاذا رفضوا (البريطانيون) هذه الافكار ، فإن الحرب ناشبة حتماً .

وقال هتلر ضمن أحاديثه في هذه المقابلة ، ان « هذا العرض الضخم الشامل » لبريطانيا، كما وصفه ، يخضع لشرط واحد ، وهو ان يصبح ساري المفعول «بعد

حل المشكلة الالمانية – البولندية » . وعندمـــا واصل هندرسون الاصرار على القول ، بأن بريطانيا لا تستطيع ان تدرس هذا العرض إلا إذا عنى في الوقت نفسه إيجاد تسوية سلمية مع بولندة ، رد هتلر قائلاً : « إذن فـــلا حاجة إلى الابراق بهذا العرض طالما انك تعتقد بعدم جدواه . »

ولكن ما كاد السفير يعود إلى سفارته التي تبعد بضـــع خطوات عن دار وزارة الخارجية الألمانية ، قادماً من دار المستشارية، حتى كان الدكتور شميدت يقرع عليه الباب حاملاً نسخة خطيةمن ملاحظات هتلر، وقد حذف منها الكثير مصحوبة برسالة من الفوهرر يرجو فيها السفير ان يحث الحكومة البريطانية على « اخذ هذا العرض على محمل الجد» ويقترح عليه ان يحمله شخصياً إلى لندن معرباً عن استعداده لوضع طائرة المانية خاصة تحت تصرفه لهذه الغاية .[1]

ولم يكن من السهل حقاً ، كما يتبيّن للقارىء الذي وصل إلى هذا الحـــد من الكتاب ، النفاذ حقاً إلى ما يقوم به عقل هتلر المحموم من اعمال غريبة وخيالية. ولم يكن « عرضه » المضحك في الخامس والعشرين من آب بضمان الامـبراطورية البريطانية إلا وليد عاصفة فكرية عارضة كما يبدو ، إذ أنه لم يذكر شيئـاً عنه قبل يومين عندما بحث مع هندرسون في موضوع رسالة تشمبرلين واعـــد رده عليها . وحتى لو تسامحنا مع انحرافات الديكتاتور العقلية ، فمن الصعب علينـا أن نصدق ، انه هو نفسه كان ينظر إلى عرضه هذا نظرة جـدية على النحو الذي حاول تصويره فيه في حديثه إلى السفير البريطاني . يضاف إلى هـــذا ، كيف يمكن ان يطلب من الحكومة البريطانية ، كما طلب هو بالفعـل ، أن تنظر إلى العرض « بمنتهى الجدية » في الوقت الذي لا يمكن لتشمبرلـين أن يدرسه دراسة وافية أو يقوم بقراءته ، قبل أن تتدفق الجيوش النازية على بولندة في فجر اليوم

---

١ ـ نص بيانات هتلر الشفوية الى هندرسون في الخامس والعشرين من آب كما اعدها ريبنتروب والدكتور شميدت (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٢٧٩ – ٢٨٤) وفي الكتاب البريطاني الازرق ص ١٢٠ – ١٢٢ . ونص برقيـة هندرسون عـــن المقابلة (الكتـــاب البريطاني الازرق ص ١٢٢ – ١٢٣ . وكتاب هندرسون ـ فشل بعثة ص ٢٧٠ .

التالي ، وهو اليوم المحدد للغزو ، والذي ما زال قائماً ؟

لكنني لا اشك في وجود هدف جدي وراء هـذا « العرض » إذ يبدو أن هتلر اعتقد بأن تشمبرلين كستالين ، يريد منفذاً للخروج من هـذه الورطة ، وإبقاء بلاده خارج الحرب . [١] وكان قد ابتاع حياد ستالين الودي قبل يومين، بمنح روسيا حرية العمل في اوروبا الشرقية « من البلطيق حتى البحر الاسود » . اوليس في وسعه ان يشتري عدم تدخل بريطانيا بالتأكيد لرئيس وزرائها بأن الرايخ الثالث لن يغدو كما غدت المانية الهوهنزولرن خطراً يهدد الأمبراطورية البريطانية؟ولكن الشيء الذي لم يدركه هتلر ، كما لم يدركه ستالين — وقد دفع الاخير ثمن خطئه غالياً — هو أن تشمبرلين ، وقد تفتحت عيناه اخيراً رأى في سيطرة المانيا على القارة الاوروبية الخطر الاكبر الذي يهدد الامبراطورية . كما يهدد ايضاً الامبراطورية الروسية السوفياتية . وكان هتلر قـد دوّن في كتابه « كفاحي » أن المتطلب الأول للسياسة الخارجية البريطانية ظـل قروناً طويلة الحيلولة دون سيطرة أي دولة على القارة الاوروبية .

واستقبل هتلر في الساعة الخامسة والنصف بعـد ظهر اليوم نفسه السفير الفرنسي ، ولم يكن لديه ما يقوله له سوى تكرار الحديث عن « الاستفزازات البولندية للرايخ » التي لا يستطيع احتمالها ، والتأكيد بأنه لا ينوي الهجوم على فرنسا ، ولكن إذا اشتركت هذه في الصراع ، فإنه سيقاتلها حتى النهـاية . وهنا شرع في محاولة صرف المبعوث الفرنسي من حضرته ، إذ نهض من مقعده، ولكن كان لدى كولوندر ما يود قوله لفوهرر الرايخ الثالث وقد اصر علىقوله، فذكر له بعد ان اقسم بشرفه العسكري انه لا يشك مطلقاً في « ان بولندة إذا هوجمت فإن فرنسا ستقف إلى جانبها بكل ما لديها من قوات . »

---

١ — واذا لم يكن في الامكان ابقاؤها خارج الحرب ، فخارج نطاق الاشتراك الجوي فيها على الاقل . ويكشف الفريق هولدر عن هذا الامل في تلخيصه « لسير الاحداث » في الخامس والعشرين من آب في اليومية التي دونها بعد ثلاثة ايام. وبعد ان روى هولدر كيف ان هتلر قد قابل هندرسون في الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر الخامس والعشرين من آب قـال : « ان الفوهرر لـن يهتم كثيراً ، اذا ماشنت انكلترا حرباً زائفة » .

ورد هتلر قائلاً : يؤلمني هذا ، ويؤلمني ان افكر باضطراري إلى محاربة بلادك . ولكن الأمر لا يتوقف علي . أرجو ان تنقل هذا إلى المسيو ديلادييه »[1]

وكانت الساعة قد بلغت الآن في برلين السادسة من مساء الخامس والعشرين من آب . وكان التوتر في العاصمة الألمانية يزداد ساعة إثر أُخرى طيلة النهار . وانقطعت منذ ظهر اليوم بأمر من الويلهلمشتراسة ، جميع طرق الاتصال الاذاعي والبرقي والهاتفي مع العالم الخارجي . وكان آخر بريطاني او فرنسي من رجال الصحافة أو المدنيين غير الرسميين قد غادر المانيا بسرعة منذ الليلة السابقة الى اقرب نقطة على الحدود . وعرف في الخامس والعشرين ، وكان يوم جمعة ، ان وزارة الخارجية الألمانية قد ابرقت إلى سفاراتها وقنصلياتها في بولندة وفرنسا وبريطانيا ، طالبة اليها تسفير جميع الرعايا الالمان بأقرب الطرق والوسائل وتحدثني اليوميات التي دوّنتها عن الرابع والعشرين والخامس والعشرين من آب عن الجو المحموم الذي سيطر على برلين . وكان الطقس حاراً مشفوعاً بالرطوبة ، وبدا كل انسان في المدينة وقد وصل نهاية احتماله وصبره وسرعان ما اخذت مدافع مقاومة الطائرات ، تظهر هنا وهناك في العاصمة الكبيرة المنبطحة » واخذت القاذفات تظهر في سمائها متجهة ناحية بولندة . ودوّنت في يومياتي مساء الرابع والعشرين ما نصه « يبدو ان الحرب قادمة » ، ورحت مساء اليوم التالي أكرر الكتابة « ان الحرب قريبة حتماً » ، واني لاذكر الآن انني سمعت الالمان الذين قابلتهم في الويلهلمشتراسه في تينك الليلتين يتهامسون قائلين ان هتلر قد اصدر أمره إلى الجنود بالزحف على بولندة عند الفجر .

ونحن نعرف الآن ان الأوامر كانت قد صدرت اليهم بالهجوم في السادس والعشرين عند الساعة الرابعة والنصف صباحاً .[2] ولم يكن قد حدث حتى

---

١ ـ رسالة كولوندر في ٢٥ آب ـ الكتاب الفرنسي الاصفر ـ الطبعة الفرنسية ص ٣١٢ ـ ٣١٤

٢ ـ على الرغم من ان اوامر هتلر القائمة والتي تتعرض للالغاء ، كانت تحدد موعد الهجوم باليوم والساعة وكان التنفيذ على حد تعبير هولدر « آليار تيباً » إلا ان عدداً من الكتاب الالمان قد ذكروا بأن الفوهرر قد اصدر اوامر محددة بعد الساعة الثالثة من بعد ظهر الخامس والعشرين ، بدقائق قليلة ، يوعز فيها بشن «هجوم الحريف» في الصباح التالي . (راجع مذكرات وايزساكر=

الساعة السادسة من مساء الخامس والعشرين ،ما يحمل ادولف هتلر على النكوص عن تصميمه على المضي في عدوانه في الساعة المقررة، إذ لم يتأثر مطلقاً بالتأكيدات الشخصية التي تلقاها من السفيرين هندرسون وكولوندر بأن بريطانيا وفرنسا ستحترمان حتماً التزاماتهما تجاه بولندة ، ولكن يبدو ان انباء قد وصلت من لندن وروما في الساعة السادسة او بعدها بقليل ، حملت هذا الرجل الذي لا تعرف ارادته التردد على التوقف قليلاً .

ولا يتضح من سجلات المانيا السرية ولا من الشهادات التي افضى بها بعد الحرب موظفو الويلهلمشتراسه ، الوقت الذي عرف فيه هتلر بالضبط بتوقيع المعاهدة الانكليزية ـ البولندية الرسمية في لندن ، وهي المعاهدة التي حولت الضمانة البريطانية من طرف واحد إلى بولندة ، إلى ميثاق للمساعدة المتبادلة .[1] وهناك بعض الأدلة في يوميات هولدر وفي السجل البحري الألماني ، على أن وزارة الخارجية الألمانية تلقت اشعاراً ظهر الخامس والعشرين بأن الميثاق البريطاني ـ البولندي سيوقع في ذلك اليوم . ودوّن رئيس هيئة اركان الحرب في يومياته انه تلقى هاتفاً في الساعة الثانية عشرة ظهراً من القيادة العامة للقوات المسلحة ، تسأله فيه عن آخر موعد لاحتمال تأجيل القرار بالهجوم وانه رد قائلاً ان الثالثة بعد الظهر هو الموعد الأخير . ويذكر السجل البحري ايضاً ، أن أنباء توقيع الميثاق الانكليزي ـ البولندي ، « والمعلومات الواردة

=وكتاب كوردت « اكاذيب وحقائق » وكتاب « حرب مقررة » لوولتر هوفر) . ويقول الاخير ان الامر قد صدر في الساعة الثالثة والدقيقة الثانية ، مستنداً في ذلك الى رواية للفريق فون فورمان الذي كان في دار المستشارية عندما صدر الامر . ولم اعثر في الوثائق الالمانية الرسمية على أي سجل رسمي لهذا الامر .

١ ـ كان هناك ملحق سري لهذه المعاهدة نص على أن « الدولة الاوروبية » المعنية في المادة الاولى من المعاهدة ، هي المانيا ، التي يتطلب عدوانها تنفيذ المساعدة العسكرية المتبادلة . وقد انقذ هذا الملحق الحكومة البريطانية من الخطوة المفجعة بالتزام اعلان الحرب على الاتحاد السوفياتي عندما غزا الجيش الاحمر بالتواطؤ مع الالمان بولندة الشرقية .

من الدوتشي » قد وصلت عند الظهر .[1] لكن هذا القول يبدو مستحيلاً . « فالمعلومات من الدوتشي » لم تصل كما هو واضح من إشارة تسجيل المانية على الوثيقة إلا « نحو الساعة السادسة مساء » . ولم يكن في وسع هتلر ان يعرف بتوقيع المعاهدة الانكليزية – البولندية في لندن ، إلا حوالي هذا الوقت ايضاً ، إذ أن التوقيع تم في الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والثلاثين بعد الظهر ، وكان الكونت ادوارد رازينسكي سفير بولندة في العاصمة البريطانية قد تلقى قبل خمس عشرة دقيقة من هذا الموعدفقط ، الإذن من وزير خارجيته في وارشو عن طريق الهاتف بتوقيع الاتفاق .[2]

ومهما كان الوقت الذي تلقى فيه هتلر هذه الانباء ، واعتقد ان الساعة السادسة مساء هو الموعد الصحيح ، فإنه تأثر بالانباء الواردة من لندن ، اذ رأى فيها على الغالب رد بريطانيا على « العرض » الذي قدمه اليها ، والذي لا شك في ان محتوياته قد وصلت اليه قبل هذه الساعة . وعنت له هذه الانباء انه فشل في محاولته رشوة بريطانيا بعد ان نجح في رشوة الروس . وتذكر الدكتور شميدت الذي كان حاضراً في مكتب هتلر عندما تلقى هذا التقرير ، ان الفوهرر راح بعد تلاوته له يغرق في تفكير عميق وقد جلس الى مكتبه .[3]

موسوليني يخاف

وسرعان ما قطعت عليه حبل تفكيره ، انباء سيئة اخرى وصلته من رومه. فلقد ظل الديكتاتور الألماني ينتظر طيلة بعد ظهر ذلك اليوم « بفروغ صبر لا يكاد يخفيه » على حد تعبير الدكتور شميدت ، رد الدوتشي على رسالته .

١ – المؤامرةالنازية والعدوان (٦) ص ٩٧٧ – ٩٩٨ . من ملف العلاقات الروسية – الالمانية عثر عليه بين ملفات القيادة البحرية العليا .

٢ – لم تكن المانيا تعمل كبريطانيا بالتوقيت الصيفي . ولهذا فليس في هذه المواعيد وجود لفرق الساعة الواحدة بين برلين ولندن .

٣ – شميدت – ترجمان هتلر . ص ١٤٤

واستدعي السفير الايطالي اتوليكو إلى دار المستشارية في الساعة الثالثة ، وبعيد مغادرة هندرسون لها ، ولكن لم يكن في وسع السفير ان يبلغ الفوهرر أي شيء سوى انه ما زال ينتظر الرد . وكانت اعصاب هتلر قد بلغت في هذا الوقت أقصى حدود التوتر حتى انه طلب الى ريبنتروب ان يتصل هاتفياً بزميله شيانو في رومه ، ولكن وزير الخارجية لم يتمكن من تحقيق هذه الرغبة . ويروي شميدت ان هتلر قد صرف اتوليكو من حضرته « بشيء قليل من الكياسة » [١]

وكان هتلر يتلقى منذ أيام تحذيرات من رومة تقول ان شريكه في المحور قد ينقلب عليه في اللحظة الحرجة الاخيرة عندما يهاجم بولندة ، ولم تكن هذه المعلومات مفتقرة إلى الاساس الواقعي . إذ لم يكد شيانو يعود من اجتماعاته الفاشلة مع هتلر وريبنتروب بين الحادي عشر والثالث عشر من آب حتى شرع يعمل في تحويل موسوليني إلى الوقوف ضد الالمان، وهو عمل لم يفت عيون الرقباء الساهرين من رجال السفارة الالمانية في رومة . وتتابع يوميات وزير الخارجية الفاشي ، سعود المحاولات التي بذلها لفتح عيون الديكتاتور الايطالي على الحقيقة ونحوسها ، وللانفصال عن هتلر في الوقت المناسب تجنباً لخوض الحرب . [٢] وقد قابل شيانو عشية اليوم الذي عاد فيه من برختسغادن في الثالث عشر من آب رئيسه الدوتشي ، وبعد أن شرح له ما أجراه من محادثات مع هتلر وريبنتروب ، حاول إقناعه بأن الألمان قد « خانوهم وكذبوا عليهم » وانهم « يجرونهم معهم جراً الى المغامرة . » ودوّن شيانو في يومياته تلك الليلة يقول :

« وكانت ردود فعل الدوتشي متباينة . فقد اتفق معي في الرأي في البداية ، ثم سرعان ما قال ان الشرف يحتم عليه السير جنباً الى جنب مع المانيا . وراح يقول اخيراً أنه يريد حصة من الغنيمة في كرواتيا ودالماتيا .

« ١٤ آب – وجدت موسوليني في منتهى القلق . وانا لا اتردد

---

١ ـ شميدت ـ ترجمان هتلر ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

٢ ـ يوميات شيانو . ص ١٢٠ ـ ١٢٩ .

في أن ابعث في نفسه كل احساس ممكن بالكره لألمانيا ، مستخدماً كل ما في مكنتي من وسائل . وقد تحدثت اليه عن سمعته المتقلّصة وعن تمثيله دوراً ثانوياً في المسرحية . وعرضت على انظاره اخيراً وثائق تقيم الدلائل ، على خداع الألمان له في القضية البولندية . ولقد اقيم الحلف على افتراضات ينكرها الألمان الآن . فهم خونة ، وعلينا انلا نتردد مطلقاً في التخلي عنهم . ولكن ما زالت الهواجس تساور نفس موسوليني . »

وعاد شيانو في اليوم التالي يتحدث ست ساعات إلى موسوليني في الموضوع وراح يدوّن في يومياته :

« ١٥ آب – بات الدوتشي مقتنعاً من أن الواجب يقضي علينا بأن لا نسير على عمىً مع الألمان ... لكنه على أي حال يريد فسحة من الوقت ليتخذ اهبته للتخلي عنهم ... لقد تزايدت ثقته بأن الدولتين الديموقراطيتين ستخوضان الحرب .... في هذه المرة لا بد من الحرب ... وليس في استطاعتنا ان نخوضها لأن احوالنا لا تساعد على خوضها .

« ١٨ آب – جرى لي حديث مع الدوتشي في الصباح ... ما زالت عواطفه متقلبة . ما فتىء يظن ان الديموقراطيتين لن تحاربا وان المانيا قد تقوم بعمل ناجح لا يكلفها كثيراً ، وهو لا يريد ان يحرم من ثمرة هذا النجاح . وهو يخشى ايضاً غضب هتلر وثورته . فهو يعتقد ان التخلي عن الميثاق أو الغاءه قد يحمل هتلر على التخلي عن المشكلة البولندية رغبة منه في تصفية الحساب مع ايطاليا . وجميع هذه الافكار تثير عصبيته وتستفز قلقه .

« ٢٠ آب – استدار الدوتشي دورة كاملة انه يريد ان يساعد المانيا بأي ثمن في الصراع الذي بات وشيك الوقوع .... عقدت اجتماعاً مع الدوتشي حضره اتوليكو ... لقد جاء السفير من برلين إلى رومة لاجراء مشاورات معه . كانت زبدة الحديث ان الوقت قد

فات للانقلاب على الالمان .... ستقول صحف العالم قاطبة ان ايطاليا دولة جبانة .... حاولت مناقشة القضية ولكن وجدت ان لا جدوى من النقاش ان موسوليني عنيد في التمسك بآرائه...

« ٢١ آب – تحدثت اليوم بوضوح وصراحة .... عندما دخلت الغرفة اكد موسوليني قراره بالسير مع الالمان ... قلت له « لا تستطيع ايها الدوتشي ان تفعل ذلك ويجب ان لا تفعله ... لقد مضيت إلى سالزبرغ لاصل إلى خط مشترك للعمل معهم.. ولكنني وجدت نفسي اواجه عملية إملاء كلها أوامر .... لقد خان الالمان لا نحن ، الحلف ... مزق الميثاق ! واقذف به في وجه هتلر ..»

وتقرر في نتيجة هذا الاجتماع ان يعمل شيانو على الاجتماع بريبنتروب في اليوم التالي عند ممر برينر ، وان يبلغه ان ايطاليا لن تدخل الحرب التي يثيرها الالمان بهجومهم على بولندة . ولكن شيانو لم يستطع الاتصال هاتفياً به عدة ساعات ذلك النهار ، إلى ان جرى الاتصال في الساعة الخامسة والنصف. ورفض الوزير النازي ان يعطي زميله الفاشي رداً فورياً في اجتماع برينر في مثل هذا الوقت السريع ، إذ أنه «في انتظار رسالة هامة من موسكو » ، وابلغه انه سيتصل به ثانية . وفعلاً اتصل به في العاشرة والنصف مساء . ودوّن شيانو في يومياته يقول :

« ٢٢ آب – بدأ فصل جديد من المسرحية في الساعة العاشرة والنصف امس . هتف ريبنتروب ليقول أنه يؤثر الاجتماع بي في اينزبروك بدلاً من برينر على الحدود ، إذ أنه يعتزم السفر بعد المقابلة إلى موسكو لتوقيع ميثاق سياسي مع الحكومة السوفياتية »

وكانت هذه اخبار جديدة من النوع الذي يبعث على الذهول بالنسبة إلى شيانو وموسوليني ، فقررا ان اجتماع وزيري الخارجية « لم يعد مناسباً . لقد اظهر حليفها الألماني مرة ثانية احتقاره لايطاليا بتجاهله إبلاغها شيئاً عن الصفقة التي يعتزم عقدها مع موسكو .

وباتت برلين تعرف تردد الدوتشي ومشاعر شيانو المعادية لألمانيا واحتمال انسحاب ايطاليا من التزاماتها بموجب المادة الثالثة من ميثاق الفولاذ التي تفرض الاشتراك الآلي الرتيب ، في الحرب على إحدى الدولتين المعاقدتين اذا « تورطت الاخرى في الحرب مع دولة ثالثة » ، وذلك قبل أن يبدأ ريبنتروب سفرته إلى موسكو في الثاني والعشرين من آب .

وقابل الكونت ماسيمو ماجيستراتي القائم بالأعمال الايطالي في برلين في العشرين من آب ، وايز ساكر في وزارة الخارجية وكشف له على حد تعبير وزير الدولة في مذكرته السرية الى ريبنتروب [1] عن « حالة عقلية ايطالية على الرغم من أنها لا تدهشني إلا أنها تستحق النظر والدرس في رأيي . » فقد لفت ماجيستراتي نظر وزير الدولة الى أن المانيا قد تجاهلت نصوص الحلف ، التي تدعو إلى التشاور والاتصال الوثيقين في القضايا الرئيسية » واعتبرت نزاعها مع بولندة وكأنها قضية خاصة بها ، « فتخلت بذلك عن حقها في المطالبة بمساعدة ايطاليا العسكرية . » وإذا تطور النزاع البولندي خلافاً لرأي المانيا الى حرب كبرى فإن ايطاليا لا تعتبر ان المقتضيات الرئيسية لتنفيذ الحلف قائمة . ويمكن القول باختصار ... ان ايطاليا كانت تبحث عن سبيل للخروج من الحلف .

وتلقت برلين بعد يومين أي في الثالث والعشرين من آب تحذيراً آخر من السفير هانز جورج فون ماكنزن من رومه . فقد كتب الى وايز ساكر يطلعه على ما يدور « وراء الكواليس » . فراح هذا ، كما تشير ملاحظة دوّنها بخط يده على الوثيقة المصادرة « يقدمها إلى الفوهرر » وليس ثمة من شك في ان هذه الرسالة قد بصّرت هتلر بحقيقة الوضع . وقد تحدد موقف ايطاليا اثر سلسلة من الاجتماعات التي اشترك فيها موسوليني وشيانو واتوليكو ، على الشكل الذي ابرق به السفير الالماني ماكنزن ، وهو ان المانيا بغزوها بولندة تنقض ميثاق الفولاذ الذي يستند الى اتفاق بين الفريقين المتعاقدين على وجوب تجنب الحرب حتى عام ١٩٤٢ . يضاف إلى هذا ان موسوليني كان على خلاف في الرأي مع

---

١ ـ مذكرة وايز ساكر ـ ٢٠ آب ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ١٦٠ .

المانيا من ناحية اشتراك الدولتين الديموقراطيتين في الحرب ، فهو واثق من انهما ستتدخلان إذا غزت المانيا بولندة ، وان الولايات المتحدة ستتدخل ايضاً بعد فترة عدة اشهر . وفي الوقت الذي ستحافظ فيه المانيا على موقفها الدفاعي في الغرب ، فإن الفرنسيين والبريطانيين .... في رأي الدوتشي :

« سينزلون الى ايطاليا ، بكل ما لديهم من قوات . ويتوجب على ايطاليا في مثل هذه الحالة ان تحتمل وطأة الحرب وثقلها لتمكن الرايخ من انتهاز الفرصة لتصفية الموضوع في الشرق ».[1]

وكان هتلر يحمل في فكره جميع هذه النذر ، عندما بعث برسالته الى موسوليني في صباح الخامس والعشرين من آب ، وظل ينتظر الرد عليها ، بفارغ الصبر طيلة النهار . وكان ريبنتروب بعيد منتصف الليلة السابقة ، وبعد ساعات طويلة سرد فيها على الفوهرر تفاصيل ما حققه من نصر في موسكو ، قد هتف الى شيانو لينذره « بتحريض من الفوهرر » ... بأن الوضع قد « بات خطراً للغاية من جرّاء التطورات التي خلقتها وما زالت تخلقها استفزازات بولندة »[2] وتقول مذكرة كتبها وايز ساكر ان الغاية من هذه المكالمة الهاتفية « منع الايطاليين من التذرع بحجة وقوع تطورات لم يكونوا ينتظرونها » .

وكان السفير ماكنزن قد قدم الى موسوليني في غضون ذلك أي في الساعة الثالثة والدقيقة العشرين من بعد ظهر الخامس والعشرين من آب رسالة الفوهرر . وقد جرت المقابلة في قصر البندقية في رومة ، فأدرك الدوتشي آنذاك أن الهجوم الألماني على بولندة اصبح وشيك الوقوع . وكان على النقيض من هتلر

---

١ ـ رسالة ماكنزن إلى وايز ساكر في ٢٣ آب . وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٢٤٠ ـ ٢٤٣) .

٢ ـ علينا ان نذكر ان نغمة « الاستفزازات البولندية » التي كان هتلر وريبنتروب يعزفان باستمرار ألحانها ، في اجتماعاتهما واتصالاتهما الدبلوماتية مع البريطانيين والفرنسيين والروس والايطاليين في هذه الايام ، والانباء التي تنشرها الصحف النازية تحت عناوين نارية ، كانت على الغالب من اختراع النازيين انفسهم . وكان الالمان بأوامر من برلين هم الذين يقومون بمعظم الحوادث الاستفزازية . والوثائق الالمانية المصادرة ملأى بالأدلة على هذه الحقيقة .

واثقاً كل الثقة من أن بريطانيا العظمى وفرنسا ستخوضان الحرب فوراً ، بما في ذلك من نتائج مفجعة على ايطاليا ، التي لم يكن اسطولها نداً لمقـــابلة اسطول بريطانيا في البحر المتوسط ، ولا جيشها قادراً على مواجهة الجيش الفرنسي .[١] وتقول برقية بعث بها السفير ماكنزن إلى برلـــين في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين من مساء اليوم نفسه ، يصف فيها المقابلة ، أن موسوليني بعد أن قرأ رسالة هتلر بعناية مرتين وبحضوره ، راح يؤكد « اتفاقه الكامل » مع الفوهرر في الميثاق النازي السوفياتي وانه يدرك ان « الصراع المسلح مع بولندة بات أمراً لا يمكن تجنبه . » واضاف ماكنزن في برقيته ان الدوتشي اكد اخيراً وبكل وضوح « انه يقف إلى جانبنا دون قيد أو شرط وبكل ما لديـــه من موارد »[٢]

ولكن الرسالة التي بعث بها الدوتشي الى الفوهرر رداً على رسالته لم تكن على هذا النحو الذي ابرق به السفير . فقد هتف شيانو بها بصورة مستعجلة إلى سفيره اتوليكو ، الذي كان قـــد عاد إلى مقر عمله في برلين ، ووصل السفير الايطالي حوالي الساعة السادسة مساء إلى دار المستشارية لينقل الرد شخصياً إلى ادولف هتلر . وكانت هذه الرسالة على حد تعبير شميدت بمثابة قنبلة اصابت الفوهرر . فبعد ان اعرب موسوليني عن « موافقته التامة » على الميثاق النازي السوفياتي وبعد ان اكد تفهمه للموقف في بولندة ، راح يصل الى النقطة الاساسية فقال :

---

١ ــ قام شيانو في اليوم السابق اي في الرابع والعشرين من آب بزيارة الملك في مقرد الصيفي في بيدمونتي ، وراح الملك العجوز ، الذي ابعده موسوليني عن الاضواء ، وجعله يعيش بعيداً عن مسرح الاحداث ، يتحدث باستخفاف عن قوات البلاد المسلحة . وروى شيانو عن الملك انه قال : « ان الجيش في وضع يدعو إلى الأسى والاشفاق . وحتى الوسائل الدفاعية في بلادنا عن الحـــدود ليست كافية . » ولقد قمت بالتفتيش اثنتين وثلاثين مرة على حصوننا الدفاعية وانا واثق من أن في وسع الفرنسيين ان يقتحموها بمنتهي السهولة . وضباط الجيش الايطـــالي ليسو بأكفاء لأداء المهمة ، كما ان معداتنا الحربية قديمة ولم تعد صالحة » (يوميات شيانو ص ١٢٧ .)

٢ ــ برقية ماكنزن في ٢٥ آب . وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٢٩١ - ٢٩٣) .

« أما بالنسبة الى الموقف العملي الذي ستقفه ايطاليـــا في حالة نشوب الحرب فان رأيي يتلخص فيما يلي :

« إذا كانت المانيا هي المهاجمة لبولندة، وظلت الحرب محصورة ضمن هذا النطاق ، فإن ايطاليا ستقدم لألمانيا كل ما يطلب اليها من اشـكال العون السياسي والاقتصادي .

« أما إذا هاجمت المانيـــا بولندة [1] . وشرع حلفاء الاخيرة في شن هجوم مضاد على المانيا فإني أود ابلاغك سلفاً،بأنه سيكون من الافضل لي ان لا اتولى زمام المبادرة في العمليات الحربية بالنظر الى الوضع الراهن لاعدادات ايطاليا الحربية وهو ما سبق لنا ان تحدثنا عنه مراراً وتكراراً وفي الوقت المناسب اليك ايها الفوهرر والى الهر فون ريبنتروب .

« ويمكن لنا من الناحية الاخرى ان نتدخل فوراً ، اذا قدمت الينا المانيا على التو التموينات الحربية والمواد الاولية التي تمكننا من مقاومة الهجوم الذي سيشنه الانكليز والفرنسيون علينـا بصورة مباشرة ورئيسية .

« وكنا نخطط فيإجتماعاتناالسابقة لنشوب الحرب في عام١٩٤٢ ولو تأخرت الحـرب حتى ذلك التاريخ لكان في استطاعتي أن استكمل اعداداتي في البر والبحر والجو،طبقاً للخطط التي تموضعها.

« واني لأرى ايضاً أن التدابير العسكرية المجردة التي اتخذت حتى الآن والتدابير الاخرى التي ستتخذ فـيما بعد ، ستؤدي الى

---

١ ـ حذفت كلمة « المانيا » هنا وطبع فوقها كلمة « بولندة » وذلك في الترجمة الالمانيـة لرسالة موسوليني التي عثر عليها في وزارة الخارجيـة بعد الحرب ، والتي اعتمدت عليها هنـا ، فاصبحت العبارة على هذا النحو « اما إذا هاجمت بولندة . . . . » . أما في الأصل الايطالي الذي نشرته الحكومة الايطالية بعد الحرب ، فقد وردت العبارة على النحو الظاهر اعلاه . ومن الغريب ان يقدم النازيون حتىعلى تزوير الوثائق السرية الموجودة في محفوظات حكومتهم الرسمية.(وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٢٨٥) .

اشغال قوات بريطانية وفرنسية كبيرة في اوروبا وافريقيا .

« واني لاعتبر أن من واجبي المقدس كصديق مخلص ان اطلعك على الحقيقة كاملة ، وان ابصرك سلفاً بالوضع الحقيقي الراهن . ولو تقاعست عن ذلك ، لكان في تقاعسي ما يؤدي الى نتائج سيئة لنا جميعاً . هـذا هو رأيي ، ولما كنت مضطراً الى استدعـــاء بعض الهيئات الحكومية العليا الى الاجتماع بعـد وقت قصير فإني أرجو أن أعرف رأيك بسرعة » (١)

موسوليني (٢)

وهكذا في اليوم الذي وضع فيه هتلر روسيا في جيبه كمحايد ودود بدلاً من

١ ـــ رسالة موسوليني الى هتلر في ٢٥ آب (وثائق وزارة الخارجيـة الالمانيـة (٧) ص ٢٨٥ ـــ ٢٨٦ .

٢ ـــ يبدو ان عـدداً من الكتاب الالمان ومعظمهم من المراقبين ، لم يروا في رسالة موسوليني هذه ، دواء مراً كل المرارة تحتم على هتلر ابتلاعه ، فراحوا استناداً إلى معلوماتهم الاوليـة عن الاحداث المسرحية التي وقعت في الايام الاخيرة من عهد السلام ، ينشرون نصاً خيالياً مختلقاً عن هذه الرسالة التي بعث بها الدوتشي الى ستلر . وكان اريـخ كوردت ، وهو احد المتآمرين ضـد النازية ورئيس قسم السكرتارية في وزارة الخارجية الالمانية اول الناس الذين اختلقوا هذا النص الزائف ، إذ نشره في كتابه « اكاذيب وحقائق » الذي اصدره في شتوتغارت عام ١٩٤٧ . وقد اسقطه كوردت في الطبعة الثانية من كتابه ، ولكن غيره من الكتاب واصلوا نقله من الطبعة الاولى وظهر هذا النص في كتاب بيتر كلايست « بين هتلر وستالين » الذي صدر في عام ١٩٥٠ وكذلك في الترجمة الانكليزية لمذكرات بول شميدت المنشورة في نيويورك ولندن في عـــام ١٩٥١ . لكن النص الصحيح صدر في ايطاليا في عام ١٩٤٦ ، وظهرت ترجمته الانكليزية في الكتـــاب الذي اصدرته وزارة الخارجية الامريكية في عام ١٩٤٨ بعنوان « العلاقات النازية ـ السوفياتيـة » . ويقتبس الدكتور شميدت ، الذي كان مع هتلر عندمـا تلقى الرسالة من اتوليكو ، من الخطـاب قوله « في هذه اللحظة التي اعتبرها من اكثر لحظات حياتي ألماً ، اجد نفسي مضطراً إلى ابلاغك عدم استعداد ايطاليا للحرب . وطبقاً لمـا ابلغنيه الرؤساء المسؤولون للقوات المسلحة فإن احتياطي « الغازولين » اللازم للسلاح الجوي الايطالي عندنا ضئيل للغاية إلى الحـد الذي لا يوفر الوقود لطائراتنا لاكثر من ثلاثة اسابيع من القتال . وينطبق هذا الوضع ايضاً بالنسبة إلى تموينات الجيش والى المواد الاولية عندنا . . . ارجو ان تفهم وضعي تمام الفهم » ـــ راجع كتاب ناميير « في العهد النازي » ص ٥ للاطلاع على هامش طريف حول تزييف هذه الرسالة .

عدو مقاتل ، خرجت حليفته ايطاليا من ميثاق الفولاذ من هذا الجيب ، وذلك في اليوم الذي بدت فيه بريطانيا وقد التزمت التزاماً لا مفر منه بتوقيعها ميثاق المساعدة المتبادلة مع بولندة ضد العدوان الألماني . وقرأ هتلر رسالة الدوتشي ، وقال لاتوليكو انه سيرد عليها فوراً . ثم صرف المبعوث الايطالي من حضرته بصورة تنطوي على البرود الكامل .

وسمع الدكتور شميدت هتلر يعلق بمرارة بعد مغادرة اتوليكو قائلاً : « ان الايطاليين يسلكون الآن عين سلوكهم في عام ١٩١٤ . » وتجاوبت ارجاء المستشارية تلك الليلة بأصداء السباب التي انهالت على « الحليف الخائن في المحور » لكن العبارات لم تكن كافية . فلقد كان من المقرر ان يزحف الجيش الألماني على بولندة بعد تسع ساعات ، اذ كانت الساعات قد بلغت السادسة والنصف من مساء الخامس والعشرين من آب ، وكان من المقرر ان يبدأ الغزو في الرابعة والنصف من صباح السادس والعشرين . وتحتم على الديكتاتور النازي أن يقرر فوراً على ضوء الانباء التي تلقاها من لندن وروما ، هل يمضي قدماً في خطته أو يؤجلها أو يعدل عنها .

وعندما خرج شميدت يرافق اتوليكو في انصرافه من مكتب هتلر ، اصطدم بالفريق كايتل وهو يهرع ماضياً لمقابلة الفوهرر . .ولم تمض دقائق حتى كان الفريق يركض خارجاً وهو يهتف إلى مساعده بحماس ... « يجب تأجيل الأمر بالتقدم من جديد » .

وهكذا اتخذ هتلر قراره بسرعة بعد ان وجد نفسه محصوراً في الزاوية التي وضعه فيها كل من موسوليني وتشمبرلين . ودوّن هولدر في يومياته يقول : « ان الفوهرر يرتجف بشدة » .. ثم مضى يقول :

« الساعة ٧,٣٠ – أبرمت المعاهدة بين بولندة وانكلترا . لن تبدأ العمليات الحربية . يجب وقف كافة الحركات العسكرية حتى ولو على مقربة من الحدود إذا استحال وقفها بعيداً عنها .

« ٨,٣٥ – أيد كايتل الامر . كاناريس : أصدر الأمر هاتفياً

برفع الخطر عن انكلترا وفرنسا . تأكيد تطورات الاحداث » .

ويقدم السجل البحري الالماني صورة أكثر دقة عن عمليـــة التأجيل مـــع الاسباب التي أدت اليها :

« ٢٥ آب – يجب وقف العملية البيضـــاء التي شرع فعلاً في تنفيذها في الساعة ٢٠،٣٠ (٨،٣٠) ، بسبب تبـــدل الأوضاع السياسية . (ميثاق المساعدة المتبادلة بين انكلترا وبولنـدة الذي وقع ظهر ٢٥ آب ، والانباء الواردة من الدوتشي والتي تقول بأنه سيفي بالتزاماته ويحافظ على وعده ولكنه يطلب تموينات ضخمة من المواد الأولية . » [١]

وافضى ثلاثة من كبار المتهمين في محاكمات نورمبرغ عند استجوابهم ، بمـــا يعرفونه عن تأجيل الهجوم .[٢] فلقد ادعى ريبنتروب انه عندما سمع بالميثـاق الانكليزي – البولندي و « سمع » بأن هناك « خطوات عسكرية يجري إتخاذها ضد بولندة » – وكأنه لم يكن يعرف من قبل شيئاً عن الهجوم – ذهب « فوراً » إلى الفوهرر ، وحثه على إلغاء غزو بولندة « فاستجاب الفوهرر فوراً لطلبه . » وليس ثمة من شك في أن أقواله كلها خالية من الصحة .

ولكن يبدو أن شهادتي كايتل وغورنغ كانتا على الأقل اكثر صدقـاً . فقـد قال كايتل على منصة الشهادة في نورمبرغ : « استدعيت فجأة لمقابلة هتلر في دار المستشارية ، وعندما قابلته قـال لي : « اوقف كل شيء فوراً . وابعث بطلب براوختش على التو . فأنا في حاجة إلى بعض الوقت للتفاوض . »

وايد غورنغ في استجوابه قبيل المحاكمة في نورمبرغ الفكرة القائلة بأن هتلر كان لا يزال يعتقد حتى تلك الساعة المتأخرة بأن في وسعه ان يخلص من الورطة

---

١ – المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٧٧ – ٩٧٨) .

٢ – استجواب ريبنتروب في ٢٩ آب ١٩٤٥ (المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٥٣٥ – ٥٣٦) واستجواب غورنغ في ٢٩ آب ١٩٤٥ (المؤامرة النـــازية والعدوان (٧) ص ٥٣٤ – ٥٣٥) وشهادة كايتل في نورمبرغ في ٤ نيسان ١٩٤٦ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٥١٤ – ٥١٥) .

التي اوقع نفسه فيها عن طريق التفاوض . وقال المشير :

« في اليوم الذي قدمت فيه بريطانيا ضمانتها الرسمية إلى بولندة طلبني الفوهرر هاتفياً وابلغني انه اوقف الغـــزو المقرر لبولندة . وسألته اذا كان هذا الوقف مؤقتاً او دائماً فقال : « لا ، أود ان اری ما إذا كان بإمكاننا ان نحول دون تدخل بريطانيا . »

وعلى الرغم من أن مروق موسوليني في اللحظة الاخيرة على الحلف كان ضربة موجعة لهتلر ، إلا أن من الواضح في هذه الشهادة السابقة ان عمل بريطانيا في توقيـع معاهدة العون المتبادل مع بولندة ، كان أقوى أثراً في إقنـاع الزعيم الألماني بتأجيل الهجوم . ومع ذلك ، فإن من الغريب أن يظل هتلر على اعتقاده بأن في وسعه ان « يحول دون تدخل بريطانيا » كما قـــال لغورنغ ، وذلك بعـــد ان استمع من السفير هندرسون في اليوم نفسه إلى التحـــذير بأن بريطانيا ستحارب إذا هوجمت بولنـــدة ، وبعد ان عززت الحكومة البريطانية التزاماتها السابقة بمعاهدة رسمية . ومن المحتمل ان تكون تجربته مع تشمبرلين في ميونيخ قد حملته على الاعتقاد بأن رئيس الوزراء قد يستسلم مرّة ثانية إذا « طبخت » طريقه صالحـــة للخلاص من الورطة . ولكن من الغريب ايضاً ان يكون هذا الرجل الذي اظهر في السابق بعد نظر كبـير في السياسات الخارجية لم يعرف حقيقة التبدل الذي طرأ على تشمبرلين وعلى موقف بريطانيا. فهتلر هو الذي استفز هذه التبدلات على أي حال .

وتطلب وقف الجيش الالماني عن الزحف عشية الخامس والعشرين من آب الكثير من الجهد ، إذ أن وحدات كثيرة كانت قد شرعت بالفعل في زحفها . ووصل الأمر بوقف الهجوم إلىمقر قيادة الفريق بيتزل في الفيلق الأول في بروسيا الشرقية في الساعة التاسعة والدقيقة السابعة والثلاثين مساء . ولم يكن بالامكان وقف القطعات الامامية عن اجتياز الحدود إلا بعد جهود هائلة بذلهـا نفر من الضباط الذين أوفدوا على جناح السرعة إلى الخطوط الأمامية . وكانت أرتال الفيلق المدرع الذي يقوده الفريق فون كلايست في الجنوب قـــد شرعت في

التحرك عند الغسق متجهة إلى الحدود البولندية . ولم يكن بالإمكان وقفها إلا عند الحدود تماماً ، بعد ان هبط ضابط من ضباط الأركان بطيارتـه الكشفية السريعة على الحدود ، ليأمرها بالتوقف . ولم تصل الاوامر إلى بعض القطاعات إلا بعد ان كان اطلاق النار قد بدأ فعلاً . ولكن لما كان الالمان قد الفوا منذ أيام عدة استفزاز الحوادث على طول الحدود فإن هيئة أركان الحرب البولندية كما يبدو لم يساورها الشك في حقيقة ما وقع . وكان كل مـا اعلنته في السادس والعشرين . ان عدداً من «العصابات الالمانية» قد اجتاز الحدود وهاجم الحصون البولندية ومراكز الجمارك بنيران الاسلحة الرشاشة والقنابل اليدوية ، وان هذه العصابات كانت « في جهة واحدة على الاقل من فصائل الجيش الألماني » .

فرح « المتآمرين » وتبلبلهم

اثارت انباء مساء الخامس والعشرين من آب ، بوقف هتلر هجومه المقرر على بولندة ، موجة طاغية من الفرح عند الاعضاء المتآمرين من رجـال المخابرات الالمانية . وسرعان ما نقل العقيد اوستر الانباء إلى شاخت وغيزيفيوس صارخاً : « لقد انتهى الفوهرر » ، وكان الاميرال كاناريس في صباح اليوم التالي اكثر تحليقاً في الخيالات والاوهام إذ قال : « لن يستطيـع هتلر البقاء بعد هـذه الضربة . ولقد امكن الحفاظ عـلى السلام للعشرين سنة القادمة » ، وخيّل للرجلين انه لم تعد ثمة حاجة لبذل أي جهد للاطاحة بالديكتاتور النـازي إذ انه انتهى .

وكان المتآمرون أو الذين يطلقون على انفسهم هذا الاسم طيـلة الاسابيع العديدة التي مضت قبل اقتراب ذلك الصيف القدري من نهايته ، قد عادوا إلى العمل ، على الرغم من صعوبة فهم ما كانوا يهدفون إليه حقاً . وكان غويردلر وآدام فون تروت ، وهيلموث فون مولتكيه ، وفابيـان فون شلابريندورف ورودولف بيشيل قد حجوا إلى لندن ، وهناك ابلغوا تشرشل والقادة البريطانيين

الآخرين ، بالاضافة إلى تشمبرلين وهاليفاكس ، ان هتلر ، قد وضع خططه لمهاجمة بولندة في نهاية شهر آب . وقد رأى خصوم هتلر هؤلاء من الالمان بأنفسهم أن بريطانيا من اصغر رجل فيها إلى تشمبرلين ، حامل المظلة، قد تبدّلت كل التبدل عن ايام ميونيخ. وأدرك هؤلاء أن الشرط الوحيد الذي وضعوه هم قبل نحو من عام ، لتنفيذ تصميمهم على الخلاص من هتلر، وهو قيام بريطانيا وفرنسا بالاعلان عن عزمها على مقاومة أي عدوان نازي مقبل بالقوة المسلحة ، قد نفذ الآن . إذن ما الذي كانوا يبغونه الآن اكثر من هذا ؟ ليس هناك في الوثائق التي خلفوها ما يشير إلى مطلبهم ، ولا ريب في ان المرء ليقع تحت الانطباع بأنهم لم يكونوا هم انفسهم يعرفون ما يريدون . وعلى الرغم من حسن نواياهم التي لا شك فيها ،إلا انهم كانوا واقعين تحت سيطرة حالة من الفوضى واحساس من اللاجدوية يشلهم عن العمل. فلقد كانت سيطرة هتلرعلى المانيا بجيشها وشرطتها وحكومتها وشعبها كاملة إلى الحد الذي لا يمكن اضعافها إو تحطيمها عن طريق أي عمل قد يفكرون به .

وقام هاسيل في الخامس عشر من آب ، بزيارة الدكتور شاخت في مسكنه الجديد في برلين الذي يعيش فيه حياة العزّاب . وكان وزير الاقتصاد المقال من منصبه قد عاد لتوه من رحلة إلى الهند وبورما استغرقته ستة اشهر . ودوّن هاسيل في يومياته : « يرى شاخت ان ليس في وسعنا ان نفعل شيئاً سوى ان نفتح عيوننا وان ننتظر ، فالأمور ستسير في طريقها المحتوم » وتروي يوميات هاسيل ايضاً انه قال لغيزيفيوس في نفس اليوم انه « يؤيد ايضاً تأجيل أي عمل مباشر في الوقت الحاضر » .

ولكن ترى ما هو العمل المباشر الذي رأى تأجيله ؟ فالفريق هولدر ، وهو لا يقل تلهفاً عن هتلر على تحطيم بولندة ، لم يكن ليهتم في هذه الآونة بالخلاص من الديكتاتور . والفريق فون ويتزليبين الذي كان من المقرر أن يقود القوات التي ستطيح بالفوهرر قبل عام ، بات الآن على رأس مجموعة من الجيوش في الغرب ، ولذا لم يعد في وضع يمكنه من العمل في برلين حتى ولو أراد ذلك . ولكن

أكانت لديه هذه الرغبة ؟ لقد قام غيزيفيوس بزيارته في مقر قيادته ، ووجده مصغياً إلى نشرة الأخبار من الاذاعة البريطانية ، فأدرك لتوه ، ان الفريق لا يهتم الآن إلا بمعرفة ما يحدث حوله .

أما بالنسبة إلى الفريق هولدر، فقد كان مشغولاً إلى قمة رأسه بإعداد الخطط الاخيرة لاكتساح بولندة ، إلى الحد الذي ابعد تفكيره عن أية مشاريع خائنة للخلاص من الفوهرر . وعندما سئل بعد الحرب في نورمبرغ ، أي في السادس والعشرين من شباط عام ١٩٤٦ ، عن الاسباب التي منعته هو واقرانه من اعداء العهد النازي المزعومين من عمل أي شيء في الايام الاخيرة من شهر آب للاطاحة بالفوهرر وانقاذ المانيا بذلك من التورط في الحرب ، تلعثم ولم يدر ما يقول ... واخيراً رد قائلاً : « لم يكن هذا ممكناً » ، وعندما سئل عن السبب قال لأن الفريق فون ويتزليبين كان قد نقل إلى الجبهة الغربية . ولم يكن في وسع الجيش ان يفعل شيئاً بدون هذا القائد .

ولكن ما موقف الشعب الألماني ؟ فعندما وجه النقيب سام هاريس ، المحقق الامريكي إلى هولدر هذا السؤال ، مذكراً أياه بما سبق له ان قاله من ان الشعب الالماني كان معارضاً للحرب .... ومضيفاً اليه السؤال التالي : « وإذا كان هتلر قد بات ملتزماً بصورة لا تقبل النقض بشن الحرب ، فلماذا لم تستطع الاعتماد على تأييد الشعب الألماني قبل غزو بولندة ؟ » ، رد هولدر قائلاً : « ارجو أن تغفر لي إذا ابتسمت ، فعندما أسمع عبارة « لا تقبل النقض » مقرونة بهتلر لا يسعني إلا ان ابتسم . إذ لم يكن لديه أي شيء لا يقبل النقض » . ومضى رئيس هيئة اركان الحرب يشرح ، كيف انه حتى الثاني والعشرين من آب وبعد ان حسر هتلر النقاب لقادته العسكريين في اجتماع أوبرسالزبرغ عن قراره « الذي لا يقبل النقض » بمهاجمة بولندة ومحاربة الغرب إذا اقتضى الأمر ، لم يصدق ان الفوهرر صادق في عزمه على ان يفعل ما يريد فعله . [1] وإذا ما ألقينا نظرة على ما كتبه هولدر نفسه في يومياته عن هذه الفترة ، تبيّن

---

١ — المؤامرة النازية والعدوان الملحق . ب . ص ١٥٦١ - ١٥٦٣

لنا أن هذا القول يستثير الدهشة . ولكن هذا التناقض لا ينطبق على هولدر وحده بل على كافة المتآمرين الآخرين ايضاً .

واين كان الفريق بيك ، سلف هولدر في رئاسة أركان حرب الجيش ، والزعيم المعترف به لجماعة المتآمرين ؟ . يقول غيزيفيوس ان بيك وجّه رسالة إلى الفريق فون براوختش ، ولكن القائد العام للجيش لم يعترف حتى بتسلمها . ويقول غيزيفيوس ايضاً ان بيك تحدث طويلاً إلى هولدر الذي اتفق معه على ان الحرب الكبرى تعني دمار المانيا ، ولكنه يرى ان « هتلر لن يسمح بنشوب حرب عالمية » ، وانه تبعاً لذلك ، ليس ثمة من حاجة في الوقت الحاضر لمحاولة الاطاحة به . [1]

وفي الرابع عشر من آب تناول هاسيل العشاء وحيداً مع بيك وسجل في يومياته ما أحسّا به من شعور بخيبة الامل ... فقال :

« ليس ثمة من شك في ان بيك رجل مثقف وجذاب وذكي غاية الذكاء . ومن سوء الحظ انه يحمل رأياً سيئاً عن القادة البارزين في الجيش . ولهذا السبب لا يستطيع ان يرى مكاناً هناك يضع قدمه فيه . وهو واثق ثقة مطلقة من الطبيعة الشريرة لسياسات الرايخ الثالث » [2]

وليس ثمة من شك في ان معتقدات بيك ومن حوله كانت سامية ونبيلة ، ولكن عندما شرع ادولف هتلر يعد العدة للدفع بألمانيا الى الحرب ، لم يحاول أي من هؤلاء الألمان المحترمين وقفه عند حده . وكانت المهمة كما هو واضح شاقة في مثل هذه الساعة المتأخرة وصعبة على التحقيق ، وكان من الواضح ايضاً انهم لم يقوموا حتى بأية محاولة لتحقيقها .

ومن المحتمل ان يكون الفريق توماس قد قام بمثل هذه المحاولة . فعلى اثر المذكرة التي كان قد قدمها الى كايتل في منتصف شهر آب والتي كان قد تلاها

---

١ ـ غيزيفيوس ـ حتى النهاية المرة ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩

٢ ـ هاسيل ـ يوميات ـ ص ٥٩ .

شخصياً على مسامعه ، عاد يزوره في مكتبه في القيادة العامة للقوات المسلحة يوم الاحد في السابع والعشرين من آب . وقد سلمه، على حد روايته، « ادلة احصائية مشفوعة بالرسوم البيانية يظهر بوضوح التفوق الهائل الذي يملكه الحلفاء الغربيون في الاقتصاد الحربي ، والشدائد التي يتحتم علينا ان نواجهها ». وعرض كايتل بشجاعة لم يعهدها بنفسه ، هذه المواد على هتلر ، الذي اجابه بأنه لا يتفق مع الفريق توماس « في قلقه من خطر نشوب حرب عالمية ، لا سيما وقد تمكن الآن من كسب الاتحاد السوفياتي الى جانبه »[1]

وهكذا انتهت محاولات «المتآمرين» لمنع هتلر من شن الحرب العالمية الثانية. هذا اذا استثنينا الجهود الضعيفة التي بذلها الدكتور شاخت في اللحظة الاخيرة والتي حاول المالي الداهية ، المتاجرة بها كثيراً في الدفاع الذي تقدم به في محكمة نورمبرغ . فلقد بعث عند عودته من الهند في شهر آب برسائل الى هتلر وغورنغ وريبنتروب – ويبدو ان اياً من زعماء المعارضة لم يمض في تلك اللحظة القدرية الى ابعد من توجيه الرسائل والمذكرات – ولكنه لدهشته البالغة ، كما قال فيما بعد لم يتلق أي رد عليها . وقرر بعد ذلك ان يمضي الى زوسين التي تبعد بضعة اميال الى الجنوب الشرقي من برلين حيث اقامت القيادة العليا للجيش مقراً لها لتولي الاشراف على الحملة البولندية ، ليقابل شخصياً الفريق فون براوختش . ولكن لماذا يقابله ؟ لقد اوضح شاخت على منصة الشهادة في نورمبرغ انه اراد ان يقول لقائد الجيش بأن مضي المانيا إلى الحرب دون موافقة الرايشستاغ عمل يناقض الدستور ! ولذا فان من واجب القائد العام للجيش ان يحترم اليمين الذي اقسمه بالحفاظ على الدستور .

ومما يؤسف له ان الدكتور شاخت لم يستطع مقابلة براوختش . فقد حذره الاميرال كاناريس من انه اذا ذهب الى زوسين ، فقد يأمر القائد العام « باعتقالنا جميعاً وعلى الفور » ، وهو مصير لم يبد جذاباً لهذا النصير السابق لهتلر .[2] لكن

١ – توماس – التفكير والتطورات .

٢ – شهادة الدكتور شاخت في ٢ ايار ١٩٤٦ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٢) ص ٥٤٥ – ٥٤٦)

السبب الحقيقي لعدم ذهاب شاخت الى زوسين في مهمته المضحكة – اذ كان من لعب الاطفال بالنسبة الى هتلر ان يحصل على ختم الرايشستاغ تصديقاً لقراره في شن الحرب ، وهو لا يريد حتماً ازعاج نفسه بمثل هـــذه الشكليات – ظهر في الشهادة التي قدمها غيزيفيوس في نورمبرغ دفاعاً عن شاخت. ويبدو ان شاخت قد حزم نفسه على الذهاب الى زوسين في الخامس والعشرين من آب ؛ ولكنه ما لبث ان عدل عن رحلته عندما امر هتلر في تلك الليلة بتأجيل الهجوم على بولندة الذي كان من المقرر اجراؤه في اليوم التالي . وروى غيزيفيوس في شهـادته ان شاخت قرر ثانية وبعد ثلاثه ايام اداء رسالته في زوسين ولكن كاناريس ابلغـه ان الوقت قد فات على هـذه المهمة .[1] ولم تكن القضية ان المتآمرين لم يلحقوا بالباص ، وانما كانت في انهم لم يصلوا قط الى محطة الباص ولم يحاولوا اللحاق به.

ولم يكن زعماء العـالم الحيادي الكثر ، يبزّون تلك الزمرة من الالمان المناهضين للنازية في التأثير على هتلر ، لوقف يده عن الامتداد إلى جيرانه ، على الرغم من النداءات التي وجهوهـــا اليه الآن لتجنب الحرب . وبعث الرئيس روزفلت في الرابع والعشرين من آب رسالتين عـــاجلتين الى هتلر وإلى رئيس جمهورية بولندة ، يلحف عليهما فيهما ، بوجوب تسوية خلافاتهما دون اللجوء إلى السلاح . وقد رد الرئيس موزسيكي ، في برقية تنطوي على الانفة في اليوم التالي مذكراً روزفلت ان بولندة ليست الدولة «التي تضع الشروط وتطلب الامتيازات ومع ذلك فهي على اتم استعداد لتسوية خلافاتها مع المانيا عن طريق التفاوض المباشر او التوفيق على النحو الذي يقترحه الرئيس الامريكي .» ولم يرد هتلر على البرقية ، وكان روزفلت قد ذكره بأنه لم يتلق رداً حتى الآن على ندائه الذي وجهه اليه في نيسان الماضي ، وراح روزفلت يبعث في اليوم التالي ، أي الخامس والعشرين من آب ، رسالة ثانية يبلغ هتلر فيها رد موزسيكي الميال الى التفاهم ، ويرجوه ان « يوافق على اجراءات مهدئة للتسوية قبلت بها الحكومة البولندية. »

---

١ – شهادة غيزيفيوس في ٢٥ نيسان ١٩٤٦ (محـاكمات كبار مجرمي الحـرب (١٢) ص ٢٢٤ – ٢٢٥)

ولم يرد هتلر على الرسالة الثانية ايضاً ، وان كان وايزساكر قد استدعى عشية السادس والعشرين من آب القائم بالاعمال الامريكي في برلين، اليكزاندر كيرك ؛ وطلب اليه ابلاغ الرئيس بأن الفوهرر قد تلقى البرقيتين وانه قد سلمها « الى وزير الخارجية لتتولى الحكومة دراستها . »

وارتفع صوت البابا يذيع من الفاتيكان في الرابع والعشرين من آب ، نداء للسلام يستحلف فيه « الاقوياء بدم السيد المسيح ، ان يستمعوا اليه ، حتى لا يتحولوا إلى أُناس ضعفاء عن طريق الظلم ... هذا إذا رغبوا في ان لا تتحول قوتهم إلى دمار » . وبعث البابا بعد ظهر الواحد والثلاثين من آب مذكرات متشابهة إلى حكومات المانيا وبولندة وايطاليا والدولتين الغربيتين « مناشداً أياها بالله ان تعمل الحكومتان الألمانية والبولندية على تجنب أي حادث »وراجياً حكومات بريطانيا وفرنسا وايطاليا ان تدعم نداءه واضاف قائلاً :

« لا يود البابا أن يتخلى عن الأمل في ان المفاوضات المتوقعة قد تؤدي إلى حل سلمي عادل . »

ولم يدرك قداسته ، كما لم يدرك كل انسان في العالم ايضاً ان « المفاوضات المتوقعة » لم تكن الا حيلة دعائية لجأ اليها هتلر لتبرير عدوانه. وسيدرك القارىء بعد قليل ، انه لم تكن هناك في الواقع اية مفاوضات حسنة الطوية ، متوقعة او غير متوقعة ، بعد ظهر ذلك اليوم الاخير من ايام السلام .

وكان ملك البلجيك قبل بضعة ايام ، أي في الثالث والعشرين من آب ، قد اذاع باسم رؤساء دول ميثاق «اوسلو» وهي بلجيكا وهولندة واللوكسمبورغ وفنلنده والدول الاسكندينافية الثلاث ، نداء مؤثراً للسلام مناشداً « الرجال المسؤولين عن سير الاحداث ان يعرضوا خلافاتهم ومطالبهم على المفاوضات الصريحة ». وعرض ملك البلجيك وملك هولندة في الثامن والعشرين من آب وساطتهما المشتركة « املاً فى تجنب الحرب »[1].

وعلى الرغم مما في هذه النداءات المحايدة كلها من نبل في النية والشكل إلا

---

١ ـ نصوص جميع هذه النداءات في الكتاب البريطاني الازرق ص ١٢٢ ـ ١٤٢ .

انها تنطوي على شيء من اللاواقعية والعواطف عندما يعود المرء الى قراءتها اليوم فهي تبدو وكأن رئيس الولايات المتحدة والبابا وحكام الدول الديموقراطية الأوروبية الشمالية يعيشون على كوكب آخر غير الكوكب الذي يقوم الرايخ الثالث فيه، ولا يفهمون عما يدور في برلين اكثر من فهمهم عما يقع في المريخ. ولا ريب في ان هذا الجهل بعقل ادولف هتلر وطبيعته واهدافه بل وبعقول الالمان وطبيعتهم واهدافهم الذين، باستثناء قلة قليلة منهم، كانوا على استعداد للسير وراءه على عمىً، اينما اراد، وكيفما شاء، دون اكتراث بالاخلاق والشرائع والشرف والمفهوم المسيحي عن الانسانية، قدر له ان يكلف الشعوب التي تولى روزفلت وملوك بلجيكا وهولندة واللوكمسبورغ والنروج والدانمارك قيادها ثمناً غالياً في الاشهر القادمة.

أما نحن الذين كنا نعيش في برلين في غضون تلك الايام العصيبة القليلة والاخيرة من ايام السلام، والذين كنا نحاول ان ننقل إلى العالم ما يقع من حوادث، فلم نكن ندري إلا القليل عما يقع في الويلهلمشتراسه مقر المستشارية ووزارة الخارجية او في البندلرشتراسه حيث يقبع العسكريون في مكاتبهم. وكنا نلاحق بكل ما لدينا من وسائل ذلك التيهور الهائل من الشائعات والهمسات والاكاذيب المقصودة. وكنا نعرف امزجة الناس في الشوارع، وامزجة موظفي الحكومة وزعماء الحزب والدبلوماتيين والعسكريين الذين تربطنا اليهم معرفة. لكننا كنا نجهل كل الجهل في ذلك الحين، كما يجهل الناس جميعاً، حقيقة ما يقال في المقابلات العديدة العاصفة بين هتلر وريبنتروب وهندرسون، وما يدور من مراسلات بين هتلر وتشمبرلين وبينه وبين موسوليني أو ستالين، وما تجري الاحاديث عنه بين ريبنتروب ومولوتوف أو بينه وبين شيانو. وما تضمه جميع هذه البرقيات الرمزية السرية التي تنقلها اسلاك البرق بين الدبلوماتيين الذين يكادون يسقطون اعياء وتعباً وبين وزارات خارجيتهم، وما يعده القادة العسكريون من خطط وحركات.

ولكننا نعرف كما كان الجمهور يعرف، بعض الأمور على الأقل. فلقد طبل

الالمان وزمروا للميثاق النازي ـ السوفياتي الى ان وصلت اصوات تطبيلهم إلى عنان السماء ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان الملحق السري الذي يقضي بتقسيم بولندة وما تبقى من اوروبا الشرقية ، ظل سراً من الاسرار الى ان انتهت الحرب . وكنا نعرف ان هندرسون قد طار إلى برختسغادن حتى قبل توقيع هذا الميثاق ليؤكد لهتلر ان هذا الاتفاق لن يمنع بريطانيا من الوفاء بالتزاماتها لبولندة . وعندما استهل الاسبوع الاخير من شهر آب ، شعرنا في برلين ان الحرب واقعة لا مناص منها وانها ستقع في غضون بضعة ايام ، إلا إذا وقعت ميونيخ ثانية . ورحل عن المانيا في الخامس والعشرين من آب ، آخر فوج من المدنيين البريطانيين والفرنسيين ، واعلن في برلين في اليوم التالي الغاء المهرجان النازي الكبير في تاننبرغ الذي كان من المقرر عقده في السابع والعشرين من آب ليخطب فيه هتلر ، كما الغي المهرجان السنوي في نورمبرغ والذي اطلق علية اسم مهرجان الحزب للسلام والذي كان من المقرر عقده في الاسبوع الاول من ايلول واعلنت الحكومة في السابع والعشرين من آب تقنين المواد الغذائية والصابون والاحذية والمنسوجات والفحم وتوزيعها بالحصص اعتباراً من اليوم التالي . واني لأذكر ان هذا الاعلان ، كان اكثر من أي إجراء آخر ، تأثيراً في تبصير الشعب الالماني باقتراب الحرب ، وبدأنا نسمع الناس يتأففون من هذا التطور . وشهد أهل برلين يوم الاثنين في الثامن والعشرين من آب الجنود وهم يجتازون شوارع المدينة متجهين الى الشرق « وقد استقلوا عربات مكشوفة ، وشاحنات عادية ، وكل وسيلة من وسائل النقل التي تتيسر لهم .

ولا ريب في ان هذا المنظر قد فتح عيون الناس العاديين إلى حقيقة ما هو واقع . واني لاذكر الآن ان عطلة نهاية الاسبوع تلك تميزت بالحرارة الشديدة والرطوبة ، وراح معظم اهل برلين ، غير مكترثين بما قد يقع قريباً ، يحملون انفسهم إلى الغابات والبحيرات التي تحيط بالعاصمة . وعندما عادوا إلى المدينة مساء الاحد ، عرفوا من الاذاعة ، ان مجلس الرايشستاغ قد دعي إلى جلسة سرية وغير رسمية في دار المستشارية . واذاعت وكالة الانباء الالمانية الرسمية بلاغاً

رسمياً اعلنت فيه: «ان الفوهرر اوضح لاعضاء المجلس خطورة الوضع » . وكانت هذه هي المرة الأولى ، التي يعلن فيها هتلر لجماهير الالمان ان الساعة باتت عصيبة. ولم تذع أيـــة تفاصيل عن الاجتماع ، كما لم يدرِ أحد باستثناء أعضاء الرايشستاغ وافراد حاشية هتلر بالحـالة النفسية التي كان الديكتاتور النازي فيهـا في ذلك اليوم . وقد أمنت لنا يومية هولدر بتاريخ الثـــامن والعشرين من آب صورة متأخرة زوّده بها العقيد اوستر من رجال المخابرات :

« عقد مؤتمر في دار المستشاريـة في الخامسة والنصف مساء . شهده اعضاء الرايشستاغ وعدد من كبار رجال الحزب ... الوضع خطير للغاية . الفوهرر مصمم على حل المسألة الشرقية بأيـة وسيلة من الوسائل . إن اقل ما يطلبه اعادة دانزيغ للرايخ وتسوية مشكلة الرواق . أما اكثر ما يطلبه ، « فمتوقف على الوضع العسكري » . إذا لم يعط الفوهرر أقل ما يطلبه فالحرب واقعة حتماً . يا لهـا من وحشية ! سيكون الفوهرر في الخط الاول . كان موقف الدوتشي في مصلحتنا .

« ستكون الحرب شاقة ، وقد تكون يائسة . يقول هتلر : « لن يكون هناك حديث عن الاستسلام طالما انا على قيد الحياة » اساء الحزب فهم الميثاق السوفياتي. انه ميثاق مع أبليس لطرد الشيطان. لقيت تحذيرات الفوهرر، استحساناً ولكن الهتاف لم يكن مدوياً .

« انطباعي الشخصي عن الفوهرر انه منهك ، شاحب الوجه صوته شديد الرجفة ، غارق في العمل يحيط به دائمـــاً مستشاروه من قادة الحرس النازي . »

وكان في وسع أي مراقب اجنبي في برلين ان يرقب الطريقـــة التي كانت تتبعها الصحف تحت اشراف غوبلز الخبير ، لتضليل الشعب الالماني السليم الطوية. فمنذ ست سنوات ، أي منذ « توحيد » الصحف الالمانية الذي عنى انتهاء حرية الصحافة ، عزل المواطنون عن حقيقة ما يدور حولهم في العالم. وظلت الصحف

السويسرية الصادرة باللغة الالمانية في بال وزوريخ ، تبـــاع مدة من الزمن في « الاكشاك » الصحفية البارزة في المانيا وتقدم لقرائها انباء موضوعية ، ولكن منعت في السنوات الاخيرة من التوزيـع في الرايخ ، أو حددت النسخ التي تباع فيها بعدد قليل للغاية . وكانت هناك نسخ معدودة من صحف لندن وباريس ومجلاتها للألمان الذين يقرأون الانكليزية والفرنسية ، ولكن عددها لم يكن كافياً ليصل إلى اكثر من حفنة من الناس .

ودوّنت في يومياتي في العاشر من آب عام ١٩٣٩ ... أقول : «يا له من عالم معزول كل العزل ، يعيش فيه الشعب الالماني . ولا ريب في ان مجرد التطلع إلى صحف الامس واليوم يذكرك بهذه الحقيقة » . وكنت قد عدت إلى المانيـا من إجازة قصيرة قضيتها في واشنطن ونيويورك وباريس ، وعندما كنت استقل القطار من سويسرا حيث اقيم إلى المانيا قبل يومين ابتعت مجموعـــة من صحف برلين ومدن الراين . وسرعان ما اعادتني هذا الصحف إلى عالم النازية المهووس الذي يختلف كل الاختلاف عن العالم الذي تركته قبل قليل ، وكأنه كوكب آخر . ورحت ادوّن في يومياتي بتاريخ العاشر من آب بعـــد ان وصلت إلى برلين :

« بينما يعتبر معظم الناس في مختلف انحاء العالم ان المانيا توشك ان تحطم السلام ، وان المانيا هي التي تهدد بغزو بولندة ، يرى الناس هنا في المانيا ، في هذا العالم الذي تخلقه الصحف النازية المحلية ، النقيض تماماً. فكل ما تعلنه الصحف الالمانية هو ان بولندة هي التي تهدد السلام الاوروبي وانها هي تهدد المانيا بالغزو المسلح ...

« وتحمل البرلينر زايتونغ العنوان الضخم التـــالي « اسمعي يا بولندة ... الرد على بولندة ، الدولة التي لا تعي والتي تهدد السلام والحق في اوروبا . »

« وتحمل صحيفة الفوهرر ، الصحيفة اليوميـــة التي تصدر في كارلسرو والتي ابتعتها في القطـــار العنوان التـــالي « وارشو تهـدد

دانزيغ بقصف المدافع . تحريض لا يصدق من المجانين البولنديين .»
« وقد تقول : ولكن كثيرين من الألمان لا يصدقون هذه الاكاذيب . وتتحدث اليهم ، فترى ان الكثيرين منهم يصدقونها .»

وعندما حل السادس والعشرون من آب وهو اليوم الذي تقرر في البداية ان يكون موعد الهجوم على بولندة ، وصلت الحملة الصحفية التي يتولى غوبلز توجيهها الذروة في العنف . ودوّنت في يومياتي العناوين التالية :

« البرلينر زايتونغ : الفوضى الكاملة تعم بولندة – الاسر الالمانية تهرب – الجنود البولنديون يندفعون إلى حدود المانيا »
– وصحيفة الساعة الثانية عشرة ... « البولنديون يطلقون النار على طائراتنا – النار تشتعل في عدد من المزارع الالمانية في الرواق . »

وعندما كنت ماضياً في طريقي عند منتصف الليل إلى دار الاذاعة ، اشتريت عدد يوم الاحد (٢٧ آب) من الفولكشاير بيوباختر . وكانت تحمل في صدر صفحتها الأولى العناوين الضخمة التالية :

« حمّى الحرب تجتاح بولندة بأسرها ! تعبئة مليون ونصف المليون من الرجال ! حركة مستمرة للجنود باتجاه الحدود – الفوضى في سيلزيا العليا ! »

وبالطبع لم يكن هناك أي ذكر في هذه الصحف للتعبئة الالمانية ، على الرغم من الحقيقة الواقعة التي رأيناها ، وهي ان المانيا اتمت تعبئة قواتها .

الايام الستة الاخيرة من السلام

ما كاد هتلر يستفيق من « الدوش » البارد الذي حملته له رسالة موسوليني في الساعات المبكرة من مساء الخامس والعشرين من آب ، وهي الرسالة التي اشتركت مع انباء توقيع الحلف الانكليزي – البولندي في حمل هتلر على تأجيل الهجوم

على بولنده ، بعد ان كان قد قرر موعده في اليوم التالي ، حتى راح يبعث بمذكرة قصيرة الى الدوتشي يسأله فيها عن « المعدات الحربية والمواد الاولية التي يحتاجها ، والمدة التي يجب ان يتسلمها فيها » ، حتى تتمكن ايطاليا من « خوض حرب اوروبية كبرى » . وقد نقل ريبنتروب شخصياً هذه الرسالة عن طريق الهاتف الى السفير الالماني في رومه في الساعة السابعة والدقيقة الاربعين مساء وسلمت الى الديكتاتور الايطالي في الساعة التاسعة والنصف من نفس الليلة [١]

وعقد موسوليني في الصباح التالي اجتماعاً في رومة شهده قادة القوات الايطالية المسلحة ، لإعداد قائمة بأقل متطلبات هذه القوات لحرب تستغرق اثني‌عشرشهراً . اماشيانو الذي ساعد العسكريين في اعداد هذه القائمة فقد وصف الارقام « بأنها كافية لتقتل ثور اذا استطاع الثور قراءتها » [٢] فقد تضمنت سبعة ملايين طن من الزيت وستة ملايين طن من الفحم ومليوني طن من الفولاذ ومليون طن من الخشب ، وقائمة طويلة من الحاجات الاخرى التي تهبط الى ان تصل ستمائة طن من الموليبدينوم واربعمائة طن من التيتانيوم وعشرين طناً من الزركونيوم . وطلب موسوليني بالاضافة الى ذلك كله مائة وخمسين بطارية من المدافع المضادة للطائرات لحماية المنطقة الصناعية في شمال ايطاليا والتي لم تكن تبعد اكثر من عشرين دقيقة طيران عن القواعد العسكرية الفرنسية ، وهي حقيقة لم يسعه الا تذكير هتلر بها في الرسالة التي كان يعدها ليبعث بها اليه. وقد نقل شيانو هذه الرسالة هاتفياً الى اتوليكو في برلين بعد ظهر السادس والعشرين من آب ، وقد نقلها هذا بدوره فوراً الى هتلر . [٣]

وتضمنت الرسالة اكثر من هذه القائمة المنتفخة من المواد اللازمة لايطاليا . وقد اتضح الآن ان الزعيم الفاشي الانهزامي كان قد حزم امره على الاحتيال

---

١ ــ رسالة هتلر الى موسوليني في ٢٥ آب الساعة ٧،٤٠ مساء (وثائق وزارة الخارجية الالمانيه (٧) ص ٢٨٩) .

٢ ــ يوميات شيانو ص ١٢٩

٣ ــ رسالة موسوليني الى هتلر الساعة ١٢،١٠ بعد الظهر ٢٦ آب (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٣٠٩ ــ ٣١٠ .

للتخلص من التزاماته الى الرايخ الثالث ، ولا ريب في ان الفوهرر بعد قراءته هذه الرسالة الثانية قد تثبت تمام التثبت من هذه الحقيقة . اذ كتب موسوليني إلى رفيقه :

« أيها الفوهرر :

« ما كنت لابعث اليك بهذه القائمة ، ولو بعثتها فإنها ما كانت لتعدو عدداً صغيراً من المواد ، وارقاماً ضئيلة، ولو اتيح لي الوقت لمتفق عليه سابقاً لتجميع ما احتاجه من مواد احتياطية ، وللاسراع في تحقيق الاكتفاء الذاتي .

« وارى من واجبي ان ابلغك بأنه ما لم اتلق هذه التموينات ، فإن التضحيات التي قد أطالب الشعب الايطالي بتقديمها ... تكون غير مجدية وقد تؤدي إلى الاضرار بقضيتك بالاضافة إلى قضيتي . »

وراح السفير اتوليكو الذي كان يعارض الحرب ، ويمانع في دخول ايطاليا إلى جانب المانيا لو نشبت ، يؤكد لهتلر من نفسه عند تقديمه الرسالة اليه ، أن من الواجب ان تصل جميع هذه المواد إلى ايطاليا «قبل البدء بالعمليات الحربية» وان هذا الطلب « حاسم » لا يقبل المساومة . [١]

وكان موسوليني لا يزال يأمل في وقوع ميونيخ ثانية . واضاف الى رسالته فقرة اعلن فيها استعداده الكامل لتقديم كل ما لديه من عون لزميله الالماني ، اذا كان الفوهرر يعتقد بوجود « أي إمكان مهما كان نوعه للوصول الى حل في الميدان السياسي » وعلى الرغم من ميثاق الفولاذ الذي يشدهما الى بعضهما ، ومن جميع مظاهر الضجيج عن تضامنهما في السنوات الماضية، فقد ظلت الحقيقة

١ــ اثارت هذه الاقوال المزيد من الحنق في برلين كما اثارت بعض الاضطرابات في رومه ، مما تحتم على شيانو تهدئته . وقال اتوليكو فيما بعد انه اصر متعمداً على التسليم الكامل لهذه المواد قبل البدء بالحركات الحربية « لاثبط من عزائم الالمان وامنعهم من الاستجابة لطلباتنا » . فلقد كان من المستحيل كل الاستحالة تسليم ثلاثة عشر مليون طن من المواد في غضون ايام قليلة ، واعتذر موسوليني الى السفير فون ماكنزن على ما وقع من سوء تفاهم مضيفاً « ان الله نفسه لا يستطيع ان ينقل هذه المواد الى هنا في غضون بضعة ايام » واضاف انه لم يخطر بباله قط ان يوجه مثل هذا الطلب الغريب (يوميات شيانو ص ١٢٩ ووثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٣٢٥)

المجردة واقعة وهي ان هتلر لم يسر إلى موسوليني بهدفه الحقيقي وهـو تحطيم بولندة ، وان الشريك الايطالي ظل يجهل هذا الهدف . ولم تسد هـذه الفجوة التي تفصلهما عن بعضهما نهائياً إلا في نهاية ذلك اليوم ، السادس والعشرين مـن آب .

ولم تمض ثلاث ساعات من ذلك اليوم نفسه حتى كان هتلر يرسل رداً طويلاً على رسالة الدوتشي . وقد قام ريبنتروب ايضاً بنقلها هاتفياً في السـاعة الثالثة والدقيقة الثامنة الى سفيره فون ماكنزن في رومه ، الذي تولى ايصالها بسرعة الى موسوليني بعد الساعة الخامسة مساء . وقال هتلر في رسالته انه على الرغم مـن ان بعض مطالب ايطاليا من الفحم والفولاذ يمكن اجابتها واعطائها الى ايطاليا كاملة ، الا ان بعض المطالب الاخرى لا يمكن تحقيقها ، على أي حال ، لا يمكن بأي شكل من الاشكال تنفيذ ما اصر عليه اتوليكو وهـو تأمين هذه المواد وايصالها الى ايطاليا قبل بدء الحركات الحربية .

واخيراً ، راح هتلر يبوح إلى صديقه وحليفه بحقيقـة نواياه واهدافه الفورية فقال :

« لما كانت فرنسا وبريطانيا عاجزتين عن تحقيق أية انتصارات حاسمة في الغرب وكنتيجة للاتفاق مع روسيا ، فإن المانيا تستطيع ان تحرر جميـع قواتها في الشرق بعد هزيمة بولندة... ولهذا فإنني لن اتقاعس عن حل المشكلة في الشرق حتى ولو كانت هناك مغامرة بوجود تعقيدات في الغرب .

« وانني لافهم موقفك يا دوتشي ، ولا اطلب اليك اكـثر من تحقيق إشغال قوات انـكليزية فرنسية كبيرة عن طريق الدعايـة الناشطة والتظاهرات العسكرية المناسبة على النحو الذي اقترحته علي في رسالتك . (١)

وتعتبر هذهالرسالة اول دليل في الوثائق الالمانية على ان هتلر قد استعاد ثقته

---

١ ـ رسـالة هتلر الى موسوليني في ٢٦ آب الساعة ٣،٠٨ (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٣١٣ ـ ٣١٤ .

وقرر استئناف خططه بعد أقل من اربع وعشرين ساعة من الغائه الهجوم على بولندة ، حتى ولو غامر في ذلك بنشوب حرب في الجبهة الغربية .

وبذل موسوليني في نفس الليلة ، ليلة السادس والعشرين من آب ، نوعاً من المحاولة ، لاقناعه بالعدول عن مخططه ، فبعث برسالة ثانية إلى الفوهرر تولى شيانو نقلها هاتفياً إلى أتوليكو ، ووصلت إلى دار مستشارية الرايخ قبيل السابعة مساء . وهذا نصها :

« اعتقد ان سوء التفاهم الذي وقع فيه اتوليكو ، دون سابق تصميم واصرار ، قد أوضح فوراً ... فكل ما طلبته منك ، باستثناء بطاريات المدافع المضادة للطائرات يمكن تقديمه في غضون اثني عشر شهراً . ولكن على الرغم من ان سوء التفاهم هذا قد ازيل إلا ان من الواضح استحالة قيامك بمساعدتي مادياً لسد ما أحدثته حربا الحبشة واسبانيا في التسلح الايطالي من فجوات .

« ولهذا فسأتخذ الموقف الذي نصحتني به ، في المرحلة الأولى من الصراع على الأقل ، مشغلاً اكبر عدد من القوات الفرنسية والبريطانية على النحو الواقع الآن ، بينما اكون مغذاً السير في استكمال استعداداتي العسكرية إلى أوسع مدى ممكن . »

ولكن الدوتشي الحزين على وقوفه هذا الموقف المؤسف في مثل هذه الساعة العصيبة ، كان لا يزال يفكر بإمكان قيام ميونيخ جديدة وبضرورة السعي إلى قيامها ... فقال :

« واني لأجازف بالاصرار من جديد ، لا نتيجة اعتبارات تمت إلى الشخصية الانهزامية الغريبة عليّ ، والتي لا اعرفها . بل نتيجة التفكير بمصالح شعبينا ونظامينا على خلق فرصة للوصول إلى حل سلمي ما زلت أراه ممكناً على ان يكون من النوع الذي يؤمن الترضية المعنوية والمادية الكاملة لألمانيا .[1]

---

١ ــ رسالة موسوليني الى هتلر الساعة ٦٤٢ من ٢٦ آب . (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٣٢٣ .

وتوضح السجلات الآن ان الديكتاتور الايطالي ، كان يحاول الوصول إلى السلام ، إذ أنه لم يكن على استعداد للحرب . ولكن الدور الذي قضي عليه ان يمثله ، أخذ يؤرق مضجعه . وراح يعلن في هذه الرسالة الاخيرة التي بعث بها بتاريخ السادس والعشرين من آب قائلاً : « ان الحالة العقلية التي اعيش فيها تجدني مضطراً بواقع عوامل تفوق طاقتي إلى ان لا اقدم اليك التضامن الفعلي في هذه اللحظة من العمل » وسجل شيانو في يومياته بعد هذا اليوم المكتظ بالعمل يقول : « لا ريب في ان الدوتشي قد فقد عقله . فغرائزه العسكرية ، وتمسكه بالشرف يقودانه إلى الحرب . ولكن العقل والمنطق يحولان دون ذلك . وهنا يحس بالألم ... وبات لزاماً عليه ان يواجه الحقيقة المرة . ولا ريب في ان هذه المواجهة ضربة قاسية . »

وهكذا ارتضى هتلر بعد هذه الرسائل العديدة المتبادلة تخلي موسوليني عنه وتركه وحيداً يواجه مأزقه . ولكنه راح في ساعة متأخرة من ليلة السادس والعشرين من آب يبعث بمذكرة اخرى إلى شريكه في المحور . وقد ارسلت بطريق البرق من برلين في الساعة الثانية عشرة والدقيقة العاشرة من صباح السابع والعشرين فوصلت إلى موسوليني في التاسعة صباحاً وهذا نصها :

« الدوتشي ...

« لقد تلقيت رسالتك التي شرحت موقفك الاخير ، واني لاحترم الأسباب والدوافع التي حملتك على اتخاذ هذا الموقف ، الذي قد يكون مفيداً على أي حال في بعض الظروف .

« واني لأرى ان هناك متطلباً أولياً لا بد منه ، وهو ان يظل العالم على الاقل حتى نشوب الحرب ، جاهلاً تمام الجهل بالموقف الذي تعتزم ايطاليا اتخاذه . ولهذا فإني اطلب اليك ودياً ان تؤيد الصراع الذي سأخوضه نفسياً بصحافتك وبغير ذلك من السبل . وأود ان اطلب اليك ايضاً ايها الدوتشي إذا كان ذلك ممكناً لك ، ان ترغم بريطانيا وفرنسا ، عن طريق التظاهر بالاجراءات العسكرية

على تجميد قسم من قواتهما ، وان تتركهما تعيشان في جميع الاحوال في جو من الشكوك .

« ولكن الشيء المهم يا دوتشي ، هو ما سبق لي ان بينته لك ، وهو انه في حالة تحول الصراع إلى حرب كبرى ، فإن الموقف في الشرق سيقرر نهائياً قبل ان تتمكن الدولتان الغربيتان من تحقيق أي نجاح ... وهكذا ففي الشتاء ، أو عند حلول الربيع القادم على ابعد تقدير ، سأهاجم من الغرب بقوات تكون متعادلة على الاقل مع قوات فرنسا وبريطانيا ...

« وأود الآن ان اسألك منة عظيمة . ففي وسعك انت وشعبك في هذا الصراع الجبار ، ان تنصراني نصرة عظيمة بايفاد العمال الايطاليين للقيام بأعمال صناعية وزراعية .... وفي سؤالي هذه المنة منك ومن كرمك أود أن اشكرك على جميع الجهود التي بذلتها لقضيتنا المشتركة .

ادولف هتلر »[1]

ورد الدوتشي رداً لطيفاً في ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم مؤكداً فيه ان « العالم لن يعرف قبل بدء الحركات الحربية الموقف الذي ستقفه ايطاليا ، إذ سيحفظه سراً مكتوماً عن الجميع . واضاف انه سيعمل على تجميد اقصى ما يستطيع من قوات بريطانيا وفرنسا الحربية والبحرية ، وسيرسل الى هتلر عدداً من العمال الايطاليين تلبية لطلبه[2] وكان قد اكد في ساعة مبكرة من النهار الى السفير فون ماكنزن « بعبارات جازمة » على حد تعبير السفير في برقيته إلى برلين « انه ما زال يأمل في امكان تحقيق اهدافنا كلها دون اللجوء الى الحرب ،

---

١ ـ رسالة هتلر الى موسوليني الساعة ١٢،١٠ صباح ٢٧ آب (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٣٤٦ .

٢ ـ رسالة موسوليني الى هتلر الساعة ٤،٣٠ بعد ظهر ٢٧ آب (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٣٥١ - ٣٥٣ .

واضاف انه سينقل هذا الرأي إلى الفوهرر في الرسالة التي سيبعث بها اليه »[1] ولكنه لم يفعل ذلك . ولقد بـدا في تلك اللحظة أجبن من ان يشير الى تلك الفكرة مرة ثانية .

ولم يأبه هتلر – كما يظهر – بما ستفعله فرنسا على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان فرنسا هي التي ستقدم جميع القوات العسكرية على حدود المانيا الغربية في حالة نشوب الحرب فجأة ، وعلى الرغم من ان هذه القوات ستفوق في الاسابيع الاولى القوات الالمانية في تلك الجبهة عدداً ، وراح رئيس الوزارة الفرنسية ديلادييه ، يبعث اليه في السادس والعشرين من آب رسالة بليغة ومؤثرة يذكره فيها بما ستفعله فرنسا ، وهو الوقوف الى جانب بولندة إذا هوجمت ... وقال :

« وليس في وسعك ان تشك في ان فرنسا ستفي بالتزاماتها المقدسة للدول الاخرى كبولندة مثلاً ، إلا إذا عزوت للشعب الفرنسي مفهوماً عن الشرف الوطني أقل شأناً من المفهوم الذي اعزوه انا الى الشعب الالماني ... »

وبعد ان ناشد ديلادييه هتلر البحث عن حل سلمي لنزاعه مع بولندة اضاف قائلاً :

« واذا قدر لدماء فرنسا والمانيا ان تسفك ثانية كما سفكت قبل خمس وعشرين سنة ، وذلك في حرب اطول واكثر اجراماً ، فإن كلاً من الشعبين سيقاتل واثقاً من النصر ، ولكن النصر الحقيقي فيها سيكون لقوات التدمير والوحشية »[2]

وأضاف السفير كولوندر عندما قدم رسالة رئيس وزرائه إلى هتلر . نداء عاطفياً شفوياً من جانبه مستحلفاً هتلر « باسم الانسانية ان يريح ضميره ، وان

---

١ – برقية ماكنزن ٢٧ آب . (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٣٥١ – ٣٥٣ .

٢ – رسالة ديلادييه الى هتلر في ٢٦ آب (وثائق وزارة الخارجية (٧) ص ٣٣٠ – ٣٣١. **والكتاب** الفرنسي الاصفر الطبعة الفرنسية . ص ٣٢١ – ٣٢٢ .

لا يضيع هذه الفرصة الأخيرة في الوصول إلى حل سلمي . ولكن السفير «صدم» من المقابلة وابرق إلى باريس يقول ان رسالة ديلادييه لم تؤثر على الفوهرر الذي ظل جامداً كالصخر .

ووضع هتلر رده على رسالة الرئيس الفرنسي التي بعث بها في اليوم التالي على اساس ماكر قصد منه العزف على برم الفرنسيين من «الموت في سبيل دانزيغ» ولكنه لم يذكر هذه العبارة بشكل صريح ، وانما ترك امر فهمها الى الفرنسيين المنادين بالمهادنة والترضية . واعلن هتلر في رسالته ان المانيا قد تخلت عن كل مطالب اقليمية لها من فرنسا ، بعد استعادة السار ، وانه لهذا ليس ثمة من مبرر يدعو البلدين إلى محاربة بعضهما . أما إذا وقعت الحرب ، فلن يكون هذا خطأ المانيا ، واكد انه سيتألم لمثل هذا التطور .

وكان هذا اخر ما وقع من اتصال دبلوماتي بين المانيا وفرنسا في الاسبوع الأخير من السلام . ولم يقابل كولوندر هتلر بعد اجتماعه به في السادس والعشرين من آب ، إلى ان انتهى كل شيء . وكانت بريطانيا العظمى هي البلاد التي تقلق المستشار الالماني اكثر من غيرها في هذه المرحلة . فلقد كان هتلر يود كما قال لغورنغ عشية الخامس والعشرين من آب عندما أجل الزحف على بولندة لو انه تمكن من الحيلولة دون تدخل بريطانيا .

المانيا وبريطانيا العظمى

في الساعة الحادية عشرة

دوّن الفريق هولدر في يومياته كما ذكرنا من قبل عشية الخامس والعشرين من آب وبعد ان تلقى هتلر الانباء من رومة ولندن التي اقنعته بالتراجع عن شفير الهاوية، أن « الفوهور اصيب بهزة عنيفة » . ولكن رئيس هيئة أركان الحرب ما عتم بعد ظهر اليوم التالي ان لاحظ تبدلاً مفاجئاً في الزعيم فدوّن في يومياته في الساعة الثالثة والدقيقة الثانية والعشرين ان « الفوهرر استعاد هدوءه وصفاء

ذهنه » . ولقد بين الفريق في يومياته السبب في هذا التحول ... إذ اصدر هتلر أمراً هاتفياً إلى القيادة العليا للجيش بأن تكمل استعداداتها في اليوم السابع من التعبئة ، ليبدأ الهجوم في الاول من ايلول .

وهكذا قرر هتلر محاربة بولندة . ولم يعد هناك تفكير في النكوص عن هذا القرار ، ولكنه سيبذل في غضون ذلك كل ما في وسعه لابقاء بريطانيا خارج الحرب. وتشرح يوميات هولدر حالة الفوهرر الفكرية وحالة بطانته في يوم ٢٦ آب الحاسم .

« هناك شائعات تقول بأن بريطانيا ميالة إلى درس اقتراح شامل .[١] وستعرف التفاصيل عند عودة هندرسون . وهناك شائعة ثانية تقول ان انكلترا تؤكد بأنها هي التي يجب ان تقرر بأن مصالح بولندة الحيوية مهددة . وفي فرنسا تتلقى الحكومة في كل يوم المزيد من الاحتجاجات على الحرب .

« أما خطتنا ... فهي اننا نريد دانزيغ ، ونريد ممراً داخل الرواق البولندي ، ونريد استفتاء على نفس الاسس التي تم فيها استفتاء السار . ومن المحتمل ان تقبل انكلترا . أما بولندة فلن تقبل . علينا ان نستغل هذا لايقاع الشقاق بينهما »[٢]

وكان هولدر هو الذي اكد على موضوع « إيقاع الشقاق » ، وليس ثمة من شك في ان هذا التأكيد يعكس إلى حدٍ ما ، ما كان يدور في خلد هتلر. فهو يريد ان يخلق فجوة بين بولندة وبريطانيا ، وان يقدم لتشمبرلين ذريعة يستخدمها للتحلل من تعهده لوارشو. وبعد ان اصدر أمره إلى الجيش بالاستعداد للزحف على بولندة في الاول من ايلول ، راح يترقب من لندن ان يسمع شيئاً عن عرضه الفخم « بضمان » الامبراطورية البريطانية .

وكان قد اجرى حتى الآن اتصالين بالحكومة البريطانية خارج نطاق السفارة

١ ـ اشارة الى عرض هتلر في الخامس والعشرين من آب بضمان « الامبراطورية البريطانية » .
٢ ـ يوميات هولدر بتاريخ ٢٨ آب . محاكمات كبار مجرمي الحرب (٧) ص ٥٦٤ـ٥٦٦

الألمانية في لندن التي كان سفيرها « ديركسين » غائباً في اجازة ، والتي لم تلعب دوراً في المفاوضات المحمومة التي دارت في الساعة الحادية عشرة أي في الساعة التي سبقت الاخيرة . وكان احـــد هذين الاتصالين رسمياً تم عن طريق السفير هندرسون الذي طار الى لندن في طائرة المانية خاصة صباح السبت في السادس والعشرين من آب حاملاً اقتراحات الفوهرر . اما الاتصال الثاني فلم يكن رسمياً وانما تم بصورة سرية . وتبين فيما بعد انه مجرد عمل من اعمال الهواة وذلك عن طريق صديق غورنغ السويدي ، بيرغر داهليروس المشّائي (نسبة إلى الفلسفة المشّائية الاغريقية) الذي طار من برلين إلى لندن في اليوم السابق حاملاً رسالة الى الحكومة البريطانية من رئيس السلاح الجوي الألماني المشير غورنغ .

ولقد روى غورنغ فيما بعد اثنـــاء استجوابه في محاكمات نورمبرغ انـه كان في ذلك الحين على اتصال بهاليفاكس ، بواسطة رسول خـــاص ، خارج نطاق الطرق الدبلوماتية العادية . [1] واتجه الرسول السويدي إلى وزير الخارجية البريطانية في لندن ، في الساعة السادسة والنصف من بعد ظهر الخامس والعشرين من آب . وكان غورنغ قد استدعى داهليروس من استوكهولم إلى برلين في اليوم السابق ، الذي ابلغه ان المانيا تريد « التفاهم » مع بريطانيا العظمى على الرغم من الميثاق النازي – السوفياتي الذي وقع في الليلة الفائتة . وقـــد وضع احدى طائراته تحت تصرف الرجل السويدي ليسارع إلى لنـــدن وينقل إلى اللورد هاليفاكس هذه الحقيقة البارزة .

وشكر وزير الخارجية الذي كان قد وقع قبل ساعة ميثاق المساعدة المتبادلة مع بولندة لداهليروس جهوده وابلغه ان هندرسون قد تحدث قبل قليل الى هتلر في

---

١ ـ استجواب غورنغ في ٢٩ آب ١٩٤٥ في نورمبرغ (المؤامرة النازية والعدوان (٨) ص ٣٤ ،) . وقد اكد غورنغ في هذا الاستجواب ان ريبنتروب لم يكن يعرف شيئاً عن ايفـاد داهليروس . ومضى يقول : « انني لم ابحث قط مسألة داهليروس مع ريبنتروب . ولم يكن هذا يعرف شيئاً عن ذهاب داهليروس وايابه متنقلا بيني وبين الحكومة البريطانية » (محاكمات كبار كبار مجرمي الحرب (٩) ص ٤٩٨) ولكن غورنغ كان يطلع هتلر اولا بأول على كل ما دار .

برلين وانه سيطير إلى لندن حاملاً اقتراحات الفوهرر الاخيرة ، كما ذكر له انه بالنظر إلى عودة الاتصال الرسمي بين لندن وبرلين ، فإنه لا يرى حاجة بعد لخدمات الوسيط السويدي . ولكن ما لبثت الاحداث ان برهنت على وجود الحاجة إلى هذه الخدمات . فقد هتف الرجل إلى غورنغ في ساعة متأخرة من تلك الليلة ليبلغه بما دار في اجتماعه مع هاليفاكس فأخبره المشير ان الوضع قد تردى نتيجة توقيع المعاهدة الانكليزية البولندية ، وان عقد مؤتمر يضم ممثلين من بريطانيا والمانيا هو السبيل الوحيد لانقاذ السلام . ولقد شهد هذا الرجل اخيراً امام محكمة نورمبرغ فذكر ان غورنغ كان يفكر كموسوليني في إمكان عقد اجتماع آخر كاجتماع ميونيخ .

وراح السويدي الذي لا يكل ولا يملّ يبلغ وزارة الخارجية البريطانية في ساعة متأخرة من تلك الليلة ، بما دار من حديث بينه وبين غورنغ ، واستدعى في الصباح التالي لمقابلة هاليفاكس مرة ثانية . وقد تمكن في هذه المرة من اقناع هاليفاكس بأن يبعث برسالة إلى غورنغ الذي وصفه بأنه الالماني الوحيد الذي يستطيع ان يحول دون نشوب الحرب . وكانت عبارات الرسالة ذات طابع عام ، وجاءت مختصرة ولا التزام فيها . وكل ما انطوت عليه التأكيد على رغبة بريطانيا في الوصول إلى تسوية سلمية وعلى الحاجة إلى « فترة بضعة ايام » لتحقيق هذه التسوية . [1]

---

١ ــ نشر نص الرسالة في كتاب (« وثائق عن سياسة بريطانية الخارجية ــ الحلقة الثالثة ــ المجلد السابع . الصفحة ٢٨٣) . وقد حذفت هذه الرسالة من جميع السجلات البريطانية المطبوعة الى ان صدر المجلد المذكور في عام ١٩٥٤ ، مما اثار تعليقات الكثيرين من المؤرخين البريطانيين . ولم يرد ذكر داهليروس في الكتاب البريطاني الازرق عن الوثائق المتعلقة بنشوب الحرب ولا في تقرير هندرسون الاخير ولا حتى في كتابه « فشل بعثة » على الرغم من الاشارة اليه في الكتاب الاخير كمصدر على الاتصال بغورنغ » . ولكن اتضح من البرقيات التي بعث بها هندرسون وغيره من رجال السفارة البريطانية في برلين والتي نشرت مؤخراً ان نشاط داهليروس يحتل مكانة بارزة في هذه البرقيات كما يحتل مثل هذه المكانة في المذكرات المختلفة لوزارة الخارجية البريطانية .

وقد حافظت الويلهلمشتراسه وداونغ ستريت تمام المحافظة على سرية الدور الذي لعبه هذا التاجر=

ومع ذلك فقد اعتبر المشير هذه الرسالة « في منتهى الاهمية » . وقد سلمه داهليروس اياها في ذلك المساء السادس والعشرين من آب وهو يستقل قطاره الخاص إلى مقر قيادة سلاحه الجوي في اورانيينبرغ خارج برلين . فأمر بوقف القطار في المحطة التالية ، واستقل مع السويدي سيارة راحت تنهب بهما الارض بسرعة الريح قاصدة دار المستشارية التي وصلاها عند منتصف الليل ، فرأيا الظلام يخيم على جميع جنباتها ، إذ كان هتلر قد مضى إلى فراشه . واصر غورنغ على إيقاظه من نومه . وكان داهليروس لا يزال يعتقد كالكثيرين غيره ، بأن هتلر رجل عاقل وانه قد يقبل بتسوية سلمية كتلك التي تلقاها قبل عام في ميونيخ .وقدر للسويدي ان يواجه الآن ولأول مرة خيالات هذا الديكتاتور المهووس العجيبة وحدة سورته الشديدة . [1] وكانت التجربة بالنسبة اليه عنيفة كل العنف .

ولم يكترث هتلر بالخطاب الذي حمله داهليروس من هاليفاكس والذي بدا للمشير هاماً إلى الحد الذي حمله على ايقاظ الفوهرر في منتصف الليل . وراح هتلر يحاضر السويدي مدة عشرين دقيقة عن نضاله السابق والمآثر العظيمة التي حققها والمحاولات التي بذلها للوصول إلى تفاهم مع البريطانيين . وعندما صدرت عن داهليروس عبارة تشير إلى انه قد عاش في انكلترا كعامل فترة من الزمن ،

=السويدي الفرد ، واتخذنا اجراءات مشددة لاخفاء تنقلاته عن الصحفيين والدبلوماتيين المحايدين الذين لم يعرفوا ــ كما اعتقد ــ اي شيء عنها إلى ان شهد داهليروس في نورمبرغ في التاسع عشر من آذار عام ١٩٤٦ ، وقد نشر كتابه « المحاولة الاخيرة » باللغة السويدية في عام ١٩٤٥ بعد انتهاء الحرب ، لكن الترجمة الانكليزية لم تصدر إلا في عام ١٩٤٨ ، ولم تتأيد روايته رسمياً إلا بعد انتهاء الحرب ، في وثائق وزارة الخارجية البريطانية . ولا تذكر وثائق وزارة الخارجية الالمانية شيئاً عن الرجل ، إلا في مذكرة عادية تتحدث عن تسلم رسالة من شركة طيران « لوفتهانزا » تفيد بوصول « داهليروس الموظف في وزارة الخارجية » إلى برلين في ٢٦ آب على متن احدى طائراتها . لكن اسمه ورد على أي حال في بعض الاوراق المتأخرة .

١ ــ استقيت هذا الوصف عن اعمال داهليروس من كتابه ومن شهادته في نورمبرغ ، التي بينت ما كان يحمله من آراء ساذجة عن اصدقائه الالمان . وهناك الكثير حول موضوع داهليروس ايضاً في وثائق وزارة الخارجية البريطانية ــ الحلقة الثالثة ــ المجلد السابع .

أخذ المستشار يسأله عن تلك الجزيرة الغريبة واهلها العجيبين الذين حاول طويلاً ان يفهمهم ولكن دون جدوى . وانتقل بعد ذلك الى محاضرة طويلة وفنيـة إلى حدٍ ما عن قوة المانيا العسكرية . وهنا فهم داهليروس ، كما روى فيما بعـد ان زيارته « قد فشلت » . ومع ذلك فقد اغتنم السويدي فرصة في النهاية ليتحدث الى مضيفه عن البريطانيين على النحو الذي عرفهم فيه :

« وراح هتلر يستمع إلي دون أن يقاطعني ... وفجأة رأيتـه ينهض من مقعده ، وقد اشتد به الحماس وسيطرت عليه العصبيـة واخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وهو يقول ، كأنه يحدث نفسه ، بأن ألمانيا قوة لا تغلب ولا تقاوم .... وفجـــأة وقف في وسط الغرفة وجمد في مكانه وهو يحملق في الفضاء . وكان صوته قـد بح الآن وبدا بتصرفاتـــه انساناً شاذاً كل الشذوذ . وكان يتحدث في عبارات قصيرة غير مترابطة قائلاً :

« إذا وقعت الحرب ، فسأقوم ببناء غواصات ، اجل غواصات . غواصات . غواصات » وشرع صوته يخفت شيئاً فشيئاً إلى الحـد الذي لم يعد يسمع . وفجأة استعاد سيطرته على نفسه ، ورفع صوته وكأنه يخطب في حشد ضخم من السامعين ، وزعق قائلاً : « سأبني طائرات ... أجل طائرات . طائرات . طائرات . وسأقضي على خصومي قضاء مبرماً » . وخيل إلي ان الرجل أقرب إلى الشبـح في كتب الاساطير ، منه إلى الانسان الواقعي . ورحت اتفرس فيه دهشاً ، وتطلعت إلى غورنغ لأرى رد فعله على هذه الظاهرة الغريبة ولكنه لم ينبس ببنت شفة . »

وخطا المستشار المتحمس اخيراً نحو ضيفه وقال : « يا هـر داهليروس ، هل تستطيع وانت الرجل الذي يعرف بريطانيا خير معرفة ، ان تبين لي السبب في فشلي المستمر في الوصول إلى اتفـاق معها ؟ » ويعترف داهليروس في انه « تردد في البدايـــة » في الرد

ولكنه اجاب اخيراً بأنه يرى شخصياً ، ان السبب في ذلك يعود إلى الافتقار إلى الثقة به وبحكومته . »

ويروي داهليروس ان هتلر صرخ قائلاً ، وهو يمد يده اليمنى بقوة إلى الأمام ، ويضرب صدره بيسراه : « يا لهم من حمقى ! هل كذبت يوماً في حياتي ؟ »

وسرعان ما هدأ الديكتاتور النازي ، ودار النقاش عن اقتراحات هتلر التي حملها هندرسون ، وتقرر اخيراً ان يطير داهليروس عائداً إلى لندن ، وهو يحمل عرضاً جديداً إلى الحكومة البريطانية . واعترض غورنغ على تقديم هذا العرض خطياً ، وقيل للسويدي الذي يعمل للتوفيق ، بأن عليه ان يعتمد على ذاكرته في حفظ هذا العرض الذي تألف من ست نقاط :

١ – ترغب المانيا في عقد ميثاق أو حلف مع بريطانيا .
٢ – على بريطانيا ان تساعد المانيا في الحصول على دانزيغ والرواق البولندي ، مع السماح لبولندة بميناء حر في دانزيغ والاحتفاظ بميناء غيدينيا على ممر البلطيق وبرواق اليها .
٣ – تضمن المانيا الحدود البولندية الجديدة .
٤ – تستعيد المانيا مستعمراتها القديمة أو يعطى لها ما يعادلها .
٥ – تقدم الضمانات الكافية إلى الاقلية الالمانية في بولندة .
٦ – تتعهد المانيا بالدفاع عن الامبراطورية البريطانية .

وطار داهليروس ، وقد نقش هذه الاقتراحات في ذاكرته إلى لندن صباح الاحد في السابع والعشرين من آب ، وفي الساعات المبكرة من بعد الظهر ، ادخل من طريق ملتوية وخفية إلى حضرة تشمبرلين مخافة اعين المراسلين الصحفيين المتلصصة ، وكان في رفقته اللورد هاليفاكس والسير هوراس ويلسون والسير اليكزاندر كادوغان . وكان من الواضح ان الحكومة البريطانية اخذت تحمل الآن الرسول السويدي على محمل الجد .

وحمل الرجل معه نقاطاً دوّنها بسرعة وهو في الطائرة يشرح فيها مقابلته

لهتلر ، وغورنغ في الليلة الفائتة . وقد اكد في هذه النقاط التي دوّنها للرجلين البارزين في الحكومة البريطانية اللذين اخذا ينعمان النظر في مذكرته ، بأن هتلر كان طيلة المقابلة « هادئاً وثبت الجنان » . وعلى الرغم من ان وثائق وزارة الخارجية البريطانية لا تضم أي تسجيل لهذا الاجتماع الطارىء في عطلة الاحد ، إلا ان وصفه قد أدرج في المجلد الذي اصدرته وزارة الخارجية (المجلد السابع–الحلقة الثالثة) استناداً إلى البيانات التي قدمها كل من اللورد هاليفاكس وكادوغان وإلى مذكرة الرسول نفسه . لكن الرواية البريطانية تختلف على أي حال بعض الاختلاف عن رواية داهليروس في كتابه وفي شهادته في نورمبرغ ، ولكن في وسعنا ان نقول ان القصة التي سأسردها الآن « دقيقة إلى حد كبير على ضوء الروايات المتعددة التي توليت جمعها ومقارنتها وغربلتها .

وادرج تشمبرلين وهاليفاكس على الفور انهما يواجهان مجموعتين مختلفتين من اقتراحات هتلر ، اولاهما تلك التي حملها هندرسون وثانيتهما هذه التي حملها داهليروس الآن ، وان هاتين المجموعتين مختلفتان كل الاختلاف . إذ بينما تقترح الأولى ان يضمن هتلر الامبراطورية البريطانية بعد تصفية الحساب مع بولندة ، تبدو الثانية وكأنها تعرب عن استعداد الفوهرر للتفاوض عن طريق بريطانيا لاستعادة دانزيغ والرواق ، وانه بعد ذلك « سيضمن » حدود بولندة الجديدة. وكان هذا القول بمثابة « لازمة » قديمة خبرها تشمبرلين بعد تجاربه المريرة مع هتلر في موضوع تشيكوسلوفاكيا ، ولذا فقد ظل كثير الشكوك في عرض الفوهرر الذي حمله داهليروس . وراح يقول للسويدي « انه لا يرى املاً في الوصول إلى تسوية على أساس هذه الشروط ، وان البولنديين قد يسلمون بدانزيغ ولكنهم يؤثرون الحرب على التفريط بالرواق . »

واتفق اخيراً على أن يعود داهليروس فوراً إلى برلين حاملاً رداً أولياً وغير رسمي إلى هتلر ، وان يعود إلى لندن لينقل اليها رد فعل هتلر على هذا الجواب ، قبل ان تبعث الحكومة البريطانية إلى برلين ردها الرسمي مع هندرسون في الليلة المقبلة . وتذكر الرواية البريطانية ان هاليفاكس قال: « ان القضايا قد تكون

مرتبكة بعض الارتباك ، وفيها بعض التشويش نتيجة هذه الاتصالات السرية واللارسمية عن طريق داهليروس . ولذا فقد كان من الافضل ، الايضاح بأن داهليروس لن يحمل عند عودته إلى برلين تلك الليلة رد حكومة جلالته ، وانما يمهد الطريق للاتصال الرسمي ، الذي سيحمله هندرسون معه في اليوم التالي . [١]

وهكذا بات هذا الرجل السويدي المغمور رغم بروزه كرجل اعمال ، ذا مكانة كوسيط في المفاوضات الدائرة بين حكومتي أقوى دولتين في أُوروبا ، إلى الحد الذي مكنه حسب روايته هو ، من ان يقترح على رئيس الوزراء ووزير الخارجية في هذه المرحلة العصيبة بأن « يستبقيا هندرسون في لندن حتى اليوم التالي — الاثنين — فيضمنا بذلك ان يكون ردهما ، على ضوء ما يحمله اليهما من من معلومات عن موقف هتلر من وجهة النظر البريطانية » [٢]

ولكن ما هي وجهة النظر البريطانية التي تقرر ان يعرضها داهليروس على هتلر ؟ هناك غموض حول هذا الموضوع نتج عن التناقض في الروايات . وكانت وجهة النظر البريطانية كما دونها هاليفاكس في مسودة ملاحظات عن التعليمات الشفوية التي اصدرها إلى داهليروس على النحو التالي :

« التأكيد تأكيداً قاطعاً بوجود رغبة في قيام تفاهم طيب بين المانيا وبريطانيا العظمى . وليس ثمة في الحكومة البريطانيــة من يرى عكس هذا الرأي ، ولكن بريطانيا عازمة عزماً قاطعاً على الوفاء بإلتزاماتها لبولندة . ومن الواجب حل الخلافات القائمة بين المانيا وبولندة حلاً سلمياً . » [٣]

أما داهليروس فيقول ان الرد البريطاني اللارسمي الذي كلف بنقله إلى المانيا كان أوسع شمولاً :

« رفضت بريطانيا بالطبع النقطة السادسة من الاقتراحات التي

---

١ — وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ٢٨٧ .

٢ — محاكمات كبار مجرمي الحرب — شهادة داهليروس — (٩) ص ٤٦٥ .

٣ — وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٣١٩

عرض فيها هتلر الدفاع عن الامبراطورية البريطانية . ولم يكن المسؤولون البريطانيون على استعداد كذلك للبحث في موضوع المستعمرات طالما ان المانيا في حالة تعبئة عامة . أما بالنسبة إلى الحدود البولندية فهم يريدون ان تتولى الدول العظمى الخمس ضمانتها . واقترحوا بالنسبة إلى الرواق، إجراء مفاوضات فورية مع بولندة ، أما بالنسبة إلى النقطة الأولى ، فإن انكلترا راغبة مبدئياً في الوصول إلى اتفاق مع المانيا »[1]

وطار داهليروس عائداً إلى برلين مساء يوم الاحد وقابل غورنغ قبيل منتصف الليل . ولم يعتبر المشير الرد البريطاني « مرضياً كل الرضى » ولكنه بعد ان قابل هتلر عند منتصف الليل ، عاد يهتف إلى داهليروس من فندقه في الساعة الواحدة صباحاً ليبلغه ان المستشار على استعداد «لقبول وجهة النظر البريطانية» شريطة ان يحملها هندرسون اليه مساء الاثنين بصورة رسمية .

وسرّ غورنغ لهذا التحول سروراً بالغاً، كما ارتاح اليه داهليروس أشد ارتياح وايقظ السويدي السير جورج اوغيلفي فوربس ، مستشار السفارة البريطانية في الثامنة صباحاً لينقل اليه الانباء السارة . ولم يكتف بذلك ، وانما رأى انه بات في مكانة رفيعة تمكنه من الاشارة على الحكومة البريطانية بما يجب عليها ان تقوله في ردها الرسمي . فقد اصر على ان تتضمن المذكرة التي سيحملها هندرسون في ساعة متأخرة من ذلك اليوم الاثنين في ٢٨ آب ، تعهداً من الحكومة البريطانية بالعمل على اقناع بولندة بالتفاوض مع المانيا مباشرة وفوراً . وتقول البرقية التي بعث بها فوربس في الثامن والعشرين من آب إلى حكومته :

« هتف لي داهليروس قبل لحظات من مكتب غورنغ حاملاً إلي الاقتراحات التالية التي يعتبرها متناهية في الاهمية :

« ١ – يجب أن لا يتضمن الرد البريطاني أية اشارة إلى مشروع

---

١ – محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩) ٤٦٦

روزفلت [1]

« ٢ – يخشى هتلر ان يحاول البولنديون تنكب سبيل المفاوضات ولذا يجب ان يتضمن الرد بياناً واضحاً بأن الحكومة البريطانية نصحت بولندة نصحاً حازماً بأن تقيم الاتصال الفوري مع المانيا وان تتفاوض معها » [2]

ولم يكتف السويدي الذي بات الآن واثقاً من نجاح مهمته بكيل النصائح على فوربس الذي راح يبرق بها إداء لواجبه إلى لندن ، بل هتف شخصياً إلى وزارة الخارجية البريطانية ليبلغها رسالة منه إلى هاليفاكس تتضمن اقتراحات أُخرى.

وليس ثمة من شك في ان هذا الدبلوماتي السويدي الهاوي قد غدا في هذه اللحظة العصيبة من تاريخ العام المحور الذي تدور حوله الاتصالات بين برلين ولندن ، وفي الساعة الثانية من بعد ظهر الثامن والعشرين من آب ، ابرق هاليفاكس الذي كان قد تلقى آخر الانباء من سفارته في برلين ومن هاتف داهليروس إلى وزارته في لندن ، إلى سفيره في وارشو السير هوارد كينارد يطلب اليه مقابلة وزير الخارجية بيك « فوراً » وان يحمله على تخويل الحكومة البريطانية الحق في ابلاغ هتلر « بأن بولندة على استعداد للدخول فوراً في مفاوضات مباشرة مع المانيا » . وهكذا كان وزير خارجية بريطانيا على عجلة من امره . فهو يريد ان يضمن هذه المعلومات في الرد الرسمي إلى هتلر ، الذي كان هندرسون ينتظر حمله عائداً إلى برلين في ذلك اليوم نفسه . ونصح هاليفاكس سفيره في وارشو بأن ينقل رد بيك هاتفياً . وبالفعل خوّل بيك

---

١ – الاشارة هنا الى رسالتي الرئيس روزفلت الى هتلر في الرابع والعشرين والخامس والعشرين من آب اللتين تضمنتا حثه على التفاوض المباشر مع بولندة .

٢ – من الانصاف ان نشير هنا الى ان داهليروس لم يكن شديد الميل الى المانيا على النحو الذي تظهره فيه رسائله . فقد هتف عشية يوم الاثنين وبعد ساعتين من الحديث الى غورنغ من مقر قيادة السلاح الجوي في اورانينبرغ ، الى فوربس ليبلغه ان « الجيش الالماني سيكون في وضع المتأهب نهائياً لغزو بولندة ليلة الاربعاء – الخميس في ٣٠ – ٣١ آب » . وقد ابرق فوربس بهذه المعلومات فوراً الى لندن . (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٣٢١ – ٣٢٢).

الحكومة البريطانية نقل هذا « الاستعداد » الى المانيا فأدرج التخويل في المذكرة البريطانية .[1]

ووصل هندرسون إلى برلين حاملاً الرد مساء الثامن والعشرين من آب ، وبعد ان استقبل أمام دار المستشارية استقبالاً رسمياً - إذ حافظت الحكومة الألمانية على الاعراف الدبلوماتية حتى النهاية - وادت له التحية ثلة من حرس الشرف النازي مصحوبة بعزف الموسيقى ، أدخل فوراً إلى مكتب هتلر ، ليسلمه الترجمة الالمانية للمذكرة ، وذلك في الساعة العاشرة والنصف مساء .

نقلت المذكرة اتفاق بريطانيا الكامل مع هتلر على وجوب البدء بالتسوية للخلافات القائمة بين المانيا وبولندة . لكن كل شيء يتوقف على طبيعة التسوية وعلى الطريقة التي ستتبع في الوصول اليها . وراحت المذكرة تقول ان المستشار لم يشر إلى هذه النقطة ابداً . ورفضت المذكرة رفضاً لطيفاً « الضمانة » التي قدمها هتلر للامبراطورية . واضافت ان الحكومة البريطانية « لا تستطيع في سبيل الحصول على أي نفع ان تقبل بتسوية تعرض استقلال دولة تعهدت بضمانتها إلى الخطر » .

وستحترم بريطانيا تلك الضمانة ، ولكن « حفاظ » بريطانيا على التزاماتها لبولندة يجب ان لا يحمل المستشار على محمل العزوف عن الرغبة في الوصول إلى تسوية معقولة . ومضت المذكرة تقول :

« ومن هذا يتبين ان الخطوة التالية يجب ان تتمثل في البدء بمفاوضات مباشرة بين الحكومتين الألمانية والبولندية ، على اساس الحفاظ على مصالح بولندة الاساسية ، وتثبيت دعائم التسوية عن طريق ضمانة دولية .

« وقد تلقت الحكومة البريطانية تأكيداً حاسماً من الحكومة البولندية بأنها على استعداد كامل للشروع في مباحثات على هذا الاساس ، وتأمل حكومة جلالته في ان توافق الحكومة الالمانية

١ـ الكتاب البريطاني الازرق ص ١٢٥ . ووثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٣١٨ .

على السير في هذا المخطط ...

« وقد تمهد التسوية العادلة بين المانيا وبولندة الطريق إلى تحقيق السلام العالمي . أما الفشل في الوصول اليها فيعرض الآمال القائمة في إيجاد التفاهم بين المانيا وبريطانيا العظمى إلى الانهيار ، ويخلق النزاع بين البلدين وقد يقود العالم بأسره إلى هاويــة الحرب . ولا ريب في ان مثل هذا التطور سيكون بمثابة كارثة لا مثيل لها في التاريخ »[1]

وعندما فرغ هتلر من قراءة المذكرة ، أخذ هندرسون في تفصيل نقاطها مستنداً على ملاحظات قال انه دونها أثناء محادثاته مع تشمبرلين وهاليفاكس وروى السفير فيما بعد ، ان مقابلته هذه مع هتلر كانت الوحيدة التي تولى هو دفة الحديث طيلة وقتها . وكانت زبدة حديثه ان بريطانيا راغبة في صداقة المانيـا وانها تريد السلام ، ولكنها ستحارب إذا هـــاجم هتلر بولندة . ولم يستطع الفوهرر المضي في صمته فرد مفيضاً في الحديث عـن جرائم بولنده ، وعـــن العروض « السخية » التي قدمها لاجراء تسوية سلمية معها ، والتي لن يعود الى تكرارها . وهو لن يقبل اليوم في الحقيقة ، « بأقل من عودة دانزيـغ والرواق البولندي بكامله ، وتصحيح الاوضاع » في سيليزيا التي « اقترع تسعون في المائة من اهلها الى جانب المانيا في الاستفتاء الذي جرى بعد الحرب » . لكن هذا القول كان يفتقر الى الصحة ، وكذلك ادعاء هتلر بعد لحظات بأن مليوناً من الالمان قد اخرجوا من الرواق بعد عام ١٩١٨ . فالاحصاءات الألمانية الرسمية في عـــام ١٩١٠ تشير الى وجود (٣٨٥) الفاً من الألمـــان هناك . ولكن الديكتاتور النازي كان ينتظر من الجميـع تصديق أكاذيبه . وقـــد ابتلع السفير البريطاني الكثير من هذه الأكاذيب إبان المهمة الأخيرة التي قام بها في عهد «بعثته المحطمة» إذ أعلن في « تقريره الاخير » أن « الهر هتلر كان في هذه المقابلة ودوداً ثانيــة ومعقولاً ، وبدا وكأنه راضٍ عن الرد الذي حملته اليه . »

---

١ ـــ نص المذكرة البريطانية الى المانيــا في ٢٨ آب ـــ الكتاب البريطاني الازرق . ص ١٢٦ ـــ ١٢٨ .

وابرق هندرسون في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين من صباح التاسع والعشرين من آب الى لندن برقية مطولة يصف فيها هذه المقابلة بقوله :[1]

« ووجهت اليه في النهاية سؤالين صريحين : هل هو على استعداد للتفاوض مباشرة مع البولنديين ، وهل هو على استعداد للبحث في قضية تبادل السكان ؟ وقد رد بالايجاب على السؤال الثاني ، وان كنت لا اشك في انه كان يفكر في نفس الوقت في موضوع تعديل الحدود » .

أما بالنسبة إلى النقطة الاولى فهو يود ان يدرس المذكرة البريطانية اولاً « دراسة وافية » . وهنا التفت هتلر الى وزير خارجيته ريبنتروب — كما روى هندرسون — وقال له : « يجب ان نستدعي غورنغ لنبحث معه هذا الموضوع » ووعد هتلربتقديم رد مكتوب إلى الحكومة البريطانية على مذكرتها في٢٩ آب.

واكد هندرسون في برقيته إلى هاليفاكس ان « الحديث دار في جو ودي للغاية على الرغم من الصلابة المطلقة من الجانبين » ، ويبدو ان السفير على الرغم من تجاربه الشخصية الكثيرة مع مضيفه لم يفهم السبب الذي حمل هتلر على اضفاء هذا الجو من الود على المقابلة . فلقد كان لا يزال مصمماً على المضي الى الحرب في نهاية ذلك الاسبوع ضد بولندة ، وكان لا يزال يأمل، رغم جميع تأكيدات هندرسون وحكومته، في الابقاء على بريطانيا خارج نطاقها .

ويبدو ان هتلر وقد شجعه وزير خارجيته الخنوع والجاهل ، لم يستطع ان يصدق ان بريطانيا تعني حقاً ما تقول ، وان كان يقول بأنه يصدق قولها .

واضاف هندرسون في اليوم التالي ملحقاً لبرقيته الطويلة جاء فيه :

« واصر هتلر على انه لا « يبلف » وان كل من يفكر بأن ما يقوله مجرد بلف يخطىء اكبر الخطأ . ورددت عليه بأننا نعرف هذه الحقيقة ، واننا لا نبلف بدورنا واقر هتلر بأنه يعرف هذا

١– برقية هندرسون الى هاليفاكس في الساعة ٢،٣٥ من صباح ٢٩ آب . وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ١٢٨ - ١٣١ .

تمام المعرفة »[1]

لقد زعم انه يعرف هذه الحقيقة ولكن هل كان حقاً يعرفها ؟ ففي الرد الذي بعث به في التاسع والعشرين ، حاول عامداً متعمداً خداع الحكومة البريطانية بطريقة لا بد وان يكون قد فكر بها طويلاً ،وخيل اليه انها ستمكنه من الحصول ما يريد .

وقد خلق الرد البريطاني والانطباع الاول الذي تركه عند هتلر موجة دافقة من التفاؤل في برلين ولا سيما في معسكر غورنغ حيث كان داهليروس، الرجل الذي لا نظير له،يقضي معظم اوقاته في هذه الفترة . وتلقى السويدي في الساعة الواحدة والنصف من صباح التاسع والعشرين من آب هاتفاً من دار المستشارية وكان المتكلم أحد مرافقي غورنغ الذي كان يشترك مع هتلر وريبنتروب آنذاك في بحث المذكرة البريطانية بعد ان غادر هندرسون دار المستشارية . وكان ما قاله هذا الصديق الالماني لداهليروس ، هو ان الرد البريطاني « مرضٍ للغاية ، وان ثمة أملاً كبيراً في ان خطر الحرب قد زال . »

ونقل داهليروس الانباء السارة عن طريق الهاتف إلى وزارة الخارجية البريطانية في وقت لاحق من ذلك الصباح ، مبلغاً هاليفاكس ان« هتلر وغورنغ يعتبران ان ثمة احتمالاً في الوصول الى تسوية سلمية » . واجتمع داهليروس الى غورنغ في الساعة العاشرة والدقيقة الخمسين صباحاً ، وحيَّاه هذا تحية حارة ، شاداً على يده بقوة وهو يقول : « سيكون هناك سلام ! لقد اصبح السلام مضموناً ! » . وتسلح الرسول السويدي بهذا التأكيد المفرح ، ومضى لتوه إلى السفارة البريطانية لينقل إلى هندرسون الذي لم يكن قد تعرف اليه بعد هذه «الانباء السارة » . وتقول برقية السفير التي وصف فيها هذه المقابلة ، ان داهليروس ابلغه بأن الالمان متفائلون كل التفاؤل ، وانهم «متفقون» مع«النقطة الرئيسية » في الرد البريطاني . وقال داهليروس ان هتلر يطلب الآن دانزيغ والرواق (فقط) واضاف ان هذا الرواق الذي يطالب به الألمان الآن قد تقلص

---

١ ــ رسالة هندرسون في ٢٩ آب . وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ١٣١ .

ليشمل ممراً صغيراً محاذياً طريق السكة الحديدية إلى دانزيغ ليس إلا . وذكر السويدي ان الفوهرر في الحقيقة كان على استعداد لأن يغدو « معقولاً إلى حدٍ كبير . وانه سيمضي بعيداً في الطريق لمقابلة البولنديين في منتصفها »[1]

لكن هندرسون ، الذي بدأت عيناه تنفتحان اخيراً ، لم يكن واثقاً كل الثقة من هذا التفاؤل ، فقال لزائره – كما روى هذا فيما بعد – انه لا يستطيع تصديق كلمة واحدة تصدر عن هتلر ، وان هذا الوضع ينطبق ايضاً على تصديقه هيرمان غورنغ الذي كذب على السفير « عشرات المرات » واضاف انه يرى ان هتلر يلعب الآن لعبة تفتقر إلى الصدق وتتسم بالقسوة .

ولم يكن من السهل على السويدي الذي بات الآن في خضم الاحداث . ان يقتنع بما قـــاله السفير ، لا سيما وان يقظته تأخرت طويلاً عن يقظة هندرسون ووعيه للحقيقة . ولكي يضمن ان لا يؤدي تشاؤم السفير الذي لا يمكن وصفه إلى احباط محاولاته ، راح من جديد يهتف إلى وزارة الخارجية البريطانية في الساعة السابعة والدقيقة العاشرة من مساء اليوم ، ناقـــلاً رسالة إلى هاليفاكس تؤكد ان « الرد الالماني لن ينطوي على أيـــة متاعب » . واضاف انه ينصح الحكومة البريطانية بأن تحمل البولنديين على « ان يسلكوا سلوكاً طيباً »[2]

ووصل هندرسون في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة عشرة – أي بعـد خمس دقائق من رسالة السويدي الهاتفية – إلى دار المستشارية ليتسلم من الفوهرر رد المانيا الرسمي . وسرعان ما اتضح له ما في تفاؤل غورنغ وصديقه السويدي من خواء وسخف . فقد روى هندرسون لوزير خارجيته فوراً « ان المقابـــلة كانت عاصفة للغاية وان الهر هتلر كان بعيداً للغاية عن العقل والمنطق . »

ولقد عادت المذكرة الألمانية الخطية والرسمية إلى التأكيد من جديـد على رغبة الرايخ في صداقة بريطانيا العظمى ولكنها اضافت ان هذه الرغبـة « لا يمكن تحقيقها على حساب التخلي عن مصالح المانيا الجوهرية » . وبعـــد سرد

---

١ – برقية هندرسون في ٢٩ آب – وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٣٦٠ .
٢ – وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧)ص٣٦١ .

سهب ومألوف للمساوىء والاستفزازات و« الجرائم البربريـــة الصارخة إلى السماء » التي ارتكبهـــا البولنديون، عرضت المذكرة خطياً ولأول مرة بصورة رسمية مطالب هتلر التي تتلخص في عودة دانزيغ والرواق وحمايـــة الالمان في بولندة. وراحت تضيف قائلة: « ولم يعد الأمد الذي يجب ان تصحح فيه الاوضاع الراهنة يقاس بالايام أو الاسابيع بل بالساعات ليس إلا . »

ومضت المذكرة تقول ان المانيا لا تستطيـع ان تشترك مع بريطانيا في رأيها بإمكان الوصول إلى حل عن طريق المفاوضات المباشرة مع بولندة ولكن رغبة منها « فقط » في ارضاء الحكومة البريطانية ، وحرصاً على خلق الصداقة بينها وبين انكلترة ، تريد « ان تقبل بالاقتراح البريطاني وان تدخل في مفاوضـات مباشرة ، أما بالنسبة إلى أية تسويات إقليمية في بولندة فإن الحكومة الألمانية لا تستطيـع تقديم أية ضمانات إلا بعد موافقة الاتحاد السوفيـــاتي». (ولم تكن الحكومة البريطانية بالطبـع تعرف شيئاً عن الملحق السري للميثاق النــــازي ـ السوفياتي الذي قضى باقتسام بولندة). واعلنت المذكرة قائلة : « اما بالنسبة إلى ما يتبقى ، فإن الحكومة الالمانية في تقديمها لاقتراحاتهـا ، لم تكن تفكر قط ، بالمساس بمصالح بولندة الحيوية أو بالتشكيك في وجود الدولة البولندية المستقلة . »

وأخيراً راحت المذكرة تنصب الشرك الذي اراده هتلر ، فقالت :

« وتوافق الحكومة الالمانية تبعاً لذلـــك على القبول بعرض الحكومة البريطانية لوساطتها في ان ترسل بولندة إلى برلين رسولاً تزوده بالصلاحيات الكاملة متوقعة وصول هذا المبعوث يوم الاربعاء في الثلاثين من آب عام ١٩٣٩ .

« وستقدم الحكومة الألمانية اليه فوراً اقتراحاتها لإيجـاد حل مقبول ، وهي على أتم استعداد لوضع هذه الاقتراحات تحت تصرف الحكومة البريطانية قبل وصول المفاوض البولندي »[١]

---

١ ـ نص الرد الالماني في ٢٩ آب ـ الكتاب البريطاني الازرق . ص ١٣٥ ـ ١٣٧ .

وراح هندرسون يقرأ المذكرة ، بينما يرقبه هتلر وريبنتروب دون ان يقول شيئاً إلى ان وصل إلى الفقرة التي تقول بأن الالمان ينتظرون وصول المبعوث البولندي المزود بالصلاحيات الكاملة في اليوم التالي ، فقال معلقاً : «يبدو هذا التعبير على شكل إنذار نهائي » ولكن هتلر وريبنتروب راحا ينفيان هذا التفسير ، وقالا انهما ارادا فقط التأكيد على « حراجة الوضع ، عندما يقف جيشان معبئان تعبئة كاملة أمام بعضهما وجهاً إلى وجه . »

وسأل السفير وهو يتذكر ولا شك الطريقة التي استعملت في استقبال كل من شوشنيغ وهاشا ، عما إذا كان « المفوض » البولندي «سيستقبل استقبالاً حسناً» وعما اذا كانت المحادثات ستدور على قدم المساواة .

ورد هتلر قائلاً : «بالطبع هذا ما سيحدث . »

وتلت ذلك مناقشة حادة استفزتها ملاحظة « لامسوّغ لها » ـ على حد تعبير السفير ـ اوردها هتلر عندما قال ان السفير « لا يكترث قيد أنملة » بالعدد الوافر من الألمان الذين يذبحون في بولندة . وذكر السفير انه رد على هذه الملاحظة رداً حامياً وقاسياً .[1]

وكتب هندرسون في مذكراته فيما بعد يقول : « وتركت دار المستشارية تلك الليلة وانا في غاية التشاؤم » . ولكنه لم يذكر شيئاً من هذا القبيل في البرقيات التي بعث بها تلك الليلة إلى لندن ، وكان هتلر قد قال له : « وجنودي يسألونني الآن : انحن في سبيل ذلك أم لا ؟ » . لقد اضاعوا اسبوعاً حتى الآن وليس في استطاعتهم إضاعة اسبوع آخر « مخافة ان يضاف الطقس الماطر في بولندة إلى قائمة اعدائهم . »

ولكن السفير كما يبدو من تقاريره الرسمية ومن كتابه ، لم يفهم طبيعة الشرك

---

١ ـ ابرق هندرسون الى هاليفاكس في اليوم التالي يقول : « وشرعت ارفع صوتي فوق هتلر . . . واخذت ازعق بكل ما لدي من حول » (وثائق وزارة الخارجية البريطانية ـ الحلقة الثالثة (٧) ص ٣٩٣) . ولم يرد ذكر لهذا التنافس بين الامزجة الحادة في الوثائق البريطانية السابقة .

الذي نصبه هتلر ، حتى اليوم التالي ، عندما نصب شركاً آخر ، واتضحت خدعة الفوهرر . ولا ريب في ان لعبة الديكتاتور تبدو واضحة من نص مذكرته الرسمية . فلقد طلب عشية التاسع والعشرين من آب وصول مبعوث بولندي يحمل الصلاحيات الكاملة للتفاوض إلى برلين في اليوم التالي . وليس ثمة من شك في انه كان يفكر بمعاملته على النحو الذي عامل به مستشار النمسا ورئيس تشيكوسلوفاكيا ، إذ انه رأى ان الظروف متماثلة في الحالات الثلاث . ولو رفض البولنديون ، وهو يتوقع هذا الرفض ان يبعثوا بمندوبهم على جناح السرعة إلى برلين ، أو لو رفض هذا المفاوض قبول شروط هتلر ، فإن اللوم سيقع على عاتق بولندة في رفضها الوصول إلى « تسوية سلمية » ، وقد يكون في مكنته إقناع بريطانيا وفرنسا بعدم الإسراع الى مساعدتها عندما تهاجم . انه شرك ساذج ، ولكنه بسيط وواضح . [1]

ولكن هندرسون لم يتميّز هذا الشرك بوضوح ليلة التاسع والعشرين من آب وكان وهو لا يزال يعد البرقيات التي سيبعث بها إلى لندن شارحاً مقابلته لهتلر ، قد دعا السفير البولندي إلى مقابلته في دار السفارة البريطانية . وراح يفضي اليه بمحتويات المذكرة الالمانية وبما دار بينه وبين هتلر من حديث ، مؤثراً عليه كما روى هو نفسه « ومقنعاً إياه بضرورة العمل فوراً . وقد رجوته حرصاً على مصلحة بولندة نفسها ان يحث الحكومة البولندية ان تعيّن دون ابطاء مبعوثاً يمثلها في المفاوضات المقترحة » [2]

وكان التفكير في وزارة خارجية لندن اكثر صفاء . فقد بعثت الوزارة في الساعة الثانية من صباح الثلاثين من آب بعد دراسة الرد الالماني والتقرير الذي

---

١ ــ اجمل الفريق هولدر لعبة هتلر في يومياته التي كتبها في التاسع والعشرين من آب إذ قال : « يأمل الفوهرر في ان يدق اسفيناً بين البريطانيين والفرنسيين والبولنديين . وكانت خطته ان يثير ستاراً من الطلبات الاحصائية الديموغرافية والديموقراطية . . . . فقد يصل البولنديون الى برلين في الثلاثين من آب ، وتتحطم المفاوضات في الواحد والثلاثين ونبدأ في استخدام القوة في الاول من ايلول » .

٢ ــ هندرسون ــ فشل بعثة . ص ٢٨١

بعث به هندرسون عن مقابلته هتلر ، برقية إلى سفيرها تقول فيها انها على الرغم من رغبتها في إيلاء المذكرة الألمانية كل عناية واهتمام ، إلا انها « ترى مما يجفو المنطق ان ينتظر المرء منا إيفاد ممثل بولندي إلى برلين اليوم ، ولذا فعلى الحكومة الألمانية ان لا تتوقع مثل هـــذا التطور » . [١] وكان الدبلوماتيون وموظفو وزارة الخارجية يواصلون العمل المحموم طيلة ساعات اليوم ، وتولى هندرسون نقل الرسالة إلى الويلهلمشتراسه في الساعة الرابعة والنصف صباحاً .

ونقل السفير أربـع رسائل أُخرى وردته من لندن في ذلك اليوم الثلاثين من آب . وكانت الأولى منها رسالة شخصية من تشمبرلين إلى هتلر ، يذكر له فيها ان الحكومة البريطانية تدرس الرد الألماني « بمنتهى السرعة » وانها سترد عليـه في ساعات بعد الظهر . وحث رئيس الوزراء الحكومة الالمانية في غضون ذلك كما حث الحكومة البولندية على تجنب حوادث الحدود . أما بقية الرسالة ، فقـد انطوت على الترحيب بالدلائل البادية « في الرسائل التي يجري تبادلها على وجود الرغبة في تفاهم انكليزي – الماني . [٢] وكانت الرسالة الثانيـــة مماثلة للأولى ولكنها من هاليفاكس . وتحدثت الرسالة الثالثة وهي من هاليفاكس ايضاً عن التقارير التي وصلت لندن عن اعمال التخريب الألمانية في بولندة ، وطلبت من الألمان الامتناع عن مثل هذه الاعمال . وعكست الرسالة الرابعة التي بعث بها هاليفاكس ايضاً في الساعة السادسة والدقيقة الخمسين من مساء اليوم نفسه تصلباً من جانب وزارة الخارجية والسفير البريطاني في برلين .

وكان هندرسون بعد طويل امعان في كل ما وقع ، قـــد بعث إلى لندن في ساعة مبكرة من النهار بالبرقية التالية :

« في الوقت الذي ما زلت فيه أوصي الحكومة البولندية بهضم هذه المحاولة التي تجري في الساعة قبل الاخيرة ، لإقامـــة اتصال

---

١ ــ الكتاب البريطاني الازرق ص ١٣٩

٢ ــ نص مذكرة تشمبرلين الى هتلر في ٣٠ آب (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٤٤١) .

مباشر مع هتلر ، حتى ولو كان ذلك بقصد اقناع العـــالم بأنها على استعداد للقيام بتضحياتها للحفاظ على السلام ، يستطيع المـرء ان يستخلص من الرد الالماني رغبة هتلر وتصميمه على تحقيق اهدافه بما يسميه الوسائل السلمية العادلة إن امكن أو بالقوة إذا عجز عن ذلك . »[1]

ولم يكن أحد ، حتى هندرسون نفسه ، يستطيع الآن ان يهضم « ميونيخاً » ثانية ، أما البولنديون فلم يكونوا قد فكروا حتى مجرد تفكير بمثل ذلك ، بالنسبة اليهم . وكان السفير البريطاني في وارشو قد أبرق في الساعة العاشرة من صباح الثلاثين من آب إلى هاليفاكس يبلغه « استحالة اقناع الحكومة البولندية بإرسال المسيو بيك أو أي مبعوث آخر إلى برلين فـــوراً للبحث في تسوية على الاسس التي اقترحها هتلر . فهم يؤثرون ان يقاتلوا وأن يفنوا عن بكرة ابيهـــم على الإذعان لمثل هذا الاذلال ولا سيا بعد ما وقـــع لتشيكوسلوفاكيا وليتوانيا والنمسا » . واضاف مقترحاً ان تجري المفاوضات في بلاد محايدة، إذا قصد منها ان تكون « بين انداد »[2]

وهكذا تعزز ميل هاليفاكس إلى التصلب بالبرقيات التي تلقاها من سفيريه في برلين ووارشو ، فراح يبرق الى هندرسون بأن الحكومة البريطانية لا تستطيع ان « تنصح » البولنديين بالإذعان لطلب هتلر في إيفاد مبعوث يحمل الصلاحيات المطلقة الى برلين . واضاف وزير الخارجيـة ان مثل هذه النصيحة « غـــير معقولة » مطلقاً .... ثم قال :

« فهل في مكنتك ان تقترح على الحكومة الألمانية اتباع الاجراء المألوف ، وهو ان تدعو السفير البولندي ، بعد استكمالها إعـداد إقتراحاتها ، لتسلمه إياها ، حيث يتولى نقلها إلى وارشو ، طالباً اليها

---

١ ــ الكتاب البريطاني الازرق ص ١٣٩ ــ ١٤٠

٢ ــ الكتاب البريطاني الازرق . ص ١٤٠

اقتراحاتها بصدد السير في المفاوضات » [1]

وسلم الرد البريطاني الموعود على مذكرة هتلر الاخيرة الى ريبنتروب عن طريق هندرسون عند منتصف ليلة ٣٠ – ٣١ آب . وعقب ذلك اجتماع دراماتيكي للغاية ، وصفه الدكتور شميدت ، الذي كان المراقب الوحيد الذي شهده بأنه « اعنف ما رآه من اجتماعات طيلة الثلاثة والعشرين عاماً التي عمل فيها كترجمان » [2]

وابرق السفير الى هاليفاكس فور انتهاء الاجتماع يقول : « اجد لزاماً علي ان ابلغك بأن سلوك ريبنتروب في هذه المقابلة المزعجة كان تقليداً لسلوك هتلر في اسوأ حالاته » . وروى هندرسون في تقريره الاخير الذي كتبه بعد ثلاثة اسابيع ان وزير خارجية المانيا « أبدى عداء بالغاً أخذ يزداد عنفاً بعد كل جملة اقولها . وظل يقفز من مقعده في حالة من الحماس الشديد ، ويوجه إلي السؤال عما إذا كان لدي ما اقوله ايضاً . وكنت أرد عليه ، بأنه ما زال في جعبتي ما اريد قوله » . وذكر شميدت ان هندرسون قد قفز من مقعده ايضاً وان الرجلين وثبا من مقعديهما في إحدى اللحظات وأخذا يتطلعان إلى بعضهما بنظرة تنطوي على الغضب إلى الحد الذي دعا المترجم الالماني إلى التصور بأنهما على وشك التضارب .

ولكن الاهمية التاريخية لا تبدو في التهريج الذي وقع في الاجتماع بين وزير خارجية الرايخ وسفير حكومة جلالته من برلين عند منتصف ليل ٣٠ – ٣١ آب وانما تظهر جلياً في تطور وقع إبان هذه المقابلة العاصفة ، اخرج إلى النور الفصل الاخير من مسرحية هتلر وخدعته ، واكمل تبصير هندرسون ، وان جاء متأخراً ، بحقيقة الرايخ الثالث .

ويتمثل هذا التطور فيما وقع عندما اتم ريبنتروب قراءة الرد البريطاني

---

١ – الكتاب البريطاني الازرق ص ١٤٢ .

٢ – شميدت – ترجمان هتلر ص ١٥٠ – ١٥٥ . وشهادة شميدت في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ١٩٦ – ٢٢٢)

دون ان ينتظر من هندرسون استكمال ما لديه من شروح له . [1] فقد جازف هندرسون بسؤال الوزير عن الاقتراحات الألمانية للتسوية البولندية ، وهي الاقتراحات التي وعد هتلر بها بريطانيا في مذكرته الاخيرة . وإذا بريبنتروب يرد بلهجة تنطوي على الازدراء قائلاً : « ان الوقت قد فات على هذه الاقتراحات لأن المبعوث البولندي لم يصل إلى برلين قبل منتصف الليل » واضاف ان الالمان اعدوا بعض الاقتراحات على أي حال وشرع في تلاوتها على مسامع زائره .

وكان الوزير يقرأ على حد وصف هندرسون في تقاريره عن الاجتماع ، بالألمانية « وبسرعة هائلة ، تقرب من الهذر والتمتمة ، وقد اتخذ صوته نغمة الانزعاج المطلق » . ومضى التقرير يقول :

« ولم استطع أن افهم من مجموع ست عشرة نقطة تلاها على مسامعي اكثر من ست او سبع نقاط ، ولكن كان من المتعذر علي ان افهم محتويات هذه النقاط التي وعيتها بالدقة المطلوبة إلا إذا درست النص الكامل دراسة صحيحة . وعندما انتهى من تلاوته . طلبت اليه ان يطلعني عليها ، ولكن ريبنتروب رفض الاستجابة إلى طلبي رفضاً باتاً ، ثم ألقى بالوثيقة بحركة تنطوي على الازدراء على المنضدة ، وقال انها باتت منسوخة باطلة ، طالما ان المبعوث البولندي لم يصل قبل منتصف الليل » [2].

---

١ ــ كانت المذكرة البريطانية رغم صياغتها في عبارات ودية، حازمة كل الحزم . فقد ذكرت ان حكومة جلالته « تبادل المانيا رغبتها في تحسن العلاقات بين البلدين ولكنها لا تستطيع ان تضحي بمصالح الدول الصديقة الاخرى للوصول الى هذا التحسن » . ومضت المذكرة تقول : «ان الحكومة البريطانية تفهم فهماً كاملا ان ليس في وسع الحكومة الالمانية التضحية بمصالح بلادها الحيوية ، ولكنها تفهم ايضاً ان هذا الموقف ينطبق على الحكومة البولندية كذلك » . وتود الحكومة البريطانية الاعراب « عن تحفظ واضح » بالنسبة الى شروط هتلر . وهو انها على الرغم من حثها على المفاوضات المباشرة بين برلين ووارشو إلا انها ترى « ان من غير المعقول إقامة اتصال في مثل هذه السرعة بين البلدين » نص الكتاب البريطاني الازرق ص ١٤٢ ــ ١٤٣ .

٢ــ ادعى ريبنتروب الذي يرى مؤلف هذا الكتاب ، انه كان اكثر المتهمين الالمان ضعفاً وحزناً في محاكمات نورمبرغ ، إبان المحاكمة ، ان هتلر الذي « أملى عليه شخصياً » النقاط الست=

وقد يصح ما قاله ريبنتروب من ان هذه « المقترحات » قد غدت منسوخة فات وقتها ، إذا شاء لها الألمـــان ان تكون كذلك ، ولكن الشيء الذي أود ان اؤكده ان المانيا لم تكن تعني قط ان تحمل هذه المقترحات على محمل الجـد أو حتى غير الجد ايضاً ولم تكن اكثر من مجرد اضحوكة ساخرة ، إنها خدعة أراد هتلر من ورائها تضليل الشعب الالماني ، والرأي العام العالمي ، ان امكنـه ذلك ، وحملها على الاعتقاد بأن هتلر قد حاول حتى اللحظة الأخـيرة الوصول إلى تسوية معقولة لمطالبه من بولندة . وقد اقر الفوهرر نفسه بهذه الحقيقة ، فقد استمع اليه الدكتور شميدت فيما بعد يقول : « كنت في حاجة الى مـبرر ، ولا سيما تجاه الشعب الالماني لأثبت له انني بذلت كل ما لدي من حـول للحفاظ على السلام . ولا ريب في ان هذا يوضح العرض السخي الذي قدمته لتسويـة قضيتي دانزيـغ والرواق البولندي »[1]

=عشرة ، قد « منعني بصراحة من ان اتخلى عن هذه الاقتراحات » ولم يشرح السبب في هذا المنـع كما لم يحاول احد اثناء المناقشة سؤاله عن السبب . ومضى ريبنتروب يعترف قائلا : « وقـد امرني هتلر بأن انقل الى السفير البريطاني فحوى هذه الاقتراحات فقط إذا رأيت ان المصلحـة تقضي بذلك . ولكنني فعلت اكثر مما امرت . فقد قرأت على مسامع السفير الاقتراحات كلها من اولها حتى نهايتها » (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) . ص ٢٧٥) . ونفى الدكتور شميدت ان يكون ريبنتروب قد تلا نص الاقتراحات بالالمانية بتلك السرعة ، التي حالت دون تفهم هندرسون لها ، واكد ان وزير الخارجية لم يسرع في التلاوة « سرعة غير عادية » ويقول شميدت ايضاً ان هندرسون « لم يكن في الواقع متضلعاً باللغة الالمانية » ، وكان في وسعه ان يكون اكثر تأثيراً في تلك المحادثات العصيبة لو انه استخدم اللغة الانكليزية في حديثـه ، اذ ان انكليزية ريبنتروب كانت ممتازة ولكنه كان يرفض التحدث بها في هذه المقابلات (شميدت ـ ترجمان هتلر ص ١٥٢)

١ ـ ابرقت وزارة الخارجية الالمانية نص هذه الاقتراحات الستة عشر الى القائم بالاعمال الالماني في لندن في الساعة التاسعة والربع مساء أي قبل اربع ساعات من تلاوة ريبنتروب لهـا بسرعة على مسامع هندرسون . ولكن التعليمات صدرت الى المبعوث الالماني « بالحفاظ على سريتها وعدم نقلها الى اي انسان حتى تصله تعليمات جديدة » (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٤٤٧ ـ ٤٥٠) . وجدير بنا ان نذكر ان هتلر وعد في المذكرة التي بعث بها الى الحكومة البريطانية في اليوم السابق ، بوضع المقترحات تحت تصرفها حتى قبل وصول المفاوض البولندي .

واذا ما قورن هذا العرض بالمطالب التي كان قد قدمها في الايام الاخيرة، تبين انه كان سخياً بالفعل الى الحد الذي يبعث على الدهشة، ولم يطلب هتلر في هذه المقترحات إلا استرجاع دانزيغ وحدها . واقترح ان يقرر مصير الرواق عن طريق استفتاء، يجري بعد اثني عشر شهراً، أي بعد ان تكون العواطف الملتهبة قد هدأت . وتضمنت الاقتراحات كذلك احتفاظ بولندة بميناء غيدينيا ، وان يقدم كل من يصبح الرواق من ممتلكاته بموجب الاستفتاء ، للطرف الآخر ، طريقاً برياً وسكة حديدية تكونان تحت الاشراف الاقليمي الخارجي لهذا الطرف . ولا ريب في ان هذا الاقتراح كان « معاكساً » لعرض الربيع الماضي . وانتهت الاقتراحات الى القبول بمبدأ تبادل السكان ومنح الحقوق الرعوية الكاملة لمواطني كل من الدولتين المقيمين في الدولة الاخرى .

وفي وسع الانسان ان يتصور الآن ان هذه الاقتراحات لو قدمت بصورة جدية ، لأدت حتماً إلى ايجاد أساس للتفاوض بين المانيا وبولندة ، ولوفرت على الاقل على العالم خوض الحرب الثانية مدة جيل على الاقل . وقد اذيعت على الشعب الألماني في الساعة التاسعة من مساء الواحد والثلاثين من آب ، أي بعد ثماني ساعات ونصف الساعة من صدور امر هتلر النهائي بغزو بولندة . وفي وسعي ان اجزم ، على ضوء ما رأيته في برلين، انها نجحت في تحقيق الهدف منها وهو تضليل الشعب الالماني . وقد خدع مؤلف هذا الكتاب نفسه بها ، إذ تأثر بما فيها من « تعقل » عندما استمع اليها وهي تذاع ، واعرب عن تأثره هذا في رسالته الاذاعية الى امريكا في تلك الليلة الاخيرة من ليالي السلام .

وعاد هندرسون الى دار سفارته في تلك الليلة ٣٠ — ٣١ آب ، وهو مقتنع كما ذكر فيما بعد « بأن الامل الاخير في عودة السلام قد اختفى نهائياً » . ولكنه اراد ان يواصل محاولاته ، فأيقظ السفير البولندي من نومه في الساعة الثانية صباحاً ، واستدعاه على عجل إلى دار سفارته ، ليقدم اليه « وصفاً موضوعياً ومعتدلاً كل الاعتدال » عن المحادثات التي اجراها مع ريبنتروب ، وذكر له ان النقطتين الرئيسيتين في الاقتراحات الالمانية تتلخصان في تسليم دانزيغ الى المانيا

واجراء الاستفتاء في الرواق ، واضاف انه يرى على ضوء ما يستطيع ان يعيه من هذه المقترحات انها لم تكن خالية من التعقل والمنطق ، واقترح على ليبسكي ان يوصي حكومته فوراً ، بعرض عقد اجتماع عاجل بين المشير سميغلي ريدز والمشير غورنغ . وقال هندرسون « انه شعر بواجبه ، في ان يضيف بأنه لا يأمل بنجاح أية مفاوضات يقوم بها الهر فون ريبنتروب » [١]

* * *

ولم يقف داهليروس المناضل في غضون ذلك مكتوف اليدين . ففي الساعة العاشرة مساء التاسع والعشرين من آب ، استدعاه غورنغ إلى منزله وابلغه «بالسير غير المرضي » الذي سار فيه الاجتماع الذي انتهى قبل لحظات بين هتلر وريبنتروب وهندرسون . وكان المشير البدين في نوبة من نوباته الهستيرية ، وراح يوجه امام صديقه السويدي اعنف الحملات على بولندة وبريطانيا . ولكن سرعان ما هدأت ثائرته ، وراح يؤكد لزائره بأن الفوهرر شرع في اعداد « عرض سخي » على بولندة يكون فيه المطلب الرئيسي السريع اعادة دانزيغ ، تاركاً تقرير مصير الرواق إلى استفتاء يجري « تحت اشراف دولي » وسأل داهليروس محدثه عن مساحة المنطقة التي يقترح إجراء الاستفتاء فيها ، فانتزع غورنغ صفحة من « اطلس » جغرافي قديم ، ورسم بقلم ملون الاجزاء « البولندية » و « الألمانية » ، ضاماً إلى الجزء الألماني لا مجرد بروسيا البولندية فحسب بل ومدينة لودز الصناعية ، التي تبعد ستين ميلاً إلى الشرق من حدود عام ١٩١٤.

---

١ - تقرير هندرسون الاخير رقم ٦١١٥ ص ١٧ وكتابه « فشل بعثة » ص ٢٨٧ .... نقل هندرسون في برقية بعث بها الى هاليفاكس في الساعة الخامسة والربع من صباح الواحد والثلاثين من آب انه اشار على ليبسكي« بعبارات قاطعة للغاية » ان « يهتف » الى ريبنتروب وان يطلب اليه تسليمه المقترحات الألمانية حتى ينقلها بدوره الى الحكومة البولندية . وقد رد ليبسكي بأنه سيتصل بوارشو اولا يسألها رأيها . واضاف هندرسون في برقيته ان « السفير البولندي وعد بأن يهتف فوراً الى حكومته ، ولكنني ارى انه عاجز امام تعليمات حكومته الى الحد الذي لا استطيع الوثوق فيه بظهور اية نتيجة فعالة لاي عمل يقوم به » (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) رقم ٥٧٥ ص ٤٣٣).

ولم يستطع المتطفل السويدي إلا ملاحظة (السرعة وعـدم الاكتراث) اللذين يصاحبان اتخاذ القرارات المهمة في الرايخ الثالث . ولكنه وافق غورنغ على أي حال ، في ان يطير فوراً إلى لندن ، وان يؤكد للحكومة البريطانية ان هتلر ما زال راغباً في السلام ، وان يلمح اليها ، بأن الفوهرر كدليل على هذه الرغبة شرع في اعداد عرض سخي للغاية ليقدمه الى بولندة .

وطار داهليروس الذي لا يعرف التعب الى لندن في الساعة الرابعة من صباح الثلاثين من آب ، وبدّل السيارة التي استقلها من مطار هوستون إلى العاصمة البريطانية عدة مرات تضليلاً لرجال الصحافة الذين توهم انهم في اثره ، على الرغم من عدم احساسهم في الحقيقة بوجوده . ووصل إلى داوننغ ستريت في الساعة العاشرة والنصف صباحاً ، حيث استقبله تشمبرلاين فوراً بحضور هاليفاكس وويلسون وكادوغان .

ولم يعد المهندسون البريطانيون الثلاثة الذين بنوا صرح ميونيخ - إذ لم يكن كادوغان وهو الرجل الرابع الحاضر لمقابلة اليوم والموظف الدائم في وزارة الخارجية من المستجيبين للسحر النازي منذ البداية -- يصدقون اقوال هتلر وغورنغ ، كما لم تؤثر عليهم جهود داهليروس تأثيراً كبيراً . ووجد السويدي الحسن النية البريطانيين الاربعة « كثيري الشك » بالزعيمين النازيين ، وميالين « الى الافتراض بعدم وجود ما يحول بين هتلر وبين اعلان الحرب على بولندة » واوضح البريطانيون للوسيط السويدي ايضاً ان حكومتهم لم تقع في الفخ الذي نصبه هتلر بطلبه ايفاد «مفوّض» بولندي الى برلين في غضون اربع وعشرين ساعة.

ولكن داهليروس ، شأنه في ذلك شأن هندرسون في برلين يريد ان يواصل محاولاته . فهتف الى غورنغ في برلين مقترحاً ان يجتمع المندوبون الالمان والبولنديون خارج المانيا ، فتلقى رداً مؤخراً بأن « هتلر موجود في برلين »وان الاجتماع يجب ان يتم فيها .

وهكذا لم يحقق الوسيط السويدي شيئاً من رحلته الجوية هذه ، فعاد عند منتصف الليل الى برلين ، حيث اتيحت له فرصة اخرى ، على الاقل ، ليكون

نافعاً . وقد وصل الى مقر قيادة غورنغ في الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل ، ليجد قائد السلاح الجوي مرة ثانية في حـالة عصبية عنيفة . وراح المشير يبلغه ان الفوهرر قد قدّم قبل لحظات الى هندرسون عن طريق ريبنتروب «عرضاً عملياً وعادلاً وديموقراطياً لينقله الى بولندة . وراح داهليروس الذي انتقلت اليه عدوى « التعقّل » بعد اجتماعه في ذلك اليوم في لندن يهتف الى فوربس في السفارة الالمانية ليتأكد من صحة ما سمع ، فأجابه هـذا بأن ريبنتروب قد «تمتم» بالشروط أمام هندرسون بسرعة هائلة لم تمكنه من استيعابها استيعاباً كاملا ، وان الوزير الالماني قـد رفض تسليمه صورة منها إبان المقابلة . ويقول داهليروس انه ذكر لغورنغ ان هذه الطريقة ليست صحيحة « في معاملة سفير دولة كالامبراطورية البريطانية » واقترح ان يسمح له المشير الذي كان يحمل صورة من الاقتراحات الستة عشر ، باملائها هاتفياً على السفارة البريطانية. وقد قبل غورنغ بهذا الاقتراح بعد كبير تردد .[1]

وهكذا علمت بريطانيا بالاقتراحات الالمانية الى بولندة بطريقه غريبة . فقد تمكن رجل اعمال سويدي مغمور يعمل متواطئاً مع قائد السلاح الجوي الألماني من المكر بهتلر وريبنتروب ، وابلاغ الحكومة البريطانية نص هذه المقترحـات ولعل المشير الذي لم يكن في حـال من الأحوال غبياً او مفتقراً الى الخبرة في معالجة الشؤون الخارجية ، قد ادرك بسرعة تفوق سرعة ادراك الفوهرر ووزير خارجيته المداجي ، بعض الفوائد التي يمكن لألمانيا ان تجنيهـا من اطـلاع البريطانيين اخيراً على هذا السر .

واراد غورنغ ان يتأكد تمام التأكد، من ان هندرسون قد تلقى فعلاً وبصورة دقيقة هذه المقترحات ، فأوفد داهليروس في الساعة العاشرة من صباح الخميس

---

١ ـ ادعى غورنغ امام محكمة نورمبرغ ، انه بعمله هذا في تسليم نص « العرض » الذي اعده هتلر الى السفارة البريطانية كان يغامر مغامرة هائلة ، إذ ان الفوهرر كان قد منع بصورة قاطعة نشر هذه المعلومات او تسربها . واضاف غورنغ امام المحكمة قائلا : « وكنت انا الشخص الوحيد الذي يستطيع القيام بهذه المغامرة » (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩) ص ٤٩٣) .

الواحد والثلاثين من آب إلى دار السفارة البريطانية حاملاً نسخه مطبوعـــة من النقــاط الست عشرة . وكان هندرسون لا يزال يواصل إقناع السفير البولندي بإقامة (الاتصال المرغوب) مع الالمان . وراح في الساعة الثامنة صباحاً يحث ليبسكي من جديد ، مستخدماً الهاتف هذه المرة ، ومنذراً إياه بأن بولندة ان تأخرت عن العمل ، حتى الظهر ، فإن الحرب واقعة لا محالة . [1] ولم يكـد داهليروس يصل إلى السفارة البريطانية حاملاً نص المقترحات الألمانية حتى أوفده السفير هندرسون ومعه فوربس إلى السفارة البولنديـة . ولم يكن ليبسكي قد سمع من قبل بداهليروس ، ولذا فقد اضطرب عندما اجتمع بالسويدي ، وسرعان ما ثارت اعصابه التي كانت قد بلغت اقصى حدود الاجهـاد كأعصاب غيره من الدبلوماتيين في برلين في تلك الأيام ، عندما شرع هـــذا الرجل يحثه على المضي فـــوراً إلى غورنغ ليعلن قبوله لعرض الفوهرر . وطلب الى السويدي ان يمضي الى الغرفة المجاورة ليملي على احدى السكرتيرات نص النقـــاط الست عشرة ، وعندما لبى هذا طلبه ، أعرب السفير عن تضايقه من فوربس لإتيانـه بهذا «الغريب» في مثل هذا التاريخ المتأخر وتدخله في مثل هذه المهمة الخطيرة. وليس ثمة من شك في ان السفير البولندي المجهد كان قد أحس بالألم من هـــذا الضغط الذي يواصل هندرسون تعريضه وتعريض حكومته له ، للتفاوض فوراً على أساس عرض تسلمه قبل لحظات بصورة لا رسمية وخفية ، وان كان المبعوث البريطاني قد أبلغه في الليلة الفائتة انه لا يرى فيـــه « بعداً كبيراً عن التعقل والمنطق » [2] ولم يكن يعرف ان داوننغ ستريت لم يتبنَّ وجهة نظر سفيره في

---

١ ـــ ساعد السفير الفرنسي الاريب زميله البريطاني في هذه المحاولة . فقد هتف له هندرسون في الساعة التاسعة ليبلغه انه ما لم يوافق البولنديون قبل الظهر على ارسال مبعوث مفوض الى برلين فإن الجيش الالماني سيشرع في هجومه . وتوجه كولوندر على الفور الى السفارة البولنديـة وحث ليبسكي ، على ان يتصل الى حكومته طالباً اليها تخويله بأن يجري اتصالا فورياً مع الالمـان بوصفه « مفوضاً » . (الكتاب الفرنسي الاصفر . الطبعة الفرنسية . ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧ .)

٢ ـ اقنع هندرسون نفسه الآن أي قبيل ظهر الواحد والثلاثين من آب ، وهو يجاهد لاحلال السلام بأي ثمن ، ان الشروط الالمانية الاخيرة معقولة للغاية ومعتدلة ايضاً . وعلى الرغم من =

برلين . وكل ما يعرفه انـــه لا يعتزم العمل بنصيحة سويدي مجهول ، حتى ولو كان السفير البريطاني هو الذي اوفده اليه ، ولا يفكر بالذهـــاب إلى غورنغ ليعلن له قبوله « عرض » هتلر حتى ولو كانت لديه الصلاحيات للقيام بهذا العمل

= ان ريبنتروب قد ابلغه في منتصف الليلة السابقة ان الاقتراحات الالمانية اصبحت منسوخة فات وقتها لعدم وصول المبعوث البولندي في الوقت المحدد » ، وعلى الرغم من ان الحكومة البولندية لم تكن قد قرأت هذه الاقتراحات حتى تلك اللحظة ، وعلى الرغم من انها في مجملها مجرد ألعوبـــة سافرة ، فإن السفير واصل الالحاف طيلة اليوم على هاليفاكس للضغط على البولنديين لايفاد «مفوض» تلبيـــة لطلب هتلر ، كما واصل الاصرار على سفيره على ان نقـــاط الفوهرر الست عشرة معقولة ومنطقية .

وابرق هندرسون الى هاليفاكس في الساعة الثانية عشرة والنصف ظهر الواحـــد والثلاثين من آب حاثاً « إياه » على « الاصرار » على بولندة بأن يطلب ليبسكي من الحكومة الالمانية تزويده بنص المقترحات ليبرق بها فوراً الى حكومته « هادفاً الى ايفاد مفوض الى برلين » ومضى السفير يقول : «وتبدو لي الشروط معتدلة ، فالموقف الآن مختلف عن الوضع ايام ميونيخ .... ولن يكون في وسع بولندة الحصول على مثل هذه الشروط الطيبة ثانية ... »

وبعث هندرسون في نفس الوقت برسالة مطـــولة الى هاليفاكس قـــال فيها : « لا تعرض الاقتراحات الالمانية استقلال بولندة للخطر ... وقد لا يتاح لها الحصول على صفقة طيبة كهذه فيما بعد ... »

وواصل هندرسون إلحافه فأبرق الى هاليفاكس في الساعة الثانية عشرة والنصف من بعد منتصف ليل الاول من ايلول ، اي قبل اربـــع ساعات من الموعد المقرر للبدء بالهجوم – وان لم يكن يعرف ذلك بالطبـــع ، يقول ان « الاقتراحات الالمانية ... لا تعتبر غير معقولة ... وانني لاقول ، ان الحرب قد لا تعتبر عادلة على اساس مثل هذا العرض » . وحث وزيره على ان تقوم الحكومة البريطانية بالضغط على البولنديين «بلغة لا تقبل الشك» لاعلان « عزمهم على ايفاد مفوض الى برلين . »

واتخذ السفير البريطاني في وارشو موقفاً مغايراً ، فقد ابرق الى هاليفاكس في الواحد والثلاثين من آب يقول : « يبدو ان سفير جلالته في برلين يعتبر الشروط الالمانية معقولة . وانني لأخشى انني لا استطيع الاتفاق معه من وجهة نظر وارشو »(برقية هندرسون – وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٤٤٠ . رسالة الى هاليفاكس – وثائق زارة الخارجية البريطانية (٧) . ص ٤٦٥ – ٤٦٧ – البرقية ص ٤٦٨ – ٤٦٩ ، برقية كينارد – رقم ٦١٨) .

وان كان في الحقيقة والواقع لا يملكها مطلقاً »[1]

آخر يوم من ايام السلام

خيل للحكومتين البريطانية والفرنسية انهما افلحتا اخيراً في حمل الألمان والبولنديين على قبول مبدأ التفاوض المباشر ، فأخذتا على الرغم من شكوكهما الضخمة بهتلر ، تركزان جهودهما على محاولة تحقيق هذه المفاوضات فعلاً . وقد تولت بريطانيا الدور القيادي في هذا المجال ، تؤيدها فرنسا دبلوماتياً في برلين ولا سيما في وارشو . وعلى الرغم من ان البريطانيين لم ينصحوا البولنديين بقبول إنذار هتلر ، وإرسال مبعوثهم المزود بالصلاحيات الكافية إلى برلين في الثلاثين من آب معتبرين ان مثل هذا الطلب، على حد تعبير هندرسون في برقيته إلى

---

١ ــ وقعت هناك قصة دبلوماتية غريبة اخرى في آخر يوم من ايام السلام تستحق الشرح في الهوامش . فقد عاد داهليروس من زيارته للسفير البولندي ليبسكي الى السفارة البريطانية حيث سجل من مكتب السفير نفسه عند الظهر طلباً لمكالمة هاتفية مع السير هوراس ويلسون في وزارة الخارجية البريطانية . وقد ابلغ ويلسون ان الاقتراحات الالمانية « سخية ومعتدلة تماماً » ولكن السفير البولندي قد رفضها . ومضى يقول : « ويتضح من هذا ان البولنديين يضعون العراقيل في طريق الوصول الى احتمالات التفاوض . »

وسمع ويلسون في هذه اللحظة بعض الاصوات على الخط الهاتفي فتبين له ان الالمان يصغون الى المكالمة الهاتفية . وحاول انهاء المحادثة ، ولكن داهليروس واصل الثرثرة عن بعد البولنديين عن العقل والمنطق ، ودون السير هوراس في مذكرة لوزارة الخارجية البريطانية ما يلي : « وعدت اطلب الى داهليروس اغلاق فمه ، ولكنه اصر على الكلام ومضى في هذره ، اضطررت الى قطع المكالمة ووضع السماعة في مكانها »

ونقل ويلسون انباء هذه الرعونة التي ارتكبت في مكتب سفير جلالته في برلين الى رؤسائه في الحكومة البريطانية . وفي اقل من ساعة ، اي في الواحدة بعد ظهر اليوم نفسه ابرق هاليفاكس الى هندرسون بالرموز يقول : « عليك ان تكون حريصاً عند استعمالك الهاتف . لقد كانت مكالمة « د » الهاتفية ظهر اليوم من السفارة في منتهى الطيش والرعونة ولا ريب في ان الالمان قد استمعوا اليها . » ــ كانت وزارة الخارجية تشير الى داهليروس في جميع مخابراتها مع سفارة برلين بحرف «د» ــ . (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٤٤١ ــ ٤٤٣ .)

هاليفاكس ، أمر غير معقول ، إلا انهم حثوا الوزير بيك على الإعلان عن استعداده للتفاوض مع برلين « دون إبطاء » . وكان هذا الحث موضوع رسالة بعث بها هاليفاكس إلى سفيره في وارشو في ساعة متأخرة من ليل الثلاثين من آب ، يطلب فيها اليه ان يبلغ بيك بمحتويات المذكرة البريطانية إلى المانيا ، وهي المذكرة التي كان هندرسون على وشك تبليغها إلى ريبنتروب،وان يؤكد له – أي لبيك – ان بريطانيا ستفي بالتزاماتها إلى بولندة ، وان كانت تود ان تؤكد لها ما تعلقه من اهمية على قبولها – أي بولندة – بمبدأ التفاوض المباشر والفوري مع المانيا .... ومضى هاليفاكس يقول في برقيته :

« ونحن نعتبر ان من الاهمية بمكان عظيم بالنسبة إلى الوضع الداخلي في المانيا وإلى الرأي العام في العالم ، ان لا نترك للحكومة الألمانية التي تدعي استعدادها للتفاوض ، الفرصة التي تمكنها من إيقاع اللوم في الحرب على بولندة . »[1]

وراح كينارد يقابل بيك عند الظهيرة ، ووعد وزير الخارجية البولندية ، باستشارة حكومته ، وبأن يعطيه « جواباً مدروساً » قبل ظهر الواحد والثلاثين من آب . ووصلت برقية كينارد التي تشرح هذه المقابلة إلى وزارة الخارجية البريطانية في الساعة الثامنة صباحاً ، ولم يكن هاليفاكس راضياً عنها . وبعث عند الظهر ، وكان هذا آخر يوم من ايام آب ، ببرقية إلى كينارد يوعز له فيها بالتشاور مع زميله الفرنسي في وارشو (ليون نويل السفير الفرنسي) وان يقترحا معاً على الحكومة البولندية :

« ان تعلم الحكومة الألمانية الآن ، ويفضل ان يكون ذلك بطريق مباشر ، او عن طريقنا إذا استحال ذلك. بأنها اطلعت على ردنا الاخير على الحكومة الالمانية ، وانها تؤكد قبولها لمبدأ المفاوضات المباشرة .

---

١ – الكتاب البريطاني الازرق ، ص ١٤٤ .

« وتخشى الحكومة البريطانية ان تستغل الحكومة الألمانية سكوت الحكومة البولندية لصالحها . »[1]

وقلق اللورد هاليفاكس من موقف حلفائه البولنديين ، وراح يبرق بعد أقل من ساعتين أي في الواحدة والدقيقة الخامسة والاربعين من جديد إلى كينارد قائلاً :

« أرجو ان تبلغ الحكومة البولندية فوراً ، وان تنصحها انه بالنظر الى الحقيقة الواقعة وهي انها قبلت بمبدأ المفاوضات المباشرة فإن عليها ان توعز إلى سفيرها في برلين بإبلاغ الحكومة الألمانية بأنه على استعداد لنقل أية اقتراحات المانية إذا كان لهذه الاقتراحات من وجود ، إلى حكومته لتتولى درسها فوراً وتقترح البدء في محادثات مبكرة » [2]

وتلقت الحكومة البريطانية قبيل ارسال هذه البرقية ، مذكرة خطية من بيك ، رداً على اتصال منتصف الليل الدبلوماتي ، يبلغها فيها ان الحكومة البولندية « تؤكد استعدادها لإجراء تبادل مباشر لوجهات النظر مع الحكومة الألمانية » ، وانها اكدت للسفير البريطاني في وارشو بأنها اوعزت إلى ليبسكي ليطلب مقابلة ريبنتروب وليبلغه « ان بولندة قد قبلت الاقتراحات البريطانية » وعندما سأل كينارد وزير الخارجية بيك عما سيفعله ليبسكي إذا قام ريبنتروب بتسليمه المقترحات الألمانية ، رد الوزير بأن سفيره في برلين لن يكون مخولاً بقبولها ، إذ « انها بالنسبة إلى التجارب السابقة ، قد تكون مصحوبة بشكل من اشكال التهديد . » واضاف بيك ان الأمر المهم هو إعادة الاتصال « وآنذاك يمكن للتفاصيل المتعلقة بمكان المفاوضات وشخصيات القائمين بها واسسها وموعد بدئها ان تبحث » . وكانت هذه النظرية التي اوردها الوزير الذي عرف في

---

١ ــ الكتاب البريطاني الازرق . ص ١٤٧ .

٢ ــ الكتاب البريطاني الازرق . ص ١٤٧ .

الماضي بتشيعه للنازيين معقولة بالنسبة الى التجارب السابقة . واضاف كينارد في برقيته إلى لندن ، ان بيك قال بأنــه لن يذهب إلى برلين بالطبع إذا دعي اليها ، اذ انه لا يود ان يعامل كما عومل الرئيس هاشا .[١]

ولكن بيك لم يرسل هذه التعليمات الى ليبسكي حقـــاً . وبدلاً من ان يقول السفير للألمان ان بولندة « تقبل » الاقترحات البريطانية ، صدرت التعليمات اليه لإبلاغ الالمان بأن بولندة « تدرس » الاقتراحات البريطانية بشيء من الارتياح وستوجه ردها الرسمي « في غضون الساعات القليلة القادمة على اكثر تقدير » .

وكانت هناك تعليمات أُخرى من بيك الى ليبسكي ، ولما كان الألمان قد تمكنوا من حل « الشيفرة » البولندية فقد عرفوا بهذه التعليمات .

وكان هناك سبب بسيط ومعقول وسرعان ما قدر له ان يتضح ، يدعـو الألمان الى عدم التلهف على استقبال السفير البولندي في برلين . ويتلخص هـذا السبب في ان الوقت قد فات . ففي الساعة الواحدة بعد الظهر ، أي بعد بضع دقائق من تسلمه تعلياته البرقية من وارشو، طلب ليبسكي مقابلة ريبنتروب بقصد تسليمه رسالة تلقاها من حكومته . وبعد انتظار طال اكثر من ساعتين ، تلقى رداً هاتفياً من وايز ساكر، يسأله إذا كان في طلبه مقابلة وزير الخارجية الألمانية يمارس وضع « مبعوث » يحمل مطلق الصلاحيات أو « مجرد سفير عادي » .

ويقول ليبسكي في تقريره الاخير[٢] انه رد بأنه يطلب المقابلة كسفير يود ان يقدم إلى وزير الخارجية بياناً من حكومته .

ومرت فترة انتظار أُخرى . وقام اتوليكو في الساعة الخامسة مساء بزيارة ريبنتروب ناقلاً اليه « رغبة الدوتشي العاجلة » في ان يستقبل الفوهرر ليبسكي « ليقيم بهذه الطريقة على الاقل ، الحـــد الادنى من الاتصال اللازم لتجنّب الانقطاع النهائي » . ووعد وزير الخارجيـــة الالماني بنقل رغبة الدوتشي إلى

---

١ ــ نص المذكرة البولندية الخطية . الكتاب البريطاني الازرق ص ١٤٨ . وصلت برقيـــة كينارد في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة عشرة من مساء ٣١ آب .

٢ ــ الكتاب البولندي الابيض (المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٤٩٩ ــ ٥١٢ .

الفوهرر .[١]

ولم تكن هذه المقابلة هي الوحيدة التي أجراها السفير الايطالي مع المسؤولين في الويلهمشتراسه في ذلك اليوم الاخير من آب ، في محاولاته لانقاذ السلام وكان اتوليكو قد ابلغ رومه في الساعة التاسعة صباحاً بأن الوضع بات « يائساً » وانه « ما لم يحدث طارىء جديد فـإن الحرب ستنشب في غضون ساعات » وراح الدوتشي ووزير خارجيته شيانو ، يحـكان رأسيهما في رومه بحثاً عن شيء طارىء جديد. وكانت الثمرة الأولى لهذا التشاور ان هتف شيانو إلى هاليفاكس قائلاً له ان موسوليني لا يستطيـع التدخل ، إلا إذا تمكن من تقديم « جـائزة دسمة هي دانزيـغ » إلى الفوهرر . ولكن وزير خارجية بريطانيا لم يغره الطعم الذي وضعه شيانو في سنارته ، ورد بأن أول ما يجب عمله هو إقامـة اتصال مباشر بين الألمان والبولنديين عن طريق ليبسكي .

وراح اتوليكو يقابل وايز ساكر في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً في دار وزارة الخارجية الألمانية ليبلغه ان موسوليني على اتصال بلندن وانه اقترح إعادة دانزيـغ إلى الرايخ كخطوة أُولى للتسوية بين المانيا وبولندة وانه يحتـاج « فسحة من الوقت » لاستكمال مشروعه لاحلال السلام ، وتساءل مـا إذا لم يكن في وسع الحكومة الألمانية استقبال ليبسكي في غضون ذلك ؟

واستقبل ريبنتروب ليبسكي في الساعة السادسة والربـع مساء ، أي بعد اكثر من خمس ساعات من طلبه المقابلة . ولم يدم الاجتماع طويلاً . وسلك السفير على الرغم من اجهاده ومن اعصابه المنهوكة ، سلوكاً كريمـاً طيباً . وتلا على مسامع الوزير النازي مذكرة خطية :

« تلقت الحكومة البولندية ليلة أمس إشعاراً من الحكومـة البريطانية عن وجود تبادل في الآراء مع حكومة الرايخ حـول امكان التفاوض المباشر بين الحكومتين البولندية والألمانية .

« وتدرس الحكومة البولندية بشيء من الارتياح اقتراحـات

---

٢ ـــ وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٤٦٢ .

الحكومة البريطانية ، وستقدم اليها رداً رسمياً حول الموضوع في غضون الساعات القليلة القادمة . »

وروى ليبسكي فيما بعد قائلاً : « واضفت انني كنت أحاول تقديم هذا ، البيان منذ الساعة الواحدة بعد الظهر » . وعندما سأله ريبنتروب ان كان قد جاء كمبعوث مخوّل بالصلاحيات اللازمة للتفاوض ، رد السفير قائلاً بأن تعليماته تقتصر في الوقت الحاضر على تسليم هذا البيان الذي تلاه على مسامع الوزير ، والذي يسره ان يقدمه اليه . وقال ريبنتروب انه كان ينتظر من السفير ان يأتي « كمبعوث كامل الصلاحيات » ، فلما رد هذا بأنه لا يملك ان يمثل هذا الدور ، صرفه الوزير من حضرته ، واعداً إياه ان يبلغ الفوهرر محتويات البيان .[1]

وقال ليبسكي فيما بعد : « وعندما عدت إلى السفارة وجدت نفسي عاجزاً عن الاتصال بوارشو إذ كان الألمان قد قطعوا خط الهاتف عن السفارة . »

ولم تكن اسئلة وايز ساكر وريبنتروب عن صلاحيات السفير ومركزه كمفاوض إلا مجرد شكليات ليس إلا ، تستهدف التسجيل التاريخي ، وذلك ، لأن الالمان قد عرفوا منذ الظهيرة ، أي منذ وصول برقية وارشو التي تحمل البيان ، انه لا يطلب المقابلة كمفوض رسمي على النحو الذي طلبوه . فلقد حلوا رموز البرقية فوراً . ونقلت صورة من البرقية على الفور إلى غورنغ الذي عرضها على داهليروس طالباً اليه ان يحملها على جناح السرعة إلى هندرسون ، وذلك لكي تعلم الحكومة البريطانية — كما اوضح المشير فيما بعد في نورمبرغ — بالسرعة الممكنة ، بما عليه موقف البولنديين من حماقة وعناد . وقرأ غورنغ إلى المحكمة التعليمات السرية المرسلة إلى ليبسكي والتي تأمره بالامتناع عن اجراء أية مفاوضات رسمية « بأي حال من الاحوال » وان يصر على انه لا يحمل اية « صلاحيات للتفاوض » ، وان كل ما لديه من صلاحية هو تسليم بيان حكومته الرسمي . وقد استغل المشير في إفادته أمام المحكمة ، هذه التعليمات استغلالاً

---

١ — توجد الآن رواية ليبسكي في تقريره الاخير ، أما رواية الدكتور شميدت الالماني فتوجد في وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧)ص ٤٦٣ .

كلياً ، محاولاً اقناع القضاة بأن بولندة هي التي (خرّبت) محاولة هتلر الأخيرة للحفاظ على السلام ، وانه اي غورنغ ، قد بذل على حد تعبيره كل ما لديه من جهد للحيلولة دون وقوع الحرب التي لم يكن يريدها . ولكن روايــة غورنغ الصادقة لم تكن إلا ظلاً يحاول إلقاءه على رواية ريبنتروب ، ولعل خير دليـل على ذلك هو تأكيده للمحكمة ايضاً ، بأن هتلر لم يقرر « وقوع الغزو في اليـوم التالي » إلا بعد زيارة ليبسكي للويلهلمشتراسه في الساعة السادسة والربـع مـن بعد ظهر الواحد والثلاثين من آب .

أما الحقيقة فـكانت خلافاً لكل ما قاله المشير . فالواقع هو ان جميـع هذه الحركات غير المنتظمة ، التي بذلها الدبلوماتيون المجهدون والمنهكون في الساعة الحادية عشرة (أي في الساعة التي سبقت الاخيرة) ، والتي قام بهـا الرجال الذين يوجهونهم ، بعد ظهر اليوم الأخير من شهر آب عام ١٩٣٩ ومسائه ، إلا كذري الحبوب في الرياح ، لا جدوى منها ولا فائدة . إلا بالنسبة إلى الألمان الذين استخدموها للتضليل والخداع .

فهناك الدليل الواضح على قولي هذا إذ في الساعة الثانية عشرة والنصف من ظهر الواحد والثلاثين من آب ، وقبل انيقوم اللورد هاليفاكس بحثّ البولنديين على يكونوا اكثر تسامحاً ، وقبل ان يقوم ليبسكي بزيارة ريبنتروب ، وقبـل ان يعلن الألمان اقتراحاتهم « السخيَّة » إلى بولندة ، وقبل ان يحاول موسوليني التدخل ، كان ادولف هتلر قد اتخذ قراره النهائي ، واصدر الأمر الحاسم الذي قدر له ان يقذف بالكرة الارضية كلها ، في اتون افظع حرب دموية عرفهـا التاريـخ ... وهـذا نصه :

من القائد الاعلى للقوات المسلحة

سري للغاية

برلين ٣١ آب ١٩٣٩

التوجيه رقم ١ عن إدارة دفة الحرب :

« ١ — الآن وبعد ان منيت بالفشل جميع الاحتمالات السياسية للتخلص بالوسائل السلمية من وضع لا تستطيع المانيا ان تطيقه في الجبهة الشرقية . قررت حل هذا الوضع عن طريق القوة .

« ٢ — ينفذ الهجوم على بولندة طبقاً للإعدادات المتخذة للعملية البيضاء ، مع التعديلات الناتجة بالنسبة إلى الجيش ، من الحقيقة الواقعة ، وهي استكماله في غضون ذلك لجميع الاعدادات اللازمة لتوزيعه .

« يظل توزيع الفروض والاهداف العملية الحربية على حاله دون تبدل .

« تاريخ الهجوم : الأول من ايلول عام ١٩٣٩ .

« ساعة الهجوم : الرابعة والدقيقة الخامسة والاربعون صباحاً (بالقلم الاحمر) .

« ينطبق هذا التوقيت ايضاً على عملية غيدينيا وخليج دانزيغ وجسر دير شاو .

« ٣ — من المهم ان تقع مسؤولية بدء الحركات الحربية في الغرب بصراحة ووضوح على عاتق انكلترا وفرنسا . ومن الواجب مقابلة الاختراقات غير المهمة للحدود في الوقت الحاضر بعمل محلي مجرد .

« ومن الواجب الحفاظ بصورة دقيقة على حياد هولندة وبلجيكا واللوكسمبورغ وسويسرا التي تعهدنا بصيانة حيادها .

« ويجب ان لا تجتاز اية وحدة عسكرية حدود المانيا الغربية براً بدون إذن واضح مني .

« ينطبق هذا القول بحراً على جميع العمليات الحربية او

العمليات التي يمكن ان تعتبر حربية ايضاً .[1]

« ٤ – إذا بدأت بريطانيا وفرنسا الحرب ضد المانيا ، فإن على تشكيلات القوات الألمانية المسلحة العاملة في الغرب ، ان تحافظ على نفسها قدر الطاقة ، وتحتفظ بالاوضاع التي تسهل النهاية الظافرة للعمليات ضد بولندة . ومن الواجب تدمير قوات العدو وموارده الاقتصادية – الحربية ضمن هذه الحدود على أوسع نطاق ممكن . واني لاحتفظ لنفسي على أي حال بالحق في اصدار الأوامر للتحول إلى الهجوم .

« وعلى الجيش ان يحافظ على الجدار الغربي وان يتخذ استعداداته للحيلولة دون قيام العدو بحركة التفاف جناحيه في الشمال ، عن طريق خرق الدولتين الغربيتين لاراضي بلجيكا وهولندة .

« وسيشن الاسطول الحرب البحرية على السفن التجارية المتجهة إلى انكلترا .... أما واجب السلاح الجوي ، فيكون في الدرجة الأولى في الحيلولة دون قوات فرنسا وبريطانيا الجوية ومهاجمة الجيش الألماني ، والمجال الحيوي الألماني .

« ومن الواجب اتخاذ الاعدادات في تسيير دفة الحرب ضد انكلترا ، لاستخدام سلاحنا الجوي (اللوفتواف) ، في قطع طرق التموين البريطانية البحرية وشل صناعة التسلح ، والحيلولة دون نقل القوات إلى فرنسا . ومن الواجب اهتبال الفرص المواتية للقيام بهجمات فعّالة على احتشادات الوحدات البحرية البريطانية ولا سيما من البوارج وحاملات الطائرات . أما الهجمات على مدينة لندن فتظل خاضعة لقراري .

---

١ – لايضاح النقطة الغامضة ورد هامش في الامر العسكري يدعو الى بقاء قوات الاطلنطي في الوقت الحاضر في مركز الترقب .

« ويجب التأهب للقيام بهجمات على البر البريطاني واضعين نصب أعيننا ان الانتصارات الجزئية بقوات غير كافية يجب تجنبهـــا في جميـع الحالات .

ادولف هتلر »[١]

وهكذا فإن هتلر أمر بصورة رسمية وخطية بعد ظهر الواحد والثلاثين من آب ببدء الهجوم على بولندة عند فجر اليوم التالي . ولا ريب في ان هذا التوجيه الاول ، يوضح ان هتلر لم يكن متأكداً مما ستفعله بريطانيا وفرنسا . ولكنـــه قرر الامتناع عن البدء بمهاجمتها . أما إذا تولتا هما الهجوم ، فهو على استعداد لمواجهتهما . ومن المحتمل ان يقوم البريطانيون ، كما أوضح هولدر في يوميتـــه بتاريخ الثامن والعشرين من آب ، بالوفاء بالتزاماتهم لبولندة ، عن « طريق شن حرب صورية » ، وإذا وقع هذا فإن الفوهرر لن « يستاء أو يمتعض » .

ومن المحتمل ان يكون الديكتاتور النازي قد اتخذ قراره القدري قبـــل الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً من ذلك اليوم الأخير من شهر آب . ففي الساعة السادسة والدقيقة الاربعين من مساء اليوم السابق دوّن هولدر في يومياته رسالة تلقاها من المقدم كورت سيويرت مرافق الفريق فون براوختش هـــذا نصها : « اكمل الاستعدادات ليبدأ الهجوم في الساعة الرابعة والنصف من صباح الأول من ايلول . إذا تطلبت المفاوضات مع لندن التأجيل فسيبدأ الهجوم في الثاني منه . وسنبلغ بذلك ، قبل الساعة الثالثة من بعد ظهر الغد ... يقـــول الفوهرر ان الهجوم يجب ان يقع إما في الأول أو الثاني من ايلول . أما إذا تأجل عن ذلك ، فسيؤجل الهجوم إلى أمد طويل » . وكان من المحتوم ان يبـــدأ الهجوم فوراً أو يؤجل إلى أمد غير محدود وذلك بسبب امطار الخريف .

وفي الساعات المبكرة من صباح الواحد والثلاثين من آب ، وبينما كان هتلر لا يزال يزعم انتظار وصول الرسول البولندي . تلقى الجيش الألماني اوامره .

---

١ ــ محاكمات كبار مجرمي الحرب (٣٤) ص ٤٥٦ ــ ٤٥٩ والمؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٣٥ ــ ٩٣٩ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٧) ص ٤٧٧ ــ ٤٧٩ .

فقد دوّن هولدر في يومياته في الساعة السادسة والنصف صباحاً ما يلي : «تلقيت إشعاراً من مستشارية الرايخ يقول ان الامر بالوثوب قد صدر محدداً التاريخ بالاول من ايلول » . ودوّن في الساعة الحادية عشرة والنصف ما يلي : « ذكر الفريق ستوبلبيناغيل ان وقت الهجوم قد حـدد بالرابعة والدقيقة الخامسة والاربعين صباحاً . يقال ان لا مناص من تدخل الغرب، ومع ذلك فإن الفوهرر مصمم على الهجوم » . وبعد نحو من ساعة صدر التوجيه الرسمي الأول .

واني لأذكر جو الفزع الذي سيطر على برلين في ذلك اليوم ، فقد بـدا كل انسان وكأنه في حالة ذهول . وهتف وايزساكر في الساعة السابعة والدقيقـة الخامسة والعشرين صباحاً إلى اولريخ فون هاسيل وهو «احد المتآمرين » طالباً اليه ان يسرع إلى مقابلته . فلقد رأى وزير الدولة أملاً واحـداً في النجاة من الحرب وهو ان يقنع هندرسون ليبسكي وحكومته بإيفاد مفوض بولندي على الفور أو بإعلان عزمه على إيفاد مثل هذا المفوض على الاقل ، وراح وايزساكر يسأل هاسيل الذي لا عمل له ، ما إذا كان بإمكانه ان يقابل هندرسون فوراً ، وغورنغ كذلك لتحقيق هذه الغاية ? وبذل هاسيل جهده ، فقابل هندرسون مرتين وغورنغ مرة واحدة . ولكن على الرغم من خبرته الدبلوماتية الطويلة ، ومن موقفه المناوىء للنازية ، بدا وكأنه لا يدرك ان الاحداث قـد سبقت مثل هذه المحاولات التافهة . ويبدو انه لم يفهم ايضاً مدى ما في اضطرابـه واضطراب وايز ساكر وغيره من الألمان « الطيبين » الذين ارادوا السلام بالطبع ولكن على أساس الشروط الألمانية من خطأ . فلا بد وان يكونوا جميعاً قـد عرفوا في الواحد والثلاثين من آب ، ان الحرب واقعة حتماً إلا إذا تراجع احد الفريقين ،إما هتلر او البولنديون،ولم يكن هناك أمل في تراجع ايهما على أي حال من الأحوال . ومع ذلك فقد كان ينتظر كما تشير يومية هتلر لهذا اليوم ، ان يتراجع البولنديون وان يسيروا في نفس الطريقة المفجعة التي سار عليها النمسويون والتشيكيون من قبل .

وعندما حاول هندرسون ان يبيّن لهاسيل ان « الصعوبة الكبرى » تقوم في

الاساليب الالمانية أو في الطريقة التي كانوا يحاولون إصدار الأوامر بها إلى البولنديين وكأنهم من « صغار الاطفال البلداء» راح هاسّيل يرد قائلاً بأن اصرار البولنديين على الصمت ايضاً شيء لا يمكن قبوله . واضاف ان كل شيء يعتمد الآن على ظهور ليبسكي في وزارة الخارجية الألمانية لا لتوجيه الأسئلة بل لاعلان استعداده للتفاوض . وكان هاسّيل نفسه ، يرى ان ليس من حق البولنديين المهددين بالهجوم المرتقب في كل لحظة استناداً إلى الاتهامات التي كثر التطبيل لها والتزمير ، ان يوجهوا أية اسئلة . وعندما لخص السفير الألماني السابق « استنتاجاته النهائية » التي توصل اليها في موضوع نشوب الحرب ، راح على الرغم من إيقاعه اللوم على هتلر وريبنتروب « لمجازفتهما بالحرب مع الدولتين الغربيتين عن عمد واصرار » ، يصب الكثير من المسؤولية على البولنديين وحتى على البريطانيين والفرنسيين . وكتب هذا الرجل يقول : « لقد اضاع البولنديون من ناحيتهم مدفوعين بما عرف عنهم من غرور ، وبما يتميزون به من خواء سلافي ، وبثقتهم من عون بريطانيا وفرنسا ، الفرصة الوحيدة التي بقيت لتجنب الحرب» . ولكن في وسع المرء ان يتساءل عن هذه الفرصة التي اضاعوها إذا لم تكن التسليم لهتلر بجميع مطالبه . واضاف هاسّيل يقول : « أما حكومة لندن فقد تخلت عن السباق في الايام الاخيرة واتخذت موقف الاهمال المطلق . ومرت فرنسا بعين هذه المراحل ، مع تميزها بالمزيد من التردد . وبذل موسوليني كل ما في وسعه لتجنب الحرب » . [1] وإذا قدر لرجل مثل هاسّيل من الدبلوماتيين المجربين والمثقفين والمهذبين ، ان يكون على هذا النحو من التفكير المتذبذب المفتقر إلى الثبات ، فليس من الغريب والحالة هذه ان يكون من السهل على هتلر ان يأسر ألباب جماهير الشعب الألماني .

ووقع في عصر ذلك اليوم الآفل والاخير من أيام السلام ، فصل اضافي للمسرحية كان غريباً إلى حد كبير في شكله وموضوعه . وعلى ضوء ما نعرفه الآن عن القرارات الهامة التي اتخذت في ذلك اليوم ، كان في وسع المرء ان

---

١ ــ هاسيل ــ يوميات . ص ٦٨ ــ ٧٣ .

يتوقع من القائد العام للسلاح الجوي غورنغ ، وهو الرجـل الذي كان مـــن واجبه القيام بعمليات جوية واسعة النطاق ضد بولندة في اليوم التالي ، ان يكون منهمكاً في العمل في ذلك اليوم الاخير من أيام السلام . لكن ما وقع في ذلك اليوم كان على النقيض من هذا تماماً . فقد دعاه داهليروس إلى تنـــاول الغداء في فنـدق اسبلانادا حيث اتخمه بخـير الطعـام واجود الشراب . وكان « الكونياك » من اجود الانواع إلى الحد الذي دفع غورنغ إلى الاصرار على ان يأخذ زجاجتين منه وهو يغادر الفندق . وبعد تمكن داهليروس من خلق هـذا المزاج المرح عند المشير ، راح يقترح عليه دعوة هندرسون للتحدث اليــه . وبالفعل دعا غورنغ السفير البريطاني بعد ان استأذن هتلر ، ومعـــه فوربس ليتناولا معه الشاي في منزله في الخامسة مساء . ويقول داهليروس ، الذي لم يذكر هندرسون شيئاً عن وجوده في الاجتماع لا في تقريره الاخير ولا في كتابه — اقترح على غورنغ ان يقابل بالنيابة عن المانيا رسولاً بولندياً في هولندة ، وان هندرسون وعد بنقل هذا الاقتراح إلى لندن . وتقول رواية السفير البريطاني عن هذا الحديث الذي دار حول مائـــدة الشاي في تقريره الاخير ان غورنغ « تحدث اكثر من ساعتين عن مظالم البولنديين وعن رغبة الهر هتلر ورغبته هو في صداقة انكلترا . وكان الحديث من النوع الذي لا يؤدي إلى أية نتيجة .... وكان الانطباع العام عندي ، ان هذا الحديث عنى محاولة أخيرة وفردية من جانبه لإبعاد بريطانيا عن البولنديين .... وقـد توقعت الكثير من الشر ، من الحقيقة الواقعة ، وهي انه تمكن في مثل هذا الوقت العصيب من ان يوفر لي هذا الوقت الطويل ... إذ لم يكن باستطاعته في مثل الوقت ان يوفر لحظة واحدة للحديث ، لو لم يكن كل شيء ، معداً للعمل حتى في أدق تفاصيله واصغرهـــا شأناً » .

وصدر اكثر وصف لذعاً وسخرية لهذا الاجتماع على أقداح الشاي من فوربس رداً على سؤال وجهه اليه محامي الدفاع عن غورنغ في نورمبرغ إذ قال :

« كان الجو سلبياً ويبعث على القنوط ، وان اتصف بالود ....

وكان مما قاله غورنغ للسفير البريطاني ، ان المانيـــا ستحطم البولنديين كالقمل إذا لم يسلموا ، وانه إذا قررت بريطانيا ان تعلن الحرب ، فإن هذا القرار يسوؤه إلى حدٍ كبير ، ولكنه يود ان يقول ان مثل هذا القرار حماقة كبرى . » (١)

ويقول هندرسون انه أعد في ساعة متأخرة من تلك الليلة مسودة برقية إلى لندن قال فيها انه يرى « ان من غير المجدي ان يحاول التقدم باقتراحات جديدة سرعان ما تسبقها الاحداث وتبطلها ، وان السبيل الوحيد الباقي أمامنا هو ان نظهر تصميمنا الذي لا يلين على مقاومة القوة بالقوة » (٢)

وبدا ان خيبة أمل السير نيفيل هندرسون باتت كاملة . إذ على الرغـم من الجهود الهائلة التي بذلها طيلة السنوات العديدة لإرضاء شهية الديكتاتور النازي التي لا تشبع ، فإن بعثته إلى المانيا قد فشلت على حد تعبيره . وقد حاول هذا الانكليزي المرح والضحل ، الذي اتسمت دبلوماتيته الشخصية في برلين بالعمل المفجع في الساعات الآفلة من آخر أيام آب ، ان يواجه هـــذا الانهيار الـكامل لآماله العابثة وخططه الفاشلة . وعلى الرغم من ان القدر شاء له ان يعـــاني زلة

---

١ ـ شهادة داهليروس في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩) ص ٤٧٠ ـ ٤٧١ ، رد فوربس في كتاب ناميير « مقدمة دبلومـــاتية » ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧ ، ووصف هندرسون في تقريره الاخير ص ١٩ .

٢ ـ من المحتمل ان يكون السفير قد اعد تلك البرقية في ذلك المساء ، ولكنه لم يبعث بهـــا في الواقع إلى لندن الا في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والاربعين من بعد ظهر اليوم التالي ، اي بعد اثنتي عشرة ساعة تقريباً من بدء الهجوم على بولندة . وقد جاءت بعد سلسلة من البرقيات التي بعث بها والتي نقلت بالهاتف ايضاً الى لندن حتى يكون الارسال في وقت واحـــد ، راوياً فيهـــا بدء العمليات الحربية . وهذا نص البرقية : « ان الافتقار المتبادل الى الثقة بين الالمان والبولنديين قد بلغ حدود الكمال الى درجة بت اشعر فيها ان ليس في وسعي التقدم من هنا بأية اقتراحات جديـــة لأن الاحداث تسبق هذه الاقتراحات او لأن الفشل يرافقها ثمرة الاساليب المتبعة او اعتبـــارات الشرف والكرامة . ويقوم الأمل الاخير في التصميم الذي لا يلين مـــن جانبنا على مقـــاومة القوة بالقوة »(وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٤٨٣ . وفي تقرير هندرسون الاخيرص ٢٠ وفي كتابه « فشل بعثة » ص ٢٩١)

أُخرى نموذجية يصعب تصديقها في اليوم التالي ، أي عند استهلال الحرب ، إلا ان حقيقة أزلية أخذت تنبلج أمام عينيه وهي ان ثمة ظروفاً -كما قال أخيراً- تتطلب من المرء ان يواجه القوة بالقوة .[1]

وعندما هبط الليل على اوروبا عشية الواحد والثلاثين من آب عام ١٩٣٩ ، وبدأ نحو من مليون ونصف المليون من الجنود الالمان يزحفون إلى الأمام باتجاه مواقعهم الاخيرة على الحدود البولندية ، استعداداً للقفز عند الفجر ، كان كل ما بقي على هتلر ان يفعله هو خلق بعض الحيل الدعائية ، لإعداد الألمان لتقبل هزة الحرب العدوانية .

وكان الشعب في حاجة إلى العلاج الذي بات هتلر بمعونة غوبلز وهملر خبيراً كل الخبرة في تطبيقه . ولقد كنت في شوارع برلين اتحدث إلى الناس العاديين ، ودوّنت في يومياتي في ذلك الصباح ما يلي : « ان الناس جميعاً ضد الحرب . ويتحدث الناس علناً وبصراحة . فكيف يمكن لبلاد ان تمضي إلى حرب رئيسية ضخمة ، وأهلها يعارضون في هذه الحرب معارضة شديدة ؟ » لقد وجهت إلى نفسي هذا السؤال الساذج على الرغم من جميع ما مررت به من اختبارات في الرايخ الثالث . وكان هتلر يعرف الرد على هذا السؤال خير معرفة . إذ ألم يعد القادة العسكريين في الاسبوع الماضي اثناء اجتماعه اليهم في « عش النسر » في قمة جبال بافاريا بأن « يخلق سبباً دعائياً لشن الحرب » ونصحهم بأن لا يطيلوا التفكير في مدى ما في هذا السبب من منطق أو لا منطق !؟ اجل لقد قال لهم :

---

١ - لما كان بعض الاصدقاء الذين قرأوا هذا الجزء قد اعربوا للمؤلف عن شكوكهم في موضوعيته بالنسبة الى هندرسون ، ارى من الافضل ان اقدم وجهة نظر اخرى عن السفير البريطاني في برلين . فلقد لخص السير ل. ب. ناميير ، المؤرخ البريطاني رأيه في هندرسون بقوله : « انه رجل مغرور ، ضحل التفكير ، لا يرى إلا نفسه ، ويتمسك تمسكاً اعمى بأفكاره التي سبق له تكوينها ، يوالي ارسال البرقيات والرسائل والخطابات بأعداد لا تصدق ، وباسهاب لا يمكن تصوره ، مكرراً مئات المرات نفس الآراء والافكار الخاطئة . وهو مفتقر الى المضاء بحيث لا يكون خطراً ، وبليداً الى الحد الذي يجعله غير مؤذ . وقد برهن على انه رجل شؤم . » (ناميير - في العهد النازي ص ١٦٢)

« ان المنتصر لن يسأل في النهاية ما إذا كان قد فاه بالحقيقة أو لم يفه بها ، ففي شن الحروب وخوضها ليس الحق هو المهم بل النصر . »

وفي الساعة التاسعة مساء ، راحت جميع محطات الاذاعة الالمانية ، كما سبق لي ان اسلفت تذيع اقتراحات الفوهرر لاحلال السلام مع بولندة ، وهي الاقتراحات التي بدت معقولة عند تلاوتها إلى الحد الذي حمل هذا « المراسل الصحفي» (يقصد المؤلف نفسه) على الوقوع فريسة تضليلها . لكن الناس لم يعرفوا آنذاك الحقيقة ،وهي ان هتلر لم يقدم قط هذه الاقتراحات الى البولنديين وانه لم يسلمها حتى إلى البريطانيين إلا في صورة غامضة ولارسمية ، وانه طواها وعدل عنها قبل ان تنقضي اربع وعشرون ساعة على صدورها . واثبت الفوهرر في البيان الطويل الذي شرح فيه للشعب الألماني كيف ان حكومته قد استنزفت كل جهد ولجأت إلى كل وسيلة دبلوماتية للحفاظ على السلام ، والذي ساعده غوبلز حتماً في اعداده ، انه ما زال بارعاً كل البراعة في الخداع والتضليل. وذكر البيان انه بعد ان عرضت الحكومة البريطانية في الثامن والعشرين من آب وساطتها بين المانيا وبولندة، ردت الحكومة الالمانية في اليوم التالي ،بأنها :

« على الرغم من شكوكها في وجود أية رغبة لدى الحكومة البولندية للوصول إلى تفاهم ، اعلنت استعدادها حرصاً منها على السلام، لتقبل الوساطة البريطانية واقتراحاتها ...ورأت حكومتنا ضرورة المبادرة الى العمل فوراً ودون إبطاء ، رغبة منها في تجنب خطر الكارثة . واعلنت استعدادها لاستقبال اية شخصية تنتدبها الحكومة البولندية حتى مساء الثلاثين من آب شريطة ان تكون هذه الشخصية مخولة لا بالبحث في أمر المفاوضات فحسب بل بالسير فيها ايضاً والوصول بها الى نهاية .

« وبدلاً من ان تتلقى حكومة الرايخ بياناً من الحكومة البولندية عن موعد وصول مبعوثها المخول باجراء المفاوضات ، كان لرد الأول الذي تلقته على استعدادها للتفاهم ، نبأ إعلان التعبئة

العامة في بولندة .

« وكانت حكومة الرايخ تعلن دائماً وباستمرار عن استعدادها للشروع في المفاوضات وكانت تؤكد كذلك رغبتها فيها ، بينما كان الجانب البولندي يؤجل هذه المفاوضات منتحلاً الاعذار ومصدراً البيانات السخيفة التي لا معنى لها .

« واتضح لنا مرة ثانية نتيجة خطوة دبلوماتية قام بها السفير البولندي ، ان هذا السفير لم يكن مخولاً حتى ولا بسلطات أولية مبدئية للدخول في محادثات معنا ولا للتفاوض ايضاً .

« وهكذا انتظر الفوهرر كما انتظرت حكومة الرايخ يومين كاملين ودون جدوى وصول المفاوض البولندي .

« ولا تستطيع الحكومة الألمانية في مثل هذه الظروف إلا أن تعتبر ان اقتراحاتها قد رفضت هذه المرة ايضاً ... على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي انها تعتبر هذه الاقتراحات في الشكل الذي أوصلتها فيه إلى علم الحكومة البريطانية ، كانت اكثر من مجرد عادلة وعملية وصادقة . »

ولكن الدعاية الناجحة ، تحتاج كما تعلم هتلر وغوبلز من تجاربهما إلى اكثر من الكلمات المجردة لتكون فعالة ومؤثرة . انها بحاجة إلى الافعال ، مهما كانت الطريقة التي تبتكر فيها و« تفبرك » . وهكذا بعد ان تمكنا من إقناع الشعب الالماني بأن البولنديين قد رفضوا عرض الفوهرر السخي لتوطيد دعائم السلام- ويستطيع مؤلف هذا الكتاب ان يشهد استناداً على ملاحظاته الشخصية على نجاحها - لم يبق امامهما الآن إلا « طبخ » عمل يقيم الدليل على ان بولندة لا المانيا هي التي بدأت الهجوم .

ويذكر القارىء ان الالمان تحقيقاً لهذا العمل « الزائف » قد اتخذوا بتوجيه من الفوهرر : اعدادات مدروسة ومتقنة . فلقد ظل الفريد نوجوكس ، الوغد المثقف من رجال الحرس النازي ، ينتظر ستة أيام طويلة في غليويتز على الحدود

البولندية ، تنفيذ هجوم بولندي « زائف » على محطة للاذاعة الألمانية في المدينة وقد اعيد النظر في الخطة وجرى تعديلها . وتقرر ان يقوم عدد من رجال الحرس النازي يرتدون الملابس العسكرية البولندية ، بإطلاق النار ، وان يترك عدد من نزلاء معسكرات الاعتقال الالمان بعد تخديرهم ، قتلى في ارض المكان كضحايا ، واطلق على الجزء الاخير « الشهي !! » من العملية كما رأينا الاسم الرمزي « السلع المعلبة » وكان من المقرر اجراء عدد من هذه « الهجمات البولندية » الزائفة ، لكن الهجمة الرئيسية هي التي ستقع على محطة الاذاعة في غليويتز . وقد روى نوجوكس في شهادته المشفوعة باليمين أمام محكمة نورمبرغ ، القصة على النحو التالي :

« تلقيت ظهر الواحد والثلاثين من آب من هايدريش كلمة السر للهجوم الذي تقرر تنفيذه في الساعة الثامنة من ذلك المساء . وقال لي هايدريش : « عليك لتنفيذ الهجوم ان تقابل مويلر للحصول على السلع المعلبة » . وقد نفذت هذا الأمر ، واوعزت إلى مويلر بأن يسلمني الرجل على مقربة من محطة الإذاعة . وبالفعل تسلمت الرجل وأمرت بطرحه ارضاً على مدخل المحطة . كان الرجل حياً ، لكنه كان فاقد الوعي تماماً . وحاولت ان افتح عينيه . ولم استطع عن طريق عينيه تبين ما إذا كان حياً ، ولكن تنفسه هو الذي اثبت لي هذه الحقيقة . ولم أر الجراح التي اصيب بها من اطلاق النيران ولكنني رأيت دماء كثيرة يتلطخ بها وجهه . لقد كان في ملابس مدنية .

« وتسلمنا محطة الاذاعة طبقاً للأمر ، واذعنا كلمة استغرقت ثلاث دقائق او اربعاً ، على جهاز ارسال للطوارىء [1] ثم اطلقنا

---

١ ـ كان هايدريش هو الذي اعد هذا الخطاب الذي اذيع بالبولندية وسلمه الى نوجوكس . وقد تضمن الخطاب بعض العبارات النارية ضد المانيا واعلن ان البولنديين يقومون بالهجوم .

بعض العيارات النارية وغادرنا المكان » .[1]

وكانت برلين قد عزلت تلك الليلة عزلاً كاملاً عن العالم الخارجي باستثناء بعض البرقيات الصحفية والرسائل الاذاعية التي سمح لها بالخروج لتروي «عرض» الفوهرر ومزاعم الالمان عن « الهجمات » البولندية على الأرض الألمانية . وقد حاولت الاتصال هاتفياً تلك الليلة بكل من وارشو ولندن وباريس ، فقيل لي ان المواصلات مع هذه العواصم الثلاث قد قطعت . وبدت برلين عادية للغاية ، في مظهرها . ولم يكن هناك أي إجلاء للنساء والاطفال عنها على النحو الذي وقع في العواصم الاخرى ، وعندما انتهيت حوالي الساعة الرابعة من صباح الاول من ايلول من اذاعتي الاخيرة إلى امريكا ، رحت اقطع بسيارتي الشوارع من دار الاذاعة إلى فندق « ادلون » . كانت الشوارع خالية حتى من السيارات العابرة . وكان الظلام يخيم على المنازل جميعها . وكان الناس نياماً ، وقد مضوا إلى فراشهم كما اعرف ، يأملون في غد أفضل وفي سلام مستقر .

وكان هتلر في « أروع حالاته » في ذلك اليوم . فقد دوّن الفريق هولدر في يومياته في الساعة السادسة من مساء الواحد والثلاثين من آب ما يلي : « كان الفوهرر هادئاً .. وقد نام طويلاً ... يوحي قراره بعدم اخلاء مدن الغرب من النساء والاطفال انه لا يتوقع من فرنسا وبريطانيا القيام بأي عمل حربي »[2]

---

١ ـ (شهادة نوجوكس في نورمبرغ ـ محاكمات كبار مجرمي الحرب الألمان (٢) ص ٤٥١) استخدم هتلر « الهجوم البولندي » على غليويتز في الخطاب الذي القاه في الرايشستاغ في اليوم التالي كما استخدمه ريبنتروب وفايز ساكر وغيرهما من رجال وزارة الخارجية في الدعاية على اعتباره مبرراً للعدوان النازي . وقد نقلت « النيويورك تايمس » وغيرها من الصحف نبأ هذا الهجوم كما نقلت انباء عن حوادث مماثلة في اعدادها الصادرة في الاول من ايلول عام ١٩٣٩ . واود ان اشير هنا ايضاً الى شهادة الفريق لاهوزين من رجال المخابرات الالمانية امام محكمة نورمبرغ ، إذ قال ان جميع رجال الحرس النازي الذين ألبسوا الملابس العسكرية البولندية واستخدموا في الهجمات الزائفة تلك الليلة قد « ازيحوا من الطريق فيما بعد » (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢)ص٤٥١)

٢ ـ وجد هتلر في ذلك اليوم الوقت الكافي ليرسل البرقية التالية الى الدوق وندسور في مدينة انتيب في فرنسا :

برلين في ٣١ آب ١٩٣٩

« اشكرك على برقيتك بتاريخ السابع والعشرين من آب . وفي وسعك ان تتأكد=

أما الاميرال كاناريس ، رئيس المخابرات الالمانية في القيادة العامة للقوات المسلحة وأحد كبار الشخصيات المتآمرة البارزة على العهد النازي ، فكان في حالة نفسية مغايرة تماماً ، وعلى الرغم من ان هتلر كان يدفع الآن بألمانيا الى الحرب ، وهو العمل الذي يفترض ان رجال حلقة كاناريس من « المتآمرين » قد اقسموا على الحيلولة دونه بالخلاص من الديكتاتور ، إلا انه لم تكن هناك أية مؤامرة في الوقت الذي حقق فيه هتلر عمله هذا .

واستدعى العقيد اوستر في ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم ، غيزيفيوس إلى مقر القيادة العامة المسلحة وكان هذا المركز الرئيسي للقوة العسكرية الألمانية يعج بالنشاط . وانتحى كاناريس بغيزيغيوس في زاوية من رواق مظلم ، وقال له في صوت يخنقه التأثر :

« انها نهاية المانيا »[1]

= من ان موقفي من بريطانيا ورغبتي في تجنب حرب بين شعبينا لم يتبدلا . لكن كل شيء يتوقف على بريطانيا فيما إذا كانت رغبتي في التطور المقبل للعلاقات الالمانية ـ البريطانية، ستحقق او لا .

ادولف هتلر (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٤٧٢)

وكانت هذه هي المرة الاولى وان لم تكن الاخيرة التي يذكر فيها ملك انكلترا السابق في الوثائق الالمانية المصادرة . وسنرى فيما بعد ، كيف ان الدوق وندسور ، احتل مكانة بارزة من مخططات هتلر وريبنتروب التالية .

١ ـ غيزيفيوس ـ حتى النهاية المرة ـ ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥ .

١٧

نشوب الحرب العالمية الثانية

انطلقت الجيوش الألمانية عند فجر الأول من ايلول عـــام ١٩٣٩ ، وهو عين التاريـخ الذي حدده هتلر في توجيهه الأول عن « العملية البيضاء » في الثالث من نيسان ، عبر الحـــدود البولندية ، مطبقة على وارشو من الشمال والجنوب والغرب .

ودوّت السماء بأزيز الطائرات الألمانية وهي متجهة إلى اهدافها لقصف ارتال القوات البولندية وتجمعاتها ومستودعات الذخيرة والجسور والسكك الحديدية والمدن المكشوفة . ولم تمض بضع دقائق ، حتى كانت هـــذه الطائرات تذيق البولنديين من عسكريين ومدنيين على حـــد سواء ، أول طعم للموت الفجائي وللخراب ، يهبطان من السماء ، وكانت هـــذه التجربة التي تقع لأول مرة على الكرة الارضية على نطاق واسع للغاية ، فاتحـــة رعب سرعان ما الفه مئات الملايين من الرجال والنساء والاطفال في اوروبا وآسيا في غضون السنوات الست القادمة . وظل شبحه بعد تجربة القنابل النووية ، يسيطر كالـكابوس على الجنس البشري قاطبة مهدداً إياه بالابادة الشاملة .

وكان النهـــار اغبر في برلين في ذلك الصباح ، تفعمه الرطوبـــة ، فقد انتشرت السحب المنخفضة في سماء المدينة ، وكأنها تضفي عليها شيئاً من الحماية من القاذفات المعادية التي خشيها الناس ولكنهم لم يروها .

وكان الناس في الشوارع متبلدين جامدين على الرغم من الانباء الضخمة التي نقلتها اليهم اجهزة الاذاعة ، وملاحق الصحف الصباحية ، لتحييهم بها تحية الصباح .[1] ورأيت جماعات من العمال ، عبر الشوارع من فندق « ادلون » الذي احل فيه يمضون إلى عملهم في البناء الذي تشيده مؤسسة (فاربين) وكأن شيئاً لم يحدث ، وعندما انطلق الصبية من باعة الصحف يركضون هاتفين بالانباء الضخمة ، لم يعرهم أحد من العمال التفاتاً ، ولم يتخل احدهم عن ادوات عمله ، ليبتاع احدى هذه الصحف . وخيّل إليّ ان الشعب الألماني اصيب بشيء من الذهول عندما افاق في ذلك الصباح الأول من ايلول ليجد نفسه في خضم حرب ، كان على ثقة من ان الفوهرر سيتمكن بطريقة ما من تجنبها . ولم يكن في وسعه ان يصدق نفسه ، أو يصدق ان الحرب قد وقعت فعلاً .

يا لها من مفارقة عجيبة . لم يكن في وسع المرء الا ان يقارن بين هذه الحالة من التبلد الشاحب الذي يسود العاصمة الألمانية اليوم وبين الحالة التي كانت فيها عندما انطلقت إلى الحرب في عام ١٩١٤ ، إذ كان الحماس العنيف يسيطر عليها، فقد مشت الجماهير في الشوارع آنذاك في مظاهرات محمومة تنثر الازاهير على الجنود المستعرضين في الشوارع ، وتهتف بجنون للقيصر ، غليوم الثاني ، القائد الأعلى للقوات المسلحة .

ولم تشهد برلين في هذا اليوم ، مثل تلك المظاهرات ولا ذلك الحماس للجنود أو للقائد الأعلى النازي، الذي راح ينتقل بسيارته في الساعة العاشرة صباحاً من دار المستشارية إلى مجلس الرايشستاغ ، عبر شوارع خالية من الناس ، ليخطب الشعب عن الاحداث الضخمة التي اثارها هو عامداً متعمداً. وحتى اولئك الدمى من اعضاء مجلس الرايشستاغ ، الذين اختارهم هتلر على الغالب من مأجوري الحزب ؛ قد فشلوا في الاستجابة إلى الديكتاتور بالحماس الذي توقعه ، وهو

---

١ ــ اذيع بيان هتلر الى الجيش الذي اعلن فيه بدء العمليات الحربية في الساعة الخامسة والدقيقة الاربعين من صباح الاول من ايلول . ولم تمض بضع دقائق ، حتى كانت ملاحق الصحف في الشوارع تنقل الانباء الضخمة .

يوضح لهم الاسباب التي دفعت بألمانيا في ذلك الصباح إلى الاشتباك في الحرب . وكان الهتاف اليوم ، أقل مما الفته تلك القاعة المزدانـــة في دار اوبرا كرول ، حتى في مناسبات سابقة أقل شأناً ، عندما كان الزعيم يخطب الاعضـــاء من منصتها .

وعلى الرغم من بعض الانطلاقات الشرسة في خطابه اليوم ، فقـد ظهر في موقف الدفاع على الغالب إلى حد أثار الدهشة . وخيل إلي وانا استمع إلى هذا الخطاب ، انني أكاد ألمس شيئاً غريباً فيه ، وهو ان هتلر نفسه ، قد ذهل من هذه الورطة التي وجد نفسه فيها ، وانه يحس بشيء من القنوط واليأس . وبدا وكأن هذه الفئة من المستمعين الذين انتقـــاهم بنفسه ، لم تستسغ الايضاح الذي قدمه عن تقاعس حليفه الايطالي عن الوفاء آلياً بالتزاماته في الاسراع إلى مساعدته ومضى يقول :

« وأود هنا وقبل كل شيء ان اشكر ايطاليا ، التي وقفت منا موقف التأييد طيلة الوقت ، ولكنكم تفهمون بالطبع ، أننـا في في كفاحنا هذا ، لا نعتزم ان نطلب مساعدة من الخارج . فسنحمل نحن وحدنا العبء كاملاً . »

ولما كان هتلر قد ألف الكذب إلى حد كبير في طريق وصوله إلى السلطان وفي فترة تثبيت دعائم هذا السلطان ، فإنه لم يستطع ان يمتنع في هـــذه الآونة الخطيرة من التاريخ ، عن التدفق بمجموعة جديدة من الاكاذيب التي تنطلي على الشعب الالماني السريع التصديق ، ليبرر هذا العمل المتهور الذي قام به... إذ قال:

« ولا ريب في انـكم تعرفون المحاولات العديدة التي قمت بهـا للوصول إلى إيضاح سلمي وتفـــاهم حول مشكلة النمسا ، وكذلك حول مشاكل السوديت وبوهيميا ومورافيا ... ولكن محاولاتي كلها ذهبت سدى ...

« وصغت أخيراً في محادثاتي مع الساسة البولنديين الاقتراحات الالمانية التي ليس ثمة ما يفوقها في الاعتدال والصدق . واود الآن

ان أقول للعالم بأسره ، انني الرجل الوحيد الذي كان في وسعه ان يقدم مثل هذه الاقتراحات ، إذ انني أعرف خير معرفة ، انني بعملي هذا عرّضت نفسي للخلاف مع ملايين الألمان الذين ما كانوا ليرضوا باعتدالها ... ومع ذلك فقد رفضت هذه المقترحات .

« وظللت مع حكومتي يومين كاملين نترقب ما إذا كانت الحكومة البولندية تجد ان مما يناسبها ان توفد إلينا رسولاً مفوضاً أولا .. ولكن الناس يخطئون في الحكم علي ، إذا اعتبروا حبي للسلام وطول صبري ، ضعفاً أو جبناً .... ولم يكن في استطاعتي ان اجد عند الحكومة البولندية أي استعداد للسير بمفاوضات جدية معنا ... ولهذا فقد عزمت على ان اتحدث لبولندة بنفس اللغة التي ظلت هي اشهراً طويلة تحدثنا بها ...

« ولقد اطلق جنود بولندة النظاميون في هذه الليلة النار لأول مرة على بلادنا ... وقد شرعنا منذ الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والاربعين من هذا الصباح نرد النار بمثلها ، وسترد القنابل منذ هذه اللحظة على القنابل . »

وهكذا استعمل مستشار المانيا ، الهجوم الالماني الزائف على محطة إذاعة غليويتز الألمانية ، والذي نفذه رجال الحرس النازي تحت امرة نوجوكس وهم في ملابس عسكرية بولندية ، مبرراً لعدوانه المتعمد على بولندة . وقد اشارت القيادة العليا الألمانية في أول بلاغ رسمي إلى عملياتها العسكرية فوصفتها بأنها « هجمة مضادة » . وبذل وايزساكر نفسه كل جهد للترويج لهذا التزوير الفاضح ، إذ وجه في ذلك اليوم برقية دورية من وزارة الخارجية الالمانية إلى جميع بعثاتها الدبلوماتية في الخارج يشير عليها بالنهج الذي يجب ان تسلكه قال فيها :

« تحركت القوات الألمانية إلى العمل ضد بولندة فجر اليوم كرد دفاعي على الهجمات البولندية . ومن الواجب عدم اطلاق صفة الحرب على هذا العمل في الوقت الحاضر ، والاكتفاء بتسميته

« اشتباكات » ادت اليها الهجمات البولندية »[1]

وتعرض الجنود الألمان انفسهم الذين كان في وسعهم ان يعرفوا حقاً من البادىء بالهجوم على الحدود البولندية ، إلى قصف هائل من أكاذيب هتلر . فقد وجه الفوهرر في اليوم الأول من ايلول بياناً مشحوناً بالزهو والخيلاء الى الجيش الألماني قال فيه :

« لقد رفضت الدولة البولندية التسوية السلمية التي رغبتُ فيها للعلاقات بيننا ولجأت إلى السلاح ... وتقيم سلسلة الاعتداءات على الحدود التي لا تستطيع دولة عظيمة احتمالها ، الدليل على ان بولندة لم تعد راغبة في احترام حدود الرايخ .

« ورغبة مني في وضع حدٍ لهذا الجنون المطبق ، لم أجد مناصاً من مقابلة القوة بالقوة منذ هذه اللحظة . »

ولم يصدق هتلر في ذلك اليوم إلا مرة واحدة عندما قال في بيانه إلى الرايشستاغ:

« وانا لا اطلب من أي ألماني اكثر مما كنت انا على استعداد للقيام به طيلة سنوات اربع ... ولقد بت منذ هذه اللحظة اول جندي في الرايخ الألماني وها انا ارتدي من جديد ذلك الرداء، الذي كان دائماً مقدساً بالنسبة الي ، وعزيزاً علي . ولن اخلعه حتى يتحقق النصر ، أو اموت قبل النهاية » .

وقد ثبت للمرة الوحيدة ، انه كان صادقاً في قوله هذا. ولكن اياً من الألمان الذين قابلتهم في برلين في ذلك اليوم ، لم يفهم ان ما عناه الفوهرر بقوله هذا ، هو انه لا يستطيع احتمال الهزيمة او مواجهتها ان وقعت .

ورشح هتلر في خطابه غورنغ لخلافته في حالة حدوث شيء له ، واضاف ان هس يأتي في الترشيح بعد غورنغ . ثم قال : « أما إذا حدث شيء لهسّ ايضاً فإن القانون ينص على اجتماع مجلس الشيوخ لاختيار اكثر اعضائه جدارة بالمنصب أي اكثرهم شجاعة ». ولكن ترى ما هو القانون الذي اشار اليه؟ وأي مجلس

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٧) ص ٤٩١ .

شيوخ عناه ؟ فالكل يعرف انه لم يكن هناك لا قانون ولا مجلس شيوخ .

ولكن هذا المزاج الهادىء والمستكين نسبياً الذي ظهر فيه هتلر في مجلس الرايشستاغ ، سرعان ما اختفى عند عودته الى دار المستشارية ليحل محله مزاج آخر من اشد الامزجة بشاعة وعنفاً . فقد وجده داهليروس « الموجود دائماً في كل مكان » والذي يسير كذيل لغورنـغ ، في دار المستشارية في حالة عصبية فائقة ، وكثيرة الاضطراب . وقـد ادلى الوسيط السويدي فيما بعد بشهادته في نورمبرغ قائلاً :

« لقد قال لي انه كان يشك دائماً في ان انكلترا تريـد الحرب . وقال لي ايضاً انه سيسحق بولندة ، ويضم البلاد كلها اليه ....

« واخذ يزداد هياجاً وحماساً شيئاً فشيئاً ثم شرع يلوح بيديه وهو يصرخ في وجهي : « إذا كانت بريطانيا تريد ان تحـارب سنة واحدة ، فسأحارب سنة واحدة، اما اذا كانت تريد الحرب سنتين فسأحاربها سنتين ايضاً ... وتوقف قليلاً ثم عاد يصرخ وقد تحول صوته الى زعيق حاد ، بينما تدور ذراعـــاه في الهواء ... « واذا أرادت بريطانيا ان تحـارب ثلاث سنوات ، فسأحـــاربها ثلاث سنوات ايضاً ... »

« وبدأت حركات جسده تسير في اهتزازات متوازنة مـــع ذراعيه ... وعندمـــا راح يصرخ أخيراً ... وسأحارب عشر سنوات إذا اقتضى الامر ، اخـــذ يلوّح بقبضة يده وينحني حتى ليكاد يلامس الأرض»[1]

ومع ذلك ، وعلى الرغم من كل ما عرف عنه من جنون وهوس ، فإنـــه لم يكن مقتنعاً ابداً بأن بريطانيا العظمى ستحاربه . وكانت الساعة الآن قـــد تجاوزت الظهيرة ، واصبحت الارتال الالمانية المدرعة على بعد عـدة اميال من

---

١ ــ من كتاب داهليروس ــ المحاولة الاخيرة ــ ص ١١٩ ــ ١٢٠ ومن شهادته في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩) ص ٤٧١)

الحدود داخل بولندة ، وهي ماضية في طريقها بسرعة بينما كانت القاذفات الالمانية قد قصفت مدن بولندة ، المهمة وبضمنها وارشو محدثة فيها خسائر فادحة بين اهلها المدنيين ، ومع ذلك لم تصل كلمة من لندن وباريس تشير إلى ان بريطانيا وفرنسا كانتا على عجل من امرهما في موضوع الوفاء بالتزاماتهما لبولندة .

وكان السبيل واضحاً أمامها ، ومع ذلك فقد بدا داهليروس وهندرسون وكأنهما يحاولان بذل كل جهد لخلق الاضطراب في هذا السبيل .

وراح السفير البريطاني يهتف في الساعة العاشرة والنصف صباحاً بالرسالة التالية إلى هاليفاكس :

« علمت ان البولنديين قد نسفوا جسر ديرشاو في غضون الليل ،[1] وان القتال قد دار مع أهل دانزيغ . وعندما وصلت الانباء الى هتلر ، اصدر امره بطرد البولنديين عن خط الحدود ، كما اوعز إلى غورنغ بتدمير السلاح الجوي البولندي على طول الحدود . »

ولكنه ما لبث ان اضاف في نهاية برقيته العبارة التالية :

« وقد تلقيت هذه المعلومات من غورنغ نفسه ... وقد يطلب هتلر مقابلتي بعد اجتماع الرايشستاغ كآخر محاولة لانقاذ السلام » [2]

ولكن أي سلام ؟ السلام لبريطانيا ؟ فقد انقضت ست ساعات والمانيا تشن الحرب بكل ما لديها من قوات عسكرية على حليفة بريطانيا .

ولم يبعث هتلر في طلب هندرسون ، بعد اجتماع الرايشستاغ ، أما السفير

---

١ ـ كان الألمان قد وضعوا منذ مطلع الصيف خطتهم للاستيلاء على جسر ديرشاو على نهر الفستولا قبل ان يتمكن البولنديون من نسفه ، وتظهر الخطة في الاوراق الخاصة «بالعملية البيضاء» وقد امر هتلر بصورة خاصة في توجيهه اليومي رقم (١) في (٣١) آب بالقيام بهذا العمل . وقد فشلت العملية فعلا ، وذلك لان الضباب الذي ينتشر عادة في ساعات الصباح الباكر ، قد عرقل نزول المظليين الذين كان من واجبهم ان يستولوا على الجسر . ونجح البولنديون في نسف الجسر في الوقت المناسب .

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧ .

الذي تطوع بنقل أكاذيب غورنغ إلى لندن ، من ان البولنديين هم الذين شرعوا في الهجوم ، فقد خاب امله ، ولكن ليس إلى الحد النهائي ، فقد ابرق في الساعة العاشرة والدقيقة الخمسين صباحاً من جديد إلى هاليفاكس ينقل اليه فكرة قفزت إلى عقله الخصيب والمشوش ... فقال :

« أرى لزاماً علي ، الاعراب عن الاعتقاد ، على الرغم من من ضئالة الامل في النجاح ، بأن الرجاء الوحيد الباقي للحفاظ على السلام ، هو ان يعلن المشير سميغلي – ريدز استعداده للمجيء فوراً إلى المانيا للبحث كجندي وكمفوض في القضية كلها مع المشير غورنغ »[1]

ويبدو انه لم يخطر ببال هذا السفير البريطاني الفريد من نوعه ان المشير سميغلي – ريدز ، منهمك الآن في محاولة دفع الهجوم الالماني الضخم وغير المستفز ، وانه حتى لو استطاع الخلاص من مسؤولياته الضخمة والمجيء الى برلين «كمفوض» فإن مجيئه هذا يكون في مثل هذه الظروف بمثابة استسلام لألمانيا . وقد يُهزم البولنديون بسرعة ولكنهم لن يستسلموا .

وكان داهليروس اكثر نشاطاً من هندرسون في غضون هذا اليوم الأول من أيام الهجوم الألماني على بولندة . وكان قد مضى في الساعة الثامنة صباحاً لمقابلة غورنغ الذي ابلغه بأن « الحرب قد نشبت لأن البولنديين قد هاجموا محطة الاذاعة في غليويتز ونسفوا جسراً على مقربة من ديرشاو » . وراح السويدي يهتف فوراً إلى وزارة الخارجية في لندن بالانباء .

وشهد فيما بعد في نورمبرغ بقوله : « لقد ابلغت أحدهم هناك بأنه طبقاً للانباء التي وصلتني فإن البولندين هم الذين بدأوا بالهجوم . وبالطبع استغرب القوم في لندن ، وتساءلوا هل اصابني خبال عندما نقلت اليهم هذه المعلومات » .[2]

ولكن ما نقله هذا الرجل كان نفس ما هتف به سفير جلالته في برلين بعد نحو

---

١ – وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ص ٤٦٦ – ٤٦٧ .

٢ – محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩) ص ٤٣٦ .

من ساعتين .

وسجلت مذكرة سرية في وزارة الخارجية البريطانية محادثة السويدي على انها وقعت في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة صباحاً. وقد اصر داهليروس فيها وهو يردد ما قاله غورنغ كالببغاء ان البولنديين يخربون كل شيء ، وان لديه أدلة تثبت انهم لم يقصدوا قط القيام بأية محاولة للتفاوض »[1]

وفي الساعة الثانيـــة عشرة والنصف ظهراً ، كان السويدي يتحدث على الهاتف من جديد إلى وزارة الخارجية البريطانية ، وكان محدثه في هذه المـرة كادوغان وراح يوجه اللوم ثانية إلى البولنديين على تحطيم السلام بنسفهم جسر ديرشاو ويقترح ان يطير من جديد بصحبة فوربس إلى لندن . ولكن كادوغان الصارم والبعيد عن الترضية ، كان قد شبع الآن من داهليروس ومحاولاته ، لا سيا وان الحرب التي حاول منعها قد وقعت فعلاً ، وراح يخبر السويدي بأنـــه « لم يعد في الامكان عمل شيء » .

ولكن كادوغان لم يكن اكثر من مجرد وكيل دائم لوزارة الخارجية ، وهو لا يحتل أي منصب وزاري. ولذا فقد اصر داهليروس على نقل طلبه الى الوزارة قائلاً لكادوغان بشيء من التعالي ، انه سيعود إلى الاتصال به بعد ساعة . وقد عاد فعلاً إلى الاتصال ، وتلقى الرد الذي يستحقه من كادوغان الذي قال :

« لا يمكن قبول أية فكرة للتوسط في الوقت الذي تغزو فيـه القوات الألمانية بولندة . والسبيل الوحيد لمنع نشوب الحرب العالمية هو وقف العمليات الحربية اولاً وانسحاب القوات الألمانيـة من الاراضي البولندية ثانياً . » [2]

وقابل الكونت رازينسكي السفير البولندي في لندن اللورد هاليفاكس في الساعة العاشرة صباحاً ونقل اليه رسمياً انباء العدوان الألماني مضيفاً إلى ذلك ان هذا العدوان « حالة واضحة صريحة من الحالات التي تنص عليها المعاهدة » .

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٤٧٤ ــ ٤٧٥ .

٢ــ وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ص ٦٥١ ــ ٦٥٢ وص ٤٧٩ ــ ٤٨٠ .

ورد وزير الخارجية بأنه لا يشك مطلقاً في هذه الحقيقة . واستدعى اللورد في الساعة العاشرة والدقيقة الخمسين القائم بالاعمال الألماني تيودور كوردت ، إلى وزارة الخارجية ، وسأله عما إذا كانت لديه معلومات ينقلها اليه . ورد كوردت بأنه لم يتلق أية معلومات عن وقوع هجوم الماني على بولندة ، أو أية تعليمات . واعلن هاليفاكس بعد ذلك ان التقارير التي تلقاها « تخلق وضعاً خطيراً للغاية » ولكنه لم يمض إلى ابعد من ذلك . ونقل كوردت هذه الانباء إلى برلين هاتفياً في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والاربعين صباحاً .

وكان من حق هتلر والحالة هذه ، عندما حل الظهر ، ان يأمل في ان بريطانيا على الرغم من اعتبارها الوضع حرجاً ، قد لا تدخل الحرب . ولكن سرعان ما انهار هذا الأمل .

وفي الساعة السابعة والربع من مساء اليوم نفسه اتصل موظف في السفارة البريطانية في برلين بوزارة الخارجية الألمانية طالباً من ريبنتروب تحديد موعد لهندرسون وكولوندر للبحث في « قضية في منتهى الخطورة » على ان يكون الموعد « في اسرع وقت ممكن » ووجهت السفارة الفرنسية بعد دقائق قليلة طلباً مماثلاً إلى وزارة الخارجية . ولكن ريبنتروب رفض استقبال السفيرين معاً وحدد لهندرسون موعداً لمقابلته في التاسعة مساء ولزميله الفرنسي كولوندر ، في العاشرة . وتسلم من السفير البريطاني مذكرة رسمية من الحكومة البريطانية جاء فيها :

« .... إذا لم تكن الحكومة الألمانية على استعداد لتقديم تأكيدات مرضية الى حكومة جلالته بأنها قد اوقفت كل عمل عدواني ضد بولندة ، وما لم تكن على استعداد فوري لسحب قواتها من الاراضي البولندية ، فإن حكومة جلالته ستنفذ دون تردد التزاماتها تجاه بولندة »[1]

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٧) ص ٤٩٢ والكتاب البريطاني الازرق ص ١٦٨ وملاحظات شميدت في نفس الوثائق ص ٤٩٣ وص ٤٩٥ .

وصيغت المذكرة الفرنسية ايضاً في عبارات مماثلة .

ورد ريبنتروب على كل من السفيرين بأنـــه سينقل مذكرته الى هتلر ، ثم راح يفيض في حديث طويل مسهب معلناً ان ليس ثمة أي عدوان من جانب المانيا وانما هناك عدوان بولندي ، مكرراً الاكذوبة التي « أسنت » والتي تقول ان قوات بولندية نظامية هاجمت الارض الألمانية في اليوم السابق . واحتفظ الوزير الألماني بجميع « اللطائف » الدبلوماتية . ولم يتأخر السير نيفيل هندرسون عن التأكيد في برقيته التي بعث بها في تلك الليلة الى لندن واصفاً فيها مقابلتـــه مع ريبنتروب ، بأن الوزير الالماني كان « مهذباً ولطيفاً » . وعندما تأهب السفير للذهاب ، ثارت مناقشة عمـــا إذا كان الوزير الألماني قد « تمتم » مسرعاً في تلاوة الاقتراحات الالمانية إلى بولندة في اجتماعهما العاصف قبل ليلتين . وقـــد اكد هندرسون ان « التمتمة »قد وقعت بينما اكد ريبنتروب انه قرأ الاقتراحات « ببطء ووضوح » وانه قدم ايضاحات شفوية للنقاط الرئيسية ليضمن تفهـــم السفير لكل نقطة منها . ولم يكن في الامكان الوصول إلى نتيجة بصدد هـــذا الحوار ، لكنه على أي حال لم يعد مهماً الآن .[١]

وايقن هتلر ليلة الاولى من ايلول ، بينما كانت جيوشه تواصل توغلهـــا في بولندة . وطائراته تزيد في قصفهـــا ، وذلك بعد تلاوة المذكرتين الانكليزية الفرنسية ، انه ما لم تتوقف جيوشه عن الغزو وتنسحب مسرعة من الاراضي البولندية – وهذا أمر مستحيل – فإن الحرب العالمية واقعة لا محالة . ترى هل كان لا يزال يأمل تلك الليلة في ان حظه الذي خدمه في ميونيخ سيخدمه هذه المرة ايضاً ؟ لا ريب في ان هذا الامل قد عاد إلى الانتعاش عندما رأى صديقه موسوليني ، وقد افزعه نشوب الحرب ، وارتعد من تصور القوات الانـــكليزية – الفرنسية المتفوقة بحراً وبراً وجواً ، توجه ضرباتها إلى ايطاليا ، يبذل جهوداً يائسة لعقد ميونيـــخ ثانية .

---

١ ـ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٧) ص ٤٩٣ ـ والكتاب البريطاني الازرق ص ١٦٩ .

موسوليني يتدخل في اللحظة الاخيرة

يذكر القارىء ان الدوتشي ظل حتى السادس والعشرين من آب ، يحاول التملص من إلتزامات ايطاليا بموجب الميثاق الفولاذي ، ويصر على الفوهرر بأنه ما زال ثمة احتمال للوصول إلى حل سلمي ، يضمن لالمانيا « ارضاء مادياً ومعنوياً كاملاً » . ولم يكترث هتلر حتى بمناقشة الموضوع مع صديقه وحليفه ، مما اثار شيئاً من خيبة الأمل عند الشريك الصغير في المحور ، ومع ذلك ، فقد رأيناه في الواحد والثلاثين من آب يتشاور مع شيانو على أثر نصيحة تلقياها من سفيرهما في برلين يتحدث فيها عن حراجة الوضع الذي بات يائساً ، ويقرران حث هتلر على مقابلة السفير البولندي ، ليبسكي ، على الأقل ، ويبلغانه انهما يبذلان الجهد لحمل الحكومة البريطانية على الموافقة على إعادة دانزيغ « كخطوة اولى » في مفاوضات السلام .

ولكن الوقت كان قد فات على اغراء هتلر بمثل هذا الطعم الصغير . وكان الفوهرر قد ابلغ قادته العسكريين ان دانزيغ لم تكن إلا مجرد ذريعة لتحقيق ما يريده وهو تدمير بولندة . ولم يكن الدوتشي يعرف هذه الحقائق . ووجد نفسه في صباح الأول من ايلول يواجه ضرورة الخيار بين اعلان حياد ايطاليا الفوري وبين المجازفة بالتعرض إلى الهجوم من جانب بريطانيا وفرنسا . وتوضح يوميات شيانو ايضاحاً كافياً ، الكابوس الذي عاشه حموه القميء من جراء هذه الفكرة المسيطرة عليه [1]

---

١ ــ نقل قرار موسوليني بصورة فعلية إلى بريطانيا في الليلة الفائتة . فقد تلقت وزارة الخارجية البريطانية في الساعة الحادية عشرة والربع من بعد ظهر الواحد والثلاثين من آب رسالة من السير بيرسي لورين في رومة تقول : « لقد اتخذت الحكومة الايطالية قرارها ، وحزمت امرها على ان لا تخوض الحرب ضد انكلترا وفرنسا . . . وقد ابلغني شيانو هذا القرار في الساعة التاسعة والربع مساء في رسالة سرية (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) رقم ٦٢١= ص ٤٥٩) .

وهتف الديكتاتور الايطالي الحزين في الساعات المبكرة من صباح الأول من ايلول إلى برلين وتحدث شخصياً إلى سفيره اتوليكو ، وحثه على حـــد تعبير شيانو « على ان يتوسل إلى هتلر ليبعث اليه ببرقية تحرره من التزاماته بموجب المعاهدة . »[1] ولم يتوان الفوهرر عن تلبية هذا الطلب عن طيبة خاطر » وراح يبعث عن طريق الهاتف في الساعة التاسعة والاربعين صباحاً ببرقية إلى السفارة الألمانية في رومه لايصالها إلى صديقه كسباً للوقت وهذا نصها :

« الدوتشي :

« اشكرك جزيل الشكر على ما قدمته من عون دبلومـــاتي وسياسي إلى المانيا وقضيتها العادلة مؤخراً . واني لواثق من ان في وسعنا إداء المهمة التي فرضت علينا بقوات المانيا العسكريـــة وحدها . ولهذا فأنا لا انشد معونة عسكرية من ايطاليا في مثــل هذه الاوضاع . واني لاشكرك ايضاً ايها الدوتشي على كل ما قــد تقوم به في المستقبل دعماً للقضية المشتركة بين الفاشية والاشتراكية الوطنية .

ادولف هتلر[2]

وشعر هتلر في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والاربعـين من ظهر اليوم ، وبعد ان انتهى من خطابه في الرايشستاغ ، واستعاد وعيـه من سورة غضبه التي انتابته امام داهليروس ، بالرغبة في ان يبعث برسالة اخـرى إلى موسوليني . وراح هتلر يعلن في رسالته انه كان على استعداد لحـــل المشكلة البولندية عن « طريق التفاوض » وانه ظل « اكثر من يومين كاملين ينتظر عبثاً

=وقد فزع الايطاليون فزعاً شديداً ، من قيام البريطانيين بقطع كافة اتصالاتهم الهاتفية مع رومه بعد الساعة الثامنة مساء وخشي شيانو ان يكون هــذا مقدمة لهجوم انكليزي ــ فرنسي عـلى ايطاليـا .

١ ــ يوميات شيانو ص ١٣٥

٢ ــ وثائق وزارة الخارجية المانية (٧) ص ٤٨٣ . اعلنت اذاعة رومه في الساعة الرابعة=

وصول مفاوض بولندي » ، واضاف انه « في الليلة الماضية وحدها وقعت اربع عشرة حادثة فقط من حوادث خرق الحدود » وانه نتيجة لذلك قرر « الآن ان يرد على القوة بالقوة » . ثم انتقل الى التعبير من جديد عن اعترافه بجميل شريكه المتملص من التزاماته وقال :

« اشكرك يا دوتشي على جميع جهودك . واني لاشكرك بوجه خاص على ما عرضته من وساطة . ولكنني كنت منذ البداية كثير الشكوك في نجاح هذه المحاولات وذلك لانها لو كانت تنوي حقاً حلّ هذه القضية بصورة ودية لفعلت ذلك منذ عهد بعيد. ولكنها كانت ترفض دائماً كل حل .

« ولهذا السبب يا دوتشي ، لم تكن لدي رغبة في ان اعرضك لخطر اتخاذ دور الوسيط ، وهو دور كان لا بد له ان يفشل بسبب موقف الحكومة البولندية العنيد كل العناد ...

ادولف هتلر [1]

ولكن موسوليني لم يستمع الى هذه النصيحة ، فراح مدعوماً من شيانو يقوم بآخر محاولة يائسة لتعريض نفسه لخطر اتخاذ دور الوسيط . وكان شيانو في اليوم السابق ، وبعيد الظهر ، قد اقترح على سفيري بريطانيا وفرنسا في رومه ، ان يقوم موسوليني ، اذا وافقت حكومتاهما ، بدعوة المانيا الى مؤتمر يعقد في الخامس من ايلول ، « لدراسة بنود معاهدة فرساي التي تعتبر السبب في المتاعب الحالية » .

ومن المحتمل ان يكون الظن قد ساد على اثر الانباء عن غزو الألمان بولندة في الصباح التالي ، بأن اقتراح موسوليني قد بات فكرة لا خير يرجى منها .

= النصف مساء وبعد اجتماع عقده مجلس الوزراء الى الشعب الايطالي ان ايطاليا لن تقوم بأية مبادرة في العمليات العسكرية . وقد اذيع بعد هذا البيان نص رسالة هتلر الى موسوليني التي حرر فيها ايطاليا من التزاماتها العسكرية .

١ — وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٤٨٥ — ٤٨٦ .

ولكن الايطاليين ما لبثوا ان دهشوا عندما هتف جورج بونيه وزير خارجية فرنسا والداعية الاكبر لسياسة الترضية إلى فرنسوا ــ بونسيه الذي كان في هذه الآونة سفيراً لفرنسا في رومه، وذلك في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والاربعين قبل ظهر الأول من ايلول ، طالباً اليــه أن ينقل إلى شيانو ، ترحيب الحكومة الفرنسية بمثل هذا المؤتمر شريطة ان لا يحاول معالجة مشاكل البـلاد غير الممثلة فيه . واشترطت فرنسا ايضاً ان لا يحصر المؤتمر نفسه في البحث عن « الحلول الجزئية والمؤقتة للمشاكل المحدودة والفورية » . ولم يذكر بونيه شيئاً عن موضوع انسحاب القوات الألمانية أو حتى توقف زحفها ، كشرط لعقد مثل هذا المؤتمر » (١)

ولكن بريطانيا كانت مصرّة على هذا الشرط ، وقد افلحت اخيراً في حمـل الوزارة الفرنسية المجزأة ، معها في اصرارها هـذا ، ممـا ادى إلى التمكن من تقديم مذكرتي انذار متشابهتين إلى برلين ليلة الأول من ايلول . ولما كان نص هاتين المذكرتين اللتين تعلنان ان بريطانيا وفرنسا ستمضيان إلى الحرب إذا لم تسحب القوات الألمانية من بولندة ، قد أذيـع على العالم في نفس الليلة ، فإن من الطريف ان نلاحظ ، ان موسوليني الذي يحـاول الآن التمسك بأية قشّة موجودة أو غير موجودة ، مضى في الصباح التالي يوجه نداء آخر الى هتلر ،

---

١ ــ اصدر بونيه تعلياته الى سفيره في وارشو ، نويل ، مرتين بعد ظهر الاول من ايلول ، ليسأل بيك اذا كانت بولندة تقبل بالاقتراح الايطالي لعقد المؤتمر . وتلقى في ساعة متأخرة من المساء رد الوزير البولندي الذي قال : « اننـا نخوض الان حرباً آثارها عدوان لم يستفز . ولم تعد القضية موضوع مؤتمرات تعقد ، بل باتت عملا مشتركاً يجب على الحلفاء ان يقوموا بـه معاً للمقاومة » . وقد وردت رسائل بونيه ورد بيك في الكتاب الفرنسي الاصفر .

ولم تشترك الحكومة البريطانية نفسها في محاولات بونيه . وتقول مذكرة لوزارة الخارجية البريطانية وقعها ر. م. ، ماكينز ، ان الحكومة البريطانية « لم تستشر ولم تبلغ ايضاً بهـذه الخطوة الدبلوماتية (رسالة بونيه إلى بونسيه ــ الكتاب الفرنسي الاصفر الطبعة الفرنسية ص ٣٧٧ ــ ٣٧٨ . واقتراح موسوليني في نفس المصدر ص ٣٦٠ ــ ٣٦١ . أما مذكرة ماكينز فقـد وردت في وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٦) ص ٥٣٠ ــ ٥٣١) .

وكأنه أي الدوتشي لم يصدق ما جاء في نص الانذارين الانكليزي والفرنسي .

وكان الثاني من ايلول ، على حد تعبير هندرسون في تقريره الاخير يوم شك وترقب.[1] وظل السفير البريطاني وزميله الفرنسي ، ينتظران بقلق رد هتلر على مذكرتيهما دون جدوى ، ووصل اتوليكو بعيد الظهر بقليل وهـو يلهث راكضاً إلى دار السفارة البريطانية ليسأل هندرسون شيئاً واحـداً يريد الرد علية بسرعة ، وهو هل كانت المذكرة البريطانية المقدمة في الليلة الماضية انذاراً نهائياً او لا ؟

وكتب هندرسون فيما بعد يقول : « وابلغت السفير الايطـالي بأنني كنت مخولاً لأن أقول لوزير خارجية المانيا لو سألني هذا السؤال ، ولكنه لم يسأله ، بأن المذكرة مجرد إنذار لا انذار نهائي »[2]

وراح السفير الايطالي بعد ان تلقى الرد يقطع الويلهلمشتراسه قاصداً وزارة الخارجية الألمانية . وكان اتوليكو قد وصل إلى الوزارة قبل ذلك في الساعـة العاشرة صباحاً يحمل رسالة من موسوليني ، فلما قيل له ان ريبنتروب متغيّب لمرضه ، سلمها إلى وايز ساكر وهذا ما جاء فيها :

« ترغب ايطاليا ، بقصد الإعلام ان تبلغ الحكومة الألمانيـة تاركة بالطبع أمر القرار النهائي للفوهرر، انها ما زالت ترى احتمالاً في حمل فرنسا وبريطانيا وبولندة على الموافقة على عقـد مؤتمر على اساس القواعد التالية :

« ١ ـ عقد هدنة فورية مع بقاء الجيوش في الاماكن التي وصلتها عند عقدها .

---

١ ـ قام هندرسون بعد ظهر اليوم السابق بناء على تعليمات تلقاها من هاليفاكس باحراق مفاتيح الرموز في سفارته وغير ذلك من الوثائق السريـة ، وطلب رسميـاً الى القائم بأعمال السفارة الامريكية « ان يتكرم برعاية المصالح البريطانية في حالة نشوب الحرب » (الكتـاب البريطاني الازرق ص ٢١).

٢ ـ تقرير هندرسون الاخير ـ ص ٢٢

« ٢ – عقد المؤتمر في غضون يومين أو ثلاثة .

« ٣ – حل مشكلة النزاع بين بولندة والمانيا ، على نحو يكون مرضياً لالمانيا بالنسبة إلى الاوضاع الراهنة .

« وتلقى الفكرة التي نبتت في البداية عن الدوتشي ، تأييداً خاصاً في هذه اللحظة من جانب فرنسا . [١]

« وقد غدت دانزيغ الآن المانية ، وحصلت المانيا الآن على ضمانات تحقق لها القسم الاكبر من مطالبها . يضاف إلى هذا ان المانيا قد حققت حتى الآن الترضية المعنوية . وإذا ما قبلت باقتراح عقد المؤتمر فإنها ستحقق جميع اهدافها ، وتتمكن من تجنب الحرب ، التي شرعت منذ الآن تتخذ طابعاً عاماً ، وتبدو وكأنها ستستمر أمداً طويلاً .

« ولا يريد الدوتشي ان يلحف ولكنه يرى من الخطورة بمكان كبير ، ان تعرض جميع هذه الافكار فوراً على الهر فون ريبنتروب وعلى الفوهرر » [٢]

وليس من المستغرب والحالة هذه ان يكون ريبنتروب الذي شفي من مرضه بسرعة ، قد أكد لاتوليكو عندما استقبله في الساعة الثانية عشرة والنصف ، انه لا يمكن التوفيق بين اقتراح الدوتشي وبين المذكرتين الانكليزية والفرنسية اللتين قدمتا في الليلة الفائتة واللتين تحملان « طابع الانذار النهائي »

وقاطع السفير الايطالي الذي لم يكن يقل عن رئيسه اهتماماً في تجنب الحرب العالمية وان كان يفوقه اخلاصاً ، الوزير الالماني ليقول ان « رسالة الدوتشي الاخيرة قد نسخت البيانين البريطاني والفرنسي . وبالطبع لم يكن من حق

١– يزعم شيانو ان المذكرة قد ارسلت تلبية لضغط فرنسا (يوميات شيانو ص ١٣٦) . ولكن هذا القول تضليل ولا ريب . إذ على الرغم من ان بونيه قد بذل كل ما لديه من جهد لعقد المؤتمر ، كان موسوليني اكثر منه إلحافاً في تنفيذ اقتراحه .

٢ – وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٥٠٩ – ٥١٠ .

اتوليكو الادلاء بمثل هذا البيان بأي حال من الاحوال ، لا سيما وانه كان يفتقر إلى الصحة ، ولكن يبدو ان السفير قد تصور انه في مثل هـــذه المرحلة المتأخرة ، قد لا يخسر شيئاً من جراء القاء الكلام على عواهنه . وعندما اعرب وزير خارجية المانيا عن شكوكه في صحة ما يقوله السفير تمسك هذا برأيه وقال:

« لم يعد البيانان البريطاني والفرنسي موضع اعتبار . فلقــد هتف الكونت شيانو في الساعة الثامنة والنصف من هذا الصباح ، أي بعد إذاعة البيانين حتماً من محطة إذاعة رومه وعلى هــذا الأساس يمكن اعتبار البيانين منسوخين . وذكر الكونت شيانو ايضاً ان فرنسا تؤيد اقتراح الدوتشي بصورة خاصة . ويقع الضغط في الآونة الراهنة من جـــانب فرنسا ولكن انكلترا ستحذو حذوها . »[١]

واحتفظ ريبنتروب بتشككه . فلقد بحث اقتراح موسوليني الاخير مـــع هتلر وكان كل ما يريد الفوهرر ان يعرفه هو هل تعني المذكرتان البريطانيـــة والفرنسية الانذار النهائي ؟ ووافق وزير الخارجية اخيراً على اقتراح اتوليكو بأن يمضي فوراً لاستشارة هندرسون وكولوندر ليعثر لديهما على الرد الذي ينشده لهذا السؤال .

وكان هذا التطور هو السبب الذي حمل اتوليكو على زيارة السفارة البريطانية وكتب شميدت الذي تولى الترجمة بين ريبنتروب واتوليكو فيما بعد يقول : مـــا زلت اتصور اتوليكو الذي تجـــاوز شرخ الشباب ، وهو يركض من مكتب ريبنتروب هابطاً الدرج بسرعة فائقة ليتحدث إلى هندرسون وكولوندر . ولم تمض نصف ساعة حتى كان يركض عائداً وهو يلهث متقطع الانفاس على النحو الذي تركنا فيه . »[٢]

وبعد ان استعاد نفسه ، قال السفير الايطالي ان هندرسون قد ابلغــه قبل

---

١ ـ شميدت ـ ترجمان هتلر ص ٥١٢ ـ ٥١٣ .

٢ ـ شميدت ـ ترجمان هتلر ص ١٥٦ .

لحظات بأن المذكرة البريطانية لم تكن انذاراً . ورد عليه ريبنتروب قائلاً :
« لما كانت الضرورة تحتم ان يكون الرد الالماني على البيان الانكليزي والفرنسي سلبياً ، فإن الفوهرر يقوم الآن بدرس اقتراحات الدوتشي ، وإذا كانت رومه تؤكد عدم وجود طابع الانذار في البيانين ، فان الحكومة الالمانية ستعد الرد في يوم أو يومين على الاقتراحات » . وعندما ألحّ اتوليكو في المطالبة برد مبكر ، وافق ريبنتروب اخيراً على ان يقدم اليه الرد ظهر اليوم التالي الأحد في الثالث من ايلول .

وتحطمت احلام موسوليني في رومة في غضون ذلك . فقد استقبل شيانو في الساعة الثانية بعد الظهر سفيري بريطانيا وفرنسا وراح يهتف بحضورهما إلى هاليفاكس وبونيه ليبلغهما بما جرى من حديث بين سفيره اتوليكو وبين وزير خارجية المانيا . وكان بونيه متلهفاً كعادته ، وشكر كما روى هو نفسه في الكتاب الفرنسي الاصفر لشيانو جهوده الهادفة إلى احلال السلام ، شكراً حاراً . أما هاليفاكس فكان اكثر خشونة وصرامة . وقد أيد القول بأن المذكرة البريطانية لم تكن إنذاراً نهائياً مما يثير دهشة المرء من هذا التضارب الدقيق في المعاني بين الساسة لكلمة واحدة ، إذ ان البيانين كانا يتحدثان عن حقيقتها حديثاً ذاتياً — واضاف انه يرى الحكومة البريطانية لا تستطيع قبول اقتراح موسوليني بعقد المؤتمر إلا إذا انسحبت الجيوش الألمانية من بولندة. وهو موضوع ظل بونيه ساكتاً عنه. ووعد هاليفاكس بأن ينقل إلى شيانو هاتفياً قرار الحكومة البريطانية في الموضوع .

وصدر القرار بعيد الساعة السابعة مساء . ونص على ان بريطانيا تقبل بعرض الدوتشي شريطة ان يسحب هتلر جيوشه إلى الحدود الالمانية وادرك وزير الخارجية الايطالي ان هتلر لن يقبل مطلقاً بهذا الشرط . ودب اليأس إلى فؤاده من تحقيق أية نتيجة ، وراح يروي في يومياته ..

« ليس من شأني ان انصح هتلر نصيحة انا واثق من رفضه لها رفضاً قاطعاً قد ينطوي ايضاً على الازدراء. واعربت عن رأيي هذا

لكل من هاليفاكس والسفيرين والدوتشي ، وقررت اخيراً ان اهتف لبرلين اقول ... انه ما لم يصلنا ما يناقض ذلك ، فإننا سنعتبر ان المحادثات قد انتهت إلى الفشل . وهكذا اختفت آخر نغمة من نغمات الأمل بالسلام »[1]

وهكذا راح اتوليكو الذي انهكته جهود الايام الاخيرة وسحقته سحقاً ، يشق طريقه مرة ثانية في الساعة الثامنة والدقيقة الخمسين من مساء الثاني من ايلول إلى دار وزارة الخارجية الألمانية ، ولكن ريبنتروب استقبله هذه المرة في دار المستشارية إذ كان فيها يحضر اجتماعاً لهتلر . وسجلت وثيقة المانية مصادرة المنظر على النحو التالي :

« حمل السفير الايطالي إلى وزير الخارجية المعلومات التي تفيد بأن بريطانيا ليست على استعداد للدخول في مفاوضات على اساس الاقتراح الايطالي بالتوسط . واضاف ان بريطانيا تشترط قبل الشروع في المفاوضات انسحاب جميع القوات الالمانية فوراً من دانزيغ ومن المناطق البولندية المحتلة .

« وختم السفير الايطالي حديثه قائلاً ان الدوتشي يعتبر ان وساطته لم تعد قائمة . وتسلم وزير الخارجية هذا البلاغ من السفير الايطالي دون أي تعليق [2]

حتى ولا كلمة شكر لاتوليكو الذي لا يكل ولا يمل ! ان هذا الصمت ينطوي على شيء من الاحتقار للحليف الذي يحاول ان يحرم المانيا الآن من اسلابها في بولندة .

وهكذا اختفى الآن ذلك الأمل الاخير والضئيل في تجنب الحرب العالمية الثانية . ويبدو ان هذه الحقيقة كانت واضحة للجميع باستثناء ممثل واحد في تلك المسرحية . ففي الساعة التاسعة مساء هتف بونيه الخائر العزيمة إلى

---

١ ــ يوميات شيانو ص ١٣٦ ــ ١٣٧

٢ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية(٧) ص ٥٢٤ ــ ٥٢٥ .

إلى شيانو مؤكداً مرة ثانية ان المذكرة الفرنسية إلى المانيا لا تحمل طابع الانذار النهائي » وكرر من جديد استعداد الحكومة الفرنسية للانتظار حتى ظهر الثالث من ايلول – أي اليوم التالي – ترقباً للرد الالماني . وأضاف : « ان نجاح المؤتمر في تحقيق نتائج طيبة » يحتم على فرنسا ان تتفق مع بريطانيا في وجوب جلاء القوات الألمانية عن بولندة . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يذكر بونيه فيها موضوع الجلاء ، ولم تكن اشارته اليه إلا ناجمة عن اصرار البريطانيين اصراراً جازماً على اشتراطه . ورد شيانو بأنه لا يعتقد بأن حكومة الرايخ ستقبل هذا الشرط . ولكن بونيه لا يستسلم ، وراح يبحث طيلة الليل عن مخرج نهائي يمكن فرنسا من التحلل من التزاماتها تجاه بولندة التي تتعرض الآن للدمار والحصار . ويروي شيانو قصة هذه الحركة المتقلبة الغريبة في الفقرة الأولى من يوميته التي دوّنها بتاريخ الثالث من ايلول إذ قال :

« أيقظتني الوزارة من نومي تلك الليلة ، لأن بونيه قد طلب من غواريغليا (السفير الايطالي في باريس) ، اعلامه ما إذا كان باستطاعتنا ان نحمل المانيا على سحب قواتها سحباً رمزياً من بولندة ... وقد القيت بالاقتراح في سلة المهملات دون ان انقله إلى الدوتشي . ولكن هذه الخطوة تظهر ان فرنسا تسير نحو المحنة الكبرى دون حماس وأسيرة للشكوك . » [1]

الحرب البولندية تتحول الى الحرب الكونية الثانية

كان يوم الاحد الثالث من ايلول عام ١٩٣٩ من ايام نهاية الصيف الجميلة في

١ – يوميات شيانو ص ١٣٧ . اكد دي مونزي العضو الانهزامي في مجلس الشيوخ الفرنسي هذه الرواية في الصفحتين ١٤٦ و ١٤٧ من كتابه « حدث ذات يوم »

برلين . وكانت الشمس مشرقة ، والهواء عطراً منعشاً ، فالنهـار في تلك الايام الحلوة التي يود البرليني – كما دونت في يومياتي – لو قضاها « في الغـابات أو على ضفاف البحيرات القريبة » .

وعندما بزغ فجر ذلك النهار ، وصلت برقيـــة إلى السفارة البريطانية في برلين ، موجهة من اللورد هاليفاكس إلى السير نيفيل هندرسون يأمره فيها بأن يسعى لمقابلة وزير الخارجية الألمانية في الساعة التاسعة صباحاً وان ينقل اليـــه البلاغ الذي اوردت البرقية نصه .

أجل لقد وصلت حكومة تشمبرلين إلى نهاية الطريق . وكانت قـد ابلغت هتلر قبل اثنتين وثلاثين ساعة ، انه ما لم تسحب المانيا قواتهـا من بولندة فإن بريطانيا ستمضي إلى حربها . ولم تتلق الحكومة البريطانيـــة رداً ، فحزمت امرها الآن على الوفاء بتعهدها ، وكانت الخشية سيطرت عليها في اليوم السابق – كما روى شارل كوربان السفير الفرنسي في لندن لوزيره المتردد بونيـــه في الساعة الثانية والنصف مساء – من ان يكون هتلر يتعمد التأجيل رغبـة منه في اقتناص اكثر ما يمكنه من الاراضي البولندية ، حتى إذا ما ضمن لنفسه دانزيـغ والرواق وبعض المناطق الاخرى ، تقدم بعرض « فخـــم » للسلام يستند إلى النقاط الست عشرة التي اوردها في الواحد والثلاثين من آب .[1]

وكان هاليفاكس رغبة منه في اجتناب هذا الشرك قد اقترح على فرنسا ان ان تعلن الدولتان الغربيتان حالة الحرب على المانيا إذا لم يتلقيا في غضون بضع ساعات رداً مرضياً من الحكومة الألمانيا على مذكرتيها المؤرختين في الاول من ايلول . وعلى أثر القرار الحازم الذي اتخذته الوزارة البريطانية في الجلسة التي عقدتها بعد ظهر الثاني من ايلول ، اقترح هاليفاكس بصورة مجددة ، ان توجـه الدولتان الحليفتان عند منتصف الليل انذاراً نهائيـــاً إلى برلين ، يحدد المهلة للاستجابة إلى طلبها في الساعة السادسة من صباح الثالث من ايلول .[2] ولكن

---

١ – برقية كوربان – الكتاب الفرنسي الاصفر – الطبعة الفرنسية – ص ٣٩٥ .

٢ – يستند هذا الجزء الى وثائق وزارة الخارجية البريطانية(٧). وهناك تلخيص رائـع يستند=

بونيه لم يكن على استعداد للاستماع إلى عمل عجول متهور من هذا النوع .

وكانت الوزارة الفرنسية المنقسمة على نفسها انقساماً سيئاً ، قد مرت بفترة عصيبة في الاسبوع الماضي في سبيل الوصول إلى قرار يتعلق بالوفاء لالتزامات فرنسا إلى بولندة وإلى حليفتها بريطانيا على وجه خاص . وكان بونيه في ذلك اليوم الاسود ، الثالث والعشرين من آب ، وقد هالته الانباء الواردة من موسكو عن وصول ريبنتروب اليها بقصد التوقيع على ميثاق عدم الاعتداء النازي – السوفياتي ، قد افلح في اقناع ديلادييه باستدعاء مجلس الدفاع الوطني إلى اجتماع للبحث فيما يتوجب على فرنسا عمله . [1] وقد حضر هذا الاجتماع بالاضافة إلى الرئيس ديلادييه وبونيه ، كل من وزراء القوات المسلحة الثلاث الفريق غاملان وقائدا الطيران والاسطول واربعة آخرين من الفرقاء العسكريين الاضافيين فبلغ مجموعهم اثني عشر شخصاً .

وتروي وقائع هذا الاجتماع ان ديلادييه وجه ثلاثة اسئلة :

« ١ – هل تستطيع فرنسا ان تظل مكتوفة اليدين وهي ترى ان بولندة ورومانيا أو واحدة منهما ، تزال من خارطة أوروبا ؟

« ٢ – ما هي السبل التي تملكها لمقاومة هذا الاحتمال ؟

« ٣ – ما هي الاجراءات التي يجب اتخاذها الآن ؟

وبعد ان أوضح بونيه التطور الخطير في الاحداث وجه سؤالاً قدر له ان يحتل مكانة بارزة في تفكيره حتى النهاية :

=الى الاوراق السرية لوزارة الخارجية البريطانية والى بعض المصادر الفرنسية المتوافرة ، في كتاب « عشية الحرب » من اعداد ارنولد وفيرونيكا توينبي . ويعتبر كتاب ناميير « مقدمة دبلوماتية » من الكتب النافعة ايضاً .

١ – اعد الفريق ديكامب ، رئيس الغرفة العسكرية لرئيس الوزراء وقائع هذا الاجتماع التي عرضت في محاكمات ريوم . ولم تعرض الوثيقة التي تضم هذه الوقائع على الاعضاء الاخرين الذين اشتركوا في الاجتماع لتصحيحها ، ويدعى الفريق غاملان في كتابه « الانصاف » ان هذه الوقائع قد اختصرت الى الحد الذي اكسبها صفة التضايل . ومع ذلك فقد ايد « الجنراليسمو » الضعيف خطوطها الرئيسية .

« على ضوء دراستنا للوضع ، أمن الافضل ان نظل أوفياء لالتزاماتنا ، وان نخوض الحرب تبعاً لذلك ، أو ان نعيد النظر في موقفنا وان نفيد من المهلة التي نكسبها عن هذا السبيل ؟ .... ان ان الرد على هذا السؤال ذو طابع عسكري بصورة رئيسية ...

وهكذا عندما احيل الموضوع إلى العسكريين رد غاملان والاميرال دارلان على النحو التالي :

« ان الجيش والاسطول على استعداد . وقد لا يكون في وسعهما يفعلا الكثير ضد المانيا في المراحل الأولى من الصراع . لكن مجرد التعبئة الفرنسية العسكرية نفسها تمنح البولنديين بعض المساعدة إذ ترغم المانيا على تجميد وحدات قوية من جيشها عند حدودنا .

« ... وعندما سئل الفريق غاملان عن المدة التي يعتقد ان بولندة ورومانيا تستطيعان الصمود فيها، قال انه يعتقد بأن بولندة ستقاوم مقاومة شريفة ، مما يمنع القسم الاكبر من القوات الألمانية من التحول ناحية فرنسا قبل حلول الربيع ، وآنذاك تكون قوات بريطانيا قد اصبحت الى جانبنا » [1]

---

١ ــ يعترف غاملان في كتابه « الانصاف » ، بأنه تردد في لفت انظار المجتمعين الى بعض نواحي الضعف العسكرية في الجيش الفرنسي ، لانه لم يكن يثق ببونيه . وهو يروي عن دیلادييه انه قال له فيما بعد : « لقد احسنت صنعاً . لو انك كشفت على هذه النواحي ، لعرف الألمان بها في اليوم التالي » .

وزعم غاملان في كتابه ايضاً ،انه اشار في هذا المؤتمر الى الضعف في مركز فرنسا العسكري. ويقول انه اوضح للمجتمعين ان المانيا « اذا تمكنت من القضاء على بولندة » ثم قذفت بعد ذلك بجماع قوتها ضد فرنسا ، فإن هذه ستغدو في وضع « صعب » وقال : « وفي مثل هذه الحالة لن يكون في وسع فرنسا ان تخوض الصراع ... واني لآمل في الربيع وبمساعدة القوات البريطانية والمعدات الاميركية . فی ان نصبح في وضع يمكننا من خوض معركة دفاعية (اذا تحتم علينا خوضها). واضفت ان ليس فی وسعنا ان نأمل بالنصر الا في حرب طويلة . ولقد كان من رأيي دائماً ، ان ليس في مكنتنا ابداً اتخاذ موقف الهجوم قبل عامين على الاقل أي في عام ١٩٤١ ١٩٤٢ ». =

وتوصل الفرنسيون بعد نقاش طويل إلى قرار دونته وقائع الاجتماع تدويناً دقيقاً وهذا نصه :

« تبيّن نتيجة للنقاش اننا إذا غدونا بعد بضعة شهور أقوى مما نحن الآن ، فإن المانيا ستكون كذلك اقوى بكثير من وضعها الراهن ، إذ ان موارد بولندة ورومانيا كلها ستصبح تحت تصرفها.

« ولهذا فليس أمام فرنسا مجال للاختيار .

« ان الحل الوحيد هو التمسك بالتزاماتنا لبولندة التي ارتبطنا بها قبل الشروع في المفاوضات مع الاتحاد السوفياتي . »

وسرعان ما شرعت الحكومة الفرنسية في العمل بعد ان حزمت أمرها . واستنفر الجيش الفرنسي في الثالث والعشرين من آب ، أي بعد الاجتماع .وطلب إلى جميع قوات الحدود ان تكون في مواقعها الحربية ، واستدعت الحكومة إلى الخدمة في اليوم التالي ثلاثمائة وستين الفاً من افراد الاحتياطي.ونشرت الحكومة في الواحد والثلاثين من آب بلاغاً رسمياً يقول ان فرنسا ستفي بالتزاماتها بعزم وتصميم . وتمكن هاليفاكس في اليوم التالي أي اليوم الأول من الهجوم الالماني على بولندة ، من اقناع بونيه بأن تشترك فرنسا مع بريطانيا في توجيه الانذار إلى برلين بأن الدولتين ستفيان بتعهداتهما لحليفتهما .

ولكن الفريق غاملان واعضاء هيئة أركان الحرب الفرنسية جبنوا في اليوم الثاني من ايلول ، عندما ألحت بريطانيا على وجوب توجيه إنذار نهائي إلى هتلر عند منتصف الليل . فالفرنسيون وحدهم ، على أي حال ، هم الذين سيخوضون المعركة ، إذا ما راح الألمان يهجمون في الغرب فوراً . ولن يكون عندهم جندي بريطاني واحد ، يقدم لهم العون . واصرت هيئة أركان الحرب على التأجيل ثماني واربعين ساعة ، لتواصل تعبئة قواتها العامة دون تدخل من العدو .

=ولا ريب في ان هذه الاراء الحائرة الصادرة عن الجنرال الاكبر توضح الكثير من احداث التاريخ اللاحقة .

وهتف هاليفاكس في الساعة السادسة مساء الى السير ايريك فيبس سفير بريطانيا في باريس يقول : « لا تستطيع الحكومة البريطانية الانتظار ثماني واربعين ساعة . ان حكومة جلالته لا تستطيع ان تفهم الموقف الفرنسي الذي يخلق لها المتاعب . »

وبالفعل بات وضع الحكومة البريطانية خطيراً بعد ساعتين ، عندما نهض تشمبرلين ليلقي خطابه في مجلس العموم الذي كانت غالبية اعضائه ، من مختلف الاحزاب ، قد نفد صبرها من تباطؤ الحكومة البريطانية في الوفاء لالتزاماتها . وبالفعل لم يعد هناك مجال للصبر بعد ان القى رئيس الوزراء خطابه . فقد ذكر للمجلس ان حكومته لم تتلق بعد رداً من برلين . وما لم يصل هذا الرد ، وما لم ينطو على تأكيد المانيا سحب قواتها من بولندة ، فإن الحكومة تجد نفسها « ملزمة بالشروع في العمل الحربي » . أما إذا وافق الالمان على الانسحاب فستكون الحكومة البريطانية « على استعداد لاعتبار الوضع على النحو الذي كان عليه قبل ان تعبر القوات الألمانية حدود بولندة . » واضاف ان الحكومة على اتصال مستمر في غضون ذلك بفرنسا لتحديد موعد نهائي للانذار الموجه إلى المانيا .

وهكذا لم يكن مجلس العموم بعد انقضاء تسع وثلاثين ساعة من الحرب في بولندة ، في وضع من يرضى بمثل هذه الاجراءات الطويلة . وبدا ان رائحة ميونيخ عادت تنتشر من مقاعد الحكومة . وانطلق صوت ليوبولد ايمري ، من مقاعد المحافظين ، يصرخ هاتفاً : « دافع عن انكلترا » مخاطباً ارثر غرينوود نائب زعيم المعارضة العمالية ، عندما شرع يخطب في المجلس قائلاً : « لا أدري حتام سنظل على هذا الموقف من التذبذب في الوقت الذي تتعرض فيه بريطانيا وكل ما تمثله ، بل الحضارة الانسانية جمعاء للخطر ... ان الواجب يحتم علينا ان نمضي قدماً مع فرنسا إلى الامام ... »

ولكن هنا تقوم المشكلة . بل هنا بيت القصيد . فلقد بدا ان من الصعب في هذه اللحظة ، حمل فرنسا على المضي قدماً إلى الامام . لكن تشمبرلين كان

قد بلغ به التأثر من موجة الغضب المسيطرة على المجلس حداً عرضه للاضطراب فراح يتدخل في المناقشة الحادة، مدعياً ان التنسيق في « الافكار والاعمال » عن طريق الهاتف مع باريس يتطلب وقتاً طويلاً . واضاف قائلاً : « ولا ريب في انني سأرتعد فزعاً إذا طاب للمجاس ان يتصور لحظة واحدة ، ان الخطاب الذي القيته قبل قليل، يوحي بوجود أي ضعف مهما قل من ناحية حكومتنا أو الحكومة الفرنسية » . وقال انه فهم ان الحكومة الفرنسية «تعقد اجتماعاً في هذه اللحظة» واننا سنستلم منها رسالة « في غضون الساعات القليلة القادمة » . وقد حاول على أي حال ان يؤكد للنواب الثائرين انه لا يتوقع « الا رداً واحداً ، استطيع ان انقله الى المجلس غداً .... واني لواثق من ان المجلس سيصدق انني اتحدث اليه بمنتهى الصدق وحسن النية .... »

وكتب ناميير فيما بعد يقول : ان الاعلان عن اكثر القرارات صلابة في مواجهة اعظم ما تعرضت له بريطانيا في تاريخها من محنة قد تم « بطريقة عرجاء فذّة » .

وتظهر الأوراق السرية البريطانية ان تشمبرلين ادرك تمام الادراك عظم المتاعب التي تلفه مع شعبه ، وان حكومته تواجه خطر السقوط في هذه الفترة العصيبة من تاريخ البلاد .

وسارع الى الاتصال هاتفياً بديلادييه فور مغادرته قاعة المجلس . وتسجّل الوثائق ان هذا الأتصال تم في الساعة التاسعة والخمسين مساء. وقد دوّن كادوغان الذي كان يستمع الى المحادثة كل ما دار للحفظ في السجلات الرسمية :

تشمبرلين – ان الوضع في غاية الخطورة هنا .... ولقد شهد المجلس اليوم منظراً ساحقاً .... واذا كانت فرنسا تصر على مهلة ثمان واربعين ساعة تبدأ عند ظهر الغد ، فإني ارى استحالة تمكن الحكومة من السيطرة على الوضع هنا .

وقال رئيس الوزراء انه يدرك تمام الادراك ان فرنسا هي التي يتوجب عليها ان تحتمل اعباء الهجوم الالماني ولكنه مقتنع من وجوب اتخاذ

خطوة مهما كانت في هذا المساء.

واقترح حلاً وسطاً ... وهو تقديم الانـذار النهائي في الساعة الثامنة من صباح الغد ، على ان تنتهي مدته عند الظهر ...

«ورد ديلادييه بأنه ما لم تكن القاذفات البريطانية على استعداد للعمل فوراً فإن من الافضل لفرنسا ان تؤجل إذا امكن الهجوم على الجيوش الألمانية بضع ساعات . »

ولم تكد تمضي ساعة واحدة على هذه المحادثة ، حتى كان هاليفاكس يتحدث هاتفياً الى بونيه في العاشرة والنصف . وقد حث الفرنسيين على تقبل الحـل البريطاني الوسط ، وهو ان يوجه الانذار النهائي الى برلين في الساعة الثامنة من صباح الثالث من ايلول، وانه تنتهي مدته عند الظهر . ولم يكتف وزير خارجية فرنسا باظهار عدم موافقته على ذلك بـل راح يحتج إلى هاليفاكس بأن اصرار بريطانيا على استعجال الامور يخلق « انطباعات غير مستحبة ».وطلب ان تنتظر لندن حتى ظهر غدٍ على الاقل ، قبل ان تقدم انذارها إلى هتلر .

ورد هاليفاكس قائلاً : يستحيل على حكومة جلالته ان تنتظر حتى تلك الساعة ... واني لا شك في ان الحكومة البريطانية تستطيع السيطرة عـلى الموقف هنا .

وكان من المقرر ان يجتمع مجلس العموم البريطاني يوم الاحد في الثالث من ايلول ، وكان من الواضح لتشمبرلين وهاليفاكس من الحـالة التي سادت المجلس عشية يوم السبت ، ان بقاء الحكومة متوقف على تمكنها من ان تقدم للبرلمـان الرد الذي يطلبه في ذلك الموعـد . وبعث السفير الفرنسي في لندن ، المسيو كوربان ، إلى رئيسه بونيه في الساعة الثانية صباحاً يقول ان حكومة تشمبرلين مهددة بالسقوط إذا لم تتمكن من تقديم ردٍ محدود إلى البرلمان. وابلغ هاليفاكس في نهاية محادثاته مع بونيه ، زميله الفرنسي بأن بريطانيا قد تجد نفسها« مضطرة إلى العمل بمفردها . »

ووصلت برقية هاليفاكس إلى هندرسون في برلين في الساعة الرابعة صباحاً.[1] وكان عليه ان يسلم التبليغ إلى الحكومة الألمانية في التاسعة من صباح الاحد في الثالث من ايلول الذي يذكر الحكومة الألمانيـــة بمذكرة الأول من ايلـــول البريطانية. وهي التي اعلنت عزم الحكومة البريطانية على الوفـــاء بالتزاماتها إلى بولندة إذا لم تنسحب القوات الألمانية فوراً . ومضى التبليـغ بعد ذلك يقول :

« وعلى الرغم من ان هـــذا التبليـغ قد سلم إلى الحكومـــة الالمانية قبل اكثر من اربـع وعشرين ساعة إلا ان الحكومـــة البريطانية لم تتلق رداً عليه حتى الآن ، بينما يواصل الألمان هجومهم على بولندة ويوسّعونه . ولهذا فلي الشرف ان ابلغكم انه ما لم تقدم الحكومة الألمانية قبل الساعة الحادية عشرة من وقت لندن الصيفي ، من صباح اليوم الثالث من ايلول تأكيدات مقنعة بهـــذا الصدد ، وما لم تتسلم حكومة جلالته في لندن هذه التأكيدات في الموعـد المعين ، فإنها ستعتبر ان حالة حرب قد قامت بين البلدين اعتباراً من تلك الساعة » .[2]

---

١ ـ كان وزير الخارجية قد بعث الى هندرسون برقيتي تحذير في الليل . اما الاولى وقـد ابرقت في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخمسين قبل منتصف الليل ، فقد نصت على ما يلي :

« قد اجد نفسي مضطراً الى ان ابعث اليك هذه الليلة بتعليمات لنقل تبليـغ فوري إلى الحكومة الألمانية . ارجو ان تكون متأهباً للعمل . ارى من الافضل لو نبهت وزير الخارجية إلى انك قد تطلب مقابلته في اية لحظة . »

وقد يبدو من هذه البرقية ان الحكومة البريطانية لم تكن قـد حزمت امرها بعد على المضي في خطتها رغماً عن فرنسا . ولكن لم تمض خمس وثلاثون دقيقـة اي في الثانيـة عشرة والدقيقة الخامسة والعشرين بعد منتصف الليل ، حتى كان هاليفاكس يبرق الى هندرسون قائلا :

« عليك ان تطلب مقابلة وزير خارجية المانيا في الساعة التاسعة من صباح الاحد . التعليمات لاحقة » (وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) ارقام ٧٤٦ و ٥٢٨ و ٥٣٣)

وقد بعث هاليفاكس ببرقيته النهائية الحاسمة في الساعة الخامسة صباحاً . أما هندرسون فيقول في تقريره الاخير انه تسلمها في الرابعة صباحاً .

٢ ـ بعث هاليفاكس ببرقية اضافية في الساعة الخامسة صباحاً ايضاً ، ابلـغ سفيره فيها ان =

ووجد هندرسون في تلك الساعة المبكرة التي سبقت فجر يوم الاحد . ان من الصعب عليه ان يتصل بالويلهلمشتراسه . وقيل له ان ريبنتروب لن يكون « موجوداً » في الساعة التاسعة من صباح الاحد ، ولكن في وسعه إذا اراد ، ان يترك تبليغه مع الدكتور شميدت المترجم الرسمي .

وغرق الدكتور شميدت في سباته في هذا اليوم التاريخي ، ولذا فقد هرع في سيارة اجرة الى وزارة الخارجية ، وعندما وصلها، رأى السفير البريطاني يصعد قبله الدرج إلى الوزارة ، وتمكن الدكتور شميدت من التسلل عبر باب جانبي إلى مكتب ريبنتروب فدخله عندما كانت الساعة تقرع التاسعة تماماً ، أي في الموعد المعين لاستقبال السفير البريطاني .ودوّن شميدت فيما بعد يصف المقابلة: « دخل السفير وقد بدت عليه علائم الجد ، فصافحته ، ولكنه رفض دعـــوتي إياه للجلوس ، وظل واقفاً بشكل صارم في وسط الغرفة . »[1] ثم قرأ الانـذار البريطاني وسلم إلى شميدت نسخته ، وودعه خارجاً من الغرفة .

وهرع الترجمان الرسمي يحمل الوثيقة إلى دار المستشارية . ووجد خـــارج مكتب الفوهرر معظم اعضاء الوزارة ولفيفاًمن كبار رجال الحزب وقد اجتمعوا ينتظرون « بفارغ الصبر » ما يحمله من انباء . وكتب شميدت فيما بعد متذكراً ما وقع :

« وعندما دخلت إلى الغرفة المجـــاورة ، كان هتلر يجلس إلى مكتبه وقد وقف ريبنتروب على مقربة من النافذة . وكانت علائم اللهفة بادية في عيني الرجلين عندما دخلت . ووقفت على بعـــد

=كولوندر « لن يقدم تبليغاً مماثلا الى الحكومة الالمانية إلا عند ظهر الاحد» واضاف انه لا يعرف موعد انتهاء الانذار الفرنسي ، وان كان يظن على الغالب بأنه سيكون بين الساعة السادسة والتاسعة مساء . (نص التبليـغ في الكتـــاب البريطاني الازرق ص ١٧٥ وفي وثائق وزارة الخارجيـــة الالمانية (٧) ص ٥٢٩ . ونص البرقية الاضافيـــة في وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) رقم ٧٥٨ ص ٥٣٥ .

١ ــ شميدت ــ ترجمان هتلر ص ١٥٧ . وشهادته في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٢٠٠ .

خطوات من مكتب هتلر وشرعت اترجم ببطء نص الانـــذار البريطاني . وعندما انتهيت من تلاوة الترجمة خيم على الغرفة صمت مطبق .

« وجلس هتلر ساكناً وهو يحملق في الفضاء وامامه ... وبعد فترة خلتها قرناً ، التفت إلى ريبنتروب ، الذي ظل واقفـــاً إلى جوار النافذة ، وقال هتلر وفي عينيه نظرة متوحشة ، قد يفهم المرء منها ان وزير خارجيته قـــد ضلله بصدد رد فعل انكلترا المحتمل : « والآن ... ماذا سيحدث ? »

« فرد ريبنتروب بهدوء : « اعتقد ان الفرنسيين سيقدمون انذاراً مماثلاً في غضون ساعة . » [١]

وانسحب شميدت بعد ان ادى واجبه ، متوقفاً في الغرفة الخارجية ليطلع الآخرين على ما وقع . وخيّم عليهم الصمت ايضاً وفجأة :

« التفت اليّ غورنغ وقـــال : « اذا خسرنا هـــذه الحرب ، فليرحمنا الله »

ووقف غوبلز في زاوية من الغرفة وحيداً وقد اطرق برأسه ، وغـــاص في افـكاره . « وحيثما تطلعت في الغرفة رأيت نظرات تنطوي على القلق العميق. [٢]

* * *

وكان داهليروس الفريد من نوعه ، يقوم في غضون ذلك بآخر محـــاولاته الهاوية لتجنب القدر المحتوم . وقـــد ابلغه فوربس في الساعـــة الثامنة صباحاً بالانذار البريطاني الذي سيجري تسليمه بعد ساعة واحدة . فهرع الى مقر قيادة السلاح الجوي الألماني لمقابلة غورنغ ، وراح يناشده ، كما روى فيما بعد في شهادته في نورمبرغ ، بأن يكون الرد الألماني على الانـذار « معقولاً ». واقترح ايضـاً

---

١ ـ شميدت ـ ترجمان هتلر ص ١٥٧ ـ ١٥٨ . محاكمات كبـار مجرمي الحرب (١٠) ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

٢ ـ شميدت ـ ترجمان هتلر ص ١٥٨ .

ان يعلن المشير نفسه قبل الساعة الحادية عشرة استعداده للطيران الى لندن « للتفاوض ». ويزعم رجل الأعمال السويدي في كتابه ان غورنغ قبل الاقتراح وهتف الى هتلر فوافق هذا ايضاً عليه . ولكن لم يرد أي ذكر لهذا الادعاء في الوثائق الألمانية ، كما ان الدكتور شميدت قد اوضح بأن غورنغ لم يكن بعد التاسعة بدقائق في مقر قيادته وانما في دار المستشارية وفي الغرفة الخارجية لمكتب الفوهرر .

ولكن ليس ثمة من شك في ان الوسيط السويدي قد هتف مرتين الى وزارة الخارجية البريطانية . فقد اخذ الرجل على عاتقه في حديثه الهاتفي الأول الذي جرى في الساعة العاشرة والربع صباحاً، ابلاغ الحكومة البريطانية بأن الرد الألماني على انذارها « في الطريق » الآن ، وان الألمان ما فتئوا « راغبين اشد الرغبة في ارضاء الحكومة البريطانية وتقديم تأكيدات مقنعة بأنهم لن يعتدوا على استقلال بولندة ». واعرب عن امله في ان تنظر لندن الى رد هتلر نظرة ودية وان تدرسه على هذا الصعيد .[1]

وبعد نصف ساعة ، أي في العاشرة والدقيقة الخمسين ، ولم تزل هناك عشر دقائق على انقضاء المهلة التي ضربها الانذار ، كان داهليروس يتحدث مرة ثانية إلى وزارة الخارجية في لندن لينقل اليها اقتراحه بأن يطير غورنغ بموافقة هتلر فوراً إلى العاصمة البريطانية . ويبدو انه لم يكن يدرك ان الوقت قد فات على هذه الاساليب الدبلوماتية البالية ، ولكن سرعان ما تبلج له هذا الادراك ، فقد تلقى رداً حازماً من هاليفاكس يعتذر فيه عن قبول اقتراحه . واضاف الوزير ان الحكومة البريطانية وجهت سؤالاً محدوداً إلى الحكومة الالمانية وانه يفترض في الاخيرة ان تبعث بردٍ محدود ايضاً . وقال ان حكومة جلالته لا تستطيع الانتظار لاجراء محادثات جديدة مع غورنغ .[2]

وهنا توقف داهليروس عن محاولاته واختفى منسياً في زوايا التاريخ إلى ان

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) رقم ٧٦٢ . ص ٥٣٧ .

٢ ــ وثائق وزارة الخارجية البريطانية (٧) رقم ٧٦٢ . ص ٥٣٧

عاد للظهور ولفترة قصيرة في نورمبرغ بعد انتهاء الحرب وفي كتابه ليروي قصة محاولاته الخيالية الغريبة لانقاذ السلام العالمي . [١] ولا ريب في انه كان حسن النوايا ، وانه قد جاهد كثيراً من اجل السلام . وقد وجد نفسه لفترة قصيرة في وسط المسرح الباهر للانظار ، حيث تمثل مسرحية التاريخ العالمي . ولكن كما حدث للكثيرين غيره ، كان اضطراب الاحداث كبيراً إلى الحد الذي لم يتمكن فيه من الرؤية بوضوح ، يضاف إلى هذا انه – على حد اعترافه في نورمبرغ فيما بعد – لم يدرك قط من قبل، المدى الذي تمكن فيه الالمان من تضليله .

وراح ريبنتروب الذي رفض ان يستقبل السفير البريطاني قبل ساعتين ، يستدعيه بعد الساعة الحادية عشرة، وهي نهاية الأمد المضروب للإنذار البريطاني ليسلمه رد المانيا. وقالت الحكومة الألمانية في ردها ، انها ترفض « ان تتسلم أو تقبل بله ان تنفذ » الانذار البريطاني . وتبع ذلك بيان دعائي طويل ومهلهل، كان واضحاً انه قد اعد بصورة عاجلة بالتعاون بين هتلر وريبنتروب في غضون الساعتين الماضيتين . وقد هدف هذا البيان إلى تضليل الشعب الالماني الساذج ، ولذا عاد يؤكد جميع الاكاذيب التي بتنا نعرفها ، ومن بينها اكذوبة الهجوم البولندي على الاراضي الالمانية، وايقاع اللوم على بريطانيا بالنسبة الى كل ما حدث ورفض البيان المحاولات « لارغام المانيا على استدعاء قواتها التي تتخذ مراكزها الآن دفاعاً عن الرايخ » . واعلن كاذباً ان المانيا قبلت اقتراحات موسوليني السلمية التي سبقت الحرب ، وان بريطانيا هي التي رفضتها . وانكر اخيراً جميع محاولات الترضية التي قام بها تشمبرلين في الماضي نحو هتلر ، متهماً الحكومة البريطانية « بالدعوة الى تدمير الشعب الألماني وابادته » [٢]

---

١ – عاد إلى الظهور في الرابع والعشرين من ايلول ، عندما اجتمع إلى فوربس في اوسلو ، ليتأكد ، كما قال لمحكمة نورمبرغ فيما بعد ، قبل ان يعتزل ، « ما إذا لم يكن هناك اي احتمال في تجنب الحرب العالمية » (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩) ص ٤٧٣ .

٢ – كانت هذه المذكرة التي اعدت على عجل من النوع الزائف إلى الحد الذي انتهت فيه =

وقرأ هندرسون الوثيقة التي وصفها فيما بعد « بالتشويه الكاذب للاحداث » وقال معلقاً : « لنترك الى التاريخ الحكم على من تقع عليه المسؤولية الحقة » ورد ريبنتروب على الفور ، بأن « التاريخ قد اصدر حكمه سلفاً » .

* * *

وكنت اقف في شارع الويلهلمشتراسه ، أمام دار المستشارية وقت الظهيرة ، عندما انطلقت مكبرات الصوت فجأة ، تعلن ان بريطانيا العظمى قد اعلنت الحرب على المانيا . [1] وكان هناك نحو من مائتين وخمسين شخصاً يقفون متعرضين لأشعة الشمس ، وقد اصغوا بجميع حواسهم الى الاعلان المذكور . وعندما انتهى المذيع من تلاوته لم تسمع نأمة او مجرد كلمة واحدة ، فقد وقف الجميع صامتين جامدين . وكان من الصعب عليهم ان يفهموا ان هتلر قد ساقهم الى حرب عالمية .

ولكن لم يمض إلا وقت قصير ، وعلى الرغم من عطلة الأحد ، حتى كان الصبية من باعة الصحف ينادون على ملاحقها الاضافية . ولاحظت انهم يوزعونها توزيعاً دون ان يتقاضوا الثمن. وتناولت واحدة، وكانت « الدويتشة الغماينة زايتونغ » وكانت عناوينها الضخمة تحتل صدر صفحتها الأولى على النحو التالي :

رفض الانذار البريطاني

= بالعبارة التالية : « لقد اخذنا بعين الاعتبار عزم الحكومة البريطانية الذي نقله الينا المستر كينغ هول بأمر منها ، على تدمير الشعب الالماني بصورة تفوق ما تعرض له من دمار في معاهدة فرساي. ولهذا فقد قررنا ان نرد على كل عمل عدائي تقوم به ضدنا بنفس الاسلحة وعين الصورة » . وبالطبع لم تكن الحكومة البريطانية قد نقلت الى المانيا اية نوايا عن طريق ستيفين كينغ هول ، الضابط البحري المتقاعد ، الذي كانت رسائله الاعلامية مجرد عمل شخصي بحت . وكان هندرسون قد احتج فعلا لدى وزارة الخارجية على توزيع مطبوعات كينغ ـ هول في المانيا فطلبت الحكومة البريطانية الى المذكور ان يمتنع عن هذا التوزيع .

١ ـ سلم هاليفاكس القائم بالاعمال الالماني في الساعة الحادية عشرة والربع صباحاً مذكرة رسمية تقول انه لما كانت الحكومة البريطانية لم تتلق التأكيدات الالمانية قبيل الحادية عشرة « فإن لي الشرف ان ابلغك بأن حالة حرب تقوم بين البلادين اعتباراً من الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم الثالث من ايلول . »

انكلترا تعلن حالة الحرب على المانيا

المذكرة البريطانية تطلب انسحاب قواتنا في الشرق

الفوهرر يغادر العاصمة اليوم الى الجبهة

وكان العنوان الذي يتصدّر الوصف الرسمي من النوع الذي يبدو وكأن ريبنتروب قد املاه ....

المذكرة الألمانية تقيم الدليل على جريمة انكلترا

لكن اقامة الدليل هذه لم تكن واضحة الا لشعب يسهل خداعه كالشعب الألماني . ومع ذلك لم تستثر هذه الاقوال اية مشاعر سيئة نحو البريطانيين طيلةاليوم.وعندما مررت بدار السفارة البريطانية التي كان هندرسون وموظفوه قد انتقلوا منها الى فندق « ادلون » عند الزاوية كان هناك جندي وحيد يذرع الرصيف جيئة وذهاباً امامها ، وليس له من عمل الا السير على هذا النحو .

* * *

وصبر الفرنسيون مدة اطول . وظل بونيه يحاول التسويف حتى اللحظة الاخيرة ، متمسكاً بالامل في ان يتمكن موسوليني من عقد صفقة مع هتلر تمكن فرنسا من الخلاص من الورطة . وراح يرجو السفير البلجيكي ان يحمل الملك ليوبولد على استعمال نفوذه مع موسوليني للتأثير على هتلر . وظل طيلة يوم السبت الثاني من ايلول في جدال مع اعضاء وزارته ، على النحو الذي كان يحاور فيه البريطانيين ، مدعياً بأنه قد وعد شيانو بالانتظار حتى ظهر الثالث من ايلول ، ترقباً لوصول الرد الالماني على المذكرتين البريطانية والفرنسية بتاريخ الاول من ايلول ، وانه لا يستطيع والحالة هذه ان ينكث بوعده . وبالفعل كان بونيه قد اعطى هذا التأكيد لشيانو هاتفياً ، ولكنه لم يعطه إلا في الساعة التاسعة من مساء الثاني من ايلول. ولكن اقتراح موسوليني كان في هذه اللحظة قد مات وانتهى ، وهو ما حاول شيانو ان يفهمه اياه . وكان البريطانيون في ذلك الوقت يلحفون عليه بتقديم انذار مشترك إلى برلين عند منتصف الليل .

وتوصلت الحكومة الفرنسية اخيراً إلى قرار قبل منتصف ليلة الثاني من ايلول . وابرق بونيه إلى كولوندر عند منتصف الليل تقريباً يبلغهفيه انه سينقل

اليه في الصباح نص « مذكرة جديدة » يتحتم عليه تقديمها عند الظهيرة إلى الويلهلمشتراسه .[1]

واتصل به فعلاً في الساعة العاشرة والدقيقة العشرين من صباح الثالث من ايلول . أي قبل أربعين دقيقة من انتهاء المهلة التي ضربها الانذار البريطاني ، وكان نص الانذار الفرنسي مماثلاً لانذار بريطانيا باستثناء ما اعلنته فرنسا من انها ستعمد في حالة تسلمها رداً سلبياً ، إلى الوفاء بالتزاماتها إلى بولندة « وهي الالتزامات التي تعرفها الحكومة الألمانية ». وهكذا ظل بونيه حتى هذه اللحظة النهائية ممتنعاً عن اصدار اعلان رسمي بالحرب .

ويحدد النص الذي نشره الكتاب الفرنسي الاصفر للانذار الذي ارسل الى كولوندر مدة انتهاء الانذار في الساعة الخامسة مساء . لكن هذه الساعة لم تكن الموعد الذي ضربته البرقية الاصلية فقد ابلغ السفير البريطاني في باريس فيبس ـ هاليفاكس في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والاربعين من الصباح ، يقول : « ابلغني بونيه ان الموعد الذي ضربه الانذار الفرنسي ينتهي في الساعة الخامسة من صباح الاثنين الرابع من ايلول » وكان هذا هو الموعد الذي حددته برقية بونيه فعلاً .

وعلى الرغم من ان هذا الاجراء مثّل تساهلاً حصل عليه ديلادييه صباح الاحد من هيئة اركان الحرب الفرنسية التي كانت تصر على مهلة ثمان واربعين ساعة بعد تسليم الانذار الى برلين عند الظهر ، إلا ان الموقف الفرنسي اثار سخط الحكومة البريطانية الذي اعربت عنه في رسالة بعثت بها الى باريس بعبارات واضحة كل الوضوح بعد ظهر ذلك اليوم . ووجه الرئيس ديلادييه نداء اخيراً الى العسكريين ، فاستدعى الفريق كولستون من هيئة اركان الحرب في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً وحثّه على تقصير المهلة . ووافق الفريق برماً على

---

١ ـ جدير بالقارىء ان يذكر ما قلناه قبل قليل من ان بونيه حتى بعد هذا الاجراء ، قام ببذل محاولة في اللحظة الاخيرة لابقاء فرنسا خارج الحرب باقتراحه الذي قدمه الى الايطاليين في الليل بأن يحملوا هتلر على القيام بانسحاب « رمزي » من بولندة .

تقديم موعده اثنتي عشرة ساعة ليصبح الموعد المضروب الخامسة مساء .

وهكذا بينما كان كولوندر على وشك مغادرة دار السفارة الفرنسية في برلين متجهاً الى الويلهلمشتراسه ، اتصل به بونيه هاتفياً ، واصدر اليه أمره بتعديل موعد ساعة الصفر . (١)

ولم يكن ريبنتروب حاضراً لمقابلة السفير الفرنسي عند الظهيرة . فلقد كان يشترك في حفله صغيرة في دار المستشارية ، اذ قدم اليكزاندر شكفارزيف السفير السوفياتي الجديد اوراق اعتماده الى الفوهرر الذي استقبله استقبالاً حاراً. ولا ريب في ان هذه المناسبة اضفت طابعاً غريباً على تلك الاحداث التاريخية التي جرت في عطلة الاسبوع في برلين . ولما كان كولوندر قد اصرّ على تنفيذ تعليماته بدقة ، وهي تقضي بزيارة الويلهلمشتراسه ظهراً ، فقد تولى وايزساكر استقباله. وعندما استعلم السفير من وزير الدولة عما اذا كان مخولاً في ان يقدم الى الفرنسيين رداً « مرضياً »، اجاب وايز ساكر بأنه ليس في وضع يمكنه من ان يقدم اليه « أي رد » .

وحدثت في هذه اللحظة المهيبة مهزلة دبلوماتية صغيرة . فعندما حاول كولوندر ان يعتبر رد وايز ساكر ، الجواب السلبي الألماني الذي كان يتوقعه تمام التوقع ، وان يسلم تبعاً لذلك انذار فرنسا الرسمي إلى وزير الدولة ، رفض هذا قبوله . واقترح ان يكون السفير « طيباً إلى الحد الذي يحمله على التمهل بعض الوقت ليجتمع إلى وزير الخارجية شخصياً » . وتحمل كولوندر هذه الصدمة ، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يصدم فيها ، فانتظر نحواً من نصف ساعة . وفي الساعة الثانية عشرة والنصف بعد الظهر طلب اليه التوجه إلى دار المستشارية لمقابلة ريبنتروب فيها . (٢)

وعلى الرغم من ان وزير الخارجية النازي كان يعرف ما يحمله السفير في رسالته ، إلا انه لم يستطع ترك الفرصة التي اتيحت له حتى ولو في هذه اللحظة

١ ـ يروي بونيه نفسه هذه القصة في الكتاب الفرنسي الاصفر ص ٣٦٥ .

٢ ـ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٥٣٢ .

الاخيرة لمعاملة المبعوث الفرنسي معاملة تنطوي على الخديعة ، منسجماً مع ما ألفه من خداع دوّنه التاريخ. فبعد ان ألمح إلى ان موسوليني في تقديمه اقتراحه السلمي في اللحظة الاخيرة ، قد اكد موافقة فرنسا على هذا الاقتراح ، اعلن ريبنتروب ان « المانيا !بلغت الدوتشي يوم امس استعدادها لقبول اقتراحه ايضاً » . واضاف الوزير الألماني « ولكن الدوتشي عاد يخبرنا في ساعة متأخرة من النهار ان عناد بريطانيا كان السبب في انهيار اقتراحه . »

ولكن كولوندر كان قد استمع في الاشهر الاخيرة إلى الكثير من أكاذيب ريبنتروب ، وبعد ان ظل يصغي بعض الوقت إلى وزير خارجية النازي الذي راح يقول انه سيأسف أشد الأسف إذا حذت فرنسا حذو بريطانيا العظمى ، وان المانيا لا تفكر مطلقاً بالهجوم على فرنسا ، وجه السفير السؤال الذي جاء خصيصاً يطلب الرد عليه ، وهو هل تعني ملاحظات السفير ان رد الحكومة الألمانية على المذكرة الفرنسية بتاريخ الأول من ايلول هو رد سلبي ؟

وأجاب ريبنتروب قائلا : نعم .

وهنا سلم السفير إلى الوزير انذار فرنسا مستهلاً إياه بملاحظة قال فيها « انه يود ان يؤكد للمرة الاخيرة مسؤولية حكومة الرايخ في الهجوم على بولندة دون اعلان للحرب » ، وكذلك في رفض الطلب الانكليزي ـ الفرنسي بسحب القوات الالمانية .

وقال ريبنتروب : إذن ستكون فرنسا هي المعتدية .

فرد كولوندر : سيقرر التاريخ من هو المعتدي .

ويبدو ان جميع المشتركين في ذلك الفصل الاخير من المسرحية في يوم الاحد ذاك في برلين كانوا مصممين على الاستشهاد بحكم التاريخ .

وعلى الرغم من ان فرنسا كانت تعبىء في ذلك الحين جيشاً يتفوق تفوقاً هائلاً في الوقت الحاضر على ما تستطيع المانيا دفعه من قوات إلى الجبهة الغربية ، إلا ان بريطانيا العظمى التي كان جيشها لا يكاد يذكر في ذلك الحين ، ظلت تحتل المكانة الأولى كالعدو الرئيسي في عقل هتلر المحموم ، وكالخصم الذي يعتبره

مسؤولاً كل المسؤولية عن الورطة التي وجد نفسه فيها في الثالث من ايلول عام ١٩٣٩ ، عندما بدأ هذا النهار يذوي ماضياً إلى ضباب التاريخ وقد تمثل هذا الوضع في البيانين الضخمين اللذين وجههما بعد ظهر ذلك اليوم إلى الشعب الألماني وإلى الجيش في الغرب . وسرعان ما تفجر حقده وغضبه الهستيري على البريطانيين فقال في النداء الذي وجهه إلى الشعب الألماني :

« واصلت بريطانيا عدة قرون متابعة هدفها في الابقاء على شعوب اوروبا عاجزة امام السياسة البريطانية في التوسع العالمي... كما واصلت ادعاء الحق في الهجوم لاسباب اوهن من خيوط العنكبوت لتحطيم اية دولة اوروبية تبدو كمصدر خطر عليها في أية آونة ...

« ولقد كنا نشهد سياسة التطويق التي اتبعتها بريطانيا العظمى ضد المانيا منذ الايام التي سبقت الحرب ... وظل دعاة الحرب البريطانيون يضطهدون الشعب الألماني في ظل املاءات معاهدة فرساي ...

وقال في ندائه الى الجنود الالمان في الجبهة الغربية الذين كانوا يواجهون الجيش الفرنسي منذ عدة اسابيع :

« يا جنود الجيش الغربي ... لقد واصلت بريطانيا العظمى سياسة تطويق المانيا ... ولقد صممت الحكومة البريطانية التي يوجهها دعاة الحرب الذين خبرناهم منذ الحرب الماضية ، على اسقاط القناع عن وجهها واعلان الحرب علينا بسبب اوهى من خيط العنكبوت ... »

وهكذا لم يتضمن النداءان أية اشارة إلى فرنسا .

* * *

والقى تشمبرلين في الساعة الثانية عشرة والدقيقة السادسة ظهراً ، خطاباً في مجلس العموم ، أبلغه فيه ان بريطانيا باتت في حالة حرب مع المانيا . وعلى

الرغم من ان هتلر كان قد حظر منذ اليوم الأول من ايلول الاستماع إلى الاذاعات الاجنبية فارضاً عقوبة الموت على المخالفين ، إلا اننا تمكنا في برلين من التقاط الكلمات التي قالها رئيس الوزراء على النحو الذي أوردته دار الاذاعة البريطانية وبدت لنا ، نحن الذين شهدنا هذا الرجل يقامر في كل من غودسبرغ وميونيخ بحياته السياسية ليرضي هتلر ، بدت كلماته مرة وحادة كل الحدة إذ قال :

« انه ليوم مؤلم لنا جميعاً ، ولا ريب في انه اكثر مدعاة لألمي انا بصورة شخصية . فقد انهار كل ما عملت له ، بل كل ما آمنت به في حياتي العامة متحولاً الى حطام . ولم يبق أمامي إلا شيء واحد اعمله ، وهو ان اكرس كل ما لدي من قوة وعزيمة ، لتحقيق النصر للقضية التي يتحتم علينا ان نضحي الكثير من اجلها . .

واني لواثق من انني سأعيش حتى أرى ذلك اليوم الذي تتحطم فيه الهتلرية ، وتشاد فيه من جديد أوروبا المتحررة » .

ولكن قدر لتشمبرلين ان لا يعيش حتى ذلك اليوم . فقد مات رجلاً محطماً وان ظل عضواً في الوزارة في التاسع من تشرين الثاني عام ١٩٤٠ . وبالنظر إلى كل ما اوردته عنه في هذه الصفحات أرى ان من المناسب كذلك ان انقل ما قاله عنه تشرشل ، الذي كان هو قد حرمه من العمل في الشؤون المتعلقة ببلاده امداً طويلاً ، والذي خلفه في رئاسة الوزراء في العاشر من ايار عام ١٩٤٠ . ففي الكلمة التأبينية التي ألقاها تشرشل في مجلس العموم في الثاني عشر من تشرين الثاني عام ١٩٤٠ قال :

« قدر لنيفيل تشمبرلين ان تناقضه الاحداث في ازمة من اشد الازمات التي مرّ بها العالم حراجة ، وان تنهار آماله ، وان يتولى رجل شرير خداعه وتضليله . ولكن ترى ما هي تلك الآمال التي انهارت ؟ وما هي تلك الرغبات التي منيت بالفشل ؟ وما هو الايمان الذي تعرض للاساءة ؟ لقد كانت جميعها من انبل الغرائز التي يستوعبها القلب البشري واكرمها . انها حب السلام ، والكدح

للسلام ، والنضال للسلام ، والعمل الدائب للسلام ، حتى ولو تعرض حاملها لأعظم المخاطر ، مستهيناً كل الاستهانة ، بالشعبية الرخيصة والهتاف الجماهيري » .

ولما أدرك هتلر ان دبلوماتيته قد فشلت في الابقاء على بريطانيا وفرنسا خارج نطاق الحرب ، راح يلتفت بعد ظهر ذلك اليوم الثالث من ايلول للشؤون العسكرية . واصدر توجيهه الثاني السري للغاية ، لإدارة دفة الحرب وتسييرها، وعلى الرغم من اعلان بريطانيا وفرنسا الحرب فقد قال : « يظل هدف المانيا الحربي في الوقت الحاضر الوصول بالعمليات العسكرية ضد بولندة إلى نهاية سريعة وظافرة... وسنترك للعدو زمام المبادرة في شن العمليات العسكرية في الغرب... ولكننا سنسمح بالعمليات البحرية الهجومية ضد المانيا » . وعلى السلاح الجوي الألماني ان لا يهاجم حتى القوات البحرية البريطانية إلا إذا شن البريطانيون هجمات مماثلة على الاهداف الألمانية ، وفي تلك الحالة لا نقوم بأي هجوم « إلا إذا كانت احتمالات النجاح مضمونة بشكل واضح » وأمر هتلر بتحويل صناعة المانيا كلها إلى عمليات « الاقتصاد الحربي » (١)

وغادر هتلر وريبنتروب ، كل منهما في قطار خاص، برلين في الساعة التاسعة مساء متجهين إلى القيادة العامة في الشرق . ولكنهما قاما قبل سفرهما بحركتين دبلوماتيتين أخريين . فلقد غدت بريطانيا وفرنسا الآن في حالةحرب مع المانيا. ولكن ظلت هناك دولتان اوروبيتان كبيرتان كان تأييدهما لهتلر ، هو السبب في تمكينه من القيام بمغامرته ، وهما ايطاليا الحليفة التي تنكرت له في اللحظة الاخيرة ، وروسيا السوفياتية ،التي شعر بفضلها رغم تشككه فيها ، لأنها جعلت مقامرته أمراً يستحق المجازفة .

وبعث هتلر قبل مغادرته العاصمة برسالة اخرى إلى موسوليني . وقد طيرها برقياً في الساعة الثامنة والدقيقة الخمسين مساء ، أي قبل تسع دقائق من تحرك قطار الفوهرر الخاص من المحطة . وعلى الرغم من ان هذه الرسالة لا تخلو كلية

---

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٥٤٨ ــ ٥٤٩ .

من الخديعة ولا تتسم بالصراحة المطلقة إلا انها تقدم لنا الصورة المثلى التي نستطيع الوصول اليها عن عقل ادولف هتلر ، وهو يغـــادر للمرة الأولى عاصمة الرايخ الثالث التي اخذت بنظام « التعتيم »، ليمثل دوره كالسيد الاعلى للحرب الالمانية. وقد عثر على صورة هذه الرسالة في الوثائق الالمانية المصادرة .... قال هتلر :

« الدوتشي :

« أود ان اشكرك أولاً على المحاولة الاخيرة التي قمت بهـــا للتوسط . وكان في ودي ان اقبل باقتراحك غير مشترط إلا شرطاً واحداً ، وهو العثور على سبيل يتيـح لي الحصول على الضمانات الـكافية بأن المؤتمر سيكون ناجحاً . فلقد كانت القوات الألمانيـة تشترك منذ يومين في زحف سريـع عبر بولندة . وكان من المتعذر عليّ ان اسمح للدم الذي سفك هنـــاك بأن تضيعه الدسائس الدبلوماتية .

« ومع ذلك ، فأنا اعتقد انه كان في الامكان العثور على هـذا السبيل ، لو أن انكلترا لم تكن مصممة منذ البدايـة على خوض الحرب في أية حالة من الاحوال . ولم ارضخ لتهديدات انكلترا لأني لا اعتقد يا دوتشي ان السلام كان سيستقر لمـــدة تطول عن الستة اشهر أو السنة على اكثر تقدير . ورأيت في مثل هذه الظروف ان اللحظة الراهنة ، كانت على الرغم من أي شيء ، اكثر صلاحـــاً للصمود من أي وقت آخر .

« وسينهار الجيش البولندي في وقت قريب جداً . واني لأشك كل الشك في انه كان بالامكان تحقيق مثل هذا النجاح السريع بعد عام أو عامين . فمن المؤكد ان انكلترا وفرنسا كانتـا ستمضيان حتماً في تسليح حلفائهما ، إلى الحد الذي لا يبيت فيه تفوق الجيش الألماني الحاسم تفوقاً تقنياً، واضحاً على النحو الذي يظهر فيه الآن. واني لأعرف يا دوتشي ان الصراع الذي أشتبك فيه الآن هو صراع

حياة أو موت ... ولكنني اعرف ايضاً بأن ليس في الامكان تجنب هذا الصراع في النهاية ، وانه كان لا بد من اختيار لحظة المقاومة بعد دراسة كاملة ، ليتحقق ضمان النجاح ، واني يا دوتشي لواثق من هذا النجاح بإيمان اقوى من الصخر » .

وراح بعد ذلك يتلو بعض عبارات الإنذار لموسوليني :

« لقد تفضلت فأكدت لي مؤخراً إيمانك بقدرتك على مساعدتي في بعض الميادين . واني لاشكرك مقدماً شكراً خالصاً على هذا العرض الذي اقبله . ولكنني واثق ايضاً ، من اننا حتى ولو سار كل منا في طريق منفصل ، فإن المصير سيربطنا إلى بعضنا البعض . إذ لو تمكنت الديموقراطيات الغربية من تحطيم الاشتراكية الوطنية فإن ايطاليا الفاشية ايضاً ستواجه مستقبلاً قاسياً . ولقد كنت أعرف شخصياً منذ أمد بعيد ان مستقبل نظامينا مترابط ، وليس لديّ من شك يا دوتشي في انك تشاطرني هذا الرأي .

وبعد ان سرد على مسامع صديقه الانتصارات الأولية التي حققتها المانيا في بولندة انتهى من رسالته قائلاً :

« سأظل في موقف الدفاع في الجبهة الغربية . وفي وسع فرنسا ان تسفك دماء ابنائها هناك اولاً . ولكن اللحظة ستحين عندما نستطيع ان نثيرها حرباً ضروساً هناك بكل ما في بلادنا من قوة .

« أرجو ان تقبل مرة أُخرى شكري الصميم ، يا دوتشي ، لكل ما قدمته إلي في الماضي من عون ، راجياً ان لا تضن به علي ايضاً في المستقبل »

ادولف هتلر » [1]

وظل هتلر على أي حال مسيطراً كل السيطرة على مشاعره وعلى ما أحس به من خيبة أمل لأن ايطاليا لم تف بألتزاماتها حتى بعد ان دنت بريطانيا وفرنسا

١ ــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ٥٣٨ ــ ٥٣٩ .

بالتزاماتها بأعلان الحرب في هذا اليوم ، فبقاء ايطاليـــا صديقة له حتى ولو لم تشترك في الحرب قد يكون ذا نفع كبير له .

ولكن في وسع روسيا ان تقدم اكبر عونٍ له .

فمنذ اليوم الأول من بدء الهجوم الألمـــاني على بولندة . قدمت الحكومة السوفياتية ، كما اثبتت الأوراق السرية النازية فيما بعد ، خدمـــات « اشارة » للسلاح الجوي الألماني . وكان الفريق هانز جيشونيك رئيس هيئة اركان حرب الطيران الألماني قد اتصل منذ ساعات الصباح الباكر بسفارة المانيا في موسكو قائلاً لها انه يود لو ان محطة « الاذاعة » الروسية في منسك تواصل اعطـــاء الاشارات عن نفسها ليتمكن طياروه من الافادة من هذه المساعدة الملاحية في قصف بولندة أو في إجراء « التجارب الملاحية العاجلة » . وتمكن السفير فون دير شولنبرغ بعد ظهر اليوم نفسه من ابلاغ برلين بأن الحكومة السوفياتيـــة «على استعداد لتنفيذ هذه الرغبة » فقد وافق الروس على ادخال عنصر «التعريف بالمحطة » ضمن البرامج على اجهزة ارسالها وان تمدد فترة الارسال من محطة منسك ساعتين لتضمن بذلك مساعدة الطيارين الألمان في غاراتهم الليلية . [1]

ولكن هتلر وريبنتروب عند مغادرتهما برلين في ساعة متأخرة من بعد ظهر الثالث من ايلول ، كانا يفكران بمساعدة روسية عسكرية اكثر اهمية لتحقيق خطتهما في احتلال بولندة . وبعث ريبنتروب في الساعة السادسة والدقيقـــة الخمسين مساء برسالة « عاجلة جداً » إلى سفارته في موسكو . وقد حملت الرسالة عبارة «سري للغاية» ووجهت إلى السفير وحده، بوصفه رئيس البعثة او من يمثله شخصياً ، ثم ذكرت في استهلالها « يجب اتخاذ الاجراءات الكافية للحفاظ على سرية الرسالة . على السفير وحده ان يحل رموزها . سرية للغاية » .

وهكذا دعا الألمان في منتهى السرية الاتحـــاد السوفياتي إلى الاشتراك في الهجوم على بولندة ... وقد جاء في الرسالة :

« اننا نتوقع بكل تأكيد الانتصار على الجيش البولندي نصراً

---

١ ـــ وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ٤٨٠ .

حاسماً في غضون بضعة اسابيع . وفي مثل هذه الحالة سنحتفظ بالمنطقة المحددة في اجتماع موسكو كمنطقة نفوذ المانية خاضعة للاحتلال العسكري . ولكننا سنضطر بالطبع ، لاسباب عسكرية إلى مواصلة العمل العسكري ضد القوات البولندية الحربية الموجودة حالياً في الاراضي البولندية المخصصة كمناطق نفوذ لروسيا .

« أرجو ان تبحث في هذا الموضوع فوراً مع مولوتوف وان تتأكد ما إذا كان الاتحاد السوفياتي يرى من المرغوب فيه بالنسبة إلى القوات السوفياتية ان تتقدم في الوقت المناسب ضد القوات البولندية في منطقة النفوذ الروسية ، وان تتولى هي احتلال المنطقة ونحن نرى في هذه الخطوة لا مجرد عون لنا ،بل وتمشياً مع روح اتفاق موسكو ومع مصلحة السوفيات ايضاً » [١]

أما ان يكون هذا العمل الذي ينطوي على الشر من جانب الاتحاد«السوفياتي» عوناً لهتلر وريبنتروب ، فهذا أمر واضح لا يحتاج إلى دليل . ولن يقتصر أثر هذا العمل على تجنب سوء التفاهم والاحتكاك بين الألمان والروس في اقتسام الغنائم فحسب وانما يرفع شيئاً من عبء العدوان النازي وجريرته عن المانيا ليلقي به على اكتاف الاتحاد السوفياتي ، وإذا كان لا بد وان تقتسم الدولتان الغنم ، فليس ثمة ما يحول دون اقتسامها الغرم واللوم ايضاً .

وكان الاميرال ايريك ريدر القائدالعام للاسطول الألماني هو اكثر الماني ، ذي مكانة ، تجهماً في برلين في ذلك اليوم الاحد ، عندما اتضح ساعة الظهيرة ان بريطانيا غدت في حالة حرب مع المانيا . فقد داهمته الحرب قبل الموعد المقرر لها بأربع سنوات أو خمس ، وكان يتوقع إكمال خطة (Z) لبناء الاسطول الألماني الجديد في عام ١٩٤٤ — ١٩٤٥ ، حين يصبح لألمانيا اسطول ضخم تستطيع ان تواجه به الاسطول البريطاني. ولكن ألمانيا اصبحت في حالة حرب مع بريطانيا في الثالث من ايلول عام ١٩٣٩ ، وكان ريدر يعرف حتى ولو لم

١ ــ نص البرقية ــ وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٧) ص ٥٤٠ ــ ٥٤١ .

يستمع اليه هتلر ، انه لا يملك البوارج ولا حتى الغواصات التي تمكنه من شن حرب فعالة على بريطانيا العظمى .

وراح الاميرال يسر بهمومه إلى يومياته فكتب يقول :

« لقد نشبت الحرب اليوم مع فرنسا وانكلترا ، على الرغم من وعود الفوهرر السابقة لنا ، بأن لا نتوقع نشوبها قبل عام ١٩٤٤ ، وقد اعتقد الفوهرر حتى اللحظة الاخيرة ان بأمكانه تجنبها ، حتى ولو عنى ذلك تأجيل التسوية النهائية للمشكلة البولندية...

« ومن الواضح بالنسبة إلى الاسطول ، انه غير مجهز تجهيزاً كافياً لخوض الصراع الكبير مع بريطانيا العظمى ... وما زال سلاح الغواصات اضعف بكثير من ان يكون له أي تأثير حاسم على الحرب . أما البوارج الحربية فهي اقل شأناً في عددها وفي قوتها من بوارج الاسطول البريطاني ، ولن يكون في وسعها ، حتى ولو اظهرت كل ما لديها من قوة، ان تصمد لوحدات الاسطول البريطاني إلا إذا ارادت ان تقيم الدليل على انها تحسن صناعة الموت والاستشهاد . »

ومع ذلك فقد وجه الاسطول الألماني ضربته الأولى في الساعة التاسعة من مساء الثالث من ايلول عام ١٩٣٩ عندما كان هتلر يغادر محطة برلين . فلقد قامت الغواصة الألمانية (يو ــ ٣٠) بنسف الباخرة البريطانية اثينيا دون إنذار على بعد مائتي ميل إلى الغرب من جزر الهيبريديز ، وهي في طريقها من ليفربول إلى مونتريال حاملة ١٤٠٠ راكب فقد منهم (١١٢) ارواحهم وبينهم ثمانية وعشرون امريكياً .

وهكذا بدأت الحرب العالمية الثانية .

فهرست القسم الثاني

انتهى الكتاب الثالث

وبانتهائه

وصلنا إلى خاتمة القسم الثاني

٤٨٩ — ١١ — ٦٢